التراث

لطائف الإشارات

تفسير صوفى كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيرى

قدم له وحققه وعلق عليه

دكتور إبراهيم بسيونى

المجلد الثالث

الطبعة الرابعة

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثالث

الطبعة الثالثة

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« طس تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين »

. . . تلك دلالاتُ كَرَمِنا ، وأماراتُ فَضْلِنا ، وشواهد بِرِّنا ؛ نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا ، ونحقق للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنا . بطهارة قُدْسِي وسناءِ عِزِّى لا أخيب أَمَلَ مَنْ أَمَّلَ لُطْفِى ، بوجود بِرِّى تطيب قلوبُ أوليائى ، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفيائى .

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفى ، وسَعْىُ العاملين مشكورٌ بعطفى . هذا الكتابُ بيانٌ وشفاء ، ونور وضياء ، وبشرى ودليل لِمَنْ حَقَّقْنا له الإيمان ، وأكّدنا له الضمان ، وكفلنا له الإحسان »

عبد الكريم القشيرى

عند سورة النمل

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز يرتضى من الزاهد تَرْكَ دنياه ، ومِنَ العابدِ مخالفة هواه ، ومن القاصدِ قَطْعَ مُناه ، ولا يَرْضَى مِنَ العارفِ أَنْ يُساكِنَ شيئاً غيرَ مولاه . إنْ خَرَجَ عن كُلِّ مرسومٍ — بالكلية ، وانسلخ عن كل معلومٍ — مِنْ غير أن تبقى له منه بقية فلعلَّه يَجِدُ شظيَّةً . وإنْ عَرَّجَ على شيء ، ولم يَصْفُ من الكدورات ـ حتى عن يسيرها ـ وإنْ دَقَّ ـ فإنه كما فى الخبر : « المُكَاتَبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عليه درهم » .

قوله جل ذكره : « طسم * تلك آياتُ الكتاب المبين »

ذَكَرْنا فيما مضى اختلافَ السَّلَفِ فى الحروف المُقَطَّعة ؛ فعند قوم : الطاء إشارة إلى طهارة عِزِّه وتَقَدُّسِ عُلُوِّه ، والسين إشارةٌ ودلالةٌ على سناء جبروته ، والميم دلالةٌ على مَجْدِ جلاله فى آزاله .

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى ، والسين إلى سِدْرَةِ المُنتهى ، والميم إلى اسم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى ارتقى محمدٌ ليلةَ الإسراء عن شهوده شجرةَ طوبى حتى بَلَغَ سدرةَ المنتهى ، فلم يُسَاكِنْ شيئاً من المخلوقات فى الدنيا والعُقْبَى [1] .

---

(١) أورد القشيرى في كتابه « المعراج » طائفة كبيرة من الأخبار نفهم منها أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه لم يتطلع إلى شيء مما رأى من عجائب المخلوقات وعظائم النعم في تلك الليلة ، بل كان خالص القصد إلى الحق ، وبعبارة صوفية دقيقة : كان فانياً بحقوق ربه عن حظوظ نفسه ، فما زاغ البصر وما طغى . وفي ذلك يقول رويم : «لما أكرم المصطفى (ص) بأعظم الشرف في المسرى علت همته عن الالتفات إلى الآيات والكرامات ، والجنة والنار ، فما زاغ البصر ؛ أى ما أعار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استقلَّ الأنهار والأودية . (المعراج ص ١١٢)

ويقول القشيرى فى ص ١٠٢ من الكتاب نفسه: يروى فى الخبر أنه «لما ركب البراق لم يعرِّج على شيء،=

ويقال الطاء طَرَبُ أربابِ الوصلة على بساط القرب بوجدان كمال الروح ، والسين سرورُ العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستقلالهم بوجوده[1] والميم إشارة إلى موافقتهم لله بِتَرْكِ التخيُّر على الله ، وحُسْنِ الرضا باختيار الحق لهم .

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طيبِ قلوب الفقراء عند فقد الأسباب لكمال العَيْشِ بمعرفة وجود الرزّاق بَدَلَ طيب قلوب العوام بوجود الأَرْفاق والأرزاق .

ويقال الطاء إشارةٌ إلى طهارة أسرار أهل التوحيد ، والسين إشارة إلى سلامة قلوبهم عن مساكنة كلِّ مخلوق ، والميم إشارة إلى مِنَّةِ الحقِّ عليهم بذلك .

قوله جل ذكره : « لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ألا يكونوا مؤمنين » .

أي لِحِرْصِكَ على إيمانهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فأنت قريبٌ مِنْ أَنْ تقتلَ نَفْسَكَ من الأسفِ على تَرْكِهم الإيمان .

فلا عليكَ — يا محمد — فإنه لا تبديلَ لِحُكْمِنا ، فَمَنْ حَكَمْنا له بالشقاوة لا يُؤْمِن . ليس عليكَ إلا البلاغ ؛ فإنْ آمنوا فبها ، وإلاَّ فَكَلُّهُم[2] سَيَرَوْنَ يومَ الدِّين ما يستحقون .

قوله جل ذكره : « إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عليهم من السماء آيةً فَظَلَّت أعناقُهم لها خاضعين » .

أخبر عن قدرته على تحصيلِ مرادِه من عباده ، فهو قادرٌ على أنْ يُؤْمِنوا كَرْهاً ؛ لأن التقاصُرَ عن تحصيل المرادِ يوجِبُ النقصَ والقصورَ في الألوهية .

قوله جل ذكره : « وما يأتيهم مِّن ذِكْرٍ من الرحمن مُحْدَثٍ إلاَّ كانوا عنه معرضين » .

= كان يُنَادَى من يمينه ومن يساره ، ثم قال له جبريل عليه السلام : الذي ناداك من يمينك داعي اليهودية ، والذي ناداك من يسارك داعي النصرانية ، ولو التفتَّ يا محمد لتهودت أو تنصرت أمتك » .

(١) استقل الشيء رآه قليلا واستقل بالشيءُ لم يشتغل بسواه اكتفاءً به .

(٢) السياق مقبول على هذا النحو ، ولكننا لا نستبعد أن يكون هناك سقوط لكلمة « لنا » ، وعندئذ يكون السياق « فكلهم لنا ؛ .... » .

أى ما نُجَدِّد لهم شَرْعًا ، وما نرسل لهم رسولاً . . إلا أعرضوا عن تأمل برهانه ، وقابلوه بالتكذيب . فلو أنهم أنعموا النظرَ فى آياتِ الرسل لاتضح لهم صِدْقُهم ، ولكن المقسوم لهم من الخذلان فى سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق . فقد كَذَّبوا ، وعلى تكذيبهم أَصَرُّوا ، فسوف تأتيهم عاقبةُ أعمالِهم بالعقوبة الشديدة ، فيذوقون وبالَ شِرْكهم .

قوله جل ذكره : « أو لم يَرَوْا إلى الأرضِ كم أَنْبَتْنَا فيها من كل زَوْجٍ كريم * إنَّ فى ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين * وإنَّ رَبَّكَ لهو العزيزُ الرحيمُ » .

فنونُ ما ينبت فى الأرضِ وقتَ الربيع لا يأتى عليه الحَصْرُ ، ثم اختصاصُ كلٍّ شىء منها بلون وطعمٍ ورائحة مخصوصة ، ولكلٍّ شكلٌ وهيئةٌ ونَوْرٌ مخصوص ، وورق مخصوص . . . إلى ما تَلْطُفُ عنه العبارة ، وتَدِق فيه الإشارة . وفى ذلك آياتٌ لِمَنْ استبصر ، ونَظَرَ وفَكَّرَ .

«وإن ربك لهو العزيز»:القاهرُ الذى لا يُقْهَر ، القادر الذى لايُقْدَر ، المنيعُ الذى لا يُجْبَر. « الرحيم » : المحسنُ لعباده ، المريدُ لسعادة أوليائه .

قوله جل ذكره : « وإذ نادىٰ ربُّكَ موسىٰ أنِ ائْتِ القومَ الظالمين * قومَ فرعونَ ألا يتقون » .

أخبر أنه لما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عَلِمَ أنه شديد الخصومة ، قد غَرَّتْه نَفْسُه فهو لا يبالى بما فعل . وأخَذَ (موسى)[1] يتعلَّلُ — لا على جهة الإباء والمخالفة — ولكن على وجه الاستعفاء والإقالة إلى أن عَلِمَ أنَّ الأمرَ به جَزْمٌ ، والحُكْمَ به عليه حَتْمٌ .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ إنِّى أخاف أن يُكَذِّبون * ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسِلْ

---

(١) ليست موجودة فى النص وقد وضعناها بين قوسين منعاً للبس .

إلى هارون * ولهم عليّ ذنبٌ فأخاف
أن يَقتُلونِ ».

سأل موسى — عليه السلام — أن يَشفعَه بهارون ويُشركَه في الرسالة . وأخبر أنه قَتَلَ نفساً ، وأنه في حُكمِ فرعون عليه دَمٌ ، فقال : « فأخاف أن يقتلون » إلى أنْ قال له الحقُّ : —

« قال كَلاَّ فاذهبا بآياتنا إنَّا معكم مستمعون » .

« كلا » حرفُ رَدْعٍ وتنبيه ؛ أى كلا أن يكون ذلك كما توهمتَ ، فارْتَدِعْ عن تجويز ذلك ، وانتَبِهْ لغيره . إنى معكما بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة ، واليدُ ستكون لكما ، والسلطانُ سيكون لكما دونَ غيركما ، فأنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم ، وأُبصِرُ ما يُبْصِرُون وما تُبْصِرُون أنتم .

قوله جل ذكره : « فأْتِيَا فرعونَ فقولا إنَّا رسولُ ربِّ
العالَمين » .

ويقال في القصة : إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنةً كاملةً ولم يجدا طريقاً إليه . ثم بعد سَنَةٍ عَرَضاَ الرسالة عليه ، فقابلهما بالتكذيب ، وكان من القصة ما كان ..
وقال فرعون لمَّا رأى موسى :

« قال أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وليداً ولَبِثْتَ فينا من عمرك
سنين * وفعلتَ فَعْلتَكَ التي فعلتَ وأنت من الكافرين »

فلم يكن لموسى — عليه السلام — جوابٌ إلا الإقرارَ والاعترافَ ، فقال :

« قال فعلتُها إذاً وأنا من الضالين * ففررْتُ منكم لمَّا
خِفْتُكمْ فوهب لى ربى حُكْماً وجَعَلَنى من المرسلين »

قال : كل ذلك قد كان ، وفررت منكم لمَّا خفتكم ، فأكرمنى الله بالنبوة ، وبعثنى رسولاً إليكم ..

ويقال : لم يجحد حقَّ تربيته ، والإحسانَ إليه في الظاهر ، ولكن بَيَّنَ أنه إذا أمر اللهُ بشيء وَجَبَ اتباعُ أمره . ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجِبُ حَقّاً فتربيةُ اللهِ أَوْلَى بأن يُعَظِّمَ العبدُ قَدْرَها[1] .

قوله : « ففررت منكم لما خفتكم » : يجوز حَمْلُه على ظاهره ، وأنه خاف منهم على نَفْسِه . والفرارُ ـ عند عَدَمِ الطاقة ـ غيرُ مذمومٍ عند كلِّ أحد[2] .

ويقال : فررت منكم لمَّا خِفْتُ أن تنزل بكم عقوبةٌ من الله لِشُؤْمِ شِرْكِكم ، أو من قول فرعون : « ما علمت لكم من إله غيرى »[3] .

قوله جل ذكره : « وتلك نعمةٌ تَمُنُّها عليَّ أنْ عَبَّدت بنى إسرائيل »

ذَكَرَ فرعونُ — من جملة ما عدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه — أنه استحياه بين بنى إسرائيل ، ودفع عنه القتلَ ، فقال موسى : أَوَ تلك نعمة تمنها عليَّ ؟ هل استعبادُك لبنى إسرائيل يُعَدُّ نعمةً ؟ إنَّ ذلك ليس بنعمة ، ولا لَكَ فيها مِنَّة[4] .

قوله جل ذكره : « قال فرعون وما رَبُّ العالمين ؟ »

نَظَرَ اللعينُ بجهْلِه ، وسَأَلَ على النحو الذى يليق بِغَيِّه ؛ فسأل بلفظ « ما » — و « ما » يُسْتَخْبَرُ بها عمَّا لا يعقل ، فقال : « وما ربُّ العالمين ؟ » .

ولكنَّ موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه ، وأخبر عمَّا يصحُّ فى وصفه تعالى فقال :

« قال ربُّ السمواتِ والأرضِ
وما بينهما إنْ كُنتم موقنين » .

---

(١) هذه إشارة إلى قيمة تربية الشيوخ بالقياس إلى تربية الوالدين ؛ فالوالدان يربيان الأشباح والشيوخ يربون الأرواح .

(٢) نتذكر كيف فر القشيرى نفسه من المشرق الإسلامى عندما أحدقت به الأخطار ، وهدد السلطان الجائر حياته وعقيدته ، فلم تلن قناته ، وهرب بعقيدته إلى حيث يسلم هو ورفاقه (أنظر مدخل الكتاب) .

(٣) آية ٣٨ سورة القصص .

(٤) لأن تعبيدهم وذبح أبنائهم هما سببا حصوله عنده وتربيته له ؛ ولو تركهم لرباه أبواه شأن أى طفل .. فليس هنا نعمة ولا منة ، لأن القصد كان إذلال أهله لا الإحسان إليهم أو إليه .

فَذَكَرَ صفتَه ــ سبحانه وتعالى ــ بأنّه إلهٌ ما فى السموات والأرض ، فأخذ فى التعجب ، وقال :

« قال لِمَنْ حَوْلَه ألا تستمعون ؟ * قال
ربُّكُم ورَبُّ آبائِكم الأولين » .

قال موسى : « ربكم ورب آبائكم الأولين » لحادَ فرعونُ عن سَنَنِ الاستقامة فى الخطاب ، وأخذ فى السفاهة قائلاً :

« قال إنَّ رسولَكم الذى أُرْسِلَ
إليكم لمَجْنون » .

لأنه[1] يزعم أنَّ هناك إلهًا غيرَه . ولم يكن فى شىء مما يجرى من موسى ـ عليه السلام ـ أو مما يتعلّق به وصفُ جنونٍ . ولم يُشْغَلْ بمجاوبته فى السفاهة فقال :

« قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما
إن كنتم تعقلون » .

أى إنْ كنتم من جملة مَنْ له عقلٌ وتمييزٌ . فقال فرعون :

« قال لَئِن اتخذتَ إلهًا غيرى
لأجعلنَّكَ من المسجونين » .

مضى فرعونُ يقول : لأفعلنَّ ، ولأصنعنَّ ... إنِ اتخذتَ إلهًا غيرى . وجرى ما جرى ذِكْرُه وشَرْحُه فى غير موضع .

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا ، وقلبَها ـ سبحانه ـ ثعبانًا كاد يلتقم دارفرعون بمن فيها ، ووثَبَ فرعونُ هاربًا ، واختفى تحت سريره ، وهو ينتفض من الخوف ، وتَلَطَّخَتْ بِزَّتُه[2] ، وافتضح فى دعواه ، واتضحت حالته ، فاستغاث بموسى واستجاره ، وأخذ موسى الثعبانَ فردَّه اللهُ عصًا .

---

(١) أى موسى عليه السلام .

(٢) البزة = الهيئة أو الشارة .

ولمّا فارَقَه موسى ـ عليه السلام ـ تداركته الشقاوة ، وأدركه شؤمُ الكفر ، واستولى عليه الحرمانُ ، فجَمَعَ قومَه وكلّمهم فى أمره ، وأجمعوا كلّهم على أنه سَحَرَهم . وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيِّه .. كما قيل :

إذا ارعَوَى عادَ إلى جَهْلِه كَذِى الضَّنَى عاد إلى نُكْسِه

ثم إنه جمعَ السَّحَرَةَ ، واستعان بهم ، فلمّا اجتمعوا قالوا : « إنَّ لنا لأجراً » . فمِنْ خساسة هِمّتهم ، فضَمَنَ لهم أجْرَهم . وإنَّ مَنْ يعملْ لغيره بأجْرَةٍ ليس كمَنْ يكون عمله لله . ومَنْ لا يكون له ناصرٌ إلاَّ بضمانِ الجَعَالة وبَذْلِ الرِّشا فعَنْ قريبٍ سيُخْذَل .

قوله جل ذكره : « قال نعم وإنكم إذاً لمن المقرَّبين » .

قال فرعون: «وإنكم إذاً لمن المقربين» ، ومَنْ طَلَبَ القربةَ عند مخلوق فإنَّ ما يصل إليه من الذُّلِّ يزيد على ما أمَّلَه من العزِّ فى ذلك التقرُّب . والمقرَّبون من الله أوَّلُ مَنْ يدخل عليه يومَ اللقاء ، فهم أولُ مَنْ لهم وصولٌ . والمُقرَّبون من الله لهم على الله دَخْلَة ، والناسُ بوصف الغفلة والغَلَقُ فى أسْرِ الحجبة .

ثم لمّا اجتمع الناسُ ، وجاء السَّحَرةُ بما موَّهُوا ، التقمَتْ عصا موسى جميعَ ما أتوا به ، وعادت عصاً ، وتلاشت أعيانُ حِبالِهم[1] التى جاءوا بها ، وكانت أوقاراً ، وأُلْقِىَ السحرةُ سُجَّداً ، ولم يحتفلوا[2] بتهديد فرعون إياهم بالقتْل والصَّلْب والقَطْع ، فأصبحوا وهم يقسِمُون بعِزَّة فرعون ، ولم يُمْسُوا حتى كانوا يقولونَ : « لن نؤثرك على ما جاءنا من البيِّنات[3] » .

ثم لمّا ساعَدَهم التوفيقُ ، وآمنوا بالله كان أهمُّ أمورِهم الاستغفارُ لِمَا سَلَفَ من ذنوبهم ، وهذه هى غايةُ هِمّةِ الأولياء ، أن يستجيروا بالله ، وأن يستعيذوا من عقوبة الله ، فأعْرَفُهم بالله أخْوَفُهم مِنَ الله .

---

(١) يتصل ذلك برأى القشيرى فى المعجزة وأنها قد تكون قلب الأعيان ، أما كرامة الولى فقد لا تكون كذلك ، وهى مع ذلك متصلة بنبى الأمة التى يتبعها هذا الولى .

(٢) وردت (يختلفوا) والسياق يرفضها ويؤيد (يحتفلوا) كما هو واضح .

(٣) آية ٧٢ سورة طه .

ويقصد القشيرى إلى أن يوضح أن العبرة بالخواتيم ، وهو بهذا يحث – بطريق غير مباشر – على التوبة ، وعدم القنوط من رحمة الله .

ولمّا أمَرَ اللهُ موسى بإخراج بنى اسرائيـــل ، وتَبِعَهم فرعونُ بجَمْعِه ، وقال أصحابُ موسى.

« فَلمّا تَراءا الجمعانِ قال أصحابُ موسى
إنّا لَمُدْرَكون * قال : كَلّا
إنّ معى ربى سيَهْدِين » .

فــكان كما قال ، إذ هداهم اللهُ وأنجاهم ، وأغْرَقَ فرعونَ وقومَه وأتباعهم ، وقد قال سبحانه : « واعلموا أنّ الله مع المتقين »[1]: يُنَجّيهم من كلّ بلاء ، ويَخُصُّهم بكل نعمة .

قوله جل ذكره : « واتلُ عليهم نبَـأَ إبراهيم * إذ قال
لأبيه وقومه ما تَعْبُدُون * قالوا نَعْبُدُ
أصناماً فَنَظَلُّ لها عاكفين * قال هل
يسمعونكم إذ تَدْعون ؟ * أو ينفعونكم
أو يَضُرُّون ؟ * قالوا بل وَجَدْنا آباءنا
كذلك يفعلون » .

عاتب[2] ابراهيمُ أباه وقومَه ، وطالَبهم بالحجة على ماعابَهم به وقال لِمَ تعبدون مالا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ؛ ولا ينفع ولا يَضُرُّ ، ولا يُحِسُّ ولا يَشْعُر ؟ فلم يرجعوا فى الجواب إلا إلى تقليدهم أسلافَهم ، وقالوا :

على هذه الجملة وَجَدْنا أسلافَنا . فنطق إبراهيمُ - عليه السلام - بعد إقامةِ الحجة عليهم والإخبارِ عن قبيح صنيعهم بمَدْح مولاه والإغراق فى وصفه ، وقال :

« قال أفرأيتم ما كنتم تعبــدون *
أنتم وآباؤكم الأقْدَمون * فإنّهم عدوٌّ لى
إلاّ رَبَّ العالمين » .

---

(١) آية ٣٦ سورة التوبة .

(٢) ربما كانت (عاب) بدليل قوله بعد قليل (على ما عابهم) ، لكن السياق يلتئم بـ (عاتب) أكثر ، إذ العتاب أليق بالنسبة للأب ، كذلك فإن ابرهيم لم يكن يدرى فى ذلك الوقت أن أباه لن يؤمن .

ذَكَرَهم بأقلِّ عبارة فلم يقل : فإنهم أعداء لى ، بل وَصَفَهم بالمصدر الذى يصلح أن يوصَفَ به الواحد والجماعة فقال : « فإنهم عدو لى » .

ثم قال : « إلا ربَّ العالمين » ، وهذا استثناء منقطع ، وكأنه يضرب بلطفٍ عن ذِكْرِهم صفحاً حتى يتوصَّلَ إلى ذكر الله ، ثم أخذ فى شرح وصفه كأنه لا يكاد يسكت ، إذ مضى يقول : والذى .. والذى .. والذى .. ، ومن أمارات المحبة كَثْرَةُ ذِكْرِ محبوبك ، والإعراضُ عن ذكرِ غيره ، فتَنَزُّهُ المحبين بتقلُّبِهم فى رياض ذِكْرِ محبوبهم ، والزُّهَّادُ يعددون أورادَهم ، وأربابُ الحوائج يعددون مآربَهم ، فيطنبون فى دعائهم ، والمحبون يُسْهبون فى الثناء على محبوبهم .

قوله جل ذكره : « الذى خَلَقنى فهو يَهْدِينِ » .

كان مهتدياً ، ولكنه يقصد بالهداية التى ذَكَرَها فيما يستقبله من الوقت ، أى : يهدينى إليه به ، فإنِّى مَحْوٌ فى وجوده وليس لى خَبَرٌ عنِّى !

والقوم حين يكونون مستغرقين فى نفوسهم لا يهتدون من نفوسهم إلى معبودهم ، فيهديهم عنهم إلى ربهم ، ويصيرون فى نهايتهم مستهلَكين فى وجوده ، فانين عن أوصافهم ، وتصير معارِفُهم - التى كانت لهم - واهيةً ضعيفةً ، فيهديهم إليه[1] .

قوله جل ذكره : « والذى هو يُطْعِمُنِى ويَسْقِينِ » .

لم يُشِرْ إلى طعامٍ معهودٍ أو شرابٍ مألوفٍ ولكن أشار إلى استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم ، وإلى شراب محبته الذى يقوم بدل استقلال غيره بشرابهم .

قوله جل ذكره : « وإذا مَرِضْتُ فهو يَشْفِينِ » .

لم يَقُلْ : وإذا أمرضنى لأنه حفظ أدبَ الخطاب .

---

(١) يشرح القشيرى قول الواسطى : لا تصح المعرفة وفى العبد استغناء بالله وافتقار . فيقول : أراد الواسطى بهذا أن الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته . (الرسالة ص١٥٥) وقال ذو النون : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى (الرسالة ص ١٥٦) .

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً ، ولكنه أراد تمارضاً ، كما يتمارض الأحبابُ طمعاً في العيادة ، قال بعضهم :

إنْ كان يمنعكَ الوشاةُ زيارتي فادخُلْ عليَّ بِعِلَّةِ العُوَّادِ

ويقول آخر :

يَوَدُّ بأنْ يمشي سقيماً لَعَلَّها إذا سَمِعَتْ منه بشَكْوى تُراسِلُه

ويقال ذلك الشفاء الذي أشار إليه الخليلُ هو أن يَبْعَثَ إليه جبريلَ ويقول له : يقول لكَ مولاكَ . . . كيف كنتَ البارحة ؟

قوله جل ذكره : « والذى يُميتُنى ثم يُحْيِينِ »

أضاف الموتَ إلى الله ؛ فالموتُ فوق المرض ؛ لأن الموتَ لهم غنيمةٌ ونعمةٌ ؛ إذ يَصِلُون إليه[1] بأرواحهم .

ويقال « يميتنى » بإعراضه عنى وقتَ تعزُّزِه ، « ويحيينى » بإقباله عليَّ حين تفَضُّلِه . ويقال يميتنى عنى ويحيينى به .

قوله جل ذكره : « والذى أطمعُ أن يغفرَ لى خطيئتى يومَ الدِّين »

خطيئةُ الأحبابِ شهودُهم محنتَهم ، وتمنِّيهم عند شدة البلاء عليهم ، وشكواهم مما يمسُّهم من برحاء الاشتياق ، قال بعضهم :

وإذا محاسنى ـ اللاتى أدِلُّ بهـا ـ كانت ذنوبى . . . فقُلْ لى : كيف أعتذر ؟

قوله جل ذكره : « رَبِّ هَبْ لى حُكْماً وألْحِقْنى بالصالحين » .

« هب لى حكما » : على نفسى ، فإنَّ مَنْ لا حُكْمَ له على نَفْسِه لا حُكْمَ له على غيره .

« وألحقنى بالصالحين » : فأقومَ بحقِّكَ دونَ الرجوع إلى طلب الاستقلال بشىء دون حقك .

---

(1) (إليه) الضمير هنا يعود إلى محبوبهم ـ سبحانه .

قوله جل ذكره : « واجعل لى لسانَ صِدْقٍ فى الآخِرِين » .

فى التفاسير : « لسان صدق » : أى ثناء حسناً على لسان أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال لا أذكرك إلا بك ، ولا أعرفك إلا بك .

ويقال أن أذكرك ببيان آلائك[1]، وأذكرك بعد قبض روحى إلى الأبد بذكرٍ مُسْتَمَدٍ .

ويقال أذكرنى على لسان المخبرين عنك .

قوله جل ذكره : « واغْفِرْ لأبى إنه كان من الضالين » .

على لسان العلماء : قاله بعد يأسه من إيمان أبيه ، وأمّا على لسان الإشارة فقد ذَكَرَه فى وقت غَلَبات البَسْطِ ، ويُتَجَاوَزُ ذلك عنهم[2].

وليست إجابةُ العبد واجباً على الله فى كل شىء ، فإذا لم يُجَبْ فإنّ للعبد سلوةً فى ذكر أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدى إليه كلُّ أحدٍ .

قوله جل ذكره : « ولا تُخْزِنِى يومَ يُبْعَثون » .

أى لا تُخْجِلْنى بتذكيرى خلّتى ، فإنّ شهودَ ما مِنَ العبدِ ـ عند أرباب القلوب وأصحاب الخصوص ـ أشَدُّ عقوبة[3] .

قوله جل ذكره :«يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بَنُونَ ●
إلّا مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سليمٍ » .

قيل: « القلب السليم » اللديغ .

وقيل هو الذى سَلِمَ من الضلالة ثم من البِدْعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من الحجبة ثم من المُضَاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة . هذه كلها آفات[4] ، والأكابرُ سَلِمُوا منها ، والأصاغرُ امتُحِنُوا بها .

---

(١) وردت (الآية) وترجح أن الناسخ قد أخطأ فى النقل ، فأثبتنا (آلائك) أى نعمك لأنها أقرب إلى السياق .

(٢) معنى هذا أن القشيرى يرى اغتفار ما ينطق به الصوفى من أقوال وهو فى حال الانمحاء .

(٣) لأن شهود ما من العبد معناه أن التوحيد مازال يشوبه كدر الغيرية .

(٤) يفيد ذكر هذه الآفات على هذا النحو من الترتيب والدقة أجل فائدة عند دراسة المصطلح الصوفى ـ خصوصاً وأن هذه المصطلحات لم ترد على هذا النحو فى الفصل الذى خصصه القشيرى لهذا الموضوع فى الرسالة .

ويقال: «القلب السليم» الذي سَلِمَ من إرادة نَفْسِه.

قوله جل ذكره: «وأُزْلِفَتِ الجَنةُ للمتقين * وبُرِّزَتِ الجحيمُ للغاوين»

«أزلفت»: أي قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ في الوقت، فإنَّ ماهو آتٍ قريبٌ، وبالعين أُحْضِرَتْ. وكما تُجَرُّ النارُ إلى الحشر بالسلاسل فلا يَبْعُد إِدْناء الجنة من المتقين.

«وبرزت الجحيم للغاوين» أُظْهِرَتْ، فتؤكَّدُ الحجَّةُ على أرباب الجحود، ويُعْرَضُون على النار، وتُعْرَضُ عليهم منازلُ الأشرار، فَيُكَبْكَبُونَ فيها أجمعين، ويأخذون يقرأون بذنوبهم، ومن جملتها ما أخبر أنهم يقولون: —

«تاللهِ إن كُنَّا لفي ضلالٍ مبين * إذ نُسَوِّيكم بربِّ العالَمين»

ولا فضيحةَ أقبحُ ولا عيبَ فيهم أشنعُ مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم: «إذ نسويكم بربِّ العالمين» فإنَّ أقبحَ أبوابِ الشِّرْكِ وأشنعَ أنواعِ الكُفْرِ وأقبحَ أحوالِهم ـ التشبيهُ في صفة المعبود.

قوله جل ذكره: «فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم»

في بعض الأخبار(1): يجيء ـ يومَ القيامة ـ عَبْدٌ يُحاسَبُ فتستوي حسناتُه وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يُرْضِي عنها خصومَه، فيقول الله ـ سبحانه: عبدي.. بقيت لك حسنةٌ واحدة، إن كانت أَدْخَلْتُكَ الجنةَ.. أُنظرْ.. وتَطَلَّبْ من الناس لعلَّ واحداً يهب لكَ حسنةً واحدةً. فيأتي العبدُ في الصفين، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه، ويقول لكلِّ واحدٍ في بابه فلا يجيبه أحدٌ، فالكلُّ يقول له: أنا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدةٍ، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحقُّ ـ سبحانه: ماذا جئتَ به؟

---

(1) في م (في بعض الأحيان) والأصوب أن تكون (في بعض الأخبار) كما في ص.

فيقول : يا ربِّ . . لم يُعْطِنى أحدٌ حسنةً من حسناته .

فيقول الله ـ سبحانه : عبدى . . ألم يكن لك صديق (فىّ)[1] ؟

فيتذكر العبدُ ويقول : فلان كان صديقاً لى .

فيدله الحقُّ عليه ، فيأتيه ويكلِّمه فى بابه ، فيقول : بلى ، لى عبادات كثيرة قَبِلَهَا اليومَ قد وهبتُك منها ، فيسير هذا العبدُ ويجىء إلى موضعه ، ويخبر ربَّه بذلك ، فيقول الله ـ سبحانه : قد قَبِلْتُها منه ، ولن أنقص من حقِّه شيئاً ، وقد غفرت لكَ وله ، وهذا معنى قوله :

« فما لنا من شافعين ولا صديق حميم »

قوله جلّ ذكره : « كَذَّبَتْ قومُ نوحٍ المرسلين ...... »

ذكر قصة نوحٍ وما لَقِىَ من قومه ، وأنهم قالوا :ـ

« قالوا أنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأرذلون ؟ »

إنَّ أتباعَ كلِّ رسولٍ إنما هم الأضعفون ، لكنهم ـ فى حكم الله ـ هم المتقدِّمون الأكرمون . قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بضعفائكم » .

وإنَّ اللهَ أغرق قومه لمّا أصرُّوا واستكبروا .

وكذلك فَعَلَ بمن ذَكَرَتْهم الآياتُ فى هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ وأصحاب مدين . . كلٌّ منهم قابلوا رُسُلَهم بالتكذيب ، فَدَمَّر اللهُ عليهم أجمعين ، ونَصَرَ رسولَه على مقتضى سُنَّتِه الحميدة فيهم . وقد ذَكَرَ اللهُ قصةَ كل واحدٍ منهم ثم أعقبها بقوله :ـ

« وإنَّ ربَّكَ لهو العزيزُ الرحيمُ »

« العزيز » : القادر على استئصالهم ، « الرحيم » الذى أَخَّرَ العقوبة عنهم بإمهالهم ، ولم يقطعْ الرزقَ مع قُبْحِ فِعالِهم .

(١) هكذا فى م و ص وهى صحيحة مقبولة فى المعنى والسياق ؛ غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (صديق وفىّ) حيث تقابل ما جاء فى الآية (صديق حميم) فالبحث يومئذ يكون عن الصديق الوفى الحميم .

وهو « عزيز » لم يُسْتَضَرّ بقبيح أعمالهم ، ولو كانوا أجمعوا على طاعته لمّا تجمّل بأفعالهم[1].

قوله جل ذكره : « وما أسألكم عليه من أجرٍ إنْ أجرِىَ إلاَّ على ربِّ العالَمين » .

أخبر عن كل واحدٍ من الأنبياء أنه قال : « لا أسألكم عليه من أجرٍ » ليَعلَمَ الكافةُ أنّ من عَمِلَ لله فلا ينبغى أنْ يَطْلُبَ الأجْرَ من غير الله . وفى هذا تنبيهٌ للعلماء — الذين هم وَرَثةُ الأنبياء — أنْ يتأدّبوا بأنبيائهم ، وألّا يطلبوا من الناس شيئاً فى بَثِّ علومهم ، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم أنه مَنْ ارتفق فى بثِّ ما يُذَكِّرُ به من الدِّين وما يَعِظُ به المسلمين فلا يبارِكُ اللهُ للناس فيما منه يَسْمَعون ، ولا للعلماء أيضاً بركةٌ فيما من الناس يَأْخُذُون ، إنهم يبيعون دينَهم بِعَرَضٍ يسيرٍ ، ثم لا بَرَكةَ لهم فيه ، إذ لا ينتفعون به الله ، وسيَحْصُلُون على سُخْطِ الله .

قوله جل ذكره : « وإنَّه لتنزيلُ ربِّ العالَمين * نَزَلَ به الروحُ الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكونَ من المُنْذِرين * بلسانٍ عربىٍّ مبين » .

كلامُ اللهِ[2] العزيز مُنَزَّلٌ على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام . والكلامُ من الله غيرُ منفصل ، وبغير الله غير متصل .. وهو — على الحقيقة لا على المجاز — مُنَزَّلٌ . ومعناه أن جبريل — عليه السلام — كان على السماء . فَسمِعَ من الربِّ ، وحَفِظَ ، ونَزَلَ ، وبَلّغَ الرسولَ . فَمَرّةً كان يُدْخِلُ عليه حالةً تأخذه عنه[3] عند

---

(١) لأن الله — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة ولا شين بمعصية .

(٢) ينبغى الاهتمام برأى القشيرى هنا عند بحث قضية «خَلْق القرآن» ، ومدى النظرة إلى ما بين دفتى المصحف ، ومقارنة ذلك (بكلام) الله إلى موسى عند الشجرة ... موضوع هام ناقشه القشيرى فى كتابه (شكاية أهل السنة) .

(٣) تأمل كيف ينظر الصوفية إلى حالة المصطفى (ص) عند تلقى الوحى على أنها حالة عرفانية ، فالعرفان لا يتم إلا عند الاستحاء .

نزول الوحي عليه . ثم يُورِدُ جبريلُ ذلك على قلبه . ومرةً كان يتمثل له المَلَكُ فيُسْمِعُهُ . والرسولُ - صلوات الله عليه - يحفظه ويؤدِّيه . والله - سبحانه ضَمِنَ له أنه سيُقْرِئُه حتى لا ينساه(1) . فكان يجمع اللهُ الحِفْظَ في قلبه . ويُسَهِّلُ له القراءةَ عند تلقفه . ولمَّا عجز الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيه إياهم بالإتيان بمثله .. عُلِمَ صدْقُه في أنه مِنْ قِبَلِ الله .

قوله جل ذكره : « وإنّه لَفِي زُبُرِ الأولين » .

جميعُ ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصص ، وما في صفةِ الله من استحقاق جلاله — موافقٌ لِمَا في الكتب المُنَزَّلة من قِبَلِ الله قَبْلَه ، فهما عارضوه فإنه كما قال جلَّ شأنه : « لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه »(2) .

ثم أخبر أنه لو نَزَّلَ هذا الكتابَ بغير لسانهم وبلغةٍ غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك ، ولقالوا : لو كان بلساننا لعرفناه ولآمَنّا به ، فأزاح عنهم العِلّةَ ، وأكّدَ عليهم الحُجّة .

ثم أخبر عن صادقِ عِلْمِه بهم ، وسابقِ حُكْمِه بالشقاوة عليهم ، وهو أنهم لا يؤمنون به حتى يَرَوُا العذابَ في القيامة ، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولا الندامةُ .

قوله جل ذكره : « أفَرَأيْتَ إنْ مَتَّعْنَاهم سنينَ *
ثم جاءهم ما كانوا يوعَدُون *
ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعون » .

إنْ أرخينا لهم المُدّةَ ، وأمهلناهم أزمنةً كثيرة — وهم بوصف الغفلة — فما الذي كان ينفعهم إذا أخَذَهُم العذابُ بغتةً ؟ ! .

ثم أخبر أنه لم يُهْلِكْ أهلَ قريةٍ إلّا بعد أن جاءهم النذيرُ وأظهر لهم البيناتِ ، فإذا أصَرُّوا على كُفرِهم عَذَّبَهم .

قوله جل ذكره : « إنّهم عن السّمْعِ لمعزولون » .

---

(1) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى » آية ٦ سورة الأعلى .

(2) آية ٤٢ سورة فصلت .

وَجدَوُا السمعَ — الذى هو الإدراك — ولكن عَدِمُوا الفَهْمَ ، فلم يستجيبوا لِمَا دُعُوا إليه . فعند ذلك استوجبوا من الله سوء العاقبة .

قوله جل ذكره : « وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقربين » .

وذلك تعريفٌ له أنهم لا تنفعهم قرَابَتُهم منه ، ولا تُقْبَلُ شفاعتُه — إنْ لم يؤمِنُوا — فيهم . فليس هذا الأمر من حيث النّسب ، فهذا نوحٌ لمّا كَفَرَ ابنُه لم تنفعْه بُنُوّتُه ، وهذا الخليلُ إبراهيم عليه السلام لما كَفَرَ أبوه لم تنفعه أُبُوّتُه ، وهذا محمدٌ - عليه الصلاة والسلام — كثيرٌ من أقاربه كانوا أشدَّ الناسِ عليه فى العداوةِ فلم تنفعهم قرابتُهم .

قوله جل ذكره : « واخفِضْ جناحَكَ لِمَنِ اتبعكَ من المؤمنين » .

أَلِنْ جانِبَكَ وقارِبْهم فى الصحبة ، واسحبْ ذيلَ التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير ، واحتمِلْ منهم سوء الأحوال ، وعاشِرْهم بجميلِ الأخلاق ، وتحمَّلْ عنهم كلَّهم ، وارْحمْهُم كُلَّهم ، فإنْ مرضوا فعُدْهم ، وإنْ حرموك فأعْطِهم ، وإنْ ظلموك فتجاوزْ عنهم ، وإنْ قصّرُوا فى حق فاعفُ عنهم ، واشفعْ لهم ، واستغفِرْ لهم(1).

قوله جل ذكره : « فإنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى برىء مما تعملون » .

لا تفعلْ مثلَ فِعْلِهم ، وكِلْ حسابَهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حدّاً ، فعند ذلك لا تأخذْكَ رأفةٌ تمنعكَ من إقامة حدِّنا عليهم .

قوله جل ذكره : « وتوكَّلْ على العزيز الرحيم » .

انقَطِعْ إلينا ، واعتصِمْ بنا ، وتوسّلْ إلينا بنا ، وكن على الدوام بنا ، فإذا قُلْتَ فَقُلْ بنا ، وإذا صُلْتَ فَصُلْ بنا ، واشهد بقلبك — وهو فى قبضتنا — تتحققْ بأنك بنا ولنا .

توكّلْ على « العزيز » تَجِد العِزّةَ بتوكلك عليه فى الدارين ، فإنّ العزيز مَنْ وثق بالعزيز .

---

(1) تصلح هذه الإشارة لتكون دستوراً فى (الصحبة) بصفة عامة . والقشيرى فصل فى الرسالة فى هذا الخصوص .

« الرحيم » الذى يقرِّبُ مَنْ تَقَرَّبَ إليه ، ويُجْزِلُ البِرَّ لِمَنْ توسَّل به إليه[1] .

قوله جل ذكره : « الذى يراكَ حين تقوم » .

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخَلْق ، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنه بمشهدٍ من الحقِّ رَاعَى دقائقَ أحواله ، وخفايا أموره مع الحقِّ[2] .

قوله جل ذكره : « وتَقَلُّبَكَ فى الساجدين » .

هوَّنَ عليه معاناةَ مشاقِّ العبادة بإخباره برؤيته . ولامشقةَ لِمَنْ يَعلَمُ أنّه بمرأى من مولاه ، وإنْ حَمَلَ الجبالِ الرواسى على شفرِ[3] جَفْنِ العينِ لَيهونُ عند مَنْ يشاهد رَبَّه[4] .

ويقال « تقلبك فى الساجدين » بين أصحابك ، فهم نجومٌ وأنت بينهم بَدْرٌ ، أو هم بدورٌ وأنت بينهم شَمْسٌ ، أو هم شموسٌ وأنت بينهم شمس الشموس .

ويقال : تقلبك فى أصلابِ آبائك من المسلمين الذين عرفوا اللهَ ، فسجدوا له دون مَنْ لم يعرفوه .

قوله جل ذكره : « إنه هو السميعُ العليم » .

« السميع » لأنين المحبين ، « العليم » بحنين العارفين .

« السميع » لأنين المُذْنبين ، « العليم » بأحوال المطيعين .

---

(1) هذه الإشارة نموذج طيب لعبقرية القشيرى عند صياغة (وصاياه) المريدين من الناحيتين الصوفية والأدبية .

(2) يقال إنه لما دخل ذو النون المصرى بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعهم قوال ، فاستأذنوا ذا النون أن يقول بين يديه شيئاً ، فأذن له ، فابتدأ يقول ، فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض . ثم قام رجلٌ من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : «الذى يراك حين تقوم» فجلس الرجل .

ويعلق الشيخ الدقاق على هذه القصة بأن ذا النون كان صاحب إشراف على هذا الرجل، وكان الرجل صاحبَ إنصافٍ حين قبل منه ذلك فرجع وقعد (الرسالة ص ١٧٠) .

(3) شَفْرُ الجَفْن = حرفه الذى ينبت عليه الهُدْبُ . (الوسيط) .

(4) يربط النسفى بين هذه الآية وبين الآيتين السابقة واللاحقة ، فالمعنى عنده : أنه سبحانه (يراك حين تقوم) متهجداً ، ويرى (تقلبك) فى المصلين ؛ يرى ما كنت تفعل فى جوف الليل من قيامك التهجد ، وتقلبك فى تصفح أحوال المتهجدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ولتعلم كيف كانوا يعملون لآخرتهم . وهو (سميع) لما تقوله ، (عليم) بما تنويه وبما تعمله ، وبذلك هوَّن عليه معاناة كل مشقة حيث أخبر برؤيته له فى كل ما يقوم به .

(تفسير النسفى جـ٣ ص ١٩٩) ط عيسى الحلبى .

قوله جل ذكره : « هل أُنَبِّئُكُمْ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيم * يُلقُون السَّمعَ وأكثرُهم كاذبون » .

بيَّن أن الشياطين تتنزَّلُ على الكفار والكهنة[1] فتوحى إليهم بوساوسهم الباطلة .

قوله جل ذكره : « والشعراء يَتَّبِعهم الغاوون » .

لمَّا ذَكَرَ الوحيَ وما يأتى به للملائكةُ من قِبَلِ الله ذكر ما يوسوس به الشياطينُ إلى أوليائه ، وألْحَقَ بهم الشعراء الذين فى الباطل يهيمون ، وفى أعراض الناس يقعون ، وفى التشبيهات — عن حدِّ الاستقامة — يخرجون ، ويَعِدُون من أنفسهم بما لا يُوفُون ، وسبيلَ الكذبِ يسلكون .

قوله جل ذكره : « إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا اللهَ كثيراً ، وانتصروا مِنْ بعد ما ظُلِمُوا » .

فيكون شِعْرُه خالياً عن هذه الوجوه المعلولة المذمومة[2] ، وهذا كما قيل : الشعرُ كلامُ إنسان ؛ فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه .

قوله جل ذكره : « وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَموا أيَّ مُنقَلَبٍ ينقلبُون » .

سيعلم الذين ظلموا سوء ما عملوا ، ويندمون على ما أسلفوا ، ويصدقون بما كَذَّبوا .

---

(١) من أمثال سطيح وطليحة ومسيلمة .

وإذا كان محمد (ص) يشتم الأفاكين ويلعنهم .. فكيف تنزل الشياطين عليه ؟ !

(٢) من أمثال عبد الله بن رواحه وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضى الله عنهم ، فشعرهم غلبت عليه الحكمة والموعظة والزهد ، والدعوة إلى الفضيلة ، ومؤازرة الدين الجديد ، ورفع لواء التوحيد .

السورة التي يذكر فيها النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزيز قَصَدَهُ العاصى لِطَلَبِ التخفيف فصار وِزْرُه مغفوراً ، اسم كريم قَصَدَهُ العابِدُ لِطَلَبِ التضعيف فصار أجره موفوراً ، اسم جليل أَمَّهُ الولىُّ لِطَلَبِ التشريف فصار سَعْيُهُ مشكوراً ، اسم عزيز إن تَعَرَّضَ الفقير لوجوده مَحَقَتْهُ العِزَّةُ ، وطَوَّحَتْهُ السَّطْوَةُ ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

جَلَّتْ الأحديةُ .. فأنَّى بالوصول ! وتَقَدَّسَتْ الصمديةُ .. فَمَنْ ذا الذى عليها يقف[1] ؟ .

« كلاَّ .. إنها تذكرة . فمن شاء ذكره »[2] :

وكم باسطين إلى وَصْلِنــا أكُفَّهُمُو .. لم ينالوا نصيبا !

قوله جل ذكره : « طسٓ تلك آيات القرآن وكتاب مبين » .

بطهارةِ قُدْسِى وسناء عِزِّى لا أُخَيِّبُ أَمَلَ من أَمَّلَ لطفى .

بوجود بِرِّى تطيب قلوبُ أوليائى ، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفيائى .

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفى ، وسَعْىُ العاملين مشكورٌ بعطفى[3] .

---

(١) التوحيد – فى نظر القشيرى – هو أعلى درجات العرفان ، وهذا التوحيد العرفانى – متأثراً التوحيد الإسلامى الأصيل – لايشوبه كَدَرٌ ولاتشبيه ولاتداخل ولاحلول ولا امتزاج . فعرفانُ الصوفى مهما عَظُمَ لايتعدى كونه (عرفاناً بعث التعالى فى شهود أفعال الحق ، فأمَّا الوقوف على حقيقة الإنية فقد جَلَّتْ الصمدية عن إشراف عرفان عليها) تفسير بسملة سورة الجمعة « من هذا المجلد » .

(٢) آية ٥٤ سورة المدثر .

(٣) غير خاف على القارىء أن يلحظ تردد حرفى الطاء والسين فى كلمات الأسطر الثلاثة ، كأنما القشيرى يريدنا أن نتفهم دقائق (طس) من بعيد .

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين » : «هذه دلالات كَرَمِنا ، وأمارات فضلنا وشواهدُ بِرِّنا ، نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا ، ونُحَقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنا .

قوله جل ذكره : « هُدًى وبُشْرى للمؤمنين » .

هذه الآياتُ وهذا الكتابُ بيانٌ وشِفاء ، ونورٌ وضياء ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حققنا لهم الإيمان ، وأكَّدْنا لهم الضمان ، وكفلنا لهم الإحسان .

قوله جل ذكره : « الذين يُقيمون الصلاةَ ويُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرةِ هم يوقِنون » .

يديمون المواصلات ، ويستقيمون فى آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم الزكاة ، بما يقومون فى حقوق المسلمين أحسنَ مقام ، وينوبون عن ضعفائهم أحسنَ مناب .

قوله جل ذكره : « إن الذين لا يؤمِنون بالآخرةِ زَيَّنّا لهم أعمالَهم فهم يَعْمَهُون » .

أغشيناهم فَهُم لا يُبْصِرُون ، وعَمَّيْنا عليهم المسالكَ فهم عن الطريقة المُثْلَى يَعْدِلون ، أولئك الذين فى ضلالتهم يعمهون ، وفى حيرتهم يَتَرَدَّدُون .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لهم سوء العذابِ وهم فى الآخرةِ هم الأخْسَرون » .

« سوء العذاب » أن يجد الآلامَ ولا يجد التسلِّى بمعرفة المُبْتَلِّى ، ويحمل البلاء ولا يحمل عنه ثقلَه وعذابَه شهودُ المُبْلِى .. وذلك للكفار ، فأمَّا المؤمنون فيُخَفَّفُ عنهم العذابَ فى الآخرةِ حُسْنُ رجائهم فى الله ، ثم تضرُّعُهم إلى الله ، ثم فَضْلُ الله معهم بالتخفيف فى حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشى والإفاقة — كما فى الخبر — إلى وقت إخراجهم من النار .

قوله جل ذكره : « وإنَّكَ لَتُلَقَّى القرآنَ مِن لدُن حكيم عليم » .

أى أن الذى أكرمكَ بإنزال القرآن عليك هو الذى يحفظك عن الأسواء والأعداء وصنوف البلاء .

قوله جل ذكره : « إذ قال موسى لأهله إنِّى آنستُ ناراً
سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ
قَبَسٍ لعَلَّكم تصطلون » .

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر ، ودَجَا عليه الليلُ ، وأخذ امرأتَه الطَّلْقُ وهبَّت الرياحُ الباردة ، ولم يورِ الزَّنْد ، وضاق على موسى الأمرُ ، واستبهم الوقتُ ، وتشتت به الهمة ، واستولى على قلبه الشغل . ثم رأى ناراً من بعيد ، فقال لأهله : امكثوا إنِّى أبصرتُ ناراً . وفى القصة : إنه تشتت أغنامُه ، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعَه فشردت ، فقالت امرأتُه :

كيف تتركنا وتمضى والوادى مسبع ؟ ! .

قال : امكثوا .. فإنى لأجلكم أمضى وأتعرف أمرَ هذه النار ، لَعَلِّى آتيكم منها إمَّا بِقَبَسٍ أو شعلةٍ ، أو بخبرٍ عن قومٍ نُزُولٍ عليها تكون لنا بهم استعانة ، ومن جهتهم انتفاع . وبَدَتْ لعينه تلك النارُ قريبةً ، فكان يمشى نحوها ، وهى تتباعد حتى قَرُب منها ، فرأى شجرةً رطبةً خضراء تشتعل كلُّها من أولها إلى آخرها ، وهى نار مضيئة ، فَجَمَعَ خُشَيْبَاتٍ وأراد أن يقتبس منها ، فعند ذلك سمع النداءَ من الله لا من الشجرة كما تَوَهَّمَ المخالفون من أهل البدع . وحصل الإجماعُ أنَّ موسى سمع تلك الليلة كلامَ الله ، ولو كان النداء فى الشجرة لكان المتكلم به الشجرة ، ولأجل الإجماع قلنا : لم يكن النداء فى الشجرة[1] . وإلا فنحن نجوِّز أن يخلق الله نداء فى الشجرة ويكون تعريفاً ، ولكن حينئذٍ يكون المتكلم بذلك الشجرة .

(١) أى أنه على هذا الرأى كلام غير مخلوق ، لأن كلام الله صفته ، وصفته – سبحانه – غير مخلوقة .. وهذا هو نفس الرأى بالنسبة للقرآن ، وهذا هو الجواب الذى دحض به السلف زعم الجهمية حينما أرادوا أن يثبتوا أن القرآن مخلوق ، لأن القرآن شىء ، «والله خالق كل شىء» (انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ١ ص ٢٢٢) فيكون النداء الذى سمع من الشجرة كالكلام الذى بين دفتى المصحف .. كلاهما كلام الله – على الحقيقة ، ولكن من حيث التجوز فى التعبير يقال (فى الشجرة) و (فى المصحف) .

ولا يُنكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له ، وخَلَقَ كلاماً في الشجرة أيضاً ، فموسى سمع كلامَه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة ... وهذا من طريق العقل جائز .

قوله جل ذكره «فلما جاءها نودي أن بورِكَ مَن في النارِ ومَنْ حولها وسبحان اللهِ ربِّ العالَمين» .

أي بورِكَ مَنْ هو في طلب النار ومَنْ هو حول النار[1] .

ومعنى بورِكَ أي لَحِقَتْه البركةُ أو أصابته البَرَكةُ .. والبركةُ الزيادةُ والنَّماء في الخير .

والدعاء مِنَ القديمِ — سبحانه — بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به .

قوله جل ذكره «يا موسى إنَّه أنا اللهُ العزيزُ الحكيم» .

الذي يُخَاطِبُكَ أنا اللهُ «العزيزُ» في استحقاق جلالي ، «الحكيم» في جميع أفعالي .

قوله جل ذكره : «وألْقِ عَصَاكَ فلماَّ رآها تهتزُّ كأنها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ» .

في آية أخرى بَيَّنَ أنه سأله ، وقال له على وجه التقرير : «وما تلك بيمينك يا موسى ؟» وأجابه بقوله : «هي عصاي» وذَكَرَ بعضَ مَا لَه فيها من المآرب والمنافع ، فقال الله : «وألقِ عصاك» ، وذلك لأنه أراد أنْ يُرِيَه فيها من عظيم البرهان ما يحصل له كمالَ اليقين .

وألقاها موسى فَقَلَبَهَا اللهُ ثعباناً ، أولًا حيةً صغيرةً ثم صارت حيةً كبيرةً ، فأوجس في نفسه موسى خيفةً وولَّى مُدْبِرًا هاربًا ، وكان خوفه من أن يُسَلِّطَهَا عليه لمـَّا كان عارفاً بأن الله يعذِّب مَنْ يشاء بما يشاء ، فقال له الحقُّ :

«يا موسى لا تَخَفْ إنِّي لا يخاف لديَّ المرْسَلُون» .

أي لا ينبغي لهم أن يخافوا .

---

(١) يرى النسفي أن (مَنْ) في مكان النار هم الملائكة ، و(مَنْ حولها) هو موسى . (النسفي ح٣ ص ٢٠٢) .

« إلَّا مَن ظَلَمَ ثم بَدَّلَ حُسناً بَعْدَ سوء

فإنى غفورٌ رحيم » .

وهذا يدلُّ على جواز الذَّنْبِ على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط تَرْكِ الإصرار . فأمَّا مَنْ لا يُجيزُ عليهم الذنوبَ فيحمل هذا على ما قبل النبوة[1].

فلمّا رأى موسى انقلابَ العصا عَلِمَ أنَّ الحقَّ هو الذى يكاشفه بذلك .

ويقال : كيف عَلِمَ موسى — عليه السلام — أنَّ الذى سمعه كلامُ اللهِ ؟ .

والجواب أنه بتعريفٍ منه إياه ، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه ، ويجوز أن يكون كَسْبياً ، ويكون الدليل له الذى به عَلِمَ صِدْقَه فى قوله : « إنه أنا الله » هو ما ظهر على يَدِهِ — فى الوقت — من المعجزة ، من قَلْبِ العصا ، وإخراج يده بيضاء[2].

قوله جل ذكره : « وأَدْخِلْ يَدَكَ فى جيبك تخرجْ بيضاء

من غير سوء فى تِسْعِ آياتٍ إلى فرعون

وقومِهِ إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

من غير سوء أى بَرَصٍ . وفى القصة أن موسى عليه السلام ذَكَرَ اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التى أَوْجَبَتْ انزعاجَه ، وقَصْدَه فى طلب النار ، فقال الله تعالى : إنا قد كفيناكَ ذلك الأمرَ ، ووكلنا بامرأتكَ وأسبابك ، فجمعنا أغنامَك وثيرانَك ، وسَلِمَتْ لكَ المرأةُ .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جاءتْهم آياتُنا مُبْصِرةً قالوا هذا

سِحْرٌ مبين » .

---

(١) لا يستخدم فريق من الفقهاء تعبير (الذنب) بالنسبة للأنبياء عليهم السلام وإنما يطلق على ما يبدر منهم (فِعْل خلاف الأَوْلى) تأدباً .

والنبى — على الوجوب — معصوم ، والولىّ محفوظ أى قد تقع منه هنات أو زلات ولكنه لا يُصِرّ على مافعل (الرسالة ص ١٧٥) .

(٢) أى أن الأصل فى المعجزة أنها دليل صدق النبى ، فقد يستطيع السحرة والكهنة عمل أشياء عجيبة ولكنها لا تخرج عن كونها دليل مهارة أو ذكاء أو قدرة على الإيهام والانبهار .

والنبى مأمور بإظهار المعجزة أما الولى فمأمور بإخفاء الكرامة (الرسالة ص ١٧٤) .

لم يُظْهِر اللهُ — سبحانه — آيةً على رسولٍ من أنبيائه — عليهم السلام — إلّا كانت في الوضوح بحيث لو وَضَعوا النظرَ فيها موضعَه لتوَصَّلُوا إلى حصول العلم وثلج الصدور ، ولكنهم قَصَّروا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجحْدِ . قال تعالى وقولُه صِدْقٌ :

« وجحدوا بهـــا واستيقنتها أنفسُهم
ظُلْماً وعُلُوّاً فانظرْ كيف كان عاقبةُ
المُفْسِـدين » .

وكما يَحْصُلُ من الكافرِ الجحْدُ (١) تحصل للعاصي عند الإلمام ببعض الذنوب حالةٌ يعلم فيها — بالقطع — أن ما يفعله غير جائز ، وتتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ الداعيةُ له عن فِعْلِها من غير أنْ يكونَ متغافلاً عنها أو ناسياً لها ، ثم يُقْدِمُ على ذلك غيرَ مُحْتَفِلٍ بها مُوَافَقَةً لشهوتِهِ . وهذا الجنسُ من المعاصي أكثرُها شؤماً ، وأشدُّها في العقوبة ، وأبعدُها عن الغفران .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داوودَ وسليمانَ عِلْماً وقالا
الحمدُ للهِ الذي فَضَّلَنا على كثيرٍ مِنْ
عباده المؤمنين » .

يقتضي حكمُ هذا الخطاب أنه أفْرَدَهُما بجنسٍ من العلم لم يشارِكْهُما فيه أحدٌ ؛ لأنه ذَكَرَه على وجهِ تخصيصهما به ، ولا شكَّ أنه كان من العلوم الدينية ؛ ويحتمل أنه كان بزيادة بيانٍ لهما أغناهما عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعَرَّضٌ للشك فيه (٢) .

---

(١) ليس حتماً أن يكون جحد الجاحد بعد المعرفة لأن (جحد) بمعنى أنكر ، وقد يكون الإنكار نتيجة جهلٍ بالشيء ، ولكن الواضح أن القشيري يتجه إلى توضيح أسوأ ألوان الجحود ، وهو الذي يحدث بعد المعرفة ، وقد أحسن القشيري حين قابل بين ذلك وبين أسوأ أحوال العاصي ، وهي تلك التي يقدم فيها على المعصية وهو عليم بعاقبتها ، ومع ذلك يعقد النية عليها ، ويفعلها .

(٢) نعلم من مذهب القشيري أن البيان أرقى في المعراج العرفاني من البرهان ، ونجد هنا سبب تفوق البيان على البرهان .

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به ، فيكون إخبارُهما عن ذلك معجزةً لهما .

ويحتمل أن يكون قوله : « عُلِّمنا منطق الطير » .

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما فى البيان .

وفى الآية دليل على أن التفضيل الذى يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات ، فأخبر بأنهما شَكَرَا الله على عظيم ما أنعم به عليهما [1].

قوله جل ذكره : « وورِثَ سليمانُ داوودَ وقال يأيها

الناسُ عُلِّمنَا مَنطِقَ الطيرِ وأوتينا من

كلِّ شىءٍ إنّ هذا لهو الفَضْلُ المبينُ » .

ورث أباه فى النبوة ، وورثه فى أن أقامه مقامه .

قوله : « عُلِّمنا منطق الطير » : وكان ذلك معجزةً له ، أظهرها لقومه ليعلموا بها صِدْقَ إخباره عن نبوته - ومَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ وحضور قلبٍ بالله يشهد الأشياء كلَّها بالله ومن الله . ويكون مُكَاشَفًا بها من حيث التفهيم ، فكأنه يسمع من كل شىء تعريفاتِ الحقِّ — سبحانه — للعبد مما لا نهاية له ، وذلك موجودٌ فيهم مُحْكِىٌّ عنهم . وكما أنَّ ضربَ الطَّبْلِ مثلاً دليلٌ يُعْرَفُ — بالمواضعة — عند سماعه وقتُ الرحيلِ والنزولِ فالحقُّ — سبحانه — يخصُّ أهلَ الحضورِ بفنون التعريفاتِ ، من سماعِ الأصواتِ وشهودِ أحوال المرئيات فى اختلافها ، كما قيل :

إذا المرء كانت له فِكرةٌ   ففى كل شىء له عِبْرَةٌ

قوله جل ذكره : « وحُشِرَ لسليمانَ جنودُه من الجنِّ

والإنسِ والطيرِ فهم يُوزَعُون » .

---

(1) قال صلى الله عليه وسلم : «العلماءُ ورثة الأنبياء» والعلم نعمة تحتاج إلى الشكر ، ويلزم أن يعتقد العالم أنه إن فُضِّلَ على كثير فقد فضل عليه كثيرٌ أيضاً ، وما أحسن قول عمر رضى الله عنه : كل الناس أفقه من عمر .

سخَّر اللهُ لسليمان — عليه السلام — الجنَّ والطيرَ ، فكان الجنُّ مكلَّفين ، والطيرُ كانت مُسَخَّرَةً إلا أنه كان عليها شَرْعٌ ، وكذلك الحيوانات التي كانت في وقته ، حتى النمل كان سليمان يعرف طابَهم وينفذ عليهم حُكْمَه .

قوله جل ذكره : « حتى إذا أَتَوْا على وادِ النَّمل قالت نَمْلَةٌ يأيها النملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكم لا يَحْطِمَنَّكُم سليمانُ وجنودُه وهم لا يَشْعُرون » .

قيل إن سليمان استحضر أميرَ النملِ الذي قال لقومه : « ادخلوا مساكنكم » وقال له : أمَا عَلِمْتَ أنِّي معصومٌ ، وأنِّي لن أمَكِّنْ عسكري مِنْ أنْ يطئوكم ؟ فأخبره أميرُ النملِ أنَّه لا يعلم ذلك ؛ لأنه ليس بواجبٍ أن يكون النملُ عالمًا بعصمة سليمان . ولو قال : لعلكم أبيح لكم ذلك .. لكان هذا أيضاً جائزاً .

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان : إنى أحملُ قومى على الزهد فى الدنيا ، وخَشِيتُ إن يَرَوْكم فى مُلْكِكم أنْ يرغبوا فيها[1] ، فأمَرْتُهم بدخول مساكنهم لئلا يتشوَّشَ عليهم زُهْدُهُم . ولَئِنْ صَحَّ هذا ففيه دليلٌ على وجوب سياسة الكبار لِمَنْ هو فى رعيتهم . وفى الآية دليلٌ على حَسْنِ الاحتراز مِمّا يُخْشَى وقوعُه ، وأنَّ ذلك مما تقتضيه عادةُ النفْسِ وما فُطِرُوا عليه من التمييز .

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان : ما الذى أعطاك اللهُ من الكرامة ؟ .

فقال : سَخَّرَ لى الريحَ .

فقال : أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإشارة فيه أنه ليس بيدك مما أُعْطِيتَ إلا الريح ؟[2].

وهكذا بيَّنَه الكبيرُ على لسان الصغير ! .

قوله جلَّ ذكره : « فتَبَسَّمَ ضاحكاً مِن قولها » .

---

(١) الضمير فى (فيها) يعود على الدنيا .

(٢) أى أنه عطاء زائل لا مكث له ولا قرار .

التبسُّمُ من الملوك يندر لرعاياهم حُكْمَ السياسة ، وذلك يدلُّ على رضاهم واستحسانهم لما منه يحصل التبسُّم ، فلقد استحسن سليمان من كبير النمل حُسْنَ سياسته لرعيته .

وفي القصة أنه استعرض جُنْدَه ليرامم كم هم ، فعرَضَهم عليه ، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً ، حتى مضى شَهرٌ وسليمان واقفٌ ينظر إليهم مُعْتَبِرًا فلم ينتهوا ، ومَرَّ سليمانُ عليه السلام .

وفي القصة : أن عظيم النمل كان مثل البغل في عِظَمِ الجثة ، وله خرطوم . والله أعلم .

قوله جل ذكره : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نعمتكَ
التي أنعَمْتَ عليَّ وعلى والديَّ وأَنْ
أعملَ صالحاً ترضاه » .

في ذلك دليلٌ على أن نَظَرَه إليهم كان نَظَرَ اعتبارٍ ، وأنه رأى تعريفَ الله إياه ذلك ، وتنبيهُ عليه من جملة نِعَمِه التي يجب عليها الشكرُ .

وفي قوله : « وعلى والديَّ » دليلٌ على أنَّ شُكْرَ الشاكر لله لا يختص بما أَنْعَمَ به عليه على الخصوص ، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ما خَصَّ وعَمَّ من نِعَمِه .

قوله جلَّ ذكره : « وأَدخِلْني برحمتِكَ في عبادِكَ
الصالحين » .

سأل حُسْنَ العاقبة ؛ لأنَّ الصالحَ من عباده مَنْ هو مختوم له بالسعادة .

قوله جل ذكره : « وتفقَّدَ الطيرَ فقال ما لِيَ لا أرى
الهُدْهُدَ أَمْ كان من الغائبين » .

تَطَلَّبَه فلمَّا لم يَرَه تعرَّف ما سبب تأخره وغيبته .

ودلَّ ذلك على تيقظ سليمان في مملكته ، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته ، حيث لم تَخْفَ عليه غيبةُ طيرٍ هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعةً واحدةً . وهذا أحسن ما قيل .

ثم تَهَدَّدَه إن لم يكن له عُذْرٌ بعذاب شديدٍ ، وذلك يدلُّ على كمال سياسته وعَدْلِه في مملكته .

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد يعرف أعماقَ الماء بإلهام خُصَّ به ، وأنَّ سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء ، فطلبَ الهدهد ليهديَهم إلى مواضع الماء ، وهذا ممكن ؛ لأن فى الهدهد كَثْرَةً . وغيبةُ واحدٍ منها لا يحصل منها خَلَلٌ — اللهم إلّا إنْ كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء .. والله أعلم .

وروى أن ابن عباس سُئِلَ عن ذلك ، وأنه قيل له : إنْ كان الهدهدُ يرى الماء تحت الترابِ ويعرفه فكيف لا يرى الفخَّ مخفيًّا تحت التراب ؟ .

فقال : إذا جاء القضاء عَمِيَ البصر .

ويقال : إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُصْطَفَةً ، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها ، فوقع شعاعُ الشمسِ على الأرض ، فنظر سليمانُ فرأى موضع الهدهد خالياً منه ، فَعَرَفَ بذلك غَيْبَتَه .. وهذا أيضاً ممكن ، ويدل على كمال تَفَقُّدِه ، وكمال تَيَقُّظِه — كما ذكرنا .

قوله جل ذكره : « لَأُعَذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّى بسُلْطانٍ مُبِين » .

فى هذه الآية دليل على مقدار الجُرْمِ ، وأنه لا عِبْرَةَ بصغر الجثة وعِظَمِها . وفيه دليل على أن الطير فى زمانه كانت فى جملة التكليف ، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شَرْعٌ ، وأنَّ لهم من الله إلهاماً وإعلاماً ؛ وإن كان لا يُعْرَفُ ذلك على وجه القَطْع .

وتعيين[1] ذلك العذاب الشديدِ غيرُ ممكنٍ قطعاً ، إلا تجويزاً واحتمالا .

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كلَّ ما قيل فيه .

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ فى شىء نَقْلٌ فهو مُتَّبَعٌ .

وقد قيل هو نَتْفُ ريشِه وإلقاؤه فى الشمس .

---

(١) واضح هنا طريقة مناقشة القشيرى لشىء لم يرد به النقل ، وكيف يعطى النقل أهمية وتقديراً ، فإذا لم يكن نقل فينبغى التجويز لا القطع .

وواضح كذلك مدى استغلاله لهذا الموقف فى توجيه كلامه للمريدين والطالبين بطريق غير مباشر .

وقيل يفرِّق بينه وبين أليفه .

وقيل يشتِّت عليه وقته .

وقيل يُلزِمُه خدمة أقرانه .

والأَوْلَى فى هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت ، وألا يُقْطَعَ بشىء دون غيره على وجه القطع .

فَمِنَ العذاب الشديد أن يُمْنَعَ حلاوة الخدمة فيجد أَلَمَ المشقة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولى لشأنه ويوكَلَ إلى حَوْلِه ونَفْسِه ، ومن ذلك أن يُمْتَحَنَ بالحِرْصِ فى الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع فى اسم العذر ثم لا يرتفع[1] . ومن ذلك سَلْبُ القناعة ، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجرى . ومن ذلك توهم الحدثان وحسبان شىء من الخَلْق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأخِسَّةِ من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير . ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم . ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التباس طريق الرُّشد . ومنه حسبان الباطل بصفة الحق ، والتباس الحقِّ فى صورة الباطل . ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات يده . ومنه الفقر فى الغُرْبة .

قوله جل ذكره : « فَمَكَثَ غيرَ بعيدٍ فقال أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ به وجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بنبإٍ يقين » .

فلم يلبث الهدهدُ أن جاء ، وعَلِمَ أن سليمانَ قد تَهدَّدَه ، فقال : أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ ، « وجِئْتُكَ من سبأ بنبأ يقين » .

ثم ذكر حديث بلقيس ، وأنها ملكتهم ، وأن لها من المالِ والمُلْكِ والسرير العظيم

(1) عاد القشيرى إلى الآية نفسها فى رسالته حيث يقول : وقيل فى قوله تعالى : لأعذبنه عذابا شديداً – يعنى لأسلبنه القناعة ولأبتلينَّه بالطمع يعنى أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك (الرسالة – ص ٨٢) .

ما عدَّه ، فلم يتغير سليمانُ — عليه السلام — لذلك ، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك فى الطمع فى مُلْكِ غيرهم ، فلما قال :

« وجَدتُها وقومَها يسجدون للشمسِ من دونِ اللهِ
وزَيّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصَدّهم عن السبيلِ فَهُمْ
لا يَهتَدُون »

فعند ذلك غَاظَ هذا سليمانَ ، وغَضِبَ فى الله ، و :

« قال سَنَنظرُ أَصَدَقْتَ أم كُنتَ من الكاذبين »

وفى هذا دلالة على أن خَبَرَ الواحدِ لا يوجِب العلمَ فيجب التوقفُ فيه على حدِّ التجويز ، وفيه دلالة على أنه لا يُطرَح بل يجب أن يُتَعَرَّفَ : هل هو صدق أم كذب ؟[1]

ولمَّا عَرَفَ سليمانُ هذا العُذْرَ تَرَكَ عقوبته وما تَوَعَّدَه به . . وكذلك سبيلُ الوالى ؛ فإنَّ عَدْلَه يمنعه من الحيفِ على رعيته ، ويقبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ فى صورة المجرمين إذا صَدَقَ فى اعتذاره .

قوله جل ذكره : « اذهَب بكتابى هذا فَألْقِه إليهم
ثم تولَّ عنهم فانْظُرْ ماذا يَرْجِعُون » .

فى الآية إشارة إلى أنه لا ينبغى للإنسان أن يذكر بين يدى الملوك كلَّ كلة ، فإنه يَجُرُّ العناء بذلك إلى نَفْسِه ، وقد كان لسليمان من الخَدَمِ والحَشَمِ ومَنْ يأتمر بأمره الكثير ، ولكنه لم يستعمل واحداً فى هذا التكليف إلا الهدهد لأنه هو الذى قال ما قال ، فلزمه الخروج من عهدة ما قال .

ويقال لمَّا صَدَقَ فيما أخبر لِمَلِكِهِ عُوِّضَ عليه فَأُهِّلَ للسفارة والرسالة — على ضعف صورته[2] .

---

(١) يضاف هذا الرأى فى أخبار الآحاد إلى مذهب القشيرى فى المسائل الحديثية والفقهية .
(٢) هنا إشارة بعيدة إلى الرسل والأولياء ، ودحض لما يقال عنهم من التهم .

فمضى الهدهدُ ، وألقى الكتابَ إليها كما أُمِرَ ، وانتحى إلى جانبٍ ينتظر ماذا يفعلون وبماذا يُجاب .

قوله جل ذكره : « قالت يأيها الملأُ إنّى أُلقِىَ إلىّ كتابٌ كريمٌ * إنه من سليمانَ وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم * ألّا تَعْلُوا علىّ وَأْتونى مسلمين » .

« كتاب كريم » الكَرَمُ نَفْىُ الدناءة ، وقيل لأنه كان مختوماً[1] ، وقيل لأنّ الرسولَ كان طيراً ؛ فعَلِمَتْ أنَّ مَنْ تكون الطيرُ مُسخَّرةً لَهُ لا بُدَّ أنه عظيمُ الشأنِ . وقيل : لأنه كان مُصَدَّرًا ببسم الله الرحمن الرحيم . وقيل لأنه كتب فيه اسم نَفْسِهِ أولًا ولم يَقُلْ : إنه من سليمان إلى فلانة . ويقال لم يكن فى الكتاب ذكر الطمع فى المُلْكِ بل كان دُعاء إلى الله : « ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين » .

ويقال أَخَذَ الكتابُ بمجامع قلبها ، وقهرَها ؛ فلم يكن لها جواب ، فقالت : « إنى أُلقى إلىّ كتابٌ كريم » فلمّا عرَفَتْ قَدْرَ الكتابِ وصلت باحترامها إلى بقاء مُلْكِها ، ورُزِقَتْ الإسلامَ وصُحْبَةَ سليمان .

ويقال إذا كان الكتابُ كريمًا لِما فيه من آية التسمية فالكريمُ من الصلاة مالا يتجرَّدُ عن التسمية ، وإذا تجرَّدت كان الأمرُ فيها بالعكس .

قوله جل ذكره : « قالت يأيها الملأُ أفتونى فى أمرى ما كُنتُ قاطعةً أمراً حتى تَشْهدونِ[2] » .

---

(١) يقال إنه طبعه بالمسك وختمه بخاتمه . قال صلى الله عليه وسلم : « كرم الكتاب ختمه» وقيل من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخفّ به .

(٢) (حتى تشهدونِ) بكسر النون ، أما الفتح فلحن ؛ لأن النون إنما تفتح فى موضع الرفع وهذا فى موضع النصب لأن ما سبق «حتى» أسلوب طلبى ، فالفعل ينصب بعدها بأن مضمرة . وأصله «تشهدوننى» فحذفت النون الأولى للنصب ، والياء لدلالة الكسرة .

أَخَذَتْ فى المشاورة كما تقتضيه الحال فى الأمور المثلام ؛ فإن الملكَ[1] لا ينبغى أن يكون مستبداً برأيه ، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأى والبصيرة .

قوله جل ذكره : « قالوا نحن أولوا قوةٍ وأولوا بأسٍ شديدٍ
والأمرُ إليكِ فانظرى ماذا تأمرين ؟ » .

أجابوا على شرط الأدب ، وقالوا : ليس منا إلا بَذْلُ الوسع ، وليس لنا إلَّا إظهارُ النُّصح ، وما علينا إلا متابعةُ الأمرِ — وتمشيةُ الأمرِ وإمضاؤه .. إليكِ .

قوله جل ذكره : « قالت إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً
أفسدوها وجعلوا أعِزَّةَ أهلِها أذِلَّةً
وكذلك يفعلون » .

ويقال إنَّ : « وكذلك يفعلون » مِنْ قَوْلِها .

ويقال : تغييرُ الملوك[2] إذا دخلوا قريةً — عن صفتها — معلومٌ ، ثم يُنْظَر .. فإن كان الداخِلُ عادلاً أزال سُنَّةَ الجَوْرِ ، وأثبت سُنَّةَ العَدْلِ ، وإنْ كان الداخلُ جائراً أزال الحَسَنَ وأثبت الباطلَ . هذا معلوم ؛ فإنَّ خرابَ البلادِ بولاةِ السُّوء ، حيث يستولى أسافلُ الناس وأسقاطُهم على الأعزة منهم ، وكما قيل :

يا دولة ليس فيها من المعالى شظية
زولى فما أنتِ إلَّا على الكرام بلية

وعمارة الدنيا بولاة الرُّشْدِ ، يكسرون رقابَ الفاغة ، ويُخَلِّصُون الكرامَ من أَسْرِ السَّفَلة ، (ويأخذ القوس باريها)[3] ، وتطلع شمسُ العدل من برج شرفها .. كذلك المعرفةُ

---

(1) نعلم من سيرة القشيرى أنه كانت بينه وبين أصحاب السلطة فى موطنه خلافات فى الرأى ، فهو هنا يغمز بما ينبغى أن يكون عليه صاحب السلطان من آداب ، سواء فى اختيار أعوانه ، أو فى قبول النصح والشورى .

(2) كأنما القشيرى ينفس عن نفسه ما قاساه فى عهد السلطان طغرل ووزيره الكندرى وكأنما يمجد ما ناله من الخير فى عهد السلطان ألب أرسلان . ووزيره العظيم نظام الملك (انظر مدخل هذا الكتاب : المجلد الأول)

(3) هكذا فى م وهى فى ص (فتأخذ القوس بأزمتها) .

والخصالُ المحمودة إذا باشَرَتْ قلبَ عبدٍ أخرجت عنه الشهواتِ والمُنى ، وسفاسفَ الأخلاقِ من الحقد والحسد والشُّحِّ وصِغَرِ الهمة .. وغير ذلك من الأوصاف الذميمة وتُثْبِتُ بَدَلَها من الأحوال العَلِيَّةِ والأوصاف المَرْضِيَّةِ ما به نظامُ العبد وتمامُ سعادته . ومتى استولت على قلبٍ غاغةُ النفسِ والخصالُ المذمومة أزالت عنه عمارته ، وأبْطَلَتْ نضارتَه ، فتخرب أوطانُ الحقائق ، وتتداعى مساكنُ الأوصاف الحميدة للأفول ، وعند ذلك ، يَعْظُم البلاء وتتراكم المِحَنُ .

قوله جل ذكره : « وإِنِّى مُرْسِلَةٌ إليهم بهديةٍ فناظِرَةٌ

بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلون » .

جاء فى القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا ، ومن جملتها لَبِنَةٌ مصنوعةٌ من الفضة وأخرى من الذهب . وأن اللهَ أخبر سليمانَ بذلك ، وأوحى إليه فى معناه . وأمَرَ سليمانُ الشياطينَ حتى بَنَوْا بساحة منزله ميدانًا ، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللَّبِنِ المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره . وأمَرَ بأن توقف الدوابُّ على ذلك وألا تُنَظَّفَ آثارُها من رَوْثٍ وغيره ، وأن يُتْرَكَ موضعان لِلَبِنَتَيْنِ خالِيَيْنِ فى ممرِّ الدخول . وأقبل رُسُلُها ، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين ، فلمَّا رَأَوْا الأمر ، ووقعت أبصارُهم على طريقهم ، صَغُرَ فى أعينهم ما كان معهم ، وخَجِلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا فى الفكرة .. كيف يتخلصون مما معهم ؟ . فلمَّا رأوا موضع اللَّبِنَتَيْنِ فارغا ظنُّوا أن ذلك سُرِق من بينها ، فقالوا لو أظهرنا هذا نُسِبْنا إلى أنَّا سرقناهما من هذا الموضع ، فطرحاهما فى الموضع الخالى ، ودَخَلَا على سليمان :

قوله جل ذكره : « فلمَّا جاء سليمان قال أَتُمِدُّونَنِ بمالٍ

فما آتانِىَ اللهُ خيرٌ مما آتاكُم بل أنتم

بهديتكم تَفْرَحُون » .

أتهدوننى مالاً ؟ ! وهل مثلى يُسْتَمالُ بمثل هذه الأفعال ؟ إنكم وأمثالكم تمايلون بمثل ما عوملتم[1] ! ارجع إليهم : —

---

(١) أى أنتم قوم لاتعلمون إلاظاهراً من الحياة الدنيا ، فلذلك تفرحون بما تزدادون وبما يُهْدَى إليكم ؛ لأن ذلك مبلغ همتكم — وحالى خلاف حالكم ، فأنا — بما آتانى الله — غنىٌّ عن حظوظ الدنيا .

« ارجع إليهم فَلَنَأْتِيَنَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ
لهم بها ولَنُخْرِجَنَّهم منها أذِلَّةً وهم
صاغِرون » .

فلمَّا رجعوا إلى بلقيس ، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وَجْهَ لها سوى الاستسلام والطاعة ، فعزَمَتْ على المسير إلى خدمته ، وأوحى الله إلى سليمان بذلك ، وأنها خرجت مستسلمةً ، فقال : أيكم يأتيني بعرشها ؟ .

قوله جل ذكره : « قال يأيها الملأُ أيُّكم يأتيني بعَرْشِها قبل
أن يأتوني مُسْلِمين * قال عِفْرِيتٌ من
الجنِّ أنا آتيكَ به قَبْلَ أن تقومَ
مِن مقامِك وإنِّي عليه لقويٌّ أمين » .

بسط اللهُ — سبحانه — مُلْكَ سليمان ، وكان في مُلْكِهِ الجنُّ والإنسُ والشياطين ؛ الجنَّ على جهة التسخير ، والإنس على حكم الطوع ، والشياطين وكانوا على أقسام .

ولمَّا قال : « أيكم يأتيني بعرشها ؟ » قال عفريت من الجن — وكان أقوام — « أنا آتيك به قبل أنْ تقومَ من مقامك وإني عليه لقوي أمين » ، فلم يرغب سليمانُ في قوله لأنه بَنَى القولَ فيه على دعوى قُوَّتِه[1] .

قوله جل ذكره : « قال الذي عِنْدَه عِلْمٌ من الكتاب
أنا آتيكَ به قَبْلَ أن يَرْتَدَّ إليك طَرْفُكَ
فلمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عنده قال هذا من
فضل ربي لِيَبْلُوَني أأَشْكُرُ أم أكْفُرُ
ومَن شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِه ومَن
كَفَرَ فإنَّ ربي غنيٌّ كريم » .

---

(٢) هذه نظرة ملامتية تعتمد على النفور من كل دعاوى النفس والتظاهر .

« الذى عنده علم من الكتاب » (قيل هو آصف)[1] وكان صاحب كرامة. وكرامات الأولياء مُلْتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء ، إذ لو لم يكن النبىُّ صادقاً فى نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصَدِّقه ويكون من جملة أمته .

ومعلومٌ أنه لا يكون فى وُسْعِ البَشَرِ الإتيانُ بالعرش بهذه السرعة ، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى . وقَطْعُ المسافة البعيدة فى لحظةٍ لا يصح تقديره فى الجواز إلا بأحد وجهين : إمَّا بأن يُقَدِّم[2] اللهُ المسافةَ بين (العرش وبين منزل سليمان)[3] ، وإمَّا بأن يعدم العرش ثم يعيده فى الوقت الثانى بحضرة سليمان . وأىُّ واحدٍ من القسمين كان — لم يكن إلّا من قِبَلِ الله ، فالذى كان عنده علم من الكتاب دعا الله — سبحانه — واستجاب له فى ذلك ، وأحضر العرش ، وأمر سليمان حتى غَيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وأثبته على تركيبٍ آخر غير ما كان عليه .

ولمَّا رأى سليمان ذلك أخذ فى الشكر لله — سبحانه — والاعتراف بِعِظَمِ نِعَمِه ، والاستحياء ، والتواضع له ، وقال : « هذا من فضل ربى » : لا باستحقاقٍ منى ، ولا باستطاعةٍ من غيرى ، بل أحمد النعمةَ لربِّى حيث جعل فى قومى ومِنْ أمتى مَنْ له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءه .

وحقيقةُ الشكرِ — على لسان العلماء — الاعترافُ بنعمة المُنْعِم على جهة الخضوع والأحسنُ أن يقال الشكرُ هو الثناء على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إحسانه ، فيدخل فى هذا شكرُ اللهِ العبد لأنه ثناء منه على العبد بذكر إحسان العبد ، وشكرُ العبدِ ثناء على الله بذكر إحسانه .. إلّا أنَّ إحسان الحقِّ هو إنعامُه ، وإحسانُ العبد طاعتُه وخدمتُه لله ، وما هو الحميد من أفعاله .

فأمَّا على طريقِ أهل المعاملة وبيان الإشارة : فالشكرُ صَرْفُ النعمة فى وجه الخدمة .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص

(٢) فى م (يعدم) بالعين ، وإعدام المسافة أى جعلها فى حكم العدم مقبول فى المعنى ، وينسجم مع جعل العرش فى حكم العدم وإعادة خلقه من جديد .. وكذلك تقديم المسافة (بالقاف) مقبول حتى يصبح نقله من مكان إلى مكان قريب ميسوراً ، فالإعدام أو التقديم كلاهما مقبول لأن القدرة الإلهية تشملهما .

(٣) هكذا فى م ولكنها فى ص (بين القريتين) أى قرية سليمان وقرية بلقيس .

ويقال الشكر ألاّ تستعينَ بنعمته على معاصيه .

ويقال الشكر شهودُ المنعِم من غير مساكنةٍ إلى النعمة .

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر .

ويقال أعظمُ الشكرِ الشكرُ على توفيق الشكر .

ويقال الشكر على قسمين : شكر العوام على شهود المزيد ، قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنّكم[1] » ، وشكر الخواص بكون مجرداً عن طلب المزيد ، غيرَ متعرض لنال العوض .

ويقال حقيقةُ الشكرِ قيد النعم وارتباطها ؛ لأنَّ بالشكر بقاءها ودوامَها .

قوله جل ذكره : « قال نكِّرُوا لها عَرْشَها ننظُرْ أتهتَدِى أمْ تكونُ من الذين لا يهتدون » .

أراد سليمانُ أن يمتحنَها وأن يختبرَ عقلَها ، فأمر بتغيير عرشِها ، فلمّا رأته : —

« قيل أهكذا عَرْشُكِ ؟ قالت : كأنّه هو »

فاستدلَّ بذلك على كمالِ عقلها ، وكان ذلك أمراً ناقضاً للعادة ، فصار لها آية وعلامةً على صحة نبوة سليمان — عليه السلام — وأسلمَتْ : —

« وصَدَّها ما كانت تعبد من دونِ اللهِ إنها كانت من قومٍ كافرين * قيل لها ادخلي الصَّرْحَ فلمّا رأَتْهُ حَسِبَتْه لُجَّةً وكَشَفَتْ عن ساقيها قال إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قواريرَ قالت ربِّ إنِّي ظَلَمْتُ نفسى وأسلمت مع سليمانَ لله ربِّ العالمين »

كان ذلك امتحاناً آخرَ لها . فقد أَمَرَ سليمانُ الشياطينَ أن يصنعوا من الزجاج شِبْهَ

---

(1) آية ٧ سورة إبراهيم .

طبقٍ كبيرٍ صافٍ مضيء ، ووَضَعه فوق بِرْكةٍ بها ماء كثير عميق ، يُرَى الماء من أسفل الزجاج ولا يُميِّزُ بين الزجاج والماء ، وأُمِرَتْ أن تخوضَ تلك البركة ، فكَشَفَتْ عن ساقيها ؛ لأنها وُصِفَتْ لسليمان بأنها جِنِّيةُ النَّسَبِ ، وأن رجليها كحوافر الدواب ، فتقوَّلوا عليها. ولمَّا تَوَهَّمَتْ أنها تخوض الماء كَشَفَتْ عن ساقيها ، فرأى سليمان رِجْلَيْها صحيحين. وقيل لها : « إنه صرح ممرد من قوارير » : فصار ذلك أيضاً سبباً وموجِباً ليقينها. وآمنَتْ وتزوج بها سليمان عليه السلام.

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم صالحاً أنِ اعبُدُوا اللهَ فإذا هم فريقانِ يختصِمُون »

ذكر قصةَ ثمود ، وقصة نبيِّهم صالح عليه السلام ، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب ، وطلبهم منه معجزةً ، وحديث الناقة وعقرها ، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذى كانت لهم فيه أعظم آية . . إلى قوله :

« ومكروا مَكْراً ومَكَرْنا مَكْراً وهم لا يَشْعُرون »

ومَكْرُهُم ما أظهروا فى الظاهر من موافقة صالح ، وعقرهم الناقة خفيةً ، وتوريك الذَّنبِ على غير جارمه[1] ، والتبرِّى من اختيارهم ذلك.

وأمَّا مَكْرُ اللهِ فهو جزاؤهم على مَكْرِهم بإخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم ، ثم إحلالها بهم بغتةً . فالمَكْرُ من الله تخليتُه إياهم مع مَكْرِهم بحيث لا يعصمهم ، وتزيينُ ذلك فى أعينهم ، وتحبيبُ ذلك إليهم . . ولو شاء لعصَمَهُم. ومن أليم مَكْرِه انتشارُ الصيت بالصلاح ، والعمل فى السِّرِّ بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح ، وفى الآخرة لا يَجُوزُ فى سُوقِها هذا النَّقْدُ ![2].

---

(١) أى إلقاء الجرم على غير من اقترف الجرم.

(٢) جميل من القشيرى تعبيره عن أسلوب (التعامل) بين الخلق والمخلوق مكراً بمكر بلفظة (النقد) .. وفى الآخرة لا يسرى هذا النقد ، فلا يجدى مكرهم فتيلا لأن التعامل فى (سوق) الآخرة يكون على نحو آخر.

قوله جل ذكره : « فانظرْ كيف كان عاقبةُ مَكْرِهم أنَّا دَمَّرْناهم وقومَهم أجمعين » .

أهلكهم ولم يغادر منهم أحداً : —

« فتلك بيوتُهم خاوية بما ظَلَمُوا إنَّ فى ذلك لآيةً لقوم يعلمون » .

وفى الخبر : « لو كان الظلمُ بيتاً فى الجنة لَسَلَّطَ اللهُ عليه الخرابَ » ؛ فالنفوسُ إذا ظَلَمَت بزَلّاتِها خربت بلحوقها شؤم الذِّلة حتى يتعود صاحبُها الكسلَ ، ويستوطن مركبَ الفشل ، ويُحْرَم التوفيق ، ويتوالى عليه الخذلانُ وقسوةُ القلب وجحود العين[1] وانتفاء تعظيم الشريعة من القلب . وأصحابُ القلوبِ إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا طَرْدَها عن قلوبهم .. خربت قلوبُهم حتى تقسو بعد الرأفة ، وتجف بعد الصفوة .

فخرابُ النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة ، وخرابُ القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة ، وخراب الأرواح باستيلاء الحجبة والوقفة ، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة[2] .

قوله جل ذكره : « ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشةَ وأنتم تُبْصِرون * أئِنَّكُم لتأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء بل أنتم قومٌ تجهلون » .

ذَكَرَ قصة لوطٍ وأمته ، وما أصَرُّوا عليه من الفاحشة ، وما أَحَلَّ اللهُ بهم من العقوبة ، وإحلالَ العقوبة بامرأته التى كانت تطابقُ القومَ ، وتخليص الحقِّ لوطاً من بينهم ، وما كان من أمر الملائكة الذين بُعِثُوا لإهلاكهم .

قوله جل ذكره : « قُلِ الحمدُ للهِ وسلام على عباده الذين اصطفى آللهُ خيرٌ أم مايُشْرِكون» .

---

(١) أى لا تكون مقراً للاعتبار .

(٢) هذه إشارة عامة توضح آفات الطريق فى مراحله المختلفة .

هم الذين سَلَّمَ عليهم فى آزاله وهم فى كتم العَدَم ، وفى متناول علمه ومتعلق قدرته ، ولم يكونوا أعياناً فى العَدَم ولا أفادوا (١) ، فلمّا أظهرهم فى الوجود سَلَّمَ عليهم بذلك السلام ، ويُسْمِعُهم فى الآخرة ذلك السلام . والذين سَلَّمَ عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك والشُّبَهِ ، ومن فنون البِدَعِ ، ومن وجوه الألم ، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ ، ثم من الغيبة والحجبة وما ينافى دوام القربة .

ويقال اصطفاهم ، ثم هداهم ، ثم آواهم ، وسَلَّمَ عليهم قبل أنْ خَلَقَهم وأبداهم ، وبعد أن سَلَّمَ عليهم بودِّه لقَّاهم .

ويقال : اصطفاهم بنورِ اليقينِ وحُلُوِّ الوَصْلِ وكمالِ العَيْش .

قوله جل ذكره : « أمَّن خلق السموات والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذاتَ بهجةٍ ما كان لكم أن تُنْبِتُوا شَجَرَها .. » .

فثمراتُ الظاهرِ غذاء النفوس ، وثمراتُ الباطنِ والأسرار ضياء القلوبِ ، وكما لا تبقى فى وقت الربيع من وحشة الشتاءِ بقيةٌ فلا يبقى فى قلوبهم وأوقاتهم من الغيبةِ والحجبةِ والنفرةِ والتهمةِ شَظِيةٌ .

قوله جل ذكره : « أمَّن جعل الأرضَ قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجَعَلَ لها رواسيَ » .

نفوسُ العابدين قرارُ طاعتهم ، وقلوبُ العارفين قرار معرفتهم ، وأرواح الواجدين قرار

---

(١) ربما يقصد القشيرى أنهم — وقد كانوا فى كتم العدم — لم تصدر عنهم طاعة تفيدهم فى استحقاق إثابة لهم واستيجاب تسليم عليهم .. والمقصود — إن صح هذا الرأى — أن عمل الإنسان لا قيمة له بجانب الفضل الإلهى والقسمة السابقة .

محبتهم ، وأسرار الموحِّدين قرار مشاهدتهم[1] ، فى أسرارهم أنوار الوصلة وعيون القربة ، وبها يسكن ظمأُ اشتياقهم وهيجانُ قلقِهم واحتراقهم .

« وجعل لها رواسىَ » من الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

ويقال « جعل لها رواسى » اليقين والتوكل .

ويقال الرواسى فى الأرض الأبدالُ والأولياء والأوتاد[2] ؛ بهم يديم إمساكَ الأرض ، وببركاتهم يَدْفَعُ عن أهلها البلاء .

ويقال الرواسى هم الأئمة الذين يَهْدُون المسترشدين إلى الله .

قوله جل ذكره : « وجعل بين البحرين حاجزاً أإِلهٌ مع اللهِ بل أكثرُهم لايعلمون » .

« جعل بين البحرين حاجزاً » بين القلب والنفس لئلا يغلب أحدُهما صاحبَه .

ويقال بين العبودية وأحكامها ، والحقيقة وأحكامها ، فلو غَلَبَتْ العبوديةُ كانت جَحْداً للحقيقة ، ولو غلبت الحقيقةُ العبوديةَ كانت طَيّاً للشريعة .

ويقال: ألْسِنَةُ المريدين مَقرُّ ذكره ، وأسماعُهم محَلُّ الإدراك الموصِّل إلى الفهم ، والعيون مقر الاعتبار .

قوله جل ذكره : « أمَّن يجيب المُضْطَرَّ إذا دعاه ويكشف السوء . . » .

فَصَلَ بين الإجابة وبين كَشْفِ السوء ؛ فالإجابةُ بالقَولِ والكشفُ بالطَّوْلِ ، الإجابة بالكلام والكشفُ بالإنعام . ودعاء المضطر لا حجابَ له ، وكذلك دعاء المظلوم » ولكن لكلٍّ أجلٍ كتاب » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مساعدتهم) ويبدو أن الهاء التبست على الناسخ ، فالمعروف أن الاسرار محل المشاهدة .

(٢) جاء فى حلية الأولياء (حـ ٨ ص ٣٦٧) حديث عن النبى (ص) : «خيار أمتى فى كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأبدال ، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم) .

ويرى الجرجانى : أن الأبدال سبعة (التعريفات ص ٣٧ ط مصر سنة ١٩٣٨)

ويرى ابن عساكر : أنهم ٢٢ بالشام + ١٨ بالعراق (تاريخ دمشق لابن عساكر حـ١ ص ٢٧٨) .

ويرى الهجويرى : أن الأوتاد أربعة يطوفون العالم بجملته كل ليلة (كشف المحجوب ص ٢٦٩) .

ويقال للجناية : سراية ؛ فمَنْ كان فى الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جُرْمِه الذى صَلُفَ منه وهو مختارٌ فيه ، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون ، وذلك الاضطرار سراية ما بَدَرَ منهم فى حال اختيارهم .

ومادام العبدُ يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْلِ والحيلة ، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه — فليس بمضطرٍ ، فالمضطرُ يرى نَفْسَه كالغريق فى البحر ، أو الضَّالِّ فى المتاهة ، وهو يرى عِنَانَه بيد سَيِّدِه ، وزِمَامَه فى قبضته ، فهو كالميت بين يدى غاسِلِه ، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة ؛ لاعتقاده فى نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة[1] .

ولا ينبغى للمضطر أن يستعين بأحدٍ فى أن يدعوَ له ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ الإجابة له .. لا لمن يدعو له .

ثم كما وَعَدَ المضطرَّ الإجابةَ وكَشْفَ السوء وَعَدَه بقوله : —

« ... ويجعلُكم خُلَفَاء الأرضِ أَإِلَهٌ
مع اللهِ قليلًا ما تَذَكَّرون » .

فإنَّ مع العسر يسراً ، ولم يقل: للعسر إزالة ، ولكن قال : مع العسرِ يُسْرٌ ؛ فنهارُ اليُسْرِ حاصلٌ بعد ظلام العُسْرِ .

ثم قال : « أَإِلَه مع الله قليلًا ما تذكرون » لأنَّ العبدَ إذا زَالَ عُسْرُه ، وكُشِفَ عنه ضُرُّه نَسِيَ ما كان فيه ، وكما قال القائل :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى ... ولم يَكُ صعلوكاً إذا ما تَمَوَّلا

(١) إذا اطمأن العبد لنفسه ، ولاحظ عمله فَقَدَ عنصراً هاماً من عناصر السير فى هذا الطريق ، وهو الإخلاص .. وفى ذلك يقول أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . ويرى أبو عثمان المغربى : أن إخلاص الخواص : هو ما يجرى عليهم لا بهم فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ، ولا بها اعتداد .

قوله جل ذكره : « أَمَّن يَهدِيكُم فى ظُلُمَاتِ البَرِّ والبحرِ »

إذا أظلم الوقتُ على صاحبه فى متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب ، وضاق الأمرُ بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز ، والتحيُّر عند طلب ترجيح بعض الخواطر على بعضٍ بشواهد العقل .. فَمَنْ الذى يرشدكم لوجه الصواب بِتَرْكِ التدبير ، وللاستسلام لِحُكم التقدير ، وللخروج من ظلمات مجوِّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير ، وتفويض الأمر إلى اختيار الحق ، والاستسلام لما جرَتْ به الأقسامُ ، وسَبَقَتْ به الأقدار ؟ .

« .. ومَن يُرسِلُ الرياحَ بُشْراً بين
يدى رحمتِه أإلَهٌ مع اللهِ تعالى اللهُ عَمَّا
يُشْرِكون » .

مَنْ الذى يُرْسِلُ رياحَ فَضْلِهِ بين يدى أنوار اختياره فيمحوَ آثارَ اختيارِ نَفْسِك ، ويعجِّلَ بِحُسْنِ الكفاية لك ؟ .

ويقال : يرسل رياحَ التوكل فيُطَهِّرُ القلوبَ من آثار الاختيار وأوضار التدبير ، ثم يُطْلِعُ شموسَ الرضا فيحصلُ بَرْدُ الكفاية فوق المأمول فى حال سكينة القلب .. أإله مع الله ؟ « تعالى الله عما يشركون » : من إحالة المقادير على الأسبابْ .

قوله جل ذكره : « أَمَّن يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيدُه ومَن
يرزقُكُم من السماء والأرضِ أإلَهٌ مع
اللهِ قُلْ هاتوا بُرهانَكُم إن كنتم
صادقين » .

يُظْهِرُ ما يُظْهِرُ بقدرته على مقتضى سابق حُكْمِه ، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحقَّ فيه قولُه ، وسَبَقَ به قضاؤه وقدَرُه . فإذا زال وانتفى وانعدم بعضُ ما يظهر ويخصص .. فَمَنِ الذى يعيده مثلما بدأه ؟ ومن الذى يضيِّق الرزقَ ويُوَسِّعُه ؟ ومن الذى يقبض فى بعض الأوقات على

بعض الأشخاص ؟ وفى وقت آخر من الذى يبسط على قوم آخرين ؟ .

هل فى قدرة أحدٍ غيرِ اللهِ ذلك ؟ .

إنْ توهمتم شيئاً من ذلك فأوْضِحُوا عنه حُجَّتَكم . وإذ قد عجزتم .. فهلَّا صدَّقْتُمْ ؟ وبالتوحيد أقررتم ؟ .

قوله جل ذكره : « قُل لا يعلم مَن فى السموات والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ وما يَشْعُرون أيَّانَ يُبعَثُون » .

« الغيب » : ما لا يَطَّلِعُ عليه أحدٌ ، وليس عليه للخلْق دليل ، وهو الذى يستأثر بعلمه الحقُّ[1] ، وعلومُ الخَلْق عنه متقاصرة ، ثم ما يريد اللهُ أن يخصّ قوماً بعلمه أفردهم به .

« وما يشعرون أيان يبعثون » : فإنه أخفى علمَ الساعة عن كل أحدٍ .

قوله جل ذكره : « بل ادَّارَكَ[2] عِلْمُهم فى الآخرةِ بل هم فى شكٍّ منها بل هم منها عَمُون » .

فهم فى الجملة يَشُـكُّون فيه ؛ فلا ينفونه ولا بالقطع يجحدونه .. وهكذا حُكْمُ كلِّ مريضِ القلب ، فلا حياةَ له فى الحقيقة ، ولا راحةَ له من يأسه ؛ إذ هو من البحث فى شكٍّ ، ومن الحياة الثانية فى استبعاد : —

« وقال الذين كفروا أإذا كُنَّا تُراباً وآباؤنا أئِنَّا لَمُخْرَجون * لقد وُعِدْنا هذا نحن وآباؤنا من قَبْلُ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الخلق) وهى خطأ فى النسخ إذ الحق هو الذى يستأثر بعلم الغيب .
(٢) يرى القرطبى أن القراءة هكذا والقراءة على (بل أدرك) معناها واحد لأن أصل (ادّارك) تدارك وأدغمت الدال فى التاء وجىء بألف الوصل (الجامع لأحكام القرآن ج ١٣ ص ٢٢٦) .

وُعِدَ آباؤنا بذلك من قبل، ثم لم يكن لهم تحقيق، وما نحن إلا مِثْلُهم، وكانوا يسألون متى الساعة ؟ :

« ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم
صادقين ؟ » .

قال الحقُّ : إنه عن قريبٍ سيحل بهم ميقاته : —

« قُلْ عسىٰ أنْ يكونَ رَدِفَ[1] لكم
بعضُ الذي تستعجلون » .

ثم قال جل ذكره :

« وإنَّ رَبَّكَ لذو فَضْلٍ على الناسِ
ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

لأنهم لا يُمَيِّزُون بين مِحَنِهم ومِنَحِهِم . وعزيزٌ مَنْ يَعْرِفُ الفَرْقَ بين ما هو نعمةٌ من الله له وبين ما هو محنة ؛ فإذاً تقاصَرَ عِلْمُ العبدِ عمَّا فيه صلاحه ، فعسى أن يحب شيئاً ويظنُّه خيراً وبلاؤه فيه ، ورُبَّ شيءٍ يظنُّه العبدُ نعمةً فيشكر عليها ويستديمها ، وهي محنةٌ له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله في صَرْفِها ! وبعكس هذا كم من شيءٍ يظنه الإنسان بخلاف ما هو به ! .

قوله جل ذكره : « وإنَّ ربَّكَ ليَعْلَمُ ما تُكِنُّ
صدورُهم وما يُعْلِنون » .

لا تَلْتَبِسُ على الله أحوالُهم ؛ فصادِقٌ يستوي ظاهِرُه وباطنُه بعلمه ، ومنافقٌ يخالف باطنُه ظاهِرَه يُلَبِّسُ على الناس حالَه .. وهو — سبحانه — يعلمه ، وكافرٌ يستوي في الجَحْدِ سِرُّه وعَلَنُه بعلمه ، وهو يجازي كلاًّ على ما عَلِمَه .. كيف لا .. وهو قَدَّرَه ، وعلى ما عليه قضاه وقَسَمَه ؟! .

(١) من أردف أي تبع ، وقال الفراء : ردف لكم أي دنا .

قوله جل ذكره : « وما مِنْ غائبةٍ فى السماء والأرضِ إلّا فى كتابٍ مبين » .

ما من شىء إلّا مُثْبَتٌ فى اللوح المحفوظ حُكْمُه ، ماضيةٌ فيه مشيئته ، متعلّقٌ به عِلْمُه

قوله جل ذكره : « إنَّ هـــذا القرآنَ يَقُصُّ على بنى إسرائيل أكثرَ الذى هم فيه يختلفون * وإنَّهُ لَهُدًى ورحمةٌ للمؤمنين » .

وهم يُخْفُون بعضاً ، وبعضاً يُظْهِرُون ، ومع ما يَهْوَوْن يدورون .

وفى هذه الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابَهم ، وعَصَمَ مِنَ التغيير والتبديل ما به يدينون . وهذه نعمةٌ عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون ؛ فالقرآن هدًى ورحمة للمؤمنين ، وليس ككتابهم الذى أخبر الصادقُ أنهم له مُحَرِّفون مُبَدِّلُون .

« إنَّ رَبَّكَ يقضى بينهم بحُكْمِه وهو العزيز العليم » .

هو « العزيز » المُعِزُّ للمؤمنين ، « العليم » بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم والعذاب الأليم .

قوله جل ذكره : « فتوكَّلْ على اللهِ إنَّكَ على الحقِّ المبــين » .

أى اجتهد فى أداء فَرْضِه ، وثِقْ بصدق وعده فى نصره ورزقه ، وكفايته وعَوْنِه . ولا يهولنَّكَ ما يجرى على ظواهرهم من أذًى يتصل منهم بك ، فإنما ذلك كلُّه بتسليطنا إن كان محذوراً ، وبتقييضنا وتسهيلنا إن كان محبوباً . وإنك لَعَلَى حقٍّ وضياء صِدْقٍ ، وهم على شفا [illegible] شك .

قوله جل ذكره : « إنَّك لا تُسْمِعُ الموتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء إذا وَلَّوْا مُدْبِرِين » .

الذين أماتَ اللهُ قلوبَهم بالشِّرْكِ ، وأصمَّهم عن سماع الحق — فليس فى قُدْرَتِكَ أنْ تَهْدِيَهم للرُّشْدِ أو تنقذهم من أَسْرِ الشَّكِّ .

« وما أنت بِهادِى العُمْىِ عن ضلالتِهم
إن تُسْمِعُ إلَّا مَن يُؤْمِن بآياتنا فَهم
مُسْلِمُون » .

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة ، ولكنك لا تهدى أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالته إلى العرفان ، إذ ليست بِقُدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة .

أنت لا تُسْمِعُ إلَّا مَنْ يؤمِن بآياتنا ، فلا يَسْمَعُ منك إلَّا مَنْ أسعدناه من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق .

قوله جل ذكره : « وإذَا وَقَعَ القولُ عليهم أخرجنا لهم
دابَّةً مِنَ الأرضِ تُكَلِّمُهم أنَّ الناسَ
كانوا بآياتنا لا يوقِنون » .

إذا حقَّ الوعدُ بإقامةِ القيامةِ أوضحنا أشراطَها فى كلامِ الدَّابةِ المُخْرَجَةِ من الأرضِ [1]. وغير ذلك من الآيات .

قوله جل ذكره : « ويومَ نَحْشُرُ من كلِّ أمةٍ فوجاً مِمَّن
يُكَذِّبُ بآياتنا فهم يُوزَعون » .

وعند ذلك لا ينفع الإيمانُ ولا يُقْبَلُ العُذْرُ : —

---

(١) فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم : «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها (لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً = زيادة من صحيح مسلم) طلوعُ الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» . ومن الأقوال فى هذه الدابة : أنها فصيل ناقة صالح ، ومنها أن هذه الدابة تكون إنساناً متكلما يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا ، ومنها أنها تخرج من جبل الصفا بمكة بعد أن يتصدع ... إلى غير ذلك من الأقوال المنسوبة للصحابة والتابعين والمفسرين .

« وَوَقَعَ القولُ عليهم بما ظلموا فهم
لا ينطِقُون » .

ثم كرّرَ ذكر الليل والنهار واختلافهما : —

« ألم يَرَوْا أنّا جعلنا الليلَ ليَسْكُنُوا
فيه والنهارَ مُبْصِراً إنَّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يُؤْمِنون » .

أى ليكونَ الليلُ وقتَ سكونِهم ، والنهارُ وقتَ طلبِ معاشِهم .

قوله جل ذكره : « ويومَ يُنفَخُ فى الصُّورِ ففزِعَ مَن
فى السمٰواتِ ومَن فى الأرضِ إلّا مَن
شاء اللهُ وكُلٌّ أتَوْه داخرين » .

أخبر أن اليومَ الذى يُنفَخُ فيه فى الصور هو يومُ إزهاق الأرواح ، وإخراجها عن الأجساد ؛ فَمِنْ روحٍ ترق إلى عِلِّيين ، ومِنْ روحٍ تذهب إلى سجِّين . أولئك فى حواصل طيرٍ تسرح فى الجنة تأوى بالليلِ إلى قناديلَ معلقةٍ من تحت العرش صفتها التسبيح والرَّوْح والراحة ، ولبعضها الشهود والرؤية ... على مقادير استحقاقهم لِمَا كانوا عليه فى دنياهم .

وأمّا أرواحُ الكفار ففى النار تُعَذَّبُ على مقادير أجرامهم .

قوله جل ذكره : « وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهى
تمرُّ مرَّ السحابِ صُنْعَ اللهِ الذى أتقن
كُلَّ شىءٍ إنّهُ خبيرٌ بما تفعلون » .

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمكين ، هم ساكنون بنفوسهم[1] سائحون فى الملكوت بأسرارهم .. قيل : إن الإشارة اليومَ إليهم . كما قالوا : العارف كائنٌ بائنٌ ؛ كائنٌ مع الناس بظاهره ، بائنٌ عن جميع الخَلْق بسرائره .

(١) عُرِف الجنيدُ بسكونه وقلة اضطرابه عند السماع، فلما سئل فى ذلك تلا : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى .... » (اللمع للسراج ص ١٢٨).

قوله جل ذكره: « مَن جاء بالحسنةِ فله خيرٌ منها وهم
مِّن فزَعٍ يومئذٍ آمِنون * ومَن جاء
بالسيئةِ فَكُبَّتْ وجوهُهُم في النار هل
تُجزَوْنَ إلا ما كُنتُم تعملون » .

يحتمل أن يكون « خير » ها هنا للمبالغة ؛ لأن الذى له فى الآخرةِ من الثوابِ خيرٌ مِمّا منه من القُرَب : ويحتمل فله نصيب خيرٌ أو عاقبة خيرٌ أو ثواب خيرٌ منها . وهم آمنون مِنْ فزَعِ القيامة . ومن جاء بالسيئة : فكما أن حالَهم اليوم من المطيعين بالعكس فحُكْمُهم غداً فى الآخرة بالضدّ .

قوله جل ذكره: « إنما أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ ربَّ هذه
البلدة ... »

أخبر أنه أمره بالدين الحنيفِ ، والتبرِّى من الشِّركِ ؛ الجلىِّ منه والخفىِّ ، وبملازمةِ الطريقِ السَّوىِّ . وأخبر أنَّ مَنْ اتبعه وصدَّقَه أوجب الحقُّ ذمامه وحقَّه .

قوله جل ذكره: « وقُلِ الحمدُ للهِ سيريكم آياته .. »

سيريكم — عن قريبٍ — آياتِه ، فطوبى لِمَنْ رجع قبل وفاته ، والويلُ على مَنْ رجع بعد ذهاب الوقت وفواته ! .

سورة القصص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يَسّر له فى دنياه وعُقْباه ، اسم عزيز مَن اشتاق إلى لُقياه استعذَبَ فيه ما يلقاه من بَلْوَاه . ومَنْ طَلَبَ غيره مُؤْنِساً فى دنياه أو عُقْباه « ضَلَّ مَنْ تدعون إلّا إيّاه » .

قوله جل ذكره : «طسم * تلك آياتُ الكتابِ المبين».

« الطاء » تشير إلى طهارة نُفُوسِ العابدين عن عبادة غير الله ، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله ، وطهارة أرواح الواجدين عن محبة غير الله ، وطهارة أسرار للوحّدين عن شهود غير الله . « والسين » تشير إلى سِرِّ اللهِ مع العاصين بالنجاة ، ومع المطيعين بالدرجات ، ومع المحبين بدوام المناجاة . « والميم » تشير إلى مِنَّتِه على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات فى سبيل الخيرات .

قوله جل ذكره : « نتلوا عليكَ من نبإِ موسىٰ وفرعون بالحقِّ لقومٍ يؤمنون » .

سماعُ قصةِ الحبيبِ من الحبيب يُوجِبُ سلوةَ القلب ، وذهابَ الكَرْبِ ، وبهجةَ السِّرِّ ، وثَلَجَ الفؤاد . وقد كرَّر الحقُّ ذكر قصة موسى تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقَدْرِه ، ثم زيادةً فى البيانِ لبلاغة القرآن ، ثم إفادةً لزوائدَ فى المذكورِ قولُه فى كل موضعٍ يتكرر فيه .

قوله جل ذكره : « إنَّ فرعونَ عَلاَ فى الأرضِ وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً يستضعف طائفةً منهم يُذَبِّحُ أبناءهم ويَستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين » .

تكبّر فرعونُ بغير حقٍّ فأقاه بحقٍّ ، وتجبّرَ بغير استحقاق فأذلّه الله باستحقاق واستيجاب ، وجعل أهلها شيعاً يذبِّح أبناءهم[1] بعد ما استضعفهم ، ويستحي نساءهم ، وأفنى منهم من كان (...)[2] ، وبالفساد حَكَمَ فيهم ، والله لم يرضَ بتَرْكِ إتلافهم .

قوله جل ذكره : « ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفوا
في الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم
الوارثين ◉ ونُمَكِّنَ لهم في الأرضِ
ونُرِيَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما منهم
ما كانوا يَحْذَرُون » .

نريد أن نَمُنَّ على المستَضْعَفِين بالخلاصِ من أيديهم ، وأنْ نجعلَهم أئمةً ، بهم يهتَدِي الخلقُ ، ومنهم يتعلمُ الناسُ سلوكَ طريق الصدق ، ونبارك في أعمارهم ، فيصيرون وارثين لأعمار مَنْ يُنَاوِيهم ، وتصير إليهم مساكنهم ومنازلهم ؛ فهم هُدَاةٌ وأعلامٌ ، وسادةٌ وقَادَةٌ ؛ بهم يُقْتَدَى وبنُورِهم يُهْتَدَى .

« ونمكن لهم في الأرض » : نُزِيلُ عنهم الخوفَ ، ونرزقهم البسطة والاقتدار ، ونمد لَهُمْ في الأجل . ونُرِي فرعونَ وهامانَ وقومهما ما كانوا يحذرون من زوال مُلْكِهم على أيديهم ؛ وأنَّ الحقَّ يُعْطِي — وإن كان عند الخَلْق أنّهُ يُبْطِي .

قوله جل ذكره : « وأوحينا إلى أمِّ موسى أنْ أرضعيه
فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليمِّ ولا تخافي
ولا تحزني إنَّا رادُّوه إليكِ وجاعِلوه
من المرسلين » .

---

(١) كان سبب سلوكه هذا السبيل مع بني إسرائيل أن الكهنة قالوا له ان مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال له المنجمون ذلك ، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك . قال الزجاج : العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا معنى للقتل .

(٢) مشتبهة .

أى ألقينا فى قلبها ، وأوحينا إليها وحىَ إلهام ، فاتخذت خاطرها فى ذلك ، وجرى منها ذلك وهى مختارة باختيار أُدْخِلَ عليها .

لمّا وضعت أم موسى موسى كانت تخاف قتله، فإن فرعون قَتَلَ فى ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبنى اسرائيل، رجاء أن يقتل مَنْ رأى فى النوم ما عُبِّرله أن ذهابَ مُلْكِه على يدى إسرائيلى .. فألقى الله فى قلبها أن تفعل ذلك .

ثم إنه ربّاه فى حِجْرِه ذلك اليومَ — ليُعْلَمَ أنّ الأقدارَ لا تُغَالَبُ .

جعلت أم موسى موسى فى تابوتٍ ، وألقته فى نيل مصر ، فجاء الماء به إلى بِرْكةٍ كان فرعونُ جالساً على حافتها ، فأخذوه وحملوه إليه ، وفتحوا رأسَ التابوت . فلمّا رآه فرعون أخذَتْ رؤيتُه بمجامع قلبه ، وكذلك تمكّن حُبُّه من قلب امرأةِ فرعون ؛ قال تعالى : « وألقيت عليك محبةً منى » : [1] حيث خَلَقَ الله ملاحةً فى عينى موسى ؛ فكان من يقع عليه بَصَرُه لا يتمالك من حبِّه .

قوله جل ذكره : « فالتقطه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم
عــدواً وحزَناً إنّ فرعونَ وهامانَ
وجنودَهما كانوا خاطئين » .

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم ، وقالت امرأةُ فرعون :

« قُرّتُ عينٍ لى ولكَ لا تقتلوه عسىٰ
أن ينفعَنَا أو نتّخِذَه ولداً وهم
لا يشعرون » .

فلم يكن لها ولد ، وهم لا يشعرون إلى ماذا يئول أمره .

« وأصبح فؤادُ أمّ موسىٰ فارغاً إن
كادت لَتُبْدِى به لولا أن رَبَطْنا على
قلبها لِتكونَ مِنَ المؤمنين » .

---

(١) آية ٣٩ سورة طه .

لمّا ألقته فى الماء سَكَّنَ اللهُ قلبَها ، وربط عليه ، وألهمها الصبر ، وأصبح فؤادها فارغاً إن كادت لتبدى به من حيث ضعف[1] البشرية ، ولكن الله ربط على قلبها .

قوله جل ذكره : « وقالت لأخته قُصِّيه فبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون » . .

أَمَرَتْ أُمُّ موسى أختَه أن تتبعَ أثره ، وتنظرَ إلى ماذا يئول أمره ، فلمّا وجدوه واستمكن حبُّه من قلوبهم طلبوا مَنْ يُرضِعه :

« وحَرَّمنا عليه المراضِعَ من قَبْلُ فقالَتْ هل أدُلُّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمِّه كى تقرَّ عينُها ولا تحزَنَ ولتعلمَ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون » .

أبى موسى قبولَ ثدي واحدةٍ ممن عُرِضَ عليهن .. فمَنْ بالنداة كانوا فى اهتمامٍ كيف يقتلونه أمسوا — وهم فى جهلهم — كيف يُغَذُّونه[2] !

فلمّا أعياهم أمرُه ، قالت لهم أختُه : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟ » فَقَبِلُوا نصيحتها شفقةً منهم عليه ، وقالوا : نعم ، فردُّوه إلى أمِّه[3] ، فلمّا وَضَعَتْ ثَدْيَها فى فمه ارتضعها موسى فَسُرُّوا بذلك ، وكانوا يَدْعُون أمَّه حاضنةً ومرضعةً .. ولم يُضِرها ، وكانوا يقولون عن فرعون : إنه أبوه .. ولم ينفعه ذلك[4] !

---

(١) هكذا فى م ، وقد أخطأ الناسخ فى ص حين أضاف لفظة (الله) بعد (ضعف) .

(٢) هكذا فى م ، وفى ص (يعذبونه) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

(٣) هكذا فى م ، وفى ص (آمره) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

(٤) يقصد القشيرى إلى شىء بعيد هو أن أحكام الناس ليست بالضرورة صائبة ، وأن للأمور حقائق وجواهر وبواطن خافية ، وأن أسماء الأشياء وظواهرها لا عبرة بها .

ولمّا أخذته أمّه علمت بتصديق الله ظنّها ، وسكن عن الانزعاج قلبُها ، وجرى من قصة فرعون ما جرى .

قوله جل ذكره : « ولمّا بَلَغَ أَشُدَّه واستوىٰ آتيناه حُكْمًا وعلمًا وكذلك نجزى المحسنين »

لمّا كَمُلَتْ سِنُّه وتمّ عقلُه ، واستوى كمال خصاله « آتيناه حكما » : أى أَتْمَمْنَا له التحصيل ، ووَفَّرْنا له العلم ، وبذلك جرَتْ سُنَّتُنا مع الأكابر والأنبياء .

قوله جل ذكره : « ودَخَلَ المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلها فوجَدَ فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوِّه ... »الآية .

قيل : دخل المدينةَ فى وقت الهاجرة، وتَفَرُّقِ الناس ، فَوَجَدَ فيها رجلين يتخاصمان:أحدهما إسرائيليٌّ من شيعة موسى وعلى دِينه ، والآخرُ قبطيٌّ مخالفٌ لهما ، فاستغاث الإسرائيليُّ بموسى على القبطى ، فوكَزَه موسى ليَدْفَعَه عن الإسرائيلى،فمات الرجلُ بذلك الوَكْز ، ولم يكن موسى يقصد قَتْلَه ، فقال موسى : —

« هذا من عَمَلِ الشيطانِ إنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مبين » .

فقد تمنّى موسى أنْ لو دَفَعَه عنه بأَيْسَرَ مما دفعه ، ولم ينسب القتل إلى الشيطان[1] ، ولكنْ دَفْعَهُ عنه بالغلظةِ نَسَبَه إلى الشيطان بأَنْ حَمَلَه على تلك الحِدَّة .

وهكذا .. إذا أراد اللهُ أمراً أجرى أسباباً ليَحْصُلَ بها مرادُه ، ولولا أنه أراد فتنةَ موسى لَمَا قبَضَ روحَ الرجلِ بمثل تلك الوكزة ، فقد يُضْرَبُ الرجلُ الكثيرَ من الضَّرْبِ والسياط ثم لايموت ؛ فموتُ القبطى بوكزةٍ اجراء لما قضاه وأراده .

---

(١) يتصل ذلك برأى القشيرى : أن الشيطان ليس بيده شىء ؛ لأنه لو كان بيده شىء لأمسك عن الهداية نفسه ، وكل عمل الشيطان أنه يوسوس فى صدور الناس .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ إنّى ظلَمْتُ نفسى فاغفِرْ لى فغفَرَ له إنه هو الغفورُ الرحيم » .

تاب موسى عمّا جرى على يده ، واستغفر ربَّه ، وأخبر اللهُ أنه غفَرَ له ، ولا عتاب[1] بعد المغفرة .

قوله جل ذكره : « قال رَبِّ بما أنعَمْتَ علىَّ فلَنْ أكونَ ظهيراً للمجرمين » .

قال موسى ربِّ بما أنعمت علىَّ من توفيقك لى بالتوبة[2] فلن أعودَ بعد ذلك إلى مثل ما سَلَفَ منى .

قوله جل ذكره : « فأصبح فى المدينةِ خائفًا يترقّبُ فإذا الذى استنصره بالأمسِ يستصرِخُه
قال له موسى إنّكَ لَغَوِىٌّ مبين •
فلمّا أنْ أراد أن يَبْطِشَ بالذى هو عدوٌّ لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلَنى
كما قتَلْتَ نفْساً بالأمسِ إن تُريدُ إلاَّ أن تكونَ جبّاراً فى الأرضِ وما تريدُ أن تكونَ من المُصْلِحين » .

أصبح فى المدينة خائفًا على نَفْسِه من فرعون لأنه كان يدَّعى أنه يحكم بالعدل ، وخاف موسى أن ينسبه فى قَتْلِ القبطىِّ إلى العَمْدِ والقصد . فهو « يترقب » علم فرعون وأن يُخْبَر بذلك فى وقته .

(١) هكذا فى النسختين ولا نستبعد أن تكون (عقاب) بالقاف فالسياق يحتملها أيضاً وإن كانت (عتاب) أليق بمقام النبوة .

(٢) حقيقة التوبة أن يتوب الله عليك أولاً ، ويهيء لك أسباب التوفيق لذلك ، فإذا شكرت فاشكر له ، فمسك لا يكفى ولا يغنى عن فضل الله .

وقيل « خائفاً » من الله مما جرى منه . ويقال « خائفاً » على قومه حلولَ العذابِ بهم .
وقيل « يترقب » نصرة الله إياه . ويقال « يترقب » مُؤْنِساً يأْنَسُ به .

فإذا الذى استنصره بالأمس يخاصِمُ إنساناً آخَرَ ، ويستعين به لِيُعِينَه ، فَهَمَّ موسى بأن يعين صاحبَه ، فقال الذى يخاصمه : « يا موسى ، أتريد أن تقتلنى كما قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ؟ » : قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذى قَتَلَ الرجلَ بالأمس ، ولكن لمَّا قَصَدَ مَنْعَه عن صاحبه استدلَّ على أن موسى هو الذى قَتَلَ الرجلَ بالأمس ، فلما ذكر ذلك شاع فى أفواه الناس أنَّ موسى هو الذى قتل القبطىَّ بالأمس ، فأمسك موسى عن هذا الرجل .

قوله جل ذكره : « وجاء رَجُلٌ من أقصى المدينةِ يسعىٰ
قال يا موسى إنَّ الملأَ يأْتَمِرُون بكَ
ليقتلوكَ فاخرُجْ إنِّى لكَ مِنَ الناصحين »

جاء اسرائيلىٌّ من معارف موسى يسعى ، وقال إن القوم يريدون قَتْــلَكَ ، وأنا واقفٌ على تدبيرهم ؛ وقد أرادوا إعلامَ فرعون .. فاخرُجْ من هذا البلد ، إنى لك من الناصحين .

« فخرج منها خائفاً يَتَرَقَّبُ قال ربِّ
نَجِّنى من القومِ الظالمين » .

خرج[1] من مصر « خائفاً » أن يقتفوا أثَرَه ، « يترقب » أن يدركه الطلب ، وقيل « يترقب » الكفايةَ والنصرةَ من الله ، ودعا الله فقال : « نجنى من القوم الظالمين » .

قوله جل ذكره « ولمَّا تَوَجَّه تِلقَاءَ مدينَ قال عسى ربى
أن يَهدِيَنِى سَوَاءَ السبيل » .

---

(١) ربما يذكرنا موقف موسى بقضية هامة فى الطريق الصوفى هى «السفر» : وضرورته أو عدمها ، وقد اختلف المشايخ فى أمره (الرسالة ص ١٤٣) ، ويرى القشيرى ضرورة السفر. إن نبا المكان واشتد البلاء . (الرسالة ص ٢٠٢) وهو نفسه غادر بلاده عند إطباق المحنة عليه .

توجّه بنفسه تلقاء مدين من غير قصدٍ إلى مدين أو غيره ، بل خرج على الفتوح[1] ، وتوجّه بقلبه إلى ربّه ينتظر أن يهديَه ربُّه إلى النحو الذى هو خيرٌ له ، فقال : عسى ربى أن يهدينى إلى أرشَدِ سبيلٍ لى .

قوله جل ذكره : « ولَمَّا وَرَدَ ماء مدينَ وَجدَ عليه أُمّةً من النـاسِ يسقون ووَجَدَ من دونِهمُ امرأتين تذودانِ قال ماخطبُكما ؟ قالتا لا نَسْقِى حتى يُصْدِرَ الرِّعاء وأبونا شيخٌ كبير » .

لمَّا وافى مدين شعيب كان وقت الهاجرة ، وكانت لهم بئر يستقون منها ، فيصبون المـاءَ فى الحياضِ ، ويسقون أغنامهم ، وكانوا أهل ماشية .

وكان شعيبُ النبيُّ عليه السلام قد كُفَّ بَصَرُه لكثرة بكائه ؛ فى القصة أنه بكى فذهب بَصَرُه ، ثم رَدَّ الله عليه بَصَرَه فبكى ، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصَرُه ، فأوحى الله إليه : لِمَ تبكى يا شعيب .. ؟ إنْ كان بكاؤك لخوف النار فقد أَمَّنتُكَ ، وإن كان لأجلِ الجنة فقد أَبَحتُها لك .

قال : ربُّ .. إنما أبكى شوقاً إليك . فأوحى الله إليه لأجل ذلك أخدَمْتُكَ نبِيِّى وكليمى عَشْرَ حجج .

وكانت لشعيب أغنامٌ ، ولم يكن لديه أجير ، فكانت بِنْتاه تسوقان الغنمَ مكانَ الرعاة ، ولم يكن لهما قدرة[2] على استقاء المـاء من البئر ، وكان الرعاة يستقون ، فإذا انقضَوْا[3] فإنْ بَقِيَتْ فى الحوضِ بقيةٌ من الماء استقت بنات شعيب .

---

(١) وهكذا سفر الأكابر .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (قوة) .

(٣) من الجائز أن تكون فى الأصل (انقضوا) بالفاء فالسياق يحتملها بدليل قوله فيما بعد (فلما انصرف الرعاة)

فلمّا وافى موسى ذلك اليومَ وشاهَدَ ذلك ورآهما يمنعان غنمهما عن الماء رَقّ قلبُه لها وقال : ما خطبُكما ؟ قالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » وليس لدينا أجير . فلمّا انصرف الرعاةُ سَقَى لهما ، ثم تولّى إلى ظلّ جدارٍ بعد ذلك . كان الجوع قد أصابه خلال سفَرِه ، ولم يكن قد تعوّدَ قط الرحلةَ والغُرْبةَ ، ولم يكن معه مالٌ ، فدعا الله :

« فقال ربِّ إنّى لِمَا أنزلتَ إلىّ من
خيرٍ فقيرٌ » .

قيل طَلَبَ قوةً تُزيل جوعَه ، وقيل طَلَبَ حالًا يستقلُ بها . والأحسن أن يقال جاع فطَلَبَ كِسْرَةً يَسُدُّ بها رَمَقَه — والمعرفة توجب سؤالَ ما تحتاج إليه من الله قليلًا أو كثيرًا[1] . فلمّا انصرفت ابنتا شعيب خَرَجَ شعيبُ إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسّها بيديه فوجَدَ أثَرَ الزيادة فى تلك الكَرَّة ، فسألهما فذَكَرتا له القصة ، وما سمعتا منه حين قال : « ربِّ إنى لما أنزلتَ إلىّ من خيرٍ فقيرٌ » ، قال شعيب : إذاً هو جائع . وبَعَثَ إحداهما لتدعوَه : —

« فجاءَتْهُ إحداهما تمشى على استحياءٍ
قالت إنّ أبى يَدْعُوك لِيَجْزِيَكَ أجْرَ
ما سَقَيْتَ لنا . فلمّا جاءه وقصّ عليه
القَصَصَ قال لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ
القومِ الظالمين »

قيل إنما استحيَتْ لأنها كانت تخاطِبُ مَنْ لم يكن لها مَحْرَمًا[2] .

وقيل لمّا دَعَتْه للضيافة تكلمتْ مستحيةً — فالكريم يستحى من الضيافة .

ويقال لم تَطِبْ نَفْسُ شعيب لمّا أحْسَنَ موسى إليه وأنه[3] لم يكافئه — وإن كان موسى

(١) لاحظ كيف طبق القشيرى (أدب السؤال) ومتى يجب ؟ وكيف يجب ؟ على موقف موسى الغريب المسافر الجائع المتعب ، وهذه الإشارة موجهة من بعيد إلى أرباب الطريق .
(٢) المحرم من الرجال والنساء الذى يحرم التزوج به لرحمه وقرابته .
(٣) الضمير فى (وأنه) يعود على شعيب كما هو واضح من الـ ة .

لم يُرِدْ مكافأةً منهم « فلمَّا جاءه وقصَّ عليه القصص » : لم يَقُلْ : فلما جاءَه قدَّم السُّفْرةَ[1] بل قال : وقصَّ عليه القصص .. وهذا طَرَفٌ من قصته .

ويقال : وَرَدَ بظاهره ماءَ مدين ، ووَرَدَ بقلبه مواردَ الأُنْس والرَّوْح . وللموارد مختلفة ؛ فمواردُ القلبِ رياضُ البَسطِ بكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطَفَة ، ومواردُ الأرواحِ مشاهدُ الأرواح فيُكاشَفُون بأنوار المشاهدة ، فيغيبون عن كل إحساسٍ بالنَّفسِ ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ .. وعند ذلك الولاية لله ؛ فلا نَفْسَ ولا حِسَّ ، ولاقلبَ ولا أُنْسَ .. استهلاكٌ في الصمدية وفناء بالكلية ! .

ويقال كانت الأجنبيةُ والبعد عن المحرمية يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما ، والإعراضَ والسكونَ عن سؤالها .. ولكن الذى بينهما من المشاكلة والموافقة بالسِّرِّ استنطقه حتى سألها عن قصتهما ، كما قيل :

أجارتَنا إنَّا غريبان هاهنا وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

ويقال : لمَّا سألها وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرها؛ ليُعْلَمَ أنَّ مَنْ تفقَّدَ أمرَ الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكاؤُهم .

ويقال مِنْ كمالِ البلاء على موسى أنَّه وافى الناسَ وكانَ جائعاً ، وكان مقتضى الرِّفْقِ أنْ يُطْعِموه ، ولكنه قبَضَ القلوبَ عنه ، واستقبله مِنْ موجباتِ حُكْمِ الوقتِ أنْ يعملَ عَمَلَ أربعين رجلاً ؛ لأن الصخرة التى نحَّاها عن رأس البئر — وَحْدَه — كان ينقلها أربعون رجلاً ، فلمَّا عَمِلَ عَمَلَ أربعين رجلاً ، تولَّى إلى الظِّلِّ ، وقال : إنْ رأيتَ أنْ تُطْعِمَنِي بعد مُقاساة اللتيا والتى .. فذلكَ فَضْلُكَ ! .

قال ذلك بلسان الانبساط ، ولا لسانَ أحلى من ذلك . وسُنَّةُ الشكوى أن تكون إليه لا مِنكَ .. بل منه إليه[2] .

---

(١) السفرة طعام يصنع للمسافر ، أو مائدة وما عليها من طعام .

(٢) لأنك بلا أنت ، فبالضرورة ليس منك شكوى ، فمن الحقيقة لا وجود إلا له ، فاتركه ممسكاً بعنانك ، واستسلم لما يختار ، ولن يكون إلا الخير .

ويقال : تولّى إلى ظلّ الأُنس وروْح البسط واستقلال السِّرِّ بحقيقة الوجود .

ويقال قال : « رب إنى لما أنزلت إلىّ من خيرٍ فقير » : فزدْنى فقراً ؛ فإنّ فقرى إليك يوجِبُ استحقاقى بك[1] .

قوله جل ذكره : « قالت إحداهما يا أبَتِ استأجِرْه إنّ خيرَ مَنِ استأجَرْتَ القوىُّ الأمينُ » .

كان شعيبُ عليه السلام يحتاج إلى أجير ، ولكن لا يسكن قلبه إلى أحدٍ ، فلمّا رأى موسى ، وسمع من ابنته وصفَه بالقوة والأمانة سأل :

عرَفْتُ قوَّته .. فكيف عرفْتِ أمانته ؟

فقالت : كنتُ أمشى قدُّامَه فأخَّرَنى عنه فى الطريق قائلاً : سيرى ورائى واهدينى ، لئلا يقَعَ بَصَرُه علىّ .. فقال شعيب :

« قال إنى أريد أنْ أنكِحَكَ إحدى ابنتىَّ هاتين على أن تأجُرَنى ثمانِىَ حِجَجٍ فإنْ أتمَمْتَ عَشْرًا فمِنْ عِندِك ، وما أريد أنْ أشقَّ عليكَ ستجدنى إن شاءَ اللهُ من الصالحين » .

فرغب موسى وتزوجها على صداقٍ أن يعمل عشر حججٍ لشعيب .

وفى القصة أن شعيباً قال لموسى : ادخلْ هذا البيتَ وَأخْرِجْ مما فيه من العِصِىِّ عصاً ، وكان البيتُ مظلماً ، فدَخَل وأخرج العصا ، تلك التى أظهر الله فيها معجزاته ، ويقال : إنها كانت لآدم عليه السلام ، ووقعت لشعيب من نبىٍّ إلى نبىٍّ . إذ يقال : إنه لما هَبَطَ آدمُ إلى الأرض صال عليه ما على وجهها من السِّباع ، فأنزل عليه الله عصاً ، وأمَرَه جبريلُ أنْ يَرُدَّ السباعَ عن نَفْسِه بتلك العصا .

---

(١) إظهار الضعف آية العبودية فالدعاء هنا ليس من قبيل الشكوى ، ولكنه تعبير عن ضعف العبد أمام عظمة الربوبية ، فكأنه نوع من التعبد (راجع قصة أيوب إذ نادى ربه ....)

وتوارث الأنبياء واحداً بعد الآخر تلك العصا ، فلمّا أخرج موسى تلك العصا ، قال شعيب: ردَّها إلى البيت ، واطرحها فيه ، وأخرِجْ عصاً أخرى ، ففَعَلَ غير مرة ، ولم تحصل كلَّ مرة فى يده إلا تلك العصا ، فلمَّا تـكرَّرَ ذلك علِمَ شعيبُ أنَّ له شأناً فأعطاه إياها ،

وفى القصة : أنه فى اليوم الأول ساق غَنَمَه ، وقال له شعيب : إنَّ طريقَكَ يتشعب شِعْبَيْنِ : على أحدهما كَلأٌ كثيرٌ .. فلا تَسْلُكْه فى الرعى فإنَّ فيه ثعباناً ، واسلُكْ الشِّعْبَ الآخرَ . فلمَّا بلغ موسى مَفْرِقَ الطريقين ، تفرَّقَتْ أغنامُه ولم تطاوعه ، وسامت فى الشِّعْبِ الكثيرِ الكَلأِ ، فتَبِعَها ، ووقع عليه النومُ ، فلمَّا انتبه رأى الثعبانَ مقتولاً ، فإن العصا قتلته ، ولمَّا انصرف أخبر شعيباً بذلك فَسُرَّ به . وهكذا كان يرى موسى فى عصاه آياتٍ كثيرة ، ولذا قال : « ولى فيها مآرب أخرى » .

قوله جل ذكره : « فلمَّا قضىٰ موسى الأجَلَ وسارَ بأهلِهِ
آنَسَ مِن جانبِ الطُّورِ ناراً قال لأهلِهِ
امكُثُوا إنِّى آنَسْتُ نارًا لَعَلِّى آتيكم
منها بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ من النارِ لَعَلَّكم
تصطلونَ » .

مضَتْ عشْرُ حِجَجٍ ، وأراد موسى الخروجَ إلى مصر ، فَحَمَلَ ابنةَ شعيب ، وسارَ بأهله متوجِّهاً إلى مصر . فكان أهلُه فى تسييره وكان هو فى تسيير الحقّ ، ولمَّا ظهَرَ ما ظهر بامرأته من أمر الطَّلْقِ استصعب عليه الوقتُ ، وبينا هو كذلك إذ آنَسَ من جانب الطور ناراً — أى أبصر ورأى — فكأنه يشير إلى رؤية فيها نوعُ أُنْسٍ : وإنَّ اللهَ إذا أراد أمراً [illegible] ما يليق به . ولو لم تقع تلك الحالةُ لم يخرج موسى عندها بإيناس النار ، وقد توَهَّمَ — أول الأمر — أنَّ مايستقبله فى ذلك الوقتِ من جملة البلايا ، ولكنه كان فى الحقيقة سَبَبَ تحقيقِ النبوة . فلولا أسرار التقدير — التى لا يهتدى إليها الخَلْقُ — لمـا قال لأهله : « امكثوا إنى آنست ناراً لعلِّى آتيكم منها بخبر » .

ويقال : ألاح له ناراً ثم لوَّح له نوراً ، ثم بدا ما بدا ، ولا كان المقصودُ النَّارَ ولا النورَ وإنما سماع نداء : « إنى أنا اللهُ ربُّ العالمين » .

قوله جل ذكره : « فلمَّا أتاها نُودِىَ من شاطىء الوادِ الأيمنِ فى البقعةِ المُبَارَكة من الشجرة أن ... » الآية

أخفى تعيين قَدَمِ موسى على الظنون بهذا الخطاب حيث قال : « من شاطىء الواد الأيمن » ، ثم قال : « فى البقعة المباركة » ثم قال « من الشجرة » .

وأَخْلِقْ بأن تكون تلك البقعة مباركة ، فعندها سَمِعَ خطابَ مولاه بلا واسطة ؛ وأعزُّ الأماكنِ فى العالمِ مَشْهَدُ الأحباب :

وإنى لأهوى النارَ ما يستعزنى لها الود إلا أنها من ديارِكا

ويقال : كم قَدَمٍ وَطِئَتْ تلك البقعة ، ولكن لم يسمع أصحابُها بها شيئاً ! . وكم ليلةٍ جَنَّتْ تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة ! .

ويقال : شتَّان بين شجرة وشجرة ؛ شجرة آدم عندها ظهور محنتِه وفتنتِه ، وشجرة موسى وعندها افتتاحُ نُبُوَّتِه ورسالتِه ! .

ويقال : لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة[1]، ولا يُدْرَى ما الذى كانت تثمره ، بل هى شجرة الوصلة ؛ وثمرتها القربة ، وأصلُها فى أرض المحبة وفرعُها باسِقٌ فى سماء الصفوة ، وأوراقها الزلفة ، وأزهارها تَنْفَتِقُ عن نسيم الرَّوْح والبهجة :

فلمَّا سمع[2] موسى تغيَّر عليه الحال ؛ ففى القصة : أنه غُشِىَ عليه ، وأرسل اللهُ إليه الملائكة ليُرَوِّحوه بمراوح الأُنْس ، وهذا كان فى ابتداء الأمر ، والمبتدئُ مرفوقٌ به . وفى المرة الأخرى خرَّ موسى صَعِقاً ، وكان يفيق والملائكةُ تقول له : يابن الحَيْض . أمثلك مَنْ يسأل الرؤية ؟ !

---

(١) قيل هى شجرة العليق وقيل العوسج والعوسج إذا عظم يقال له الغرقد (القرطبى) .

(٢) معروف أن السماع عند الصوفية يصحبه — خصوصاً لدى المبتدئين — تأثيرات عضوية ونفسية حادة

وكذا الحديث والقصة[1] ؛ في البداية لُطفٌ وفي النهاية عُنفٌ ، في الأولِ خَتْل وفي الآخر قَتْل ، كما قيل :

فلمّا دارت الصهبــــاء[2] دعا بالنّطـــع والسيفِ
كذا مَنْ يشرب الراحَ مع التِّنِّين في الصيفِ[3]

قوله جل ذكره : « وأنْ ألْقِ عصاك » .

يا موسى .. اخْلَعْ نعليكَ والقِ عصاك ، وأقِمْ عندنا هذه الليلة ، فلقد تَعِبْتَ في الطريق — وذلك إن لم يكن في النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال .

يا موسى .. كيف كُنْتَ في الطريق ؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صوَّبت[4] وكيف شرَّقْتَ وكيف غرَّبْتَ ؟ ما كنتَ في الطريق وحدَكَ يا موسى ! أحصَيْنا خُطَاكَ — فقد أحصينا كلَّ شيء عَدَدًا . يا موسى .. تَعِبْتَ فاسترحْ ، وبعد ما جِئْتَ فلا تَبرَحْ — كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافةَ في القيامةِ ، وتبوَّأ مَنْزِلَه من الجنة ؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون ، وآخرون يمضون من الطريق إلى بساط الزلفة؛ وكذا العبد أو الخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سلطانِه . يبتدئ أولاً بخدمة السُّدَّة العَلِيَّة ثم بعدها ينصرف إلى منزله . وكذلك اليوم أمرنا[5] ؛ إذا أصبحنا كلَّ يوم : ألا نشتغلَ بشيء حتى نفتَتِحَ النهارَ بالخطاب مع الحقِّ قبل أن نخاطِبَ المخلوق ، نحضر بساط الخدمة — أي الصلاة — بل نحضر بساط الدنوِّ والقربة ، قال تعالى : « واسجدْ واقترب »[6] : فالمصَلِّي مُنَاجٍ رَبَّه . ولو عَلِمَ المصَلِّي مَن

---

(١) يقصد حديث الحب وقصته

(٢) الرواية الصحيحة «فلما دارت الكأس» .

(٣) البيتان من المقطعة التي أنشدها الحلاج وهو يواجه مصرعه ، وأولها :

نديمي غير منسوب إلى شيء من الحيف

(طبقات الشعراني جـ١ ص ١٢٠)

(٤) هكذا في ص وفي ش من (ضربت) ، وضرب في الأرض أي جال وسار ، وقد أثبتنا (صوَّبت) لتتلاءم مع الأفعال المسجعة سبقا لما نعرف من حرص القشيري على الموسيقى اللفظية .

(٥) من هذا نفهم أن القشيري يكتب كتابه أو يمليه من أجل الصوفية ، فضمير المتكلمين يدل على نوع من التخصيص .

(٦) آية ١٩ سورة العلق .

يناجى ما التفت ؛ أى لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً وشمالاً فى التسليم الذى هو التحليل[1].

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى

مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ ياموسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ

إِنَّكَ مِنَ الآمنين » .

عند ما انقلبت العصا حَيَّةً وَلَّى موسى مُدْبِرًا ولم يعقب ، وكان موضع ذلك أن يقول : حديثٌ أوَّله تسليطُ ثعبان ! مَنْ ذا يُطيقُ أوَّلَه ؟ ! .

قيل له : لا تَخَفْ ياموسى ؛ إن الذى يَقْدِرُ أنْ يَقْلِبَ العصا حيةً يقدر أن يَخْلُقَ لك منها السلامة : « ياموسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إِنَّكَ من الآمنين » : ليس المقصودُ مِنْ هذا أنت ، إنما أثبت هذا لأسلطَه على عدوِّك ، فهذه معجزتُك إلى قومك ، وآيتُك على عدوِّك .

ويقال: شتان بين نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — وبين موسى عليه السلام ؛ رجع من سماع الخطاب وأتى بثعبانٍ سَلَّطَه على عدوِّه ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — رجع بعد ما أُسْرِيَ به إلى السماء، وأوحى إليه ما أوحى — ليُوَافِيَ أُمَّتَه بالصلاة التى هى المناجاة ، وقيل له : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

قوله جل ذكره : « اسْلُكْ يَدَكَ فى جيبِكَ تخرجْ بيضاء

مِن غيرِ سوء واضمُمْ إليك جناحَكَ

من الرَّهبِ فَذَانِكَ بُرْهانان من ربِّكَ

إلى فرعونَ ومَلَئِه إنَّهم كانوا قوماً

فاسقين » .

قيل له : اسلُكْ يَدَكَ فى جيبك، لأنَّ المدرعةَ التى كانت عليه لم يكن لهـــا كُم . وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى على المرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن ينشمِّر ، وأن يجِدَّ ،

---

(١) التحليل : الإباحة ، والمقصود هنا أنه عقيب التسليم يحل له أن يخاطب الخلق وأن يشتغل بشىء بعدما تمت مناجاته مع الحق ، تلك المناجاة التى يؤثر القشيرى دوامها واستمرارها . ومعلوم أن الصوفية إذا أتموا صلاتهم يستمرون فى الذكر والتأمل دون حدود .

وأنْ يُخْرِجَ يَدَه من كُمِّه . وإنه قال لموسى : أَدْخِلْ يَدَكَ فى جيبك تخرج بيضاء ، وألقِ عصاكَ تجعلْها ثعبانًا ، بلا ضَرْبِكَ بها ، وبلا استعمالِك لها ياموسى : الأمرُ بِنا لا بِكَ ، وأنا لا أنت .

« واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك » : ياموسى ، فى وصف خضوعك تجدنى ، وبتبرِّيكَ عن حَوْلِكَ وقُوَّتِك تَصِل إلىَّ .

قوله جل ذكره « قال رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ منهم نَفْسًا فأخاف أن يَقْتُلُونِ » :

تَعَلَّلَ بكلِّ وجهٍ رَجَاء أن يُعَافَى من مشقةِ التبليغِ ومقاساةِ البلاء ؛ لأنه عَلِمَ أنَّ النبوةَ فيها مَشَقَّةٌ ، فلم يجدْ الرُّخصةَ والإعفاءَ مِمَّا كُلِّفَ ، وأجاب سُؤْلَه فى أخيه حيث سأله أنْ يجعلَ له رِدْءًا ، وضمن لهما النصرة .

ثم إنهما لَمَّا أتَيَا فرعونَ قابلهما بالتكذيب والجحد[1] ، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر[2] ، وجاوباه[3] بالحجة ، ودَعَوَاه إلى سَوَاء المحجَّة ، فأبَى إلَّا الجَحْدَ .

قوله جل ذكره « وقال فِرْعونُ يأيها الملأُ ما عَلِمتُ لكم من إلهٍ غيرى فأَوْقِدْ لى ياهامانُ على الطينِ فاجعل لى صَرْحًا لَعَلِّى أطَّلِعُ إلى إلهِ موسى وإنى لأظُنُّه من الكاذبين » .

ادَّعى الانفرادَ بالإلهية فزاد فى ضلالِه على عَبَدَةِ الأصنام الذين جعلوا أصنامَهم شركاءَ ، ثم قال لهامان : « ابنِ لى صَرحا لعلِّى أطلع إلى إله موسى » وكان هذا من زيادة ضلاله ،

(١) (والجحد) موجودة فى م وغير موجودة فى ص .
(٢) (والسحر) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .
(٣) هكذا فى م وهى فى ص (وحارباه) .

حيث تَوَهَّم أن المعبودَ من جهة فوق ، وأنه يمكن الوصول إليه . ولعمرى لو كان فى جهة لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه ! .

« واستكبر هو وجنودُه فى الأرضِ
بغير الحقِّ وظنُّوا أنَّهم إلينا لا يُرْجَعُون •
فأخذناه وجنودَه فنَبَذْناهم فى اليَمِّ • فانظُرْ
كيف كان عاقبةُ الظالمين » .

أبَى إلَّا أنْ يدومَ جحودُه ، وعُنوده ، فأغرقه اللهُ فى البحرِ ، كما أغرق قلبَه فى بحر الكُفْر .

قوله جل ذكره : « وجعلناهم أئمةً يَدْعُون إلى النـــارِ
ويومَ القيامة لا يُنصَرون » .

لا لِتَشَرُّفِهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تَلَفِهم قدَّمَهم فى الخزى والهوان على كلِّ أمة ، ولكن لم يُرْشِدُوا إلَّا إلى الضلال . ولم يَدُلُّوا الخَلْقَ إلّا على المُحَال ، وماحصلوا إلا على سوءِ الحال ، وماذاقوا إلا خِزْىَ الوبال . أفاضوا على مُتَّبِعِيهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا فى خِسَّةِ[1] مطلوبهم .

قوله جل ذكره : « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنةً ويومَ
القيامةِ هم من المقبوحين » .

كانوا فى الدنيا مُبْعَدِين عن معرفته ، وفى الآخرة مُبْعَدِين عن مغفرته ، فانقلبوا من طَرْدٍ إلى طَرْدٍ ، ومن هَجْرٍ إلى بُعْدٍ ، ومن فراقٍ إلى احتراقٍ .

قوله جل ذكره : « ولقد آتَيْنَا موسى الكتابَ مِنْ
بَعْدِ ما أهلكْنَا القرونَ الأولى بصائرَ

(١) هكذا فى م وهى فى ص (خيبة)

للنـاسِ وهُدًى ورحـــةً لَعَلَّهم
يَتَذَكَّرُون » .

إنما تطيب للنازلُ إذا خلَتْ من الأجانب ، وأطيبُ المساكنِ ما كانت زينتُها بفقْدِ الرُّقباء وغَيْبَتِهم ، فلمّا أهلك اللهُ فرعونَ وقومَه ، وأورث بنى اسرائيلَ أموالَهم وديارَهم ، وعفا عن جميعها آثارَهم — طابَ لهم العيشُ وطَلَعَتْ عليهم شموسُ السعادة .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ بجانب الغَربِيِّ إذ قَضَيْنا
إلى موسى الأمرَ وما كُنتَ من
الشاهدين » .

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً ، ولكنهم رأوا أنَّ إخبارَك عنهم بحيث لا يكذبك كتابُهم . وبالضرورة عرفوا حالَكَ ، وكيف أنك لم تَعلَمْ هذا من أحدٍ ، ولا قرَأْتَه من كتاب ، لأنّكَ أُمِّيٌّ لا تُحسِنُ القراءة ، وإذاً فليس إخبارُكَ إلا بتعريفنا إياك ، وإطلاعنا لكَ على ذلك .

ويقال : « وما كنتَ بجانب الغربى » : وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى ، وكلَّمْناه ، وخاطبناه فى بابِكَ وبابِ أُمَّتِكَ ، ولم تقدح غَيْبَتُكُم فى الحال ، وكونى لكم خيرٌ من كَوْنِكم لكم .

ويقال : لمَّا خاطَبَ موسى وكَلَّمَه سأله موسى : إنِّى أرى فى التوراة أُمَّةً صفتهم كذا وكذا .. مَنْ هم ؟ وسأل عن أوصاف كثيرة ، وعن الجميع كان يُجابُ بأنَّها أمة أحمد[1] ، فاشتاق موسى إلى لقائنا ، فقال له : إنه ليس اليومَ وقتُ ظهورِهم ، فإنْ شئْتَ أسمعتُكَ كلامَهم ، فأراد أن يسمعَ كلامنا ، فناداهم وقال : يا أمةَ أحمد .. فأجاب الكلُّ من أصلاب آبائهم ، فسمِعَ موسى كلامَهم ولم يُدْرِكْهم[2] . والغنىُّ إذا سأله فقيرٌ وأجابه لا يرضى بأن

(١) هكذا فى ص وهى فى م (أمة محمد) ، ونحسب أن الأرجح أن تكون أحمد طبقاً للآية «ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» .

(٢) تنسب هذه الرواية إلى وهب (القرطبى جـ١٣ ص ٢٩٢) .

يردّه من غير إحسان إليه . (وفى رواية عن ابن عباس) [1] أن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى ، وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى ، ورحمتكم قبل أن تسترحمونى » .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ ثاوياً [2] فى أهل مدين
تتلو عليهم آياتنا ولكنا كُنّا مُرسلين »

وبما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذِكْرُ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم بالجميل . وذكر أمته بحسن الثناء عليهم ، فنحن فى الوجود مُحْدَثٌ مخلوقٌ وفى ذكره متعلق لا باستفتاح . ولم نكن فى العَدَم أعياناً ، ولا أشياء ، ولكنا كنا فى متعلق القدرة ومتناول العلم والمشيئة . وذكرنا فى الخطاب الأزلىّ والكلام الصمدىّ والقول الأبدىّ .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ بجانبِ الطورِ إذ نَادَينْا
ولكِن رحمةً من ربِّكَ لِتُنذِرَ قوماً
ما أتاهم مِن نذيرٍ مِّن قَبلِكَ لعلّهم
يتذكّرون » .

ما طلبه موسى لأمته جعلناه لأمتك ، وكما نادينا موسى — وهو فى الوجود والظهور — ناديناكم وأنتم فى كتم العَدَمِ ، أنشدوا :

كُنْ لى كما كُنْتَ فى حالٍ لم أكُنِ

قوله جل ذكره : « ولولا أن تُصيبَهُم مصيبةٌ بما قدّمَت
أيديهم فيقولوا رَبَّنا لولا أرسَلْتَ إلينا
رسولاً فنَتَبِّعَ آياتِكَ ونكونَ من
المؤمنين ۝ فلمَّا جاءَهم الحقُّ من عندنا

---

(١) أضفنا مابين قوسين من عندنا لنكتب الرواية بكاملها فهى ناقصة فى المتن .

(٢) ثاوياً ومقيماً .. قال العجاج : فبات حيث يدخل الثوى : أى الضيف المقيم »

قالوا لولا أُوتى مِثْلَ ما أُوتِى موسى
أو لم يكفروا بما أُوتى موسى من قَبْلُ
قالوا سِحْران تَظَاهَرا وقالوا إنَّا بكلٍّ
كافرون » .

تمنوا فى زمانِ الفترة أن يبعث اللهُ إليهم رسولًا ليهتدوا به ، ووعدوا من أنفسهم الإيمانَ والإجابة ، فلمَّا أتاهم الرسولُ كذَّبوه ، وقالوا : هلّا خُصَّ بمثل معجزات موسى فى الظهور ، وكان ذلك منهم خطأً ، واقتراحاً فى غير موضع الحاجة ، وتَحَكُّماً بعد إزاحة العِلّةِ :

وكذا الملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصالَ وقال كان وكانا

ثم قال : أفلا تَذَكَّرُون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموهما بالسحر ؟ .

وقال : إنْ ارتبتم أنَّ هذا الكتاب من عند الله فَأْتوا بكتابٍ مِثْلِهِ ، واستعينوا بشركائكم . ومِنْ وقته إلى يومنا هذا لم يأتِ أحدٌ بسورة مِثْلِهِ ، وإلى القيامة لا يأتون بكتابٍ مثله .

قوله جل ذكره : « ولقد وَصَّلْنَا لهم القولَ لعلّهم
يتذكَّرون » .

أتبعنا رسولاً بعد رسول ، وأردفنا كتاباً بعد كتاب ، فما ازدادوا إلا كفراً وثبوراً ، وجحداً وعتواً .. فلا إلى الحقِّ رجعوا ، ولا إلى الاستقامة جنحوا .

قوله جل ذكره : « الذين آتيناهم الكتابَ مِن قبلِهِ هم
به يُؤْمِنون » .

مَنْ أكحلنا بصيرتهم بنور الهداية صَدَّقوا بمقتضى مساعدة العناية ، ومَنْ أعميناه عن شهود التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس فى غوايته ، وانهمك فى ضلالته .

قوله جل ذكره : « وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنَّا به إنّه
الحقُّ مِن ربِّنا إنّا كُنَّا من قبلِهِ
مُسْلِمِين » .

إذا سمعوا دعوتنا قابلوها بالتصديق ، وانقادوا بحُسْنِ الاستسلام ، فلا جَرَمَ يُؤتَون أجرَهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم فى عاجلهم وآجلهم ، مرةً فى الآخرة وهى المثوبة وأخرى فى الدنيا وهى لطائف القربة .

قوله جل ذكره : « وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعرضوا عنه وقالوا
لنا أعمالنا ولكم أعمالُكم سلامٌ عليكم
لا نبتغى الجاهلين » .

« اللغو » : ما يُلْهِى عن الله . ويقال « اللغو » مالا يوجِب وسيلةً عند الله ، ويقال مالا يكون بالحقِّ للحقِّ ، ويقال هو ما صَدَرَ عن قلبٍ غافلٍ ، ويقال هو مايوجب سماعُه السَّهو .

قوله جل ذكره : « إنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أحببتَ ولكنَّ
اللهَ يَهْدِى مَن يشــاء وهو أعلمُ
بالمهتدين »(1) .

الهدايةُ فى الحقيقةِ إمالةُ القلبِ من الباطلِ إلى الحقِّ ، وذلك من خصائص قدرة الحقِّ — سبحانه — وتطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق — توسُّعاً ، وذلك جائزٌ بل واجبٌ فى صفته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « وإنك تَهدى إلى صراط مستقيم » .

ويقال : لكَ شَرَفُ النبوَّةِ ، ومنزلةُ الرسالةِ ، وجمالُ السفارةِ ، والمقامُ المحمودُ ، والحوض للورود ، (وأنت سيد ولد آدم .. ولكنك لا تَهدى من أحببت ؛ فخصائصُ الربوبيةِ لا تصلح)(2) لِمَنْ وَصْفُه البشرية .

قوله جل ذكره : « وقالوا إن نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ
نُتَخَطَّفْ مِنْ أرضنا أوَلَمْ نُمَكِّن لهم

---

(1) قال ابو اسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب حين أبى أن ينطق الشهادة وقال : أنا على ملة عبد المطلب فقال الرسول (ص) : لأستغفرن لك مالم أنه عنك (أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨)

(2) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

حرَماً آمِناً يُجْبَى إليه ثمراتُ كلِّ
شيءٍ رِزْقاً مِن لَدُنَّا ولكنَّ أكثَرَهم
لا يعلمون » .

قالوا نخاف الأعرابَ على أنفسنا إنْ صدَّقْناكَ ، وآمَنَّا بِكَ ، (لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم)[1] فقال الله تعالى : وكيف تخافونهم وترون اللهَ أظفركم على عدوِّكم ، ومَكَّننا بتعظيم بيتكم ، وجعلنا مكةَ تُجْبَى إليها ثمراتُ كل شيء من أقطار الدنيا ؟

ويقال من قام بحقِّ الله — سبحانه — سَخَّر له الكونَ بجملته ، ومَنْ اشتغل برعاية سِرِّه لله ، وقام بحقِّ الله ، واستفرغ أوقاته في عبادة الله مُكِّنَ من التصرُّفِ بهمته في مملكة الله ؛ فالخَلْقُ مُسَخَّرٌ له ، والوقتُ طوعُ أمره ، والحقُّ — سبحانه — متولٍ[2] أيامَه وأعماله يُحَقِّقُ ظنَّه ، ولا يُضَيِّعُ حقَّه .

أمَّا الذي لا يطيعه فيهلك في أودية ضلاله ، ويتيه[3] في مفازات خِزْيِه ، ويبوء بوِزْرِ هواه .

قوله جل ذكره : « وكَمْ أهْلَكْنَا من قريةٍ بَطِرَتْ
معيشتَها فتِلْكَ مساكنُهم لم تُسْكَن
مِنْ بَعْدِهم إلا قليلاً وكُنَّا نحنُ
الوارثين » .

لم يعرفوا قَدْرَ نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أحوالهم ، وانتظامَ أمورهم ، فهاموا في أودية الكفران على وجوهِهم ، فخَرُّوا في أودية الصغار على أذقانهم ، وأذاقهم اللهُ من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بطَرِهم ؛ فأماكنهم منهم خالية ، وسقوفُها عليهم خاوية ، وغِربانُ الدمار فيها ناعية .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود في النص ، ولكنها تتمة لسبب نزول الآية كما أورده الواحدى ، حيث ذكر أن الآية نزلت في الحارث بن عثمان بن عبد مناف الذى قال للنبى (ص) : إنا لنعلم أن الذى تقول حق ولكن يمنعنا من اتباعك أنا نخاف .... الخ (أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٨) .

(٢) ومن هذا المنطلق يصدر القشيرى رأيه في (الولاية) وما يتصل بها من (الكرامة) .

(٣) هكذا في الأصل وهى تحمل معنيين : التكبُّر ، والضلال في الأرض .

قوله جل ذكره : « وما كان رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حتى
يبعثَ فى أُمِّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا .
وما كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إلا وأهلُها
ظالمون » .

« وما كان ربُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يبعث فى أمِّها رسولاً » : بالتكليف يأمرهم . وبأمر التكوين — على ما يريد — يقلبهم . وهو — سبحانه — يبعث الرسلَ إنذاراً ويعمى السُّبُلَ عليهم اقتداراً ؛ يُوَضِّحُ الحجةَ بحيث لا شبهة ، ولكنه لا يهدى إلا مَنْ سَبَقَت له السعادة بحكم القسمة .

قوله جل ذكره : « وما أوتيتم مِّن شيءٍ فَمَتَاعُ الحياةِ
الدُّنيا وزينتُها وما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبقى
أفلا تعقلون » .

الدنيا حلوة خَضِرَة ، ولكنها فى التحقيق مُرَّةٌ مَذِرَة[1] ، فَبِشْرُها يُوهِمُ أنها صَفْوٌ ولكن مِن وراءِ صَفْوِها حَسْوٌ[2] ، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

قوله جل ذكره : « أفَمَن وعدناه وَعْدًا حسناً فهو لاقيه
كَمَن متَّعْنَاه متاعَ الحياةِ الدنيا
ثم هو يوم القيامة من
المُحْضَرين »[3] .

الدنيا سمومُ حَنْظَلِها تتلو طعومَ عَسَلِها ، وتَلَفُ ما يحصل من شربها يغلب لُطفَ ما يقلبر

(١) مذرت البيضة مذراً — فسدت ، فهى مذرة ، ومذرت معدته أى خبثت وفسدت (الوسيط) .
(٢) يقال يوم كحسو الطائر أى قصير جداً ، ونوم كحسو الطائر أى قليل متقطع .
(٣) عن مجاهد أن هذه الآية نزلت فى على وحمزة وأبى جهل .
وقال السدى : نزلت فى عمار والوليد بن المغيرة
وقيل نزلت فى النبى (ص) وأبى جهل .

من أربها ، وليس من أكرِمَ بوجدان نسيم عقباه كمَنْ مُنِيَ بالوقوع في جحيم دنياه

قوله جل ذكره : « ويومَ يُناديهم فيقولُ أين شُرَكائِيَ الذين كُنْتُم تَزْعُمون ؟ » .

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضليل .. وإلَّا فمِنْ أين لهم الجواب فضلاً عن الصواب ! والذي يسألُهم هو الذي على ماشاء جَعَلَهم ؛ فما وَرَدَ فِعْلٌ إلا على فِعْلِه ، وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أصْلِه . وإذْ تَبَرَّأَ بعضُهم من بعض بَيَّنَ أنه لم يكن للأصنام استحقاقُ العبودية ، ولا لأحدٍ من النفي والإثبات بالإيجاد والإحداثِ ذَرَّةٌ أو منه شظيّة .. كلاّ بل هو الواحد القهار .

قوله جل ذكره : « ويومَ يناديهم فيقول ماذا أجَبْتُمُ المُرْسَلِين » .

يسألهم سؤالَ هيبةٍ ؛ فلا يَبْقَى لهم تمييزٌ ، ولا قوةُ عقلٍ ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ ، قال جلّ ذكره :

« فعَمِيَتْ عليهم الأنباء يومئذٍ فَهُمْ لا يتساءلون » .

إذ استولت عليهم الحَيْرَةُ ، واستمكن منهم الدهشُ ؛ فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم .

قوله جل ذكره : « فأمَّا مَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحًا فعَسى أن يكونَ من المُفْلِحِين *
وربُّكَ يَخْلُقُ مايشاء ويختارُ ما كان لهم الخِيرَةُ سبحان اللهِ وتعالى عمّا يُشْرِكون » .

يختار ما يشاء ومَنْ يشاء من جملة ما يخلق . ومَنْ ليس إليه شيء من الخلق . فما له والاختيار ؟ !

الاختيارُ للحقِّ استحقاقُ عِزٍّ يوجِبُ أن يكون ذلك له ، لأنَّه لو لم يُنَفَّذْ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العِزِّ ، فمَنْ بَقِيَ عن مُرادِه لا يكون إلاَّ ذليلاً ؛ فالاختيارُ للحقِّ نعتُ عِزٍّ . والاختيارُ للخَلْقِ صفةُ نَقْصٍ ونعتُ بلاء وقصور ؛ فاختيارُ العَبْدِ غيرُ مُبَارَكٍ عليه لأنَّه صفةٌ هو غيرُ مُسْتَحِقٍّ لها ، ومَنْ اتصف بما لا يليق به افتضح فى نَفْسِه ، قال قائلهم :

ومالِ إذا ادَّعاها سواه لَزِمَتْه جِنَايةُ السُّرَّاقِ

والطينةُ إذا ادَّعَتْ ما هو صفة الحقِّ أظهرت رعونتَها ، فما للإنسان والاختيار ؟ ! وما للمملوكِ والمِلْك ؟ ! وما للعبيدِ والتصدُّر فى دَسْتِ[1] الملوك ؟ !

قال تعالى : « ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون »[2]

قوله جل ذكره : « وربُّك يعلم ما تُكِنُّ صدورُهم وما يُعْلِنون »

ولِمَ لا وقد قال : « ألا يعلم من خَلَقَ وهو اللطيف الخبير » ؟ فالعِلْمُ — الذى لا يعزُبُ عنه معلومٌ — نعتُ من لم يَزَلْ ، والإبداع من العَدَم إلى الوجود يتفرَّدُ بالقدرة عليه لم يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « وهو اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ له الحمدُ فى الأولى والآخِرَةِ وله الحُكمُ وإليه تُرْجَعُون »

« لا إله إلا هو » : تَوَحَّدَ بعِزِّ هيبته ، وتَفَرَّدَ بجلال ربوبيته ، لا شبيهَ يساويه ،

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب ، أما فى ص فقد وردت (درس) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) واضح من مذهب القشيرى شىء هام جداً أنه يقف عند (ويختار) وتكون (ما) فى هذه الحالة نافية ، وهو بهذا ينسجم مع مذهب أهل السنة فى أن الله خالق كل شىء حتى أكساب العباد .

أما الزمخشرى فيرى (ما كان لهم الخيرة) بياناً لقوله (ويختار) ولهذا لم يدخل العاطف . ويرفض الطبرى أن تكون (ما) نافية لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهى لهم فيما يستقبل ، ويرد عليه بأن (ما) تصلح لنفى الحال والاستقبال .

ولا غيرَ يضاهيه. «لله الحمد» استحقاقاً على عطيّته، وله الشكر استيجاباً على نعمته؛ ففي الدنيا محمودُ اللهُ، وفي العقبى المشكورُ اللهُ؛ فالإحسان من اللهِ لأن السلطانَ للهِ، والنعمةُ من اللهِ لأن الرحمةَ للهِ، والنصرةُ من اللهِ لأنَّ القدرةَ للهِ.

قوله جل ذكره: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ
سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ»

إن دامت ليالي الفترة فَمَنِ الذي يأتي بنهار التوبة غيرُ اللهِ؟
وإنْ دامت ليالي الطلَبِ فَمَنِ الذي يأتي بصُبْحِ الوجودِ غيرُ اللهِ؟
وإن دامت ليالي القبض فمن الذي يأتي بصبح البسطِ غيرُ اللهِ؟
وإن دام ليل الفراق فمن الذي يأتي بصبح الوصالِ غيرُ الله؟

قوله جل ذكره: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ
سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»

إنْ دام في الوصلة نهارُكم فأيُّ سبيل للواشين إلى تنغيص سروركم؟

وإن دام نهارُ معاشِكم ووقتُ اشتغالكم بحظوظكم فَمَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه إلى الله إلا الله، وتستريحون من أشغالكم بالخلوة مع اللهِ إلا اللهُ[1].

قوله جل ذكره: «وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ»

---

(1) منذ أشرفت على القشيري آية: «وهو الله لا إله إلا هو ..»
ولفظ الجلالة لا يكاد يغيب عنا في إشاراته، مما يدل - والله أعلم - على أن الرجل ذاكر أخذته حالة انمحاء في المذكور .. وقد حرصنا أن نلفت نظر القارئ إلى هذا الملحظ ليشعر بالفرق بين المفسر التقليدي والمفسر الإشاري .. إن الكلمات هنا أشبه بالتسابيح الوافدة من عالم بعيد!

الأوقات ظروفٌ لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال ؛ فالظروفُ من الزمان متجانسة ، وإنما الاختلافُ راجعٌ إلى أعيان ما يحصل فيها ؛ فليالى أهل الوصال ساداتُ الليالى ، وليالى أهل الفراق أسوأ الليالى ؛ فأهلُ القُرْبِ لياليهم قِصَارٌ وكذلك أيامُهم ، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم فى ليلهم ونهارهم ، يقول قائلهم :

والليالى إذا نأيتِ طوالٌ وأراها إذا دَنَوْتِ قِصَار

وقال آخر :

والليلُ أطولُ وقتٍ حين أفقدها والليل أقصر وقتٍ حين ألقاها

وقال ثالث :

يطولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه وحَوْلٌ نلتقى فيه — قصيرُ

قوله جل ذكره : « ويومَ يُنَادِيهم فيقولُ أين شركائِىَ الذين كنتم تَزْعُمون * ونَزَعْنا من كلِّ أُمةٍ شهيداً فقُلْنا هاتوا بُرْهانَكمْ فعلموا أنَّ الحقَّ للهِ وضلَّ عنهم ما كانوا يَفتَرُون »

كلا . . لا حُجَّة لهم ، ولا جوابَ يعذرهم ، ولا شفيعَ يرحمهم ، ولا ناصرَ يُعينهم .

اشتهرت ضلالتُهم ، واتضحت للكافة جهالتُهم ؛ فدامَ بهم عذابُ الأبد ، وحاقَ بهم وبالُ السَّرْمَد .

قوله جل ذكره : « إنَّ قارونَ كانَ مِن قومِ موسَىٰ فبَغَىٰ عليهم »

جاء فى القصص أنه كان ابن عمٍّ موسى ، وكان من أعبد بنى إسرائيل ، وكان قد اعتزل الناسَ ، وانفرد فى صومعته يتعبَّد ، فتصوَّر له إبليسُ فى صورة بَشَرٍ ، وأخذ فى الظاهر يتعبَّدُ معه فى صومعته حتى تعجَّب قارونُ من كثرة عبادته ، فقال له يوماً : لسنا فى شىء ؛ عيونُنا

على أيدى الناسِ حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو ضرورتنا ، ولا بُدَّ لنا من أَخْذِهِ ، فقال له قارون : وكيف يجب أن نفعلَه ؟

فقال له : أن ندخل فى الأسبوع يوماً السوق ، ونكتسب ، وننفق ذلك القَدْرَ فى الأسبوع ، فأجابه إليه . فكانا يحضران السوق فى الأسبوع يوماً ، ثم قال له : لستُ أنا وأنت فى شىء ، فقال : وما الذى يجب أن نعمله ؟

فقال له : نكتسب فى الأسبوع يوماً لأنفسنا ، ويوماً نكتسب ونتصدّق به ، فأجابه إليه. ثم قال له يوماً آخر : لسنا فى شىء ، فقال : وما ذاك ؟

قال : إنْ مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوتَ يومٍ ، فقال : وما نفعل ؟

قال : نكتسب فى الأسبوع ثلاثة أيام ؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للادخار ، فأجابه إليه . . فلمَّا عَلِمَ أن حُبَّ الدنيا استمكن من قلبه وَدَّعَه ، وقال :

إنِّى مُفارِقُكَ . . فَدُمْ على ما أنت عليه ، فصار من أمره ومالِهِ ما صار ، وحَمَلَهُ حُبُّ الدنيا على جَمْعِها ، وحَمَلَهُ جَمْعُها على حُبِّها ، وحَمَلَهُ حُبُّها على البغى عليهم ، وصارت كثرةُ مالِهِ سَبَبَ هلاكِه ، وكم وُعِظَ بِتَرْكِ الفَرَحِ بوجود الدنيا ، وبِتَرْكِ الاستمتاع بها ! وكان لا يأبى إلاَّ ضلالاً .

ويقال خَسَفَ اللهُ به الأرضَ بدعاء موسى عليه السلام ، فقد كان موسى يقول :

ياأرضُ خُذِيه .. وبينما كانت الأرض تَخْسِفُ به كان يستعين بموسى بحقِّ القرابة ، ولكن موسى كان يقول : يا أرضُ خُذِيه .

وفيما أوحى اللهُ إلى موسى : لقد ناداك بحقِّ القرابة وأنت تقول : يا أرض خذيه ! وأنا أقول : يا عبدُ ، نادِنى فأنا أقرب منه إليك ، ولكنه لم يَقُلْ .

وفى القصة أنه كان يُخْسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة ، فلمَّا حَبَسَ اللهُ يونسَ فى بطن الحوتِ أمَرَ الحوتَ أن يطوفَ به فى البحار لئلا يضيقَ قلبُ يونس ، حتى انتهى إلى قارون ، فسأله قارونُ عن موسى وحاله ، فأوحى الله إلى المَلَكِ :

لا تَزِدْ في خَشْفِه لحرمة أنه سأل عن ابن عمه ، ووَصَلَ به رَحِمَه[1]

قوله جل ذكره : « وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرةَ
ولا تَنسَ نصيبَكَ من الدنيا وأحْسِن
كما أَحْسَنَ اللهُ إليكَ ولا تَبْغِ الفسادَ
في الأرضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِين »

وَعْظ مَنْ حُرِمَ القبولَ كمثل البَذْرِ في الأرض السَّبِخَة ؛ ولذا لم ينفَعْهُ نُصْحُهم إياه ، ولم يكن للقبول فيه مساغٌ .

« ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا » : ليس النصيبُ من الدنيا جَمْعَها ولا مَنْعَها ، إنما النصيبُ منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعْقِبُ ندماً ، ولا يُوجِبُ في الآخرةِ عقوبةً .

ويقال النصيبُ من الدنيا ما يَحْمِلُ على طاعته بالنَّفْس ، وعلى معرفته بالقلب ، وعلى ذِكْرِه باللسان ، وعلى مشاهدته بالسِّرِّ .

« وأَحْسِنْ كما أحسنَ الله إليك » : إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله ؛ لأنَّ الكافرَ لا حَسَنَة له . والآية تدل على أن لله على الكافر نِعَماً دنيوية .

والإحسانُ الذي أُمِرَ به إنفاقُ النعمةِ في وجوهِ الطاعةِ والخدمة ، ومقابلتُه بالشكران لا بالكفران .

ويقال الإحسانُ رؤيةُ الفضلِ دون تَوَهُّمِ الاستحقاق .

قوله جل ذكره : « قال إنما أُوتيتُه على عِلْمٍ عندى ... »

ما لاحَظَ أحدٌ نَفْسَه إلا هَلَكَ بإعجابه .

ويقال السُّمُّ القاتلُ ، والذى يطفئُ السراجَ للضوء النظرُ إلى النَّفْسِ بعين الإثباتِ ،

(١) الواقع أن القصص والأخبار والروايات التى تدور حول موضوعات سورة القصص كثيرة جداً ، خصوصا عند ابن عباس ومدرسته ، ولكن الملاحظ أن القشيرى يختار منها - فى ظلال القرآن - عينات خاصة تحقق مقاصده البعيدة من أجل إبراز الموضوعات الصوفية سواء من ناحية الرياضات أو المجاهدات أو من ناحية الأذواق والأحوال .

وتَوَهَّمَ أنَّ منك شيئاً من النفى أو الإثبات[1] .

قوله جل ذكره : « فَخَرَجَ على قومِهِ فى زينتِهِ قال الذين
يريدون الحياةَ الدنيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ
ما أُوتِيَ قارونُ إنَّه لَذُو حَظٍّ عظيمٍ »

تمنَّى مَنْ رآه مِمَّنْ كان فى حُبِّ الدنيا ساواه أنْ يُعْطِيَه اللهُ مِثْلَ ما أعطاه .

أمَّا مَنْ كان صاحياً عن خمار غفلته ، مُتَيَقِّظاً بنور بصيرته فكان موقفُهم : —

« وقال الذين أوتوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ
ثوابُ اللهِ خيرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً
ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون »

وبعد أن كان ما كان ، وخسفنا به وبداره الأرضَ قال هؤلاء :

« لولا أن مَنَّ اللهُ علينا لَخَسَفَ بنا
ويْكأنَّه لا يُفْلِحُ الكافرون »

مَنَّ اللهُ علينا فلم نَنْجَرِفْ فى نَهْجِه ، ولم ننخرط فى سِلْكِه ، وإذاً لَوَقَعَ بنا الهلاك .

أمَّا المُتَمَنُّون مكانَه فقد نَدِمُوا ، وأمَّا الراضون بقسمته — سبحانه — فقد سَلِمُوا ؛ سَلِمُوا فى العاجل إلى أنْ تَظْهرَ سعادتُهم فى الآجل .

قوله جل ذكره : « تلك الدارُ الآخِرةُ نجعلُها للذين
لا يُرِيدون عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فساداً
والعاقبةُ للمتقين »

قيل « العلو فى الدنيا » أنْ تَتَوهَّمَ أنَّ على البسيطة أحداً هو شرٌّ منك .

و « الفساد » أن تتحرك لحظِّ نَفْسِك ونصيبك ولو بِنَفَسٍ أو خطوةٍ . . وهذا للأكابر ،

---

(١) هذه نظرة عامة نجدها عند جميع الصوفية ولكنها أصل هام فى تعاليم أهل الملامة تترتب عليه مناهج فى السلوك .

فأمّا للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة « نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض » كعُلُوّ فرعون « ولا فساداً » كفَسَادِ قارون[1] .

ويقال الزهاد لا يريدون فى الأرض عُلُوّاً ، والعارفون لا يريدون فى الآخرة والجنة عُلُوّاً .

ويقال « تلك الدار الآخرة » للعُبَّادِ والزُّهاد ، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار .

قوله جل ذكره : « مَن جاء بالحسنةِ فله خيرٌ منها ومَن جاء بالسيئةِ فلا يُجْزَى الذين عَمِلوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » .

ثواب الحسنةِ فى التضعيف ، وأمرُ السيئةِ بناؤه على التخفيف .

والمؤمنُ — وإن كان صاحبَ كبائر — فسيئاتُه تَقْصُرُ فى جَنْبِ حسناته التى هى إيمانُه ومعرفتُه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذى فَرَضَ عليكَ القرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ قُلْ ربِّى أعْلَمُ مَنْ جاء بالهُدَى ومَنْ هو فى ضلالٍ مبين » .

« لرادُّك إلى معاد » : فى الظاهر إلى مكة . . وكان يقول كثيراً : «الوطن الوطن»[2] ، فَحَقَّقَ اللهُ سُؤْلَه . وأمّا فى السِّرِّ والإشارة فإنه « فرض عليك القرآن » أى يَسَّرَ لك قراءةَ القرآن ، والمَعَادُ هو الوصفُ الذى كانت عليه روحُك قبل حلول شَجَّكَ[3] من مُلَادغات القُرْبِ ومطالعات الحقِّ .

---

(١) أحسن القشيرى إذ جعل وظيفة هذه الآية التعقيب على القصتين السابقتين فأبان تماسك الأسلوب القرآنى .

(٢) ولهذا يرى ابن عباس أن هذه الآية لا مكية ولا مدنية وإنما نزلت فى الجحفة .

(٣) هكذا فى النسختين ، فإن صحت فى النقل من الأصل فربما كان المقصود (ما أصابك من جراحات الحب) ، ويتأيد فهمنا بما يلى ذلك وربما كانت (شجنك) أى لوعة حبك — والله أعلم .

وقيل الذى بنصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادُّك إلى عين الجمع بالتحقُّق بالحقِّ والفناء عن الخَلْق .

ويقال إن الذى أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لرادُّك إلى الفناء عنك بمحقك فى وجود الحقيقة .

قوله جل ذكره : « وما كُنْتَ ترجوا أن يُلْقَى إليكَ
الكتابُ إلَّا رحمةً من ربِّكَ فلا تكونَنَّ
ظهيراً للكافرين » .

ما كنت تؤمِّل محَلَّ النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك ، ولا ما أظهرنا عليكَ من أحوال الوجد وحقائق التوحيد .

قوله جل ذكره : « ولا يَصُدُّنَّك عن آياتِ اللهِ بعد
إذ أُنزِلَتْ إليكَ وادعُ إلى ربِّكَ
ولا تكونَنَّ من المشركين » .

لا يصدنَّك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذَّوْقِ والشهود ، والإدراك والوجود . لا تتداخَلَنَّكَ تُهمةُ التجويز وسؤالاتُ العلماء بما يَدَّعُون من أحكام العقول ؛ فما يُدْرَكُ فى شعاع الشمس لا يَحْكُمُ ببطلانه خفاؤه فى نور السراج .

قوله جل ذكره : « ولاتَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ لا إله إلاهُوَ
كلُّ شىء هالِكٌ إلا وَجْهه له الحُكْمُ
وإليه تُرْجَعون » .

كلُّ عملٍ باطلٌ إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله .

كلُّ حىٍّ ميت إلا هو ، قال تعالى : « إن امرؤٌ هلك » : أى مات ؛ فكلُّ شىء مُعَدٌّ لجوازِ الهلاك والعدَمِ ، ولا يبقى إلا « وجهه » : ووَجْهُهُ صفةٌ من صفاته لا تستقل إلا به ،

فإذا بقى وجهُهُ فَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاء ذاته ؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بموجود ، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له ؛ فنى بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته .

وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعْرَفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون[1] العقل ؛ فخَصَّ الوجه بالذكر لأنَّ فى بقاء الوجه بقاء الحقِّ بصفاته .

---

(١) هكذا فى م أما فى ص فهى (نور) ، وتأويل الوجه على أنه صفة فيه رد على المشبهة .

السورة التى يذكر فيها العنكبوت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَعْداً ، وسماعُه يوجب سلوة الواجدين نقداً [1].

اسم مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إلى مثوبته فى آجله ، ومَنْ سمعه[2] حظى بقربته فى عاجله .

قوله جل ذكره : « الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ »

« الألف » إشارة إلى تفرُّده عن كل غير بوجه الغِنى ، وباحتياج كل شىء إليه ؛ كالألف تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرفٍ .

« واللام » تشير إلى معنىً أنه ما من حرفٍ إلا وفى آخره صورة تعويجٍ ما ، واللام أقرب الحروف شبهاً بالألف ـ فهى منتصبة القامة مثلها ، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شىء ولكن اللام تتصل بغيرها ـ فلا جَرَم لا يكون فى الحروف حرف واحد متكون من حرفين إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام .

أمّا « الميم » فالإشارة فيه إلى الحرف « مِنْ » ؛ فَمِنَ الربِّ الخَلْقُ ، ومِنَ العبدِ خدمةُ الحق ، ومن الربِّ الطَّوْلُ والفضلُ . . .

« أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا . . » بمجرد الدعوى فى الإيمان دون المطالبة بالبلوى ، وهذا لا يكون ، فقيمة كلِّ أحدٍ ببلواه ، فَمَنْ زاد قَدْرُ معناه زاد قدر بلواه ؛ فعلى النفوس بلاء وهو

(1) النقد مكافأة فى الدنيا وهى المواصلات والمكاشفات ، والوعد مكافأة فى الآخرة وهى الجنة .

(2) المقصود بالسماع هنا ما يوجب الهيمان .

المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها فى أحسن العمل . وعلى القلوب بلاء وهو مطالبتُها بالطلب والفكر الصادق بتطلُّع البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم . وعلى الأرواح بلاء وهو التجرُّدُ عن محبة كلِّ أحدٍ والتفرُّد عن كل سبب ، والتباعُد عن كل المساكنة لشىء من المخلوقات . وعلى الأسرار بلاء وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلِّى إلى أن تصير مُسْتَهلَكاً فيه .

ويقال فتنة العوام فى أيام النظر والاستدلال ، وفتنة الخواص فى حفظ آداب الوصول فى أوان المشاهدات . وأشدُّ الفتنِ حفظُ وجود التوحيد لئلا يجرى عليك مَكْرٌ فى أوقات غَلَبَاتِ شاهد الحقِّ فيظن أنه الحق ، ولا يدرى أنَّه من الحقِّ ، وأنَّه لا يُقال إنَّه الحقُّ - وعزيز مَنْ يهتدى إلى ذلك[1].

قوله جل ذكره : « ولقد فتنَّا الذين مِن قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين »

لم يُخْلِهِم من البلاء والمِحَن لِيَظْهر صبرَهم فى البلاءِ أو ضدّه من الضَّجَرِ ، وشكرهم فى الرخاء أو ضدة من الكفر والبَطَرِ . وهم فى البلاء ضروب : فمنهم مَنْ يصبر فى حال البلاء ، ويشكر فى حال النَّعماء . . . وهذه صفة الصادقين . ومنهم مَنْ يضجُّ ولا يصبر فى البلاء ، ولا يشكر فى النعماء . . فهو من الكاذبين . ومنهم مَنْ يؤثِر فى حال الرخاء ألاَّ يستمتعَ بالعطاء ، ويستروح إلى البلاء ؛ فَيَستَعْذِبَ مقاساةَ الضُّرِّ والعناء . . وهذا أجَلُّهم .

قوله جل ذكره : « أمْ حَسِبَ الذين يعملون السيئاتِ أن يَسْبِقُونا ساء ما يَحْكُمُون »

يرتكبون المخالفاتِ ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة . . ساء حُكْمُهم ! فمتى ينجو منَ العذابِ مَنْ ألقى جلبابَ التُّقى ؟ !

ويقال توهموا أنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ ، ولا محاسبة ولا مطالبة .

ويقال اغتروا بإمهالنا اليومَ ، وتَوَهَّموا أنهم مِنَّا قد أفلتوا ، وظنوا أنهم قد أَمِنُوا .

---

(١) يفيد هذا الكلام عند البحث فى قضية الحلاج الذى قال وهو غائب فى غلبات الشهود : وأنا الحق

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئات أنْ جرى التقديرُ لهم بالسعادة ، وأنَّ ذلك يؤخر حُكْمَنا . . كلا ، فلا يشقى مَنْ جرَتْ قسمتُه بالسعادة ، وهيهاتَ أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة !

قوله جل ذكره : « مَن كان يرجو لِقاء اللهِ فإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ وهو السميعُ العليمُ »

مَنْ خاف عذابَه يوم الحساب فسَيَلْقى يومَ الحَشْرِ الأمانَ الموعودَ منَّا لأهل الخوف اليومَ . ومَنْ أمَّلَ الثوابَ يومَ البعثِ فسوف يرى ثوابَ ما أسلفه من العمل . ومَنْ زَجَّى عُمْرَه فى رجاء لقائنا فسوف نُبيح له النظَرَ إلينا ، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة .

« وهو السميع » لأنين المشتاقين ، « العليم » بحنين المحبين الوالهين .

قوله جل ذكره : « ومَنْ جاهَدَ فإنَّما يُجاهِدُ لِنفْسِه إن اللهَ لَغَنِيٌّ عن العالَمين »

مَنْ أحْسَنَ فنجاة نفسه طلبها ، وسعادة حالة حَصَّلَها . ومن أساء فعقوبة نفسه جلَبَهَا ، وشقاوة جدِّه اكتسبها .

ويقال ثوابُ المطيعين إليهم مصروفٌ ، وعذابُ العاصين عليهم موقوفٌ . . والحقُّ عزيزٌ لا يلحقه بالوفاق زَيْن ، ولا يَمَسُّه من الشِّقاقِ شَيْنٌ . .

قوله جل ذكره . « والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهم ولَنَجْزِيَنَّهم أحسنَ الذى كانوا يعملون » .

مَنْ رَفَعَ إلينا خطوة نال منَّا حظوة ، ومَنْ تَرَكَ فينا شهوةً وَجَدَ منَّا صفوة ، فنصيبهم من الخيرات موفور ، وعملهم فى الزلاَّت مغفور . . بذلك أجرينا سُنَّتنا ، وهو متناول حُكْمِنا وقضيتنا .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنا الإنسانَ بوالديه حُسْناً » .

أمرَ اللهُ العبادَ برعاية حقِّ الوالدين تنبيهاً على عظم حق التربية . وإذا كانت تربيةُ الوالدين — وهى إنْ حَسُنَتْ — فبالى حدٍّ يوجبُ رعايتَهما فما الظنُّ برعاية حق الله تعالى ، والإحسانِ العميمِ بالعبد والامتنان القديم الذى خصَّه به مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ؟!

قوله جل ذكره : « وإن جاهداك لِتُشْرِكَ بى ما ليس لك به عِلْمٌ فلا تُطِعْهما إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

إنْ جاهداك على أن تُشْرِكَ بالله فإياك أنْ تطيعَهما ، ولكن رُدَّ بلطفٍ ، وخالِفْ برفقٍ .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لندخلنهم فى الصالحين » .

أى لنلحقنهم بالذين أصلحوا من قبلهم ، فإن المعهود من سُنَّتِنا إلحاق الشكلِ بشكله ، وإجراء المِثْلِ على حُكْمِ مِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « ومن الناسِ مَن يقول آمَنَّا بالله فإذا أوذى فى الله جعَلَ فتنة الناسِ كعذابِ الله » . . .

المحنُ تُظْهِرُ جواهرَ الرجال ، وهى تدُلُّ على قيمِهِم وأقدارِهم ؛ فَقَدْرُ كلِّ أحد وقيمته يظْهَرُ عند محنته ؛ فَمَنْ كانت محنتُه من فوات الدنيا ونقصان نصيبه منها ، أو كانت محنته بموت قريبٍ من الناس ، أو فَقْد حبيبٍ من الخَلْق فحقيرٌ قَدْرُه ، وكثيرٌ فى الناسِ مثلُهُ . ومَنْ كانت محنته فى الله ولله فعزيزٌ قَدْرُه ، وقليلٌ مَنْ كان مثله ، فهم فى العدد قليلٌ ولكن فى القَدْرِ والخَطَرِ جليلٌ : وبقدر الوقوف فى البلاء تظهر جواهرُ الرجال ، وتصفو عن الخَبَثِ نفوسُهم .

والمؤمن مَنْ يكفُّ الأذى ، ويتحمل من الخَلْقِ الأذى ، ويتشرب ولا يترشح بغير

شكوى ولا إظهار ؛ كالأرض يُلقَى عليها كلُّ خبيث فتُنْبِتُ كلَّ خضرة وكل نزهة[1] .

قوله جل ذكره : « ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين » .

إذا اشتبكت دموعٌ فى خدود ... تَبَيَّنَ مَنْ بكى ممن تباكى

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولْنَحْمِلْ خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم مِنْ شىء إنَّهم لكاذبون »

ضمنوا بما لم يفوا به ، وأخلفوا فيما وَعَدُوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً ، بل زادوا على حَمْل نفوسهم ؛ فاحتقبوا وِزْرَ ما عملوا ، وطولبوا بوزْر ما به أَمَرُوا[2] ، فضاعَفَ عليهم العقوبة ، ولم يصل أحدٌ من جهتهم إلى راحة ، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب أخاه بيثرب .

قوله جل ذكره : « وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وَلَيُسْأَلُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يَفْتَرون »

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمتَشَبِّهون بأهل الحقائق :

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه ... فَضَحَ الامتحانُ ما يَدَّعيه

وقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[3] . . وهيهات هيهات !

---

(١) القشيرى هنا مستفيد من قول الجنيد : (الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح) الرسالة ص ١٣٩ .

(٢) رأينا بناء (أمروا) للمعلوم حتى يتضح أن وزرهم أشد نتيجة قولهم للذين آمنوا : (اتبعوا سبيلنا) ؛ فالداعى إلى السوء يحمل وزر نفسه ووزر من يقتدى به. ومن الجائز أن تبنى للمجهول فتكون (أُمِروا) ولكن المعنى يكون أقل تأثيراً وأداء .

(٣) آية ١١١ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فَلَبِثَ
فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذهم
الطوفانُ وهم ظالمون * فأنجيناه ... » الآية

ما زادهم طولُ مقامه فيهم إلا شكا في أمره ، وجهلا بحاله ، ومِرْية في صدقه ، ولم يزدد نوح - عليه السلام - لهم إلّا نُصْحاً ، وفي الله إلا صبراً . ولقد عرّفه اللهُ أنه لن يؤمِنَ منهم إلا الشِّرْذِمةُ اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا ، وأمَرَهُ باتخاذ السفينة ، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً ، وَصَدَقَ وَعْدَه ، ونَصَرَ عَبْدَه . . فلا تبديلَ لِسُنَّتِه في نصرة دينه .

قوله جل ذكره : « وإبراهيمَ إذ قال لقومه اعبدوا اللهَ
واتقوه ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم
تعلمون »

كَرَّرَ ذِكْرَ ابراهيم في هذا الموضع ، وكيف أقام على قومه الحُجَّة ، وأرشدهم إلى سَوَاءِ الحجة ، ولكنهم أصروا على ماجحدوا ، وتعصبوا لِمَا من الأصنام عبدوا ، وكادوا لابراهيم كيداً . . ولكن انقلب ذلك عليهم من الله مكراً بهم واستدراجاً . ولم يَنْجَعْ فيهم نُصْحُه ، ولا وَجَدَ منهم مساغاً وَعْظُه .

قوله جل ذكره : « إنّما تعبدون من دون اللهِ أوثاناً
وتَخْلُقُون إفكاً إنَّ الذين تعبدون
من دون اللهِ لا يَمْلِكون لكم رِزْقاً
فابتغوا عند اللهِ الرزقَ واعبدوه واشكروا
له إليه تُرجَعون »

لا يُدْرَى أيهما أقبح . . هل أعمالكم في عبادة هذه الجمادات أم أقوالكم - فيما تزعمون كذباً - عن هذه الجمادات ؟ وهي لا تملك لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضراً ، ولا تملك لكم خيراً ولا شراً ، ولا تقدر أن تصيبكم بهذا أو ذاك .

وبيّنَ أنهم في هذا لم يكونوا خالين عن ملاحظة الحظوظ وطلب الأرزاق[1] فقال : « فابتغوا عند الله الرزقَ واعبدوه » لتَصِلوا إلى خير الدارينْ.

وابتغاء الرزق من الله إدامةُ الصلاة ؛ فإن الصلاةَ استفتاحُ بابِ الرزق ، قال تعالى : « وأْمُرْ أهلكَ بالصلاة واصطبِرْ عليها لا نسألك رزقاً »[2]

ويقال ابتغاء الرزق بشهود موضع الفاقة فعنـد ذلك تتوجه الرغبة إلى الله تعالى في استجلاب الرزق .

وفي الآية تقديمٌ لابتغاء الرزق على الأمر بالعبادة ؛ لأنه لا يُمكِنه القيام بالعبادة إلا بعد كفاية الأمر ؛ فبالقوة يمكنه أداء العبادة ، وبالرزق يجد القوة ، قالوا :

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه

فَمكروهَ ما يلقى يكون جزاؤه

« واشكروا له » : حيث كفاكم أمر الرزق حتى تفرغتم لعبادته[3] .

قوله جل ذكره : « وإن تُكَذِّبوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكم وما على الرسول إلا البلاغُ المبين »

وبالُ التكذيب عائدٌ على المُكَذِّب ، وليس على الرسول ـ بعد تبليغه الرسالة بحيث لا يكون فيه تقصير كي يكون مُبَيِّناً ـ شيء آخر . وإلا يكون قد خرج عن عهدة الإلزام .

وفيما حلَّ بالمكذِّبين من العقوبة ما ينبغي أن يكون عِبْرَةً لِمَنْ بعدهم .

قوله جل ذكره : « أَوَ لَمْ يَرَوْا كيف يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه إنَّ ذلك على الله يسيرٌ »

(١) فالعبادة الخالصة علامتها أن تكون خالصة للمعبود بلا تطلع لعوض أو غرض ؛ والغيبة عن أي (وارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب) الرسالة ص٤٠ .

(٢) آية ١٣٢ سورة طه .

(٣) عني القشيري بتوضيح النسق في الأسلوب القرآني حين ناقش ترتيب الكلام على نحو مقنع أخاذ .

الذى دَاخَلَهم فيه الشَّكُّ كان بعث الخَلق ، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من إعادة فصول السَّنَةِ بعد تقضّيها على الوجه الذى كان فى العام الماضى . وبَيَّنَ أن جَمْعَ أجزاء المكلَّفين بعد انقضاض البِنْية كإعادة فصول السنة ؛ فكما أن ذلك سائغٌ فى قدرته غيرُ مُسْتَنْكَرٍ فكذلك بعثُ الخلق .

وكما فى فصول السنة تتكرر أحوالُ العِبادة فى الأحوال العامة المشتركة بين الكافة ، وفى خواص أحوال المؤمنين من استيلاء شهوات النفوس ، ثم زوالها ، إلى موالاة الطاعات ، ثم حصول الفترة ، والعود إلى مثل الحالة الأولى ، ثم بعد ذلك الانتباه بالتوبة . . كذلك تتكرر عليهم الأحوال .

وأربابُ القلوبِ تتعاقب أحوالُهم فى القبض والبسط ثم فى الهيبة والأُنْس ، ثم فى التجلى والسَّتْر ، ثم فى البقاء والفناء ، ثم فى السُّكْرُ(1) والصحو . . وأمثال هذا كثير . وفى هذا المعنى قوله :

« قُلْ سِيروا فى الأرضِ فانظروا كيف بَدَأَ الخلقَ
ثم اللهُ يُنْشِئُ النشأةَ الآخِرةَ إنَّ اللهَ على كل شىء
قدير »

وفى معنى تكرير الأحوال ما أنشدوا :

كلُّ نَهْـرٍ فيه ماء قد جَرَى
فإليـــه الماء يوماً سيعود

قوله جل ذكره : « يُعَذِّبُ مَن يشاء ويرحم مَن يشاء
وإليه تُقْلَبون »

أجناسُ ما يعذِّبُ به عبادَه وأنواعُ ما يرحم به عباده . . لا نهاية لها ولا حَصْر ؛ فَمِنْ ذلك أنه يعذِّب من يشاء بالخذلان ، ويرحم من يشاء بالإيمان . يعذِّب من يشاء بالجحود والعنود ،

(1) وردت فى ص (الشك) وفى م (السكر) والصواب هذه لأنها تلائم السياق . فالسكر والصحو حالان من أحوال الفناء .

ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود . يعذب من يشاء بالحِرْصِ ويرحم من يشاء بالقناعة . يعذِّب من يشاء بتفرقة الهمِّ ويرحم من يشاء بجَمْعِ الهِمَّة . يعذب من يشاء بإلقائه فى ظلمة التدبير ، ويرحم من يشاء بإشهاده جريان التقدير . يعـذب من يشاء بالاختيار من نَفْسِه ، ويرحم من يشاء بشاه بِحُكْمِ ربِّه . يعذب من يشاء بإعراضه عنه ، ويرحم من يشاء بإقباله عليه . يعذب من يشاء بأن يَكِلَه ونَفْسَه ، ويرحم من يشاء بأن يقوم بِحُسْنِ تولِّيه . يعذب من يشاء بحبِّ الدنيا ويعنيها عنه ، ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبَسْطِها عليه . يعذب من يشاء بأن يثبته فى أوطان العادة ، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العبادة . . . وأمثال هذا كثير .

قوله جل ذكره : « وما أنتم بمُعْجِزِين فى الأرضِ
ولا فى السماءِ وما لـكم من دون اللهِ من
ولىٍّ ولا نصير » .

قَلَّبَ الجلةَ فى القبضة ، وتُجْرِى عليهم أحكامَ التقدير : جحدوا أم وَحَّدوا ، أقبلوا أم أعرضوا .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا بآياتِ اللهِ ولقائه
أولئك يَئِسُوا من رحمتى وأولئك لهم
عذابٌ أليمٌ »

نعجلت عقوبتهم بأن يئسوا من رحمته . . ولا عقوبةَ أشدُّ من هذا .

قوله جل ذكره : « فما كان جوابَ قومِه إلّا أن قالوا
اقتلوه أو حَرِّقوه فأنجاه اللهُ منْ النارِ
إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون »

لـمّا عجزوا عن جوابه ولم يساعدهم التوفيق بالإجابة أخذوا فى معارضته بالتهديد والوعيد ، والسفاهة والتوبيخ ، والله تعالى صرف عنه كَيْدَهم ، وكفاه مَكْرَهم ، وأفلج عليهم حُجَّتَه[1] ،

(١) أفلج الله عليهم حجته أى أظهرها وأثبتها .

وأظهر للكافة عجزَهم ، وأخبر عما يلحقهم فى مآلهم من استحقاق اللّعْنِ والطردِ ، وفنون الهوان والخِزْى .

قوله جل ذكره : « فآمَنَ له لوطٌ وقال إنّى مُهَاجِرٌ إلى ربّى إنه هو العزيزُ الحكيم »

لا تَصِحُّ الهجرةُ إلى الله إلّا بالتبرِّى — بالكمالِ — بالقلبِ عن غير الله . والهجرةُ بالنفْسِ يسيرةٌ بالإضافة إلى الهجرة بالقلب — وهى هجرة الخواص ؛ وهى الخروج عن أوطان التفرقة إلى ساحات الجَمْعِ . والجمعُ بين التعريجِ فى أوطان التفرقة والسكونِ فى مشاهد الجَمْعِ مُتَنَافٍ[1] .

قوله جل ذكره : « ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وجعلنا فى ذُرِّيَتِهِ النبوةَ والكتابَ وآتيناه أجرَه فى الدنيا وإنه فى الآخرةِ لَمِنَ الصالحين » .

لمّا لم يُجِبْ قومُه ، وبذل لهم النصح[2] ، ولم يدّخر عنهم شيئاً من الشفقة — حقّقَ اللهُ مرادَه فى نَسْلِهِ ، فوهب له أولادَه ، وبارك فيهم ، وجعل فى ذريته الكتابَ والنبوة ، واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أعمالُهم للقبول ، وأحوالُهم للإقبال عليها ، ونفوسُهم للقيام بعبادته ، وأسرارُهم لمشاهدته ، وقلوبُهم لمعرفته .

« وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » للدنوِّ والزلفة والتخصيص بالقربة .

قوله جل ذكره : « ولوطاً إذ قال لقومه إنّكم لتأتون الفاحِشَة ما سبَقَكُمْ بها من أحدٍ من العالَمين » .

---

(١) ما يكون كسبا للعبد وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع فإثبات الخَلْق من باب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع (الرسالة ص ٣٨) .

(٢) فى ص زاد الناسخ (فى أوطان) وهى غير موجودة فى م والسياق يستغنى عنها .

لامَهُم على خصلتهم الشنعاء ، وما كانوا يتعاطونه على الله من الاجتراء ، وما يُضيِّعُونه من المعروف ويأتون من المنكر الذى جملته تخليته الفُسَّاق مع فِسقهم ، وترك القبض على أيديهم ، وقلة الاحتشام من اطّلاع الناس على قبائح أعمالهم . ومن ذلك قلة احترام الشيوخ والأكابر ، ومنها التسويف فى التوبة ، ومنها التفاخر بالزلّة .

فما كان جوابُهم إلا استعجالَ العقوبة ، فحلّ بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك مَنْ شاركهم .

قوله جل ذكره : « ولمَّا جاءت رُسُلُنا ابراهيمَ بالبُشْرى

قالوا إنَّا مُهْلِكوا أهل هذه القرية

إنَّ أهلَها كانوا ظالمين » .

التبس على إبراهيمَ أمرُهم فظَنَّهم أضيافًا ؛ فتكلَّفَ لهم تقديم العجل الحنيذ جريًا على سُنَّتِه فى إكرام الضيف . فلما أخبروه مقصودَهم من إهلاك قوم لوط تكلَّمَ فى باب لوط ... إلى أن قالوا : إنَّا مُنَجُّوه . وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوطٍ — وإنْ كان بريئًا — لم يكن ظلمًا ؛ إذ لو كان قبيحًا لما كان إبراهيم عليه السلام — مع وفرة عِلْمِه — يشكل عليه حتى كان يجادل عنه . بل لله أن يعذِّب مَنْ يعذِّب ، ويُعَافِى مَنْ يُعَافِى[1] .

قوله جل ذكره : « ولمَّا أن جاءتْ رُسُلُنا لوطًا سِيءَ بهم

وضاق بهم ذَرْعًا وقالوا لا تَخَفْ

ولا تَحْزَنْ إنَّا مُنَجُّوكَ وأهْلَكَ

إلّا امرأتَكَ كانت من الغابرين » .

لمَّا أن رآهم لوطٌ ضاق بهم قلبُهُ لأنَّه لم يعلم أنهم ملائكةٌ ، فخاف عليهم من فساد قومه ؛ فكان ضِيقُ قلبِه لأَجْلِ الله — سبحانه ، فأخبروه بأنهم ملائكة ، وأنَّ قومه لن يَصِلُوا إليهم ، فعند ذلك سَكَنَ قلبُه ، وزال ضيقُ صَدْرِه .

(١) أى أبرأه من العلل والبلايا وأصحّه .

ويقال أقربُ ما يكون العبد فى البلاءِ من الفرج إذا اشتدَّ عليه البلاء ؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء ، لأنه يصير مُضْطرًا ، واللهُ سبحانه وَعَدَ المضطرين وشيك الاجابة[1]. كذلك كان لوط فى تلك الليلة ، فقد ضاق بهم ذَرْعًا ثم لم يلبث أنْ وَجَدَ الخلاصَ من ضيقه .

قوله جل ذكره : « ولقد تَرَكْنَا منها آيةً بَيِّنَةً لقومٍ يَعْقِلون » .

فَمَنْ أراد الاعتبارَ فله فى قصتها عِبْرة .

قوله جل ذكره : « وإلى مدين أخاهم شعيبًا ... » الآيات .

ذَكَرَ قصةَ شعيبٍ وقصة عادٍ وثمود وقصة فرعون ، وقصة قارون .. وكلهم نَسَجَ بعضُهم على مِنْوال بعضٍ ، وسلك مسلكَهم ، ولم يَقْبَلوا النصحَ ، ولم يُبالوا بمخالفة رُسِلِهم ، ثم إن الله تعالى أهلكهم بأجمعهم ، إمضاء لِسُنَّتِه فى نصرة الضعفاء وقهر الظالمين .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياء كَمَثَلِ العَنكبوتِ اتخذت بيتًا وإنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون » .

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتًا ، ولكن كلما زاد نسجًا فى بيته ازداد بُعْدًا فى الخروج منه ؛ فهو يبنى ولكن على نفسه يبنى .. كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يجنى .

وبيتُ العنكبوتِ أكثره فى الزوايا من الجدران ، كذلك الكافر أمره على التَّقِيَّةِ[2] والكتمان ، وأمَّا للؤمن فظاهِرُ المعاملةِ ، لا يستر ولا يُدَخِّس[3] .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » آية ٦٢ سورة النمل .

(٢) التقية عند بعض الفرق الإسلامية معناها إخفاء الحق ومصانعة الناس فى غير دولتهم .

(٣) دخس عليه = لم يبيِّن له ما يريد ، ودخس الشىء = ستره .

وبيتُ العنكبوتِ أوهنُ البيوت لأنه بلا أساسٍ ولا جدران ولا سقف ولا يمسك على أدْوَن[1] دَفْعٍ .. كذلك الكافر ؛ لا أصلَ لشأنه ، ولا أساسَ لبنيانه ، يرى شيئاً ولكن بالتخييل ، فأمّا فى التحقيق .. فَلاَ .

قوله جل ذكره : « وتلك الأمثالُ نَضْرِبُهَا للنـاسِ
وما يعقِلُها إلا العالِمون » .

الكلُّ يشتركون فى سماع الأمثال ، ولكن لا يصغى إليها مَنْ كان نَفُورَ القلبِ ، كنودَ الحالِ ، متعوجاً الكسلَ ، مُعَرَّجًا فى أوطان الفشَلِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ
إنَّ فى ذلك لآيةً للمؤمنين » .

« بالحق » : أى بالقول الحق والأمر الحق .

قوله جل ذكره : « اتْلُ ما أوحِيَ إليكَ من الكتابِ
وأقِمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهى عن
الفحشاءِ والمُنْكَرِ ولَذِكْرُ اللهِ أكبر
والله يعلم ما تصنعون » .

أى من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهيَ عن الفحشاء والمنكر ، أى على معنى ينبغى للمؤمن أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، كقوله : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى ينبغى للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قُدِّرَ أن واحداً منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الايمان — كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة .

ويقال بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر ؛ فإن لم يكن من العبد انتهاء فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل ، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر .

---

(1) أى على أضعف دفع

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر . فإن كان — وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها

ويقال الفحشاء هي الدنيا ، والمنكر هو النّفْس .

ويقال الفحشاء هي المعاصي ، والمنكر هو الحظوظ .

ويقال الفحشاء الأعمال ، والمنكر حسبانُ النجاة بها ، وقيل ملاحظتُه الأعواض عليها ، والسرور والفرح بمدح الناس لها .

ويقال الفحشاء رؤيتها ، والمنكر طلب العِوض عليها .

« ولذكر الله أكبر »[1] : ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلق مُحْدَث .

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى ؛ لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

ويقال ولذِكْرُ اللهِ لكَ أكبرُ من ذكْرِك له .

ويقال ذكْرُه لك بالسعادة أكبرُ من ذكْرِك له بالعبادة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقِي للذاكر معه ذِكْر مخلوق .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبْقِي للزّلةِ معلوماً أو مرسوماً .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحدٌ من المخلوقين بغيره .

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبْقِيَ معه للفحشاء والمنكر سلطاناً ؛ فلِحُرمة ذكره زَلاّتُ الذاكر مغفورةٌ ، وعيوبه مستورةٌ .

قوله جل ذكره : « ولا تجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي

---

(١) رأى القشيري في «ولذكر الله أكبر» ، ليس فيه كما يلحظ القارىء تقليل من قيمة الصلاة العادية التي وردت في الآية نفسها ، كما قد يدعي بعض من يتهمون الصوفية بأنهم يرفعون «ذكرهم» ويخفضون قيمة «الصلاة» وبالتالي لا يأبهون بها —.. وهذا — كما هو واضح — اتهام باطل .

هى أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم
وقولوا آمنا بالذى أنزلَ إلينا وأنزلَ
إليكم وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحن
له مُسْلمون »

ينبغى أن يكون منك للخصم تبيين ، وفى خطابك تليين ، وفى قبول الحق إنصاف ، واعتقاد النصرة — لما رآه صحيحاً — بالحجة ، وتَرْك الميل إلى الشىء بالهوى .

قوله جل ذكره : « وكذلك أنزلنا إليك الكتابَ
فالذين آتيناهم الكتابَ يؤمنون به
ومن هؤلاء مَن يؤمنُ به وما يجحد
بآياتنا إلا الكافرون » .

يعنى أنهم على أنواع : فمرحومٌ نظرْنا إليه بالعناية ، ومحرومٌ وسمْناه بالشقاوة .

قوله جل ذكره : « وما كنتَ تتلو من قبْله من
كتابٍ ولا تخُطّه بيمينك إذاً
لارتابَ المبطلون » .

أى تجرَّد قلبك عن المعلومات ، وتقدّس سرك عن المرسومات ، فصادَفك من غير ممازجة طبعٍ ومشاركةِ كَسْبٍ وتكلف بشرية[1] ، فلما خلا قلبك وسرُّك عن كل معلومٍ ومرسومٍ وردَ عليك خطابُنا وتفهيمنا غيرَ مقرونٍ بهما ماليس مِنّا .

قوله جل ذكره : « بل هو آياتٌ بيناتٌ فى صدور
الذين أُوتوا العلمَ وما يجحدُ بآياتنا
إلا الظالمون » .

قلوبُ الخواص من العلماء بالله خزائنُ الغيب ، فيها أُودع براهين حقه ، وبينات سِرِّه ، ودلائل توحيده ، وشواهد ربوبيته ؛ فقانون[2] الحقائق قلوبهم ، وكلُّ شىء يطلبُ من موطنه

(١) أى أن هذه الآفات تلحق علوم الإنسان حينما لا تكون خالصة .
(٢) من معانى كلمة (القانون) طريق الشىء وأصله .

ومحله ؛ فالدرُّ يطلبُ من الصدف لأنّ ذلك مسكنه ، والشمس تطلب من البروج لأنها مطلعها ، والشهد يُطلبُ من النّحل لأنه عشه . كذلك المعرفة[1] تُطلَبُ من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته ، ومنها (. . . . .)[2]

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا أُنزِلَ عليه آياتٌ من ربه
قُلْ إنما الآياتُ عند اللهِ وإنما أنا
نذيرٌ مبين »

خَفِيَتْ عليهم حالتُكَ - يا محمد - فطالبوكَ بإقامة الشواهد ، وقالوا : « لولا أُنزل عليه آيات . . . » أوَ لم يَكْفِهِم ما أوحينا عليكَ من السبيل ، وأَنْحَلنا لكَ من الدليل ؛ يُتْلَى عليهم ذلك ، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيء من مثله ؟! هذا هو الجحود وغاية الكُنود !

قوله جل ذكره : « قُلْ كفى باللهِ بيني وبينكم شهيداً
يعلم ما في السمواتِ والأرضِ والذين
آمنوا بالباطلِ وكفروا باللهِ أولئك هم
الخاسرون »

أنا على حقٍّ واللهُ - سبحانه - يعلمه ، وأنتم لستم على حق والله يعلمه .

قوله جل ذكره : « ويستعجلونك بالعذابِ ولولا أجَلٌ
مُسَمًّى لجاءهم العذابُ وليأتيَنَّهم بغتةً
وهم لا يشعرون »

لولا أني ضربتُ لكلِّ شيء أجلاً لَعَجَّلْتُ لهم ذلك ، وليأتيَنَّهم العذابُ - حين يأتيهم - بغتةً وفجأةً .

---

(1) ورد في ص بعد كلمة المعرفة (وصف الحق) وربما كانت (بوصف الحق) وهي غير موجودة في م ، ونرجح أنها موجودة في الأصل بدليل اقتران الضمير بـ (خواصه) .

(2) في ص (توقع نسخة توحيده) وفي م (يرفع نسخة توحيده) وكلاهما غامض في الكتابة وإن كنا نستطيع أن نفهم أن التوحيد - وهو أقصى درجات المعرفة - محله قلوب الخواص .

قوله جل ذكره. « يومَ يَغشاهم العذابُ مِن فوقِهم ومن تحت أرجُلِهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون »

وإذا أحاطت بهم فى جهنم سرادقاتُ العذاب فلا صريخ لهم ، كذلك ـ اليومَ ـ مَنْ أحاط به العذابُ ؛ مِنْ فوقه اللّعنُ ومن تحته الخسفُ ، ومن حوله الخِزْىُ ، ويُلْبَسُ لباسَ الخذلان ، ويوسم بكَىِّ الحرمان ، ويُسْقَى شرابَ القنوط ، ويُتَوَّجُ بتاج الخيبة ، ويُقَيَّدُ بقيد السُّخْط ، ويُغَلُّ بِغُلِّ العداوة ، فهُمْ يُسْحَبون فى جهنم الفراق حُكْماً ، إلى أن يُلقَوْا فى جحيم الاحتراق عيناً .

قوله جل ذكره : « يا عبادىَ الذين آمنوا إنَّ أرضى واسعةٌ فإياى فاعبدون »

الدنيا أوسعُ رقعةً من أن يضيق بمريدٍ مكان ، فإذا نَبَا به منزلٌ ـ لوجهٍ من الوجوه ـ إمّا لمعلومٍ حصل ، أو لقبولٍ من الناس ، أو جاهٍ ، أو لعلاقةٍ أو لقريبٍ أو لبَلاءٍ ضِدٌّ ، أو لوجهٍ من الوجوه الضارة . . . فسبيلُه أن يرتحل عن ذلك الموضع وينتقل إلى غيره ، كما قالوا[1] :

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيًّا
أنْ أُرَى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أُمْسِى

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقتَه مكانٌ انتقل إلى غيره من الأماكن[2] .

قوله جل ذكره : « كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا تُرْجعون »

إذا كان الأمرُ كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور ؛ فسبيلُ المؤمن أن يوطِّن نفسَه

---

(١) البحترى فى السينية .

(٢) تعبر هذه الفقرة عن رأى القشيرى فيما يعرف عند الصوفية (بالسَّفر) فهو يجيزه للعارف ، أما بالنسبة للمريد فإنه يرى عدم السفر ؛ لأن ثبات المريد فى مكان به ابتلاء هروب من مواجهة الابتلاء وذلك آية ضعف فى الإرادة : (ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول بالقلب إلى الرب ، ، فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل(الرسالة ص ٢٠٠).

على الخروج مستعداً له ، ثم إذا لم يحصل الأَجَلُ فلا يستعجل ، وإذا حضر فلا يستثقل ، ويكون بحُكمِ الوقت ، كما قالوا :

لو قال لى مُتْ مِتُّ سمعاً وطاعةً

وقلتُ لداعى الموت : أهلاً ومرحبا

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ

لنبوئنَّهم من الجنة غُرَفاً تجرى من

تحتها الأنهارُ خالدين فيها نِعْمَ أجرُ

العاملين »

هم ـ اليومَ ـ فى غُرَفِ معارفهم على أسِرَّةٍ وَصْلِهم ، مُتَوَّجُون بتيجان سيادتِهم ، يُسْقَوْن كاساتِ الوَجْدِ ، ويَحْبَرُون فى جِنانِ القُرْب ، وعداً كما قال : —

« الذين صَبَرُوا وعلى ربِّهم يتوكلون »

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة .

الصبرُ العكوفُ فى أوطان الوفاء ، الصبر حَبْسُ النَّفْسِ على فِطامها .

الصبر تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعبيس .

الصبر صفة توجب معيَّةَ الحقِّ . . وأعْزِزْ بها !

وأولُ الصبرِ تصبُّرٌ بتكلفٍ ، ثم صبرٌ بسهولة ، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة ، ثم تحقُّقٌ بوصف الرضا ؛ فيصير العبدُ فيه محمولاً بعد أن كان مُتَحَمِّلاً .

والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار ، والتوكلُ سكونُ السِّرِّ إلى الله ، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة التوكل ؛ فلا تتبرَّم فى الخلوة بانقطاع الأغيار عنك . التوكل إعراضُ القلب عن غير الربِّ .

قوله جل ذكره : « وكأيِّن من دابةٍ لا تحمل رزقَها اللهُ

يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » .

« لا تحمل رزقها » أى لا تدخره ، فمن لم يدخر رزقه فى كيسه أو خزائنه فالله يرزقه من غير مقاساة تعب منه .

ويقال « لا تحمل رزقها » المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم ، وليس لها بيت تجمع فيه القوت ، وليس لها خازن ولا وكيل .. الله يرزقها وإياكم .

ويقال إرادةُ اللهِ فى أن يستبقيكَ ولا يقبض رُوحَكَ أقوى وأتمّ وأكبرُ من تمنّيك لأجْلِ بقائك .. فلا ينبغى أنْ يكونَ اهتمامُكَ بسبب عَيْشِك أتمّ وأكبرَ من تدبير صانعك لأجل بقائك .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتَهم مَنْ خَلَقَ السمٰواتِ
والأرضَ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ
ليقولُنّ اللهُ فأنّى يُؤْفكُون » .

إذا سُئِلوا عن الخالق أقروا بالله ، وإذا سُئِلوا عن الرازق لم يستقروا مع الله .. هذه مناقَضَةٌ ظاهرة !

قوله جل ذكره : « اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يشاء من
عباده ويَقْدِرُ له إنّ اللهَ بكلِّ
شيء عليم » .

الرزق على قسمين : رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب ، ورزق السرائر ومنه الاستقلال بالمعانى بحيث لا يحصره تكلف الكلام ، والناسُ فيهم مرزوقٌ ومُوَسَّعٌ عليه ، وفيهم مرزوق ولكنْ مُضَيَّقٌ عليه .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتَهم مَن نَزّلَ مِنَ السماءِ ماء
فأحيا به الأرضَ من بعد موتها ليقولُنّ
اللهُ قُلِ الحمد للهِ بل أكثرُهم
لا يعقلون » .

كما عَلِموا أنَّ حياةَ الأرضِ بعد موتها بالمطر من قِبَل الله فليعلموا أنَّ حياةَ النفوسِ بعد موتها — عند النَّشْرِ والبعث — بقدرة الله . وكما علموا ذلك فليعلموا أنَّ حياةَ الأوقات بعد نفرتها ، وحياة القلوب بعدفترتها ... بماء الرحمة بالله .

قوله جل ذكره : « وما هذه الحياةُ الدنيا إلا لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لِهيَ الحيوانُ لو كانوا يعلمون » .

الدنيا كالأحلام ، وعند الخروج منها انتباهٌ من النوم . والآخرة هنالك العيش بكماله ، والتخلص — من الوحشة — بتمامه ودوامه .

قوله جل ذكره : « فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دعوا اللهَ مُخْلِصين له الدِّينَ فلمَّا نجَّاهم إلى البرِّ إذا هم يُشرِكون » .

الاخلاصُ تفريغُ القلب عن الكلِّ ، والثقةُ بأن الاخلاص ليس إلا به — سبحانه ، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً في المحمودات ولا في المذمومات ، فعند ذلك يبدونه مخلصين له الدِّين . وإذا توالت عليهم الضرورات ، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين (فإذا كشف الضُّرَّ عنهم عادوا إلى الغفلة ، ونَسُوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل)[1] :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نُكْسِه

قوله جل ذكره : « أو لم يروا أنا جعلنا حرَمًا آمِنًا ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حَوْلِهم أفبالباطلِ يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » .

مَنَّ عليهم بدَفْعِ المحن عنهم وكَوْنِ الحرَمِ آمنًا . وذَكَّرَهم عظيمَ إحسانه عليهم ، ثم إعراضهم عن شكر ذلك .

---

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص ، والسياق يتطلبه ؛ لأن الشاهد الشعري الموجود في النسختين يؤيد معناه .

قوله جل ذكره : « ومَنْ أظلمُ ممن افترىٰ على اللهِ كَذِبًا أو كَذَّبَ بالحقِّ لمّا جاءه أليس في جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين » .

أى لا أحدَ أشدُّ ظلمًا ممن افترى على الله الكذب ، وعَدَلَ عن الصدق ، وآثَرَ البهتانَ ولم يتصرف بالتحقق ، أولئك هم السُّقَّاطُ فى الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : « والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين » .

الذين زَيَّنُوا ظواهرَهم بالمجاهدات حَسُنَتْ سرائرُهم بالمشاهدات . الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف . الذين قاسوا فينا التعبَ من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات .

ويقال الجهاد فيه : أولاً بترك المحرّمات ، ثم بترك الشُّبُهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع العلاقات ، والتنقِّى من الشواغل فى جميع الأوقات .

ويقال بحفظ الحواسّ لله ، وبعدِّ الأنفاس مع الله .

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله اسم عزيز شفيعُ المذنبين جودُه ، بلاء المهمين تصودُه ، ضياء الموحِّدين عهوده . وسلوةُ المحزونين ذِكرُه ، وحِرفةُ[1] الممتحنين شكرُه .

اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وجبّارٌ سناؤه بهاؤه ، وبهاؤه علاؤه .

العابدون حَسْبُهم عطاؤه ، والواجدون حسبهم بقاؤه[2] .

قوله جل ذكره : « آلمّ * غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض وهم من بَعْدِ غلبهم سيغلبُون * في بضع سنين » .

الإشارة في « الألف » إلى أنه أَلِفَ صُحْبتنَا مَنْ عَرَف عظمتنا ، وأنَّه ألف بلاءنا مَنْ عَرَفَ كبرياءنا .

والإشارة في « اللام » إلى أنه لَزِمَ بابنا مَنْ ذاق محابَّنا ، ولزِمَ بساطنَا مَنْ شهد جمالنَا .

والإشارة في « الميم » إلى أنه مُكّنَ مِنْ قُرْبنا مَنْ قام على خدمتنا ، ومات على وفائنا مَنْ تحقق بولائنا .

قوله : « غُلِبتِ الروم » : سُرَّ المسلمون بظفر الروم على العجم — وإن كان الكفر يجمعهم — إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء ، فشكر الله لهم ، وأنزل فيهم الآية . . فكيف بمن يكون سروره لدين الله ، وحُزنه واهتمامه لدين الله ؟

(١) الحرفة هنا معناها دأبه وديدنه (الوسيط) .

(٢) لأن بقاءهم به خلف لهم عن كل شيء ، فكل شيء زائل .

قوله جل ذكره : « للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ
ويومئذٍ يفرح المؤمنون * بنصرِ اللهِ
ينصُر مَن يشاء وهو العزيزُ الرحيم » .

« قبلُ » إذا أُطلق انتظم الأزل ، « وبَعْدُ » إذا أطلق دلّ على الأبد ؛ فالمعنى الأمر الأزلىُّ لله ، والأمر الأبدىُّ لله ؛ لأنَّ الربَّ الأزلىّ والسَّيِّدَ الأبدىّ اللهُ .

للهِ الأمرُ يومَ العرفان[1] ، ولله الأمرُ يومَ الغفران .

للهِ الأمرُ حين القسمة ولا حين ، ولله الأمرُ عند النعمة وليس أى معين[2] .

ويقال : لى الأمرُ « من قبل » وقد علمتُ ما تفعلون ، فلا يمنعنى أحدٌ من تحقيق عرفانكم ، ولى الأمر « من بعد » وقد رأيتُ ما فعلتم ، فلا يمنعنى أحدٌ من غفرانكم .

وقيل « لله الأمر من قبل » بتحقيق ودِّكم ، ولله الأمر من بعد بحفظ عهدكم :

إنى — على جفواتها — وبربِّها
وبكلِّ مُتصلٍ بها مُتوسلِ[3]

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » :

اليومَ إرجافُ السرور وإنما
يومَ اللقاء حقيقةُ الإرجاف

اليومَ ترحٌ وغداً فرح ، اليوم عَبرة وغداً حَبرة ، اليوم أسف وغداً لطف ، اليوم بكاء وغداً لقاء .

قوله جل ذكرهُ : « وعدَ اللهِ لا يُخلِفُ اللهُ وعْدَه
ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون »

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص يوم (القربان) ، والمعرفة والقرب يجريان فى هذه الحياة الدنيا ، أما الغفران فهو فى الآخرة يوم الحساب .

(٢) هكذا فى وهى فى ص : (ولله الأمر عند النقمة وليس فى معسر) وهى غامضة فى الكتابة والمعنى ، وقد آثرنا ما جاء فى م لوضوحه .

(٣) فى موضع آخر من هـذا المجلد .... نجد هذا البيت متبوعاً بالبيت التالى (الذى فيه خبر إن) :

لأحبها وأحب منزلها الذى ... نزلت به وأحب أهل المنزل

الكريمُ لا يُخلفُ وعده لا سيما والصدقُ نعته .

يقول المؤمنون : منا يومَ للميثاق وعدٌ بالطاعة ، ومنه ذلك اليومَ وعدٌ بالجنة ، فإن وَقع فى وعدنا تقصيرٌ لا يقع فى وعده قُصورٌ .

قوله جل ذكره : « يعلمون ظاهراً من الحياةِ الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

استغراقُهم فى الاشتغال بالدنيا ، وانهما كهم فى تعليق القلب بهـا . . مَنعَهم عن العلم بالآخرة . وقيمةُ كلِّ امرىءٍ عِلمه بالله ؛ ففى الأثر عن علىٍّ — رضى الله عنه — أنه قال : أهل الدنيا عَلَى غفلةٍ من الآخرة ، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها فى غفلة عن الله .

قوله جل ذكره : « أو لم يتفكروا فى أنفسِهم ما خلق اللهُ السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ وأجَلٍ مسمًّى وإنَّ كثيراً من الناسِ بلقاءِ ربِّهم لكافِرون » .

إنَّ مَنْ نظرَ حقَّ النظر ، ووَضَعَ النظر موضعَه أثمر له العلم واجباً ، فإذا استبصر بنور اليقين أحكامَ الغائبات ، وعَلِمَ موعوده الصادق فى المستأنف — نجا عن كَدِّ التردد والتجويز[1] . فسبيلُ مَنْ صحا عقلُه ألا يجنحَ إلى التقصير فيما به كمال سكونه .

قوله جل ذكره : « أوَلَمْ يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبــةُ الذين من قَبْلِهم كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثاروا الأرضَ وعَمَرُوها أكثرَ مما عمروها ، وجاءتْهم

---

(١) التردد والتجويز آفتان تصيبان — فى نظر القشيرى - العقل ؛ بينما القلب والروح والسر وعين السر لا تصاب بهما .

رُسُلُهم بالبينات فما كان اللهُ لِيَظْلِمَهم
ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمُون » .

سَيْرُ النفوس فى أقطار الأرض ومنا كبها لأداء العبادات، وسَيْرُ القلوب بجَوَلان الفِكْر فى جميع المخلوقات ، وغايته الظَّفَرُ بحقائق العلوم التى توجِبُ ثلج الصدر — ثم تلك العلوم على درجات . وسير الأرواح فى ميادين الغيب بنعت خرق سرادقات الملكوت ، وقصاراه الوصولُ إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة . وسير الأسرار بالترق عن الحِدْثان[1] بأَسْرِها ، والتحقق أولا بالصفات ، ثم بالخمود بالكلية عمَّا سوى الحق[2].

قوله جل ذكره : « ثُمَّ كان عاقبةَ الذين أساءوا
السُّوأَىٰ أن كَذَّبوا بآياتِ اللهِ وكانوا
بها يَسْتَهزِئُون » .

مَنْ زَرَعَ الشوكَ لم يحصُد الوَرْدَ ، ومَنْ استنبت الحشيشَ لم يقطف الثمار ، ومَنْ سَلَكَ طريق الغيّ لم يَحُلَّ بساحة الرشد .

قوله جل ذكره : « اللهُ يبدأُ الخَلْقَ ثم يعيده ثم إليه
تُرْجَعون » .

يبدأ الخلق على ما يشاء ، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يُبْلِسُ المجرمون » .

شهودُهم ما جحدوه فى الدنيا عيانًا ، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعًا[3] هو الذى يفتت أكبادهم ، وبه تتمُّ محنتُهم .

قوله جل ذكره : « ولم يَكُن لهم مِن شركائِهم شُفَعاءُ
وكانوا بشركائِهم كافرين » .

---

(١) المقصود بالحدثان المخلوقات إذ لها أول وابتداء ولها آخر وانتهاء .

(٢) انظر بخصوص هذا الترق صفحة ٤٨٦ (المجلد الأول من هذا الكتاب) .

(٣) لأن معرفتهم العينية تقطع كل شك كان يراودهم فى الحياة الدنيا ، فلا مجال يومئذ لأمل زائف .

تنقلب العداوةُ مِنْ بعضٍ على بعضٍ .

قوله جل ذكره : « ويومَ تقوم الساعةُ يومئذٍ يتفرقون » .

فريقٌ منهم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل الفرقة . فريق للجنة والمِنَّة ، وفريقٌ للعذاب والمحنة . فريقٌ في السعير ، وفريقٌ في السرور . فريقٌ في الثواب ، وفريقٌ في العذاب . فريقٌ في الفراقِ ، وفريقٌ في التلاقي .

قوله جل ذكره : « فأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فهم في روضةٍ يُحْبَرُون » .

فهم في رياضٍ وغياضٍ .

« وأمَّا الذين كفروا وكَذَّبوا بآياتِنا ولقاءِ الآخرةِ فأولئك في العذابِ مُحْضَرون » .

فهم في بوارٍ وهلاكٍ .

قوله جل ذكره : « فسُبْحان اللهِ حين تُمْسُون وحين تُصْبِحون * وله الحمدُ في السمواتِ والأرض وَعَشِيًّا وحين تُظْهِرون » .

مَنْ كان صباحُه لله بُورِكَ له في يومه ، ومن كان مساؤه بالله بورك له في ليله :

وإنَّ صَبَاحًا نلتقي في مسائه صَبَاحٌ على قلبِ الغريبِ حبيبُ

شتَّان بين عبدٍ صباحُه مُفْتَتَحٌ بعبادته ومساؤه مُخْتَتَمٌ بطاعته ، وبين عبدٍ صباحه مفتتح بمشاهدته ورواحه مفتتح بعزيز قربته !

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات ، والآية تتضمن الصلوات الخمس [1] .

---

(١) قيل لابن عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية . ف (حين تمسون) صلاة المغرب والعشاء ، (وحين) تصبحون صلاة الفجر ، (وعشيا) صلاة العصر ، (وحين تظهرون) صلاة الظهر .

وإرادةَ الحقِّ من أوليائه بأنْ يجددوا العهدَ في اليوم والليلة خمسَ مراتٍ ؛ فتقف على بساط المناجاة ، وتستدرك مافاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات .

قوله جل ذكره : « يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ ويخرجُ الميِّتَ من الحيِّ ويحيي الأرضَ بعد موتِها وكذلك تُخْرَجُون » .

« يخرج الحي من الميت » : الطيرَ من البيض ، والحيوان من النُّطفة .

و « يخرج الميت من الحيِّ » : البيض من الطير ، والنطفة من الحيوان .

والمؤمنَ من الكافرِ والكافرَ من المؤمن .

ويُظْهِرُ أوقاتاً من بين أوقات ؛ كالقبض من بين أوقات البسط ، والبسط من بين أوقات القبض .

« ويحيي الأرض بعد موتها » : يحييها بالمطر ، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء ؛ كذلك يوم النشور يحيي الخلْقَ بعد الموت .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَكُمْ من ترابٍ ثم إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون » .

خَلَقَ آدمَ من التراب ، ثم من آدم الذُّرِّيَةَ . فذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

ويقال الأصل تُرْبة ولكن العِبْرَة بالتربية لا بالتربة ، القيمةُ لما مِنْهُ لا لأعيان المخلوقات . اصطفى واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة ؛ الجنة جواهر ويواقيت ، والبيت حجر ! ولكن البيت مختارُه وهذا المختار حجر ! واختار الإنسانَ ، وهذا المختار مَدَرٌ ! والغنيُّ غنيٌّ لِذَاتِه ، غنيٌّ عن كلِّ غيرٍ من رَسْمٍ وأثر .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجَعَلَ بينكم

مودةً ورحمةً إنَّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يتفكرون » .

رَدَّ المِثْلَ إلى المِثْل ، وربَطَ الشكلَ بالشكلِ ، وجعل سكونَ البعضِ إلى البعضِ ، ولكنَّ ذلك للأشباح والصُّوَر ، أمَّا الأرواح فصُحْبَتُها للأشباح كرهٌ لا طوعٌ(١) . وأمَّا الأسرار فمُعْتَقَةٌ لا تساكن الأطلال ولا تتدنس بالأعلال .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السمٰوات والأرضِ
واختلافُ ألسِنَتِكُمْ وألوانِكم إنَّ
فى ذلك لآياتٍ للعالِمين » .

خَلْقَ السماوات فى علوِّها والأرضَ فى دنوِّها ؛ هذه بنجومها وكواكبها ، وهذه بأقطارها ومناكبها . وهذه بشمسها وقمرها ، وهذه بمائها ومَدَرِها .

ومن آياته اختلافُ لغات أهل الأرض ، واختلافُ تسبيحات الملائكة الذين هم سكان السماء . وإنَّ اختصاصَ كلِّ شىء منها بحُكْمٍ — شاهدُ عَدْلٍ ، ودليلُ صِدْقٍ على أنها تناجى أفكار المتيقظين ، وتنادى على أنفسها . . أنها جميعها من تقدير العزيز العليم .

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياتِهِ منامُكم بالليل والنهارِ
وابتغاؤُكم مِن فَضْلِهِ إنَّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يسمعون » .

غَلَبَةُ النوم بغيرِ اختيارِ صاحبه ثم انتباهُهُ مِنْ غير اكتسابٍ له بوُسْعِهِ يدلُّ على موته وبَعْثِهِ بعد ذلك وقتَ نشوره . ثم فى حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه ، وعلى أوصافٍ كثيرة أمره .. كذلك الميت فى قبره .. اللهُ أعلمُ كيف حاله فى أمره ، وما يلقاه من خيره وشرِّه ، ونفعه وضرِّه ؟

---

(١) فكرة اغتراب الروح عن مصدرها الأصيل ، ولبثها فى داخل البدن ، ذلك القفص المادى أو السجن الترابى — تحتل اهتماماً كبيراً عند شعراء الصوفية (أنظر كتابنا و نشأة التصوف الإسلامى، فصل الفطرية) .

قوله جل ذكره: «ومِنْ آياتِهِ يريكم البَرْقَ خوفاً وطمعاً
ويُنَزِّلُ من السماء ماء فيُحيي به الأرضَ
بعد موتِها إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ
يعقلون».

يُلقِي في القلوب من الرجاء والتوقع في الأمور، ثم يختلف بهم الحال؛ فمِنْ عبدٍ يحصلُ مقصودُه، ومِنْ آخر لا يتفق مرادُه.

والأحوال اللطيفة كالبروق، وقالوا: إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار[1]، فاللوائح في أوائل العلوم، واللوامع من حيث الفهوم، والطوالع من حيث المعارف[2]، والشوارق من حيث التوحيد.

قوله جل ذكره: «ومِنْ آياتِهِ أن تقومَ السماء والأرضُ
بأمْرِهِ ثم إذا دعاكُمْ دعوةً من الأرضِ
إذا أنتم تَخْرُجون».

يُفْنِي هذه الأدوار، ويُغيِّر هذه الأطوار، ويبدِّل أحوالاً غير هذه الأحوال؛ إماتةٌ ثم إحياء، وإعادةٌ وقبلها إبداء، وقبرٌ ثم نَشْر، ومعاتبةٌ في القبر ثم محاسبةٌ بعد النَّشْرِ.

قوله جل ذكره: «وله مَن في السمواتِ والأرضِ كُلٌّ له
قانِتُون».

له ذلك مِلْكاً، ومنه تلك الأشياء بَدْءا، وبه إيجاداً، وإليه رجوعاً.

قوله جل ذكره: «وهو الذي يبدأُ الخَلْقَ ثم يعيده وهو
أهون عليه وله المَثَلُ الأعْلَى في السموات
والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم».

---

(١) يتفق موقف القشيري من هذه المصطلحات هنا مع ما ذكره في «الرسالة» وإن كان قد زاد عليها هنا (متوع النهار).

(٢) نفهم من هذا أن القشيري يرى هذا الترتيب: العلم ثم الفهم ثم المعرفة أو العرفان، ونفهم أن التوحيد أعلى درجات العرفان.

« وهو أهون عليه » أي في خلقكم وتقديركم[1] .

وفي الحقيقة السهولةُ والوعورةُ على الحقّ لا تجوز .

« وله المَثَلُ الأعلى » : له الصفةُ العليا في الوجود بحقّ القِدَم ، وفي الجود بنعت الكرَم ، وفي القدرة بوصف الشمول ، وفي النصرة بوصف الكمال ، وفي العلم بعموم التعلّق ، وفي الحكم بوجوب التحقق ، وفي المشيئة بوصف البلوغ ، وفي القضية[2] بحكم النفوذ ، وفي الجبروت بعين العزّ والجلال ، وفي الملكوت بنعت المجد والجمال .

قوله جل ذكره : « ضربَ لكم مثلاً من أنفسِكم هل لكم مما مَلَكَتْ أيمانُكم مِنْ شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سَواء تخافونَهم كخيفَتِكمُ أنفُسَكم كذلك نُفَصّل الآيات لقومٍ يعقلون » .

أي إذا كان لكم مماليك لا تَرْضَوْن بالمساواة بينكم وبينهم ، وأنتم متشاكلون[3] بكلّ وجه - إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم - فما تقولون في الذي لم يَزَلْ ، ولا يزال كما لم يزل ؟ .

هل يجوز أن يُقَدَّرَ في وصفه أن يُساوِيَه عبيدُه ؟ وهل يجوز أن يكون مملوكُه شريكَه ؟ تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً ! .

قوله جل ذكره : « بل اتَّبَعَ الذين ظَلَموا أهواءهم بغير عِلم فمَن يهدِي مَنْ أضَلَّ اللهُ وما لهم من ناصرين » .

---

(١) معنى هذه العبارة : حسب ظنكم وتقديركم الإعادةُ أسهلُ من الإنشاء .. فلِمَ أنكرتم الإعادة ؟ فضلا عن أنه ليس عند الله سهل ولا عسير .

(٢) القضية : هي قضاء الله .

(٣) متشاكلون معناها : متشابهون ومتساوون ولا فرق في الجوهرية بينكم وبينهم .

أشدُّ نفسٍ متابعةُ الهوى ؛ لأنه قريبٌ من الشِّرْكِ ، قال تعالى : « أفرأيتَ مَنِ اتخذ إلهه هواه »[1]. فمَنِ اتَّبعَ هواه خالف رضا مولاه ؛ فهو بوضعه الشيء غيرَ موضعه صار ظالماً ، كما أنَّ العاصيَ بوضعه المعصيةَ موضعَ الطاعةِ ظالمٌ .. كذلك هذا بمتابعة هواه بَدَلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار فى الظلم متمادياً .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وجهَك للدِّين حنيفاً فِطْرَةَ اللهِ
التى فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ اللهِ
ذلك الدِّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ
لاَ يَعْلَمون » .

أَخْلِصْ قَصْدَكَ إلى الله ، واحفَظْ عهدك مع الله ، وأَفرِدْ عملَكَ فى سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتك لله .

« حنيفاً » : أى مستقيما فى دينه ، مائلاً إليه ، مُعْرِضاً عن غيره[2]. والزَمْ « فطرةَ الله التى فطر الناس عليها » أى أَثْبَتَهُم عليها قبل أن يُوجَدَ منهم فِعْلٌ ولا كَسْبٌ ، ولا شِرْكٌ ولا كُفْر ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولاعصيان . فاعرف بهذه الجملة ، ثم افعل ما أُمِرْتَ به ، واحذر ما نُهِيتَ عنه .

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » أى إعْرَفْ واعْلَمْ أن فطرة الله التى فطر الناس عليها : تجرُّدُهم عن أفعالهم ، ثم اتصافهم بما يكسبون — وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله[3].

وعلى هذا تكون « فطرةَ » الله منصوبة بإضمار اعْلَمْ — كما قلنا .

---

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) فكلمة « حنيف » من الأضداد .

(٣) يذكرنا هذا بتفسير أبى طالب المكى لقول رابعة « أحبك حبين .. » فالحب الأول فطرى تفضل الله به ، والحب الثانى مانته هى بكسبها ولكنها حتى فى هذا الحب الكسبى لا فضل لها ، ولذلك استدركت :

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

أنظر (قوت القلوب للمكى ج٢ ص٥٦ وماتلاها) وانظر أيضا كتابنا (نشأة التصوف الإسلامى) ط دار المعارف .

سبحانه فَطَرَ كلَّ أحدٍ على ماعَلِمَ أنه يكون فى السعادة أو الشقاوة ، ولا تبديلَ لحُكْمه ، ولا تحويلَ لما عليه فَطَرَه . فمَنْ عَلِمَ أنه يكون سعيداً أراد سعادته وأخبر عن سعادته ، وخَلَقَه فى حُكْمه سعيداً . ومَنْ عَلِمَ شقاوته أراد أن يكون شقيّاً وأخبر عن شقاوته وخَلَقَه فى حكمه شقيّا .. ولا تبديل لحُكْمه ، هذا هو الدين المستقيم والحقُّ الصحيح[1]

قوله جل ذكره : « مُنيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاةَ ولا تكونوا من المشركين » .

أى راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية ، متصفين بوفاقه ، منحرفين بكل وجهٍ عن خلافه ، متّقين صغيرَ الإثم وكبيره ، قليلَه وكثيره ، مُؤثِرين يسيرَ وفاقه وعسيره ، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها جهراً ، متحققين بمراعاة فضائلها سِراً .

قوله جل ذكره : « من الذين فرّقوا دينَهم وكانوا شيعاً كلّ حزبٍ بما لديهم فرِحُون » .

أقاموا فى دنياهم فى خمار الغفلة ، وعنـاد الجهل والفترة ، فركنوا إلى ظنونهم ، واستوطنوا مركب أوهامهم ، وعوّلوا من كيس غيرهم ، وظنوا أنهم على شىء . فإذا انكشف ضبابُ وقتهم ، وانقشع سحابُ جحدِهم . . انقلب فرحُهم ترحاً ، واستيقنوا أنهم كانوا فى ضلالة ، ولم يعرّجوا إلاّ فى أوطان الجهالة .

قوله جل ذكره : « وإذا مسّ الناسَ ضُرٌّ دعوا ربَّهم مُنيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون » .

---

(١) نحسب أن القشيرى قد حاول إيضاح مشكلة هامة من مشاكل علم الكلام ، فليست الجبرية عنده مناقضة لحرية الإنسان واختياره ، ما دامت الأمور كلها مرتبطة بعلم الله الذى سبق كل شىء ، وبفضل الله للذى فطر على ما علم .

إذا أظلتهم المحنةُ وتالتهم الفتنةُ ؛ وَمَسَّتْهُم البليّةُ رجعوا إلى الله بأجمعهم مستعينين، وبلطفه مستجيرين ، وعن محنتهم مستكشفين[1] ..

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم : إذا فريق منهم — لا كلُّهم — بل فريقٌ منهم بربهم يشركون ؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة في الكفران ، ويقابلون إحسانه بالنسيان ، هؤلاء ليس لهم عهدٌ ولا وفاء ، ولا في مودتهم صفاء .

قوله جل ذكره : « لِيَكفرُوا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » .

أي عن قريبٍ سيحدث بهم مثلما أصابهم ، ثم إنهم يعودون إلى التضرع ، ويأخذون فيما كانوا عليه بدءًا من التخشع ، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس خطاياهم .

قوله جل ذكره : « أم أنزلنا عليهم سلطانًا فهو يتكلم بما كانوا به يُشركون » .

بَين أنهم بَنوا على غير أصلٍ طريقَهم ، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم ، وعلى غير شَرعٍ عن الله أو حجةٍ أو بيانٍ أسَّسُوا مذاهبَهم .

قوله جل ذكره : « وإذا أذقنا الناسَ رحمةً فرحوا بها وإن تُصِبْهمُ سيئةٌ بما قدّمَت أيديهم إذاهم يقنطُون » .

تستميلهم طوارقُ أحوالهم ؛ فإن كانت نعمة فإلى فرح ، وإن كانت شدة فإلى قنوطٍ وَتَرح .. وليس وصفُ الأكابر كذلك ؛ قال تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »[2] .

(١) أي راجين كشف الغمة عنهم .
(٢) آية ٢٣ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « أو لم يروا أنّ اللهَ يبسُط
الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ إنّ في ذَلِك
لآياتٍ لقومٍ يُؤمنون » .

الإشارة فيها إلى أن العبدَ لا يُعلِّقُ قلبه إلا بالله ؛ لأنّ ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله ، وما يسرُّهم ليس وجودُه إلا من الله ، فالبسطُ الذي يسرّهم ويؤنسهم منه وجوده ، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصولُه ، فالواجبُ لزوم عَقْوَة[1] الأسرار ، وقطعُ الأفكار عن الأغيار .

قوله جل ذكره : « فآتِ ذا القربىٰ حقَّه والمسكينَ وابن
السبيل ذلك خيرٌ للذين يريدون وجهَ اللهِ
وأولئك هم المفلحون » .

القرابةُ على قسمين : قرابةُ النسب وقرابة الدِّين ، وقرابةُ الدين أمسُّ ، وبالمواساة أحقُّ وإذا كان الرجلُ مشتغلا بالعبادة ، غيرَ متفرِّغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمانٌ بحاله ، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقَدر ما يمكنهم ، مما يكون له عونٌ على الطاعة وفراغ القلب من كل علة ؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب بمحل حقّه آكدَ ، وتفقّدَه أوْجَبَ .

« ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله » : المريدُ هو الذي يُؤْثِرُ حقّ الله على حظّ نَفْسِه ؛ فإيثارُ المريد وَجه اللهِ أتمّ من مراعاته حال نفسه ، فهمّتُه في الإحسانِ إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على نَظَرِه لِنَفْسِه وعياله وما يهمه من خاصته .

قوله جل ذكره : « .. وما آتيتُم مِن زكاةٍ تريدون
وَجهَ اللهِ فأولئك هم المضْعِفون » .

إيتاء الزكاة بأن تريد بها وجهَ الله ، وألا تستخدم الفقير لما تَبَرُّه به من رافقة[2] ،

---

(١) العقوة الموضع المتسع أمام الدار .
(٢) الرافقة = الرفق واللطف ، تقول : أولاه رافقة (الوسيط) .

بل أفضل الصدقة على ذى رَحِمٍ كاشح[1] حتى تكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيبٍ لكَ فيه ، فهؤلاء هم الذين يضاعف أجرُهم: قهرُهم لأنفسهم حيث يخالفونها ، وفوزُهم بالعِوَض مِنْ قِبَلِ الله .

ثم الزكاة هى التطهير ، وتطهيرُ المالِ معلومٌ ببيان الشريعة فى كيفية إخراج الزكاة ، وأصناف المال وأوصافه .

وزكاة البَدَنِ وزكاةُ القلبِ وزكاةُ السِّرِّ . . كلُّ ذلك يجب القيام به .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَكُمْ ثم رَزَقَكُمْ ثم يُمِيتُكم ثم يُحْيِيكم هل مِن شُرَكائِكُمْ مَن يفعلُ مِن ذلكم مِن شىء سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكون » .

« ثم » حرفٌ يقتضى التراخى ؛ وفى ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خَلْقِه إياك أن يرزقك ؛ كنتَ فى ضعف أحوالك ابتداء ما خَلَقَكَ ، فأبقاك وأحياك من غير حاجةٍ لك إلى رزقٍ ؛ فإلى أن خرجتَ من بَطْنِ أُمِّك : إمَّا أن كان يُغْنِيكَ عن الرزق وأنت جنينٌ فى بطن الأم ولم يكن لك أكلٌ ولا شُرْبٌ ، وإمَّا أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق — إنْ حَقٌّ ما قالوا : إن الجنينَ يتغذَّى بدم الطمث . وإذا أخرجك من بطن أمك رَزَقَكَ على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم ، فَيَسَّرَ لك أسبابَ الأكل والشرب من لَبَنِ الأم ، ثم من فنون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق اللسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره

« ثم يميتكم » بسقوط شهواتكم ، ويميتكم عن شواهدكم .

« ثم يحييكم » بحياة قلوبكم ثم بأن يحييكم بربِّكم .

---

(1) كالشح أى مبغض . وربما كان خير مثل للصدق على ذى رحم مبغض ، ما حدث من أبى بكر حينما امتنع عن تقديم الزكاة لمسطح على أثر قيامه بدوره المعروف فى قصة الإفك ، فعوتب أبو بكر فى ذلك ونزلت فيه «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى» آية ٢٢ سورة النور .

ويقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق .

ويقال : لا مُكْنَةَ لك في تبديل خَلْقِكَ ، وكذلك لا قدرةَ لكَ على تعسُّر رزقِك ، فالمُوَسَّعُ عليه رزقُه — بِفَضْلِه سبحانه .. لا بمناقب نَفْسِه ، والمُقَتَّرُ عليه رزقُه بحُكْمِه سبحانه .. لا بمعايب نَفْسِه .

« هل من شركائكم مَنْ يفعل مِنْ ذلكم من شيء ؛ هل من شركائكم الذين أثبتموهم أي من الأصنام أو توهمتموهم من جملة الأنام .. مَنْ يفعل شيئاً من ذلك ؟ « سبحانه وتعالى » تنزيهاً له وتقديساً .

قوله جل ذكره : « ظَهَرَ الفسادُ في البَرِّ والبحرِ بما
كَسَبَتْ أيدى الناسِ لِيُذِيقَهُمْ بعضَ
الذى عَمِلوا لَعَلَّهم يرجعون » .

الإشارة من البرّ إلى النَّفْسِ ، ومن البحر إلى القلب .

وفسادُ البرّ بأَكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات ، وفسادُ البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشَّرِّ والفِسْقِ .. وغير ذلك . وعَقْدُ الإصرارِ على المخالفاتِ من أعظم فسادِ القلب ، كما أنَّ العَزْمَ على الخيرات قبل فِعْلها من أعظم الخيرات .

ومن جملة الفساد التأويلاتُ بغير حقٍّ ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ في غير قيامٍ بِجَدٍّ ، والإغراق في الدعاوَى من غير استحياء من الله تعالى .

« ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » : بعض الذى عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب ، وعدم التأسُّف على مافاته من الحقِّ .

قوله جل ذكره : « قُلْ سِيروا في الأرضِ فانظروا كيف
كان عاقبةُ الذين مِن قَبْلُ كان
أكثرُهم مُشْرِكِين » .

« سيروا » بالاعتبار ، واطلبوا الحقَّ بنعت الأفكار .

« فانظروا » كيف كانت حال مَنْ تقدَّمكم من الأشكال والأمثال ، وقيسوا عليها حُكْمَكُمْ في جميع الأحوال. « كان أكثرهم مشركين » كانوا أكثرهم عدداً ، ولكن كانوا في التحقيق أقلَّهم وزناً وقَدْراً .

قوله جل ذكره : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ القيِّم من قبل
أن يأتيَ يومٌ لا مَرَدَّ له من الله يومئذٍ
يَصَّدَّعُون » .

أخلِص قَصْدَكَ وصِدْقَ عَزْمِكَ للدين القيِّم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع . فَمَنْ لم يتأدب بِمَنْ هو إمامُ وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خُسْرَانُهُ أَتَمَّ من رِبْحِه ، ونقصانُه أعَمُّ من نَفْعه[1] .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أن يُرْسِلَ الرياحَ
مُبَشِّرَاتٍ ولِيُذِيقَكم من رحمته
ولتجريَ الفُلْكُ بأمرِه ولتبتغوا من
فَضْلِهِ ولعلَّكم تشكرون » .

يرسل رياحَ الرجاءِ على قلوب العِباد فتكنس عن قلوبهم غبارَ الخوف وغُثَاء اليأس ، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بِساط الجُهْدِ ، وتكرمهم بقوى النشاط . ويرسل رياحَ البسطِ على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض ، وينشر فيها إرادة الوصال. ويرسل رياحَ التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار الفناء ، ويبشرها بدوام الوصال .. فذلك ارتياحٌ به ولكن بعد اجتياحٍ عنك .

---

(١) يرى كبار الصوفية – والقشيري منهم – أن التأدب بشيخ أمر ضروري في الطريق الصوفي كي يكبح جماح المريد ، ويهديه إلى ربه عند رعونة نفسه ، ويبعد به عن الزهو عندما تلوح له بوادر الكشوفات ، ويشير عليه بالسفر إن دعت الحاجة إلى ذلك ... ونحو هذا .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إلى
قومِهِم فجاءوهم بالبيِّنات فانتقمنا
من الذين أجرموا وكان حَقًّا علينا
نَصْرُ المؤمنين » .

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا ، فَمَنْ قابلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق ، ومَنْ عارضَهم بالجحود أذقناهم عذابَ الخلود ، فانتقمنا من الذين أجرموا ، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا ، وشوَّشْنا عليهم ما أمَّلوا ، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتَنَمَّوا ، وأخذنا بخناقهم لحاق بهم ما مكروا .

« وكان حقًّا علينا نَصْرُ المؤمنين » بتوطئتهم بأعقاب أعدائهم ، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم ، وخرَّبنا أوطانَ أعدائهم ، وهدَّمنا بنيانهم ، وأخذنا نيرانَهم ، وعطَّلْنا عنهم ديارَهم ، ومَحَوْنا بقَهْرِ التدمير آثارَهم ، فظلَّتْ شموسُهم كاسفة ، ومكيدةُ قهرِنا لهم بأجمعهم خاسفة .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى يُرْسِلُ الرياحَ فتثيرُ سحابًا
فيبسُطُهُ فى السماءِ كيف يشاء ويجعله
كِسَفًا فترَى الوَدْقَ يخرج من خلالِه
فإذا أصاب به مَن يشاء مِنْ عباده
إذا هُمْ يستبشرون »

يرسل رياح عَطْفِه وجُودِه مبشراتٍ بوَصْلِه وجوده ، ثم يُمْطِر جودَ غيبِه على على أسرارهم بلُطْفِه ، ويطوى بساطَ الحشمة عن ساحات قُرْبه ، ويضرب قبابَ الهيبة بمشاهد كَشْفِه ، وينشر عليهم أزهارَ أُنسِه ، ثم يتجلَّى لهم بحقائق قُدْسِه ، ويسقيهم بيده شرابَ حُبِّه ، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم — لا بِهِم — ولكنْ بِنَفْسه ، فالعبارات عن ذلك خُرْسٌ ، والإشارات دونها طُمْسٌ

قوله جل ذكره : « فانظُرْ إلى آثارِ رحمةِ اللهِ كيفَ يحيى الأرضَ بعد موتها إنَّ ذلكَ لمحيى الموتى وهو على كلِّ شيءٍ قدير » .

يحيى الارضَ بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطارِ ليُخْرِجَ زَرْعَها وثمارَها ، ويحيى النفوس بعد نَفْرَتِها ، وبوقفها للخيرات بعد فترتها ، فتعمر أوطانُ الرِّفاق بصادق إقدامهم ، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم ، ويحيي القلوبَ بعد غفلتها بأنوار الحاضرات ، فتعود إلى استدامة الذكر بحُسْنِ المراعاة ، ويهتدى بأنوار أهلها أهلُ الصسر من أصحاب الإرادات ، ويحيى الأرواح بعد حَجْبَتِها — بأنوار المشاهدات ، فتطلع شموسُها عن بُرْجِ السعادة ، ويتصل بمشامِّ أسرار الكافة نسيمُ ما يفيض عليهم من الزيادات ، فلا يبقى صاحبُ نَفَسٍ إلا حَظِيَ منه بنصيب ، ويُحْيِي الأسرارَ — وقد تكون لها وَقْفَةٌ فى بعض الحالات — فتنتفى بالكلية آثارُ الغيرية ، ولا يَبْقَى فى الدار ديَّار ولا من سكانها آثار ؛ فسَطَواتُ الحقائق لا تثبت لها ذَرَّةٌ من صفات الخلائق ، هنالك الولاية لله . . سقط الماء والقطرة ، وطاحت الرسوم والجملة[1].

قوله جل ذكره : « ولئن أرْسَلْنا ريحاً فَرَأوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بعده يكفرُون » .

إذا انسدَّت البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات .. كذلك مَنْ حَقَّتْ عليهم الشقاوةُ جرَّته إلى نفسها — وإنْ تبوَّأ الجنةَ منزلاً .

قوله جل ذكره : « فإنَّكَ لا تُسمِعُ الموتىٰ ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء إذا وَلَّوْا مُدْبِرين » .

مَنْ فَقَدَ الحياةَ الأصلية لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم ، وإذا كان فى السريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فَسَمْعُ الظاهر لا يفيده آكَدُ الحُجَّة . وكما لا يُسْمِع[2] الصُّمَّ الدعاء فكذلك لا يمكنه أن يهدى العُمْىَ عن ضلالتهم .

---

(١) أى انتفت آثار البشرية ، وصار العبد مستهلكاً بالكلية .

(٢) الفاعل ضمير مستتر تقديره «هو» يعود على الرسول صلوات الله عليه ، فإن الخطاب فى الآية الكريمة موجه إليه.

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَكم من ضَعْفٍ
ثم جَعَلَ من بعد ضَعْفٍ قُوةً ثم جَعَلَ
من بَعْدِ قوةٍ ضَعْفًا وشَيْبَةً يخْلُقُ
ما يَشاءُ وهو العليمُ القديرُ » .

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية[1] ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم :

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى

كذلك فى ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية فى نعت التردد والحيرة فى الطلب ، ثم بعد قوة الوصل فى ضعف التوحيد .

ويقال أولا ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله ، ثم قوة البيان فى حال العرفان ؛ لأنه بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخمود ؛ لأن الخمود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر .

ويقال « خلقكم من ضعفٍ » : أى حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود ثم بعده ضعف للسكنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى فى زمرة المساكين »[2].

قوله جل ذكره : « ويومَ تقومُ الساعةُ يُقْسِمُ المجرمون
ما لَبِثُوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا
يُؤْفَكون » .

إنما كان ذلك لأحد أمرين : إمَّا لأنهم كانوا أمواتًا .. والميت لا إحساسَ له ، أو لأنهم عَدُّوا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يَرَوْن ذلك اليوم يسيراً . وإن أهل التحقيق يخبرونهم عن طول لُبْثِهم تحت الأرض . وإن ذلك الذى يقولونه من جملة ما كانوا يظهرون من جَحْدِهم على موجب جهلهم ، ثم لا يُسْمَعُ عذرُهم ، ولا يُدْفَعُ ضُرُّهم .

(١) الطفولية = الطفولة .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد . ورواه الطبرانى بسند رجال ثقات عن عبادة بن الصامت . وادعى ابن الجوزى وابن تيمية أنه موضوع ، وأبطل ذلك الحافظ ابن حجر .

وأخبر بعد هذا فى آخر السورة عن إصرارهم وانهما كهم فى غيِّهم ، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم .

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة سوء آرائهم ومضارهم .

« فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ
ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون » .

السورة التي يذكر فيها
لقمان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ سمعها أقرَّ أنَّه لا يسمع مِثْلَها ، ومَنْ عرَفَها أنِفَ أنْ يسمعَ غيرها . كلمةٌ مَنْ سمعها طابت قِصَّتُه ، وزالت بكل وجهٍ غُصَّتُه ، وتمَّتْ من النِّعَم في الدنيا والعقبى حِصَّتُه ، وزَهِدَ في دنياه من غير رغبةٍ في عقباه ؛ لأنَّها — وإنْ جلَّتْ — غيرُ مولاه[1]

كلمةٌ مَنْ سمعها لم يرغب في عمارة فنائه ، ولم يتحشم[2] سرعةَ وفائه .

قوله جل ذكره : « الـم * تلك آياتُ الكتابِ الحكيم »

الألف تشير إلى آلائه ، واللام تشير إلى لطفه وعطائه ، والميم تشير إلى مجده وسنائه ؛ فبآلائه يرفع الجَحْدَ عن قلوبِ أوليائه ، وبلطفه وعطائه يثبت المحبةَ في أسرار أصفيائه ، وبمجده وسنائه مستغنٍ عن جميع خَلْقِه بوصف كبريائه .

« تلك آيات الكتاب الحكيم » : المحروس عن التغيير والتبديل .

« هدًى ورحمةً للمحسنين * الذين يقيمون
الصَّلاةَ ويُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرةِ
هم يُوقنون »

هو هدًى وبيان ، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله ، والمقيمين عبادةَ اللهِ كأنهم

---

(1) فالحب الخالص منتف من التبعية .
(2) لم يتحشم أي : لم يتجنب

ينظرون إلى الله . وشَرْطُ المُحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عبادِ الله : دانيهم وقاصيهم، ومطيعِهم وعاصيهم .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » : يأتون بشرائطها فى الظاهر من ستر العورة، وتقديم الطهارة ، واستقبال القِبْلة ، والعلم بدخول الوقت ، والوقوف فى مكانٍ طاهر . وفى الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السِّرِّ عن العلائق ، وسَتْرِ عورةِ الباطنِ بتنقيته عن العيوب ، لأنها مهما تكن فالله يراها ؛ فإذا أَرَدْتَ ألا يرى الله عيوبَك فاحذَرْها حتى لا تكون . والوقوف فى مكان طاهر ، وهو وقوف القلبِ على الحدِّ الذى أُذِنْتَ فى الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق ، وَرَحِمَ اللهُ مَنْ وقف عند حدِّه . والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التذلُّل والاستكانة ، وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، وتستقبل القِبْلةَ بنفْسِك، وتعلَّق قلبَكَ بالله من غير تخصيص بقُطرٍ أو مكان .

قوله جل ذكره : « أولئك على هُدًى من ربِّهم وأولئك هم المفلحون »

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحقِّ آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا فى الدنيا والعُقْبى فسلموا ونَجَوْا .

قوله جل ذكره : « ومِنَ الناسِ مَنْ يشترى لَهْوَ الحديثِ
لِيُضِلَّ عن سبيل الله بغير عِلْمٍ
ويتَّخِذَها هُزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهِينٌ »

« لهو الحديث » : مايشغل عن ذكر الله[1] ، ويَحْجُبُ عن اللهِ سماعُه . ويقال : هو لَغْوُ الظاهر الموجِبُ سَهْوَ الضمائر ، وهو ما يكون خَوضاً فى الباطل ، وأخذاً بما لا يعنيك.

(١) اعتاد كثير من المفسرين أن يفسروا اللهو هنا (بالغناء) ، لأجل هذا نلفت النظر إلى عدم صرف القشيرى المعنى فى هذا الاتجاه ، لأننا نعلم من مذهبه أنه لا يرى بأساً فى سماع الغناء ولكن بشرط أن يحرك الوجدان نحو غاية سامية فى السماع ، وألا يبعث فيها الهوى والمجون ، وألا يكون مصحوباً بشىء محرَّم . (أنظر كتابنا : الإمام القشيرى وتصوفه فى التصوف) ط مؤسسة الحلبى .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتلَى عليه آياتنا ولّى مستكبراً
كأنْ لم يَسْمَعْها كأنَّ فى أُذُنَيْهِ وَقْراً
فَبَشِّرْه بعذابٍ أليم »

المُسْتَرَقُ بِهِمَّة ، والمُتَشَتِّتُ بقلبه لا تزيده كثرةُ الوعظِ إلا نفوراً ونُبُوّاً ؛ فسماعُه كَلاَ سماع ، ووعظه هباء وضياع ، كما قيل :

إذا أنا عاتَبْتُ المُلولَ فإنما
أَخُطُّ بأقلامى على الماء أحرُفا

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم
جنَّاتُ النعيم * خالدين فيها وَعْدَ اللهِ
حَقًّا وهو العزيز الحكيم »

« آمنوا » : صَدَّقوا « وعملوا الصالحات » : تَحَقَّقُوا ؛ فاتصافُ تحقيقهم راجعٌ إلى تصديقهم ، فَنَجَوْا وَسَلِمُوا ؛ فهم فى واحاتهم مقيمون ، دائمون لا يَبْرَحُون .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السموات بغير عَمَدٍ تَرَوْنها
وألقى فى الأرضِ رواسِيَ أنْ تَميدَ بِكُمْ
وبَثَّ فيها من كلِّ دابةٍ وأنزلنا من
السماء ماء فأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم »

أمسك السمواتِ بقدرته بغير عِماد ، وحَفِظَها لا إلى سِناد أو مشدودةً إلى أوتاد ، بل بحُكْمِ الله وبتقديره ، ومشيئته وتدبيره .

« وألقى فى الأرض رواسى . . » فى الظاهر الجبال ، وفى الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق ، بهم يَقيهم ، وبهم يَصرِف البلاء عن قريبهم وقاصيهم .

« وأنزلنا من السماء ماء . . » المطر من سماء الظاهر فى رياض الخُضْرَة ؛ ومن سماء الباطن فى رياض أهل الدنوّ والحَضْرَة .

قوله جل ذكره : « هذا خَلْقُ اللهِ فأرونى ماذا خَلَقَ الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » .

هذا خَلْقُ الله العزيز فى كبريائه ، فأرونى ماذا خَلَقَ الذين عَبدتم من دونه فى أرضه وسمائه ؟

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا لُقمانَ الحكمَةَ أنِ اشكرْ للهِ وَمن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسِه ومن كفرَ فإنّ اللهَ غنىٌّ حميدٌ » .

« الحكمة » الإصابة فى العقل والعقد والنطق . ويقال « الحكمة » متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث هِمةَ النفس . ويقال « الحكمة » ألا تكون تحت سلطان الهوى . ويقال « الحكمة » السكونُ بحكم من له الحكم . ويقال « الحكمة » معرفةُ قدْر نفسك حتى لا تمدّ رِجليك خارجا عن كسائك . ويقال « الحكمة » ألا تستعصى عَلَى مَنْ تعلم أنك لا تقاومه .

« أن أشكر لله » : حقيقة الشكر افتراج عين القلب بشهود ملاطفات الرّبّ . فهو مقلوب قولهم : كَشَرَتْ عن أنيابها الدابةُ ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذَب وَجبذَ .

ويقال الشكرُ تحققكَ بعجزك عن شكره . ويقال الشكر مابه يحصل كمالُ استلذاذ النعمة . ويقال الشكر فضلةٌ تظهر عَلَى اللسان من امتلاء القلب بالسرور ؛ فينطلق بمدح المشكور . ويقال الشكر نعتُ كلّ غنىٍّ كما أن الكفرانَ وَصفُ كلّ لئيم . ويقال الشكر قرْع باب الزيادة[1] . ويقال الشكر قيد الإنعام . ويقال الشكر قصة يمليها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال.
« ومن شكر فإنما يشكر لنفسه »[2] : لأنه فى صلاحها ونصيبها يسعىٰ .

قوله جل ذكره : « وإذ قال لقمانُ لابنه وهو يعظه يا بُنَىَّ لا تُشْرِكْ بالله إنّ الشِّرْكَ لظلمٌ عظيم » .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى ولئن شكرتم لأزيدنكم» آية ٧ سورة ابراهيم .
(٢) آية ٤٠ سورة النمل .

الشِّرْكُ عَلَى ضربين : جَلِيٌّ وخفِيٌّ ؛ فالجلِيٌّ عبادة الأصنام ، والخفِيّ حسبان شيء من الحدثان من الأنام . ويقال الشِّرْكُ إثباتُ غَيْرٍ مع شهود الغيب . ويقال الشرك ظلم عَلَى القلب ، والمعاصى ظلم عَلَى النفس، وظلم النفوس مُعَرَّضٌ للغفران ، ولكنّ ظلمَ القلوب لاسبيل إليه للغفران .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنا الإنسانَ بوالديه حملته
أُمه وَهناً على وَهن وَفِصاله فى عامين أنِ
اشكرْ لى ولوالديكَ إلىّ المصير » .

أوجب الله شُكرَ نفسه وشكر الوالدين . ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما ، وألا يُكْتَفَى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما عُلِم أنّ شُكْرَ الحقِّ لا يكْفِى فيه مجرَّدُ القول ما لم تكن فيه موافقةُ العقل : وذلك بالتزام الطاعة ، واستعمال النعمة فى وجه الطاعة دون صَرفِها فى الزَّلَّة ؛ فشكرُ الحقِّ بالتعظيم والتكبير ، وشكرُ الوالدين بالإنفاق والتوفير .

قوله جل ذكره : « وَإن جاهداكَ على أن تشركَ بى
ما ليس لكَ به علم فلا تُطِعْهما وصاحِبْهما
فى الدنيا معروفاً ، واتّبع سبيلَ منْ
أنابَ إلىّ ثم إلىّ مرْجعكم فأنبئكم بما
كنتم تعملون » .

إنْ جاهداك على أن تشرك بالله، أو تسعى بما هو زلة فى أمر الله — فلا تطعهما ، ولكن عاشرهما بالجميل ؛ تخشين فى تليين ، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرَجٌ ، وانفرد بسرِّك لله ، « واتبع سبيل منْ أناب إلىّ » : وهو المنيبُ إليه حقّاً من غير أن تبقى بقية فى النفس .

قوله جل ذكره : « يا بُنىَّ إنها إن تَكُ مثقالَ حبةٍ
مِن خردلٍ فتَكُن فى صخرةٍ أو فى السموات
أو فى الأرضِ يأتِ بها اللهُ إن اللهَ
لطيفٌ خبيرٌ » .

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمة فلا محالة تصل إلى المقسوم له بغير مرية . . « إن الله لطيف خبير » : عالم بدقائق الأمور وخفاياها .

قوله جل ذكره : « يابُنَىَّ أقِمِ الصلاةَ وأْمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكر واصبرْ عَلَى ما أصابكَ إنَّ ذلكَ مِنْ عزْمِ الأمور » .

الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه ، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك ، ومنْ لا حُكْمَ له عَلَى نفسه لا ينفذ حكمه على غيره .

والمعروف الذى يجب الأمرُ به هو مايُوَصِّلُ العبدَ إلى الله ، والمنكرُ الذى يجب النهى عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله .

« واصبر عَلَى ما أصابك » تنبيهٌ عَلَى أنَّ منْ قام لله بحقٍّ امْتُحِنَ فى الله ؛ فسبيله أنْ يصبرَ لله — فإنَّ منْ صبرَ لله لا يَخسر عَلَى الله .

قوله جل ذكره : « ولا تصعِّرْ خدَّكَ للناس ولا تمشِ فى الأرض مَرحاً إنَّ اللهَ لا يحبّ كلَّ مختالٍ فخورٍ » .

يعنى لا تتكبرْ عَلَى الناس، وطالِعْهم من حيث النسبة والتحقق بأنكَ بمشهدٍ منْ مولاك . ومَنْ عَلِمَ أنَّ مولاه ينظر إليه لا يتكبرُ ولا يتطاول بل يتخاضع ويتضاءل .

قوله جل ذكره : « وَاقْصِدْ فى مَشيِكَ وَاغضُضْ مِن صوتِكَ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحميرِ » .

كُنْ فانياً عن شواهدك ، مُصْطَلَماً عن صَوْلَتِك ، مأخوذاً عن حَوْلِكَ وقوتِك ، مُنتَشِقاً[1] بما استولى عليك من كشوفات سِرِّك .

---

(١) (انتشق) الماء وغيره : جذبه بالتنفس فى أنفه ، ورجل نشق إذا دخل فى أمر لا يكاد يتخلص منه (الوسيط) .

وانظر مَنِ الذى يسمع صوتَكَ حتى تستفيق من خمار غفلتك ؛ « إن أنكر الأصواتِ لصوتُ الحمير » : فى الإشارة هو الذى يتكلم فى لسان المعرفة من غير إذنٍ من الحقِّ . وقالوا : إنه الصوفىُّ يتكلم قبل أوانه .

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لكم ما فى السمٰوٰاتِ وما فى الأرضِ وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهِرةً وباطنةً ومِنَ الناسِ مَنْ يجادِل فى اللهِ بغيْرِ عِلْمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ منير » .

أثبت فى كل شىء منها نفعًا لكم ، فالسماء لتكونَ لكم سقفًا ، والأرض لتكون لكم فِراشًا ، والشمس لتكون لكم سراجًا ، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب ، والنجوم لتهتدوا بها .

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » : الإسباغُ ما يَفْضُلُ عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة .

قوله : « نعمه ظاهرة وباطنة » : تكلموا فيه فأكثروا . فالظاهرةُ وجودُ النعمة ، والباطنةُ شهودُ المنعِم . والظاهرةُ الدنيويةُ ، والباطنةُ الدينيةُ . والظاهرة حُسْنُ الخَلْقِ ، والباطنة حُسْنُ الخُلُق . الظاهرةُ نَفَس بلا زَلَّة ، والباطنةُ قلبٌ بلا غفلة . الظاهرةُ العطاء ، والباطنة الرضاء . الظاهرة فى الأموال ونمائها ، والباطنة فى الأحوال وصفائها . الظاهرةُ النعمةُ ، والباطنةُ العصمةُ . الظاهرةُ توفيقُ الطاعات ، والباطنةُ قبولُها . الظاهرة تسوية الخَلْقِ ، والباطنة تصفية الخُلُق . الظاهرة صحبة الصالحين ، والباطنةُ حِفْظُ حُرُمَتِهم . الظاهرةُ الزهدُ فى الدنيا ، والباطنةُ الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى[1] . الظاهرة الزهد ، والباطنةُ الوَجْدُ . الظاهرة توفيق

---

(١) هذه أعلى درجات الزهد ، وهى تهمنا ونحن نؤرخ للتطور التاريخى الذى حدث عندما تطور الزهد إلى تصوف (أنظر كتابنا نشأة التصوف الإسلامى (ط دار المعارف) .

المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة . الظاهرة وظائف النفْس ، والباطنة لطائف القلب . الظاهرةُ اشتغالُكَ بنفْسِك عن الخلق ، والباطنةُ اشتغالُك بربِّك عن نفْسِك . الظاهرة طَلَبُه ، الباطنةُ وجودُه[1] . الظاهرةُ أنْ تَصِلَ إليه ، الباطنة أن تبقى معه .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم اتَّبِعوا ما أنزل اللهُ
قالوا بل نَتَّبِعُ ما وجَدْنا عليه آباءنا
أو لو كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذابِ
السعير » .

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى مُحَوِّل أحوالهم . فأمّا مَنْ سَمَتْ نَفْسُه ، وخلص في الله قَصْدُه فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وسَلَكَ المحجَّةَ المُثْلَى : —

« ومَن يُسْلِمْ وجْهَه إلى اللهِ وهو مُحْسِنٌ
فقد استمسك بالعروةِ الوُثْقَى وإلى اللهِ
عاقبةُ الأمور » .

وعلى العكس : —

« ومَن كَفَرَ فلا يَحْزُنْكَ كُفْرُه
إلينا مرجِعُهم فنُنَبِّئُهُم بما عَمِلوا إنَّ
اللهَ عليمٌ بذاتِ الصدور » .

إلينا إيابُهم ، ومِنَّا عذابُهم ، وعلينا حسابُهم . ولئن سألتَهم عن خالقهم لأقَرُّوا ، ولكن إذا عادوا إلى غيِّهم نقضوا وأصروا .

قوله جل ذكره : « للهِ ما في السمواتِ والأرضِ إنَّ
اللهَ هو الغنيُّ الحميدُ » .

لله ما في السموات والأرضِ مِلْكاً ، ويُجْرِي فيهم حُكْمَه حقًا ، وإليه مَرْجِعُهم حتما .

(١) الوجود مرحلة تأتي بعد التواجد والوجد .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

لو أنَّ ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ والبحارُ كانت مداداً ، وبمقدار ما يقابله تُنفَقُ القراطيسُ ،ويتكلَّفُ الكُتَّابُ حتى تتكسر الأقلامُ ، وتفنى البحارُ ،وتستوفى القراطيسُ ،وتفنى أعمارُ الكُتَّاب .. ما نَفِدَت معانى مالنا مَعَكَ من الكلام ، والذى نُسْمِعُكَ فيما نخاطبك به لأنك معنا أبَدَ الأبد ، والأبدىُّ من الوصف لا يتناهى .

ويقال إن كان لك معكم كلامٌ كثير فما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ :

صحائفُ عندى للعتابِ طوَيْتُها ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطول

قوله جل ذكره : « مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

إيجادُ القليل أو الكثير عليه وعنده سيَّان ؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر ، ولا من القليل راحةٌ ويُسْر ،إنما أَمْرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له:« كن فيكون»[1] يقوله بكلمته ولكنه يكوِّنه بقدرته ، لا بمزاولة جهد ، ولا باستفراغ وُسْعٍ ، ولا بدعاء خاطرٍ ، ولا بطُرُوءِ غَرَضٍ .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » .

« الله هو الحق » : الكائنُ الموجودُ ، مُحِقُّ الحقِّ[2] ، وما يدعون من دونه الباطل : من العدم ظَهَرَ ومعه جوازُ العَدَم[3] .

---

(١) آية ٨٢ سورة يس .

(٢) فى ص جاء بعدها (وما يدعونه هو التلاوة) ويقول مجاهد : إنه الشيطان . ويقال : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . .

(٣) شغلت قضية (الحق والباطل) أصحاب وحدة الوجود . ورأى القشيرى هنا يصلح عند المقارنة بين أرباب وحدة الشهود وأرباب وحدة الوجود فى شأن هذين الاصطلاحين .

قوله جل ذكره: «إنّ اللهَ عنده عِلْمُ الساعةِ ويُنَزِّلُ الغيثَ ويعلم مافى الأرحام».

يتفرّد بعلم القيامة، ويعلم مافى الأرحام ذكورَها وإناثها، شقيها وسعيدها، حسنها وقبيحها ويعلم متى يُنزِّل الغيث، وكم قطرة يُنزلها، وبأى بقعة يُمطرها.

«وما تدرى نَفسٌ ماذا تكسبُ غداً
وما تدرى نفسٌ بأى أرضٍ تموت
إن اللهَ عليمٌ خبير»[1].

ما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً من خير وشر، ووفاق وشقاق، وما تدرى نفس بأى أرض تموت؛ أتدرك مرادَها أم يفوت؟.

(١) قال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل.

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تجرى فى البحرِ
بنعمة اللهِ لِيُرِيَكُم من آياتهِ إنَّ فى
ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُور » .

فى الظاهر سلامتُهم فى السفينة ، وفى الباطن سلامتُهم من حدثان الكون، ونجاتُهم فى سفائن العصمة فى بحار القدرة .

« إن فى ذلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ » وقوفٍ لا ينهزم من البلايا ، شَكُورٍ على ما يصيبه من تصاريف التقدير من جنسى البلايا والعطايا .

قوله جل ذكره : « وإذَا غَشِيَهُم مَوجٌ كالظُّلَلِ دَعَوا
اللهَ مُخْلِصِين له الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهم إلى
البَرِّ فمنهم مُقتَصِدٌ وما يَجْحَدُ بآياتِنا
إلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » .

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تلفظَهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة ، فإذا جاد الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم :

وكم قد جهلتم ثم عُدْنا بحِلْمنا أحباءنا : كم تجهلون ونَحْلُمُ !

قوله جل ذكره : « يا أيها الناسُ اتقوا ربكم واخْشَوا
يوماً لا يَجْزِى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ
هو جازٍ عن وَالدِهِ شيئاً إنّ وعدَ اللهِ حقّ
فلا تغرّنكم الحياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنّكم
باللهِ الغَرور » .

يخوّفهم مرةً بأفعاله فيقول : « اتقوا يوما » ، ومرةً بصفاته فيقول: « ألم يعلم بأن الله يرى» ومرةً بذاته فيقول : « ويحذركم اللهُ نفسه » .

سُورَةُ السَّجْدَةِ

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم »

كلمةٌ سماعُها ربيعُ الجميع ، من العاصى والمطيع ، والشريف والوضيع . مَنْ أصغى إليها بسَمْعِ الخضوعِ ترك طَيِّبَ الهجوع ، ومَنْ أصغى إليها بسمع الحسابِ تَرَكَ لذيذَ الطعامِ والشراب .

قوله جل ذكره . « الۤم * تنزيلُ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالَمين »

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتى فلا يصبرون عنى ، وأَلِفَ العارفون تمجيدى فلا يستأنسون بغيرى .

والإشارة فى اللام إلى لقائى المُدَّخرِ لأحبّائى ، فلا أبالى أقاموا على ولائى أم قصَّروا فى وفائى .

والإشارة فى الميم : أى تَرَكَ أوليائى مرادَهم لمرادى .. فلذلك آثرتُهم على جميع عبادى .

« تنزيل الكتاب لاريب فيه من ربِّ العالمين » : إذا تعذَّرَ لقاء الأحبابِ فأعزُّ شىء على الأحباب كتابُ الأحباب ؛ أنزلْتُ على أحبابى كتابى ، وحَكَتْ إليهم الرسالةُ خطابى ، ولا عليهم إنْ قَرَعَ أسماعَهم عتابى ، فَهُمْ فى أمانٍ من عذابى .

قوله جل ذكره : « أَمْ يقولون افتراه بل هو الحقُّ من ربِّك لِتُنْذِرَ قوماً ما أتاهم مِن نذيرٍ من قَبْلِكَ لعلَّهم يَهْتَدُون »

الذى لكم منا حقيقة ، وإن التبس على الأعداء فليس يضيركم ، ولا عليكم ، فإنَّ

صحبةَ الحبيب مع الحبيب أَلَذُّها ما كان مقروناً بفقد الرقيب.

قوله جل ذكره: «اللهُ الذى خَلَقَ السمواتِ والأرضَ
وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ثم استوىٰ
على العرشِ مالكم من دونه من وَلِىٍّ
ولا شفيعٍ أفلا تتذكَّرون».

وتلك الأيام خَلَقَها مِنْ خَلْقٍ غير الأيام، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه فى وقتٍ؛ إذ الوقتُ مخلوقٌ فى غير الوقت(1). وكما يستغنى فى كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقتُ عن الوقت.

«ثم استوى على العرش»: ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر؛ استوى على العرش ولكن القديم ليس له حدٌّ، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البُعْد، استوى على العرش ولكنه أشدُّ الأشياء تَعَطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة؟، ولكنَّ العرشَ جمادٌ.. وأَنَّى يكون للجماد مراد؟! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا نِدٍّ، أَحَدٌ بلا حَدٍّ.

«ما لكم من دونه من وَلِىٍّ ولا شفيعٍ»: إذا لم يُرِدْ بكم خيراً فلا سماء عنه تُظِلُّكم ولا أرضَ بغير رضاه تُقِلُّكم، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم، ولا أحدَ — إذا لم يُعْنَ بشأنكم فى الدنيا والآخرة — ينظر إليكم.

قوله جل ذكره: «يُدَبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرضِ
ثم يَعْرُجُ إليه فى يومٍ كان مقدارُه
ألفَ سنةٍ مِمَّا تَعُدُّون»

خاطَبَ الخلقَ — على مقدار أفهامهم ويجوز لهم — عن الحقائق التى اعتادوا فى تخاطبهم.

«ذلك عالِمُ الغيبِ والشهادة العزيزُ الرحيم»

«العزيز» مع المطيعين «الرحيم» على العاصين.

«العزيز» للمطيعين ليكْسِرَ صولتَهم «الرحيم» للعاصين ليرفعَ زَلَّتَهم.

---

(1) لأن الزمان سَرْمَدٌ لا يرتبط بالوقت ولا ينقطع به.

قوله جل ذكره : « الذى أَحْسَنَ كُلَّ شىء خَلَقَه
وبَدَأ خَلْقَ الإنسانِ من طين * ثم جعل
نَسْلَه من سُلالةٍ من ماء مهين »

أَحْسَنَ صورةَ كلِّ أحدٍ ؛ فالعرشُ ياقوتةٌ حمراء ، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثُلاثَ ورُبَاع ، وجبريلُ طاووس الملائكة ، والحور العين — كما فى الخبر — فى جمالها وأشكالها ، والجِنانُ — كما فى الأخبار ونص القرآن . فإذا انتهى إلى الإنسان قال : « وخَلَقَ الإنسانَ من طينٍ . ثم جعل نَسْلَه من سلالة من ماء مهين »[1] . . كل هذا ولكن :

وكم أبصرتُ من حُسْنٍ ولكن
عليك من الورى وقع اختيارى

خَلَقَ الإنسانَ من طين ولكن « يحبهم ويحبونه »[2] ، وخلق الإنسان من طين ولكن : « فاذكرونى أذكركم »[3] ، وخلق الإنسان من طين ولكن « رضى الله عنهم ورضوا عنه » !

قوله جل ذكره : « وقالوا أئذا ضَلَلْنا فى الأرضِ أئنا
لفى خلْقٍ جديد بل هم بلقاء ربِّهم كافرون »

لو كانت لهم ذَرّةٌ من العرفان ، وشمّةٌ من الاشتياق ، ونَسْمَةٌ من المحبة لَمَا تَعَصَّبُوا كُلَّ هذا التعصب فى إنكار جوازِ الرجوعِ إلى الله ولكن قال : « بل هم بلقاء ربِّهم كافرون » .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَتَوفَّاكُم مَلَكُ الموتِ الذى
وُكِّلَ بكم ثم إلى ربِّكمُ تُرْجَعون »

لولا غفلةُ قلوبهم وإلا لَمَا أحال قَبْضَ أرواحهم على مَلَكِ الموت ؛ فإنَّ مَلَكَ الموتِ لا أثَرَ منه فى أحدٍ ، ولا له تصرفات فى نَفْسِه ، وما يحصل من التوفِّى فمن خصائص قدرة

---

(١) آية ٥٤ سورة المائدة .
(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .
(٣) آية ٨ سورة البينة .

الحق . ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربّ فخاطبهم على مقدار فهمهم ، وعلّق بالأغيار قلوبَهم ، وكلٌّ يُخاطَبُ بما يحتمِلُ على قَدْرِ قوّتِه وضعفه .

قوله جل ذكره : « ولو تَرَىٰ إذ المجْرِمون ناكِسُوا رءوسِهم عند ربِّهم ربَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا فارجِعْنا نعملْ صالحًا إنّا موقِنون »

مَلَكَتْهُم الدهشةُ وغَلَبتهم الخجْلَةُ ، فاعتذروا حينَ لا عُذْرَ ، واعترفوا ولا حينَ اعتراف .

قوله جل ذكره : « ولو شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها ولكنْ حَقَّ القولُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جهنّمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين »

لو[1] شئنا لسَهَّلْنا سبيلَ الاستدلال ، وأَدَمْنا التوفيقَ لكلِّ أحدٍ ، ولكن تَعَلَّقَتْ المشيئةُ بإغواء قومٍ ، كما تعلَّقت بإدناءِ قوم ، وأردنا أن يكونَ للنار قُطَّان ، كما أردنا أن يكون للجَنَّةِ سُكّان ، ولأنّا عَلِمْنا يومَ خَلَقْنا الجنَّةَ أنه يسكنها قوم ، ويوم خلقنا النارَ أنه ينزلها قومٌ ، فمِنَ المُحَالِ أن نُرِيدَ ألا يقعَ معلومُنا ، ولو لم يحصل لم يكن عِلمًا ، ولو لم يكن ذلك عِلمًا لم نكن إلهًا . . ومن المحال أن نريد ألا نكونَ إلهًا .

ويقال :مَنْ لم يتسلَّطْ عليه من يحبه لم يجْرِ فى مُلْكِه ما يكرهه .

ويقال : يا مسكين أفنيتَ عُمُرَكَ فى الكَدِّ والعناء ، وأمضيتَ أيامَكَ فى الجهد والرجاء ، غيَّرت صفتك ، وأكثرتَ مجاهدتك . . فما تفعل فى قضائى كيف تُبَدِّله ؟ وما تصنع فى مشيئتى بأىِّ وسعٍ تَرُدُّها ؟ وفى معناه أنشدوا :

شكا إليك ما وَجَدَ ... من خانَهُ فيك الجَلَدْ
حيرانُ لو شئتَ اهتدى ... ظمآنُ لو شئتَ وَرَدْ

---

(1) هذه الإشارة المستوحاة من الآية تمثل أقصى درجات الجبرية فى مذهب هذا الباحث الصوفى ، ولكن القارىء لا يعزب عنه أن يجدها جبرية ممتزجة بالحب .. ويكفى أنها مرتبطة بمشيئة الخالق .

قوله جل ذكره : « فذوقوا بما نَسِيتُم لقاء يومِكم هذا إنّا نَسيناكُمْ وذوقوا عـذابَ الخُـلْدِ بما كنتم تعملون »

قاسِ من الهوانِ ما استوجبتَه بعصيانك ، واخلُدْ فى دار الخِزْى لِـمَا أسلفتَه من كفرانك .

قوله جـل ذكره : « إنَّما يُؤْمِنُ بآياتِنا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّدًا وسَبَّحُوا بحمد ربِّهم وهم لا يَسْتَـكْبِرون »

التصديقُ والتـكذيبُ ضدان ـ والضدان لا يجتمعان ؛ التـكذيب هو جحودٌ واستكبار ، والتصديقُ هو سجودٌ وتحقيق ، فَمَن اتَّصَفَ بأحد القسمين انْمحى عنه الثانى .

« خرُّوا سُجَّداً » : سجدوا بظواهرهم فى المحراب ، وفى سرائرهم على ترابِ الخضوع وبِساطِ الخشوع بنعت الذبول وحُـكْمِ الخمود .

ويقال : كيف يستـكبر مَنْ لا يَجِدُ كَمالَ راحتهِ ولا حقيقةَ أُنْسِه إلا فى تَذَلُّلِه بين يدى معبوده ، ولا يؤثِرُ آجِلَ جحيمه على نعيمه ، ولا شقاءه على شفائه ؟ !

قوله جل ذكره : « تَتجافَى جُنُوبُهم عن المضاجع يَدْعون رَبَّهم خَـوفًا وطَمَـعًا ومما رزقناهم يُنفِقُون »

فى الظاهر : عن الفراش قياماً بحقِّ العبادة والجهد والتهجد ، وفى الباطن : تتباعد قلوبُهم عن مضاجعات الأحوال ، ورُؤية قَدْرِ النفس ، وتوهُّمِ المقَام — فإنَّ ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة ، وهو للعبدُ سمٌّ قاتل — فلا يسـاكنون أعمالَهم ولا يلاحظون أحوالَهم . ويفارقون مآلَفَهم ، ويَهجُرون فى الله معارفَهم .

والليل زمان الأحباب ، ، قال تعـالى : « لتسكنوا فيه » : يعنى عن كلِّ شُغل وحديث سوى حديث محبوبكم . والنهـارُ زمانُ أهل الدنيا ، قال تعالى : « وجعلنا النهار معاشاً » ، ولذلك قال لهم : « فإذا قضيت الصلاةُ فانتشروا فى الأرض » :

إذا ناجيتمونا فى ركعتين فى الجمعة فعودوا إلى متجركم ، واشتغلوا بحرفتكم .

وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إمَّا فى طرَبِ التلاقى وإما فى حَرَبِ الفراقِ ، فإن كانوا فى أُنْسِ القربة فَلَيْلُهُم أقصرُ من لحظة ، كما قالوا :

زارنى مَنْ هَوِيْتُ بعـــد بعادِ
بوصـــال مُجـــدَّدٍ ووداد
ليـــلة كاد يلتقى طرفاها
قِصَراً وهى ليــلة الميعادِ

وكما قالوا :

وليلةٍ زَيْنُ ليالى الدهر قابلتُ فيها بدرها ببدر
لم تَسْتَبِن عن شفقٍ وفجرِ حتى تولَّت وهى بِكْرُ الدهر

وأمَّا إن كان الوقتُ وقتَ مقاساةِ فُرقة وانفرادٍ بكُرْبة فَلَيْلُهُم طويل ، كما قالوا :

كم ليـــلةٍ فيك لا صباحَ لها أفْنَيْتُها قابضاً على كبـدى
قد غُصِّت العينُ بالدموع وقد وضعتُ خدى على بنان يدى

قوله : يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » : قومٌ خوفاً من العذاب وطمعاً فى الثواب ، وآخرون خوفاً من الفراقِ وطمعاً فى التلاقى ، وآخرون خوفاً من المـكر وطمعاً فى الوَصْلِ .

« ومما رزقناهم ينفقون » : يأتون بالشاهد الذى خصصناهم به ؛ فإنْ طَهَّرْنا أحوالَهم عن الـكدورات حضروا بأحوالٍ مُقَدَّسة ، وإنْ دَنَّسْنا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بحالاتٍ مُدَنَّسَة ،

« ومما رزقناهم ينفقون » ؛ فالعبدُ إنما يتجر فى البضاعة التى يودعها لديه سَيِّدُه :

يفـــديكَ بالروح صَـــبٌّ لو يكون له
أعـــزّ من روحـــه شىء فـــداك به

قوله جل ذكره : « فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفِىَ لهم من قُرَّةِ أعينٍ جزَاء بمـا كانوا يعملون » .

إنما تَقَرُّ عيناكَ برؤية مَنْ تحبه ، أو ما تحبه ؛ فطالبْ قلبكَ وراعِ حالك : فيحصل اليومَ سرورُك ، وكذلك غداً . . وعلى ذلك تحشر ؛ في الخبر :

« مَنْ كان بحالة لقى الله بها » .

ثم إنّ وصفَ ماقال الله سبحانه إنه لا يعلمه أحدٌ — مُحَالٌ ، اللهم أن يُقال: إنها حال عزيزة ، وصفةٌ جَليلة .

قوله جَل ذكره : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً
لا يستوون »[1] .

أفمن كان في حال الوصال يَجرّ أذيالَه كمَنْ هو في مَذلةِ الفراق يقاسي وبالَه ؟

أفمن كان في رَوْحِ القربة ونسيم الزلفة كمن هو في هول العقوبة يعاني مشقة الكلفة ؟

أفمن هوفي رَوْحِ إقبالنا عليه كمن هو في محنة إعراضنا عنه ؟

أفمن بقِي معنا كمَنْ بقِي عَنَّا ؟

أفمنْ هو في نهار العرفان وضياء الإحسان كمن هو في ليالي الكفران ووحشة العصيان ؟

أفمن أيِّدَ بنور البرهان وطلعت عليه شموسُ العرفان كمن ربِطَ بالخذلان ووُسِم بالحرمان؟ لا يستويان ولا يلتقيان !

قوله جَل ذكره : « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات
فلهم جنّاتُ المأوى نُزُلاً بما كانوا
يعملون » .

« الذين آمنوا » : صدَّقوا ، « وعملوا الصالحات » : بما حَقَّقوا — فلهم حُسْنُ الحال ، وحميدُ المآلُ وجزيلُ المنال ، وأما الذين كذّبوا وجحدوا ، وفي معاملاتهم أساءوا

(١) عن ابن عباس : أن الوليد بن عقبة قال لعلي بن أبي طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال علىّ : اسكت فإنما أنت فاسق ... فنزلت الآية (الواحدى ص ٢٣٦) .

وأفسدوا ، فصاراهم الخزىُ والهوان ، وفنون من المحن وألوان .. كلما راموا من محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً ، وكلما أمّلوا نجاةً جُرّعوا وزيدوا يأساً .

قوله جل ذكره : « وَلَنُذِيقَنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » .

قومٌ عذابهم الأدنى محَنُ الدنيا ، والعذابُ الأكبر لهم عقوبة العقبى .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم فى عبادتهم ، والعذاب الأكبر لهم قسوةٌ فى قلوبهم تصيبهم .

وقومٌ العذاب الأدنى لهم وقفة فى سلوكهم تُنْيِيهم ، والعذابُ الأكبرُ لهم حجبةٌ عن مشاهدتهم تنالهم ، قال قائلهم :

أدّبتنى بانصرافِ قلبك عنّى

فانظرْ إلىّ قد أحسنت تأديبى[1]

ويقال العذاب الأدنى الخذلان فى الزلة ، والأكبر الهجران فى الوصلة .

ويقال العذاب الأدنى تكدّرُ مشاربهم بعد صفوها ، كما قالوا :

لقد كان ما بينى زمانا وبينه كما بين ريح المسك والعنبر الورد

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ الغياب من غير تبين آخِرٍ لها ، كما قيل :

تطاول نأينا يا نور حتى كأن نسجتْ عليه العنكبوتُ

قوله جل ذكره : « ومنْ أظلمُ ممنْ ذُكِّرَ بآياتِ ربّه ثم أعرض عنها إنّا من المجرمين منتقمون »

إذا نُبِّهَ العبدُ بأنواع الزّجر ، وحُرِّكَ — لتَرْكِهِ حدودَ الوفاق — بصنوفٍ من التأديب

(١) الشطر الأول غير موزون ، والشطر الثانى من البسيط .

ثم لم يرتدعْ عن فعله ، واغترّ بطول سلامته ، وأمِنَ من هواجم مَكْرِه ، وخفايا سِرِّه . . أخَذَه بغتةً بحيث لا يجد خرجةً مِنْ أخذته ، قال تعالى : « لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون »[1]

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتابَ فلا تكن في مِرية من لقائه وجعلناه هدًى لبني اسرائيل » .

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا[2] .

« وجعلناه هدًى لبني إسرائيل » :

وهذا محمد صلى الله عليه وسلم جُعِلَ رحمةً للعالمين .

قوله جل ذكره : « وجعلنا منهم أئمةً يهدُون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

لمّا صبروا على طلبنا سَعِدوا بوجودنا ، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى مُتبعيهم ، وانبسط شعاعُ شموسهم على جميع أهليهم ؛ فهم للخلق هُداةٌ ، وفي الدين عيون ، وللمسترشدين نجوم .

قوله جل ذكره : « إنّ ربك هو يفصل بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون » .

يحكم بينهم ، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول ، والمهجور من الموصول ، والرضى من

(1) آية ٦٥ سورة المؤمنون .

(2) صرف القشيري الرؤية واللقاء إلى موسى عليه السلام ، وأنه سيلقى ربه ويراه . بينما يرى قتادة أن المقصود : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة وستلقاه - أي محمد - فيها ، كما لقيته ليلة الإسراء . وعن الحسن : فلا تكن - يا محمد - في شك من أنك ستلقى ما لقيه من التكذيب والأذى ، فالهاء عائدة على محذوف .

وقيل إن الكلام متصل بقوله تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت « ... فلا تكن في مرية من لقائه ، وجاءت « ولقد آتينا موسى » اعتراضاً .

النوى ، والعـدو من الولى ... فكم من بهجة دامت هنالك ! وكم من مهجة ذابت عند ذلك !

قوله جل ذكره : « أوَلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا مِن قبلهم
من القرون يمشون فى مساكنهم إنَّ
فى ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون »

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوامٍ كانوا فى حَبرةٍ فصاروا عِبْرةً ، كانوا فى سرورٍ فآلوا إلى ثبور ؛ لجميع ديارهم ومزارعهم صارت لأغيارهم ، وصنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم ، سكنوا فى ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم ، وكما قيل :

نعمةٌ كانت على قومٍ زمانا ثم بانت
هكذا النعمةُ والإحسانُ مذ كان وكانت

قوله جل ذكره : « أوَلَمْ يَرَوْا أنّا نسوق الماء إلى الأرضِ
الجُرُزِ(1) فنُخْرِج به زَرْعاً تأكل منه
أنعامُهم وأنفسُهم أفلا يُبْصِرون »

الإشارة فيه : تُسْقَى حدائقُ وَصْلِهم بعد جفاف عُودِها ، وزوال الأنوسِ من معهودِها ، فيعود عودُها مورِقاً بعد ذبوله ، حاكياً بحاله حال حصوله .

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الفتحُ إن كنتم
صادقين * قلْ يومَ الفتح لا ينفع الذين
كفروا إيمانُهم ولا هم يُنظَرون » .

---

(1) يقول الزمخشرى (الجرز) الأرض التى جزر نباتها أى قطع ، إما لعدم الماء وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال التى لا تنبت كالسباخ جرز ، ويدل عليه قوله تعالى فنخرج به زرعاً .
وقال عكرمة : هى الأرض الظمأى .
ويحاول بعضهم أن يطلقها على مكان بعينه (ابن عباس : أرض باليمن) ومجاهد : (أرض النيل) .

استبعدوا يومَ التلاق وجحدوه ، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه .

قوله جل ذكره : « فأَعْرِضْ عنهم وانتظرْ إنهم منتظرون » .

أَعْرِضْ عنهم باشتغالك بنا ، وإقبالك علينا ، وانقطاعك إلينا .

« وانتظر » زوائدَ وَصْلِنا ، وعوائدَ لطفنا .

« إنهم منتظرون » هواجِمَ مقتنا وخفايا مكرنا .. وعن قريب يجد كلٌّ منتظرَه محتضراً .

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله شهود وجوده يوجِبُ لكَ تلفاً فى تَلَفٍ ، ووجودُ جوده يوجِبُ لكَ شرفاً فى شرف ، ففى تَلَفِكَ يكون (هو)[1] عَنْكَ الخَلَف ، وفى شرفك تصل إلى كلِّ لُطف .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ اتَّقِ اللهَ ولا تُطِع الـكافرين والمنافقين إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً » .

يأيها المُشَرَّفُ حالاً ، المُفَخَّمُ قَدْراً مِنَّا ، المُعَلَّى رُتْبَةً من قِبَلِنا .. يأيها المُرَقَّى إلى أعلى الرُّتَبِ بأسنى القُرَبِ .. يأيها المُخَبَّرُ عنا ، المأمونُ على أسرارنا ، المُبَلِّغُ خطابَنا إلى أحبابنا... اتقِ اللهَ أنْ تلاحِظَ غيراً معنا ، أو تساكِنَ شيئاً مِنْ دوننا ، أوتُثْبِتَ أحداً سوانا ، أو تتوهَّمَ شظيةً مِنَ الحِدثانِ مِنْ سوانا . « ولا تطع الـكافرين » إشفاقاً منك عليهم ، وطمعاً فى إيمانهم بنا لو وافَقْتَهم فى شىء أرادوه منك[2] .

والتقوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنعهم فى أنفاسهم ، وسَكَناتِهم ، وحَرَكاتِهم أن ينظروا إلى غيره — أو يُثْبِتوا معه غيره — إلا منصوباً لقدرته ، مصرَّفاً بمشيئته ، نافذاً فيه حُكْمُ قضيته .

---

(١) وضعنا (هو) من عندنا ليتضح المعنى كما نفهم من أسلوب القشيرى فى مثل هذا المجال .

(٢) يقال نزلت هذه الآية حينما دخل أبو سفيان وأبو جهل وأبو الأعور السلمى على النبى (ص) بعد قتال أحد ، وطلبوا الأمان ، وقالوا للرسول : وارفض ذكر آلهتنا ، وقل إن لها شفاعة ومَنَعَة وندعك وربك ، فشق على النبى (ص) قولهم ، فقال عمر بن الخطاب - وكان بصحبة النبى : ائذن لى يا رسول الله فى قتلهم ، فقال النبى : إنى قد أعطيتهم الأمان ... وأمر بإخراجهم من المدينة . (الواحدى ص ٢٣٦) .

التقوى لجامٌ يكبحك عمّا لا يجوز ، زمامٌ يقودك إلى ما تحب ، سوطٌ يسوقك إلى ما أُمِرْتَ به ، شاخصٌ يحملك على القيام بحقّ الله ، حِرْزٌ يعصمك مِنْ توَصل أعدائك إليك ، عُوذَةٌ تشفيك من داء الخطأ .

التقوى وسيلةٌ إلى ساحات كَرَمه ، ذريعةٌ تتوسل بها إلى عقوة جوده .

قوله جل ذكره : « وَاتَّبِعْ ما يوحىٰ إليكَ مِن ربك إنّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً » .

اتبعْ وَلا تبتدع ، وَاقتدِ بما نأمرك به ، وَلا تهتدِ باختيارك غير ما نختار لك ، وَلا تُعرِّج فى أوطان الكسل ، ولا تجنحْ إلى ناحية التوانى ، وكن لنا لا لكَ ، وقم بنا لا بِكَ .

قوْله جل ذكره : « وتوكلْ على اللهِ وكفىٰ بالله وكيلا » .

انسلخْ عن إهابك ، واصدق فى إيابك إلينا ، وتشاغلْ عن حسبانك معنا ، واحذرْ ذهابَكَ عنا ، وَلا تُقَصِّرْ فى خطابك معنا .

وَيقال التوكل تحقُّقٌ ثم تخلُّقٌ ثم توثق ثم تملق ؛ تحقُّقٌ فى العقيدة ، وتخلقٌ بإقامة الشريعة ، وتوثق بالمقسوم من القضية ، وَتملقٌ بين يديه بحُسْنِ العبودية .

ويقال التوكلُ تحققٌ وتملقٌ وتخلقٌ ؛ تحقّقٌ بالله وتملّقٌ بالله ثم تخلق بأوامر الله .

وَيقال التوَكل استواء القلب فى العدم والوجود .

قوله جل ذكره : « ما جعلَ الله لرَجُلٍ مِن قلبين فى جوفه » .

القلبُ إذا اشتغل بشىء شُغِلَ عما سوَاه ، فالمشتغلُ بما مِنَ العَدَمِ منفصِلٌ عَمن له القِدَمُ ، والمتصل بقلبه بمن نعته القِدَم مشتغلٌ عمَّا من العدَم . . والليل والنهار لا يجتمعان ، والغيبُ والعيرُ لا يلتقيان .

« وما جعل أزواجكم اللائى تُظَاهِرُون

مِنهن أمهاتِكم وما جَعَلَ أدعياءكم
أبناءكم ذلكم قولُكم بأفواهكم » .

اللائى تظاهرتم[1] منهن لَسْنَ أمهاتكم ، وَالذين تبنيتم ليسوا بأبنائكم ، وإن الذى صرتم إليه من افترائكم ، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردودٌ عليكم ، غيرُ مقبولٍ منكم ، وإنْ أمسكتم عنه بعد البيان نجوتم ، وإنْ تماديتم بعد ما أعلمتم أظلت المحنةُ عليكم .

قوله جل ذكره : « ادعُوهم لآبائهم هو أقسطُ
عند اللهِ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانُكم
فى الدِّين ومواليكم وليس عليكم
جُناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تَعَمَّدَتْ
قلوبُكم وكان اللهُ غفوراً رحيماً » .

راعُوا أنسابهم ، فإن أردتم غير النسبة فالأخوّةُ فى الدِّين تجمعكم ، وقرابةُ الدِّين وَالشكلية أولى من قرابة النَّسَبِ ، كما قالوا :

وقالوا قريبٌ من أبٍ وعمومةٍ
فقلتُ : وإخوانُ الصفاء الأقاربُ

تناسبهم شكلا وعِلماً وَأُلفةً
وَإن باعدتهم فى الأصول المناسبُ

قوله جل ذكره : « النبيُّ أولىٰ بالمؤمنين منْ أنفسهم
وَأزوَاجُه أمهاتُهم . وأولواْ الأرحام
بعضهم أولىٰ ببعض فى كتابِ اللهِ
من المؤمنين والمهاجرين . . »

---

(1) يعنى أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، وسيأتى تفصيل ذلك فى سورة المجادلة (المجلد الثالث .

الإشارة من هذا : تقديم سُنته على هواك ، والوقوفُ عند إشارته دون ما يتعلقُ به مُناك ، وإيثار مَنْ تتوسل به سبباً ونسباً على أعِزّتِكَ ومَنْ والاكَ .

« وأولو الأرحَام بعضهم أوْلَى ببعض » :

ليكنْ الأجانبُ منك على جانب ، ولكن صلتك بالأقارب . وصلةُ الرحِمِ ليست بمقاربة الديار وتعاقب المزار ، ولكن بموافقة القلوب ، والمساعدة في حالتى المكروه والمحبوب :

أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وَغدتْ
أشباحُنا بشامٍ[2] أو خراســـان

قوله جل ذكره : « وإذْ أخذْنا من النبيين ميثاقَهم ومنك ومن نوحٍ وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً » .

أخذَ ميثاق النبيين وقتَ استخراج الذرية من صُلب آدم — فهو الميثاق الأول ، وكذلك ميثاق الكلِّ . ثم عند بَعْثِ كلِّ رسول ونُبُوّةِ كلِّ نبيٍّ أخذ ميثاقه ، وذلك على لسانِ جبريل عليه السلام ، وقد استخلص اللهُ سبحانه نبيَّنا عليه السلام ، فأسمعه كلامَه — بلا واسطة — ليلةَ المعراج . وكذلك موسى عليه السلام — أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا — صلى الله عليه وسلم — زيادة حال ؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشفُ الرؤية[1] .

ثم أخذ المواثيق من العُبّاد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه ، فلكلٍّ من الأنبياء والأولياء والأكابر على مايؤَهلهم له ، قال صلى الله عليه وسلم « لقد كان في الأمم

(١) هكذا في ص وهي في م (بمراق)

(٢) في كتاب الرؤية الكبير يرى الأشعرى جواز ذلك ، أما القشيرى : فيما يشير هنا إلى ذلك إذ به كما سيأتى في بسملة سورة البروج يقول : «بسم الله اسم لم يره بصر إلا واحد ، وهو أيضاً مختلف فيه» المجلد الثالث

مُحَدَّثون فإن يكن فى أمتى فَعُمَر » وغيرُ عمر مشاركٌ لعمر فى خواص كثيرة ، وذلك شيء يتمّ بينهم وبين ربهم .

قوله جلّ ذكره : « ليسألَ الصادقين عن صِدْقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً » .

يسألهم سؤالَ تشريفٍ لا سؤال تعنيف ، وسؤال إيجابٍ لا سؤال عتاب . والصدقُ ألّا يكونَ فى أحوالِكَ شَوْبٌ ولا فى اعتقادك رَيْبٌ ، ولا فى أعمالك عَيْبٌ . ويقال من أمارات الصدق فى المعاملة وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق . والصدقُ فى الأحوال تصفيتُها من غير مداخلة إعجاب .

والصدق فى الأقوال سلامتُها من المعاريض فيما بينك وبين نفسك ، وفيما بينك وبين الناس التباعدُ عن التلبيس ، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرِّى من الحَوْلِ والقوة ، ومواصلة الاستعانة[1] ، وحفظ العهود معه على الدوام .

والصدق فى التوكل عَدَمُ الانزعاج عند الفَقْدِ ، وزوال الاستبشار بالوجود[2] .

والصدق فى الأمر بالمعروف التحرُّز من قليل المداهنة وكثيرها ، وألا تتركَ ذلك لِفَزَعٍ أو لِطَمَعٍ ، وأن تَشْرَبَ مما تَسْقِى ، وتتصف بما تأمر ، وتنهى (نَفْسَك)[3] عما تَزْجُر .

ويقال الصدق أن يهتدى إليكَ كلُّ أحد ، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد . ويقال الصدق ألا تجنحَ إلى التأويلات[4] .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (الاستغاثة) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٢) هكذا فى ص و م وربما كانت (الموجود) إذ نحسب أن مقصد القشيرى أن تكون راضياً إذا فقدت أو وجدت ، وفى ذلك يقول عبد الله بن خفيف : القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء (بالموجود) الرسالة ص ٨١ والشاكر الذى يشكر على (الموجود) والشكور الذى يشكر على المفقود (الرسالة ص ٨٩) . ومع ذلك فقد وردت (الوجود) فى قول النورى : الصوفى نعته السكون عند العدم والإيثار عند الوجود ... فالوجود بهذا المعنى ضد العدم ؛ أى وجود الأشياء وفقدانها . ولكننا نفضل أن يقتصر اصطلاح (الوجود) على الدرجة القصوى بعد التواجد والوجد ، وهو الحق . (الرسالة ص ٣٦ و٣٧) وأنظر أيضا تفسير القشيرى للآية ٣٩ سورة سبأ (فى هذا المجلد) .

(٣) وضعنا (نفسك) من عندنا ليتضح المعنى .

(٤) معروف أن القشيرى يكره التأويلات المؤدية إلى الاسترخاص بالنسبة الصوفية .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ
عليكم إذ جاءتْكُم جنودٌ فأرسَلْنا عليهم
ريحًا وجنوداً لم تَرَوْها وكان اللهُ بما
تعملون بصيراً » .

ذكرُ نعمةِ اللهِ مُقابَلَتُها بالشكر ، ولو تذكرتَ ما دَفَعَ عنك فيما سَلَفَ لهانت عليك مقاساةُ البلاء فى الحال ، ولو تذكرتَ ما أولاكَ فى الماضى لَقَرُبَتْ من قلبك الثقةُ فى إيصال ما تؤمِّلُه فى المستقبل .

ومن جملة ماذكَّرهم به :(1) « إذ جَاءتْكُم جنودٌ ... » كم بلاء صَرَفَه عن العبدِ وهو لم يشعر ! وكم شُغْلٍ كان يقصده فصَدَّه عنه ولم يعلم ! وكم أمرٍ عَوَّقَه والعبدُ يَضِجُّ وهو — (سبحانه) — يعلم أن فى تيسيره له هلاكَ العبد فَمَنَعَه منه رحمةً به ، والعبدُ يتَّهِمُ ويضيق صَدْرُه بذلك !

قوله جل ذكره : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ
منكم وإذ زاغَتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ
القلوبُ الحناجرَ وتظنون باللهِ الظنونا »

أحاط بهم سُرَادِقُ البلاء ، وأحدقَ بهم عَسْكرُ العدوِّ ، واستسلموا للاجتياح ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، وتَقَسَّمَتِ الظنونُ ، وداخَلَتْهُم كوامِنُ الارتياب ، وبدا فى سويدائهم جَوَلانُ الشكِّ .

« هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلوا
زلزالاً شديداً » .

ثم أزال عنهم جملتها ، وقَشَعَ عنهم شِدَّتَها ، فانجاب عنهم سحابُها ، وتفرقَتْ عن قلوبهم همومُها ، وتفجَّرَتْ ينابيعُ سكينتهم .

---

(1) يوضح القشيرى هنا ما يسمى عنده (نِعَم المنع) وهى شئ آخر يختلف عن (نعم المنح) ، والعبد — لقصر نظره — يشكر على هذه ، وتخفى عليه تلك .

قوله جل ذكره : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم
مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللهُ ورسـوله
إلا غروراً » .

صَرَّحوا بالتكذيب — لما انطوت عليه قلوبُهم — حين وجدوا للمقال مجالاً .

قوله جل ذكره : « وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهلَ
يَثْرِبَ لا مُقَامَ لكم فارجعوا ويستأذِنُ
فريقٌ منهم النبيَّ يقولون إنَّ بيوتَنا
عورةٌ وما هى بعورة إن يُرِيدون
إلا فراراً » .

تواصَوْا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّلَتْ لهم شياطينُهم من وشك ظَفَرِ الأعداء . قوله : « ويستأذن فريق . . . » : يتعلّلون[1] بانكشافِ بيوتهم وضياع مُخَلَّفَاتهم ، ويكذبون فيما أظهروه عُذْراً ، وهم لم يَحْمِلْهم على فعلهم غيرُ جُبْنِهم وقلةِ يقينهم .

قوله جلّ ذكره : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل
لا يولون الأدبارَ وكان عهدُ الله مسئولا »

وَلكن لما عزم الأمر ، وظهر الجدّ لم يساعدهم الصدقُ ، ولم يذكروا أنهم سَيُسْأَلون عن عهدهم ، ويُعاقبون على ما أسلفوه من ذنبهم .

قوله جل ذكره : « قُل لن ينفعكم الفرارُ إن فررتم
من الموتِ أو القتلِ وإذاً لا تُمتعون
إلا قليلاً » .

لأنَّ الآجالَ لا تأخيرَ لها ولا تقديم عليها ، وكما قالوا : « إنَّ المهاربَ عمّا هو كائن فى كفِّ الطالب يتقلبُ » .

« وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً » : فإنَّ ما يدّخرُه العبدُ عن الله من مالٍ أو جاهٍ أو نفيسٍ أو قريب لا يُبارَكُ له فيه ، ولا يجدُ به مَتْعَةً ، ولا يُرزقُ منه غبطة .

---

(١) يغمز القشيرى هنا — من بعيد — بالمتعللين فى الطريق بعلل الاسترخاص ودعاوى النفس .

قوله جل ذكره : « قُلْ مَن ذا الذى يعصمكم من
الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم
رحمةً ولا يجدون لهم من دون الله
وليًّا ولا نصيراً » .

من الذى يحققُ لكم منْ دونه مَرْجُوًّا ؟ ومن الذى يَصرف عنكم دونه عَدُوًّا ؟.

قوله جل ذكره : « قد يعلم اللهُ المعوِّقين منكم والقائلين
لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأسَ
إلا قليلاً » .

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصرة النبى عليه السلام ، ويمنعون غيرهم ليكونَ جمعُهم أكثرَ وكيدُهم أخفى . وهم لا يعلمون أنّ الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام عليهم ثم ذَكَرَ وَصْفَهم فقال :ـ

« أشِحةً عليكم فإذا جاء الخوفُ
رأيتَهم ينظرون إليكَ تدور أعينهم
كالذى يُغشى عليه من الموتِ فإذا
ذهبَ الخوْفُ سَلقوكم بألسنةٍ حِداد »

إذا جاء الخوْفُ طاشتْ من الرعبِ عقولُهم ، وطاحت بصائرهم ، وتعطلت عن النصرة جميعُ أعضائهم . وإذا ذهبَ الخوْفُ زَيّنوا كلامَهم ، وقدّموا خداعهم ، وَاحتالوا فى أحقادِ خبثهم ... أولئك هذه صفاتهم ؛ لم يباشر الإيمانُ قلوبَهم ، ولا صدقوا فيما أظهروا من ادعائهم واستسلامهم .

قوله جلّ ذكره : « يحْسَبُون الأحزابَ لم يذْهبوا
وَإن يأتِ الأحزابُ يوَدّوا لو أنهم
بادُون فى الأعرابِ يسألون عن أنبائكم
وَلو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلاً » .

يحسبون الأحزابَ لم يذهبوا ، ويخافون من عَوْدهم ، ويفزعون من ظلِّ أنفسهم

إذا وثبوا على آثارهم ، ولو اتفق هجومُ الأعداء عليكم ما كانوا إلا فى حرز سيوفهم وتحت دُرَيِّة[1] رماحهم .

قوله جلّ ذكره : « لقد كان لكم فى رسولِ اللهِ
أسوةٌ حسنةٌ لمنْ كان يرجو اللهَ
واليومَ الآخِرَ وذكرَ اللهَ كثيراً » .

« كان » صلة ومعناها : لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، به قدْوتكم ، ويجب عليكم متابعته فيما يرسمه لكم . وأقوال الرسول (ص) وأفعاله على الوجوب إلى أن يقومَ دليل التخصيص ، فأما أحْواله فلا سبيلَ لأحدٍ إلى الإشراف عليها ، فإن ظهرَ شىء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مُكتسَباً مِنْ قِبَلِه فيُلحق فى الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله ، وإن كان غير مكتسبٍ له فهى خصوصيةٌ له لا ينبغى لأحد أن يتعرّض لمقابلته لاختصاصه — صلى الله عليه وسلم — بعلوّ رتبته[2] .

قوله جلّ ذكره : « ولما رأى المؤمنون الأحْزابَ
قالوا هذا ما وَعدَنا اللهُ ورسولهُ وصَدَقَ
اللهُ ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما »

كما أنّ المنافقين اضطربت عقائدُهم عند رؤية الأعداء ، فالمؤمنون وأهلُ اليقين ازدادوا ثقةً ، وعلى الأعداء جرأةً ، ولحكم الله استسلاماً ، ومن الله قوةً .

قوله جل ذكره : « من المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ماعاهدوا
الله عليه فمنهم منْ قضَى نحبه ومنهم
من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » .

شكرَ صنيعَهم فى المراس ، ومدح يقينَهم عند شهود الباس ، وسماهم رجالاً إثباتا

---

(١) الدرية ما يستتر به الصائد من الصيد فيرميه إذا أمكنه .

(٢) يفيد هذا الكلام فى توضيح نظرة هذا الباحث إلى السنّة كمصدر أساسى من مصادر التشريع ، فالسُّنّة أقوال وأفعال وأحوال ، منها ما يصلح للعموم ، ومنها ما يختص به الرسول نفْسُه .

لخصوصية رتبتهم[1] ، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلوِّ الحالة والمنزلة ، فمنهم مَنْ خرج من دنياه على صِدْقه[2] ، ومنهم مَنْ ينتظر حكم الله في الحياة والممات ، ولم يزيغوا عن عهدهم ، ولم يراوغوا فى مراعاة حدِّهم ؛ فحقيقةُ الصدقِ حِفْظُ العهد وتَرْكُ مجاوزة الحدِّ .

ويقال : الصـدقُ استواء الجهر والسِّرِّ .

ويقال : هو الثباتُ عندما يكون الأمرُ جِدًّا .

قوله جـل ذكره : « لِيَجْزِىَ اللهُ الصادقين بصدقهم ويُعذِّبَ المنافقين إن شـاء أو يتوبَ عليهم إن الله كان غفوراً رحيما » .

فى الدنيا يجزى الصادقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية ، وفى الآخرة بجميلِ الثواب وجزيلِ المآب والخلودِ فى النعيم المقيم والتقديمِ على الأمثال بالتكريم والتعظيم . .

« ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » على الوجْه الذى سَبق به العلم ، وتَعلَّقتْ به المشيئة .

ويقال : إذا لم يجزم بعقوبة للمنافق وعَلَّقَ القولَ فيه بالرجاء فبالحرىِّ ألا يُخيِّبَ المؤمنَ فى رجائه .

قوله جل ذكره : « وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ وكان اللهُ قويًّا عزيزاً » .

لم يُشمتْ بالمسلمين عدُوًّا ، ولم يُوصِّلْ إليهم مَنْ كيدهم سوءا ، ووضع كيدهم فى نحورهم ، واجتثَّهم مِنْ أصولهم ، وبيَّن بذلك جواهر صِدْقهم وغير صدقهم ، وشكَر مَنْ استوجب شكره مِنْ جملتهم ، وفضحَ مَنْ استحقَّ الذمَّ من المدلِّسين منهم .

(١) ومن المؤمنين رجال ... : عن أنس أنها نزلت فى عمه أنس بن النضير الذى أبلى يوم أحد بلاءً عظيماً ، حتى قتل وبه ثمانون جراحة بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم .. رواه البخارى عن بندار ، ومسلم عن محمد بن حاتم .

(٢) فمنهم من قضى نحبه، نزلت فى طلحة بن عبيد الله ثبت بجانب الرسول يوم أحد حتى دعا له الرسول (ص) : اللهم أوجب لطلحة الجنة . (الواحدى ص ٢٣٨) .

« وأنزل الذين ظاهروهم مِنْ أهْل الكتاب مِن صَيَاصيهم وقذفَ فى قلوبهم الرُّعْبَ فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً » .

إنّ الحقّ — سبحانه — إذا أجل أكمَل ، وإذا شفى كفى ، وَإذا وَفى أوْفى .. فأظفر المسلمين عليهم ، وأورثهم معاقلَهم ، وأذلّ مُتعزِّزَهم ، وكفاهم بكلّ وجهٍ أمرَهم ، ومكّنهم من قتْلِهم وأسرِهم ونهْبِ أموالهم ،وسَبْى ذراريهم .

قوله جل ذكره : « يا أيها النبىّ قُل لأزواجِك إن كنْتنّ تُردْن الحياةَ الدنيا وزينتهَا فتعالين أمتعكنّ وأسرِّحكنّ سراحاً جميلا * وإن كنتنّ تُرِدْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن اللهَ أعدّ للمحسنات مِنكنّ أجراً عظيماً » .

لم يُرِدْ أنْ يكونَ قلبُ أحد من المؤمنين والمؤمنات منه فى شُغل ، أو يعود إلى أحد منه أذى أو نصب ، فخيَّرَ — صلى الله عليه وسلم — نساءه[1] ، ووفّقَ اللهُ سبحانه عائشةَ أمّ المؤمنين — رضى الله عنها — حتى أخبرت عن صِدْقِ[2] قلبها ، وكمالِ دينها ويقينها ، (وَبهما هو المنتظر مِنْ أصلها وتربيتها)[3] ، والباقى جرَيْن على مِنهاجها ، ونَسَجْنَ على مِنوالها .

قوله جلّ ذكره : « يا نساء النبىّ من يأتِ منكنّ

---

(۱) يقال إنه قال لعائشة : إنى ذاكر لك أمراً ولا عليك أن لاتعجل فيه حتى تستأمرى أبويك ،ثم قرأ عليها القرآن ، فقالت : أنى هذا أستأمرُ أبوىّ ؟ فإنى أريد الله ورسولَه والدارَ الآخرة . فرؤى الفرح فى وجهه صلى الله عليه وسلم .

(۲) هكذا فى م وهى فى ص (كذب) وهى خطأ قطعاً .

(۳) مابين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

فاحشة مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لها العذابُ
ضعفَين وكان ذلك على الله يسيراً » .

زيادةُ العقوبة على الجُرْمِ من أمارات الفضيلة ، وإنما فضل حدُّ الأحرار على العبيد وتقليل ذلك من أمارات النقص ؛ فلما كانت منزلتُهن في الشرف تزيد على منزلة جميع النساء ضاعَفَ عقوبتهن على أجْرامهن ، وضاعف ثوابَهن على طاعاتهن . وقال :

« ومن يَقْنُتْ منكنَّ لله ورسولِه
وتَعملْ صالحا نُؤْتِها أجْرَها مرّتين
وأعتدنا لها رِزقا كريما » .

ثم قال :

« يا نساء النبيِّ لَسْتُنَّ كأحدٍ من النساء
إنِ اتقيْتُنَّ فلا تخضعنَ بالقولِ فيطمعَ
الذي في قلبه مرَضٌ وقُلْنَ قولا
معروفا » .

نهاهن عن التبذُّل ، وأمَرَهُنّ بمراعاةِ حُرْمَةِ الرسول (ص) ، والتصاون عن تَطَمُّعِ المنافقين في مُلاينتهن .

قوله جل ذكره : « وقَرن في بيوتكُنّ ولا تبرَّجنَ
تبرُّجَ الجاهلية الأولى وأقِمْنَ الصلاة
وآتين الزكاةَ وأطِعْنَ اللهَ ورسولَه
إنما يريد اللهُ ليُذْهِبَ عنكم
الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكم
تطهيراً » .

« الرجس » : الأفعالُ الخبيثةُ والأخلاقُ الدنيئة ؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ما ظهرَ منها وما بطن ، وما قلّ وما جلّ . والأخلاقُ الدنيئةُ الأهواء والبِدَعُ كالبخل والشحِّ

وقَطْعِ الرَّحِمِ ، ويريد بهم الأخلاقَ الكريمةَ كالجُودِ والإيثار والسخاء وصِلَةِ الرَّحِمِ ، ويديم لهم التوفيقَ والعصمةَ والتسديد ، ويُطهرهم من الذنوب والعيوب .

قوله جل ذكره : « واذكُرْن ما يُتلَى فى بيوتكنَّ من آياتِ الله والحكمة إنَّ اللهَ كان لطيفا خبيراً » .

اذكُرْنَ عظيمَ النعمة وجليلَ الحالةِ التى تجرى فى بيوتكن ؛ من نزولِ الوحى ومجىء الملائكة ، وحُرْمَةِ الرسول — صلى الله عليه وسلم — والنور الذى يقتبس فى الآفاق ، ونور الشمس الذى يَنبسط على العالم ، فاعرفن[1] هذه النعمة ، وَارعين هذه الُحرمة .

قوله جل ذكره : « إن المسلمين والمسلمات . . . »

الإسلام هو الاستسلام ، والإخلاص ، والمبالغة فى المجاهدة والمكابدة .

« والمؤمنين والمؤمنات . . . »

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات ، ويقال هو التصديق والتحقيق ، ويقال هو انتسامُ الحقيقةِ فى القلب . ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل ، ولقومٍ بالعلم ، ولآخرين بالفهم عن الله ، ولآخرين بالتوحيد ، ولآخرين بالمعرفة ، ولآخرين إيمانُهم حَياةُ قلوبهم بالله .

« والقانتين والقانتات . . . »

القنوتُ طولُ العبادة .

« والصادقين والصادقات . . . »

فى عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم .

---

(1) عرف هنا بمعنى ذكر الفضل .. وبهذه المناسبة أكشف القارىء عن شىء حيرنى دهراً طويلا حينا كنت أقرأ تائية ابن الفارض التى أولها :

قلبى يحدثنى بأنك متلفى   روحى فداك عرفت أم لم تعرف

فطالما أزعجنى الشطر الثانى من هذا البيت ؛ لأنى كنت أربط بين عرف وبين علم . فكنت أسائل نفسى كيف يخاطب ابن الفارض ربه على هذا النحو ؟ حتى اهتديت إلى أن المعنى : أننى سأفتديك بروحى حتى ولو تلفتُ فى ذلك ، وسأبقى عليه ، سواء ذكرت لى ما أصنع ، واحتسبته .. أم لم تفعل

« والصابرين والصابرات .. »

على الخصال الحميدة ، وعن الصفات الذميمة ، وعند جريان مفاجآت القضية .

« والخاشعين والخاشعات .. » .

الخشوعُ إطراقُ السريرة عند بوادِهِ الحقيقة .

« والمتصدقين والمتصدقات .. »

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحدٍ خصومة فيما نالوا منهم ، أو قالوا فيهم[1]

« والصائمين والصائمات .. »

الممسكين عمّا لا يجوز فى الشريعة والطريقة .

« والحافظين فروجهم والحافظات .. »

فى الظاهر عن الحرام ، وفى الإشارة عن جميع الآثام .

«والذاكرين اللهَ كثيراً والذاكرات..»

بألسنتهم وقلوبهم وفى عموم أحوالهم لا يَفْتُرُون ، ولا يَتَدَاخَلُهم نسيان .

« أعدّ اللهُ لهم مَغْفِرَةً وأجراً عظيماً » .

فهؤلاء لهم جميلُ الحُسْنَى ، وجزيلُ العُقبى .

قوله جل ذكره : « وما كان لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنةٍ إذا قَضَى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمْرِهم ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه فقد ضَلَّ ضلالاً مبيناً » .

الافتياتُ عليه فى أمره والاعتراضُ عليه فى حُكْمِهِ وتَرْكُ الانقيادِ لإشارته .. قَرْعٌ لبابِ الشِّرْكِ ؛ فَمَنْ لم يُمْسِكْ عنه سريعاً وَقَعَ فى وهدته .

قوله جل ذكره : « وإذ تقول للذى أنعم اللهُ عليه وأنعمتَ

(1) وهذا من أمارات الفُتُوَّة (أنظر الرسالة ص ١١٣)

عليه أمْسِكْ عليكَ زوجَكَ واتقِ اللهَ
وتُخفِي فى نفسِكَ ما اللهُ مُبْدِيه وتخشى
الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه فلمَّا قضى
زيدٌ منها وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لكى
لا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواج
أدعيائِهم إذا قَضَوْا منهن وَطَرًا وكان
أمْرُ اللهِ مفعولاً » .

أنعم اللهُ عليه بأن ذَكَرَه وأفرده من بين الصحابة باسمه .

ويقال : أنعم اللهُ عليه بإقبالِكَ عليه وتَبَنِّيكَ له . ويقال : بأن أعْتَقْتَه ، ويقال : بالإيمان والمعرفة . وأنْعَمْتَ عليه بالعتق وبأن تَبَنَّيْتَه . « أمْسِكْ عليكَ زوجكَ » إقامةً للشريعة مع عِلْمِك بأن الأمر فى العاقبة إلى ماذا يئول ؛ فإنَّ اللهَ أَطْلَعَكَ عليه ، وقلت له : « اتقِ .. » .
قوله : « وتخفى فى نفسك ما اللهُ مُبْدِيه » : أى لم تُظْهِرْ لهم أنَّ اللهَ عرَّفَكَ ما يكون من الأمر فى المستأنف .

« وتخفى فى نفسك .. » مِنْ مَيْلِكَ ومحبتك لها لا على وجهٍ لا يَحِلُّ . « وتخشى الناس.. » أى وتخشى عليهم أن يقعوا فى الفتنة من قصة زيد ، وكانت تلك الخشية إشفاقاً منكَ عليهم ، ورحمةً بهم .

ويقال : وتستحى من الناس — واللهُ أحقُّ أن تَستَحِيَ منه .

ويقال : تخشى الناسَ ألا يطيقوا سماعَ هذه الحالة ولا يَقْوَوْا على تَحَمُّلِها ، فربما يخطر ببالهم ما يَنْقُص عنهم وُسْعَهم .

« فلمَّا قضى زيدٌ منها وَطَراً زوجنا كها .. » لكى لا يكون عليك حَرَجٌ ، ولكى لا يكونَ على المؤمنين حرج فى الزواج بزوجات أدعيائهم ، فإنما ذلك يُحَرَّمُ فى الإبن إذا كان من الصُّلْبِ .

« وكان أمرُ اللهِ قدَراً مقدوراً » .

لا يُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْحَد . وما كان على النبيِّ من حَرَجٍ بوجهٍ لكونه معصوماً .

قوله جل ذكره : « الذين يُبَلِّغون رسالاتِ اللهِ ويَخْشَوْنَه
ولا يَخْشَوْن أحداً إلا اللهَ وكفى باللهِ
حسيبًا » .

« ويخشونه » : علماً منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضررٌ ولا محذورٌ ولا مكروهٌ إلا بتقديره؛ فيفردونه بالخشية إذ عَلِموا أنه لا شيء لأحدٍ مِنْ دونه .

قوله جل ذكره : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم
ولكن رسولَ اللهِ وخاتَمَ النَّبِيِّين
وكان اللهُ بكلِّ شيءٍ عليماً » .

لم يكن مضافاً إلى ولدٍ فله عليكم شفقة الآباء .. ولكن ليس بأبيكم .

ويقال نَسَبُه ظاهرٌ .. ولكن إنما يُعْرَفُ بي لا بنَسَبِه ؛ فقلَّما يقال : محمدُ بن عبد الله ، ولكن إلى أبد الأبد يقال : محمد رسول الله . وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيدِ — بعد لا إله إلا الله — محمدٌ رسولُ الله .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذكراً
كثيراً * وسَبِّحُوه بُكْرَةً وأصيلاً »

الإشارة فيه أحِبُّوا الله ؛ لأنَّ النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره » فيجب أن تقول : الله ، ثم لا تنسَ الله بعد ذكرك الله .

ويقال : اذكروا الله بقلوبكم ؛ فإنَّ الذكرَ الذي تمكن استدامته ذكرُ القلب ؛ فأمَّا ذِكْرُ اللسانِ فإدامته مُسْتَرَمَداً كالمتعذر .

« وسبِّحوه بكرةً وأصيلا » : التسبيحُ من قبيل الذكر ، ولكنه ذَكَرَه بلفظين لئلا تعتريك سآمة[1] .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُصَلِّى عليكم وملائكته
لِيُخْرِجَكم من الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ
وكان بالمؤمنين رحيماً » .

الصلاةُ فى الأصلِ الدعاء[2] ؛ فصلاتُه — سبحانه — دعاؤه لنا بالتقريب ، وصلاةُ الملائكةِ دعاؤهم إليه لنا : بالغفرانِ للعاصى ، وبالإحسانِ للمطيع .

ويقال الصلاةُ من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة

« ليخرجكم من الظلمات إلى النور » : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أى يعصمكم من الضلال بَرْوح الوصال .

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير .

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر فى قلوبكم .

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق ، والتحقق بأوصاف الجمع .

ويقال يصونكم من الشِّرْكِ ، ويُثَبِّتُكم بشواهد الإيمان .

قوله جل ذكره : « تَحِيَّتُهم يومَ يَلْقَوْنَه سلامٌ ،
وأعدَّ لهم أجراً كريمًا » .

التحيةُ إذا قُرِنَتْ بالرؤية ، واللقاء إذا قُرِنَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البَصَر .

والسلام خطاب يفاتَح به الملوك إخباراً عن عُلُوِّ شأنهم ورتبتهم ، فاللقاؤه حاصلٌ وخطابُه

---

(١) هذه لفتة هامة تهم البلاغيين .

(٢) يوضح القشيرى هنا ما يسمى عنه (نعم المنح) ، وهى صنف آخر يختلف عن (نعم المتع) ، والعبد — لقصر نظره — يشكر على هذه ، وتخفى عليه تلك .

مسموعٌ ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر[1] .

« أجراً كريماً » : الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة ، وكريماً أى حسناً .

وفى الإشارة أجرهم موفور على عملٍ يسير ؛ فإنَّ الكريم لا يستقصى عند البيع والشراء فى الأعداد ، وذلك تعريفٌ بالإحسانِ السابق فى وقت غيبتك[2] .

قوله جل ذكره : « يٰأيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً
ومُبَشِّراً ونذيراً * وداعياً إلى اللهِ بإذنه
وسراجاً منيراً * وبَشِّرِ المؤمنين بأنَّ
لهم من اللهِ فضلاً كبيراً » .

يأيها المُشَرَّفُ مِنْ قِبَلِنا إنّا أرسلناكَ شاهداً بوحدانيتنا ، وشاهداً تُبَشِّر بمتابعتنا ، وتحذِّرُ من مخالفة أمرِنا ، وتُعْلِمُ الناسَ مواضعَ الخوف منَّا ، وداعياً إلينا بنا ، وسراجاً يستضيئون به ، وشمساً ينبسط شعاعُها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ ، وآمَنَ بك ، فلا يصل إلينا إلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ وخَدَمَك ، وصَدَّقَك وقَدَّمَك .

« وبَشِّرْ المؤمنين » بفضلِنا معهم ، ونَيْلِهم طَوْلَنا عليهم ، وإحسانِنا إليهم . ومَنْ لم تُؤَثِّرْ فيه بَرَكَةُ إيمانه بك فلا قَدْرَ له عندنا .

قوله جل ذكره : « ولا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ودَعْ
أذَاهم وتَوَكَّلْ على اللهِ وكفى باللهِ
وكيلاً » .

لا توافِقْ مَنْ أعرضنا عنه ، وأضللنا به من أهل الكفر والنفاق ، وأهل البِدَع والشِّقاق . وتوكلْ على الله بدوام الانقطاع إليه ، وكفى بالله وكيلا .

قوله جل ذكره : « يٰأيها الذين آمنوا إذا نكحتم

(١) يضاف هذا الكلام إلى المبدأ الذى يتحمس له القشيرى وهو الرؤية العيانية الحق فى الآخرة .

(٢) يقصد القشيرى : أولئك الذين أحسن الله إليهم فى سابق علمه ، وهم مازالوا فى كتم العدم - على حد تعبيره فى مواضع متناظرة .

المؤمناتِ ثم طلّقتموهنَّ مِن قَبْلِ أن
تَمَسُّوهنَّ فما لكم عليهن مِنْ عِدَّةٍ
تَعتَدُّونها فمتِّعُوهنَّ وسَرِّحُوهنَّ سَرَاحاً
جميلاً » .

. إذا آتَوتُمْ فراقهُنَّ فمتِّعوهن ليكونَ لهن عنكم تذكرة فى أيام الفرقة فى أوائلها إلى أنْ تتوطَّنَ نفوسُهن على الفرقة .

« وسرحوهن سراحاً جميلاً » : لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن شيئاً تخلّفتُمْ به معهن ، فلا تجمعوا عليهن الفراقَ بالحال والإضرارَ من جهة المال .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إنّا أحْلَلْنا لكَ أزواجَكَ
اللاتى آتيتَ أجورَهُنَّ وما مَلَكَتْ
يمينُك مِمّا أفاءَ اللهُ عليكَ وبنات عَمِّكَ
وبناتِ عمّاتِكَ وبناتِ خالِك .....
غفوراً رحيماً » .

وسَّعْنَا الأمرَ عليكَ فى باب النكاح بكم شئْتَ ؛ فإنك مأمونٌ من عيب عدم التسوية بينهن وعدم مراعاة حقوقهن ، ومن الحَيْفِ عليهن . والتَّوْسِعةُ فى بابِ النكاحَ تَدُلُّ على الفضيلة كالحُرِّ والعبد .

« تُرْجِي مَن تَشَاءُ منهنَّ وتُؤْوِى إليكَ
مَن تشاءُ ومَنِ ابتغيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ
فلا جُناحَ عليكَ ذلكَ أدْنَى أن تَقَرَّ
أعينُهُنَّ ولا يَحْزَنَّ ويَرْضَيْنَ بما آتَيْتَهُنَّ
كُلُّهُنَّ واللهُ يعلم ... » .

« مَن تشاء » : على ما تتعلّق به إرادتُك ، ويقع عليه اختيارُك ، فلا حَرَجَ عليكَ ولا جُنَاح .

« لا يَحِلُّ لكَ النساء من بَعْدُ ولا أن
تَبَدَّلَ بهنَّ من أزواجٍ ولو أعْجَبَكَ
حُسْنُهنَّ إلا ما مَلَكَتْ يمينُكَ وكان
اللهُ على كلِّ شيء رقيباً » .

لما اختَرْنَهُ أثبت اللهُ لهن حرْمة ، فقال : « لا يحل لك النساء من بعد » فكما اختَرْنَكَ فلا تَخْتَرْ عليهن امرأةً أخرى تطييباً لقلوبهن ، ونوعاً للمعادلة بينه وبينهن ، وهذا يدل على كَرَمِه — والحِفاظُ كَرَمٌ ودَيْنٌ[1] .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تَدْخُلوا بيوتَ
النبيِّ إلاَّ أن يُؤْذَنَ لكم إلى طعامٍ
غيرَ ناظرين إناهُ ولكنْ إذا دُعِيتُمْ
فادخلوا ... » الآية .

أمَرَهم بحفظ الأدب فى الاستئذان ، ومراعاة الوقت ، ووجوب الاحترام ؛ فإذا أُذِنَ لكم فادخلوا على وجه الأدب ، وحِفْظِ أحكام تلك الحضرة ، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا ، ولا تتغافلوا عنكم ، ولا يَمْتَنِعَنَّكُم حُسْنُ خُلُقِه من حِفْظِ الأدب ، ولا يحملنَّكم فرطُ احتشامه على إبرامه[2] .

« فإذا طَعِمْتُم فانتشروا ولا مستأنسين لحديثٍ إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم » : حُسْنُ خُلُقِه — صلى الله عليه وسلم — جرَّأهم إلى المباسطة معه ، حتى أنزل اللهُ هذه الآية .

« وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهرُ لقلوبكم وقلوبهن » : نقلَهم عن مألوفِ العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة ، وبَيَّنَ أن البَشَرَ بَشَرٌ — وإن كانوا من الصحابة ، فقال :

« ذلكم أطْهَرُ لقلوبكم وقلوبهنَّ »

---

(١) ضبطناها هكذا (دين) بفتح الدال وتسكين الياء فبها يستقيم المعنى ويقوى السياق .

(٢) أى إضجاره وإملاله .

فلا ينبغي لأحدٍ أن يأمن نفسه — ولهذا يُشَدَّدُ الأمرُ في الشريعة بألا يخلوَ رجلٌ بامرأة ليس بينهما مَحْرَمَة .

« وما كان لكم أن تُؤْذُوا رسولَ اللهِ ولا أن تنكحوا أزواجَه مِن بَعْدِه أبداً إنّ ذلكم كان عند اللهِ عظيماً[1] » .

وهذا من خصائصه — صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا ، فيهتم بالاتصال مَنْ له مَيْلٌ إليهنّ بغيرهن بعد وفاته — وإنْ كان التحرُّزُ عنه — وعن أمثال هذا مِنْ تَرْكِ الحظوظ — أتمّ وأعلى .

قوله جل ذكره : « إن تُبْدُوا شيئاً أو تُخْفُوه فإن اللهَ كان بكلّ شيء عليماً » .

حِفْظُ القلبِ مع الله ، ومراعاةُ الأمر — بينه وبين الله — على الصِّحَّةِ في دوام الأوقات لا يَقْوى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور .

قوله جل ذكره : « لا جُنَاحَ عليهنّ في آبائهنّ ولا أبنائهنّ ولا إخوانهنّ ولا أبناء إخوانهنّ ، ولا أبناء أخواتهنّ ولا نسائهنّ ... » الآية .

لما نزلت آيةُ الحجابِ شقّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار ، فأنزل اللهُ عزّ وجلّ هذه الآيةَ للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء ، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة .

---

(١) يستند القرطبي إلى رواية نقلها أبو نصر عبد الرحمن القشيري — ابن القشيري صاحب هذا الكتاب — عن ابن عباس الذي يقول : قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع الرسول على حراء — في نفسه — لو توفي الرسول لتزوجت عائشة ، وهي بنت عمي . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . ولكن هذا الرجل ندم على ما حدثت به نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه وكَفَّرَ بالتصدق وعتق الرقيق . (القرطبي ج١٤ ص ٢٢٨) .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصَلُّون على النبيِّ
يأيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسَلِّموا
تسليماً »

أراد الله — سبحانه — أن تكون للأمة عنده — صلى الله عليه وسلّم — يَدُ خدمةٍ كما له بالشفاعة عليهم يَدُ نعمةٍ ، فأمَرَهم بالصلاة عليه ، ثم كافأ — سبحانه عنه ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : مَنْ صَلّى عليَّ مرةً صلى اللهُ عليه عشر مرات . وفي هذا إشارة إلى أن العبدَ لا يستغني عن الزيادة من الله في وقتٍ من الأوقات ؛ إذ لا رتبةَ فوق رتبةِ الرسولِ ، وقد احتاج إلى زيادةِ صلواتِ الأمةِ عليه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُؤْذون اللهَ ورسولَه لعنَهم
اللهُ في الدنيا والآخِرة وأعدَّ لهم عذاباً
مُهِيناً * والذين يُؤْذون المؤمنين
والمؤمناتِ بغير ما اكتسبوا فقد
احتملوا بُهْتاناً وإثماً مُبيناً » .

يُؤْذون اللهَ ورسولَه بعمل المعاصي التي يستحقون بها العقوبة ، ويؤذون أولياءه . ولمّا قال : مَنْ يُطِعِ الرسولَ فقد أطاع الله ، فكذلك مَنْ آذى رسولَه وأنبياءه عليهم السلام والمؤمنين فقد آذاه ، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات رتبتهم .

ثم ذكر قوله : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات .. » وذكر عقوبتهم ، فجعل إيذاء الرسولِ مقروناً بما ذكر من إيذاء الله ، ثم ذكر إيذاء المؤمنين ، ويدلُّ ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول صلى الله عليه وسلم[1] .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ قُل لأزواجك وبناتِكَ
ونساء المؤمنين يُدْنِين عليهنَّ من

---

(١) في هذا رد ضمني على من يدعي الوصول ، ويجهر بأن لواء الأنبياء يعقد له في معاريجه ، وأن الأنبياء أدنى من الأولياء .

جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يُعرَفْنَ
فلا يُؤْذَيْنَ وكان اللهُ غفوراً رحيماً » .

هذا تنبيهٌ لمن على حِفْظِ الُحرْمة وإثبات الرُّتبَة ، وصيانةٌ لهن ، وأمرٌ لهن بالتصاونِ والتحفُّظِ . وقَرَنَ بذلك تهديده للمنافقين فى تعاطيهم ما كان يشغل قلبَ الرسول صلى الله عليه وسلّم من الإرجاف فى المدينة : —

« لئن لم يَنْتَهِ المنافقُون والذين فى قلوبهم
مَرَضٌ والمُرْجِفون فى المدينة لنُغْرِيَنَّكَ
بهم ثم لا يجاورونكَ فيها إلا قليلاً
* ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا
تقتيلاً * سُنّةَ اللهِ فى الذين خَلَوْا مِن
قَبْلُ ولن تَجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تبديلاً » .

إنهم إنْ لمْ يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سُنَّتَنا فى التدمير على مَنْ سَلَفَ من الكفار[1] .

ثم ذَكَرَ مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك ، ثم استعجالهم قيامَها من غير استعدادٍ لها ، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التى علم أنه يُعذِّبهم بها ، وما يقع عليهم من الندامة على ما فرّطوا .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذَوْا موسى فبرّأه اللهُ مِمّا قالوا ، وكان
عند اللهِ وجيهاً » .

نسبوه إلى الأُدْرَة[2] ، وأنّ به عيباً فى الخِلْقة ، ولكنه كان رجلاً حَيِيّا ، وكان إذا اغتسل لا يتجرّد (من ثوبه)[3] ، فتوهموا به ذلك . وذات يومٍ خلا ليغسلَه ، ووضع ثيابَه

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الكبائر) .
(٢) الأدرة (على وزن الغرفة) = انتفاخ الخصية ، والآدر = المصاب بذلك .
(٣) مابين قوسين من عندنا ليتضح السياق .

على حَجَرٍ فأمشى اللهُ الحجرَ بثيابه ، وموسى يعدو خَلْفَه حتى تَوَسَّطَ بنى إسرائيل ، وشاهدو خِلْقَتَه سليمةً ، فوقف الحجرُ ، وأخذ موسى ثيابه ولبسها[1] ، وهذا معنى قوله : « فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً » فى القَدْرِ والمنزلة . والوجاهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس ، فقبولُ الناسِ لا عِبْرَةَ به ولا خَطَرَ له ، لا سيما العوامُ فإنهم يَقْبَلُون بلا شىء ، ويَرُدُّون بلا شىء قال قائلهم :

إنْ كنتُ عندك يا مولاى مطرحاً
فعنـــد غيرك محمولٌ على الحدق

وقالوا : فإنْ أكُ فى شِرَارِكُمُ قليــلاً
فإنى فى خِيارِكُمُ كثيرُ

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وقولوا قولاً سديداً * يُصْلِحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً » .

القول السديد كلمةُ الإخلاص ، وهى الشهادتان عن ضميرٍ صادق .

ويقال سدادُ أقوالِكم سدادُ أعمالِكم ، ولقد هَوَّن عليكم الأمرَ فَمَنْ رضى بالقالة — وهى الشهادة بأن تَرَكَ الشِّرْكَ — وقالها بِصِدْقٍ أصلح اللهُ له أعمالَه الدنيوية من الخَلَل ، وغَفَرَ له فى الآخرة الزَّلَل ؛ أى حصلت له سعادةُ الدارين .

ويقال ذَكَرَ « أعمالكم » بالجمع[2] ، وقدَّمها على الغُفران ؛ لأنه ما لم يُصْلِح لك فى حالِكَ أعمالَكَ وإنْ لم يَكْفِكَ ما أهَمَّكَ من أشغالك . . لم تتفرغْ إلى حديث آخرتِكَ .

قوله جل ذكره : « إنَّا عَرَضْنَا الأمانةَ على السموات والأرضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها

---

(١) هذه رواية ابن عباس .. وفى رواية أخرى : اتهم بقتل أخيه هارون .

(٢) أى أن الله بفضله ينظر منك إلى القليل فيعتبره كثيراً .

وأشفَقْنَ منها وحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كان ظلوماً جَهُولاً » .

هنا إضمار أى : أهل السمٰوات والأرض والجبال .

وقيل أحياها وأعْقَلَها ، وهو كقوله : « إئْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتَيْنا طائعِين[1] » .

« فأبين أن يحملنها » : أى أبين أنْ يَخُنَّ فيها ، « وحملها الإنسان » : أى خان فيها .
وهم مراتب : فالكفار خانوا فى الأصل الأمانة — وهى المعرفة — فكفروا . ومَنْ دُونَهم خانوا بالمعاصى ، وبعضهم أَشَدُّ وبعضهم أهون ، وكلٌّ احتقب من الوِزْرِ مقدارَه .

ويقال « أبين » إباء إشفاقٍ لا إباء استكبارٍ ، واستعفين . . . فعفا عنهن ، وأعفاهن مِنْ حَمْلها .

« وحملها الإنسان » : قَبِلَها ثم ما رعوها حقَّ رعايتها .. كلٌّ بقدره .

« إنه كان ظلوماً جهولاً » بصعوبة حَمْلِ الأمانة فى الحال ، والعقوبة التى عليها فى المآل . وقومٌ قالوا عرَضَ الأمانةَ على السمٰواتِ والأرضِ وعرَضَها على الإنسان ، فهن استعفين وهؤلاء[2] لم يستعفوا ولم يراعوا .

ويقال : الأمانة القيام بالواجباتِ أصولها وفروعها .

ويقال : الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً .

ويقال : لمَّا حَمَلَ آدمُ الأمانةَ وأولاده قال تعالى : « وحملناهم فى البر البحر »[3] .. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

ويقال حمل الإنسانُ باللهِ لا بنَفْسِهِ . ويقال ظَلَمَ نَفْسَه حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه السمواتُ والأرضون . والظُلْمُ وَضْعُ الشىء فى غير موضعه .

ويقال كاشَفَ السمٰواتِ والأرضَ بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا ، وكاشَفَ آدمَ

---

(١) آية ١١ سورة فصلت .
(٢) الإنسان هنا اسم جنس .
(٣) آية ٧٠ سورة الإسراء .

وذُرِّيتَه بوصف اللطفِ فقَبِلوا وحلوا ، وفى حال بقاء العبد بالله يحمل السموات والأرضَ بشعرة من جَفْنِه . ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجثث والمبانى فأشفقوا من حَمْل الأمانة . والحِمْلُ إنما تحمله القلوب . وآدم كان صاحبَ معنىً فَحَمل ، وأنشدوا :

حملت جبال الحكم فوقى وإننى لأعجزُ عن حمل القميص وأضعفُ

ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخلْقِ عَلّقَ آدمُ بها هِمَّتَه ، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها ، فلمّا أبَوْا وأشفقوا حَمَلَها الإنسانَ طوعاً لا كرهاً .

قوله جل ذكره : « لِيُعَذِّبَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ والمشركين والمُشْرِكات ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمناتِ وكان اللهُ غفوراً رحيمًا » .

اللام فى « ليعذب » للصيرورة والعاقبة ؛ أى صارت عاقبةُ هذا الأمرِ عذابَ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز (تمَّت السورة)[1] قد يقال : المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات والعاصون من المؤمنين والمؤمنات وَرَدَ ذكرهم . . فأين العابدون وذكرهم ؟

ولكنهم فى جملة مَنْ مضى ذِكْرُهم ، وليسوا فى المشركين ولا فى المنافقين ، فلا محالة فى جملة العاصين الذين تاب عليهم .

فيأيها العاصى ، كنت تحذر أنْ يُخْرِجَك العابدون من جملتهم ، فاشهد الجبّارَ — فى هذا الخطاب — كيف أدرجك فى جملتهم[2] ؟ !

---

(١) هكذا فى الأصل ، وهذه أول مرة يستدرك بها المصنف شيئاً عقب خاتمة سورة .

(٢) هذا الاستدراك لافت للنظر من حيث يدل على رحابة صدر الصوفية ، وشدة حرصهم على فتح أبواب الأمل أمام العصاة الراغبين فى التوبة ، ولاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً .

سُورَةُ سَبَأ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ سلاَّبةٌ غلاَّبة ، نهَّابةٌ وهابةٌ ؛ تسلب القلوب .. ولكن لا كل قلب ، وتغلب الألبابَ ولكن ليس كل لب ، وتنهب الأرواح ولكن مِنَ الأحباب ، وتَهَبُ الارتياح . . ولكن لقوم مخصوصين مِنَ الطلاَّب .

قوله جل ذكره : « الحمدُ لله الذى له مافى السموات
وَمافى الأرضِ وله الحمدُ فى الآخرة وهو
الحكيمُ الخبيرُ » .

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه ، وتَمَدُّحُه لنفسه إخبارٌ عن جلالِه ، واستحقاقه لنعوت عزِّه وجماله ، فهو فى الأزل حامدٌ لنفســه محمودٌ ، وواحدٌ موجود ، فى الآزال معبود ، وبالطلبات مقصود .

« الذى له مافى السموات ومافى الأرض » : للمُلْكُ لا يكون بالشركة ؛ فلا مَلِكَ إلا الله . وإنْ أجرى هذا الاسمَ على مخلوق فالزنجىُّ لا يتغير لونُه وإنْ سُمِّىَ كافوراً !

« وله الحمد فى الآخرة » مِنَ الذين أعتقهم ، وفى النعمة أغرقهم .

« وهو الحكيم » بتخليد قومٍ فى الجنة ، وتأبيد قومٍ فى النار .

قوله جل ذكره : « يعلم ما يلِجُ فى الأرض وما يخرج
منها وما ينزِلُ من السماء وما يَعْرُجُ
فيها وهو الرحيم الغفور » .

« يعلم ما يلج فى الأرض » من الحَبِّ تحت الأرض ، وللماء يرسب فيها ،

والأشياء التى تُلقَى عليها ، والناس يُقْـبَرُون فى الأرض .

« وما يخرج منها » من النبات والأزهار ، والموتى يُبعثون .

« وما ينزل من السماء » من القَطْرِ والمَلَكِ ، والبركة والرزق ، والحُكْمِ

« وما يعرج فيها » من الصحف ، وحوائج الناس : وهِمَمِ الأولياء .

« وهو الرحيم » بعباده ، « الغفور » لجميع المذنبين من المسلمين .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعةُ
قُلْ بلى وربى لَتَـأْتِيَنَّـكُم عالمِ الغيبِ
لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ فى السموات
ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك
وَلا أكبرُ إلا فى كتابٍ مبين » .

كرّر فى القرآن تكذيبهم بالساعة ، واستبعادهم لذلك ، والردّ عليهم . وأخبر عن سابق عِلمه بهم ، وأنه لا يخرج شىء من معلوماته عن علمه ، فأثبت علمه بكل شىء وشموله لكل شىء . . لأنه لو لم يكن له علم لكان نقصاً ، ولأنه لو خرَجَ معلومٌ واحدٌ عن علمه لكان بقدرته نقصٌ ، والنقصُ — بأى وصفٍ كان — لا يجوز فى صفته بحالٍ .

قوله جل ذكره : « ليجزىَ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ
أولئك لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم »
الآيات . .

المحسنون منهم يجازيهم بالخيرات المتصلة ، والكافرون منهم يكافئهم على كفرهم بالعقوبات غيرَ منفصلة .

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذى أتيْتَ به حَقّاً وصِدْقا . والذين كفروا قال بعضهم لبعض : إنهم يرون أن هذا الذى تقول به من النشر والحساب والبعث كذبٌ ، أو أنّ بك جِنّةً ، ثم أقام عليهم حُجة التجويز بما أجرى به سُنّته فى الخلق والإبداع . . فما زادهم ذلك إلا جحوداً ، وما قابلوه إلا عتوداً .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا داودَ مِنَّا فضلا يا جبالُ أَوِّبى معه والطيرَ وأَلَنَّا له الحديد *
أن اعملْ سابغاتٍ وقدِّرْ فى السَّرْدِ
واعملوا صالحًا إنى بما تعملون بصير »

« داود » اسم أعجمى ، وقيل سمى داود لأنه داوى (جَرْحه ، ورَدَ فى القصة أنه قال فى إحدى مناجاته : يا رب ، إنى أرى فى التوراة ما أعطيتَ لأوليائك وأنبيائك من الرتب فأعطنيها)[1] فقال : إنى ابتليتهم فصبروا ، فقال : إنى أصبر على بلائك ، فأعطنى ما أعطيتَهم ، فأبلاه ، فوقف ، فأعطاه ما أعطاهم .

« ولقد آتينا داود منا فضلا » : تكلموا فى هذا الفضل ؛ فنهم مَنْ أراد ما ذكره بعده وهو قوله للطير : « أوبى معه » ، وكذلك الجبال ، وكان فى ذلك تنفيس فى وقت حُزْنه وبكائه . وقيل ذلك الفضلُ رجوعُه إلى الله — فى حال ماوقع له[2] — بالتنصل والاعتذار . ويقال هو شهودُه موضعَ ضرورته وأنه لا يُصْلِحُ أمرَه غيرُه . ويقال طيب صوته عند قراءة الزبور حتى كان ليرْغبُ فى متابعته مَنْ يسمع إليه[3] . ويقال حلاوةُ صوته فى المناجاة . ويقال حُسْنُ خُلقه مع أمته الذين اتبعوه ، ويقال توفيقه للحكم بين أمته بالعدل ...

قوله : « يا جبال أوبى معه والطيرَ » أمرَ الجبالَ والطيرَ بمجاوبته حتى خرَجَ إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسه .

ويقال أوحى الله له : يا داود ، كانت تلك الزَّلَّةُ مباركةً عليك ! فقال . يارب ، وكيف ؟ فقال : كنتَ تجىء قبلها (كما يجىء المطيعون والآن)[4] تجىء كما يجىء أهل الذنوب !

---

(١) مابين القوسين ساقط من ص موجود فى م .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى قصة داود مع زوجة أوريا ، وكيف تاب وأناب .

(٣) يقول القرطبى : كان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكانت الجبال تتجاوب صداه ، والماء الجارى ينقطع جريه . ويضيف القرطبى : « أيد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فترة ، فإذا دخلت الفترة اهتاج أى ثار وتحرك ، وقوى بمساعدة الجبال والطير .

(٤) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .

يا داود ، إن أنينَ المذنبين أحبُّ إلى من صُراخ العابدين !

ويقال ، كان داود يقول . اللهمّ لا تَغفرْ للخاطئين ، غيرةً منه وصلابةً فى الدين ...
فلما وقع له ما وقع كان يقول . اللهم اغفر للمذنبين ، فعسى أن تغفرَ لداود فيما بينهم .

ويقال لمـّـا تاب الله عليه ، واجتمع الإنسُ والجنُّ والطير بمجلسه ، وَرفع صوتَه ، وأداره فى حَنَـكِهِ على حسب ما كان من عادته تفرّقت الطيور وَقالوا : الصوتُ صوتُ داود والحال ليست تلك ! فأوحَى اللهُ إليه هذه وَحْشةُ الزّلة ، وتلك كانت أُنسَ الطاعة .. فكان داودُ يبكى وينوح ويصيح والطير والجبالُ معه .

وَيقال ليس كلُّ مَنْ صاح وراءه معنى[1] ، فالمعنى كان مع داود لا مع الجبـال والطـير ...

« أن أعملْ سابغاتٍ وقدِّرْ فى السَّرْد واعملوا صالحـا » . ألان له الحديدَ ، وجعل ذلك معجزةً له ، وجعل فيه توسعةَ رزقه ، ليجدَ فى ذلك مكسبا ، ليَقْطَعَ طَمَعَه عن أمته فى ارتفاقه بهم ليباركَ لهم فى اتّباعه[2] .

قوله جل ذكره : « ولسليمانَ الريحَ غُدوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ »

أى آتينا سليمانَ الريح أى سَخّرناها له ، فكانت تحمل بساطهُ بالغدو مسيرة شهر ؛ وبالرواح مسيرةَ شهر .

وفى القصة أنه لاحظ يوما مُلْكَهُ ، فال الريحُ بساطه ، فقال سليمان للريح : استوِ ، فقالت الريح : استوِ أنت ، فـما دمتَ مستويا بقلبك كنتُ مستوياً بك ، فلما مِلْتَ مِلْتُ .

« وأسلنا له عينَ القِطْرِ ومنَ الجنّ من يعملُ بين يديه بإذن ربه ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذاب السعير »

---

(١) هذه غمزة بمن يتظاهرون بالتواجد فى مجالس السماع الصوفية ، إذ ينبغى الصدق ليتحول التواجد إلى وجد ثم إلى وجود .

(٢) هذا تنبيه لمن يتصدر منزلة الإمامة : ألا يرتفق ، وألا يطلب عوضاً ، وألا يطمع فى الذين يتبعونه .

أى وآتيناه ذلك ، فكانت الشياطينُ مُسَخَّرةً له ، يعملون ما يشاء من الأشياء التى ذكرها سبحانه .

قوله جل ذكره : « اعملوا آلَ داود شُكْرًا وقليلٌ من عبادِيَ الشَّكور »[1] .

أى اعملوا يا آل داود للشكر ، فقوله : « شكراً » منصوب لأنه مفعول له .

ويقال شكراً ؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون »[2] .

وقد مضى طَرَفٌ من القول فى الشكر . والشكور كثير الشكر ، والأصل فى الشكر الزيادة، والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السِّمَنِ فوق ما تُعْطَى من العَلَفِ ؛ فالشكور الذى يشكر على النعمة فوق ما يشكر أمثالُه وأضرابُه . وإذا كان الناسُ يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره فى البلاء .

والشاكر يشكر على البَذْلِ ، والشكور على المنع[3] ... فكيف بالبذل ؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ومالِه ، والشاكر ببعض هذه .

ويقال فى«وقليل من عبادى الشكور» قليلٌ مَنْ يأخذ النعمة منى ولا يحملها على الأسباب؛ فلا يشكر الوسائطَ ويشكرنى . والأكثرون يأخذون النعمة من الله ، ويَجِدُون الخيرَ مِنْ قِبَلِه ثم يتقلدون المِنَّةَ من غير الله ، ويشكرون غيرَ الله .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قَضَيْنا عليه الموتَ ما دَلَّهُم على مَوْتِهِ إلاَّ دابةُ الأرضِ تأكل مِنسَأَتَه فلمَّا خرَّ تَبَيَّنَتِ الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لَبِثُوا فى العذاب المُهين » .

---

(1) يقول السهروردى فى عوارفه : وفى أخبار داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك ؟ فأوحى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى. (عوارف المعارف ص ٣٤٤)

(2) آية ٤ سورة المؤمنين .

(3) وردت العبارة فى الرسالة هكذا : الشاكر يشكر عند البذل والشكور عند المطل (الرسالة ص ٨٩) .

كان سليمانُ — عليه السلام — يتكىء على عصاه وقتما قُبِضَ ، وبقى على ذلك الوصف مدةً ، والشياطين كانو مُسَخَّرين يعملون ما أمرهم به ، ويتصرفون على الوجه الذى رَسَمَ لهم ، وينتهون عمّا زَجَرَهم ، فقد كانوا يتوهمُّون أنه حىٌّ . ثم إنَّ الأَرَضَةَ[1] أكلت عصاه فَخَرَّ سليمانُ فَعَلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات ، فرجعوا إلى أعمالهم الخبيثة ، وانفكَّ عنهم ما كانوا عليه من التسخير ؛ وهكذا المَلِكُ الذى يقوم مُلكُهُ بغيره ، ويكون استمساكه بعصا . فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه ، ومَنْ قام بغيره زال بزواله .

قوله جل ذكره : « لقد كان لسبأٍ فى مَسْكَنِهِم آيةٌ
جَنَّتانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من
رِزْقِ ربِّكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ
وربٌّ غفورٌ » .

كانوا فى رَغَدٍ من العَيْش وسلامة الحال ورفاهته ، فأُمِروا بالصبر على العافية والشكر على النعمة ، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ ، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وضَيَّعوا الشكر ، فبَدَّلوا وبُدِّلَ بهم الحال ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا يا حسرةً لِمَن ابتغى عِوَضاً لِسَلْمَى فلم يَجِدِ

قوله جل ذكره : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ
وبَدَّلناهم بجنتيهم جنتين ذَوَاتَى أُكُلٍ
خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىءٍ من سِدْرٍ قليل » .

كذلك من الناس من يكون فى رَغَدٍ من الحال ، واتصالٍ من التوفيق ، وطَرَبٍ من القلب ، ومساعدةٍ من الوقت ، فيرتكبُ زَلّةً أو يسىء أدباً أو يتبع شهوةً ، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به ، فيتغير عليه الحالُ ؛ فلا وقتَ ولا حالَ ، ولا طربَ ولا وصالَ ؛ يُظْلِمُ عليه النهارُ وقد كانت لياليه مضيئةً ، كما قلنا[2] :

---

(١) الأرضه = دودة تأكل الخشب .

(٢) هكذا فى ولكنها فى ص : كما قالوا .

ما زلت أختال فى زمانٍ وحالٍ حتى أمنتُ الزمانَ مَكْرَه

حال علىّ الصــدودُ حتى لم تَبْقَ ممــا شَهِدْتَ ذرّة

قوله جل ذكره : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى
إلا الكفور»

* وجعلنا بينهم وبين القُرى التى بارَكْنا
فيها قرىً ظاهرة وقَدّرْنا فيها السيْرَ
سيروا فيها ليالىَ وأياماً آمنين » .

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سُقُوا إلاّ بمّا تَبِطُوا[1] ، وما وقعوا إلاّ فى الوَهْدَةِ التى حَفَرُوا ، وما قُتِلُوا إلا بالسيف الذى صَنَعُوا !

« وجعلنا بينهم وبين القرى .. » : ما كان من شأنهم إلا التمادى فى عصيانهم ، والإصرار على غيهم وطغيانهم .

« فجعلناهم أحاديثَ ومزّقْناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ
إنَّ فى ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شكور »

فرّقناهم تفريقاً حتى اتخذهم الناسُ مثلا مضروبا ؛ يقولون . ذهبوا أيدى سبأٍ ، وتفرّقوا أيادى سبأ . وفى قصّتهم آياتٌ لكل صبَّار على العاقبة ، شكور على النعمة .

قوله جل ذكره : « ولقد صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّه
فاتّبعوه إلا فريقاً من المؤمنين *
وما كان له عليهم من سلطانٍ إلا
لِنَعْلَمَ مَن يؤْمِنُ بالآخرةِ ممن
هو منها فى شكٍ وربُّكَ على كُلِّ
شىء حفيظ » .

صدّق عليهم إبليس ظنّه — وإنْ كان لا يملك لنفسه أمراً ، فإبليس مُسَلَّطٌ على أتباعه

(١) نبط = حمق فى عمله .

من الجنّ والإنس ، وليس به من الإضلال شيء ، ولو أمكنه أن يَضُرّ غيرَه لأمكنه أن يمسكَ على الهداية نَفْسَه ، قال تعالى : إن عبادى ليس لك عليهم سلطان[1] » .

« وربك على كل شيء حفيظ » : يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ثم أخبر — سبحانه وتعالى — أنه بمُلْكِه متفرّدٌ ، وفى الألوهية متوحِّدٌ ، وعن الأضداد والأنداد متعزِّزٌ ، وأنهم لا يملكون مثقالَ ذَرَّةٍ ، ولا مقياسَ حَبَّةٍ ، وليس منهم نصير ، ولا شريك ولا ظهير ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن الملائكةَ فى السماء بوصف الهيبة فَزِعُون ، وفى الموقف الذى أتيَهم الحقُّ واقفون ، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون .

ثم قال جل ذكره : « قُلْ مَن يرزقُكم من السمواتِ والأرضِ قُلِ اللهُ وإنَّا أو إياكم لعَلَى هُدًى أو فى ضلالٍ مبين » .

لم يقُلْ أحدٌ — مع شِرْكِه — إنه يُحِيلُ فى الرزق على أحدٍ غيره ، فكما لا شريكَ له فى الرزق ولا شريكَ له فى الخَلْق فلا شريكَ له فى استحقاق العبادة والتعظيم .

قوله جل ذكره : « قُل لا تُسألون عمَّا أجرَمْنَا ولا نُسألُ عمَّا تعملون * قُلْ يجمع بيننا رَبُّنا ثم يفتح بيننا بالحقِّ وهو الفتاحُ العليمُ » .

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم .. ويوم الجمع يحاسِب اللهُ كُلاًّ على أعماله ، ويُطَالِبُ كُلاًّ بشأنه ، لا يؤاخِذُ أحداً بعمل غيره ، وكلٌّ يُعْطَى كتابَه ، ويَطْلُبُ اللهُ مِنْ كلِّ واحدٍ حسابَه .

وقد أجرى الله سُنَّتَه بأن يجمع بين عباده ، ثم يعاملهم فى حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم فى حال افتراقهم . فللاجتماع أثرٌ كبيرٌ فى الشريعة ، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص . وقد عاتب اللهُ — سبحانه — الذين يتفرقون عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ومَدَحَ مَنْ لا يتفرّق إلا عن استئذان .

---

(١) آية ٦٥ سورة الإسراء .

والشيوخُ ينتظرون في الاجتماع زوائد ، ويستروحون إلى هذه الآية :
« قل يجمع .... »

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرُونِي الذين أَلحقتم به شُركاء
كلاَّ بل هو اللهُ العزيزُ الحكيم » .

كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيكَ لا شريك لكَ ، هو لك ، تملكه وماملك[1] ، لأنهما كهم في ضلالتهم . وبعد تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر ، ولا تسمع ولا تُبصر ، وقعت لهم شبهةُ استحقاقها العبادة ، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يُقلدون أسلافهم ... وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين .

قوله جل ذكره : « وما أرسلناكَ إلا كافةً للناسِ
بشيراً ونذيراً ولكنَّ أكثرَ الناس
لا يعلمون » .

أرسلناكَ مُؤيَّداً بالمعجزات ، مُشرَّفاً بجميع الصفات ، سيداً في الأرضين والسموات ، ظاهراً لأهل الإيمان ، مستوراً عن بصائر أهل الكفران — وإن كنتَ ظاهراً لهم من حيث العيان ، قال تعالى : « وتراهمْ ينظرون إليك وهمْ لا يبصرون »[2]

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم
صادقين * قُل لكم ميعادُ يومٍ ،
لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون»

لكثرة مايقولون هذا كرَّره اللهُ في كتابه خبراً عنهم ، والجواب إن لكم ميعاد يومٍ ، وفي هذا الميعاد لا تستأخرون ساعةً ولا تستقدمون .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لن نؤمنَ بهذا

---

(1) وردت التلبية مضطربة الكتابة وقد صححناها طبقاً لما جاء في المحبر لابن حبيب .

(2) آية ١٩٨ سورة الأعراف .

القرآن ولا بالذى بين يدَيه ولو ترىٰ
إذ الظالمون موقوفون عند ربهم
يرجع بعضُهم إلى بعض القولَ يقول
الذين أستضعفوا للذين استكبروا
لولا أنتم لكنّا مؤمنين » .

لو رأيتهم يومئذ لرأيتَ منظراً فظيعاً ؛ يرجعُ بعضهم إلى بعض القولَ ، ويُحيل بعضهم على بعض الجُرمَ ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ، ويُنكرُ الذين استكبروا ويقولون : بل أنتم اتبعتمونا . وهكذا أصحابُ الزلاتِ الأخلاء فى الفساد ، قال تعالى : « بعضهم لبعض عدو »[1] .

وكذلك الجوارحُ والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض ؛ فاليدُ تقول للجملة أخذت ، والعين تقول أبصرت ، والاختلاف فى الجلة عقوبة ، ومَنْ عمل بالمعاصى أخرج الله عليه كل من هو أطوع له ، ولكنهم لايعلمون ذلك ، ولو علموا لاعتبروا ، ولو اعتبروا لتابوا ووفّقُوا .. ولكن ليقضى اللهُ أمراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : « وما أرسلنا فى قريةٍ من نذيرٍ إلا قال
مُترفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون »

أى قابلوا رُسُلَنا بالتكذيب ، وصَبرَ رُسُلنا . وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم ؟ فهم لنجاتهم أُرسلوا ، ولصلاحِهم دَعَوا وبلغُّوا ، ولو وافقوهُم لسعدوا . ولكنّ أقساماً سبقت ، وأحكاماً حقت ، والله غالبٌ على أمره .

« وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً
وما نحن بمعذَّبين » .

ليس هذا بكثرة الأموال وَالأولاد ، وإنما هى بصائرُ مفتوحةٌ لقوم ، وأخرى مسدودةٌ لقوم .

---

(١) آية ١٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى
تُقربكم عندنا زُلْفَى إلا مَنْ آمن وعَمل
صالحاً فأولئك لهم جزاء الضِّعفِ بما
عملوا وهُم فى الغرفات آمنون » .

لا تستحقّ الزّلفى عند الله ؛ بالمال والأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية ، بل بالعناية السابقة ، والهداية اللاحقة ، والرعاية الصادقة ، فأولئكَ لهم جزاء الضعف » : يضاعف على ما كان لِمَنْ تقدمهم من الأمم « وهُم فى الغرُفات آمنون » مِنْ تكدّر الصفوة والإخراج من الجنة .

قوله جل ذكره : « والذين يسعْون فى آياتنا معاجزين
أولئكَ فى العذاب مُحضَرون » .

هم الذين لا يحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقّ الله فى السرّ ، فهم فى عذاب الاعتراض على أولياء الله ، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك فى ارتكاب محارم الله ، ثم فى عذاب السقوط من عين الله .

قوله جل ذكره : « « قُلْ إنّ ربى يَبسطُ الرزق لِمَن
يشاءُ مِنْ عبادهِ ويقدِرُ له وما أنفقتم
من شىء فهو يُخلفه وهو خير الرازقين » .

منَ الخَلَف فى الدنيا الرضا بالعَدَم والفقد ، وهو أتمّ من السرور بالموجود[1] ؛ ومن ذلك الأنسُ بالله فى الخلوة ؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد .

قوله جل ذكره : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكةِ
أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » .

قومٌ كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم ؛ فيتبرأون منهم وينزّهون الله ويسبحونه ،

---

(١) استعمل القشيرى هنا كلمة (الموجود) بالميم وكان المفروض حسب السياق أن يستعمل (الوجود) ، وبهذا يتأيد رأينا فى هامش سابق أن من الخير قصر اصطلاح (الوجود) على الوجود الحق .

فيفتضح هؤلاء — والافتضاحُ عند السؤال من شديد العقوبة ، وفى بعض الأخبار :

أنّ غداً منْ يسألهم الحقّ فيقعْ عليهم من الخجل مايحملهم يقولون : عذّبنا ربنا بما شئت من ألوان العقوبة ولا تعذبنا بهذا السؤال !

قوله جل ذكره : « فاليوم لا يملكُ بعضكم لبعض
نفعاً ولا ضَرًّا ونقول للذين ظلموا
ذوقوا عذابَ النار التى كنتم بها
تكذبون » .

الإشارة فى هذا أنّ مَن علقَ قلبه بالأغيار ؛ وظنّ صلاحَ حاله بالاحتيال[1] ؛ والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزع اللهُ الرحمةَ من قلوبهم ؛ ويتركهم ، ويشوشُ أحوالهم ، فلالهم من الأمثال والأشكال معونة . ولا لهم منْ عقولهم فى أمورهم استبصار ، ولا إلى الله رجوع ، وإنْ رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم ، ويقول لهم : ذوقوا وبالَ ما به استوجبتم هذه العقوبة .

قوله جل ذكره : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا
ما هذا إلا رجلٌ يريد أن يصدكم عما
كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك
مُفترًى وقال الذين كفروا للحقّ لمّا
جاءهم إنْ هذا إلا سحر مُبين » .

الحكماء ، والأولياء — الذين هم الأئمة فى هذه الطريقة — إذا دَلوا الناسَ عَلَى الله . قال بعض إخوان السوء — مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا[2] لمريدٍ : ما هذا ؟ منْ الذى يطيق كل هذا ؟ ربمــا لا تُتمُّ الطريق !

لا بُد من الدنيا مادُمت تعيش ! ... وأمثال ذلك ، حتى يميل هذا المسكينُ عند قبول النصح ، وربما كان له هذا من خواطره الدنية ... فيهلك ويضلّ .

(١) الاحتيال هنا معناه الاعتماد على جهد الإنسان ، وتفريغ الوسع فيه دون التعويل على فضل الله ومنته ، فالواجب إسقاط التدبير والاعتماد على التقدير .

(٢) يشبههم القشيرى فى موضع آخر بمن كان يعوق المجاهدين قبيل القتال .

قوله جل ذكره : « وما آتيناهم من كُتُبٍ يَدْرُسُونها
وما أرسلنا إليهم قَبْلَكَ من نذيرٍ » .

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة ؛ يعارضون أصحابَ القلوب فيما يجرى من الأمور ، بما تشوِّش إليهم نفوسُهم ، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقْتَضَى تفرقة قلوبهم — على قياس ما يقع لهم — مِنْ غيرِ استنادٍ إلى إلهامٍ ، أو اعتمادٍ على تقديرٍ من الله وإفهام .

وأهلُ الحقائق — الذين هم لسانُ الوقت — إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً ، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم ؛ لأن الذى يتكلم عن الفراسة أو عن الإلهام ، أو كان مُسْتَنْطَقاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم[1] . وأصحابُ الغفلة ليس لهم إيمان بذلك ، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيهلكون،فسبيلُ هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا ، ثم الأيام[2] تجيب أولئك .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّما أَعِظُكم بواحدةٍ أن تقوموا
لله مثنى وفُرادَى ثم تتفكّروا مابصاحبِكم
مِن جِنَّةٍ إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بين يَدَىْ
عذابٍ شديد » .

يقول : إذا سوَّلَتْ لكم أنفسُكم تكذيبَ الرسولِ فأنعموا النظرَ . . هل تَرَوْنَ فيه آثار مارميتوه به ؟ هذا محمد صلى الله عليه وسلم . . قُلْتُم إنه ساحر — فأين آثار السحر

---

(١) انظر ص٢٢٨ من المجلد الثانى من هذا الكتاب .
وقد يظن أن هذا محل طعن فيما يصدر عن العارف من أقوال وأحوال ، والواقع أن مرد عجز العارف عن إقامة الحجة إلى أن ما يتنزل عليه من كشوفات ليس من تدبيره أو احتياله ، ولا نتيجة مهارته أو ذكائه .. وإلا كان مطلوباً منه أن يسوق حجة أو يقدم برهاناً .. إنما هى أنوار إلهية تنبجس فى عالمه الباطن .. وليست تجربة الإمام الغزالى إلا نموذجاً للعارف الذى نهل من العلوم العقلية قدراً عظيماً ، ولكن ذلك لم يهب له سورة غليله ، ولم يقده إلى الراحة والسكينة .. حتى فيض الله له فى علوم القوم ما شفاه وكفاه (انظر الصفحات الأولى من : «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالى) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الأنام) ونحن نرجح (الأيام) على معنى أن الدهر كفيل بتوضيح الحقيقة — وإن خفيت زمناً .

على أحواله وأفعاله وأقواله ؟ قلتم إنه شاعر — فمن أى قسم من أقسام الشعر كلامه ؟ قلتم إنه مجنون — فأىّ جنونٍ ظهر منه ؟

وإذ قد عجزتم عن ذلك . . . فهلّا عرفتم أنه صادق ؟ !

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّ ربى يقذف بالحقّ علاَّمُ الغيوب » .

يقذف بالحقّ على باطل أهل الغفلة فتزول حِيَلُهم ، ويظهر عَجْزُهم . ويقذف بالحقّ على أحوال أهل الخِلاف فيضمحل اجتراؤهم ، ويحيق بهم شؤمُ معاصيهم .

ويقذف بالحقّ — إذا حضر أصحاب المعانى — على ظُلُماتِ أصحاب الدعاوى فيخمد ثائرتَهم ، ويفضحهم فى الحال ، ويفضح عوارُهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ جاء الحقُّ وما يُبْدِئُ الباطِلُ وما يُعيد » .

الباطلُ على ممرِّ الأيام لا يزيد إلا زهوقاً ، والحقُّ على ممرِّ الأيام لا يزداد إلا قوةً وظهوراً .

قوله جل ذكره : « قُلْ إن ضَلَلْتُ فإنّما أَضِلُّ على نفسى وإنِ اهتديْتُ فَبِما يُوحِى إلىَّ ربِّى إنّه سميعٌ قريبٌ » .

إنْ كنتُ مهتدياً فبربِّى لا بجهدى . وإنْ كنت عندكم من أهل الضلال فوبالُ ضلالتى عائدٌ علىَّ ، ولن يضرَّكم ذلك . فانظروا أنتم إلى أنفسكم . . أين وقعتم ؟ وأى ضرر يعود عليكم لو أطعتمونى ؟ لا فى الحال تخسرون ، ولا فى أنفسكم تتعبون ، ولا فى جاهكم تنقصون .

وما أخبركم به عن نَقْصِ أصنامكم فبالضرورة[1] أنتم تعلمون ! فمالكم لا تُبْصِرون ؟ ولا لأنفسكم تنظرون ؟

---

(١) أى لا جدال فى أنكم تعلمونها لاتنفع ولا تضر ولا تستطيع أن تدفع عنها مكروهاً ، فهى لاتليق بتأليه ولا تقديس .

قوله جل ذكره: «ولو ترى إذ فزعوا فلا فَوْتَ وأُخِذُوا
من مكانٍ قريب».

أى لو رأيتَ ذلك لرأيتَ منظراً فظيعاً، وأمراً عظيماً؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال.

«وقالوا آمَنَّا به وأَنَّى لهم التناوشُ من
مكانٍ بعيد».

إذا تابوا — وقد أُغلِقَتْ الأبواب، وندِمُوا — وقد تقطَّعت الأسباب.. فليس إلا الحسرات والندم، ولات حين ندامة!

كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَتِهِ يُتَجَاوَزُ عنه مرةً، ويُعْفَى عنه كَرَّةً، فإذا استمكنت منه القسوةُ وتَجَاوَزَ سوء الأدبِ حَدَّ الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة[1].. يحصل له من الحقِّ رَدٌّ، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء، ولا يُرْحَمُ له بكاء، كما قيل:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا   فليس لأيام الصفاء رجوعُ

قوله جل ذكره: «وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون كما
فُعِلَ بأشياعِهِم مِنْ قَبْلُ إنهم كانوا فى
شكٍّ مُرِيب».

التوبة يشتهونها فى آخر الأمر وقد فات الوقت، والخصمُ يريد إرضاءه فيستحيى أن يذكر فى ذلك الوقت، وينسدُّ لسانه ويعتقل؛ فلا يمكنه أن يُفْصِحَ بما فى قلبه، ويودُّ أَنْ لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعْدٌ بعيد، ويتمنى أن يُطِيعَ فلا تساعده القوةُ، ويتمنى أن يكون له — قبل خروجه من الدنيا — نَفَسٌ.. ثم لا يتفق.

(1) فى رأى القشيرى: الثلاثة — آخر حد القلة، وأول حد الكثرة —.

سُورَةُ فَاطِر

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة سماعها يوجب رَوْحاً لمن كان يشاهد الإتقان، ويُوجِبُ نَوْحاً لمن كان بوصف البيان؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان، والنوحُ من شهود السلطان، وكلٌّ مُصيب، ولكلٍّ من الحق نصيب.

قوله جل ذكره: « الحمدُ لله فاطِرِ السموات والأرضِ جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً أولى أجنحة... »

استحق المدحَ والثناء على انفراده[1] بالقدرة على خلق السموات والأرض.

« جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورُباع يزيد فى الخلق ما يشاء »: تعرَّفَ إلى العباد بأفعاله، وندبهم إلى الاعتبار بها، فمنها ما نعلم منه ذلك معاينةً كالسموات والأرض وغيرها، ومنها ما سبيلُ الإيمانِ به الخبرُ والنقلُ — لا بدليل العقل — والملائكةُ مِنْ ذلك؛ فلا تتحقق كيفيّةَ صُوَرِهم وأجنحتهم، وكيف يطيرون بأجنحتهم الثلاثة أو الأربعة، ولكن على الجملة نعلم كمالَ قدرته، وصِدْقَ كلمته.

قوله: « يزيد فى الخَلْقِ ما يشاء »: قيل الخُلُقُ الحَسَنُ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ، وقيل الصوتُ الحَسَنُ وقيل مَلاحَةُ العينين، وقيل الكياسة فى الخِبْرَة[2]، وقيل الفصاحة فى المنطق، وقيل الفهم عن الله، ويقال السخاء والجود، ويقال الرضا بالتقدير، ويقال علو الهمة، ويقال التواضع، ويقال العفة عند الفقر، ويقال الظرف فى الشمائل، ويقال أن تكون مُحَبَّباً إلى القلوب، ويقال خفة الروح، ويقال سلامة الصدر من الشرور، ويقال المعرفة بالله بلا تأمل

---

(١) هكذا فى م. وهى فى ص (إرشاده).

(٢) اسم من الاختيار.

برهان[1] ، ويقال الشوق إلى الله ، ويقال التعطُّف على الخَلْق بجملتهم ، ويقال تحرُّر القلوب من رِقِّ الحدثان بجملته ، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلةً فى الدارين[2] .

قوله جل ذكره : « مايفتح اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ له مِنْ بَعْدِهِ وهو العزيزُ الحكيم » .

المُوَسَّعُ عليه رِزْقُه لا يُضَيِّقُ عليه غيرُ الله ، والمحرومُ لا يُوَسِّعُ عليه غيرُ الله .

ويقال : مايلج فى قلوب العارفين من أنوار التحقيق لاسحابَ يستره ، ولاضياء يقهره .

ويقال : ما يلزم قلوبَ أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ له ، وما يُغْلَق على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فاتحَ له غيره — سبحانه .

ويقال الذى يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُمْسِكَ له ، والذى يمنعه عن أعدائه — بما يُلْقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها — فلا مُيَسِّرَ له من دونه .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم هل من خالقٍ غيرُ اللهِ يرزقكم من السماء والأرضِ لا إلهَ إلا هو فأنَّى تُؤْفَكون » .

مَنْ ذَكَرَ النِّعمةَ فصاحبُ عبادةٍ، ونائلُ زيادة ، ومَنْ ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادةٍ ، ونائلُ زيادة .. ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادة ؛ ذلك زيادته فى الدارين عطاؤه ، وهذا زيادته لقاؤه : اليوم سِرّاً بِسِرٍّ من حيث المشاهدة ، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ من حيث المعاينة .

والنعمة على قسمين[3] : ما دَفَعَ عنه من المِحَن ، وما نَفَعَ به من المِنَن ؛ فَذِكْرُه لما دَفَعَ عنه يوجِبُ دوامَ العصمة ، وذكره لما نفعه به يوجب تمام النعمة .

(١) من اختاره الله لمعرفته لايتركه يتعنّى فى الأدلة والبراهين بعد اجتيازه مرحلة البداية المصححة بالعقل ، بل يفك أسره من هذه القيود لينطلق فى رحلة العرفان بالقلب ، ثم الروح ، ثم السر ، ثم عين السر .

(٢) يرى الزمخشرى أن الآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق وميزة فيه .. وتلك أمور لا يحيط بها وصف .

(٣) مرة أخرى يعود القشيرى إلى ذكر نعم الدفع ، ونعم النفع . وواضح أن الذكر والشكر لازمان على الدوام .. هذاهو المقصد الذى يطمح إليه القشيرى .

« هل من خالقٍ غيرُ الله ... ؟ » وفائدة هذا التعريف أنه إذا عَرَفَ أنه لا رازقَ غيره لم يُعلِّقْ قلبَه بأحدٍ فى طلب شىء ، ولم يتذلل فى ارتفاقٍ لمخلوقٍ ، وكما لا يرى رزقَه من مخلوقٍ لا يراه من نفسه أيضاً ؛ فيتخلَّصُ من ظلمات تدبيره واحتياله (1) ، ومن توَهُّم شىء من أمثاله وأشكاله ، ويستريح لشهود تقديره ، ولا محالة يُخْلِصُ فى توكله وتفويضه .

قوله جل ذكره : « وإن يُكَذِّبوكَ فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قَبْلِكَ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمورُ » .

هذه تسليةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتسهيلٌ للصبر عليه ؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله ، وأنَّهم صَبَرُوا وأنَّ اللهَ كفاهم ، فهو يسلك سبيلَهم ويقتدى بهم ، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه . وفى هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب فى موقفهم من العوامِّ والأجانبِ عن هذه الطريقة ، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، بينما أهل الحقائق أبداً منهم فى مقاساة الأذى إلا بِسَتْرِ حالهم عنهم (2) .

والعوامُّ أقرب إلى هذه الطريقة من القُرَّاء (3) المتقشفين ، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ »

---

(1) فالواجب إسقاط التدبير وشهود التقدير — كما قلنا فى الهامش منذ قليل .

(2) لجأ «الملامتية» نيسابور إلى هذا الستر ، واكتفوا بعلم الله بأسرارهم وصلاح باطنهم ، ولم يأبهوا بالمخلوقين . بل رغبة فى تأكيد ملاقتهم بالله ، وإمعاناً فى إخفاء حقائقهم كانوا يقومون بأشياء تستوجب الملامة ... نقول ذلك رغبة فى توضيح أن أفكار هذا المذهب كانت معروفة فى مدينة نيسابور موطن القشيرى ، كما كان السلمى جد أبى عبد الرحمن صديقه الحميم واحداً من رواد هذا المذهب وأئمته .

(3) القراء جماعة من قراء القرآن ظهروا منذ عهد مبكر (ولازموا الأعمدة فى الليل يتهجدون ، حتى إذا جاء النهار استقوا الماء واحتطبوا للنبى وكانوا فى صحبته (ابن سعد ح٣ ق١ ص ٣٦ ، ٣٧) ، ولكن اللفظة أطلقت فيما بعد بصفة عامة على (الذين يزورون عن الدنيا ويخصصون أنفسهم للعمل الصالح والزهد والتأمل) ابن سعد ج٦ ص٢٠٥ . (ويقال تقرى بتسهيل الهمزة أى تنسك) (أمالى القالى ح٢ ص ٤٧) .. ولقد نبه عمر بن الخطاب إلى ضرورة تنقية هذا اللون من التعبد من كل الأغراض والأمراض حيث يقول : «يأيها الناس إنه أتى على حين وأنا أحسب أنه من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الله ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وبأعمالكم» البيان والتبيين ح٣ ص١٣٨ . ولكن يبدو أن الزمن قد فعل فعله فى خروج طوائف من القراء عن هذا الخط ... الأمر الذى جعل القشيرى — وقد عاش فى القرنين الرابع والخامس — يتحفظ فى الحكم عليهم .

فلا تَغرَّنَّكم الحياةُ الدنيا ولا يَغرَّنَّكُم
باللهِ الغَرُور ».

وَعْدُ اللهِ حقٌ في كل ما أخبر به أنه يكون، فَوعْدُه في القيامة حقٌ، ووعده لِمَنْ أطاعه بكفاية الأمور والسلامة حقٌ، ووعده للمطيعين في الآخرة بوجود الكرامة حقٌ، وللعاصين بالندامة حقٌ، فإذا عَلِمَ العبدُ ذلك استعدَّ للموت، ولم يهتم بالرزق، فيكفيه اللهُ شُغْلَه، فينشط العبدُ في استكثار الطاعة ثقةً بالوعد، ولا يُلِمُّ بالمخالفاتِ خوفاً من الوعيد.

قوله جل ذكره: « إنَّ الشيطانَ لكم عَدُوٌّ فاتخذوه
عَدُوًّا إنما يدعو حِزْبَه ليكونوا من
أصحابِ السَّعير ».

عداوةُ الشيطان بدوام مخالفته؛ فإنَّ مِنَ الناس مَنْ يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالربِّ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة. والشيطانُ لا يفتر في عداوتك، فلا تَغْفَلْ أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوُّك؛ فإنه أبداً متمكِّنٌ لك.

« إنما يدعو حِزْبَه » وحِزْبه هم المُعرِضون عن الله، المشتغلون بغير الله، الغافلون عن الله. ودليلُ هذا الخطاب: إن الشيطانَ عدوُّكم فأبغضوه واتخذوه عدواً، وأنا وَلِيُّكُم وحبيبُكم فأَحِبُّوني وارْضَوْا بي حبيباً.

قوله جل ذكره: « الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ
والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لهم
مَغفِرةٌ وأَجْرٌ كبير ».

الذين كفروا لهم عذابٌ مُعَجَّلٌ وعذابٌ مُؤَجَّلٌ، فَمُعَجَّلُه تفرقةُ قلوبهم وانسداد بصائرهم ووقاحة هِمَّتِهم حتى أنهم يرضون بأن يكون الصنمُ معبودَهم. وأمَّا عذاب الآخرة فهو ما لا تخفى على مسلمٍ — على الجملة — صعوبتُه.

وأما « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فلهم مغفرةٌ أى سَتْرٌ لذنوبهم اليومَ ، ولولا ذلك لا فتضحوا ، ولولا ذلك لهلَكوا .

« وأجر كبير » : والأجرُ الكبيرُ اليومَ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة ، وما يناله فى القلب من زوائد اليقين وخصائص الأحوال . وفى الآخرة : تحقيقُ السُّؤْلِ ونَيْلُ ما فوق المأمول .

قوله جل ذكره : « أفَمَن زُيِّنَ له سوء عَمَلِهِ فرآه
حَسَناً فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاء ويَهْدِى
مَن يشاء فلا تذهبْ نَفْسُكَ عليهم
حَسَراتٍ إنَّ اللهَ عليمٌ بما يصنعون » .

معنى الآية : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً كمن ليس كذلك ؟ لا يستويان !

ومعنى « زين له سوء عمله » أن الكافرَ يَتَوَهَّمُ أنَّ عملَه حَسَنٌ ، قال تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[1] .

ثم الراغبُ فى الدنيا يجمع حلالَها وحرامها ، ويحوّش[2] حُطَامها ، ولا يفكر فى زوالها ، ولا فى ارتحاله عنها قبل كمالها ؛ فقد زين له سوء عمله (والذى يتبع شهواته ويبيع مؤبّد راحاته فى الجنة بساعةٍ فقد زين له سوء عمله[3]) . وإن الذى يُؤْثِرُ على ربِّه شيئاً من المخلوقات لَهُوَ من جملتهم . والذى يتوهَّمُ أنه إذا وَجَدَ نجاتَه ودرجاتِه فى الجنة — وأنَّ هذا يكفيه ... قد زُيِّن له سوء عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة . والذى هو فى صحبة حظوظه ولا يُؤْثِرُ حقوق اللهِ فقد زين له سوء عمله فرآه حسناً .

« فلا تذهب نَفْسُكَ عليهم حسراتٍ » : يعنى إذا عَرَفْتَ حقَّ[4] التقدير ، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله ، ودَعَوْتَهم جَهْراً ، وَبذَلْتَ لهم نُصْحاً ، فاستجابتُهم ليست لك ، فلا تَحْمِلْ على قلبك من ذلك مشقةً ولا عناء .

---

(١) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٢) حوش المال ونحوه = جمعه وادخره (الوسيط) .

(٣) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (سر) التقدير .

قوله جل ذكره: « واللهُ الذى أرسل الرياحَ فتثيرُ
سحاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ ميتٍ فأحيينا
به الأرضَ بعد موتِها كذلك النُّشور »

أجرى سُنَّتَه بأنه يُظْهِرُ فَضْلَه فى إحياء الأرض بالتدريج ؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتى بالسحاب ، ثم يوجِّه ذلك السحاب إلى الموضع الذى يريد له تخصيصاً كيف يشاء ، ويُمْطِرُ هنالك كيف يشاء . كذلك إذا أراد إحياء قلبِ عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته ، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء ، ويزعج بها كوامنَ الإرادة ، ثم ينشىء فيها سُحُبَ الاهتياج، ولوعةَ الانزعاج ، ثم يجود بمطرٍ يُنْبِتُ فى القلب أزهارَ البَسْطِ ، وأنوار[1] الرَّوْح ، فيطيب لصاحبِه العَيْشُ إلى أن تتمَّ لطائفُ الأُنْسِ .

قوله جل ذكره: « مَن كان يريد العِزَّةَ فلله العِزَّةُ
جميعاً إليه يصعد الكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ
الصالحُ يرفعُهُ والذين يمكرون
السيئاتِ لهم عذابٌ شديدٌ ومكر
أولئك هو يبُور »

مَنْ كان يريد العزة بنفسه فَلْيَعْلَمْ أنَّ العزةَ بجملتها لله ، فليس للمخلوق شىء من العِزَّة .

ويقال مَنْ كان يريد العزةَ لنفسه فلله العِزَّةُ جميعا ، أى فليطلبْها من الله ، وفى آية أخرى أثبت العزة للهِ ولرسوله وللمؤمنين ، وقال ها هنا « فلله العِزَّةُ جميعاً » ؛ ووَجْهُ الجمع بينهما أن عِزَّ الربوبية لله وَصْفاً ، وعزَّ الرسول ، وعزَّ المؤمنين لهم فضلاً من الله ولطفا ؛ فإذاً العِزَّةُ لله جميعاً .

وعزُّه سبحانه — قُدْرَتُه . أو ويقال العزيز هو القاهر الذى لا يُقْهَرُ ؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين . . ومن صفات ذاته على القول الآخر . ويقال العزيز هو الذى لا يُوصَلُ إليه مِنْ قولِهم : أرضٌ عَزاز إذا لم تستقر عليها الأقدام ، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه .

ويقال العزيز الذى لا مِثْلَ له ؛ من قولهم : عَزَّ الطعام فى اليد ، فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو .

---

(١) أنوار هنا جمع نورة وهى الزهرة البيضاء .

قوله : « إليه يصعد الكَلِمُ الطيب » : الكلم الطيب هو الصادرُ عن عقيدةٍ طيبةٍ — يعنى الشهادتين — عن إخلاص . وأراد به صعودَ قَبُولٍ ، لأنَّ حقيقةَ الصعود فى اللغة بمعنى الخروج — ولا يجوز فى صفة الكلام[1] .

« والعمل الصالح يرفعه » : أى يقبله . ويقال العملُ الصالحُ يرفع الكَلِمَ الطيب . ويقال الكَلِمُ الطيبُ ما يكون موافقاً للسُّنَّة ، ويقال هو ما يشهد بِصِحَّتِه الإذنُ والتوقيف . ويقال هو نُطْقُ القلبِ بالثناء على ما يستوجبه الربُّ . ويقال هو ما يكون دُعاء للمسلمين . ويقال ما يتجرد حقاً للحقِّ ولا يكون فيه حَظٌّ للعبد . ويقال ما هو مُسْتَخْرَجٌ من العبد وهو فيه مفقود[2] . ويقال هو بيانُ التنصُّل وكلمة الاستغفار .

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويقال الذى ليس فيه آفة ولا يُطْلَبُ عليه عِوَضٌ

قوله جل ذكره : « والذين يَمْكُرُون السيئاتِ لهم عذابٌ شديد ومَكْرُ أولئك هو يبورُ » .

أى يَقْلِبُ عليهم مَكْرَهم ؛ فما يتوهمونه من خيرٍ لهم يَقْلِبُهُ محنةً عليهم . ويقال : تَخْلِيَتُه إيام ومَكْرَهم[3] — مع قدرته على عصمتهم ، وكَوْنُه لا يعصمهم هى عذابهم الشديد .

قوله جل ذكره : « واللهُ خَلَقَكُم من ترابٍ ثم من نُطْفَةٍ ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بِعِلْمِه وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمُرِه إلا فى كتابٍ إنَّ ذلك على اللهِ يسير »

ذَكَّرَهم نِسْبَتَهم لئلا يُعْجَبوا بحالتهم ، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريعُ التغيُّر ، قليلُ

---

(١) لأن الخروج يقتضى علوا .. والألوهية تتنزه عنه .

(٢) أى ما يصدر عن العبد وهو مأخوذ مستلب عن نفسه — من المعارف .

(٣) نصبنا الراء فى (ومكرهم) لتكون مفعولا معه فهكذا نفهم السياق .

القوة فى السَّكْ ، لكنه يَقْبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته ؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجودِ أعاده بعد انكساره بالذنوب[1] .

وإذا كان لا يَخْفَى عليه — سبحانه — شىء من أحوالهم فى ابتداء خِلْقتهم ، فَمَنْ يُبالِ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يعلم أنه يَعْصى فلا يبالِ أَنْ يغفرَ لِمَنْ رآه يعصى[2] .

قوله جل ذكره : « وما يستوى البحران هذا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سائِغٌ شرابُه وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ
ومن كُلٍّ تأكلون لحماً طَرِيًّا
وتستخرجون حِلْيَةً تلبسونها وترى
الفُلْكَ فيه مَوَاخِرَ لتبتغوا مِن فَضْلِه
ولعلَّكم تَشْكُرُون »

لا تستوى الحالتان : هذه إقبالٌ على الله ، واشتغالٌ بطاعته ، واستقلال بمعرفته . . وهذه إعْراضٌ عن الله ، وانقباضٌ عن عبادته ، واعتراض — على الله — فى قسمته وقبضته . هذه سبب وصاله ، وهذه سببُ هَجْرِه وانفصاله ، وفى كلٍّ واحدةٍ من الحالتين يعيش أهلها ، ويُزْجِى أصحابُها وقتَها . ولا يستوى الوقتان : هذا بَسْطٌ وصاحبُه فى رَوْح ، وهذا قبضٌ وصاحبه فى نَوْح . هذا خوفٌ وصاحبه فى اجتياح ، وهذا رجاء وصاحبه فى ارتياح . هذا فَرْقٌ وصاحبُه بوصف العبودية ، وهذا جَمْعٌ وصاحبُه فى شهود الربوبية .

« ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حليةً تلبسونها » : كذلك كُلٌّ يتقرّبُ فى حالته لربِّه ، ويتزيّنُ على بابه ، وهو حِلْيتُه التى بها يتحلّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ .

(١) عرض القشيرى فيما سبق هذه النقطة عندما تحدث عن خلق آدم وإبليس ، وكيف أن ماء العناية جبر آدم حين أظهر العذر فاجتباه ربه وتاب عليه ، وكيف أن الماء أطفأ نار إبليس فأنظره إلى يوم يبعثون ؛ ليدل القشيرى بذلك على أن الطين أفضل من النار ، وأن إبليس أخطأ فى دعوى أفضليته على آدم .

(٢) أى أن معصية العبد من العبد عملا — وفى هذا إثبات لحرية الإنسان واختياره — وإن كانت من الله علماً . . . وهو من قبل ومن بعد غافر الذنب وقابل التوب .

قوله جل ذكره : « يولِجُ الليلَ فى النهار ويولج النهارَ فى
الليل وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ كُلٌّ يجرى
لِأَجَلٍ مسمَّى ذلكم اللهُ ربُّكم له المُلْكُ
والذين تدعون من دونه ما يَمْلِكون
من قِطْمير » .

تغلب النَّفْسُ مرةً على القلب ، ويغلب القلبُ مرةً على النَّفْس . وكذلك القبضُ والبسط فقد يستويان ، ومرةً يغلب القبضُ على البسط ، ومرةً تغلب البسطُ على القبض ، وكذلك الصحو والسُّكْرُ ، وكذلك الفناء والبقاء .

وسَخَّرَ شموسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب .

« ذلكم الله ربُّكم له المُلْكُ » : فأرونى شظيةً من النفى أو الإثبات لما تدعونه من دونه ! وإذْ لم يُمْكِنْكُم ذلك .. فَهَلاَّ أقررتم ، وفى عبادته أخلصتم ، وعن الأصنام تبرَّأتم ؟ .

قوله جل ذكره : « إن تدعوهم لايسمعوا دُعاءكم ولو سمعوا
ما استجابوا لكم ويومَ القيامةِ يكفرون
بشركِكم ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خبير » .

إنْ استعنتم بأصنامكم لايُعينوكم ، وإنْ دَعَوْتُموهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سَمِعُوا — على جهة ضَرْبَ المَثَلِ — لا يستجيبون لكم ؛ لأنهم لا يَمْلِكُون نَفْعَ أنفسِهم .. فكيف يَمْلِكون نَفْعَ غيرهم ؟!

« ويوم القيامة يكفرون بشرككم » : لا يؤمنون إلا فى ذلك الوقت ، ولكن لا ينفعهم الإيمانُ بعد زوال التكليف .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ أنتمُ الفقراء إلى اللهِ
واللهُ هو الغنىُّ الحميد » .

الفقر على ضربين : فقر الخِلْقَة وفقر الصفة ؛ فأمَّا فقر الخِلْقَة فهو عامٌّ لكلِّ أحدٍ ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه ، فهو قد حَصَلَ من العَدَم ، فهو مفتقر إليه ليبديه وينشيه ، ثم بعد

ذلك مفتقرٌ — فى حال بقائه إليه — ليُديمَه ويقيه . فالله — سبحانه — غنىٌّ ، والعبدُ فقير ؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللهُ غنىٌّ بعينه(١) .

وأمّا فقر الصفة فهو التجرُّد ؛ فقرُ العوامِ التجرُّدُ من المـال ، وفقر الخواص التجرد من الأعلال ليَسْلَمَ لهم الفقر .

والفقر على أقسام : فقر إلى الله ، وفقر إلى شىء هو من الله ؛ معلومٍ أو مرسومٍ وغير ذلك . ومَن افتقر إلى شىء استغنى بوجود ذلك الشىء ؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنىُّ بالله ، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله ، فالمفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله ، والمستغنى بالله مفتقرٌ إلى الله(٢) .

ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخضوع ، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكبُّر . وشَرَفُ العبد فى فقره ، وكذلك ذُلُّه فى توهمه أنه غنىٌّ : —

وإذا تذلَّلَت الرِّقابُ تَقَرُّبًا   مِنَّا إليكَ فعِزُّها فى ذُلِّهَا(٣)

ومن الفقر المذموم ، أن يَسْتُرَ الحقُّ على صاحبه مواضعَ فقره إلى ربِّه ، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَه الحقُّ مواضعَ فَقْرِه إليه .

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملكَ شيئًا ويملك كلَّ شىء .

ويقال : الفقير الصادق الذى لا يملكه شىء(٤) .

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشَكُّرِ عند كمالِ التكسُّر . ومن آداب الفقر كمالُ المنى وزوالُ الدعوى . ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى .

---

(١) أى أن العبد — كذات مستقلة — فقير ؛ لأنه مخلوق يحتاج إلى خالقه ، والحق — كذات مستقلة — غنى ؛ لأنه خالق فهو فى غير حاجة إلى مخلوقه .

(٢) من أقوال الجنيد فى هذا الصدد وقد سئل عن الافتقار إلى الله : أهو أتم أم الاستغناء بالله قال : إذا صح الافتقار إلى الله فقد صح الاستغناء بالله ، وإذا صح الاستغناء بالله كل الغنى به ؛ فلا يقال أيهما أتم ؛ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى (الرسالة ص ١٢٥) .

(٣) من أقوالهم فى هذا الصدد : لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه .

(٤) أى لا يكون أسيراً لغرض أو لعرض ، فتلك آفة الدنيا والنفس .

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السِّرِّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله .

ويقال : الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقتِ من غير استكراه شيء منه بكلِّ وجهٍ .

قوله : « والله هو الغنيُّ الحميد » : الإشارة منه أن يُعْطِي حتى يُحْمَد .

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِنَاه لأحدٍ فإمَّا للمفاخرة أو للمكاثرة — وجَلَّ قَدْرُ الحقِّ عن ذلك — وإمَّا ليجود ويتفضَّل على أحدٍ .

ويقال : لا يقول لنا أنتم الفقراء للإزراء بنا — فإنَّ كَرَمَه يتقدَّسُ عن ذلك — وإنما المقصود أنه إذا قال : والله الغنى ، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا .

ويقال إذا لم تَدَّعِ ما هو صفته — من استحقاق الغِنَى — أولاك ما يُغْنيك ، وأعطاكَ فوق ما يكفيك .

قوله جل ذكره : « إن يَشَأْ يُذْهِبْكم ويأتِ بِخَلْقٍ جديد * وما ذلك على الله بعزيز » .

عَرَّفَكَ أنه غنيٌّ عنك ، وأشهدك موضع فقرك إليه ، وأنه لا بُدَّ لك منه ، فما القصد من هذا إلا إرادته لإكرامك وإيوائك فى كَنَفِ إنعامه .

قوله جل ذكره : « ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى » .

كُلٌّ مُطَالَبٌ بعمله ، وكلٌّ محاسَبٌ عن ديوانه ، ولكلٍّ معه شأن ، وله مع كلِّ أحدٍ شأن . ومن العبادات ما تجرى فيه النيابة ولكن فى المعارف لا تجرى النيابة ؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكا فى غوايته فاتته صلاةٌ مفروضةٌ ، فلو قضى عنه ألفُ ولىٍّ وألفُ صَفِىٍّ تلك الصلاةَ الواحدةَ عن كل ركعةٍ ألفَ ركعةٍ لم تُقْبَلْ منه إلَّا أنْ يجيء هو : معاذ الله أن نأخذ إلا مَنْ وجدنا متاعنا عنده ! فعتابُك لايجرى مع غيرك ، والخطابُ الذى معك لا يسمعه غيرُك :

فَسِرْ أو أَقِمْ وَقْفٌ عليكَ محبتى مكانُكَ من قلبى عليكَ مصونُ

« إنما تُنذِرُ الذين يَخْشَوْن ربَّهم

بالغيب وأقاموا الصلاةَ ومَن تزَكّى

فإنما يتزكّى لِنفْسِه وإلى اللهِ المصير » .

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة ، والخشيةُ هى المخافة ؛ فمعنى الآية ، لا ينفع التخويف إلاَّ لمن صَاحَبَ الخوفَ — وطيرُ السماء على أشكالها تقَعُ .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلماتُ ولا النورُ * ولا الظِّلُّ ولا الحَرُور * وما يستوى الأحياء ولا الأمواتُ إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يشاء وما أنت بِمُسْمِعٍ مَن فى القبور » .

كما لا يستوى الأعمى والبصير لا تستوى الظلمات والنور ، ولا يستوى الظلُّ والحرور ، ولا الأحياء والأموات .. وكذلك لا يستوى الموصول بنا والمشغول عنَّا ، والمجذوبُ إلينا ، والمحجوبُ عنَّا ، ولا يستوى مَن اصطفيناه فى الأزل ومن أشقيناه بحكم الأزل ، ولا يستوى من أشهدناه حقَّنا ومن أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا :

أحبابنا شتان : وافٍ وناقِضُ ولا يستوى قطُّ مُحِبٌّ وباغِضُ

قوله جل ذكره : « إنْ أنت إلا نذيرٌ * إنَّا أرسلناكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً وإن مِنْ أمَّةٍ إلاَّ خلا فيها نذير » .

أى وما من أمةٍ ممن كانوا من قبلك إلاَّ بعثنا فيهم نذيراً ، وفى وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافةً بالحقِّ .

« بشيراً ونذيراً » : تضمنت الآية بيانَ أنه لم يُخْلِ زماناً ولا قوماً مِنْ شَرْعٍ . وفى وقته صلى الله عليه وسلم أفرده بأنْ أرسله إلى كافة الخلائق ، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له :

« وإن يُكَذِّبوكَ فقد كَذَّبَ الذين
من قَبْلِهم جاءتْهم رُسُلُهم بالبينات
وبالزُّبرِ وبالكتابِ المنير » .

أى لو قابلوك بالتكذيب فتلك سُنّتهم مع كلِّ نبيٍّ ، وإن أصرُّوا على سُنّتهم فى النبيِّ فلن تجدَ لِسنَّةِ الله تبديلاً فى الانتقام والخزى .

قوله جل ذكره : « ألم تَرَ أنَّ اللهَ أنزل من السماء ماء
فأخْرَجْنا به ثمراتٍ مُختلفاً ألوانُها ومن
الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُختلِفٌ ألوانُها
وغَرابيبُ سُودٌ » .

بيَّنَ فى هذه الآية وأمثالها أن تخصيصَ الفعلِ بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه ، وفى إتقانِ الفعلِ وإحكامِه شهادة على عِلْمِ الصانع وإعلامِه .

وكذلك أيضاً « من الناس والدواب والأنعام » : بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف ، وهو دليل ثبوت مُنْشِيها بنعت الجلال .

قوله جل ذكره : « إنما يَخْشَى اللهَ مِنْ عبادِه العلماء » .

« إنما » كلة تحقيق تجرى من وجهٍ مجرى التحديد أى التخصيص والقَصْر ، فَنْ فَقَدَ العِلْمَ بالله فلا خشيةَ له من الله .

والفرق بين الخشية والرهبة أنَّ الرهبةَ خوفٌ يوجِبُ هَرَبَ صاحبه فيجرى فى هربه ، والخشية إذا حصلت كَبَحَت جماحَ صاحبها فيبقى مع الله ، فقدمت الخشية على الرهبة فى الجملة(1) .

والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : « وخافونِ إن كنتم مؤمنين »(2) فالخشية قضية العلم ، والهيبة توجب المعرفة .

---

(1) يفيد هذا الكلام فى التفرقة بينهما عند بحث المصطلح الصوفى .
(2) آية ١٧٥ سورة آل عمران .

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم فى أداء حقه . ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق .

ويقال حَذَراً من أن يحصل لهم سوء أدبٍ وتَرْكُ احترامٍ ، وانبساطٌ فى غير وقته بإطلاق لفظٍ ، أو تَرَخُّصٍ بِتَرْكِ الأَوْلى .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يتلون كتابَ اللهِ وأقاموا
الصلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سِرًّا وعلانيةً
يرجون تجارةً لن تبور » .

الذين يستغرق جميعَ أوقاتِهم قيامُهم بذكر الله وبحقه ، وإتيانُهم بأنواع العبادات وصنوف القُرَبِ فَلَهم القَدْرُ الأَجَلُّ من التقريب ، والنصيبُ الأوفر من الترحيب . وأما الذين أحوالهم بالضدِّ فَمَنَالُهم على العكس . أولئك هم الأولياء الأعِزَّةُ ، وهؤلاء هم الأعداء الأذِلَّةُ .

قوله جل ذكره : « والذى أوحينا إليكَ من الكتابِ
هو الحقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بين يديه إنَّ اللهَ
بعبادِه لخَبيرٌ بصيرٌ » .

ما عرَّفناكَ — من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك ، وتقديمنا لك على الكافة — فعلى ما أخبرناك ، وأنشدوا :

لا أبتغى بَدَلاً ســـواكِ خليلةً فَثِقِى بقــــولى والكِرَامُ ثِقَاتُ

قوله جل ذكره : « ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا
من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصِدٌ
ومنهم سابِقٌ بالخيراتِ بإذن اللهِ ذلك
هو الفضلُ الكبيرُ » .

« أورثنا » : أى أعطينا الكتابَ — أى القرآن — الذين اصطفينا من عبادنا ، وذَكَرَ الإعطاء بلفظِ الإرثِ توسُّعاً .

« اصطفينا » : أى اخترنا . ثم ذكر أقسامَهم ، وفى الخبر أنه لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه السلام : « أمتى وربِّ الكعبة » ثلاث مرات .

وفى الآية وجوهٌ من الإشارة : فمنها أنه لمَّا ذكر هذا بلفظ الميراثِ فالميراثُ يقتضى صحة النَّسَبِ على وجهٍ مخصوص ، فَمَنْ لاسبَبَ له فلا نَسَبَ له ، ولا ميراثَ له .

ومحلُّ النَّسبِ ها هنا المعرفة ، ومحلُّ السبب الطاعة . وإن قيل محلُّ النَّسبِ فَضْلُه ، ومحل السببِ فِعْلُك[1] . . فهو وَجْهٌ . ويصحُّ أن يقال محلُّ النسبِ اختياره لك بدءاً ومحلُّ السببِ إحسانُه لك تالياً .

ويقال أهلُ النسب على أقسام :— الأقوى ، والأدنى كذلك فى الاستحقاق .

ويقال جميع وجوه التملُّك لا بُدَّ فيها من فِعْلٍ للعبد كالبيع ، أمَّا ما يُملَكُ بالهِبَةَ فلا يحصل إلا بالقبول والقسمة ، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك . والوصية لا تُستَحقُّ إلا بالقبول ، وفى الزكاة لا بُدَّ من قبول أهل السُّهْمَانِ ، والميراث لا يكون فيه شىء من جهة الوارث وفعله ، والنَّسبُ ليس من جملة أفعاله .

ويقال الميراث يُستَحقُّ بوجهين : بالفرض والتعصيب ، والتعصيبُ أقوى من الفرض ؛ لأنه قد يستحق به جميع المال ، ثم الميراث يبدأ بذوى الفروض ثم ما يتبقى فللعَصَبَةِ[2] .

« فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله » : تكلموا فى الظالم ، فمنهم من قال هو الأفضل ، وأرادوا به من ظَلَمَ نَفْسَه لكثرة ما حَمَّلَها من الطاعة .

والأكثرون : إنَّ السابقَ هو الأفضل ، وقالوا : التقديم فى الذكر لا يقتضى التقديم فى الرتبة ، ولهذا نظائر كثيرة[3] .

ويقال قَرَنَ باسم الظالم قرينةً وهى قوله : « لنفسه » ، وقرن باسم السابق قرينةً وهى قوله:

---

(١) فالنسب وهبى والفعل كسبى كما أن المعرفة وهبية والطاعة كسبية وإن كان الصوفية يرون أن الكسب والاجتلاب والتصرف والتكلف كلها لا تتم إلا بفضل من الله (أنظر شرح المكى لأبيات رابعة المبدوءة بـ «أحبك حبين ... » فى قوت القلوب » . وهذا المعنى واضح هنا أيضاً فى تفسير القشيرى .

(٢) العصبة واحدة العصب ، وعصبة الرجل (فى الفرائض) من ليست له فريضة مسماة فى الميراث ، وإنما يأخذ ما أبقى ذوو الفروض . أنظر رأى القشيرى فى تفضيل التعصيب على الفرض (المجلد الأول من هذا الكتاب ص٣١٧)

(٣) على نحو ما يذكره البلاغيون فى ذكر الخاص بعد العام .

« بإذن الله » ؛ فالظالمُ كانت له زَلَّة ، والسابق كانت له صولة ، فالظالم رفع زلّته بقوله : لنفسه ، والسابق كَسَرَ صولتَه بقوله : بإذن الله .

كأنه قال : ياظالمُ ارفعْ رأسَك ، ظلَمْتَ ولكن على نفسك ، وياسابقُ اخفض[1] رأسَك؛ سَبَقْتَ — ولكن بإذن الله .

ويقال إنَّ العزيزَ إذا رأى ظالماً قصَمه ، والكريمَ إذا رأى مظلوماً أخَذَ بيده ، كأنه قال : يا ظالم ، إنْ كان كونُكَ ظالماً يوجِبُ قَهْرَك ، فكونُكَ مظلوماً يوجِبُ الأخذَ بيدك[2] .

ويقال الظالمُ مَنْ غلَبَتْ زَلاَّتُه ، والمقتصدُ مَن استوت حالاته ، والسابقُ مَنْ زادت حسناته .

ويقال الظالمُ مَنْ زهد فى دنياه ، والمقتصدُ مَن رغب فى عقباه ، والسابقُ مَنْ آثر على الدارين مولاه .

ويقال الظالمُ مَنْ نجَمَ كوكبُ عقله ، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بَدْرُ عِلْمِه ، والسابقُ من ذَرَّتْ[3] شمسُ معرفته .

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَه ، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَه ، والسابق مَنْ بقى معه .

ويقال الظالِمُ مَنْ تَرَكَ المعصية ، والمقتصد مَنْ تَرَكَ الغفلة ، والسابق مَنْ تَرَكَ العلاقة[4] .

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بماله ، والمقتصد مَنْ لم يبخلْ بنفْسِه ، والسابق مَنْ جاد بروحه .

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين ، والمقتصد مَنْ له عين اليقين ، والسابق مَنْ له حق اليقين .

ويقال الظالم صاحب المودة ، والمقتصد صاحب الخلّة ، والسابق صاحب المحبة .

ويقال الظالم يترك الحرام ، والمقتصد يترك الشُّبهة ، والسابق يترك الفضل[5] فى الجملة .

---

(١) وردت فى ص (إحفظ) والسياق يتطلب (إخفض) رأسك فما سبقت إليه لبس إلا بإذن الله .

(٢) فآية كرم المولى سبحانه أنه ينظر إلى الظالم على أنه مظلوم ؛ مظلوم من قبل نفسه التى دعته إلى أن يظلم غيره .... ولعمرى إنها غاية الكرم كما يصورها هذا الصوفى الجليل .

(٣) ذرت الشمس ذروراً أى ظهرت أول شروقها (الوسيط) .

(٤) أى العلاقة بالدنيا والنفس وما يتصل بهما .

(٥) الفضل هنا معناه ما زاد عن الحاجة الضرورية اتقاء الحرام والشبهة ، يقول سهل التُّسْتَرى : « إذا كان الحلال فى التدين هو مالا يُعْصَى الله فيه فإن الحلال عند الصوفى مالا يُنْسَى الله فيه » .

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء ، والمقتصد صاحب جود ، والسابق صاحب إيثار[1] .

ويقال الظالم صاحب رجاء ، والمقتصدُ صاحبُ بَسْط ، والسابق صاحب أُنْس .

ويقال الظالم صاحب خوف ، والمقتصد صاحب خشية ، والسابق صاحب هيبة .

ويقال الظالم له المغفرة ، والمقتصد له الرحمة والرضوان ، والسابق له القربة والمحبة .

ويقال الظالم صاحب الدنيا ، والمقتصد طالب العُقْبى ، والسابق طالب المولى .

ويقال الظالم طالب النجاة ، والمقتصد طالب الدرجات ، والسابق صاحب المناجاة .

ويقال الظالم أَمِنَ من العقوبة ، والمقتصد فاز بالمثوبة ، والسابق متحقق بالقربة .

ويقال الظالم مضروبٌ بسَوْطِ الحِرْصِ ، مقتول بسيف الرغبة ، مضطجعٌ على باب الحسرة. والمقتصدُ مضروبٌ بسوط الندامة ، مقتولٌ بسيف الأسف ، مضطجع على باب الجود .

والسابقُ مضروبٌ بسوط التواجد ، مقتول بسيف المحبة ، مُضْطَجِـعٌ على باب الاشتياق.

ويقال الظالم صاحب التوكل ، والمقتصد صاحب التسليم ، والسابق صاحب التفويض .

ويقال الظالم صاحبُ تواجد ، والمقتصد صاحب وَجْد ، والسابق صاحب وجود .

ويقال الظالم صاحبُ المحاضرة ، والمقتصد صاحب المكاشفة ، والسابق صاحب المشاهدة .

ويقال الظالم يراه فى الآخرة بمقدار أيام الدنيا فى كل جمعة مرةً ، والمقتصد يراه فى كل يوم مرةً ، والسابق غير محجوبٍ عنه ألبتةَ .

ويقال الظالم مجذوبٌ إلى فِعْلِهِ الذى هو فضله ، والمقتصد مكاشَفٌ بوصفه الذى هو عِزُّه ، والسابقُ المستهلَكُ فى حقِّه الذى هو وُجُودُه .

قوله : « ذلك هو الفضل الكبير » لأنه ذكر الظالم مع السابق[2] .

قوله جل ذكره : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يدخلونها يُحَلَّوْنَ فيها

---

(١) يفيد هذا التقسيم فى بحث لغوى عن ترتيب : السخاء والجود والإيثار .

(٢) أعجب القرطبى بمنهج الصوفية فى تفسير «الظالم والمقتصد والسابق» على هذا النحو فأورد طائفة كبيرة من أقوالهم استغرقت نحو صفحة ونصف الصفحة (حـ١٤ ص ٣٤٨) .

من أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً ولباسُهم
فيها حرير » .

نَبّهَ على أن دخولهم الجنة لا باستحقاقٍ بل بفضله ، وليس فى الفضل تمييز .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمدُ للهِ الذى أذْهَبَ عَنّا
الحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لغفورٌ شكورٌ » .

تحققوا بحقائق الرضا ، والحَزَنُ سُمِّىَ حَزَناً لحُزُونَةِ[1] الوقتِ على صاحبه وليس فى الجنة حزونة وإنما هو رضاً واستبشار .

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة . ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوء الأدب . ويقال هو سياسة النفس .

« إنَّ ربنا لغفورٌ » للعصاة ، « شكورٌ » للمطيعين . قدَّمَ ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم[2] .

قوله جل ذكره : « الذى أحَلَّنا دارَ المُقامةِ مِن فَضْلِه
لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها
لُغُوبٌ » .

« دار المقامة » : أى دار الإقامة ، لا يبغون عنها حولا ، ولا يتمنون منها خروجاً .

« لا يمسنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ » : إذا أرادوا أن يَرَوْا[3] مولاهم لا يحتاجون إلى قَطْعِ مسافةٍ ، بل فى غُرَفِهم يلقون فيها تحيةً وسلاماً ، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى تقليب حدقةٍ أو تحديق مقلة فى جهة[4] ؛ يرَوْنه كما هُمْ بلا كيفية .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا لهم نارُ جهنَّمَ لا يُقْضَى

---

(١) حزن المكان حزونة أى حزن أى خشن وغلظ ، وحزن الرجل اغتم .

(٢) يتجلى هنا ما يتمتع به هذا الصوفى من نزعة الأمل وفتح الباب أمام العصاة .

(٣) يضاف هذا الرأى إلى موضوع «رؤية الله فى الآخرة» كما يتصوره القشيرى .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (وجهة) وكلاهما صحيح إذ المقصود تنزيه من يرونه – سبحانه – عن التقيد بالمكانية .. جلت الصمدية عن التقيد بمحل .

عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابِها
كذلك نجزى كل كَفُور » .

لا حياة يتمتَّعُون بها ، ولا موتَ يستريحون به ، وهم مقيمون فى العذاب والحجاب ، لا يفتر عنهم العذاب ، ولا تُرْفَعُ عنهم العقوبة .

« وهم يَصْطَرِخُون فيها ربَّنا أخرِجْنا
نَعْمَلْ صالحًا غيرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ أوَ لم
نُعَمِّرْكم ما يتذكرُ فيه مَن تذكَّرَ وجاءكم
النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

يقولون : « ربَّنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كُنَّا نعمل » ، فيقال لهم أو لم نعمركم ... ؟

أَمَا جاءكم النذيرُ قبل أن تبلغوا زمان المشيب ؟

ويقال : ألم تستوفوا مدةَ الإمهالِ فى النظر ؟

« وجاءكم النذير » : الرسل ، ويقال ضعف الشيخوخة ، ويُقال سقوط السِّنِّ ، ويقال تَقَوُّسُ الظَّهْر .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ عالِمُ غيبِ السمواتِ والأرضِ
إنَّه عليمٌ بذاتِ الصدور » .

أى عالِمٌ بإخلاص المخلصين ، وصدق الصادقين ، ونفاق المنافقين ، وجَحْدِ الكافرين .

عالِمٌ بِمَنْ يريد بالناس السوء وبِمَنْ يُحْسِنُ باللهِ الظنَّ .

قوله جل ذكره : « هو الذى جَعَلَكُمْ خلائفَ فى الأرضِ
فَمَن كَفَرَ فعليه كُفْرُه ولا يزيد
الكافرين كُفْرُهم عند ربهم إلا مَقْتًا ،
ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاَّ خَسَارًا » .

أهلُ كلِّ عصرٍ خليفةٌ عَمَّن تقدمهم ؛ فَمِنْ قومٍ هم لِسَلَفِهِم حَمَال[1] ، ومِنْ قوم هم أراذل وأنذال ؛ فالأفاضلُ زمانُهم لهم محنة ، والأراذل هم لزمانهم محنة . وقد قالوا :

(1) الحمال = الدية أو الغرامة يحملها قوم عن قوم (الوسيط) .

يومٌ وحَسْبُ الدهرِ من أجْلِه   حيًّا غـدٌ والتفتَ الأمسُ

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم شُركاءَكم الذين تدْعُون
من دون اللهِ أرونى ماذا خلقوا من
الأرض أمْ لهم شِرْكٌ فى السمواتِ أم
آتَيْناهم كتاباً فهم على بَيِّنَةٍ منه
بل إن يَعِدُ الظالمونَ بعضُهم بعضاً
إلا غُروراً » .

كَرَّرَ إشهادَهم عَجْزَ أصنامِهم ، ونقصَ مَنْ اتخذوهم آلهة من أوثانهم ؛ ليُسَفِّهَ بذلك آراءَهم ، وليُنَبِّهَهُم إلى ذميم أحوالِهم وأفعالِهم ، وخِسَّةِ هِمَمِهم ، ونقصانِ عقولِهم .

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيءٍ مما به يُطَالَبُون ، وليس لهم صواب عمَّا يُسْأَلُون .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السمواتِ والأرضَ
أن تزولا ولَئِن زالتا إنْ أمسكهما مِنْ
أحَدٍ مِن بَعْدِه إنه كان حليماً غفوراً » .

أمسكها بقدرته ، وأتقنهما بحكمته ، ورتَّبهما بمشيئته ، وخلقَ أهلَهما على موجب قضيته ، فلا شبيهَ فى إبقائهما وإفنائهما يُساهِمُه ، ولا شريكَ فى وجودِهما ونظامهما يقاسِمُه .

قوله جل ذكره : « وأقسموا باللهِ جَهْدَ أيْمانِهم لَئِن
جاءَهم نذيرٌ ليكونُنَّ أهدى من إحدى
الأمَمِ فلمَّا جاءَهم نذيرٌ ما زادهم
إلاَّ نفوراً * استكباراً فى الأرضِ
ومَكْرَ السيء ولا يحيقُ المكرُ السيء
إلاَّ بأهلِه ... » .

ليس لقولهم تحقيق ، ولا لعهدِهم وضمانهم توثيق ، وما يَعِدُون من أنفسهم فصريحُ زورٍ ، وما يُوهِمُون مِنْ وفائهم قَصِيرُ تغريرٍ .. وكذلك المريدُ فى أوان نشاطه تُمَنِّيه نفسُه

فتظاهر أمام مَنْ تقدَّمه حالا بانه عاهد الله ، وأنه أكّدَ عقده مع الله . . فإذا عَضّتْهُ شهوتُه ، وأراد الشيطانُ أن يكذبه صَرَعَه بكيده ، وأركسه فى هوة غَيِّه ، ومُنْيَةِ نَفْسِه ؛ فيسودُّ وَجْهُهُ ، وتذهب عند اللهِ وجاهتُه[1] .

قوله جل ذكره : « أَوَلَم يسيروا فى الأرضِ فينظروا
كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلِهم
وكانوا أشدَّ منهم قوةً وما كان اللهُ
ليُعْجِزَه من شىءٍ فى السمٰوٰاتِ ولا فى
الأرضِ إنه كان عليمًا قديراً » .

فى الجملة ما خاب له ولىٌّ ، وما ربح له عدوٌّ ، ولا ينال الحقيقةَ مَنْ انعكس قَصْدُه ، بل يرتدُّ عليه كَيْدُه ؛ وهو سبحانه يُدَمِّر على أعدائه تدميراً ، ويوسع لأوليائه فضلاً كبيراً .

قوله جل ذكره : « ولو يُؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بما كَسَبُوا
ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِن دابةٍ
ولكن يُؤَخرهم إلى أجَلٍ مُسَمًّى
فإذا جاءَ أجَلُهم فإنَّ اللهَ كان
بعباده بصيراً » .

لو عَجَّلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أعمارُهم القليلةُ به ، وما اتسعت أيامُهم القصيرة له ، فأخَّرَ ذلك ليومِ الحَشْرِ . . فإنَّه طويلٌ . واللهُ على كل شىءٍ قديرٌ ، وبأمورِ عبادِهِ خبيرٌ بصير .

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (ماء وجهه) أى حياؤه ، وقد آثرنا ما جاء فى م لملاءمتها السياق .

سورة يس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » آيةٌ افتتح بها خطابَه ؛ فَمَنْ عَلِمَهَا أجزل ثوابَه ، وَمَنْ عرَفَهَا أكثر إيجابَه ، وَمَنْ أكْبَرَ قَدْرَها أكْرَمَ مآبَه .

قوله جل ذكره « يس * والقرآن الحكيم »

يقال معناه : يا سيد . ويقال : الياء تشير إلى يوم الميثاق ، والسين تشير إلى سِرِّه مع الأحباب ؛ فيقال بحقِّ يوم الميثاق وسِرِّى مع الأحباب ، وبالقرآن الحكيم : —

« إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلين * على صِرَاطٍ مستقيم »

أى إنَّكَ — يا محمد لَمِنَ المرسلين ، وإنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم .

« تنزيلَ العزيزِ الرحيم »

أى هذا الكتاب تنزيل (العزيز) : المتكبر الغنى عن طاعة المطيعين ، (الرحيم) : المُتَفَضِّل على عباده المؤمنين .

قوله جل ذكره : « لِتُنذِرَ قوماً ما أُنْذِرَ آباؤهم فهم غافلون » .

أى خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن ، وأنزلنا عليكَ هذا الفُرقان لِتُنْذِرَ به قوماً حصلوا فى أيام الفترة ، وانقرض أسلافُهم على هذه الصِّفَةِ .

قوله جل ذكره : « لقد حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يُؤْمِنون »

أى حقّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصرّوا على جَحْدِهم ، وانهمكوا فى جهلهم ، فالمعلومُ منهم والمحكومُ عليهم أنّهم لا يُؤْمِنون[1].

قوله جل ذكره : « إِنَّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحُون »

سَنَجُرُّهُم إلى هوانهم وصغرهم ، وسنذيقهم وبالَ أمرهم .

« وجعلنا من بين أيديهم سَدًّا ومِنْ خَلْفِهم سَدًّا فأغشيناهم فَهُمْ لا يُبْصِرون » .

أغرقناهم اليومَ فى بحار الضلالة ، وأحَطْنا بهم سرادقاتِ الجهالة . وفى الآخرة سنُغْرِقُهم فى النار والأنكال ، ونضيّقُ عليهم الحال ، بالسلاسل والأغلال .

« فأغشيناهم » : أعميناهم اليومَ عن شهود الحُجَّة ، ونُلَبِّسُ عليهم فى الآخرة سبيلَ المَحَجَّة ، فيتَهَتَّكُون فى وَهَدَاتِ جهنم داخرين ، ويبقون فى حُرُقَاتها مهجورين ، مطرودين ملعونين ، لا تَقْطَعُ عنهم ما به يُعَذَّبُون[2] ، ولا نَرْحمهم مما منه يَشْكُون ؛ تَمَادَى بهم حِرْمانُ الكفر ، وأحاطت بهم سرادقاتُ الشقاء ، ووَقَعَتْ عليهم السِّمَةُ بالفراق .

قوله جل ذكره : « وسَوَاءٌ عليهم ءأنذرْتَهُمْ أم لم تُنذِرْهُم لا يُؤْمِنون »

مهجورُ الحقِّ لا يَصِلُه أحدٌ ، ومردودُ الحقِّ لا يَقْبَلُه أحد . والذى قَصَمَتْه المشيئةُ وأَقْمَتْهُ القضيةُ لا تنجعُ فيه النصيحة .

---

(1) أريد أن أنبه دائما إلى أن الجبرية عند الشيخ لا تتعارض مع الحرية الإنسانية ، فالإنسان حرٌّ فيما يفعل ولكن فى دائرة ما حددته له القضية السابقة التى ترتبط بالعلم الإلهى السابق للإبداء والإنشاء .. نحن نعلم ما حَدَثَ ولكن العلم الإلهى يحيل بدءاً كل ما سيحدث .

(2) من هنا نفهم أن القشيرى لا يؤمن بأبدية الجنة وحسب ، بل يؤمن بأبدية النار أيضاً . على خلاف جهم الذى يرى أن حركاتهم تتناهى ، فهما ليستا أبديتين — كما قلنا من قبل . وعلى خلاف ابن القيم الذى يرى أبدية الجنة فقط حيث يستوقفه الاستثناء فى قوله تعالى ولهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك» فيقول : إذاً فعذابها ينقطع (حادى الأرواح ص ٢٦٣ وشفاء العليل ص ٢٦٢) ولكن يُرَدّ على ابن القيم أن المقصود فى الآية هم عصاة المؤمنين وليس الكفار الذين هم — طبقاً لنصوص كثيرة — خالدون فيها أبداً ولايجدون ولياً ولا نصيراً» .

« إنما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرحمٰنَ بالغيبِ فَبَشِّرْه بمغفرةٍ وأجرٍ كريم »

أى إنما ينتفع بإنذارك مَن اتَّبَعَ الذِّكْرَ ؛ فإنَّ إنذارَكَ — وإن كان عاماً فى الكُلِّ وللكُلِّ — فإنَّ الذين كفروا على غيِّهم يُصِرُّون .. ألاَ ساءَ ما يَحْكُمون ، وإنْ كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون . أمّا الذين اتبعوا الذكر ، واستبصروا ، وانتفعوا بالذى سمعوه منك ، وبه عملوا — فقد استوجبوا أنْ تبَشِّرَهم ؛ فَبَشِّرْهُم ، وأَخْبِرْهم على وجهٍ يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم .

« وأجرٍ كريمٍ » : كبيرٍ وافرٍ على أعمالهم — وإنْ كان فيها خَلَلٌ .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحن نُحْيِي الموتَىٰ ونكتُبُ ما قدَّموا وآثارَهم » .

نُحيِي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُمْطِرُ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلفة ، ونكتب ما قدَّموا .

« وآثارَهم » : خُطَاهم إلى المساجد[1] ، ووقوفَهم على بِساط المناجاةِ معنا ، وتَرَقْرُقَ دموعِهم على عَرَصَات خدودهم ، وتَصَاعُدَ أنفاسِهم .

« وكُلَّ شئٍ أحصَيناه فى إمامٍ مُبِين »

أثبتنا تفصيلَه فى اللوح المحفوظ .. لا لتناسينا لها — وكيف وقد أحصينا كل شئٍ عدداً ؟ — ولكننا أحبَبْنا إثبات آثار أحبائنا فى المكنون من كتابنا .

قوله جل ذكره : « واضرِبْ لهم مَثَلاً أصحابَ القريةِ إذ جاءها المُرْسَلون » .

انقرض زمانُهم ، ونُسِيَ أوانُهم وشأنُهم ! ولكننا نتذكر أحوالَهم بعد فوات أوقاتهم ، ولا نرضى بألا يجرىَ بين أحبائنا وعلى ألْسِنَةِ أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين ، وهذا مخلوقٌ يقول فى صفة مخلوق :

(١) قال أبو سعيد الخدرى : كان بنو سلمة فى ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد ، فأنزل الله الآية ، وقال لهم النبى (ص) : « إن آثاركم تكتب فَلِمَ تنتقلون » أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٥ .

إذا نَسِيَ الناسُ إخوانَهم وخانَ المودَّةَ خِلاَّنُها
فعندى لإخوانِيَ الغائبين صحائفُ ذِكْرُكَ عنوانُها

قوله جل ذكره : « قالوا ما أنتم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وما أنزل الرحمنُ من شىء إنْ أنتم إلاَّ تَكذِبون * قالوا رَبُّنَا يعلم إنَّا إليكم لَمُرْسَلون » .

قال الرسل : « ربنا يعلم إنَّا إليكم لمرسلون » وليس عِلْمُنا إلاَّ بما أُمِرْنا به من التبليغ والإنذار .

« قالوا إنَّا تَطَيَّرْنَا بكم لَئِن لم تنتهوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وليَمَسَّنَّكُم مِنَّا عذابٌ أليم » .

لنرجمنَّكم ، ولَنَصْنَعَنَّ ، ولَنفْعَلَنَّ ... فأجابهم الرسل : إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف تَلْقَوْن ما تُوعَدُون .

قوله جل ذكره : « وجاء من أقصى المدينةِ رَجُلٌ يسعى قال ياقومِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِين * اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مُهْتَدُون » .

فى القصة أنه جاء من قرية فسَّماها مدينة ، وقال من أقصى المدينة ، ولم يكن أقصاها وأدناها لِيَتَفَاوَتَا بكثيرٍ ، ولكنه — سبحانه — أجرى سُنَّتَه فى استكثار القليل من فِعْلِ عَبْدِه إذا كان يرضاه ، ويستنزرُ الكثيرَ من فَضْلِهِ إذا بَذَلَه وأعطاه .

« اتبعوا من لا يسألكم أجراً .. » فأبلغَ الوَعْظَ وصَدَقَ النُّصْحَ .. ولكن كما قالوا :

وكم سُقْتُ فى آثارِكم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغضةَ المتنصِّحُ

فلمَّا صَدَقَ فى حاله ، وصَبَرَ على ما لَقِيَ من قومه ، ورجع إلى التوبة ، لقَّاه حُسْنَ أفضالِه ، وآواه إلى كَنَفِ إقبالِه ، ووَجَدَ ما وَعَدَه ربُّه من لُطْفِ أفضالِه .

« قال يا ليت قومى يعلمون * بما غفرَ لى
ربى وجعلنى من المُكرَمين ».

تمنَّى أنْ يعلم قومُه حاله ، فحقَّقَ اللهُ مُناه ، وأخبر عن حاله ، وأنزل به خطابه ، وعرّفَ قومَه ذلك . وإنما تمنَّى وأراد ذلك إشفاقًا عليهم ، ليعملوا مثلما عَمِلَ ليَجِدُوا مثلما وَجَدَ .

قوله جل ذكره : « وما أنزلنا على قومه
مِن بعدِهِ مِن جُندٍ من السماء وما كُنّا
مُنزِلِين * إن كانت إلاَّ صيحةً واحدةً
فإذا هم خامدون ».

ما كانت إلا قضية مِنَّا بعقوبتهم ، وتغييراً لِمَا كانوا به من السلامة إلى وصف البلاء .

قوله جل ذكره : « يا حَسْرَةً على العبادِ ما يأتيهم من
رسولٍ إلاَّ كانوا به يَستَهزِئُون » .

إن لم يتحسَّرُوا هم اليوم فَلَهُمْ موضع التحسُّر ؛ وذلك لانخراطهم فى سِلْكٍ واحد من التكذيب ومخالفة الرسل ، ومناوءة أوليائه — سبحانه .

قوله جل ذكره : « ألم يَرَوْا كم أهلكنا قبلَهم من
القرون أنَّهم إليهم لا يَرْجِعون * وإن
كُلٌّ لمّا جميعٌ لدينا مُحضَرُون » .

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية ، وما عاملنا به الأمم الخالية ، فلم يرجع إليهم أحد ، فكلُّهم فى قبضة القدرة ، ولم يَفُتْنا أحدٌ ، ولم يكن لواحدٍ منهم علينا عونٌ ولا مَدَدٌ ، ولا عن حكمنا ملتحد

قوله جل ذكره : « وآيةٌ لهم الأرضُ الميْتةُ أحيَيْناها
وأخرَجنا منها حَبًّا فمنه يأكلون ».

لمَّا كان أمرُ البعث أعظمَ شُبَهِهِمْ ، وكَثُرَ فيه إنكارُهم كان تكرارُ الله سبحانه لحديث

البعث ، وقد ضَرَبَ — سبحانه — المَثَلَ له بإحياء الأرض بالنبات فى الكثير من الآيات .
والعَجَبُ مِمَّنْ يُنْكِر علومَ الأصول ويقول ليس فى الكتاب عليها دليل ! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما فى القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال ، وتحكيم أدلة العقول[1] ؟ ولكنْ يَهْدِى اللهُ لنوره من يشاء . ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم ، واشتغلوا بأهم شىء عندهم لَمَا ضيَّعوا أصول الدِّين ، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد ، وادَّعَوا فى الفروع رتبةَ الإمامة والتصدُّر .. ويقال فى معناه :

يا مَنْ تَصدَّرَ فى دستَ الإمامة فى مسائل الفقه إملاء وتدريسا
غَفَلْتَ عن حججِ التوحيد تُحْكِمها شيَّدتَ فرعاً وما مَهَّدتَ تأسيساً !

قوله جل ذكره : « سبحان الذى خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ ومن أنفُسِهم ومِمَّا لا يعلمون » .

نَبَّهَ هذه الآيةُ على التفكُّرِ فى بديع صُنْعِه ؛ فقال : تنزيهاً لِمَنْ خَلَقَ الأشياء المتشاكلةَ فى الأجزاء والأعضاء ، من النبات ، ومن أنفسهم ، ومن الأشياء الأخرى التى لا يعلمون تفصيلها ، كيف جعل أوصافَها فى الطعوم والروائح ، فى الشكل والهيئة ، فى اختلاف الأشجار فى أوراقها وفنون أغصانها وجنوتها وأصناف أنوارها وأزهارها ، واختلاف أشكال ثمارها فى تفرُّقِها واجتماعها ، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قومٌ : الطبائع ؛ فى الحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واختلاف الأحداث التى يخلقها اللهُ عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرىَ العادة من التأثيرات التى تحصل فى الأبدان . ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، فالأوقات متجانسة ، والأزمان متماثلة ، والجواهر متشاكلة .. وهذه الأحكام مختلفة ، ولولا تخصيصُ حُكْمٍ لكل شىء بما اختصَّ به لم يكن تخصيصٌ بغير ذلك أوْلى منه . وإنَّ مَنْ كَحَّلَ اللهُ عيونَ بصيرته بِيُمْن التعريف، وقرَنَ أوقاته بالتوفيق ، وأَتَمَّ نَظَرَه ، ولم يصده مانع .. فما أقوى فى المسائل حُجَّتَه ! وما أوْضَحَ فى السلوكِ نَهْجَه ! .

---

(١) فى هذا ردٌّ على من يتهم الصوفية بمجافاتهم للعقل والعلم .

إنها لأقسامٌ سبقت على مَنْ شاءه الحقُّ بما شاء .

قوله جل ذكره : « وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مُظلِمون » .

نُبْطِلُ ضوءَ النهارِ بهجومِ الليلِ عليه ، ونُزِيلُ ظلامَ الليل بهجومِ النهار عليه ، كذلك نهارُ الوجود يدخل على ليالى التوقف ، ويعود بيد كَرَمِه عصا منْ عَمِيَ عن سلوكِ رُشْدِه فيهديه إلى سَوَاءِ الطريق .

قوله جل ذكره : « والشمسُ تجرى لِمُستقَرٍّ لها » .

على ترتيبٍ معلوم لا يتفاوت فى فصول السنة ، وكل يومٍ لها مشرقٌ جديد ولها مغربٌ جديد . . وكل هذا بتقديرِ العزيزِ العليم .

« والقمرَ قدَّرْناه منازِلَ حتى عَادَ كالعُرْجون القديم *
لا الشمسُ ينبغى لها أن تُدْرِكَ القمرَ
ولا الليلُ سابِقُ النهارِ وكُلٌّ فى فَلَكٍ
يَسْبَحُون » .

الإشارة منه أن العبد فى أوان الطلب رقيقُ الحال ، ضعيفٌ ، مختصرُ الفَهْم . . ثم يُفَكِّر حتى تزداد بصيرته . . . إنه كالقمر يصير كاملاً ، ثم يتناقَصُ ، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً ، وكُلَّمَا ازداد من الشمس دُنُوًّا ازداد فى نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفى ولا يُرَى . . . ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بدراً — مَنْ الذى يُصَرِّفه فى ذلك إلاَّ أنه تقدير العزيز العليم ؟ وشبيهُ الشمسِ عارِفٌ أبداً فى ضياء معرفته ، صاحبُ تمكينٍ غيرُ مُتَلَوِّنٍ[1] ، يشرق من برج سعادته دائماً ، لا يأخذه كسوفٌ ، ولا يستره سحابٌ .

وشبيهُ القمر عبدٌ تتلون أحوالُه فى تنقله ؛ فهو فى حال من البسط يترقَّى إلى حَدِّ الوصال ، ثم يُرَدُّ إلى الفترة ، ويقع فى القبض مما كان به من صفاء الحال ، فيتناقص ، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته ، ثم يجود الحقُّ — سبحانه — فيُوَفِّقُه لرجوعه عن فترته ،

(١) سبق أن أوضحنا الفرق بين حال التلوين والتمكين .

وإفاقته عن سكرته ، فلا يزال يصفو حاله إلى أنْ يقرُبَ من الوصال ، ويرزق صفة الكمال ، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص والزوال .. كذلك حاله إلى أنْ يُحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله ، كما قالوا :

ما كنت أشكو ما على بَدَني   من كثرة التلوين من بُدَّته[1]

وأنشدوا :   كُلَّ يومٍ تتلون   غيرُ هذا بِكَ أجمل

قوله جل ذكره : « وآيَةٌ لهم أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهم في الفُلْكِ المشحون * وخَلَقْنا لهم مِن مِثْلِهِ ما يَرْكَبُون » .

الإشارة فيه إلى حَمْلِ الخَلْقِ في سفينة السلامة في بحار التقدير عند تلاطم أمواجها بفنونٍ من التغيير والتأثير . فكَمْ من عبدٍ غرق في اشتغاله في ليله ونهاره ، لا يستريح لحظةً من كَدِّ أفعاله ومقاساةِ التعب في أعماله ، وجَمْع ماله .

فجَرَّه ذلك إلى نسيانِ عاقبته ومآله ، واستيلاء شُغْلِه بولَدِه وعياله على فِكْرِه وباله — وما سَعْيُه إلاّ في وَبَالِه !

وكم من عَبْدٍ غرق في لُجَّةِ هواه ، فجَرَّتْه مُناه إلى تحَمُّلِ بلواه ، وخسيسٍ من أمر مطلوبه ومُبْتَغاه .. ثم لا يَصِلُ قط إلى منتهاه ، خَسِرَ دنياه وعقباه ، وبَقِيَ عن مولاه !

ومن أمثال هذا وذلك ما لا يُحْصَى ، وعلى عقلِ مَنْ فكَّرَ واعتبر لا يَخْفَى .

أمَّا إذا حفظ عبداً في سفينة العناية أفرده — سبحانه — بالتحرُّرِ من رِقِّ خسائس الأمور ، وشَغَلَه بظاهره بالقيام بحقِّه ، وأكرمه في سرائره بفراغ القلب مع ربِّه ، ورقَّاه إلى ما قال : « أنا جليسُ مَنْ ذكرني » .. وقُلْ في عُلُوِّ شأنِ مَنْ هذه صفته .. ولا حَرَجَ !

قوله جل ذكره : « وإن نَشَأْ نُغْرِقْهُم فلا صريخَ لهم ولا هم يُنقَذُون * إلاّ رحمةً مِنّا ومتاعاً إلى حين » .

---

(١) البدة = النصيب والقسمة (اللسان) .

لولا جودُه وفضلُه لحَلَّ بهم من البلاء ما حَلَّ بأمثالهم ، لكنه بِحُسْنِ الأفضال ، يحفظهم في جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفَكم لعلَّكم تُرْحَمون» الآيات

هذه صفات من سَيَّبَهم[1] في أودية الخذلان ، ووَسَمَهم بِسِمَةِ الحرمان ، وأصَمَّهم عن سماع الرُّشْد ، وصَدَّهم بالخذلان عن سلوكِ القصد ، . فلا تأتيهم آيةٌ في الزَّجْرِ إلا قابلوها بإعراضهم ، وتجافوا عن الاعتبار بها على دوام انقباضهم ، وإذا أُمِرُوا بالإنفاقِ والإطعامِ عارضوا بأنَّ اللهَ رازقُ الأنام ، وإنْ يَشَأْ نَظَرَ إليهم بالإنعام :—

« وإذا قيل لهم أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قال الذين كفروا للذين آمنوا أَنُطْعِمُ مَنْ لو يشاء اللهُ أطعمه »

ثم قال جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ؟ * ما يَنظُرُون إلاَّ صيحةً واحـــدةً تأخذهم وهم يَخِصِّمون * فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يَرْجِعُون »

يستعجلون هجومَ الساعة ، ويستبطئون قيامَ القيامة — لا عن تصديقٍ يُزعجهم من شَكِّهم ، أو عن خوفٍ يمنعهم عن غَيِّهم ، ولكن تكذيباً لدعوة الرسل ، وإنكاراً لِصحة النبوة ، واستبعاداً للنشر والحشر .

ويومَ القيامةِ هم في العذاب مُحْضَرُون ، ولا يُكْشَفُ عنهم ، ولا يُنصَرُون .

قوله جل ذكره : « ونُفِخَ في الصُّور فإذا هم من الأجداثِ إلى ربِّهم يَنسِلُون * قالوا

---

(١) سيبه = تركه وخلاه يسيب حيث شاء (الوسيط).

يا وَيْلَنَا مَنْ بعثنا مِن مَرْقَدِنا هذا
ماوَعَدَ الرحمٰنُ وصَدَقَ المُرْسَلُون ».

يموتون قهرًا ، ويُحْشَرُون جبْرًا ، ويلقون أمراً ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

« قالوا يا ويلنا مَنْ بعثنا[1] من مرقدنا ؟ » يموتون على جهلٍ ، لا يعرفون ربَّهم ، ويُبْعَثُون على مِثْلِ حالِهم ، لا يعرفون مَنْ بعثهم ، ويعدون ما كانوا فيه فى قبورهم من العقوبة الشديدة — بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْن من الآلام الجديدة — نوماً ورقاداً ، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً ، لا يذوقون بَرْداً ولا شراباً إلا حميماً وغَسَّاقاً ، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً : فقد قال جل ذكره : —

« فاليــــومَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً
ولا تُجْزَوْن إلاَّ ما كنتم تعملون » .

قوله جل ذكره : « إنَّ أصحابَ الجنة اليومَ فى شُغُلٍ
فاكِهون » .

إنما يضاف العبدُ إلى ما كان الغالبَ عليه ذِكْرُه والآخذَ بمجامع قلبه ، فصاحبُ الدنيا مَنْ فى أَسْرِها ، وأصحابُ الجنة مَنْ هم طُلَّابُها والساعون لها والعاملون لِنَيْلِها ؛ قال تعالى مخبراً عن أقوالهم وأحوالهم : « لمثل هذا فليعمل العاملون »[2] . وهذه الأحوال — وإن جلَّتْ منهم ولهم — فهى بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تتقاصر ، قال صلى الله علية وسلم : « أكثر أهل الجنة البُلْه »[3] ومَنْ كان فى الدنيا عن الدنيا حُرّاً فلا يبعد أن يكون فى الجنة عن الجنة حراً ، والله يختص برحمته من يشاء .

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين ، فيقول لهم : « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغلٍ

---

(١) سقطت (بعثنا) من الناسخ فى ص .

(٢) آية ٦١ سورة الصافات .

(٣) جاء فى اللسان أن الأبله من تغلب عليه سلامة الصدر ، وحسن الظن بالناس ؛ لأنه يغفل أمر دنياه ، ويقبل على آخرته ويشغل نفسه بها ، قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله » فهم أكياس فى أمر الآخرة (اللسان حـ١٩ ص ٤٧٧) ط بيروت .

فاكهون » وهم أهل الحضرة والدنو ، لا تشغلهم الجنة عن أُنْس القربة ، وراحات الوصلة ، والفراغ للرؤية[1]

ويقال : لو عَلِمُوا عَمَّن شُغِلُوا لَمَا تَهنَّأوا بما شُغِلُوا .

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة : « إن أصحاب الجنة . . » كأنه يخاطبهم مخاطبةَ المُعاينة إجلالاً لهم كما يقال : الشيخ يفعل كذا ، ويُرَادُ به : أنت تفعل كذا .

ويقال : إنما يقول هذا لأقوام فى العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار ، ولم يدخلوا الجنة بَعْدُ لِعِصْيانهم ؛ فيقول الحق : عبدى .. أهلُ النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم ، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم ، وأهل الجنة وأصحابها اليومَ فى شُغْلٍ عنك لأنهم فى لَذَّاتهم ، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم ؛ فليس لك اليوم إلا نحن !

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم ، وذلك من أتمِّ الأشغال ، وهى أشغالٌ مؤنِسَةٌ مريحةٌ لا مُتْعِبَةٌ موحِشَةٌ .

ويقال : الحقُّ لا يتعلَّق به حقٌّ ولا باطل ؛ فلا تَنَافِيَ بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم ، وشهودهم مولاهم ، كما أنهم اليومَ مشغولون مستديمون لمعرفته بأى حالةٍ هم ، ولا يَقْدَحُ اشتغالهم — باستيفاء حُظُوظِهم — فى معارفهم .

ويقال شَغَلَ نفوسَهم بشهواتها[2] حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبةٍ من إحساس النَّفْس الذى هو أصعب الرُّقَباء ، ولا شىء أعلى من رؤية الحبيب مع فَقْدِ الرقيب .

قوله جل ذكره : « هم وأزواجُهم فى ظِلالٍ على الأرائكِ مُتَّكِئُون » .

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (قه وبه) ، وقد آثرنا (الرؤية) متأثرين برواية القرطبي عن الثعلبي والقشيرى — ابن المصنف — حيث تقول هذه الرواية : «فينظر إليهم الحق وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه» القرطبى حـ ١٥ ص ٤٥ .

(٢) قال ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومجاهد : شغلهم افتضاض العذارى .

وفى الخبر عن أبى سعيد الخدرى قال (ص) : «إن أهل الجنة كلما جامعوا نساءهم عدن أبكاراً» . ذكر ابن عباس : كلما أتى الرجل من أهل الجنة الحوراء وجدها بكراً ، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته ، ولا يكون بينهما منى ، منه أو منها . (القرطبى حـ ١٥ ص ٤٥) .

« أزواجهم » : قيـــل أشكالهم فى الحال والمنزلة ، كقوله : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم »[1] وقيل حَظَاياهم[2] من زوجاتهم .

« لهم فيها فاكِهةٌ ولهم ما يَدَّعون »

« لهم فيها فاكهة » : أى نصيب أنفسهم . ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس .

« ولهم فيها ما يدعون » : ما يريدون ، ويقال تسلم لهم دواعيهم ، والدعوى — إذا كانت بغير حقٍّ — معلولة .

قوله تعالى : « سَلاَمٌ قَوْلاً من ربٍّ رحيم »

يسمعونَ كلامَه وسلامَه بلا واسطة ، وأَكَّدَ ذلكَ بقوله : « قولاً » .

وبقوله : « من ربٍّ » ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير .

« من ربٍّ رحيمٍ » . والرحمةُ فى تلك الحالة أنْ يرزقَهم الرؤيةَ فى حال ما يُسَلِّمُ عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة . ويقال الرحمة فى ذلك الوقت أن يُبَقِّيَهم فى حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبَهم دهش ، ولا تلحقهم حيرة .

ويقال إنما قال : « من ربٍّ رحيم » ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفَسٌ ، ولرجائهم مساغ ؛ فإن الذى يحتاج إلى الرحمة العاصى .

ويقال : قال ذلك ليعلم العبدُ أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه ، وإنما وصل إليه برحمة ربه .

قوله جل ذكره : « وامتازوا اليومَ أيُّها المُجْرِمون » .

غيبةُ الرقيب أتمُّ نعمةٍ ، وإبعادُ العدوّ[3] مِنْ أَجَلِّ العوارف[4] ؛ فالأولياء فى إيجاب القربة ، والأعداء فى العذاب والحجبة .

---

(١) آية ٢٢ سورة الصافات .
(٢) جمع حظية وهى المرأة التى تفضل على غيرها فى المحبة .
(٣) يقول قتادة فى « امتازوا » إنها بمعنى عزلوا عن كل خير .
(٤) العوارف جمع عارفة وهى الفضل والإحسان .

قوله جل ذكره: « ألَمْ أعهد إليكم يا بنى آدمَ ألاَّ
تعبدوا الشيطانَ إنّه لكم عدوٌّ مبين *
وأنِ اعبُدُونى هذا صراط مستقيم » .

لو كان هـــذا القول من مخلوقٍ إلى مخلوقٍ لكانَ شبهَ اعتذار ؛ أى لقد نصحتُكم ووعظتُكم ، ومن هذا حَذَّرْتُكم ، وكم أوصلتُ لكم القولَ ، وذكَّرْتُكُم فلم تقبلوا وَعْظِى ، ولم تعملوا بأمرى ، فأنتم خالفْتُم ، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُم ، وبذلك سَبقت القضيةُ مِنّا لكم .

قوله جل ذكره : « اليومَ نختِمُ على أفواهِهم وتُكَلِّمُنا
أيديهم وتشهدُ أرجُلُهم بما كانوا
يَكْسِبُون » .

اليومَ سَخَّرَ اللهُ أعضاء بَدَنِ الإنسان بعضها لبعض ، وغداً ينقض هذه العادة ، فتخرج بعضُ الأعضاء على بعض ، وتجرى بينها الخصومة والنزاع ؛ فأمّا الكفار فشهادةُ أعضائهم عليهم مُبيدةٌ ، وأمّا العُصَاةُ من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعضُ أعضائهم بالعصيان ، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان ، وكما قيل :

بينى وبينك يا ظلومُ الموقفُ والحاكمُ العدْلُ الجوادُ المُنصِفُ

وفى بعض الأخبار المروية المُسْنَدَةِ أنَّ عَبْداً تشهد عليه أعضاؤه بالزَّلَّةِ فيتطاير شَعره من جفن عينيه ، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق : تكلمى يا شعرة جَفْنِ عبدى واحتَجِّى عن عبدى ، فتشهدله بالبكاء من خوفه ، فيغفر له ، وينادى منادٍ :هذا عتيقُ اللهِ بِشَعْرَة .

قوله جل ذكره : « ومَن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فى الخَلْقِ أفلا
يَعْقِلون » ؟

يَرُدُّه إذا استوى شبابُه وقوَّتُه إلى العكس ، فكما كان يزداد فى القوة يأخذ فى النقصان إلى أن يبلغَ أرذلَ العمر فى السن فيصير إلى مثل حال الطفولية فى الضعف ، ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شىء ، كما قيل :

طوى العصران ما نشراه منى وأبلى جـــدتى نَشْرٌ وطىٌّ

أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع النقصان شئٌ

هذا فى الجثث والمبانى دون الأحوال والمعانى ؛ فإن الأحوال فى الزيادة إلى أن يبلغ حدَّ الخَرَفِ[1] فيَخْتَلّ رأيُه وَعَقْلُه . وأهل الحقائق تشيب ذوائبُهم ولكنَّ محابَّهم ومعانيَهم فى عنفوان شبابها ، وطراوة جدّتها .

قوله جل ذكره : « وما عَلَّمْنَاه الشِّعْرَ وما ينبغى له
إنْ هو إلَّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مبين » .

كلامه صلى الله عليه وسلم كان خارجاً عن أوزان الشِّعر ، والذى أتاهم به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر ، ولا من طرق الخطباء .

تَحَيَّرَ القومُ فى بابه ؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق .

قوله جل ذكره : « أَوَ لَمْ يَرَوْا أنَّا خَلَقْنا لهم مِمَّا عَمِلَتْ
أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذَلَّلْنَاها
لهم فمِنْها رَكُوبُهُم ومنها يأكلون * ولهم
فيها منافعُ ومشارِبُ أفَلا يَشْكُرُون » .

ذَكَرَ عظيمَ مِنَّتِه عليهم ، وجميلَ نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التى ينتفعون بها بوجوه الانتفاع .

ولفظ « أيدينا » تَوَسُّع . أى مما عملنا وخلقنا ، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها ، وبشُرْبِ ألبانها ، وبالحملِ عليها ، وقَطْعِ المسافاتِ بها ، ثم بأصوافها وأوبارها وشَعَرِها ثم بِعَظْمِ بعضها . فطالَبَهم بالشكر عليها ، ووصَفَهم بالتقصير فى شُكْرِهم .

ثم أظْهَرَ — ما إذا كان فى صفة المخلوقين لكان شكاية — أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان : —

« واتخذوا مِن دونِ اللهِ آلهةً لَعَلَّهُم يُنْصَرُون

(1) الخرف فساد العقل من الكِبَر .

* لا يستطيعون نَصْرَهم وهُم لهم جُندٌ
مُحْضَرون » .

اكتفوا بأمثالهم[1] معبوداتٍ لهم ، ثم سَلَّى نبيَّهُ — صلى الله عليه وسلم بأنْ قال له : —
« فلا يَحْزُنْكَ قولُهم إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّون وما يُعْلِنُون »

وإذا عَلِمَ العبدُ أنّه بمرأًى من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه ، ولا سيما إذا كان فى الله .

قوله جل ذكره : « أوَ لَم يرَ الإنسانُ أنَّا خَلَقْناه مِن
نُطْفَةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين » .

أى شدَدْنا أَسْرَهم ، وجمعنا نَشْرَهم ، وسوّينا أعضاءهم ، وركّبنا أجزاءهم ، وأودعناهم العقل والتمييزَ . . ثم إنه « خصيم مبين » : ينازعنا فى خطابه ، ويعترض علينا فى أحكامنا بِزَعْمِهِ واستصوابه ، وكما قيل :

أُعَلِّمُهُ الرمايةَ كُلَّ يومٍ ... فلمَّا اشتدَّ ساعِدُه رمانى

قوله جل ذكره : « وضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال
مَن يُحْيِي العِظامَ وهى رميم * قل يُحييها
الذى أنشأها أوّلَ مرّةٍ وهو بكلِّ
خَلْقٍ عليم * الذى جعل لكم من الشجرِ
الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه توقدون » .

مهّد لهم سبيل الاستدلال ، وقال إن الإعادة فى معنى الإبداء ، فأى إشكالٍ بقِى فى جواز الإعادة فى الانتهاء ؟ وإنَّ الذى قدر على خَلْقِ النارِ فى الأغصان الرّطبة من المرْخِ والعَفَار[3] قادرٌ على خَلْقِ الحياةِ فى الرِّمة البالية ، ثم زاد فى البيان بأن قال : إن القدرة على مِثْلِ الشىء

---

(١) أى أمثالهم من المخلوقين والمخلوقات .

(٢) نزلت حين سأل أبي بن خلف الجمحى رسول الله (ص) وقد جاءه بعظم حائل قائلا : يا محمد ، أترى الله يحيى هذا بعدما رم ؟ فقال : نعم ، ويبعثك ويدخلك فى النار . (أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٦) .

(٣) المرخ شجر طويل ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى ، يقتدح به . والعفار الجوز المأكول . وفى المثل : «فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار» (الوسيط) .

كالقدرة عليه لاستوائهما بكلّ وجه ، وإنه يحيى النفوسَ بعد موتها فى العرصة كما يُحْيى الإنسانَ من النطفة ، والطيرَ[1] من البيضة ، ويحيى القلوبَ بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوسَ أهل الكفر بالهوى والطغيان .

قوله جل ذكره : « إنَّمَا أمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُن فيكون » .

« إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » بخَلْقِه وقدرته . وأخبرنا أنه تتعلّق بالمكوّن كلّه على ما يجب فى صفته ، وسيّان عنده خَلْقُ الكثيرِ فى كثرته والقليلِ فى قِلّته .

قوله جل ذكره : « فَسُبحان الذى بيده ملكوتُ كُلِّ شىءٍ وإليه تُرْجَعُون » .

أى بقدرته ظهورُ كلِّ شىء : فلا يحدث شىء — قلّ أو كَثُرَ — إلا بإبداعه وإنشائه ، ولا يبقى منها شىء إلا بإبقائه ، فمنه ظهور ما يُحْدِث ، وإليه مصير ما ...

(1) وردت (والطين) والصواب أن تكون (والطير) .

سورة الصَّافَّات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ إذا استولت على قلب أزالت عنه أولاً من الدارين أرَبَه ، ثم ألزمت على وجه التبعية حَرَبَه ، ثم شرَّفت من حيث الهمة طلَبَه .

قوله جل ذكره : « والصافاتِ صَفّاً »

افتتح اللهُ هذه السورة بالقَسَمِ بالصافات ، وهم الملائكة المصطفّةُ فى السماء وفى الهواء ، وفى أماكنهم على ما أمرهم الحق — سبحانه — من المكان يلازمونه ، والأمر يماشون ؛ يُسَبِّحونه ويُقَدِّسونه ، وبما يأمرهم به يطيعونه .

« فالزَّاجراتِ زَجْراً »

عَطَفَهم على ما تَقَدَّم بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحابَ . ويقال يزجرون الناسَ عن المعاصى . ويقال هى الخواطرُ الزاجرةُ عن المناهى .

« فالتالياتِ ذِكْراً »

يقال « الصافات » الطيورُ المصطفّةُ فى السماء ، « والتاليات ذكراً » الملائكة يتلون كتابَ اللهِ ، ويتلون الوحىَ على الأنبياء عليهم السلام .

« إنَّ إلـٰهَكُم لوَاحِدٌ »

هذا هو المقسومُ عليه .

أخبر أنه سبحانه واحدٌ فى مُلْكِه ، وذلك لأنهم تعجَّبُوا أن يقوم الواحدُ بجميع أحوال العالَم . ومعنى كونه واحداً تَفَرُّدُه فى حقِّه عن القسمة ، وتَقَدُّسُه فى وجوده عن الشبيه ، وتَنَزُّهُه فى

مُلْكِهِ عن الشريك ؛ واحد فى جلاله ، واحدٌ فى استحقاق جماله ، واحدٌ فى أفعاله ، واحدٌ فى كبريائه بنعت علائه ، ووصف سنائه .

قوله جل ذكره : « رَبُّ السمٰوات والأرضِ وما بينهما وربُّ المشارق »

مالكُ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما ، وخالقهما ، وأكسابُ العبادِ داخلةٌ فى هذا[1] .
« ورب المشارق » مشارق النجوم والشمس والقمر ، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها .

قوله جل ذكره : « إنَّا زَيَّنَّا السماء الدُّنيا بزينةٍ الكواكب * وحِفْظًا مِن كلِّ شيطانٍ ماردٍ »

زَيَّنَ السماء الدنيا بالنجوم ، وقلوبَ أوليائه بنجوم المعارف والأحوال ، وحفظ السمٰواتِ بأنْ جعل النجومَ للشياطين رجومًا ، وكذلك زَيَّنَ القلوبَ بأنوار التوحيد ، فإذا قَرُبَ منها الشيطان رَجَمَها بنجوم معارفهم .

قوله جل ذكره : « إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأتبعه شهابٌ ثاقب »

كذلك إذا اغتنم الشيطانُ من الأولياء أن يُلقِيَ إليهم شيئًا من وساوسه تذكَّروا ، فإذا هم مُبْصِرون ، ورجعوا .. قال تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا[2] » .

قوله جل ذكره : « فاستَفْتِهِم أهم أشَدُّ خَلْقًا أم مَنْ خلقنا إنَّا خلقناهم من طينٍ لازب »

---

(١) هذا الرأى على جانب كبير من الأهمية من الوجهة الكلامية ، وخلق أكساب العباد من الله حكماً وعلماً ؛ لأن الإرادة الإنسانية لا يمكن أن تخرج عن نطاق الحكم والعلم الإلهيين — هكذا أوقفنا القشيرى فى مواضع مختلفة .
(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

عرّفهم عجزَهم عن الإثبات، وضعفهم فى كل حال، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب[1].

قوله جل ذكره: « بل عَجِبتَ ويسخرون ».

حقيقة التعجب تغير النفس مما لم تجر العادة بحدوث مثله. وتقرأ[2] « عجبْتَ » بالفتح خطاباً للرسولِ صلى الله عليه وسلم — وبالضم فكأن الحقّ يقول ذلك مِنْ قبلَ نفسه بل عجبْتُ، وَيقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشىء، إما فى القدْر، أو الإكثار فى الذمّ أو فى المدح.

قوله جل ذكره: « وَإذا ذُكِّروا لا يذكرون »

إذا ذُكروا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكّر فيها، ويقولون: ليس هذا الذى أتى به محمدٌ إلا سحراً ظاهراً.

قوله جل ذكره: « أئذا متنا وكنا تراباً وَعظاما أئنا لمبعوثون * أوَ آباؤنا الأولون »

قالوا: أئذا متنا، تفرّقت أجزاؤنا، وَصرنا رميما.. أئنا لمبعوثون؟ أوَ آباؤنا الأولون يُبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد؛ فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مصدودة.

« قُلْ نعم وأنتم داخرون * فإنما هى زَجرَة واحدة فإذاهم ينظرُون »

قل لهم يا محمد: نعم، وعلى وصْف الصغر ما يبعثكم، وبزجرة واحدة يحشركم، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم.

---

(١) لازب أى لاصق لصق بعضه ببعض، أو لازق يلتزق بما أصابه، وقال مجاهد والضحاك هو المنتن (القرطبى) حـ١٥ ص ٦٨، ٦٩.

(٢) بالفتح قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم. وبالضم قراءة عبد الله بن مسعود، والكوفيين إلا عاصما. والذين ينكرون الضم يرون أن الله لا يعجب من شىء، ولكن تخريج القشيرى لذلك يكاد يكون سائغاً، وقد اختاره بعض الأئمة كالبيهقى.

« وقالوا يا ويلنا هذا يومُ الدين *
هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون»

دَعوا بالويل على أنفسهم ! ويقال لهم : هذا يومُ الفصل الذى كنتم تكذبون به ، وقد عاينتموه اليومَ .

قوله جل ذكره : « احشرُوا الذين ظلموا وأزواجهم
وما كانوا يعبدون * منْ دون اللهِ
فاهدوهم إلى صراطِ الجحيم *
وقفوهم إنهم مسئولون »

أراد بأزواجهم قرناءهم وأشكالهم ومَنْ عمل مثل أعمالهم ، ومَنْ أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير .. وكذلك فى هذه الطريقة : منْ أعان صاحبَ فترة فى فترته ، أو صاحب زَلة على زلته — كان مُشاركا له فى عقوبته ، واستحقاق طرْده وإهانته .

قوله : « وقفوهم إنهم مسئولون » : مقامُ السؤالِ مقامٌ صعبٌ : قوم يسألهم المَلِكُ وقومٌ يسألهم المَلَكُ ؛ فالذين تسألهم الملائكةُ أقوامٌ لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف ، وأقوامٌ لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف ، وهم قسمان : الخواصّ يسترهم الحقّ عن اطلاع الخلق عليهم فى الدنيا والآخرة ، وأقوامٌ هم أربابُ الزلات يرحمهم اللهُ فلا يفضحهم ، ثم إنهم يكونون فى بعض أحوالهم بنعت الهيبة ، وفى بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة ، وفى الخبر : « أن قوما يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك » وهؤلاء أصحاب الخصوص فى التحقيق : فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم : « كفى بنفسك اليوم عليكَ حسيباً »[1] ، فإذا قرءوا كتابهم يقال لهم . منْ عمل هذا ؟ وما جزاؤه ؟ فيقولون : جزاؤه النار . فيقال لهم : أدخلوها بحكمكم .

ثم يقال لهم فى بعض أحوال استيلاء الفزَع عليهم : —

(1) آية ١٤ سورة الإسراء .

« ما لكم لا تناصرُون * بلْ هم
اليومَ مستسلمون * وأقبل بعضهم على
بعضٍ يتساءلون »

يُورِّك بعضُهم الذنبَ على بعض ؛ فهذا يتبرأ من صاحبه ، وصاحبه يتبرأ منه ، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزى والهوان ، ويجمعهم فى اللعن والإبعاد .

قوله جل ذكره : « فإنهم يومئذٍ فى العذابِ مشتركون
* إنا كذلك نفعلُ بالمجرمين »

يشتركون فى العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم ، كما أنهم يشتركون فى الزّلة ولكن تختلف مقادير زلاتهم.

قوله جل ذكره : « إنهُم كانوا إذا قيل لهم لا إلَهَ
إلا اللهُ يستكبرون »

احتجابهُم بقلوبهم أوقعهمْ فى وهدة عذابهم ؛ ذلك لأنهُم استكبروا عن الإقرار بربوبيته . ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته ؛ قال تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته »[1] ، وقال : « لن يستنكف المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون »[2] فإنّ مَنْ عرَفَ اللهَ فلا لذة له إلا فى طاعته ، قال قائلهم.

ويظهرُ فى الهوى عزُّ الموالى   فيلزُمنى له ذُلُّ العبيد

قوله جل ذكره : « ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر
مجنون * بل جاء بالحقِّ وصَدّقَ
المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب
الأليم » .

---

(١) آية ٢٠٦ سورة الأعراف .
(٢) آية ١٧٢ سورة النساء .

لمَّا لم يحتشموا من وَصفه — سبحانه — بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب فى وصف أنبيائه .

قوله جل ذكره : « وما تُجْزَوْن إلا ما كنتم تعلمون * إلا عبادَ الله المخلصين »

الاستثناء راجع إلى قوله : « إنكم لذائقوا العذاب الأليم »

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحقِّ — سبحانه — بالعبودية . والذى يشوبُ عمله رياء فليس بمخلص .

ويقال : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين ، وفى الخبر : يا معاذ ، أخلص العملَ يكفيك القليل منه .

ويقال : الإخلاصُ فقدُ رؤية الأشخاص [1] .

ويقال : هو أن يلاحظ محل الاختصاص .

ويقال : هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص .

قوله جل ذكره : « أولئك لهُم رزقٌ معلومٌ * فواكهُ وهم مُكْرمون »

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعينة ، وفى وقت الرسول عليه السلام مَنْ كان له رزقٌ معلومٌ كان من جملة المياسير ، وهذه صفة أهل الجنة ؛ فلهُمْ فى الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم ولأسرارهم ، فالأغنياء لهم رزقٌ معلوم لأنفسهم [2] ، والفقراء [3] لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم .

« فواكه وهُم مكرمون » : من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ الله فى كل وقت ، وكذلك اليومَ الخطابُ واردٌ من الله على قلوب الخواص فى كل وقت بكلٍّ أمر .

---

(١) أى لا يكون هناك حساب للمخلوقين .

(٢) رزق النفوس لأغنياء الأموال .

(٣) ورزق القلوب لأرباب الأحوال .

« فى جَنَّاتِ النعيم * على سُرُرٍ
مُتَقابلين »

يستأنِسُ بعضُهم برؤية بعضٍ ، ويستروح بعضُهم إلى لقاء بعض .

« يُطَافُ عليهم بكأسٍ من معينٍ *
بيضاء لَذَّةٍ للشاربين »

شراب يوجِبُ لهم الطَّرَبَ ولا وحشةَ هنالك ، شراباً يُحْضِرَهم ولا يُسْكِرُهم ، لأنه قال :

« لا فيهـا غَوْلٌ ولا هم عنهـا
يُنزَفُون »

فلا تغتالُ عقولَهم ، ولا تُزِيل حِشْمَتَهم ، ولا تَرْفَعُ عنهم هَيْبَتَهم ؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر ، وآخرون يُسْقَوْن فى الحضور — وهم على نعت القُرْب .

« وعندهم قاصراتُ الطَّرْفِ عِين *
كأنهنَّ بيضٌ مكنون »

لا يَنظُرْنَ إلى غير الولىّ[1] ، ثم الولىُّ قد ينظر إليهن ، وفيهم مَنْ لا ينظر إليهن :

جُنِنَّا بِلَيْلَى وهى جُنَّتْ بغيرنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدها

قوله جل ذكره : « فأقبـــل بَعْضُهُم على بَعْضٍ
يتساءلون ... »

يتذاكرون فيما بينهم ، ويذكرون مِنْ معارفهم مَنْ لا يُؤْمِن باللهِ ، وما آمن به المؤمنون فيخلق اللهُ لهم إطلاعاً عليه وهم فى النار يحترقون .

قوله جل ذكره : « قال تاللهِ إن كِدتَّ لَتُرْدِين *

(١) المقصود به هنا الزوج ، أى نساء قد قصَرْنَ طرْفهن على أزواجهن .

ولولا نِعْمَــــةُ رَبِّى لَــكُنتُ من
المُحْضَرِين »

نَطَقَ الولىُّ بالحقِّ ولـكنه لم يُصَرِّحْ بعين التوحيد ؛ إذ جَعَلَ الفضْلَ واسطةً ، والأَوْلى أن يقول : ولولا ربى لـكنتُ من المحضرين[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ هذا لَهُو الفوزُ العظيم * لِمِثْلِ
هذا فليعمل العاملون »

يقال : بل الملائـكةُ يقولون لهم هذا ، ويقال : الحقُّ — سبحانه — إذا أرامهم مقامَهم فى الجنة يقول لهم : «لِمثْلِ هذا فليعمل العاملون » .

ويقال إنْ كان العابدُ يقول هذا ، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بَدَتْ شظيةٌ من الحقائق وتباشير الوصلة ، أو ذَرَّةٌ من نسيم القربة فبالحرىّ أن يقول القائلون : لِمِثْلِ هذه الحالة تُبْذَلُ الأرواحُ .

على مِثْلِ سَلْمَى يَقْتُلُ المرء نَفْسَه
وإن بات من سَلْمَى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات ، وتتقاصر الإشارات .

قوله جل ذكره . « أذلك خيرٌ نزُلاً أم شجرةُ
الزَّقُّوم »

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء ، وما هم به من صفة المذلة والعذاب فى النار ؛ من أَكْلِ الضريع ، ومن شراب الزقوم التى هى فى قُبْح صورة الشياطين ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ... إلى آخر القصة .

قوله جل ذكره : « ولقد نادانا نوحٌ فَلَنِعْمَ المُجِيبُون *
ونَجَّيْنَاه وأهْلَه من الـكَرْبِ العظيم »

(١) أى نطق بعين الفرق ولو كان بعين الجمع لقال : « ولولا ربى ... » .

لمَّا أصابه مِنْ الأذى مِنْ قومه حِين كذَّبوهُ ، ولم يسمعوا منه ما كان يقول مِنْ حَديثنا . . رَجعَ إلينا ، فخاطبنا وخاطبناه ، وكلمنا وَكلمناه ، وَنادانا فناديناه ، وكان لنا فكُنَّا له ، وأجابنا فأجبناه . فَلَنِعْمَ المجيبُ كان لنا ولنعمَ المجيبون كُنَّا له !

« مِنَ الكرب العظيم » : شتان بين كَرْبِ نوحٍ وبيْن كَرْب أهله !

وما يكون مثــلَ أخى ولــكن
أعــزِّى النَّفْس عنــه بالتأسى

قوله جل ذكره : « وَجعلنا ذُرِّيته هم الباقين »

لأنَّ الناس كلهم مِن أولاد نوح ، فإنَّ مَنْ كان معه فى السفينة لم يتناسلوا[1]

« وَتركنا عليه فى الآخرين »

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « وإنَّ مِن شيعته لإبراهيم * إذ جاء رَبَّه بقلْبٍ سليم »

يعنى أنَّ إبراهيم مِنْ شيعة نوح عليه السلام فى التوحيد — وإنْ اختلفا فى فروع شرعيهما .

« قلبٌ سليمٌ » : لا آفة فيه . ويقال لديغ مِنَ المحبة . ويقال : سليم من محبة الأغيار . ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته . ويقال : مستسلم لله فى قضائه واختياره .

قوله جل ذكره : « إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ »

سألهم على جهة الإنكار عليهم ، والتنبيه لهم على موضع غلطهم .

« فما ظَنُّكم بربِّ العالمين ؟ » .

---

(١) قال ابن عباس : لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه .

إذا لقيتمُوه — وقد عَبدتّم غيرَه . . فما الذى تقُولون له ؟ وكيف بكم فى مقام الخجلة بما بيْن أيديكمْ وإن كنتم اليوم — غافلين عنه ؟

قوله جلّ ذكره « فنظر نظرةً فى النجوم * فقال إنى سقيم » .

قيل أراد « إلى » النجوم فأقام « فى » مقامَ « إلى »[1] .

« إنى سقيم » : كانت تأتيه الحمىّ فى وقت معلوم ، فقال : قرُبَ الوقتُ الذى أسقم فيه مَنْ أخذِ الحمىّ إياى ؛ فكأنه تعلل بذلك ليتأخرَ عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم لتمشية ما كان فى نَفْسه من كسر الأصنام .

ويقال كان ذلك من جملة للمعاريض . وقيل أرى من نفسه موافقة قوْلهم فى القول بالنجوم لأنهمْ كانُوا يقولون بالنجوم ، فتأخر بهذا السبب عنهم[2] .

وكان إبراهيم فى زمان النبوة فلا يبعد أنّ اللهَ — عزّ وجلّ — قد عرّفه بطريق الوحى أنه يخلق — سبحانه — باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب .

ثم لمّا ذهبوا إلى عيدهم كسّرَ أصنامهم ، فلمّا رجعوا قالوا ما قالوا ، وأجابهمْ بما أجابهَم به إلى قوله :

« قالوا ابنُوا له بُنيانا فألقُوه فى الجحيم * فأرادوا به كيــدا فجعلناهمُ الأسفلين » .

رَدّ اللهُ كيدهُم إلى نحُورهم . وقد تعرّضَ له جبريلُ — عليه السلام — وهُوَ فى

---

(١) ربما نعترض على هذا . . . فمع تسليمنا بجواز نيابة حروف الجر بعضها عن بعض إلا أننا نرى أن استعمال «فى» أدق . . . فالمقصود من أن ابراهيم « نظر فى » النجوم أنه تأمل وتفكر . بينما لا تؤدى « نظر إلى » أكثر من التطلع بالعين وفرق بين التأمل بالفكر والبصيرة وبين التطلع بالبصر — والله أعلم .

(٢) أرسل إليه ملكهم إن غداً عيدنا فاخرج معنا ، فنظر إلى نجم طالع وقال : إن هذا يطلع مع سقمى — وكان علم النجوم مستعملا عندهم — فأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه . وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر فى النجوم (القرطبى ص ٩٢ جـ ١٥) .

الهواء وقد رُمِىَ من المنجنيق فعرَضَ عليه نفسه قائلاً : هل مِنْ حاجة ؟

فأجابَ : أمّا إليكَ .. فلا !

قوله جل ذكره : « وقال إنى ذَاهبٌ إلى ربى

سيهدين »

يقال إنه طلبَ هداية مخصوصة ؛ لأنه كان صاحب هداية ، إذْ لو لم تكن له هداية لمَا ذَهبَ إلى رَبِّه . ويحتمل أنه كان صاحبَ هدايةٍ فى الحال وطلبَ الهداية فى الاستقبال أى زيادةً فى الهداية ، ويقال طلبَ الهداية على كيفية مراعاة الأدب فى الحضُور ، ويقال طلبَ الهداية إلى نفسه لأنه فقدَ فيه قلبه ونفسه ؛ فقال سيهدينى إلىّ لأقومَ بحقِّ عبُوديته ؛ فإن المستهلكَ فى حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادَة إلّا بأن يُردَّ إلى حَالة التفرقة والتمييز .

ومعنى « إلى ربى » أى إلى المكان الذى يُعْبدُ فيه ربى .

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال : « إنى ذاهب إلى ربى » : فأخبر عن قوله .

وأخبر عن موسى فقال : « ولمّا جاء موسى لميقاتنا » ، فأخبر عن صفته لا عن قوله . .

وقال فى صفة نبينا صلى الله عليه وسلّم : « سبحان الذى أسرى بعبده . . . » [فأخبر عن ذاته سبحانه[1]]

وفصلٌ بينَ هذِه المقامات ؛ فإبراهيم كان بعين الفرْق ، وموسى بعينِ الجمع ؛ ونبينا كان بعين جمع الجمع .

قوله جلّ ذكره : « ربِّ هبْ لى من الصالحين *

فبشرناه بغلامٍ حليم »

لمّا قال « حليم » نبّهَ على أنه سيلقى من البلاء ما يحتاج إلى الحلم فى تحمله . .

---

(١) ما بين القوسين من عندنا أضفناه للتوضيح .

قوله جل ذكره: « فلما بَلَغَ مَعَه السَّعْىَ قال يا بنىَّ إنى
أرىٰ فى المنام أنى أذْبحك فانظرُ ماذا
ترىٰ قال : ياأبتِ افْعل ما تؤمرستجدنى
إن شاء اللهُ من الصابرين »

« فلما بلغ مَعَه السعى » إشارة إلى وقت توطين القلب عَلَى الوَلد ، رأى إبراهيم — عليه السلام — أنه يُؤمرُ بذبح ابنه إسماعيل[1] ليلةَ التروية ، وسميت كذلك لأنه كان يُروِّى فى ذلك طولَ يومه . هَلْ هُوَ حقٌ أم لا[2] ؟ . ثم إنه رأى فى الليلة التالية مثل ذلك فَعرفَ أن رؤياه حق ، فسمى يوم عرفة .

وكان إسماعيل ابنَ ثلاث عشرة سنة ، ويقال إنه رأى ذلك فى النوم ثلاث مرات[3] :

أن اذْبح ابنك ، فقال لإسماعيل : « يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » قال إسماعيل : « ياأبتِ افعل ماتؤمر » : أى لا تحكم فيه بحكم الرؤيا ، فإنها قد تصيب وقد يكُون لها تأويل ، فإن كان هذَا أمراً فافعل بمقتضاه ، وإن كان لها تأويل فتثبت[4] ، فقد يمكنك ذبح ابنك كلَّ وقتٍ ولكن لايمكنك تلافيه .

ويقال بل قال : أتركْ حَديثَ الرؤيا واحمله عَلَى الأمر ، واحملْ الأمر عَلَى الوجوب ، ثم احمله عَلَى الفور ولا تُقصِّرْ .

ويقَال قال له : إن كان يطيب قلبكَ بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبى أن يذبحنى أبى لأجل الله .

---

(١) اختلف الناس فى الذبيح فقال قوم إنه إسحاق وآخرون إنه إسماعيل . وفريق ثالث يقول : الله أعلم به .
« وعن الأصمعى أنه قال : سألت أباعمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعى . أين عَزَبَ عنك عقلك ! ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان اسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة » . اهـ أما إسحق فكان ببيت المقدس .

(٢) مع أن إبراهيم أخذ يتساءل بينه وبين نفسه عن ذلك إلا أنه من الثابت أن الرسل يأتيهم الوحى أيقاظاً ورقوداً ، فقلوبهم لا تنام ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » .

(٣) لأجل ذلك سميت الأيام الثلاثة على التوالى يوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (قبلت) ونحن نرجح (فتثبت) بدليل ما بعدها لأنه بعد الذبح يكون قد قضى الأمر . ويأسى ابرهيم إن كان ذلك غير المراد .

ويقال قال اسماعيل لأبيه : أنتَ خليلُ الله وتنام .. أَلَمْ تعلَمْ أن الخليلَ إذا نام عن خليله يؤْمَرُ بِذَبْح ابنه ؟ مَالَكَ يا أَبَتِ والنوم ؟

ويقال فى القصة : إنه رآه ذات يوم راكباً على فَرَسٍ أشهب فاستحسنه ، وتَعَلَّقَ إليه قلبه ، فأُمِرَ بِذَبْحِهِ ، فلمّا أخرجه عن قلبه ، واستسلم لذبحه ظَهَرَ الفداء ، وقيل له كان المقصودُ من هذا فراغَ قلبك عنه .

ويقال فى القصة : أَمَرَ إسماعيلُ أباه أن يَشُدَّ يديه ورِجْلَيه لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ أَلَمُ الذّبح فيُعَاتَب ، ثم لمَّا هَمَّ بِذَبْحِهِ قال : افتحْ القيدَ عنى حتى لا يقال لى : أمشدودَ اليد جئتنى ؟ وإنى لن أتحركَ :

ولو بيدِ الحبيبِ سُقِيتُ سُمّاً لكان السُّمُّ من يدِهِ يطيب

ويقال أيهما كان أشدَّ بلاءً ؟ قيل : إسماعيل ؛ لأنه وَجَدَ الذّبحَ من يد أبيه ، ولم يتعوّد من يده إلا التربية بالجميل ، وكان البلاء عليه أشدَّ لأنه لم يتوقع منه ذلك .

ويقال بل كان إبراهيم أشدَّ بلاءً لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعدَه .

«ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» لم يأتِ إسماعيل بالدعوى[1] بل تأدّب بلفظ الاستثناء.

ويقال لو قال إسماعيل إمّا لا تَقُلْ : « يا بُنَيَّ » بهذه اللطافة ، وإمّا لا تَقُلْ : «إنى أذبحك» فإنَّ الجمعَ بينهما عجيب !

قوله جل ذكره : « فلمّا أسْلَمَا وتَلَّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صَدَّقْتَ الرؤيا إنّا كذلك نجزى المحسنين *

قيل فى التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكين على حَلْقِهِ والسكين لا يقطَع ، فتعجَّبَ ابراهيمُ ، فنودى : يا إبراهيم كان المقصودُ من هذا استسلامكما .

ويقال إن الله سَتَر عليهما عِلْمَ ما أُريد منهما فى حال البلاء ، وإنما كَشَفَ عنهما بعد مُضِىّ وقت المحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء . . . وهكذا يكون الأمر عند البلاء ؛ تَنْسَدُّ الوجوه

---

(١) أى دعوى النفس بالمكنة دون تقديم المشيئة الإلهية .

فى الحال ؛ وكذلك كانت حالة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حال حديث الإفك ، وكذلك حالة أيوب عليه السلام ؛ وإنما يتبيّنُ الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها ، وإلاَّ لم تكن حينئذٍ محنة [إلاَّ أنه يكون فى حال البلاء إسبالٌ يُولَى مع مخامرة المحنةِ][1] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه ، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاء ؛ قال تعالى : —

« إنَّ هــذا لَهُوَ البلاء المبين *
وفَدَيْنَاه بِذِبحٍ عظيم » .

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى فى الجنة قبله بأربعين خريفاً .

والناس فى « البلاء » على أقسام : فبلاء مستعصب وذلك صفة العوام ، وبلاء مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم ، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا .

قوله جل ذكره : « وبَشَّرْناه بإسحاق نَبِيّاً من الصالحين*
وباركنا عليه وعلى إسحاقَ . . . »

وكلُّ هذا بعد البلاء ؛ قال تعالى : « إن مع العسر يسراً » .

قوله جل ذكره : « ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون »

مَنَّ عليهما بالنبوة ، وبالنجاة من فرعون وقومه ، وبنصرته عليهم .

« وآتيناهُما الكتابَ المُسْتَبِين » .

يعنى التوراة .

« وهَدَيناهُما الصراطَ المستقيم »

بالتبرى عن الحَوْلِ والقوة ، وشهود عين التوحيد .

« وتَرَكْنا عليهما فى الآخِرِين * سلامٌ
على موسى وهارون » .

ثم قال جل ذكره : « وإنَّ إلياسَ لَمِنَ المُرسَلين » .

« إلياس » : قيل هو إدريس ، وقيل غيره ، وكان بالشام ، واسمُ صَنَمِهم « بَعْل » ،

---

(1) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

ومدينتهم بعلبك .. أنذر قومَه فكذَّبوه ، ووَعَظَهم فما صدَّقُوه ، فأهلكَ قومَه .

قوله جل ذكره : « وإنَّ لوطًا لَمِنَ المُرْسلين »

مضت قصتهُ وكيف نجَّى أهلَه إلا امرأته التى شارَكَتْهم فى عصيانهم ، فحقَّ العذاب عليها مثلما عليهم [1] .

قوله جل ذكره : « وإن يُونُس لَمِنَ المُرْسَلين » .

فكان فى أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة ، ولكن لم يُعْفَ ، ثم استقبله ما استقبله ، فلم يلبث حتى رأى نَفْسَه فى بطن الحوت فى الظلمة : —

« فالتقمه الحوتُ وهو مُليم »

أى بما يُلَامُ عليه ، والحقُّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن الحيفِ فى حُكْمِه ؛ إذ الخلْقُ خَلْقُه ، ثم اللهُ رَاعَى حقَّ تَعَبُّدِه ، وحَفِظَ ذِمامَ ما سَلَفَ له فى أداء حقّه فقال : —

« فلولا أنَّه كان من المُسَبِّحين ● لَلَبِثَ فى بَطْنِه إلى يوم يُبْعَثُون »

فإن كَرَمَ العَهْدِ فينا من الإيمان ، وهو مِنَّا من جملة الإحسان ، « فالمؤمن قد أخذ من اللهِ خُلُقاً حسناً » — بذلك ورد الخبر .

« فَنَبَذْناه بالعراء وهو سقيم »

« سقيم » : فى ضعفٍ من الحال لِمَا أثَّر مِنْ كَوْنِه قضى وقتاً فى بطن الحوت .

وأنبَتْنا عليه شَجَرَةً من يقطين »

لِتظُلَّه ، فإنه كان فى الصحراء وشعاعُ الشمس كان يَضُرُّه ، وقَيَّضَ له اللهُ ظبيةً ذات وَلدٍ ... تجىء فيرضع من لبنها ، فكأنَّ الحقَّ أعاده إلى حال الطفولية . ثم إنه رَحِمه ، ورجع إلى قومه ، فأكرموه وآمنوا به ، وكان اللهُ قد كَشَفَ عنهم العذاب ، لأنهم حينما خَرَجَ يونس من بينهم ندموا وتَضَرَّعوا إلى الله لمَّا رَأَوْا أوائلَ العذاب قد أظلَّتْهم ،

(١) نلاحظ أن القشيرى يمر سريعاً إزاء قصص الأنبياء هنا لأنه توقف طويلا عند كل منها فى مواضع سبقت .

فَكَشَفَ الله عنهم العذاب ، وآمنوا بالله ، وكانوا يقولون : لو رأينا يونسَ لوقَّرْناه ، وعظَّمْناه ، فرجع يونسُ إليهم بعد نجاته من بطن الحوت ، فاستقبله قومُه ، وأدخلوه بلدَهم مُكرَّماً .

ويقال : الذَّنْبُ والجُرْمُ كانا من قومه ، فهم قد تُوُعِّدُوا بالعذاب . وأمَّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا ألَمَّ بمحظور ، وخرج من بينهم ، وكَشَفَ اللهُ العذابَ عنهم ، وسَلِمُوا .. واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى البلايا والتي بعد نجاته ؛ ويا عجباً من سِرِّ تقديره ! فقد جاء في القصة أن الله سبحانه — أوحى إلى يونس بعد نجاته أَنْ قُلْ لفلانٍ الفَخَّارِ حتى يَكْسِرَ الجرارَ التي عملها في هذه السنة كلَّها ! فقال يونس : يارب ، إنه قَطَعَ مدةً في إنجاز ذلك ، فكيف آمُرُه بأن يَكْسِرَها كُلَّها ؟

فقال له : يايونس ، يَرِقُّ قلبُكَ لِخَزَّافٍ يُتْلِفُ عَمَلَ سنةٍ . . وتريدني أن أُهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي ؟! يا يونس ، إنك لم تخلقهم ، ولو خَلَقْتَهم لَرَحِمْتَهم[1] .

قوله جل ذكره : « فاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ البناتُ ولهم البنون ؟ »

لمَّا قالوا في صفة الملائكة إنهم بناتُ الله بَيَّنَ اللهُ قُبْحَ قَوْلِهِم ، فقال : سَلْهُم من أين قالوا ؟ وبأي حُجَّةٍ حكموا بما زعموا ؟ وأي شُبْهَةٍ داخَلَتْهم . ثم إنهم كانوا يستنكفون من البنات ، ويُؤْثِرون البنين عليهن .. ومع كُفرهم وقبيح قولِهم وصفوا القديمَ — سبحانه — بما استنكفوا منه لأنفسهم !

قوله جل ذكره : « فإنَّكُم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلاَّ مَنْ هو صَالِ الجحيم » .

---

(١) تتجلى براعة القشيري في التقاط نماذج من القصص تخدم فكرته العامة بخصوص تأميل العصاة ، وإفساح باب التوبة أمامهم . . . على عكس بعض الباحثين الذين لا يهمهم إلا التخويف والتبشيع ، والتهويل والإقناط .

[أى ما أنتم بفاتنين من الناس إلاَّ من أغْوَيْتُه بحُكْمى ، فبه ضَلُّوا لا بإضلالكم[1] .

قوله جل ذكره : « وما مِنَّا إلاَّ له مَقَامٌ معلومٌ » .

للملائكة لهم مقام معلوم لا يتَخطُّونَ مقامَهم ، ولا يتعدَّوْن حدَّهم ، والأولياء لهم مقام][2] مستورٌ بينهم وبين الله لا يُطْلِعُ عليه أحداً ، والأنبياء لهم مقام مشهورٌ مُؤَيَّدٌ بالمعجزات الظاهرة ؛ لأنهم للخَلْقِ قدوة فأمْرُهُمْ على الشَّهْرِ ، وأمْرُ الأولياء على السَّتْرِ .

قوله جل ذكره : « ولقَــد سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لعبادِنا المُرْسَلِين » .

أى سبقت كلمتنا لهم بالسعادة ، وتقدَّمَ حُكْمُنا لهم بالولاية والرعاية ، فَهُم من قِبَلِنا منصورون : —

« إنَّهم لَهُمُ المنصورون * وإنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالِبُون » .

مَنْ نَصَرَه لا يُغْلَبُ ، ومَنْ قهرَه لا يَغْلِبُ .

وجُنْدُه الذين نَصَبَهم لنَشْرِ دينه ، وأقامَهم لِنَصْرِ الحقِّ وتبيينه . . مَنْ أراد إذلالَهم فَعَلَى أذقانه يخرُّ ، وفى حبل هلاكه ينجرُّ .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عنهم حتى حين * وأَبْصِرْهم فسوف يُبْصِرون » .

تَوَلَّ عنهم — يا محمد — إلى أن تنقضىَ آجالُهم ، وتنتهىَ أحوالُهم . وانتظِرْ انقضاء أيامِهم ، فإنه سينصرم حديثهم وشيكاً : —

« أفبعذابنا يستعجلون » .

---

(١) فى هذا الرأى رد على القدرية كما هو واضح .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين جاء فى م وسقط فى ص .

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة ، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرْطِ جهلهم ، ثم لقلة تصديقهم . فإذا نزل العذابُ بساحتهم ، وأناخ البلاء بعقوتهم فساء صباحهم . فتولَّ عنهم فَعَنْ قريبٍ سيحصل ما منه يُحَذَّرون .

قوله جل ذكره : « سبحان ربِّكَ ربِّ العِزَّةِ عما يَصِفون* وسلامٌ على المُرْسلين * والحمدُ لله ربِّ العالمين » .

« سبحان ربك » : تقديساً له ، وسلامٌ على أنبيائنا ، « والحمدُ لله » : أي هو المحمود على ما ساءَ أم سَرَّ ، نَفَعَ أم ضَرَّ .

سورة ص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

اسمٌ عزيزٌ اعترفت المعارفُ بالقصور عن إدراكه ، اسمٌ جليلٌ تَقَنَّعَت العلومُ خَجَلاً من الطمع فى إحاطته ، اسمٌ كريمٌ صَغُرَت الحوائج عند ساحات جوده ، اسمٌ رحيمٌ تلاشت قطرات زلأت عباده فى تلاطم أمواج رحمته .

قوله جل ذكره : « صَ والقرآنِ ذى الذِّكْرِ » .

الصَّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع . . أقسم بهذه الأشياء وبالقرآنِ . وجواب القسم : « إن ذلك لحقٌّ تخاصُمُ أهلِ النار » .

ويقال : أقسم بصفاء مودةِ أحبابه والقرآنِ ذى الذكر أى : ذى الشرف .. وشَرَفُه أنه ليس بمخلوق(1).

قوله جل ذكره : « بلِ الذين كفروا فى عِزَّةٍ وشِقاقٍ »

فى صلابةٍ ظاهرة ، وعداوة بيِّنة ، وإعراضٍ عن البحث للأدلة ، والسَّترُ للشواهد .

قوله جل ذكره « : كَمْ أهلكنا مِن قَبْلِهم مِن قَرْنٍ فنادَوا وَلاتَ حينَ مناصٍ » .

نادوا حين هَجَمَ البلاء مستغيثين ، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة .

قوله جل ذكره : « وعَجِبُوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم وقال الكافرون هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ »

عَجِبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم ، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتاتُ آلهةً ، وهذه مناقضة ظاهرة . فلمَّا تحيَّروا فى شأن أنبيائهم رَمَوْهم بالسحر ، وقسَّموا فيهم القول .

---

(1) وهذا رأى أهل السُّنَّة بخلاف ما يراه المعتزلة .

قوله جل ذكره : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهاً واحِداً إِنَّ هذا لشيءٌ عُجَابٌ » .

لم تباشر خلاصةُ التوحيد قلوبَهم ، وبعدوا عن ذلك تجوزاً ، فضلا عن أن يكون إثباتاً وحُكْماً ، فلا عرَفُوا الإِلَٰهَ ولا معنى الإِلَٰهية ؛ فإنَّ الإِلَٰهيةَ هي القدرة على الاختراع . وتقديرُ قادِرَيْنِ على الاختراع غيرُ صحيحٍ لِما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه ، ثم إنَّ ذلك يمنع من كمالهما ، ولو لم يكونا كامِلَيِ الوصفِ لم يكونا إلَٰهَيْن ، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطِهِ فهو مطروحٌ باطل .

قوله جل ذكره : « وانطلق المـلأُ منهم أَنِ امشُوا واصبِرُوا على آلهتِكم إنَّ هذا لشيءٌ يُرَادُ » .

إذا تواصى الـكفارُ فيما بينهم بالصبر على آلهتهم ، فالمؤمنون أَوْلى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم .

قوله جلّ ذكره : « ما سَمِعْنا بهذا في المِلَّةِ الآخِرةِ إِنْ هذا إلاَّ اختلاقٌ » .

ركنوا إلى السوء والعادة ، وما وجدوا عليه أسلافَهم من الضلالة ، واستناموا إلى التقليد والهوادة .

قوله جل ذكره : « أَءُنزِلَ عليه الذِّكْرُ مِن بينِنا بل هم في شَكٍّ مِن ذِكْرِي بل لَمَّا يذوقوا عذاب » .

أي لو استبصروا في دينهم لَمَا أَقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم ، ولولا أنَّا أدَمْنا لهم العوائقَ لَمَا تفرَّغُوا إلى طغيانهم [1] .

(١) قال تعالى : « الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » وقال تعالى : « من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون » تلك هي الحكمة الإلهية في إمهالهم .

« أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رحمةِ ربِّكَ العزيزِ
الوهابِ » .

أى : هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا ، وكَذَّبوا واحتجُّوا .. أعندهم شىء من هذه الأشياء ؟ أم هل هم يقدرون على شىء من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا ، ويعطوا من شاءوا ، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحى على مَنْ أرادوا ؟

« جُنـدٌ ما هُنَا لِكَ مهزومٌ مِنَ
الأحزابِ » .

بل هم جُنْد من الأحزاب المتحزبين . كُلُّهم عَجَزَةٌ لا يقدرون على ذلك ، مهزومون . شَبَّهَهُم فى بقائهم عن مرادهم بالمهزومين ؛ فإن هؤلاء الكفار ليس معهم حُجَّةٌ ، ولا لهم قوة ، ولا لأصنامهم أيضاً من النفع والضر مُكْنَةَ ، ولا فى الردِّ والدفع عن أنفسهم قدرة .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ
وفرْعونُ ذو الأوتاد .. » الآيات .

ذَكَرَ هؤلاء الأقوام فى هذا الموضع على الجمع ، وفى غير هذا الموضع على الإفراد[1] ، وفى كل موضعٍ فائدة زائدة فى الفصاحة والإفادة بكل وجه . ثم قال :

« إن كُلٌّ إلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقابِ » .

أى ما كان منهم أحدٌ إلاَّ كَذَّبَ الرسلَ فحقَّت العقوبةُ عليه ، واستوجَبَ العذابَ . ثم قال :

« وما ينظُر هؤلاءِ إلاَّ صيحةً واحدةً
ما لها مِن فَوَاقٍ » .

أى ليسوا ينتظرون إلا القيامة ، وما هى إلا صيحة واحدة ، وإذا قامت فإنها لا تسكن .

---

(١) المقصود بالجمع والإفراد هنا الجملة والتفصيل .

قوله جل ذكره : « وقالوا ربَّنا عَجِّل لنا قِطَّنا قبْلَ يومِ الحساب » .

اصْبِرْ — يا محمد — على ما يقولون ، فإنه لن تطولَ مُدَّتُهم ، ولن تَمُدَّ — في مقاساتِكَ أذاهم — لُبْثَكَ ومُكْثَكَ ، وعن قريبٍ سينزل اللهُ نَصْرَه ، ويصدق لك بالتحقيقِ وَعْدَه .

قوله جلّ ذكره : « واذكُرْ عَبْدَنا داودَ ذا الأيْدِ إنَّه أوَّاب » .

« ذا الأيد » أى ذا القوة ، ولم تكن قوَّتُه قوةَ نَفْسٍ ، وإنما كانت قوته قوةَ قلبٍ ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً — وهو أشدُّ الصوم ، وكان قوياً فى دين الله بنَفْسِه وقلبه وهمته. « أوّاب » رَجّاع[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّا سَخَّرْنا الجبالَ معه يُسَبِّحْنَ بالعشيِّ والإشراق[2] * والطيرَ محشورةً كُلٌّ له أوّاب » .

كان داود يُسَبِّح ، والجبالُ تُسَبِّح ، وكان داود يفهم تسبيحَ الجبالِ على وجهِ تخصيصٍ له بالكرامة والمعجزة .

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبِّح الله ، وداود كان يعرف تسبيحَ الطير ؛ وكلُّ مَنْ تَحَقَّقَ بحاله ساعَدَه كلُّ شيءٍ كان بقُرْبِه ، ويصير غيرُ جِنْسِه بحُكْمِه ، وفى معناه أنشدوا :

رُبَّ ورقاءَ هتوفٍ بالضُّحى ... ذات شجوٍ صَرَخَتْ فى فَنَنِ
ذَكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً ... وبَكَتْ شوقاً فهاجَتْ حَزَنى
فبُكائى رُبَّما أَرَّقَها ... وبكاها ربما أَرَّقَنى
ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها ... وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

(١) من (آب) يئوب إذا رجع . فكان داود رجّاعا إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به (القرطبى ج ١٥ ص ١٥٩) .

(٢) يرى ابن عباس أن (الإشراق) معناه صلاة الضحى إذ هى بعد طلوع الشمس .

قوله جل ذكره : « وَشَدَدْنا مُلْكَه وآتيناه الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخطابِ » .

أى قوّينا مُلْكَه بأنصاره ، وفى التفسير : كان يحفظ مُلكَه كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجلٍ .

قوله جل ذكره : « وشَدَدْنا مُلْكَه وآتيناه الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطاب » .

أى شددنا مُلْكَه بنصرنا له(1) ودَفْعِنا البلاءَ عنه .

ويقال شددنا مُلْكَه بالعدل فى القضية ، وحُسْنِ السيرة فى الرعية .

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدى الظَّلَمَةِ .

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين .

ويقال شددنا مُلْكَه بأن رأى النصرةَ مِنَّا ، وَتبرّأ من حَوْلِه وقُوَّتِه .

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلُّونه على ما فيه صلاح مُلْكه .

ويقال بِتَيَقُّظِه وحُسْنِ سياسته . ويقال بقبوله الحق من كلِّ أحد .

ويقال برجوعه إلينا فى عموم الأوقات .

« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » : أى أعطيناه الرُّشْدَ والصوابَ ، والفَهْمَ والإصابة .

ويقال العلم بنفْسِه وكيفية سياسة أمته .

ويقال الثبات فى الأمور والحكمة، وإحكام الرأى والتدبُّر.

ويقال صحبة الأبرار ، ومجانبة الأشرار .

وأمَّا « فصل الخطاب » فهو الحكم بالحق ، وقيل : البينة على مَن ادَّعىَ واليمين على مَنْ أنكر . ويقال: القضاء بين الخصوم .

---

(1) يغمز القشيرى هنا بأصحاب السلطان الذين لا يحسنون سياسة الرعية ولا اختيار الوزراء والأعوان . . . ونحن نعلم أنه ابتلى فى عهد طغرل بمحنة كبرى .

قوله جل ذكره : « وهل أتاك نَبَأُ الخَصْمِ إذ تَسَوَّروا المحراب » . . الآيات

أرسل اللهُ إلى داود عليه السلام مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحا كمّا إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تَزَوُّجِه بامرأة أوريا ، وكان تَرْكُ ذلك أَوْلَى — هذا على طريق مَنْ رأى تنزيهَ الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب .

وأمَّا مَنْ جَوَّزَ عليهم الصغائر فقال : هذا من جملته . وكَنَّى الخَصْمان باسم النعجة عن النساء .

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى : إنّى لَأَجِدُ فى التوراة أنَّكَ أعطيتَ الأنبياء الرُّتَبَ فأَعْطِنِيها ، فقال : إنهم صبروا فيما ابتَلَيْتُهم به ، فوعد داودُ من نَفْسِه الصبرَ إذا ابتلاه طمعًا فى نَيْلِ الدرجات ، فأخبر اللهُ تعالى أنه يبتليه يومَ كذا ، فجعل داودُ ذلك اليوم يوم عبادة ، واختلى فى بيته ، وأَمَرَ حُرَّاسَه ألا يؤذِنَ أحدٌ بالدخول عليه ، وأغلق على نَفْسِه البابَ ، وأخذ يُصَلِّى زمانًا ، ويقرأ التوراةَ زمانًا يتعبَّد . أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غَلْق بابِ السماء . وأَمَرَ حرَسَه أن يدفعوا عنه الناسَ وكانوا ثلاثينَ ألف رجل — ويقال أربعة آلاف — ولكن لم يُمْكِنْهم أنْ يدفعوا عنه حُكْمَ القضاء ، ولقد قال الحكماء : الهاربُ مما هو كائن فى كَفِّ الطالبِ يتقلب .

وكانت فى البيت كُوَّةٌ يدخل منها الضوء ، فدَخَلَ طيرٌ صغيرٌ من الذهب ، ووقع قريباً منه ، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فهَمَّ أن يأخذَه ليدفعه إلى ابنه[1] ، فتباعَدَ عنه . وجاء فى التفاسير : أنه كان إبليس ، قد تصوَّر له فى صورة طير ، فتَبِعَه داود ، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً ، وداود يتبعه حتى خرَجَ من الكوة ، وَنَظَرَ داود فى إثره فوَقَعَ بَصَرُه على امرأة أوريا وهى تغتسل متجردةً ، فصاد إلى قلبه منها شىء ، فكان هذا السبب .

ويقال لم يَرُعِ الاهتمامَ بسبب وَلَدِه حتى فعل به مافعل ، وفى ذلك لأُولى الأبصار عِبْرَةٌ[2] .

---

(١) نقل القرطبى هذه الرواية منسوبة إلى القشيرى جـ ١٥ ص ١٨٢ .

(٢) يحاول القشيرى فى تلمسه لسبب محنة داود أن يوضح للمريدين أنه حتى الأكابر قد تحل بهم البلوى نتيجة المساكنة إلى غيره ، فيغار الحق عليهم وينزل بهم من الأمر ما يردهم إلى الحق . . . وذلك فضل الله سبحانه .

ويقال لم يكن أوريا قد تزوَّجَ بها بَعْدُ ، وقد كان خَطَبَها ، وأجابَتْه فى التزوج به ، فَخَطَبَ داود على خِطبَتِه . وقيل بل كانت امرأتَه وسأله أن ينزل عنها ، فنَزَلَ على أمره وتزوجها . وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقُتِلَ وتزوَّج بها . فلمَّا تَسَوَّرَ الخصمان عليه ، وقيل دَخَلاَ من سور المحراب أى أعلاه ولذلك : —

« فَفَزِعَ منهم قالوا لا تَخَفْ خَصْمان
بَغَىٰ بعضُنا على بعضٍ فاحْكُم بيننا
بالحقِّ ولا تُشطِطْ واهْدِنا إلى سَوَاء
الصِّراط » .

نحن خصمان ظَلَمَ بعضُنا بعضاً ، فاحكُمْ بيننا بالعدل :

إنَّ هذا أخى له تِسْعٌ وتسعون نعجةً
ولِىَ نعجةٌ واحدةٌ فقال أكْفِلْنيها
وعَزَّنى فى الخطاب » .

« أكفلنيها » أى انزلْ عنها حتى أكفلَها أنا ، « وعَزَّنى فى الخطاب » . أى غلبنى ، فقال داود :

« قال لقد ظَلَمَكَ بسؤالِ نَعْجَتِكَ
إلى نِعاجِه » .

فضحك أحدهما فى وجه صاحبه ، وصَعَدَ إلى السماء بين يديه ، فَعَلِمَ داودُ عند ذلك أنه تنبيهٌ له وعتابٌ فيما سَلَفَ منه ، وظنَّ واستيقن أنه جاءتْه الفتنةُ الموعودة :

« فاستغفر ربَّه وخرَّ راكِعاً وأنابَ » .

أخذ فى التضرع ، وجاء فى التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسَه من السجود إلا (الصلاة)[1] المكتوبة عليه ، وأخذ يبكى حتى نَبَتَ العُشبُ من دموعه ، ولم يأكل ولم

(1) (الصلاة) غير واردة فى النسختين وقد استعنا بالقرطبى فى هذه التكملة (جـ15 ص 180) وقد وجدناها

يشرب فى تلك المدة، حتى أوحى اللهُ إليه بالمغفرة، فقال: يارب، فكيف بحديث الخصم ؟ قال: إنى استوهبْتُك[1] منه، وقال تعالى:

« فَغَفَرْنا له ذلك وإنَّ له عندنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مآب ».

إن له عندنا لقُربةً وحُسْنَ رجوعٍ، وقيل: كان لا يشرب الماء إلا ممزوجًا بدموعه. ويقال لمَّا التجأ داود عليه السلام فى أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخذاء وَجَدَ المغفرةَ والتجاوز.. وهكذا مَنْ رجع فى أوائل الشدائد إلى الله فاللهُ يكفيه مما ينوبه، وكذلك مَنْ صَبَرَ إلى حينٍ طالت عليه المحنة. ويقال إنَّ زَلَّةً أَسَفُكَ عليها يوصلك إلى ربِّك أجْدَى عليك من طاعةٍ إعجابُكَ بها يُقْصيكَ عن ربِّك[2].

قوله جل ذكره: « يا داودُ إنَّا جعلناكَ خليفةً فى الأرضِ فاحْكُمْ بين الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهوىٰ فيُضِلَّكَ عن سبيلِ اللهِ إنَّ الذين يَضِلُّون عن سبيل اللهِ لهم عذاب شديد بما نَسُوا يومَ الحساب ».

« جعلناكَ خليفةً » أى بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ من الأنبياء عليهم السلام. وقيل حاكمًا من قِبَلِي لتحكمَ بين عبادى بالحقِّ، وأوصاه بألا يتبعَ فى الحكم هواه تنبيهًا على أنَّ أعظمَ جنايات العبد وأقبحَ خطاياه متابعةُ الهوى.

ولما ذكَرَ اللهُ هذه القصة أعقبها بقوله:

« وما خَلَقْنَا السماءَ والأرضَ وما بينهما

ضرورية لتوضيح كيف أن التعبد الفائق الذى يمارسه الخاصة لايمنع من رجوعهم فى حال الفرق الثانى إلى أن يقوموا بالتعبد الذى تفرضه الشريعة. وربما كان ذلك مقصد القشيرى من اختيار هذه الرواية... والواقع أن القشيرى يجيد اختيار الشواهد من القصص والأخبار، واضعاً فى الاعتبار خدمة التصوف وأهله.

(1) أى استوهبتك منه بثوابه الجنة (القرطبى جـ ١٥ ص ١٨٥).

(2) هكذا يفتح القشيرى أبواب الأمل أمام العصاة، ويدفع عنهم القنوط من رحمة الله.

باطلاً ذلك ظَنُّ الذين كفروا فويلٌ

للذين كفرُوا من النارِ » .

« باطلاً » أى وأنا مُبْطِلٌ فى خلقهما ، بل كان لى ما فعلتُ وأنا فيه مُحِقٌّ .

ويقال ما خلقتُهما للبطلان بل لأمرهما بالحقِّ .

ثم أخبر أنه لا يجعل للفسدين كالمحسنين قط ، ثم قال :

« كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُبَارَكٌ ليَدَّبَّرُوا[1]

آياتِه وليَتَذَكَّرَ أولوا الألباب » .

« مبارك » وهو القرآن ، ومبارك أى كثيرُ النفْع ، ويقال مباركٌ أى دائمٌ باقٍ لا ينسخه كتابٌ ؛ مِنْ قولهم بَرَكَ الطيرُ على الماء . ويقال مباركٌ لِمَنْ آمَنَ به وصَدَّقَ . ثم إنه بيَّنَ أنَّ البركةَ فى تدبُّرِهِ والتفكُّرِ فى معانيه .

قوله جل ذكره : « ووَهَبْنَا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العَبْدُ

إنَّه أوَّابٌ » .

« نِعْمَ العبدُ » لأنه كان أوَّابًا إلى الله ، راجعًا إليه فى جميع الأحوال ؛ فى النعمة بالشكر ، وفى المحنة بالصبر .

قوله جل ذكره : « إذ عُرِضَ عليه بالعشىِّ الصافِناتُ

الجِيادُ » .

« الصافنات » جمع صافنة وهى القائمة ، وفى التفاسير هى التى تقوم على ثلاث قوائم ؛ إذ ترفع إحدى اليدين على سُنْبُكِها[2] . وجاء فى التفاسير أن سليمان كان قد غزَا أهلَ

---

(1) فى الألوسى أن عليًا قرأ « ليتدبروا » بتاء بعد الياء ، وكذا فى « البحر » لأبى حيان .

(2) السنبك طرف الحافر ، والصفون فى اللغة إدامة القيام ، قال صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأ مقعده من النار » ؛ وقال الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كسيرا

(اللسان : مادة صفن)

دمشق ، وأصابَها منهم[1]، وقيل وَرِثَها عن أبيه داود وكان قد أصابها من العمالقة[2]، وقيل كانت خيلاً لها أجنحة خرجت من البحر[3].

وفى بعض التفاسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرسٍ فَشَغَلَتْه عن بعض أذكاره لله .

« بالعشىّ » : فى آخر النهار ، وقيل كان ذلك صلاة العصر[4].

قوله جل ذكره : « رُدُّوها علىَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بالسُّوقِ والأعناقِ » .

قيل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد أن فَرَغَ من صلاته .

وقيل عَرْقَبَها (ليذبحها فَحَبَسَها بالعرقبة عن النفار)[5] ، وقيل وَضَعَ عليها الكىّ فَسَبَّلَها[6]. وإيش ما كان فكلُّ ذلك كان جائزاً فى شرعه .

قوله جل ذكره : « فقال إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكْرِ ربى حتى توارَتْ بالحجاب »[7] .

أى لَصِقْتُ بالأرض لحُبِّ المال . ويقال لمّا سَبَّلَ هذه الأفراس عَوَّضَه[8] الله — سبحانه — بأن سَخَّرَ له الريح ، وهذا أبلغ ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شيئاً لله لم يخسر على الله .

قوله جل ذكره : « ولقد فَتَنَّا سليمانَ وألقينا على كُرْسِيِّه جَسَدًا ثم أنابَ » .

---

(١) هذه رواية الكلبى .

(٢) هذه رواية مقاتل .

(٣) هذه رواية الحسن والضحاك .

(٤) ينقل القرطبى عن أبي نصر القشيرى بن عبد الكريم القشيرى قوله : ما كان فى ذلك الوقت صلاة ظهر ولا صلاة عصر وإنما كانت تلك الصلاة نافلة ، وشغل عنها ثم تذكرها .

(٥) ما بين القوسين زيادة أضفناها ، اقتبسناها من القرطبى من الموضع نفسه حتى يتضح المعنى الذى يتجه إليه القشيرى (ج ١٥ ص ١٩٦).

(٦) سبل الشىء أى أباحه وجعله فى سبيل الله

(٧) اختلف فى التى « توارت بالحجاب » فقيل هى الشمس ، وقيل هى الخيل وقد استعرضها حتى توارت الجهاد .

(٨) هكذا فى م وهى فى ص (عرضه) بالراء والصحيح ما أثبتناه من م .

اختلف الناسُ فى هذه الفتنة ؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال : لَأطوفَنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدةٍ منهن غلام يقاتل فى سبيل الله »[1] ولم يَقُلْ إن شاء الله ، ولم تَحْمِلْ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشق مولود ، فألقته على كرسيِّه ، فاستغفر ربه من تَرْكِ الاستثناء ، وكان ذلك ترك ما هو الأَوْلَى .

وقيل كان له ابن ، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه ، فَهَمُّوا بقَتْلِهِ ، فاستودعه الريح فى الهواء لئلا تصل إليه الشياطين ، فمات الولد ، وألقته الريح على كرسيه ميتاً . فالفتنة كانت فى خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء ، وكان الأَوْلَى به التوكل وتَرْكَ الاستعانة بالريح .

وقيل فى التفاسير : إنه تزوج بامرأة[2] كانت زوجة مَلِكٍ قهره سليمان ، وسَبَاها ، فقالت له : إن أَذِنْتَ لى أنْ اتَّخِذَ تمثالا على صورةٍ لأبى لأتسلَّى بنظرى إليه ؟ فأَذِنَ لها ، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواريها أربعين يوماً) ، وكانت تعبده سِرًّا ، فعوقب عليه[3] .

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحَبِّ نسائه إليه ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودَفَعَه إليها ، وهى على باب الخلاء ، فإذا خَرَجَ استردَّه . وجاء يوماً شيطانٌ يُقَال له « صخر » على صورة سليمان وقال لامرأته : ادفعى إلىَّ الخاتم فدفعته ، ولبسه ، وقعد على كرسيه ، يُمَشِّى أمورَه — إلا التصرفَ فى نسائه — فقد منعه اللهُ عن ذلك . فلمَّا خرج سليمانُ طَالَبَ المرأة بالخاتم ، فقالت : الساعةَ دَفَعْتُهُ إليك . فظَنَّ أنه فُتِنَ ، وكان إذا أخبر الناسَ أنه سليمان لا يُصَدِّقُونه ، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر) ، وأصابته شدائد ، وحمل سَمَكَ الصيادين بأجرةٍ حتى يجدَ قُوتاً .

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَه) نشروا التوراة بين يديه ،

---

(١) فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال : « قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، وأيم الذى نفسى محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون » .

(٢) هذه المرأة — كما يقول الزمخشرى — هى «جرادة ابنة ملك جزيرة فى البحر يقال لها صيدون .

(٣) وكانت عقوبته حرمانه من ملكه أربعين يوماً — هى مدة عبادة الصنم فى بيته .

صَخْرٍ ورمى بالخاتم فى البحر ، وطار فى الهواء . ولمّا أَذِنَ اللهُ رَدَّ مُلْكِ سليمان إليه ، ابتلعت سمكةٌ خاتمه ، ووقعت فى حبال الصيادين ، ودفعوها إلى سليمان فى أجرته ، فلمّا شقَّ بطنَها ورأى خاتَمه لبسه ، وسَجَدَ له الملاحون ، وعاد إلى سرير مُلْكِه[1].

قوله جل ذكره : « قال ربِّ اغفِرْلى وهَبْ لى مُلْكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعدى إنَّك أنت الوهَّابُ » .

أى مُلْكاً لا يسلبه أحدٌ منى بعد هذا كما سُلِبَ منى فى هذه المرة .

وقيل أراد انفراده به ليكونَ معجزةً له على قومه .

وقيل أراد أنه لا ينبغى لأحدٍ من بعدى أن يسأل المُلْكَ ، بل يجب أن يَكِلَ أمرَه إلى الله فى اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء ، ولكن قال لا ينبغى من بعدى لأحدٍ من الملوك .

وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس ، وإنصافِ بعضهم من بعض ، والقيامِ بحقِّ الله ، ولم يسأله لأجْلِ مَيْلِهِ إلى الدنيا .. وهو كقول يوسف : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم »[2].

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهرَ ، وإنما أراد به أن يَمْلِكَ نَفْسَه ، فإن المَلِكَ — على الحقيقة — مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَه ، ومَنْ مَلَكَ نَفْسَه لم يَتَّبِعْ هواه .

ويقال أراد به كمالَ حاله فى شهود ربِّه حتى لا يرَى معه غيرَه .

ويقال سأل القناعةَ التى لا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أن سِرَّ نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — ألا يلاحِظَ الدنيا ولا ملكها

---

(١) نلاحظ أن القشيرى — وإن تجنب الوقوع فى كثير من الروايات السخيفة مثل اجتماع سليمان بالنساء فى حيضهن ، ومثل قضائه فى الناس بغير الحق ونحو ذلك — إلا أنه لم يستطع التخلص من الروايات المتأثرة بالإسرائيليات لأننا لا نستطيع أن نتصور وقوع نبى كسليمان أو كداود فى مثل هذه المزالق التى لا ينحدر إليها نبى .

(٢) آية ٥٥ سورة يوسف .

فقال : « لا ينبغى لأحد مِنْ بعدى » لا لأنه بَخِلَ به على نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ولكن لِعلْمِه أنه لا ينظر إلى ذلك .

قوله جل ذكره : « فَسَخَّرْنا له الريحَ تجرى بأمرِه رُخَاءً حيثُ أصابَ » .

شكَرَ اللهُ سَعْيَه ، وسَخَّرَ له الريحَ بَدَلاً من الأفراس ؛ فلا يحتاج فى إمساكها إلى العَلَفِ والمُؤَنِ .

« والشياطينَ كُلَّ بنَّاء وغوَّاصٍ *
وآخرين مُقَرَّنين فى الأصفادِ * هذا عطاؤنا
فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغير حِسابٍ » .

كما سخَّرنا له الشياطين .

ثم قال : « هذا عطاؤنا . . » أى فأَعْطِ أو أَمْسِكْ ، واحفظْ وليس عليك حساب .

والمشىُ فى الهواء للأولياء ، وقَطْعُ المسافاتِ البعيدة فى مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً فى هذه الأمة — وإنْ لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين . وإظهاره على خَدَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه — صلى الله عليه وسلم — أشرف[1] .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عَبْدَنا أيوبَ إذْ نادىٰ ربَّهُ أنِّى مَسَّنِىَ الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذابٍ » .

أى بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البَلِيَّة ، وقيل لما كان قال (أى الشيطان) لامرأته : اسجدى لى حتى أردَّ عليكم ما سلبتكُم .

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلومٌ فلم يَنْصُرْه . فابتُلِىَ .

ويقال استضافَ الناسَ يوماً فلمَّا جاءه ابنُ فقيرٍ مَنَعَه من الدخول .

---

(١) من مبادىء نظرية القشيرى فى الكرامة : أن كرامة الولى فرع لمعجزة النبى الذى ينتمى الولى إلى أمته ، فكل شرف للولى هو فى الأصل شرف للنبى وآية حظوته ورتبته .

ويقال كان يغزو مَلِكاً كافراً ، وكان لأيوب غَنَمٌ فى ولايته ، فداهَنَه لأَجْلِ غَنَمِهِ فى القتال .

ويقال حَسَدَه إبليسُ ، فقال : لَئِنْ سَلَّطتنى عليه لم يشكر لك .

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين فى مكتب واحدٍ ، فجرَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم .

ويقال لبث أيوب فى البلاء ثمانى عشرة سنة ، وقيل أربعين سنة ، وقيل[1] سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

قوله جل ذكره : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ[2] هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشرابٌ » .

لمَّا أراد اللهُ كَشْفَ البلاءِ عنه قال له : « اركض برجلك » ، فركض ، فظَهَرَت عينُ ماءٍ باردٍ فاغتسل به ، فعاد إليه جمالُه وكمالُه . وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة ، واغتسل ، وردَّ الله لحمَهَ وشَعْرَه وبشره ، وأحيا أولاده وأهله ، وقيل بل يردُّهم إليه فى الجنة فى الآخرة .

قوله جل ذكره : « وخُذْ بيدِكَ ضِغْثًا فاضرِب به ولا تَحْنَثْ إنَّا وجدناه صابراً نِعْمَ العبدُ إنّه أوَّاب » .

الضِّغْث الحُزمة من القضبان ، وقيل كانت مائة ، وأُمِرَ بأن يضرب بها دفعةً على امرأته لئلا يحنث فى يمينه ، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائةَ خشبةٍ إنْ صحَّ (أنها أخطأت) . فشَكَرَ

(١) الرواية الأخيرة منسوبة إلى ابن عباس .

(٢) رفض أبو الفرج الجوزى احتجاج بعض المتصوفة بهذه الآية على إباحة الرقص . والواقع أن ذلك يمنح القشيرى تقديراً خاصاً ؛ لأنه لو كان يؤيد ذلك الاحتجاج لقال به ، بل لم يشر إليه ، كما لم يشر عند الآية التى سبقت فى هذه السورة : «ردوها على فطفق ... » إلى ما يحتج به بعض المتصوفة من تمزيق الخرقة وتقطيع الثياب ، فهذه فى رأيه استدلالات فاسدة يلجأ إليها الطغام .

اللهُ لها لبراءةِ ساحتِها ، وصَبْرِها على خدمته . وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليسُ : اسجدى لى ؛ أخبرت أيوبَ بذلك ، فغاظه حيث سمعت من إبليس ذلك وظنَّتْ أنه صادق . وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهَّمَ فى ذلك ريبةً ، وكان أيوب يتعلَّق بذوائبها (إذا أراد القيام) . وقيل رابه شئ منها فحَلَف (أن يضربها بعد شفائه) .

« إنَّا وجدناهُ صابراً .. » : والصبرُ ألا تعترضَ على التقدير .

ويقال الصبر الوقوف تحت الحُكْم . ويقال التلذُّذ بالبلاء ، واستعذابُه دون استصعابه .
ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب .

ولم يَنْفِ قولُه « مسنى الضر » اسمَ الصبرِ عنه ؛ لأنَّ ذلك لم يكن على وجه الشكوى ، ولأنه كان مرة واحدة ، وقد وقف الكثيرَ من الوقت ولم يَقُلْ مَسَّنى الضُّرُّ ؛ فكان الحُكْمُ للغالب .

« نعم العبدُ إنه أواب » لم يشغله البلاء عن المُبْلِي . ونِعْمَ العبدُ لأنه خرج من البلاء على الوجه الذى دخل فيه .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ عِبادَنا إبراهيمَ وإسحٰقَ
ويعقوبَ أُولِى الأيدى والأبصارِ *
إنَّا أخلَصْناهم بخالصةٍ ذكرى الدَّار » .

« أولى الأيدى » : أى القوة[1] . « والأبصار » أى البصائر .

« إنا أخلصناهم بخالصة » : أى بفضيلة خالصة وهى ذكر الجنة والنار ، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب من النار . ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين ؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء . ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكرى الدار ، «وإنهم عندنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخيار » .

قوله جل ذكره : « واذكُرْ إسماعيلَ واليسَعَ وذا الكِفْلِ
وكُلٌّ من الأخيار » .

---

(1) يرى الطبرى أن (الأيدى هنا معناها : النعم والإحسان لأنهم قد أحسنوا وقدموا الخير) .

« وذا الكِفْلِ » : قيل كان تَكَفَّلَ لله بعمل رجلٍ صالحٍ مات فى وقته ، وقيل كَفَلَ مائةً من بنى إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالمٍ ، فكان يُنْفِقُ عليهم .

ويقال كان اليسعُ وذو الكفل أخوَيْن .

قوله جل ذكره : « هـذا ذِكْرٌ وإن لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ » .

أى هذا القرآن فيه ذِكْرُ ما كان ، وذِكْرُ الأنبياء والقصص .

ويقال إنَّه شرفٌ لك ؛ لأنه معجزةٌ تدل على صِدْقِك ، وإن للذين يتَّقُون المعاصِىَ لَحُسْنَ المُنْقَلَبِ .

« جناتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لهمُ الأبوابُ »

أى إذا جاءوها لا يلحقهم ذُلُّ الحجابِ ، ولا كُلْفَةُ الاستئذان ، تستقبلهم الملائكةُ بالترحاب[1] والتبجيل . متكئين فيها على أرائكهم ، يدعون فيها بفاكهةٍ كثيرة وشرابٍ على ما يشتهون ، وعندهم حورٌ عين قاصراتُ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن ، « أتراب » : لِدَاتٌ مُسْتَوِيَاتٌ فى الحُسْنِ والجمال والشكل .

قوله جل ذكره : « هذا وإنَّ للطاغين لَشَرَّ مآبٍ » .

لَشَرَّ مَرْجِعٍ ومُنْقَلَبٍ ؛ وهى جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذَّبين فيها ، وبئس المكانُ ذلك !

« هذا فَلْيَذُوقوه حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ »

« حميم » : هو الماء الحار ، و « غسّاق » هو عصارة أهل النار[2] ، ويقال هو زمهرير جهنم[3] .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بالإيجاب) ونحن نؤثر (بالترحاب) لتقابل ما يقال لأهل النار فيما بعد (لامرحباً بهم)

(٢) هذا قول محمد بن كعب .

(٣) هذا قول ابن عباس . وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ نتن . وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج الزناة ، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح . وقال آخرون إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحَرِّه (القرطبى حـ١٥ ص ٢٢٢) .

« وآخَرُ من شَكْلِه أزواجٌ »

أى فنون أخرى من مثل ذلك العذاب .

قوله جل ذكره : « هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ معكم لا مَرْحباً بهم إنهم صالوا النار » .

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم ، ويقول الأتباع للمتبوعين : لا مرحباً بكم ؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقنا كم ، ويقولون :

« ربَّنَا مَن قَدَّمَ لنا هذا فَزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً فى النار » .

فيقال لهم كُلُّكُم فيها ، ولن يفترَ العذابُ عنكم .

قوله جل ذكره : « وقالوا مالنا لا نرىٰ رجالاً كُنَّا نَعُدُّهم من الأشرار » ؟ .

يقول الكفار عندما يدخلون النار : مالنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدهم فى الدنيا من الأشرار والمستضعفين .. فَلَسْنَا نراهم هاهنا ؟ أهم ليسوا هنا أم زاغت عنهم أبصارُنا ؟ يقوله أبو جهلٍ وأصحابُه يعنون بلالاً والمستضعفين ، فيُعَرَّفون بأنهم فى الفردوس ، فتزداد حسراتُهم .

(إنَّ ذلك لَحَقٌّ تخَاصُمُ أهلِ النارِ) .

أى إن مخاصمةَ أهلِ النارِ فى النار لَحَقٌّ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّما أنا مُنذِرٌ وما مِنْ إلهٍ إلاَّ اللهُ الواحِدُ القهارُ * ربُّ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما العزيزُ الغفَّارُ) .

قل يامحمد : إنما أنا مُنْذِرٌ مخوِّفٌ ، مُبَلِّغٌ رسالةَ ربى ، وما من إلهٍ إلا الله الواحد الذى لا شريك له .

« قُلْ هو نَبَأٌ عظيم * أنتم عنه مُعْرِضُون

ما كان لى مِن عِلْمٍ بالملإ الأعلىٰ إذ
يختصمون * إن يوحَىٰ إلىَّ إلَّا أنَّما أنا
نذيرٌ مبينٌ » .

أى الذى أتيتُكم به من الأخبار عن القيامة والحشرِ ، والجنة والنار ، وما أخبرتكم به عن نُبوَّتى وصِدْقى هو نبأٌ عظيمٌ ، وأنتم أعرضتُم عنه .

وما كان لى من عِلْمٍ بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أنَّ الله عرَّفنى ، وإلا ما كُنْتُ عَلِمْتُه . والملأ الأعلى قومٌ من الملائكة فى السماء العليا ، واختصامهم كان فى شأن آدم حيث قالوا : أتجعل فيها مَنْ يُفْسِد فيها ؟

وقد ورد فى الخبر : « أن جبريل سأل الرسولَ صلى الله عليه وسلم عن هذا الاختصام فقال : لا أدرى . فقال جبريل : فى الكفارات والدرجات ؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء فى السَّبْرَات[1] ، ونَقْل الأقدام إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإفشاء السلامِ ، وإطعامُ الطعامِ ، والصلاةُ بالليل والناسُ نيام »[2] . وإنما اختلفوا فى بيان الأجر وكمية الفضيلة فيها — فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا ، ولكنهم فى الأصل لا يجحدون .

. . وهذا إنما يُوحِى إلىَّ وأنا منذر مبين .

قوله جل ذكره : « إذ قال ربُّك للملائكةِ إنِّى خالقٌ
بَشَراً من طين »

إخباره الملائكة بذلك إنما يَدُلُّ على تفخيم شأن آدم ؛ لأنه خَلَقَ ما خَلَقَ من الكونين[3] ،

---

(١) السبرات جمع سبرة بسكون الباء وهى الغداة الباردة .

(٢) روى الخبر أبو الأشهب عن الحسن هكذا : «سألنى ربى فقال : يا محمد ، فيم اختصم الملأ الأعلى ؟ قلت فى الكفارات والدرجات . قال : ما الكفارات ؟ قلت : المشى على الأقدام إلى الجماعات .... » أخرجه الترمذى بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (المكذبين) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .

والجنة والنار ، والعرش والكرسى ، والملائكة ، ولم يقل فى صفة شىء منها ما قال فى صفة آدم وأولاده . ولم يأمر بالسجود لأحدٍ ولا لشىء إلا لآدم ، وسبحان الله ! خَلَقَ أعزَّ خَلْقِهِ من أذَلِّ شىءٍ وأخَسِّه وهو التراب والطين .

« فإذا سَوَّيْتُه وَنَفَخْتُ فيه من روحى
فقعوا له ساجدين » .

روحُ آدم — وإنْ كانت مخلوقة — فلها شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر ، فلمَّا سوَّى خَلْقَ آدم ، ورَكَّبَ فيه الروح جلَّلَه بأنوار التخصيص ، فوقعَتْ هيبته على الملائكة ، فسجدوا لأمره ، وظهرَتْ لإبليسَ شقاوتُه ، ووقع — بامتناعه — فى اللعنة .

« قال يا إبليسُ ما مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بيدىَّ أستكبَرْتَ أمْ
كُنتَ من العالين. قال أنا خيرٌ منه
خَلَقْتنى من نارٍ وخَلَقْتَه من طين » .

من هنا وقع فى الغلط ؛ تَوَهَّمَ أنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية ، ولم يعلم أن التفضيلَ من حيث القسمة دون الخِلْقَة .

ويقال ما أودع اللهُ — سبحانه — عند آدم لم يوجد عند غيره ، ففيه ظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : « قال فاخرُجْ منها فإنَّكَ رجيم *
وإنَّ عليكَ لعنتى إلى يوم الدين » .

قال فاخرج من الجنة ، ومن الصورة التى كنت فيها ، ومن الحالة التى كنتَ عليها ، « فإنك رجيم » مَرْمِىٌّ باللَّعنِ منى ، وبالشُّهب من السماء ، وبالرجوم من قلوب الأولياء إنْ تعرَّضْتَ لهم .

قوله جل ذكره : « قال ربِّ فأنظِرنى إلى يومِ
يُبْعَثُون * قال فإنَّكَ من المُنظَرِين *
إلى يومِ الوقتِ المعلوم » .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه[1] ، وتعلَّقت إرادتُه بسؤال إنظاره ، فازداد إلى القيامة فى سبب عقوبته ، فأنْظَرَهُ اللهُ ، وأجابه ، لأنه بلسانه سأل تمامَ شقاوته .

« قال فَبِعزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهم أجمعين *
إلاَّ عبادَكَ منهم المُخْلَصِين » .

ولو عرَفَ عِزَّتَه لَمَا أقسم بها على مخالفته .

ويقال تجاسُرُه فى مخاطبة الحقِّ — حيث أَصَرَّ على الخلاف وأقسم عليه — أقْبَحُ وأوْلى فى استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لآدم[2] .

قوله جل ذكره : « قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ *
لأَمْلأَنَّ جهنَّمَ منكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
منهم أجمعين » .

وختم اللهُ سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ ما أسألكم عليه من أَجْرٍ
وما أنا من المُتَكَلِّفِين * إنْ هو

---

(١) فى هذه الإشارة دقة تحتاج إلى تأمل ، فقول القشيرى «جرى على لسانه» تفيد أن مأساة إبليس ترجع إلى مشيئة عليا ، وإن كان ظاهر اللفظ أنه بلسانه اختار طريقه ، وبإرادته سعى إلى إنظاره .

وهكذا يغمز القشيرى بمن يحاولون نسبة الحرية للإنسان — مع أن الحرية وبال ونكال .

ويذكّرنا هذا الموقف بقولة ابن عربى فى (شجرة الكون) عند شرح «كن فيكون» أن فى «كن» كل شىء ؛ فى الكاف كمال الدين والكفر ، وفى النون النعمة والنقمة ... فالله خالق كل شئ حين خاطب الكون : «كن»

(٢) فى هذه الإشارة لفتة إلى مقصد بعيد : أن الوقوع فى الذنب أمر قبيح ولكن الإصرار على الذنب أقبح . وهذا حث العصاة على الإقلاع عن المعاصى ، وعدم اليأس من رحمة الله. وتطالعنا سماحة القشيرى فى هذا الخصوص فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب ، وكذلك أنظر باب «التوبة» فى الرسالة .

إلا ذِكْرٌ لِلعَالَمِين * ولتَعْلَمُنَّ نَبَأه
بَعْدَ حين » .

ما جئتكم من حيث أنا[1] ، ولا باختيارى ، وإنما أُرسِلتُ إليكم .

« إن هو إلا ذكر للعالمين » يعنى القرآن ، عظة لكم .

« ولتعلمن نبأه بعد حين » وعُلِمَ صِدْقُهُ بعد ما استمرت شريعتُه ، فإن مثل ذلك إذا كان باطلاً لا يدوم[2].

---

(١) أى من طرفى أو من جهتى .
(٢) أى أن دوام الشريعة وخلودها من آيات صحتها وصدقها .

سورة الزمر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ سماعُها يوجِبُ للقلوب شفاءها ، وللأرواح ضياءها ، وللأسرار سناءَها وعلاءَها .

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها بِسَمْعِ العلم ازداد بصيرةً على بصيرة ، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة.
ومَنْ سمعها بِسَمْعِ الوَجْدِ ظلَّتْ ألبابُه مبهورة ، وأسراره بقهر الكشوفات مقشورة .

قوله جل ذكره : « تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم » .

أى هذا كتابٌ عزيزٌ نَزَلَ من ربٍّ عزيز على عبدٍ عزيز بلسان مَلَكٍ عزيز فى شأنِ أمةٍ عزيزة بأمرٍ عزيز . وفى ورود الرسولِ به من الحبيب الأول نزهةٌ لقلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها ، وارتياحٌ عند قراءة فصولها .

وكتابُ موسى فى الألواح التى كان منها يقرأ موسى ، وكتابُ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِ المصطفى صلوات الله عليه . . وفَصْلٌ بين من يكون كتابُ ربِّه مكتوباً فى ألواحه ، وبين من يكون خطابُ ربِّه محفوظاً فى قلبه ، وكذلك أمته ، قال تعالى : « بل هو آيات بيناتٌ فى صدور الذين أوتوا العلم[1] » .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبدِ اللهَ مُخْلِصاً له الدِّين » .

أى أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا مُحِقٌّ فى إنزاله .

---

(١) آية ٤٩ سورة العنكبوت .

والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع . وتكون بالنّفْس والقلب والروح ؛ فالتى بالنفس فالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص ، والتى بالقلب فالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص ، والتى بالروح فالإخلاص فيها التنقِّى عن طلب الاختصاص[1] .

قوله جل ذكره : « ألا لله الدينُ الخالِصُ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى » .

الدين الخالص ماتكون جملته لله ؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد ، اللهم أن يكون بأمره ؛ فإنه إذا أمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به ، ولولا هذا لمَا صحَّ أنْ يكونَ فى العالَمَ مُخْلِصٌ .

« والذين اتخذوا من دونه أولياء . . . » أى الذين عبدوا الأصنام قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولم يقولوا هذا من قِبَل الله ولا بأمره ولا بإذنه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فَرَدَّ اللهُ عليهم . وفى هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القُرَبِ بنشاطِ نَفْسِه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت ، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عقودٍ ثم لا يَفِى بها . . فكل ذلك اتباعُ هوًى ، قال تعالى : « ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوانِ الله فما رَعَوْها حَقَّ رعايتها[2] » .

قوله جل ذكره : « إن اللهَ لا يَهْدِى مَنْ هو كاذب كَفَّار » .

لا تهديهم اليومَ لدينه ، ولا فى الآخرة إلى ثوابه . والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرَّض لغير مقامه ، ويدَّعى شيئاً ليس بصادقٍ فيه ، فاللهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سَدادُه ورُشْدُه : وعقوبتُه أنْ يَحْرِمَه ذلك الشيءَ الذى تصدَّى له بدعواه قبل تَحَقُّقِه بوجوده وذَوْقِه .

---

(١) تصلح هذه الفقرة لتوضيح درجات العبادة ودرجات الإخلاص ، والآفات التى تلحق كل درجة منها ، وكيفية التنقى عن هذه الآفات — وبمعنى آخر فإنها تهمنا عندما نبحث أصول ما أطلقنا عليه : علم النفس الصوفى .

(٢) آية ٢٧ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « لو أراد اللهُ أن يتَّخِذَ وَلداً لا صطفَى
مِمَّا يَخْلُقُ ما يشاء سبحانه هو اللهُ
الواحِدُ القهَّار » .

خاطَبَهم على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم حيث قالوا : المسيحُ ابن اللهِ ، وعُزَيْرٌ وَلَدُ اللهِ ؛ فقال : لو أراد أن يتَّخِذَ وَلَداً للتبنِّى والكرامة لاختارَ من الملائكة الذين هم مُنَزَّهون عن الأكل والشرب وأوصاف الخَلْقِ .

ثم أخبر عن تَقَدُّسِه عن ذلك فقال : « سبحانه هو الله الواحد القهار » تنزيهاً له عن اتخاذ الأولاد . . لا فى الحقيقة لاستحالة معناه فى نَعْتِه ، ولا بالتبنِّى لِتَقَدُّسِه عن الجنسية والمحالات ، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد ؛ إذ لو كان ذلك فكيف كان يكون حُكْمُه ؟ كقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[1] » .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ » .

أى خَلَقَهما وهو مُحِقٌّ فى خلقهما .

« يُكَوِّرُ الليلَ على النهارِ ويُكَوِّرُ
النهارَ على الليل وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ
كُلٌّ يجرى لِأجَلٍ مُسَمًّى » .

يُدْخِلُ الليلَ على النهارِ ، ويدخل النهارَ على الليل فى الزيادة والنقصان ، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ . وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد فى القبض والبسط ، والجَمْعِ والفَرْقِ ، والأخذ والرد ، والصحو والسُّكْرِ ، ونجوم العقل وأقمار العلم ، وشموس المعرفة ونهار التوحيد ، وليالى الشَّكِّ والجَحْدِ ونهار الوصل ، وليالى الهجر والفراق وكيفية اختلافها ، وزيادتها ونقصانها .

« ألا هو العزيزُ الغفارُ » .

« العزيز » المتعزِّز على المحبين ، « الغفار » للمذنبين .

---

(1) آية ٢٢ سورة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحدةٍ ثم جَعَلَ
منها زَوْجَها وأنزل لكم من الأنعامِ
ثمانيةَ أزواجٍ ، يخلقكم في بطون
أمهاتِكم خَلْقًا من بعد خلْقٍ في ظلماتٍ
ثلاثٍ ذلكم الله ربُّكم له المُلْكُ
لا إله إلا هو فأنَّى تُصْرَفون » .

« من نفس واحدة وخلق منها زوجها » يعنى آدم وحواء .

« وأنزل لكم من الأنعام » أى خلق لكم ، « ثمانية أزواج » فمن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المواشى اثنين .

« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق » : أى يصوِّركم ، ويُرَكِّب أحوالكم .

« في ظلمات ثلاث » : ظلمة البطن ، وظلمة الرَّحِم ، وظلمة المشيمة[1] . ذَكَّرَهم نسبتهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

ويقال بيَّنَ آثار أفعاله الحكيمة في كيفية خِلْقَتِك — من قطرتين — أمشاجاً متشاكلةَ الأجزاء ، مختلفةَ الصُّوَرِ في الأعضاء ، سَخَّرَ بعضَها محالٌّ للصفات الحيدة كالعلم والقدرة والحياة .. وغير ذلك من أحوال القلوب ، وسَخَّرَ بعضها محالٌّ للحواس كالسمع والبصر والشَّمِّ وغيرها .

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أنعم اللهُ بها علينا فَذَكَّرَنا بها — والنفوسُ مجبولةٌ ، وكذلك القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها — استجلاباً لمحبتنا له .

« ذلكم الله ربكم ... »[2] أى إن الذى أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربُّكم .

---

(١) هكذا في م وهي الصواب أما في ص فهي (البشيمة)
والظلمات الثلاث التي أوردها القشيري على هذا النحو قالها ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .
وقال أبوعبيدة : ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم (القرطبي جـ ١٥ ص ٢٣٦) .
(٢) يبدو أن القشيري منذ هذه اللحظة وحتى الآية الكريمة التالية انتابته حالة من حالات الذكر ، فجاءت كلماته أشبه بالتسبيح والنجوى .

أى : أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صَوَّرتُـكم فأحسنت صُوَرَكم ، وأنا الذى أسبَغْتُ عليكم إنعامى ، وخصصتكم بجميل إكرامى ، وأغرقتكم فى بحار أفضالى ، وعرفتكم استحقاق جمالى وجلالى ، وهديتكم إلى توحيدى ، وألزمتكم رعايةَ حدودى . . . فما لكم لا تنقطعون بالكلية إلىَّ ؟ ولا ترجون ما وَعَدْتُكم لدىَّ ؟ وما لكم فى الوقت بقلوبكم لا تنظرون إلىَّ ؟

قوله جل ذكره : « إن تكفروا فإنَّ اللهَ غَنِىٌّ عنكم
ولا يَرْضَىٰ لعبادِهِ الكُفْرَ وإن تشكروا
يَرْضَه لَكُم ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ
أُخرىٰ » .

إنْ أعرضتم وأَبَيْتُم ، وفى جحودكم تماديتم . . فَمَا نَفْتَقِرُ إليكم ؛ إذ نحن أغنياء عنكم ، ولكنى لا أرضى لكم أن تبقوا عنى !

يامسكين . . . أنت إنْ لم تكن لى فأنا عنكَ غنىٌّ ، وأنا إن لم أكنْ لك فمن تكون أنت ؟ ومَنْ يكون لك ؟ مَن الذى يُحْسِنُ إليك ؟ مَن الذى ينظر إليك ؟ من الذى يرحمك ؟ من الذى ينثر الترابَ على جراحك ؟

من الذى يهتم بشأنك ؟ بمن تسلو إذا بَقِيتَ عنِّى ؟ مَن الذى يبيعك رغيفاً بمثاقيل ذهب ؟ ! .

عبدى . . أنا لا أرضى ألا تكونَ لى وأنت ترضى بألا تكون لى ! يا قليلَ الوفاء ، يا كثيرَ التجنِّى !

إن أطَعْتَنِى شكَرْتُك ، وإن ذكَرْتَنِى ذكرتُك ، وإن خَطَوْتَ لأجْلِى خطوةً ملأتُ السمٰواتِ والأرضين من شكرك :

لو عَلِمْنا أنَّ الزيارةَ حقٌّ لفرَشْنَا الخدودَ أرضاً لترضى

قوله جل ذكره : « وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعا رَبَّهُ
منيباً إليه ثُمَّ إذا خَوَّلَه نعمةً منه نَسِيَ
ما كان يدعو إليه مِنْ قَبْلُ وجعل
لله أنداداً » .

إذا مَسَّه ضُرٌّ خَشَعَ وخَضَع ، وإلى قُرْبه فزع ، وتملَّق بين يديه وتضرع . فإذا أزال عنه ضُرَّه ، وكفاه أمرَه ، وأصلح شغلَه نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ، فيعود إلى رأس كفرانه ، وينهمك فى كبائر عصيانه ، ويُشْرِكُ بمعبوده . هذه صِفَتُه . . . فَسُحْقاً له وبُعْداً ، ولَسَوف يَلْقى عذاباً وخِزْياً .

قوله جل ذكره : « أمَّنْ هو قانِتٌ آناء الليلِ ساجداً
وقائماً يَحْذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ
ربِّه[1] ... » .

« قانتاً » : القنوتُ هو القيامُ ، وقيل طول القيام . والمراد هو الذى يقوم بحقوق الطاعةِ أوقاتَ الليل والنهار ؛ أى فى جميع الأوقات .

والهمزة للاستفهام أى أمن هو قانت كمن ليس بقانت ؟ أمن هو قانت كالكافر الذى جرى ذِكْرُه ؟ أى ليس كذلك .

ويقال القنوتُ القيامُ بآداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير . « يَحْذَرُ» العذابَ الموعودَ فى الآخرة ، « ويرجو » الثوابَ الموعودَ . وأراد بالحَذَرِ الخوف .

« قُلْ هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون إنَّما يَتَذَكَّرُ أولوا
الألباب » .

---

(1) قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .
وقال ابن عمر : نزلت فى عثمان بن عفان .
وقال مقاتل : نزلت فى عمار بن ياسر .

(أسباب النزول للواحدى ص ٢٤٧)

أى هل يستويان ؟ هذا فى أعلى الفضائل وهذا فى سوء الرذائل ! « الذين يعلمون » : العِلْمُ فى وصف المخلوق على ضربين : مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد ، وموهوب مِنْ قِبَلِ الربِّ . ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علمُ برهانٍ وعلمُ بيان ؛ فالعلومُ الدينية كلُّها برهانية إلَّا ما يحصل بشرط الإلهام .

قوله جل ذكره : « قُلْ ياعبادى الذين آمنوا اتقوا
ربَّكُم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا
حسنةٌ وأرضُ اللهِ واسِعةٌ إنَّما يُوَفَّى
الصابرون أَجْرَهم بغير حساب » .

أطيعوه واحذروا مخالفةَ أمره .« للذين أحسنوا فى هذه الدنيا » بأداء الطاعات ، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان)[1] .

« وأرض الله واسعة » : أى لا تتعلَّلوا بأذى الأعداء ؛ إنْ نَبَا بِكُم منزلٌ فتعلَّلُكم بمعاداة قوم ومَنْعِهِم إياكم — لا يُسْمَع ، فأرضُ اللهِ واسعةٌ ، فاخْرُجُوا منها إلى موضع آخر تم لكم فيه عبادتُكم[2] .

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . والصبر حَبْسُ النَّفْس على ما تكرهه . ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهٍ ولا تعبيس .

ويقال هو التهدُّفُ[3] لسهام البلاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنِّى أُمِرْتُ أنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا
له الدين » .

---

(١) تأخر ما بين قوسين فجاء بعد (لسهام البلاء) فوضعناه فى هذا المكان لأنه يوضح المقصود بتوضيح وأحسنوا .

(٢) يقول القشيرى فى إحدى وصاياه للمريدين حاثاً على السفر : «وإن ابتلى مريد بجاه أو معلوم أو صحبة حدث أو ميل إلى امرأة أو استنامة إلى معلوم وليس هناك شيخ يدله على ما به يتخلص من ذلك فعند ذلك حل له السفر والتحول عن ذلك الموضع ليشوش على نفسه تلك الحالة» (الرسالة ص ٢٠٢) .

(٣) التهدف = الدنو والاستقبال .

مضى القولُ فى معنى الإخلاص . وفى الخبر : إن الله يقول : « الإخلاص سِرٌّ بين الله وعَبْدِه »[1] .

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُه الشيطان ، ولا يطَّلِعُ عليه المَلَكان .

« أُمِرْتُ أن أعبد الله .. » أُمِرْتُ لأن أكون أولَ المسلمين فى وقتى وفى شرعى . والإسلامُ الانقيادُ لله بكل وجه .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّى أَخافُ إِن عَصَيْتُ رَبِّى عذابَ يومٍ عظيمٍ » .

أخاف أصنافَ العذابِ التى تحصل فى ذلك اليوم .

قوله جل ذكره : « قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا له دينى * فاعبدوا ما شِئْتُم مِن دونِه قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُوا أَنفُسَهُم وأهليهم يومَ القيامة أَلَا ذلك هو الخُسرانُ المبينُ » .

هذا غاية الزجر والتهديد ، ثم بيَّنَ أن ذلك غاية الخسران ، وهو الخزى والهوان . والخاسِرُ — على الحقيقة — مَنْ خَسِرَ دنياه بمتابعة الهوى ، وخَسِرَ عُقْباه بارتكابه ما الربُّ عنه نَهَى ، وخَسِرَ مولاه فلم يستحِ منه فيما رأى .

قوله جل ذكره : « لَهُم مِن فَوقِهِم ظُلَلٌ من النارِ ومِن تَحْتِهِم ظُلَلٌ ذلك يُخَوِّفُ اللهُ به عبادَه يا عباد فاتقونِ » .

أحاط بهم سُرَادقُها ؛ فهم لا يخرجون منها ، ولا يَفْتُرُونَ عنها . كما أنهم اليومَ فى جهنم

(1) أخطأ الناسخ فى ص إذ جعلها (ستر) بالتاء والصواب هى (سر) ، وقد ورد الخبر فى الرسالة هكذا : أخبر النبى (ص) عن جبريل عن الله سبحانه أنه قال : «الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى» (الرسالة ص ١٠٤) .

عقائدِهم ؛ يستديم حجابُهم ، ولا ينقطع عنهم عقابهم[1] .

« ذلك يخوِّف الله به عباده ... » إنْ خِفْتَ اليومَ كُفِيتَ خوفَ ذلك اليوم وإلَّا فبين يديك عقبة كَئُود .

قوله جل ذكره : « والذين اجتنبوا الطاغوتَ أن يعبدوها[2] وأنابوا إلى الله لهم البُشْرَىٰ »

طاغوتُ كلِّ إنسانٍ نَفْسُه ؛ وإنما يجتنبُ الطاغوتَ مَنْ خالف هواه ، وعانَقَ رضا مولاه . وعبادةُ النَّفْس بموافقة الهوى — وقليلٌ مَنْ لا يعبد هواه ، ويجتنب حديث النَّفْس .

« وأنابوا إلى الله » : أى رجعوا إليه فى كل شىء .

قوله جل ذكره : « فَبَشِّر عبادِ[3] * الذين يستمعون القولَ فَيَتَّبِعُون أحسنَهُ أولئك الذين هداهم اللهُ وأولئك هم أولوا الألباب » .

« يستمعون القول » يقتضى أن يكون الاستماع لكل شىء ، ولكن الاتباع يكون للأحسن . « أحسنه » : وفيه قولان ؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحَسَن ولا تكون الهمزة للمبالغة ، كما يقال مَلِكٌ أَعَزُّ أى عزيز . والثانى : الأحسن على المبالغة ، والحَسَنُ ما كان مأذوناً فيه فى صفة الخَلْقُ ويعلَمُ ذلك بشهادة العلم[4] ، والأحسن هو الأَوْلى والأصوب . ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره ، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له . ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع إلا بالله .

---

(1) إن استيلاء الحب على قلب الصوفى يجعله ينظر إلى العقوبة فى الآخرة على أنها أقل تعذيباً إذا قيست بعذاب الهجر والنأى ، أو على حد تعبيرهم جهنم الاحتراق أخف من جهنم الفراق .. ولهم فى ذلك أقوال جريئة كثيرة (انظر كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف ص ٢٤٨) .

(2) قال ابن زيد : نزلت هذه الآية فى ثلاثة أنفار كانوا فى الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله ، وهم زيد بن عمرو وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى (الواحدى ص ٢٤٧) .

(3) نزلت فى عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وسعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص وكان استماعهم لأبى بكر وهو يخبرهم بإيمانه (الواحدى ص ٢٤٧ ، ٢٤٨).

(4) استخدم القشيرى هذا المفهوم فى تأييد وترخيص والسماع بالمعنى الصوفى (الرسالة ص ١٦٦) .

ويقال إن للعبد دواعى من باطنه هى هواجسُ النفس ووساوسُ الشيطانِ وخواطرُ المَلَكِ وخطابُ الحقِّ يُلقَى فى الرَّوْع ؛ فوساوسُ الشيطان تدعو إلى المعاصى ، وهواجسُ النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النفْس وأنَّ لها فى شىء نصيبًا ، وخواطرُ المَلَكِ تدعو إلى الطاعاتِ والقُرَبِ ، وخطابُ الحقِّ فى حقائق التوحيد .

« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » : —

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده ، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة[1] .

قوله جل ذكره : « أفَمَنْ حَقَّ عليه كلمةُ العذابِ أفأنت تُنقِذُ مَن فى النار » ؟

الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ فريقان : فريقٌ حقت عليهم كلمةٌ بعذابهم فى النار ، وفريقٌ حقت عليهم كلمةُ العذابِ بالحجاب اليومَ ، فهم اليومَ لا يخرجون عن حجاب قلوبهم ، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان — وإن كانوا من أهل الإيمان[2] .

قوله جل ذكره : « لكن الذين اتقوا ربَّهم لهم غُرَفٌ من فوقِها غُرَفٌ مبنيةٌ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ وَعْدَ اللهِ لا يُخلِفُ اللهُ الميعاد » .

وَعَدَ المطيعين بالجنَّـــةِ — ولا محالةَ لا يُخْلِف ، ووَعَدَ التائبين بالمغفرة — ولا محالةَ يغفر لهم ، ووَعَدَ المريدين بالوجود والوصول — وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالةَ مُصْدِقٌ وَعْدَه .

قوله جل ذكره : « ألم ترَ أنَّ اللهَ أنزل من السماءِ ماء

(١) (عقولهم غير معقولة) أى غير حبيسة أو ممنوعة عن الإدراك وتصحيح الإيمان ، فهذه هى المهمة الأساسية للعقل فى نظر المصنف — كما نوهنا بذلك . وربما كانت فى الأصل (مغفولة) فبها أيضاً يستقيم المعنى .

(٢) نعلم أن كثيرين فى أوساط أهل السنّة يعارضون العديد من مسائل التصوف ، ومن أمثالهم ابن تيمية وابن الجوزى .

فَسَلَكَه ينابيعَ فى الأرض ثم يُخرِجُ به
زَرْعاً مختلفاً ألوانُه ثم يهيج فتراه مُصْفَرّاً
ثم يجعلُه حُطاماً إنّ فى ذلك لذِكْرى
لأولى الألباب ».

أخبر أنه يُنزِلَ من السماء المطرَ فيُخرِجُ به الزرعَ فيخضر، ثم يأخذ فى الجفاف، ثم يصير هشيماً.. والإشارةُ من هذا إلى الإنسان، يكون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم فى آخره يخترم.

ويقال إن الزَّرْعَ مالم يأخذ فى الجفاف لا يُؤْخَذُ منه الحَبُّ، فالحبُّ هو المقصود منه.. كذلك الإنسان مالم يحصلْ من نَعَبِه وصولٌ لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمةٌ.

ويقال إن كَوْنَ المؤمنِ بقوة عقله يوجِبُ استفادةً له بعلمه إلى أنْ يبدوَ منه كمالٌ يُمَكّنُ من أنوار بصيرته، ثم إذا بدت لائحةٌ من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة. فإذا بَدَتْ أنوارُ التوحيد استهلكت تلك الجملة، قالوا:

فلمّا استبان الصبحُ أدرج[1] ضوءه
بأنواره أنوارَ تلك الكواكبِ

قوله جل ذكره: « أفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَه للإسلامِ
فهو على نورٍ من ربّه فويلٌ للقاسيةِ
قلوبُهم مِن ذِكْرِ اللهِ أولئك فى ضلالٍ مبين».

جوابُ هذا الخطابِ محذوفٌ... أى أفَمن شرح اللهُ صَدْرَه للإسلام كمن ليس كذلك؟
لمّا نزلت هذه الآيةُ سُئِلَ الرسولُ — صلى الله عليه وسلم — عن الشرح المذكور فيها، فقال: « ذلك نورٌ يُقْذَفُ فى القلب، فقيل: وهل لذلك أمارة؟

(١) أدرج الشيء أى أفناه (الوسيط). والمقصود أن أنوار مصابيح المعرفة الإنسانية تتلاشى وتفنى عند سطوع شمس الحقيقة. وقد وردت فى ص ٤٣ من الرسالة (أدرك) والصواب فى نظرنا (أدرج).

قال : نعم ؛ التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله[1] » .

والنورُ الذى مِنْ قِبَلِهِ — سبحانه — نورُ اللوائح بنجوم العلم ، ثم نورُ اللوامع ببيان الفَهْم ، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نورُ المكاشفة بتجلى الصفات ، ثم نور المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد . . وعند ذلك فلا وَجْدَ ولا قصد[2] ، ولا قُرْب[3] ولا بُعْدَ . . . كلاّ بل هو الله الواحد القهار[4] .

« فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين »[5] : أى الصلبة قلوبهم ، لم تقرعها خواطرُ التعريف فبقيت عَلَى نَكَرَةِ الجَحْد . . أولئك فى الضلالة الباقية ، والجهالة الدائمة . .

قوله جل ذكره : « اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ[6]
كتاباً متشابِهاً مثانِىَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ
الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم ثم تلين جلودُهم
وقلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ذلك هُدَى الله

---

(1) أورد الغزالى هذا الخبر فى منقذه ، وشرح مهمة هذا النور بأنه الذى يُطْلَب منه الكشف ، وأنه ينبجس من النور الإلهى (المنقذ من الضلال ط القاهرة ص ٢٥٥) .

(2) هكذا فى م وهى فى ص (قصد) بالصاد وهى خطأ فى النسخ ، فالوجد يقابله الفقد .

(3) فى ص (ولا فرق) والصواب أن تكون (ولا قرب) لتقابل (ولا بُعْد) لأنه لو قال (ولا فرق) لكان قد قال (ولا جمع) مع أن الموقف هنا موقف (جمع) .. والمقصود اختفاء تقلبات التلوين ، والوصول إلى مرتبة التمكين ، أى الوصول إلى حال (جمع الجمع) .

(4) تفيد هذه الفقرة فى فهم كثير من المصطلحات ، ولعله أول مرة نصادف القشيرى عبارة (بظهور الذات) لأنه فى مواضع كثيرة يلح على أن المشاهدة (للصفات كالجمال أو الجلال أو ... الخ) أما (الذات) فقد جلّت الصمدية — كما يقول — عن أن يستشرف منها مخلوق .

(5) نزلت فى أبى لهب وأولاده الذين قست قلوبهم عن ذكر الله . (الواحدى ص ٢٤٨) واختار الطبرى القول بأن (مِن) فى الآية بمعنى (عن) أى قست قلوبهم عن ذكر الله .

(6) قال سعد بن أبى وقاص : قال أصحاب رسول الله (ص) : لو حدّثتنا . . فأنزل الله عزّ وجل « اللهُ نَزَّلَ أحسن الحديث » فقالوا : لو قصصت علينا .. فنزل ونحن نقص عليك أحسن القصص»

يَهْدِي به مَن يشاء وَمَن يُضْلِلِ اللهُ
فَمَا لهُ مِن هادٍ ».

« أحسن الحديث » لأنه غير مخلوق[1]

« كتابا متشابهاً » فى الإعجاز والبلاغة .

« مثانى » : يثنى فيها الحكم ولا يُمَلُّ بتكرار القراءة ، وَيشتمل عَلَى نوعين : الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد .

« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربَّهم » إذا سمعوا آيات الوعيد .

« ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله » إذا سمعوا آيات الوعد .

ويقال : تقشعر وتلين بالخوف والرجاء ، ويقال بالقبض والبسط ، ويقال بالهيبة والأُنس ، ويقال بالتجلِّى والاستتار[2] .

قوله جل ذكره : « أفَمَن يتقى بوجهه سوءَ العذابِ
يومَ القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كُنتُم
تكْسِبون » .

أى فَمَنْ يتقى بوجهه سوءَ العذاب كَمَنْ ليس كذلك ؟ وقيل إنَّ الكافرَ يَلْقَى النارَ أوَّلَ ما يلقاها بوجهه ؛ لأنه يُرمَى فيها منكوساً . فأمَّا المؤمن فيُوقَى ذلك ؛ وإنما يُلَقَّى النضرة والسرور والكرامة ؛ فوجهُهُ ضاحكٌ مُسْتَبْشِرٌ .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَ الذين مِن قبلِهِمْ فأتاهم
العذابُ مِنْ حيث لا يَشْعرُون » .

---

(١) سُمِّى القرآن حديثاً لأن الرسول (ص) كان يُحَدِّث به أصحابه وقومه ، وهو كقوله : « فبأى حديثٍ بعده يؤمنون » وقوله : « أفَمِنْ هذا الحديث تعجبون » ويُخَطِّئ أهلُ السُّنَّةِ مَنْ يستند فى أن القرآن مخلوق إلى أن « الحديث » من الحدوث فالكلام مُحْدَث فقالوا : الحدوث يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو ، كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الله وصفاته الحسنى .

(٢) يستفيد الصوفية من هذه الآية فى تدعيم نظريتهم فى « السماع » والتأثرات النفسية والعضوية الناجمة عن تقلب الأحوال .

أشدُّ العذابِ ما يكون بغتةً ، كما أنَّ أتمَّ السرور ما يكون فلتةً .

ومن الهجران والفراق ما يكون بغتةً غير متوقع ، وهو أنكى للفؤاد وأشدُّ وأوجعُ تأثيراً في القلب ، وفي معناه قلنا :

فَبِتُّ بخيرٍ والدُّنى مطمئنةٌ
وأصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة ، قال قائلهم :

بينما خاطر المُنى بالتلاقي سابحٌ في فؤاده وفؤادي
جمعَ اللهُ بيننا فالتقينا هكذا صُدفةً بلا ميعادِ

قوله جل ذكره : « ولقدْ ضربنا للناسِ في هذا القرآن من كلِّ مَثلٍ لعلَّهم يتذكَّرون * قرآناً عربياً غيرَ ذِي عِوَجٍ لعلَّهمْ يتقون » .

أي أوضحنا لهم الآيات ، ووقفناهم على حقائق الأشياء .

« غير ذى عوج » : فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه .

قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللهُ مثلاً رجلاً فيه شركاءُ مُتشاكِسُون ورجلاً سَلَماً لِرُجلٍ هل يستويان مَثلاً الحمدُ للهِ بل أكثرهم لا يعلمون » .

مَثَّلَ الكافرَ ومعبوديه بعبد اشترك فيه متنازعون .

« فيه شركاء متشاكسون » : فالصنم يدعي فيه قومٌ وقوم آخرون ؛ فهذا يقول : أنا صَنَعْتُه ، وذلك يقول : أنا استعملتُه ، وثالث يقول : أنا عَبَدْتُه .

أمّا المؤمن فهو خالصٌ لله عزّ وجل ، يشبه « عبداً سَلَماً لرجل » أى ذا سلامة من التنازع والاختلاف .

ويقال « رجلاً فيه شركاء متشاكسون » تتجاذبه أشغال الدُّنيا ، شُغْلُ الوَلَدِ وشغل العيال ، وغيرُ ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ المُشَتَّتَةِ .

أمّا المؤمن فهو خالصٌ لله ليس لأحد فيه نصيب ؛ ولا للدنيا معه سبب إذ ليس منها شيء ، ولا للرضوان معه شُغْل[1] ، إذْ ليس له طاعات يُدِلُّ بها ، وعلَى الجملة فهو خالص لله ، قال تعالى لموسى : « واصطنعتك لنفسى »[2] أى أبقيتُكَ لى حتى لا تصلح لغيرى .

« الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » : الثناء له ، وهو مُسْتَحِقٌّ لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : « إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهم مَيِّتُون *
ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم
تختصمون » .

نَعَاه — عليه السلام — إليه . ونَعَى المسلمين إليهم فنَزِعُوا بأجمعهم من مآتمهم[3] ، ولا تعزية فى العادة بعد ثلاث . ومَنْ لم يتفرَّغْ من مآتم نفسه وأنواع همومه ، فليس له من هذا الحديث[4] شمّة ، فإذا فرغ قلبُه من حديث نَفْسِه ، وعن الكون بجملته فحينئذٍ يجد الخيرَ من ربِّه ، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم ، وأنشد بعضهم :

---

(1) لقيت الجنة من كبار الشيوخ مواقف لا يخلو التعبير عنها — عند من لا يفقهونها — الكثير من الاستغراب ، من ذلك ما يقوله أبو يزيد البسطامى : ما الجنة ؟ لعبة صبيان ! ويقول : الجنة هى الحجاب الأكبر لأن أهل الجنة سكنوا إلى الجنة ، وكل مَنْ سكن إلى الجنة سكن إلى سواه فهو محجوب .

(2) آية 41 سورة طه .

(3) هكذا فى ص وهى مقبولة لتناسب الخصومة التى سيترتب عليها فى الآخرة الاختصام .

(4) يقصد حديث الفناء عن كل أرب وسبب ، أى الفناء بالمعنى الصوفى .

كتابى إليكم بعد موتى بليلةٍ
ولم أدرِ أنى بعد موتى أكتب

قوله جل ذكره : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذ جاءه أليس فى جهنَّم مثوىً للكافرين » .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغْها ، وادَّعى وجودَ أشياء لم يَذُقْ شيئاً منها ، قال تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة[1] » .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأمَّا المُدَّعِي الذى لم يَبْلُغْ ما يَدَّعِيه فليس يكذب على ربِّه إنما يكذب على نَفْسِه ؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَذُقْها ولم يَجِدْها ، فأمَّا غيرُ المتحقق الذى يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذى يقول فى صفة الحقِّ — سبحانه — ما يتقدَّسُ ويتعالى عنه[2] .

قوله جل ذكره : « والذى جاء بالصدقِ وصَدَّقَ به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربِّهم ذلك جزاء المُحْسنين » .

الذى جاء بالصدق فى أفعاله من حيث الإخلاص ، وفى أحواله من حيث الصدق ، وفى أسراره من حيث الحقيقة .

« ذلك جزاء المحسنين » : الإحسانُ — كما جاء فى الخبر — أن تعبد الله كأنك تراه . فَمَنْ كانت — اليومَ — مشاهدتُه على الدوام كانت رؤيته غداً على الدوام ، ومَنْ لا فلا[3] .

(١) آية ٦٠ من هذه السورة .

(٢) وإلى أمثال هؤلاء أشار القشيرى فى مستهل رسالته قائلاً « .. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية وزالت عنهم أحكام البشرية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا .....» الرسالة ص ٣ .

(٣) روى مسلم عن جابر «يبعث كل عبد على ما مات عليه» ٤٥٧/٦ فيض القدير للمناوى «ومن كان بحالة لقى الله عليها » .

قوله جل ذكره : « لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم أَسْوَأَ الذى عَمِلُوا ويَجْزِيَهم أجرَهم بأحسنِ الذى كانوا يعملون » .

مَنْ لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة . ومَنْ كان معه إيمان : فإذا كُفِّرَ عنه أسوأُ ما عَمِلَه فأسوأُ أعمالِه كبائرُه ؛ فإنْ غُفِرَتْ يَجْزِهِم بأحسن أعمالهم . وأَحْسَنُ أعمالِ المؤمنِ الإيمانُ والمعرفة ، فإن كان الإيمانُ مؤقتاً كان ثوابُه مؤقتاً ، وإن كان الإيمان على الدوام فثوابُه على الدوام . ثم أحسنُ الأعمال عليها أحسنُ الثوابِ ، وأحسنُ الثوابِ الرؤيةُ فيجب أن تكون على الدوام[1] — وهذا استدلالٌ قوى .

قوله جل ذكره : « أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَه . . » .

استفهام والمراد منه التقرير ؛ فاللهُ كافٍ عَبْدَه اليومَ فى عرفانه بتصحيح إيمانه ومَنْعِ الشِّرْكِ عنه ، وغداً فى غفرانه بتأخير العذاب عنه ، وما بينهما فكفايتُه تامة وسلامته عامة .

قوله جل ذكره : « ولَئِنْ سَأَلْتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ قُـلْ أفرأيتم ما تَدْعُون من دون اللهِ إنْ أرادَنِىَ اللهُ بِضُرٍّ هل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّه أَوْ أَرادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رحمتِه قُلْ حَسْبِىَ اللهُ عليه يتوكَّل المُتَوَكِّلون » .

قَرَّرَ عليهم عُلُوَّ صفاته ، وماهو عليه من استحقاق جلاله فأقرُّوا بذلك ، ثم طالَبَهم بذِكْرِ صفاتِ الأصنام التى عبدوها من دونه ، فلم يمكنهم فى وصفها إلا بالجمادية ، والبُعْدِ عن الحياة والعِلْم والقدرةِ والتمكُّنِ من الخَلْقِ ، فيقول : كيف أشركتم به هذه الأشياء ؟ وهلَّا استحيَيْتُمْ من إطلاق أمثال ذلك فى صفته ؟ .

---

(١) « فيجب أن تكون الرؤية على الدوام » نلاحظ إلحاح القشيرى على هذا الرأى فى خاتمة تفسيره للآية السابقة وفى هذه الآية ، ولهذا الرأى أهميته فى مسألتين : خلود الجنة والرؤية .. مسألتان كان حولهما جدلٌ كثير أشرنا إلى بعضه فى تعليقات سابقة .

قُلْ - يا محمد - حَسْبِىَ الله ، عليه يتوكل المتوكلون ؛ كافِىَّ اللهُ المتفرِّدُ بالجلالِ ، القادرُ على ما يشاء ، المتفضِّلُ علىَّ بما يشاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ يا قومِ اعملوا على مكانتِكم إنِّى
عامِلٌ فسوف تعلمون * مَنْ يأتيه عذابٌ
يُخْزِيه ويَحِلُّ عليه عذابٌ مُقيم »

سوف ينكشف رِبْحُنا وخسرانكم ، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم ، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم ، ونُنَفِّذُ بسكم فلا شفيعَ لكم ، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريخَ لكم .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلنا عليك الكتابَ للناسِ
بالحقِّ فَمَنِ اهتدىٰ فَلِنَفْسِه ومَن
ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عليها وما أنت عليهم
بوكيل » .

مَنْ أحسن فإحسانُه إلى نَفْسِه اكتَسبه[1] ، ومَنْ أساء فبلاؤه على نفسه جَلَبَه — والحقُّ غنىٌّ عن التجمُّلِ بطاعةِ مَنْ أقبل والتنقُّصِ بِزَلَّةِ مَنْ أعرض .

قوله جل ذكره : « اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حينَ موتِها والتى
لم تَمُتْ فى منامِها فَيُمْسِكُ التى قَضَىٰ
عليها الموتَ ويُرْسِلُ الأخرىٰ إلى أجَلٍ
مُسَمًّى إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ
يتفكَّرُون » .

يقبض الأرواح[2] حين موتها ، والتى لم تَمُتْ من النفوس فى حال نومها ، فإذا نامت

(١) (أكتسبه) موجودة فى م وسقطت فى ص .

(٢) واضح هنا أن القشيرى لا يكاد يميز بين (النفس) و (الروح) مع أنه في الرسالة ص ٤٨ يميز بينهما فيقول (يحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة فى القالب) = البدن وهى محل الأخلاق المعلولة (موجودة فى الرسالة خطأ المعلومة) كما أن الروح لطيفة فى القالب هى محل الأخلاق المحمودة.. والجميع إنسان واحد ،وكونهما بصفة=

فيقبض أرواحها[1] . وقبضُ الأرواحِ فى حال الموت بإخراج اللطيفة التى فى البدن وهى الروح ، ويخلق بَدَلَ الاستشعارِ والعِلْمِ الغفلةَ والغيبةَ فى مَحَالِّ الإحساس والإدراك . ثم إذا قبضَ الأرواحَ عند الموت خَلَقَ فى الأجزاء الموتَ بَدَلَ الحياة ، والموتُ ينافى الإحساسَ والعلمَ . وإذا ردَّ الأرواح بعد النوم إلى الأجسادِ خَلَقَ الإدراكَ فى محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً ، وقَبْضُ اللهِ الأرواحَ فى حال النوم وردت به الأخبار ، وذلك على مراتب ؛ فإنَّ روحاً تُقْبَضُ على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى ، وتكون لها تعريفات ، ومعها مخاطبات « والله أعلم » .

قوله جل ذكره : « أم اتخذوا من دون اللهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَ لَوْ كانوا لا يَمْلِكون شيئاً ولا يَعْقِلون » .

أى أنهم - وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء بِحُكْمِهِمْ لا بتعريفٍ من قِبَلِ الله أو إخبار — فإنَّ اللهَ تعالى لا يقبل الشفاعةَ من أحدٍ إلاَّ إذا أَذِنَ بها ، وإنَّ الذى يقولونه إنما هو افتراء على الله .

قوله جل ذكره : «وإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قلوبُ

=الطاقة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة الطاقة» ثم يعود بعقليل متحدثاً عن الروح فيقول : الأرواح مختلف فيها عند أهل التحقيق من أهل السنة فمنهم من يقول إنها الحياة ، ومنهم من يقول إنها أعيان مودعة فى القالب (اللطائف جـ٢ ص٣٦٧) .

وفى تقديرنا أن المسألة ذات جانبين : فإذا نظرنا إلى الموضوع خارج دائرة التصوف فالروح والنفس بمعنى واحد متصل بالحياة ، وقبضهما معناه موت البدن بدليل ما ورد عن الرسول (ص) ، فهو مرة يقول (كما في حديث أم سلمة) : دخل رسول الله (ص) على أبى سلمة وقد شق (= انفتح) بصره فأغمضه ثم قال : «إن الروح إذا قبض تبعه البصر » وفي مرة أخرى يقول (ص) في حديث صحيح خرجه ابن ماجه : «تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة .... » وفى صحيح مسلم : قال «ص» : «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها » .

أما الجانب الآخر للمسألة فهو كونهما مصطلحين صوفيين ؛ فالنفس محل المعلولات والروح محل المحمودات . .. وذلك ركن هام في مذهب القشيرى لم يتخل عنه في كتاب من كتبه ، كما هو مذهب كثيرين من المتصوفة .

(١) قبض الروح عند النوم معناه ترقيها (الرسالة ص ٤٨) .

الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ وإذا ذُكِرَ
الذين من دونهِ إذا هم يَسْتَبْشِرُونَ » .

اشمأزَّت قلوبُ الذين جحدوا ولم تسكن نفوسُهم إلى التوحيد ، وإذا ذُكِرَ الذين مِنْ دونه استأنسوا إلى سماعه : —

« قل اللهم فاطِرَ السمٰواتِ والأرضِ
عالِمَ الغيبِ والشهادة أنت تحكُم بين
عِبَادِكَ فيما كانوا فيه يختلفون » .

عَلَّمَهُ — صلى الله عليه وسلم — كيف يثنى عليه — سبحانه[1] .

وتشتمل الآيةُ على الإشارة إلى بيان ما ينبغى من التنَصُّل والتذلُّلِ ، وابتغاءِ العفو والتفضُّلِ ، وتحقيقِ الالتجاء بِحُسْنِ التوكل . ثم أخبر عن أحوالهم فى الآخرة فقال :

« ولو أنَّ للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً
ومِثْلَهُ معه لافتدوا به من سوء العذابِ
يومَ القيامة » .

لافتدوا به .. ولكن لا يُقْبَلُ منهم ، واليومَ لو تصدَّقوا بمثقال ذرة لَقُبِلَ منهم . كما أنهم لو بَكَوْا فى الآخرة بالدماء لا يُرْحَمُ بكاؤهم ، ولكنهم بدمعة واحدةٍ — اليومَ — يُمْحَى الكثيرُ من دواوينهم .

قوله جل ذكره : « وبَدَا لهم من اللهِ ما لم يكونوا
يَحْتَسِبُون » .

فى سماع هذه الآية حَسَرَاتٌ لأصحاب الانتباه .

---

(١) فى صحيح مسلم : أن عائشة سئلت بأى شىء كان النبى صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : «اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السموات والأرض. ... يختلفون » ، إهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» .

وقال سعيد بن جبير : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط وسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ؛ قوله تعالى : «قل اللهم فاطر .... يختلفون » .

وفى بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤْمَرُ بهم إلى النار [فإذا وافوها يقول لهم مالكٌ : مَنْ أنتم ؟ إن الذين جاءوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوهُهم كانت مُسْوَدَّةً ، وعيونُهم[1]] كانت مُزْرَقَّةً . . وأنتم لستم بتلك الصفة ، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نلقاك ، وإنما انتظرنا شيئاً آخر ! قال تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »[2] .

« وبدا لهم سيئاتُ ما كَسَبُوا وحاق بهم
ما كانوا به يستهزئون » .

حاق بهم وبالُ استهزائهم وجزاء مَكْرِهم .

قوله جل ذكره : « فإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَانا
ثُمَّ إذا خَوَّلناه نعمةً مِنَّا قال إنَّما أُوتيتُه
على عِلْمٍ بل هى فتنةٌ ولكنَّ أكثرهم
لا يَعْلَمُون » .

فى حال الضُّرِّ يتبرَّءون من الاستحقاق والحوْلِ والقوة ، فإذا كَشَفَ عنهم البلاء وقعوا فى مغاليطهم ، وقالوا : إنما أوتينا هذا باستحقاقٍ مِنَّا ، قال تعالى : « بل هى فتنة » ولكنهم لم يعلموا ، ثم أخبر أن الذين مِنْ قَبْلِهم مثلَ هذا قالوا وحسبوا ، ولم يحصلوا إلا على مغاليطهم ، فأصابهم شؤمُ ما قالوا ، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مِثْلُ ما أصاب أولئك .

قوله جل ذكره : « أو لم يعلموا أنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يشاء ويَقْدِرُ إنَّ فى ذلك لآياتٍ
لقومٍ يؤمِنُون » .

---

(1) ما بين القوسين مستدرك فى هامش الورقة ٢٩٦ من النسخة ص

(2) عن مجاهد قال : إنهم عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات .

وقيل عملوا أعمالا توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا .

أما القشيرى فيصرفها إلى المؤمنين العصاة ، وواضح أنه يميز بين حالة ورودهم إلى النار ، وورود الكفار ، فهؤلاء على التأبيد وأولئك إلى حين .

أو لم يَرَوْا كيف خالف بين أحوال الناس فى الرزق : فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه رِزْقُه ، ومِنْ مُضَيَّقٍ عليه ، وليس لواحدٍ منهم شىء مِمَّا خُصَّ به من التقليل أو التكثير .

قوله جل ذكره : « قُلْ يا عبادِيَ الذين أسرفوا على أنفسِهِم
لا تقنطوا من رحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّه هو الغفورُ الرحيم »(1)

التسمية « بياعبادى » مَدْحٌ(2) ، والوصفُ بأنهم « أسرفوا » ذَمٌّ . فلمَّا قال : « يا عبادى » طمع المطيعون فى أن يكونوا هم المقصودين بالآية ، فرفعوا رءوسَهم ، ونكَّسَ العُصَاةُ رءوسَهم وقالوا : مَنْ نحن .. حتى يقول لنا هذا ؟!

قال تعالى : « الذين أسرفوا » فانقلب الحالُ ؛ فهؤلاء الذين نكَّسوا رءوسَهم انتعشوا وزالت ذِلَّتُهُم ، والذين رفعوا رءوسَهم أطرقوا وزالت صَوْلَتُهم(3) .

ثم أزال الأعجوبةَ عن القسمة بما قوَّى رجاءهم بقوله : « على أنفسهم » يعنى إنْ أَسْرَفْتَ فعلى نَفْسِكَ أسرفت .

« لا تقنطوا من رحمة الله » : بعد ما قطعْتَ اختلافَكَ إلى بابنا فلا تَرفَعْ قلبك عَنَّا .

« إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً » الألف واللام فى « الذنوب » للاستغراق والعموم ، والذنوب جمع ذنب ، وجاءت « جميعاً » للتأكيد ؛ فكأنه قال : أَغْفِرُ ولا أترك ، وأعفو ولا أُبْقِى .

---

(1) أورد الواحدى فى أسباب النزول عدة أقوال بشأن من نزلت فيهم هذه الآية الكريمة ، ومن هذه الروايات : عن ابن عباس قال : نزلت فى أهل مكة حين قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله .

وقال ابن عمر : نزلت فى عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فتركوا دينهم .

ويروى أنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة . (الواحدى ص ٢٤٨ ، ٢٤٩) .

(2) يقول الدقاق : ليس شىء أشرف من العبودية ، وقد سمى بها الحق نبيه (ص) فقال : سبحان الذى أسرى بعبده ، وقال : فأوحى إلى عبده ما أوحى — ولو كان اسم أجل من العبودية لسماه به . (الرسالة ص ١٠٠) .

(3) راجع ما قاله القشيرى فى قصة داود : (إنَّ زلةً أسفك عليها يوصلك إلى ربك أجدى عليك من طاعة إعجابك بها يقصيك عن ربك) . ويقول على بن أبى طالب : ما فى القرآن أوسع من هذه الآية . ويقول عبد الله ابن عمر : هذه أرجى آية فى القرآن .

ويقال إنْ كانت لكم جناية كثيرة عميمة فلى بشأنكم عناية قديمة[1].

قوله جل ذكره: « وأنيبوا إلى ربِّكم وأسلِمُوا له مِن قَبْلِ أن يأتيَكمُ العذابُ ثم لاتُنصَرُونَ ».

الإنابة الرجوع بالكلية. وقيل الفرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائبَ يرجع من خوف العقوبة، وصاحبُ الإنابة يرجع استحياء لِكَرَمِه[2].

« وأسلِموا له »: وأخلِصوا فى طاعتكم، والإسلامُ — الذى هو بعد الإنابة — أنْ يعلمَ أنَّ نجاتَه بفَضْلِه لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إنابته.. لا بإنابته يصل إلى فضله.

« من قبل أن يأتيكم العذاب » قبل الفراق. ويقال هو أن يفوتَه وقتُ الرجوعِ بشهود الناس ثم لا يَنْصَرِفُ عن ذلك.

قوله جل ذكره: « أن تقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا على ما فَرَّطتُ فى جَنْبِ اللهِ وإنْ كنتُ لَمِنَ السَّاخرِين * أو تقولَ لو أنَّ اللهَ هدانى لكنتُ من المتقين * أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أنَّ لى كَرَّةً فأكونَ من المُحْسِنين ».

يقال هذا فى أقوامٍ يَرَوْن أمثالَهم تقدموا عليهم فى أحوالهم، فيتذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم، ويَرَوْن ما وُفِّقَ إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة.

---

(1) واضح أن القشيرى يحاول بطرق شتى أن يفتح كل أبواب الأمل أمام اليائسين، فمهما كانت الذنوب كثيرة فغفران الله أكبر وأشمل، ويبدو أن النص القرآنى يحتمل كل المحاولات التى يبذلها القشيرى بسماحته الصوفية الأصيلة.

(2) ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله فى هذا الخصوص: وأولها توبة وأوسطها إنابة وآخرها أوبة. ثم يعلق على ذلك قائلا: فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً فى الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر — لا لرغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب — فهو صاحب أوبة. ويقال التوبة صفة المؤمنين (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون)، والإنابة صفة الأولياء والمقربين (وجاء بقلب منيب)، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين (نعم العبد إنه أواب) الرسالة ص ٥٠.

أو يقول : لو أنَّ اللهَ هداني لكُنْتُ كذا ، ويقول آخر : لو أنَّ لي كَرَّةً فأكون كذا ، فيقول الحقُّ — سبحانه :

« بلى قد جاءتك آياتي فكذَّبْتَ بها واستكبرْتَ وكُنتَ من الكافرين » .

فَذُقْ من العذابِ ما على جُرْمِك استوجَبْتَ .

قوله جل ذكره : « ويومَ القيامةِ ترى الذين كَذَبُوا على اللهِ وجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أليس في جَهَنَّمَ مثوىً للمتكبرين » .

هؤلاء الذين ادَّعوا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها ، وأظهروا المحبةَ لله ولم يتحققوا بها ، وكفاهم افتضاحاً بذلك ! وأنشدوا :

ولمَّا ادَّعَيْتُ الحُبَّ قالت كَذَبْتَني
فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا ؟ !
فما الحُبُّ حتى تنزف العين بالبكا
وتخرس حتى لا تجيب المناديا[1]

قوله جل ذكره : « ويُنَجِّي اللهُ الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِم لا يَمَسُّهُمُ السوء ولا هم يحزَنُون » .

كما وَقَاهم — اليومَ — عن المخالفات ، حماهم — غداً — من العقوبات ، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين ؛ اليومَ عصمة ، وغداً نعمة . اليومَ عناية وغداً حماية وكفاية .

قوله جل ذكره : « اللهُ خَالِقُ كُلِّ شيء » .

---

(١) ورد الشاهد الشعري في الرسالة ص ١٦٠ هكذا : البيت الأول مطابق ، والثاني هكذا ومتبوعاً بثالث :—

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا   وتذبل حتى لاتجيب المناديا
وتنحل حتى لايبقى لك الهوى   سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

وقد أورده صاحب اللمع على هذا النحو (اللمع ص ٣٢١) .

تدخل أكسابُ العباد فى هذه الجملة ، ولا يَدْخُل كلامُه فيه ؛ لأن الخاطِبَ لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته[1].

قوله جل ذكره : « له مقاليدُ السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسِرون » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمرادُ منه أنه قادر على جميع المقدورات ، فما يريد أنْ يُوجِدَه أوْجَدَه .

قوله جل ذكره : « قل أفغيرَ الله تأمرونى أعْبُدُ أيها الجاهِلون » .

أى متى يكون لكم طَمَعٌ فى أن أعبدَ غيره . . وبتوحيده ربَّانى ، وبتفريده غذّانى ، وبِشَرَابِ حُبِّهِ سَقَانى ؟ ![2].

قوله جل ذكره : « ولقد أُوحِىَ إليكَ وإلى الذين من قَبلِكَ لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولتكونَنَّ من الخاسِرين » .

لَئِنْ لاحظْتَ غيرى ، وأثبتَّ معى فى الإبداع سِوَاىَ أحبَطْتَ عَمَلَكَ ، وأبطلْتَ سعيَكَ ، بل اللهَ — يا محمد — فاعبُدْ ، وكُنْ من جملة عبادى الشاكرين .

قوله جل ذكره : « وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه والأرضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسموَاتُ مطوياتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يُشرِكون » .

---

(١) هذه إشارة خطيرة فى شأن الموضوعات الكلامية المتصلة بالفعل الإنسانى ، وبمسألة خلق القرآن (أنظر كتابنا : الإمام القشيرى : تصوفه وأدبه ط مؤسسة الحلبى للنشر) .

(٢) هذه هى التربية التى عناها القشيرى فى موضع سابق حين قال : « ليس الاعتبار بالتربة بل بالتربية » .

ما عرفوه حَقَّ معرفته[1] ، وما وصفوه حقَّ وصفه ، وما عظَّموه حَقَّ تعظيمه ؛ فَمَن اتصف بتمثيل ، أو جَنَحَ إلى تعطيل[2] حَادَ عن السُّنَّةِ المُثْلَى وانحرف عن الطريقة الحسنى . وصفوا الحقَّ بالأعضاء ، وتَوَهَّموا فى نَعْتِه الأجزاء ، فما قدروه حَقَّ قَدْرِه ؛ فالْخَلْقُ فى قبضة قدرته ، والسموات مطويات بيمينه ، ويمينهُ قُدْرَتُه[3] . ولأنه أقسم أن يُفْنِيَ السمواتِ ويطويَها فهو قادر على ذلك .

« سبحانه وتعالى » تنزيهاً له عما أشركوا فى وصفه .

قوله جل ذكره : « ونُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فى السمٰواتِ ومَن فى الأرضِ إلاَّ مَن شاء اللهُ ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قِيامٌ يَنظُرونَ » .

فى النفخة الأولى تموتون ، ثم فى النفخة الثانية تُحْشَرُون ، والنفختان متجانستان ؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح ، وفى الأخرى حياة النفوس ؛ ليُعْلَمَ أن النفخة لا تعمل شيئاً لعينها[4] ، وإنما الجبَّارُ بقدرته يخلق ما يشاء .

قوله جل ذكره : « وأَشْرَقَتِ الأرضُ بنُورِ رَبِّها ووُضِعَ

---

(١) أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم بلغك أن الله يحمل الخلائق على أصبع والأرضين على أصبع والشجرة على أصبع والثرى على أصبع ! فضحك رسول الله (ص) حتى بدت نواجذه ، فأنزل الله تعالى : «وما قدروا الله حق قدره» (الواحدى ص ٢٥٠) .

(٢) (التعطيل على ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع — سبحانه — عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .. ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ولا مخلوق (الجواب الكافى ص ٩٠ لابن القيم ط التقدم) .

(٣) نحسب أن من دواعى التأويل أن الله سبحانه وتعالى قد يخاطبنا عن ذاته وصفاته بما نتخاطب به فيما بيننا حتى نفهم ، والآية تشير إلى ذلك فى وضوح فقد عبر عن قدرته مرة بالقبضة ومرة باليمين ، ومعنى هذا أن الله يقدر على قبض الأرض وجميع ما فيها قدرة أحدنا على ما يحمل بأصبعه .

(٤) كلام القشيرى عن تجانس النفختين واختلاف تأثيرهما ، ثم كلامه بعد قليل عن تجانس السوقين واختلاف وجهتهما .. مقصود منه — كما نظن — أن القياس الإنسانى ليس دائماً على صواب ، مثال ذلك قوله تعالى : «مطويات بيمينه» ، ونسبة الوجه واليد والعين .. ونحو ذلك لله سبحانه ليس بالضرورة أن يكون على نحو ما يفهم الإنسان من هذه الماديات ، فالكلمة هى الكلمة .. ولكن شتان بين الدلالة هنا والدلالة هناك .. والله أعلم بمقصود القشيرى .. ولكن هكذا نظن .

الكتابُ وجيء بالنبيين والشهداء
وقُضِيَ بينهم بالحقِّ وهم لا يُظْلَمون » .

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامةُ به ، وذلك عند تكوير الشمس وانكدار النجوم ، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم . الكفّارُ يبقَوْن في الظلمات ، والمؤمنون نورُهم يسعى بين أيديهم .

ويقال اليومَ إشراق ، وغداً إشراق ، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره ، وغداً إشراقُ الأرض بنور ربها . ويقال غداً أنوار التولّي للمؤمنين ، واليومَ أنوار التجلّي للعارفين .

قوله جل ذكره : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ » .

إن كان خيرًا فخيرٌ ، وإن كان غير خَيْرٍ فغيرُ خير .

قوله جل ذكره : « وسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً
حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أبوابُها وقال لهم
خَزَنَتُها ألم يأتِكم رُسُلٌ منكم يتلون
عليكم آياتِ ربِّكمُ ويُنذِرُونَكُم لقاءَ
يومكمُ هذا قالوا بلى ولكن حَقَّتْ كلمةُ
العذابِ على الكافرين » .

الكفار يُساقُون إلى النار عنفاً ، والمؤمنون يُساقون إلى الجنة لُطفاً ؛ فالسَّوْقُ يجمع الجنسين . . ولكن شتان بين سَوْقٍ وسَوْق ! .

فإذا جاء الكفارُ قابلهم خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب ؛ فلا تكريمَ ولا تعظيم ، ولا سؤال ولا استقبال . . بل خِزْيٌ وهوانٌ ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان .

قوله جل ذكره : « وسيق الذين اتقوا ربَّهُم إلى الجنة
زُمَراً حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها
وقال لهم خَزَنَتُها سلامٌ عليكم طِبْتُم
فادخلوها خالدين » .

سَوْقٌ ولكن بغير تعبٍ ولا نَصَبٍ ، سَوْقٌ ولكن برَوْحٍ وطَرَبٍ .

« زمراً » جماعات ، وهؤلاء هم عوامُّ أهل الجنة ، وفوق هؤلاء : « يومَ نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »[1] وفوقهم مَنْ قال فيهم : « وأُزْلِفَتْ الجنة للمتقين غير بعيد »[2] وفَرْقٌ بين مَنْ يُسَاقُ إلى الجنة ، وبين مَنْ تَقْرُبُ منه الجنة .. هؤلاء الظالمون ، والآخرون للمقتصدون ، والآخرون السابقون[3].

« حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها .... » وإذا وافوا الجنة تكون الأبوابُ مُفَتَّحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار .

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاق ، ولعلَّ هؤلاء لا رغبةَ لهم فى الجنة بكثير ؛ فَلَهُمْ معه فى الطريق قَوْلُ « طِبْتُم » ؛ أى أنهم يُساقون إلى الجنة بلطف دون عنف .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمدُ لله الذى صَدَقَنا وعْدَه وأورثنا الأرضَ نتبوَّأ من الجنةِ حيث نشاء فَنِعْمَ أجرُ العاملينَ » .

صَدَقَنا وعده بإدخالنا الجنة ، وإكمال المِنَّة .

« وأورثنا الأرضَ » أى أرضَ الجنة ؛ نتبوأ منها حيث نشاء . وهؤلاء قوم مخصوصون ، والذين هم قومُ « الغُرَف » أقوام آخرون .

قوله جل ذكره : « وترى الملائكةَ حافِّين مِنْ حول العَرْشِ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ ربِّهم وقُضِيَ بينَهُم بالحقِّ وقيل الحمدُ لله ربِّ العالَمين » .

يُسَبِّحون بحمد ربهم فى عموم الأوقات .. هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش .

وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحقِّ ، لهؤلاء دَرَكات ولأولئك درجات .. إلى غير ذلك من فنون الحالات . وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً فى مقاماتهم على ما أراده الحقُّ فى عباداتهم .

---

(1) آية ٨٥ سورة مريم . (2) آية ٣١ سورة ق .

(3) إشارة إلى الآية : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » (آية ٣٢ سورة فاطر) .

سورة المؤمن [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة مَنْ تحقّق بها شَرُفَ من الحقّ مَنَالُه ، وصفت عنده أحواله ، وخَلَعَ عَلَى نَفْسِه رداء الأفضال ، وألبَسَ قلبَه جلالَ الإقبال ، وأفرد رُوحَه بِرَوْحِ لُطْفِ الجمال ، واستخلص سِرَّه بِكَشْفِ وصفِ الجلال .

قوله جل ذكره : « حم »

أى حُمَّ أمرٌ كائن [2] .

ويقال « الحاء » إشارة إلى حِلْمِه ، « والميم » إشارة إلى مجده أى : بحِلْمى ومجدى لا أُخَلِّدُ فى النار مَنْ آمنَ بى .

ويقال هذه الحروف (مفاتح أسمائه) [3] .

« تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

---

(١) تسمى سورة غافر ، وسورة الطَّوْل ، وسورة المؤمن لقوله تعالى فيها : «وقال رجلٌ مؤمن» (السيوطى: الإتقان حـ ١ ص ٥٤) .

(٢) أى قُضِى ووقع ، قال كعب بن مالك :

فلمّا تلاقيناهم ودارت بنا الرَّحى وليس لأمر حَمَّه اللهُ مَدْفَعُ

أو تكون بمعنى قَرُبَ كما قال الشاعر

قد حُمَّ يومى فسُرَّ قومٌ قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونومٌ .

(٣) ما بين القوسين سقط من ص ، وهى موجودة فى م .

عن أنس أن أعرابيا سأل النبى (ص) ما حم ؟ فإنا لانعرفها فى لساننا ، فقال النبى (ص) : «بدء أسماء وفواتح سور» .

« العزيز » : المُعِزّ لأوليائه ، « العليم » بما كان ويكون منهم ، فلا يمنعه عِلْمُه بما سَلَفَ منهم عن قضائه .

قوله جل ذكره : « غافِرِ الذَّنبِ وقابِلِ التَّوْبِ
شَدِيدِ العِقابِ ذِى الطَّوْلِ لا إِلَهَ
إِلا هُوَ إِليهِ المصيرُ » .

كتابٌ مُعنوَنٌ بقبول توبته لِعبادِه ؛ عَلِمَ أنَّ العاصىَ مُنكَسِرُ القلبِ فأزال عنه الانكسارَ بأن قدَّمَ نصيبه ، فقدَّم اسمَهُ عَلَى قبول التوبة . فَسَكَّنَ نفوسَهم وقلوبَهم باسْمَيْنِ يُوجِبان الرجاء ؛ وهما قولُه : « غافر الذنب وقابل التوب » .

ثم عقبهما بقوله : « شديد العقاب » ثم لم يرضَ حتى قال بعدئذ « ذى الطول » .

فيُقَابِلُ قولَه : « شديد العقاب » قولُه : « ذى الطَّوْل » .

(ويقال : غافرُ الذنبِ لِمَنْ أَصَرَّ واجْتَرَمَ ، وقابلُ التوب لمن أقرَّ وَندِمَ ، شديد العقاب لِمَنْ جَحَدَ وعَنَدَ ، ذِى الطول لمن عَرَفَ ووَحَدَ)(١) .

ويقال غافر الذنب للظالمين ، وقابل التوب للمقتصدين ، شديد العقاب للمشركين ، ذى الطول للسابقين .

ويقال : سُنَّةُ الله أنه إذا خَوَّفَ العبادَ باسمٍ أو لفظٍ تدَارَكَ قلوبَهم بأن يُبشِّرَهم باسْمَينِ أو بوَصفَيْن(٢) .

« إليه المصير » : وَإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير .

قوله جل ذكره : « مَا يُجَادِلُ فى آياتِ اللهِ إلاَّ
الذين كَفروا فلا يَغرُرْكَ تَقَلُّبُهمْ فى
البِلادِ » .

---

(١) مابين القوسين بأجمعه ساقط من ص وموجود فى م .

(٢) وهذه آية كرمه سبحانه .

إذا ظَهَرَ البرهانُ واتَّضَحَ البيانُ استسلَمَتْ الألبابُ الصاحيةُ للاستجابة والإيمان.

فأمّا أهلُ الكفرِ فلهم عَلَى الجحود إصرارٌ، وشُؤْمُ شِرْكهم يحولُ بينهم وبين الإنصاف . . . وكذلك مَنْ لا يحترمون أولياءَ الله ، ويُصِرُّون عَلَى إنكارهم ، ويعترضون عليهم بقلوبهم ، ويجادلون في جَحْدِ الكرامات ، ومَا يخصُّ اللهُ به عبادَه من الآيات . . . فهؤلاء لا يميزون بين رجحانهم ونقصانهم ، وسيفتضحون كثيراً .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قبلَهُمْ قومُ نُوحٍ والأحزابُ مِنْ بَعْدِهِم، وَهمَّتْ كُلُّ أمةٍ برسولهم ليأخذُوه وجادَلوا بالباطل ليُدْحِضُوا به الحقَّ فَأَخَذْتُهمْ فكيف كان عِقَاب».

كذلك مَن انقرض مِنَ الكفار كان تكذيبُ الرُّسُلِ دَأْبَهمْ ، ولكنَّ اللهَ — سبحانه — انتقم منهم ، وعَلَى كُفرِهم اخترمهم .

والمُنكِرُ لهذا الطريق[1] يدين بإنكاره ، ويتقرّبُ إلى الله به ، ويعد وقيعته في أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته ، ولكن الله — سبحانه — يعذبهم في العاجل بتخليتهم فيما هم فيه ، وصَدٍّ قلوبهم عن هذه المعاني ، وحرمانهم منها .

قوله جل ذكره : « وكذلك حَقَّتْ كلمةُ ربِّكَ عَلَى الذين كفروا أنَّهم أصحابُ النار ».

إذا انحتم عَلَى عبدٍ حُكْمُ اللهِ بشقاوته فلا تنفعه كَثْرَةُ ما يورَد عليه من النُّصح .. واللهُ عَلَى أمره غالبٌ . ومَنْ أَسَرَتْه يَدُ الشقاوة فلا يُخَلِّصُه مِنْ مخالبها جُهْدٌ ولا سعاية .

قوله جل ذكره : « الذين يَحْمِلون العرْشَ ومَنْ

(١) يقصد الطريق الصوفي .

حَوْلَه يُسَبِّحُون بِحَمْدِ ربِّهِمْ ويؤمِنُون
به وَيستغفِرُونَ للذِين آمنوا رَبَّنا
وَسِعْتَ كُلَّ شيء رحمَةً وعِلْماً فاغْفِرْ
للذين تابوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عذابَ الجحِيم » .

حَمَلةُ العرش مَنْ حَوْلَ العرش مِنْ خواص الملائكة[1] ، مأمورون بالتسبيح لله ، ثم بالاستغفار للعاصين — لأنَّ الاستغفارَ للذنبِ والتوبةُ إنما تحصل من الذنب — ويجتهدون فى الدعاء لهم على نحو مافى هذه الآية وما بعدها ؛ فيدعون لهم بالنجاة ، ثم بِرَفْعِ الدرجات ، ويحيلون الأمر فى كل ذلك على رحمةِ الله .

قوله جل ذكره : « رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَناتِ عَدْنٍ
التى وَعَدتَّهُمْ ومَن صَلَحَ مِنْ
آبائِهم وَأزواجِهمْ وَذُرِّيَّاتِهم إنَّكَ
أنت العزيزُ الحكيم * وَقِهِمُ
السيئاتِ وَمَن تَقِ السيئاتِ يومئذٍ
فقدْ رَحِمْتَه وذلك هو الفوز العظيم » .

« وَمنْ تقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رَحمته » : فلئن سَلَّطَ عليك أَرَاذِلَ مِنْ خَلْقِه — وَهُم الشياطين — فلقد قَيَّض بالشفاعة أفاضلَ من خَلْقِهِ ومن الملائكة المقرَّبين

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفرُوا يُنَادَوْنَ لمَقْتُ
اللهِ أكبرُ مِن مقتِكُمْ أنفسَكُمْ
إذ تُدْعوْنَ إلى الإيمانِ فتَكفرُون » .

أَشَدُّ العقوباتِ التى يُوصلها الحقُّ إليهم آثارُ سُخطِه وغَضَبِه ، وأَجَلُّ النِّعم

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله (ص) : « أذن لى أن أحدّث عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » ذكره البيهقى ، وقال : هو أعظم المخلوقات .

التي يغروهم بها آثارُ رضاه عنهم. فإذا عَرَفَ الكافرُ في الآخرة أنَّ ربَّه عليه غضبانُ فلا شيء أصعبُ على قلبه من ذلك؛ لأنه عَلِمَ أنه لا بُكاء ينفعه، ولا عناءَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يُسْمَعُ له تضرُّعٌ، ولا تُرْجَى له حيلة.

قوله جل ذكره: « قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنا اثنتين وأَحْيَيْتَنا اثنتين فاعترفْنَا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ من سبيل ».

الإماتةُ الأُولى إماتَتُهم في الدنيا ثم في القبر يحييهم، ثم يميتهم فهى الإماتةُ الثانية. والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر (1).

« فاعترفنا بذنوبنا »: أقروا بذنوبهم — ولكن في وقتٍ لا ينفعهم الإقرار.

« فهل إلى خروجٍ من سبيل » مما نحن فيه من العقوبة، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندمُ والإقرارُ. فيُقال لهم: —

« ذَلِكُمْ بأنه إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كَفَرْتُمْ وإن يُشْرَكْ به تُؤْمِنوا فالْحُكْمُ للهِ العليِّ الكبير ».

أي تُصَدِّقوا للشركين لِكُفْرِهم. [وهؤلاء إماتَتُهم محصورة، فأمَّا أهلُ المحبةِ فلهم في كلِّ وقتٍ حياةٌ وموتٌ، قال قائلُهم:

أموت إذا ذَكَرْتُكَ ثم أحيا فكم أحيا عليكَ وكم أموت!

فإنَّ الحقَّ — سبحانه — يُرَدِّدُ أبداً الخواصَّ من عباده بين الفناء والبقاء،

---

(1) هذا الرأي يذهب إليه السُّدِّي أيضاً، وإنما إحياؤهم في القبور للمسألة، ومن هذا استدل العلماء على سؤال القبر.

واستدل من الآية كذلك على إحياء الأجساد، لأن الروح — عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح — لا تموت ولا تتغير ولا تفسد، فلو كان الثواب والعقاب للروح — دون الجسد — فما معنى الإحياء والإماتة؟

ويذهب ابن عباس وابن مسعود وقتادة والضحاك إلى أنهم كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم. ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها في الدنيا، ثم أحياهم البعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان.

والحياة والموت ، والمحو والإثبات][1] .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُرِيكم آياته ويُنزّلُ لكمُ من السماء رزقًا وما يتذكّرُ إلّا مَن يُنيبُ » .

يُريهم آياتِ فَضْلِه فيما يُلاطِفُهم ، ويريهم آياتِ قَهْرِه فيما يكاشفهم ، ويريهم آياتِ عَفْوِه إذا تَنَصَّلُوا[2] ، وآياتِ جوده إذا توسَّلُوا ، وآياتِ جلاله إذا هابوا فغابوا ، وآياتِ جماله إذا آبوا واستجابوا . « وينزل لكم من السماء رزقًا » لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات ، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات ، (ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات)[3] .

« وما يتذكّرُ إلّا مَنْ يُنيب » : يرجع من العادة إلى العبادة ، ومن الشّكّ إلى اليقين ، ومن الخَلْقِ إلى الحقّ ، ومن الجهل إلى العِلْم ، ومن النَّكِرَة إلى العرفان .

قوله جل ذكره : « فادْعُوا اللهَ مُخْلِصين له الدِّينَ ولو كَرِه الكافرون » .

شَرْطُ الدعاءِ تقديم للمعرفة لتعرفَ مَن الذى تدعوه ، ثم تدعو بما تحتاج إليه ممّا لا بُدّ لكَ منه ، ثم تنظر هل أعطاكَ ما تطلب وأنت لا تدرى ؟ والواجبُ ألا تطلب شيئًا تكون فيه مخالفةٌ لأمره ، وأنْ تتباعدَ عن سؤالك الأشياء الدَّنيَّة والدنيوية ، وأنْ ترضى بما يختاره لكَ مولاكَ . ومن الإخلاص فى الدعاء ألّا ترى الإجابةَ إلّا منه ، وألا ترى لنفسك استحقاقًا إلا بفضله ، وأنْ تعلمَ أنه إنْ بَقِيتَ فى سؤالك عن مطلوبك — الذى هو حَظُّكَ — لا تَبْقَ عن عبادة ربِّك — التى هى حَقُّه ؛ فإنّ الدعاء مُخُّ العبادة ، ومن الإخلاص فى الدعاء أنْ

(1) فالموت بالقبض والفناء والمحو ، والحياة بالبسط والبقاء والإثبات . ونحسب أن الكلام الموجود بين القوسين الكبيرين يتصل بالآية السابقة نظراً لتلازم تقليب الأحوال مع الإماتة والإحياء وكنا نريد أن نضعه فى مكانه حسبما رأينا لولا أنه موضوع هنا فى م و ص . ويبدو أن القشيرى اعتبر الآيتين كيانا عضوياً واحداً ، فجاءت الإشارة منهما جميعا .

(2) أى تنصلوا من ذنوبهم .

(3) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

تكونَ في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداؤه جُرْماً لك ، وتكون ضرورتُك لسراية جنايتك .

قوله جل ذكره : « رفيعُ الدرجاتِ ذو العَرْشِ يُلْقِي
الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ على مَن يشاءُ مِنْ
عبادِه لِيُنذِرَ يومَ التلاقِ » .

رافعُ الدرجات للعُصاةِ بالنجاة[1] ، وللمطيعين بالمثوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوى الحاجات بالكفايات ، وللعارفين بتنقيتهم عن جميع أنواع الإرادات .

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم في الجنة ، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم في الدنيا ؛ فيرفع درجاتِهم عن النظر إلى الكونَيْن دون المساكنة إليهما . وأمَّا المحبون فيرفع درجاتِهم عن أن يطلبوا في الدنيا والعُقبى شيئاً غيرَ رضاء محبوبهم[2] .

« ذو العرش » : ذو المُلْكِ الرفيع . ويقال العرش الذي هو قِبْلَةُ الدعاء ، خَلَقَه أرفعَ المخلوقاتِ وأعظمَها جُثة[3] .

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » روحٌ بها ضياء أبدانهم — وهو سلطانُ عقولهم ، وروحٌ بها ضياء قلوبهم — وهو شغلهُ علومهم ، وروحٌ بها ضياء أرواحهم

---

(١) واضح أن القشيرى لا يكاد يترك فرصة دون أن يفتح أبواب الأمل أمام العصاة حتى لا يقنطوا من رحمة الله .. وهذا نابع من سماحته الصوفية الأصيلة .

(٢) هنا نلاحظ أن القشيرى جعل المحب أعلى درجة من العارف — مع أن العرفان الذى غايته التوحيد — هو أعلى مراتب الطريق الصوفى . ولكن نظراً لأن الحب والفناء والمعرفة كلها من الحب وإلى الحب فكثيراً ما نجد كتاب التصوف كالقشيرى والغزالى وغيرهما لا يتقيدون تقيداً حرفياً بهذا الترتيب الذى يفيد فى الدراسة فقط ، وقد تناولنا هذه النقطة بالتفصيل فى كتابنا «نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف» فى مقدمة باب «المقامات» .

(٣) نلاحظ أن القشيرى هنا يصف (العرش) مرة بأنه الملك أو قبلة الدعاء ثم يعود فيقول (.... وأعظمها جثة) بمعنى أن يجرد العرش مرة من المادية ثم يعود ليخلع عليه النسبة المادية ، فإذا كان ذلك بقصد مخاطبة الناس على قدر فهومهم — كما قلنا من قبل فهذا جائز .. ولكن الواقع أن القشيرى يعبر عن شىء من الاضطراب الذى أصاب الأشاعرة إزاء المتشابهات ، وهو أمر تحدثنا عنه بالتفصيل فى كتابنا (الإمام القشيرى — تصوفه وأدبه) ... ولعل خير ما انتهى إليه الرازى قوله «حاصل مذهب السلف أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله منها شىء غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها» (أساس التقديس للرازى ط الكردى ص ٢٢٢) .

— والذى هو للرُّوح رَوْحٌ — بقاؤهم بالله .

ويقال : روحٌ هو روح إلهام ، وروح هو روح إعلام ، وروح هو روح إكرام .

ويقال : روح النبوة ، وروح الرسالة ، وروح الولاية ، وروح المعرفة .

ويقال : روح بها بقاء الخلق ،وروح بها ضياء الحق .

قوله جل ذكره : « يوم هُم بارِزونَ لا يَخفَىٰ على اللهِ منهم شيء » .

يعلم الحاصل الموجود ، ويعلم المعدوم المفقود ، والذى كان والذى يكون ، والذى لا يكون مما عَلِمَ أنه لايجوز أن يكون ، والذى جاز أن يكون أنْ لو كان كيف كان يكون .

« لِمَنِ المُلْكُ اليومَ للهِ الواحدِ القهّارِ » .

لا يتقيد مُلْكُهُ بيومٍ ، ولا يختصُّ مُلْكُهُ بوقتٍ ، ولكنَّ دَعَاوَى الخَلْقِ — اليومَ — لا أصلَ لها ؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترتفع تلك الأوهام .

قوله جل ذكره : « اليومَ تُجزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ اليومَ إنَّ اللهَ سريعُ الحساب »

يجازيهم على أعمالهم بالجنان ، وعلى أحوالهم بالرضوان ، وعلى أنفاسهم بالقربة ، وعلى محبتهم بالرؤية .

ويجازى المذنبين على توبتهم بالغفران ، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء .

« لا ظلمَ اليوم » : أى أنه يستحيل تقديرُ الظلم منه ، وكل ما يفعل فله أنْ يفعلَه . « وهو سريع الحساب » مع عباده ؛ لايشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريعُ الحساب مع أوليائه فى الحال ؛ يطالبهم بالصغير والكبير ، والنقير والقطمير .

قوله جل ذكره : « وأنذِرهم يومَ الآزفة إذِ القلوبُ لدى

الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ
ولا شفيعٍ يُطَاع ».

قيامةُ الـكلِّ مؤجَّلة ، وقيامةُ المحبين مُعَجَّلة ؛ فلهم فى كلِّ نَفَسٍ قيامةٌ من العتاب والعذاب والثواب ، والبُعاد والاقتراب ، وما لم يكن لهم فى حساب[1] ، وتشهد عليهم الأعضاء ؛ فالدمعُ يشهد ، وخفقانُ القلبِ ينطق ، والنحولُ يُخْبِر ، واللونُ يُفْصِح ... والعبدُ يَسْتُرُ ولـكن البلاءَ يَظْهَرُ :

يا مَنْ تَغَيَّرُ صورتى لمَّا بَدَا   لجميعِ ما ظنُّوا بنا تصديقًا[2]

وأنشدوا :

لى فى محبتــــه شهودٌ أربعٌ   وشهودُ كلِّ قضيــــة اثنان
ذوبانُ جسمى وارتعادُ مفاصلى   وخفوقُ قلبى واعتقالُ لسانى

وقلوبُهم — إذا أزِفَ الرحيلُ بَلَغَت الحناجر ، وعيونُهم شَرِقَتْ بدموعها إذا نودى بالرحيل وشُدَّت الرواحل .

قوله جل ذكره : « يعلـم خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِى الصدورُ » .

خائنةُ أعين المحبين استحسانهم شيئاً ، ولهذا قالوا :

يا قُرَّة العينِ : سَلْ عينى هل اكتحلت
بمنظرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عن بَصَرِى ؟

ولذلك قالوا :

فعينى إذا استحسنَتْ غيرَكم   أمَرْتُ السُّهادَ بتعذيبها

---

(١) أى وما لم يخطر لهم ببال .

(٢) معنى الشاهد الشعرى فيما نظن : يأيها الذى تتغير صورتى عند تجليه علىّ ، فينكشف أمرى رغم محاولتى ستر حالى ، وبهذا تصدق ظنون العاذلين واللائمين .

ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السِّنَةُ والسُّبات فى أوقات المناجاة ؛ وقد جاء فى قصة داود عليه السلام : كَذَبَ مَنْ ادَّعَى محبتى ، فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عنِّى !

ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَبَرٌ بقلوبهم عمَّا تقع عليه عيونُهم .

ومن خائنة أعين الموحِّدين أن تخرج منها قطرةُ دمعٍ تأسُّفاً على مخلوقٍ يفوت فى الدنيا والآخرة ، ولا على أنفسهم .

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأى وجهٍ كان ، فى الخبر : « حُبُّكَ الشىءَ يعمى ويصم » .

« وما تخفى الصدور » : فالحقُّ به خبير[1] .

قوله جل ذكره : « واللهُ يقضى بالحقِّ والذين يَدْعُون
من دونه لا يَقْضُونَ بشىءٍ إنَّ اللهَ
هو السميعُ البصير » .

يقضى للأجانب بالبعاد ، ولأهل الوصال بالوداد ، ويقضى يومَ القدوم بعزْل عمال الصدود ، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كَبْشٍ أملح فلا غرابة أن يُذْبَحَ الفراقُ على رأسِ سِكَّةِ[2] الأحبابِ فى صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العِبْرة لينظرَ إليه أهلُ الحضْرَة .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف
كان عاقبةُ الذين كانوا مِن قَبْلِهِم
كانوا هم أَشَـدَّ منهم قوةً وآثاراً

(١) كان عبد الله بن أبى سرح يكتب الوحى لرسول الله (ص) ثم ارتد ولحق بالمشركين فأمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة .

ويروى أنه لما جىء به إلى الرسول (ص) بعدما اطمأن أهل مكة ، وطلب عثمان رضى الله عنه له الأمان صمت الرسول طويلا ثم قال : «نعم» ، فلما انصرف قال الرسول (ص) لمن حوله : «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فقال : إن النبى لا تكون له خائنة أعين » .

(٢) السكة = الطريق المستوى .

فى الأرضِ فأخذهم اللهُ بذنوبِهم
وما كان لهم مِنَ اللهِ من واقٍ » .

أو لم يسيروا فى أقطار الأرض بنفوسهم، ويطوفوا مشارقَها ومغاربَها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها؟ أو لم يسيروا بقلوبهم فى الملكوت بجولان الفكر ليشهدوا أنوارَ التجلِّى فيستبصروا بها؟ أو لم يسيروا بأسرارهم فى ساحات الصمدية ليستهلكوا فى سلطان الحقائق، وليتخلَّصُوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها؟.

قوله جل ذكره: « ذلك بأنَّهم كانت تأتيهم رُسُلُهم
بالبيناتِ فكفروا فأخَذَهُم اللهُ إنَّه قوىٌّ
شديدُ العقاب » .

إنْ بقى من أهل السلوك قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فَلْيَعْلَمْ أنَّ مُوجِبَ حَجْبِه اعتراضٌ خامَرَ قلبَه على بعض شيوخه فى بعض أوقاته؛ فإنَّ الشيوخَ بمحلِّ السفراء للمريدين. وفى الخبر: « الشيخُ فى قومه كالنبىِّ فى أمته »[(1)] .

قوله جل ذكره: « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ
مبين * إلى فِرعونَ وهامانَ وقارونَ
فقالوا ساحِرٌ كَذَّابٌ » .

أكْرَمُ خَلْقِه فى وقته كان موسى عليه السلام، وأخَسُّ خَلْقِه وأذَلُّهم فى حُكْمِه وأشدُّهم كفراً كان فرعون؛ فما قال أحدٌ غيرَه: « ما عَلِمْتُ لكم من إلهٍ غيرى »[(2)].

فبعَثَ اللهُ — أخصَّ عباده إلى أخسِّ عِباده، فقابله بالتكذيب، ونَسَبَه إلى السِّحر ،

---

(1) يقول السهروردى فى عوارفه: «وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله (ص) وهم أحق الناس بإحياء سنته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب (ص٢٩٣) عوارف المعارف، وفى موضع آخر يقول: «وليعلم المريد أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله وأن الذى يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان فى زمن رسول الله عليه الصلاة والسلام. ص ٢٨٥ .

(2) آية ٣٨ سورة القصص .

وأنَّبَهُ بكل أنواع التأنيب . ثم لم يُعَجِّلْ اللهُ عقوبتَه ، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَه — إنه سبحانه حليمٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جاءهم بالحقِّ مِنْ عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستَحْيُوا نِساءهم وما كيدُ الكافرين إلاّ في ضلال » .

عَزَمَ على إهلاكه وإهلاكِ قومه ، واستعان على ذلك بِجُنْدِه وخَيْلِه ورَجْلِه ، ولكن كان كما قال الله : « وما كيد الكافرين إلا في ضلال » ، لأنه إذا حَفَرَ أحدٌ لِوَلِيٍّ من أولياء الله تعالى حُفْرةً ما وقع فيها غيرُ حَافِرِها .. بذلك أجرى الحقُّ سُنَّتَه .

قوله جل ذكره : « وقال فرعونُ ذروني أقْتُلْ موسى ولْيَدْعُ رَبَّهُ إنِّي أخاف أن يُبَدِّلَ دينَكم أوأن يُظْهِرَ في الأرض الفسادَ » .

« ولْيَدْعُ ربَّه » أي لِيَتَبَتَّلْ بربه ، وإني أخاف أن يبدل دينكم ، وأخاف أن يُفْسِدَ في الأرض ، وكان المُفْسِدُ هو فرعون ، وهو كما قيل في المثل : « رَمَتْنِي بدائها وانْسَلَّتْ » . ولكن كادَ له له الكيد ، والكائد لا يتخلص من كيده .

فاستعاذ موسى بربه ، وانتُدِبَ في الردِّ عليهم مؤمنٌ بالله وبموسى كان يكتم إيمانَه عن فرعون وقومه : —

« وقال رَجُلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتم إيمانَه أتقتلون رجلاً أن يقولَ رَبِّيَ اللهُ وقد جاءكم بالبيِّنات مِنْ ربِّكم وإن يَكُ كاذباً فعليه كَذِبُه وإن يكُ صادقاً يُصِبْكُمْ بعضُ الذي يَعِدُكُم إن اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هو مُسْرِفٌ كذَّابٌ » .. الآيات

نَصَحَهُم واحتجَّ عليهم فلم ينجعْ فيهم نُصْحٌ ولا قولٌ . وكم كرَّرَ ذلك المؤمن من آل فرعون القولَ وأعاد لهم النُّصْحَ ! فلم يستمعوا له ، وكان كما قيل :

وكم سُقْتُ فى آثاركم من نصيحةٍ   وقـــد يستفيد البغضة المتنصِّحُ

قوله جل ذكره : « ولقد جاءكم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبيناتِ فما زِلتم فى شكٍّ مما جاءكم به حتى إذا هلكَ قُلتم لن يبعثَ اللهُ مِنْ بعدِه رسولاً كذلك يُضِلُّ اللهُ مَنْ هو مسْرِفٌ مرْتابٌ » .

بيَّنَ أنَّ تكذيبهم كتكذيب آبائهم وأسلافهم من قبل ، وكما أهلك أولئك قديماً كذلك يفعل بهؤلاء .

قوله جل ذكره : « وقال فرعونُ ياهامانُ ابنِ لى صَرْحاً لعلِّى أبلغُ الأسبابَ * أسبابَ السمواتِ فأطَّلِـعَ إلى إلهِ موسى وإنِّى لأظُنُّه كاذباً » .

السببُ ما يُتوصَّلُ به إلى الشىء ؛ أى لعلِّى أصل إلى السماء فأطَّلِعَ إلى إله موسى . ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبودَ فى السماء وبين الكافر إلا هذا لكفى به خِزْياً لمذهبهم[1] .
وقد غَلِطَ فرعونُ حين توَهَّمَ أنَّ المعبودَ فى السماء ، ولو كان فى السماء لكانَ فرعونُ مُصيباً فى طَلَبِه من السماء .

قوله جل ذكره : « وكذلك زُيِّنَ لفرعونَ سوءُ عَمَلِه وصُدَّ عن السبيل وما كيدُ فرعونَ إلا فى تبابٍ » .

أخبر أنَّ اعتقادَه بأنَّ المعبودَ فى السماء خطأٌ ، وأنَّه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله .

قوله جل ذكره : « وقال الذى آمَنَ يا قومِ اتَّبعونِ

---

(١) هنا يغمز القشيرى بالمشبهة غمزة قاسية (انظر ص ٢٤٥ من هذا الجلد) .

أَهْدِكُمْ سبيلَ الرشادِ * يا قومِ إنما هذه
الحياةُ الدنيا متاع وإنَّ الآخِرَةَ هي
دارُ القرارِ » .

أَصَرَّ على دعائه لهم وأَصَرُّوا على جحودهم وعُتُودِهم .

« مَنْ عَمِلَ سيئةً فلا يُجْزَىٰ إلا مِثْلَها
ومَنْ عَمِلَ صالحًا من ذَكَرٍ أو أنثى
وهو مُؤمِنٌ فأولئك يدخلون الجنةَ
يُرْزَقُونَ فيها بغير حِسَاب » .

« فلا يجزى إلا مثلها » : في المقدار لا في الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأةُ من الله عليها حسنةٌ وليست بسيئة .

« وهو مؤمن » يعنى في الحال[1] ، لأنَّ مَنْ لا يكون مؤمنًا في الحال لا يكون منه العملُ الصالحُ ، « فأولئك يدخلون الجنة يُرْزَقُون فيها بغير حساب » : أي رزقًا مؤبَّدًا مُخلَّدًا ، لا يخرجون من الجنة ولا مِمَّا هم عليه من المآل .

« ويا قومِ مالِي أدْعوكُم إلى النجاةِ
وتدْعُونني إلى النار » .

وهذا كُلُّه مِنْ قَوْلِ مؤمنِ آلِ فرعونَ ، يقوله على جهة الاحتجاج لقومه ، ويلزمهم الحجة به .

« تدعـــونني لأكْفُرَ باللهِ وأُشْرِكَ به
ما ليس لي به عِلْمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيزِ
الغفَّارِ » .

تدعونني لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لي بصحة قولكم ، وأنا أدعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان ، وأقيم عليه البيان .

---

(١) في الحال هنا معناها في هذه الحياة الدنيا .

« لا جَرَمَ أنَّما تدعوننى إليه ليس له
دعوةٌ فى الدنيا ولا فى الآخرة وأنَّ مَرَدَّنا
إلى اللهِ وأنَّ المسرفين هم أصحابُ النارِ »

لا جَرَمَ أنَّ ما تدعوننى إليه باطل ؛ فليس لتلك الأصنام حياةٌ ولا عِلْمٌ ولا قُدْرَةٌ ، وهى لا تنفع ولا تَضُرُّ . ولقــــد علمنا — بقول الذين ظهر صِدْقُهم بالمعجزاتِ — كَذِبَكُمْ فيما تقولون .

« فَسَتَذْكُرون ما أقولُ لكم وأُفَوِّضُ
أمرى إلى اللهِ إنَّ اللهَ بصيرٌ بالعبادِ » .

أفوض أمرى إلى الله ، وأتوكل عليه ، ولا أخاف منكم ، ولا من كيدكم .

قوله جل ذكره : « فَوَقَاهُ اللهُ سيئاتِ ما مَكَرُوا
وحاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذابِ *
النارُ يُعْرَضُون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ،
ويومَ تقومُ الساعةُ أَدْخِلُوا آلَ فرعونَ
أَشَدَّ العذابِ » .

والآية تدلُّ على عذاب القبر[1] .

ويقال إنَّ أرواحَ الكفار فى حواصل طير سُودٍ تُعْرَضُ على النار غدوا وعشياً إلى يوم القيامة . حيث تدخل النار[2] .

« أدخلوا آلَ فرعون أشدَّ العذاب » : أى يا آل فرعون أُدْخُلوا أشدَّ العذاب ، فَنَصَبه على النداء المضاف . ويقرأ « أَدْخِلوا » على الأمر[3] .

---

(١) بدليل قوله تعالى فيما بعد عن عذاب الآخرة : « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ومن استنتج هذه النتيجة مجاهد وعكرمه ومقاتل ومحمد بن كعب .

(٢) أى هذا دأبها فى الدنيا تذهب فى الغداة أفواجاً أفواجاً بيضا صغاراً ثم تعود فى العشاء سوداً قد احترقت رياشها (الأوزاعى — والنص عند القرطبى حـ١٥ ص ٣١٩)

(٣) فيكون الأمر عندئذ لملائكة العذاب .

« أشد العذاب » : أى أصعبه ، وأصعبُ عذابِ للكفار فى النار يأسُهم من الخروج عنها . أمَّا العصاةُ من المؤمنين فأشدُّ عذابهم فى النار إذا علموا أن هذا يومُ لقاء المؤمنين ، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليومُ أشدُّ أيّام عذابهم .

قوله جل ذكره : « وإذ يتحاجُّون فى النار فيقولُ الضعفاء
للذين استكبروا إنَّا كُنَّا لكم تبعًا
فهل أنتم مُغْنُونَ عنَّا نصيباً من النار *
قال الذين استكبروا إنَّا كُلٌّ فيها إنَّ
اللهَ قد حَكَمَ بين العبادِ » .

يقول الضعفاء للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ، ويقول لهم المستكبرون : أنتم واقتممونا باختياركم[1] ؛ فمحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد فى غيظ قلوبهم ، فكما يُعَذَّبون بنفوسهم يعذبون بضيقِ صدورهم وببُغْضِ بعضهم لبعض .

قوله جل ذكره : « وقال الذين فى النارِ لخزنةِ جهنَّمَ
ادعُوا ربَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يوماً من
العذابِ * قالوا أوَلَم تَكُ تأتيكم
رُسُلُكم بالبينات قالوا بلى ، قالوا :
فادْعُوا ، وما دُعاء الكافرين إلا
فى ضلال » .

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية ، فهم يُدْخِلُونَ واسطةً بينهم وبين ربِّهم[2] . ثم إن الله ينزع الرحمةَ عن قلوب الملائكة كى لا يستشفعوا لهم .

---

(١) لاحظ هنا كيف يحرص القشيرى على إبراز عنصر الاختيار لدى الإنسان ، مع معرفتنا السابقة بأنه ينادى بأن الله خالق كل شىء حتى أكساب العباد ، وقد حاول أن يوفق بين الاتجاهين فقال : يجرى هذا من العبد فعلا ومن الله حكماً .

(٢) من ذلك نفهم أن القشيرى لا يرى بالواسطة عند الدعاء ، بل ينبغى أن تدعو الله مباشرة .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ » .

ننصرهم بالآياتِ وفنونِ التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظَّفَرَ وضِدَّه من الله، والخيرَ والشرَّ من الله .

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غيرِ مرئيٍّ ، من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة[1] وباليقين بأنَّ الكائنات من الله ، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك ، ويعرفوا — بالاضطرار[2] — أنَّ التأثيرَ من الله ،وغاية النصرة أن يَقْتُلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره ، فإذا أراد حَتْفَه[3] تحقَّق بأن لا عَدُوَّ على الحقيقة ، وأنَّ الخَلْقَ أشباحٌ تجرى عليهم أحكامُ القدرة ؛ فالولىُّ لا عدوَّ له ، ولا صديق له إلا الله ، قال تعالى : « الله ولىُّ الذين آمنوا »[4] .

قوله جل ذكره : « يومَ لا ينفعُ الظالمينَ مَعْذِرَتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدارِ » .

دليلُ الخطابِ أن للمؤمنين ينفعهم تَنَصُّلُهم ، ولهم من الله الرحمة، ولهم حُسْنُ الدار ، ومابقى من هذه الدنيا إلا اليسير

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الهُدَى وأورثْنا بنى إسرائيلَ الكتابَ * هُدًى وذِكْرى لأُولى الألبابِ » .

مضى طَرَفٌ من البيان فى قصة موسى .

---

(١) فى ص (بالمغفرة) والملائم للسياق (بالمعرفة واليقين) كما جاء فى م .

(٢) أى تكون معرفة ضرورية ، ونحن نعلم من مذهب القشيرى أن المعرفة فى الابتداء كسبية (من العبد) وفى الانتهاء ضرورية (من الرب) .

(٣) فى ص (حقه) والملائم للسياق أنه يريد (حتف) عدوه .

(٤) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « فَاصبِرْ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ وَاستغفِرْ لِذَنبِك وسَبِّحْ بِحَمْـدِ ربِّكَ بالعشِيِّ والإبكارِ » .

الصبرُ فى انتظار الموعود من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق ؛ فَمَنْ كان تصديقُه ويقينه أتمَّ وأقوى كان صبرُه أتمَّ وأوفى .

« إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ » : وهو — سبحانه — يُعْطِى وإنْ تَوَهَّمَ العبدُ أنه يُبْطِى .

ويقال الصبر على قسمين : صبرٌ على العافية ، وصبرٌ على البلاء ، والصبرُ على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء ، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر[1] .

« واستغفر لذنبك » . وفى هذا دليل على أنه كانت له ذنوب ، ولم يكن جميعُ استغفاره لأمته لأنه قال فى موضع آخر « وللمؤمنين والمؤمنات »[2] وهنا لم يذكر ذلك . ويمكن حَمْلُ الذَّنْبِ على ما كان قبل النبوة ؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزَّلَّة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها ، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة[3] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُجادِلون فى آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهُم إن فى صُدورِهِم إلاَّ كِبْرٌ مَّاهُم ببالِغِيه فاستَعِذْ باللهِ إنه هو السميعُ البصيرُ » .

« بغير سلطان » : أى بغير حجة .

« إنْ فى صدورهم إلا كبر » أى ليس فى صدورهم إلا كِبْرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق ، ويبقون به عن الله ، ولا يصلون إلى مرادهم .

---

(١) لأن قوة الإنسان قد تنسيه ذكر المنعم فيصبر عنه — وهذا جفاء ، ولكن ضعف الإنسان فى البلاء يدعوه إلى الصبر فى الله ، قال قائلهم :

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

(٢) آية ١٩ سورة محمد .

(٣) تفيد هذه الآراء عند بحث قضية كلامية هى : عصمة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « لَخَلْقُ السمٰوات والأرضِ أكبرُ مِنْ خَلْقِ النـاسِ ولـكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون » .

أى خَلْقُ الســمٰواتِ والأرضِ أكبرُ من بَعْثِهم وخَلْقِهم مرةً أخرى بعد أن صاروا رميما ؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخلقِ السمٰوات والأرض، وينكرون أمرَ البعث .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمىُ والبصيرُ والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ ولا المسىء قليلاً ما تتذكّرون » .

أراد به : ما يستوى المؤمنُ والـكافرُ ، ولا المربوط بشهوته كالمبسوط بصفوته ، ولا المجـذوبُ بقربته كالمحجوب بعقوبته ، ولا المُرَقَّى إلى مشاهدته كالمُبْقَى فى شاهده ، ولا المجدود[1] بسعادته كالمردود لشقاوته .

قوله جـل ذكره : « إنَّ السـاعةَ لآتيةٌ لا ريْبَ فيهـا ولـكنَّ أكثرَ النـــاسِ لا يؤمنون » .

إنَّ ميقاتَ الحسابِ لـكائنٌ وإن وقعت المدةُ فى أوانه[2] .

قوله جـل ذكره : « وقال ربكم ادعونى أستجبْ لـكم إنَّ الذين يستكبرونَ عن عبادتى سَيَدْخُلون جهنم داخرينَ » .

معناه : أدعونى أستجب لـكم إنْ شِئْتُ ؛ لأنه قال فى آيةٍ أخرى : « فيكشف ماتدعون إليه إن شاء »[3].

---

(1) جُدَّ فهو مجدود أى كان له حظ .

(2) أى إن وقت الحساب لكائن مهما طالت المدة بيننا وبين وقت حصوله .

(3) آية ٤١ سورة الأنعام .

ويقال ادعونى بشرطِ الدعاء ، وشرطُ الدعاء الأكل من الحلال ؛ إذ يقال الدعاء مفتاحُه الحاجة ، وأسبابُه اللقمةُ الحلال .

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إمّا بما يشاء له ، أو بشيء آخر هو خيرٌ له منه .

ويقال الكافر ليس يدعوه ؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك ، وهو لا شريكَ له .

ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمنٍ يدعو اللهَ ويسأله شيئاً إلا أعطاه فى الدنيا ، فأما فى الآخرة فيقول له : هذا ما طَلَبْتَه فى الدنيا ، وقد ادَّخرتُه لك لهذا اليوم حتى ليَتمنى العبدُ أنه ليته لم يُعطَ شيئاً فى الدنيا قط .

ويقال أدعونى بالطاعات استَجبْ لكم بالثواب والدرجات .

ويقال أدعونى بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة . ويقال ادعونى بالتنصل أستجب لكم بالتفضُّل . ويقال ادعونى بحسَبِ الطاقة أستجب لكم بكشف الفاقة

ويقال ادعونى بالسؤال أستجب لكم بالنوَال والأفضال .

« إن الذين يستكبرون عن عبادتى . . . » أى يستكبرون عن دعائى ، سيدخلون جهنم صاغرين .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جعل لكم الليلَ لتسكُنوا فيه ، والنهارَ مُبصراً »

... الآيات

سكونُ الناسِ فى الليل على أقسام : أهلُ الغفلة يسكنون إلى غفلتهم ، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلهم ، وشتّان بين سكونِ غفلةٍ وسكونِ وصلة !

قومٌ يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم ، وقومٌ يسكنون إلى حلاوة أعمالهم ؛ لبسْطهم واستقلالهم ، وقومٌ يعدِمون القرارَ فى ليلهم ونهارهم وأولئك أصحابُ الاشتياق . . . أبداً فى الاحتراق .

« ذلكم اللهُ ربّكم » الذى جعل سكونكم معه ، وانزعاجكم له ، واشتياقكم إليه ، ومحبتكم فيه ، وانقطاعكم إليه .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جعل لكم الأرضَ
قراراً والسماء بناء وصوّركم فأحسنَ
صُوَرَكم » .

« صوّركم فأحسن صُوَرَكم » : خلقَ العرشَ والكرسيّ والسموات والأرضين وجميعَ المخلوقاتِ ولم يقُلْ هذا الخطابَ ، وإنما قال لنا : « وصوّركم فأحسن صورَكم » وليس الحَسَنُ ما يستحسنه الناسُ بل الحَسَنُ ما يستحسنه الحبيبُ :

ما حطكَ الواشون عن رتبةٍ عندى ولا ضرّكَ مغتابُ
كأنهم أثنَوا — ولم يعلموا — عليكَ عندى بالذى عابوا

لم يَقُلْ للشموس فى علائها ، ولا للأقمار فى ضيائها : « وصوّركم فأحسن صوركم » .

ولمّا انتهى إلينا قال ذلك ، وقال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[(1)]

ويقال إن الواشين قبّحوا صورتكم عندنا[(2)] ، بل الملائكةُ كتبوا فى صحائفكم قبيحَ ما ارتكبتم . . ومولاكم أحسَنَ صورَكم ، بأنْ محا من ديوانكم الزّلاّت ، وأثبت بدلاً منها الحسناتِ ، قال تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت »[(3)] ، وقال : « فأولئك يُبدّل اللهُ سيئاتهم حسنات »[(4)] .

قوله جل ذكره : « ورزَقكم من الطيّبات » .

ليس الطيبُ ما تستطيبه النفسُ إنما الطيب ما يستطيبه القلبُ ، فالخبزُ

---

(1) آية ٤ سورة التين .

(2) ربما يقصد القشيرى بذلك إبليس الذى استعل بكونه مخلوقاً من نار على آدم المخلوق من الطين .

(3) آية ٣٩ سورة الرعد .

(4) آية ٧٠ سورة الفرقان .

الغفار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغنيّ المتسخّط .

ورزقُ النفوسِ الطعامُ والشرابُ ، ورزقُ القلوبِ لذاذات الطاعات .

قوله جل ذكره : « هو الحيُّ لا إله إلا هو فادعوه
مُخلصين لهُ الدينَ الحمدُ للهِ
ربِّ العالمين »

« هو الحيُّ » : الذى لا يموت ، ولا فَضْلُهُ يفوت ، فادعوه بلسان القوت ، وذلك عليه لا يفوت .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنى نُهيتُ أنْ أعبُدَ الذين
تدْعُون مِن دونِ اللهِ لما جاءنىَ
البيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى وأُمِرْتُ أنْ أُسلِمَ
لِرَبِّ العالَمين »

قُلْ — يا محمد — إنى نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله ؛ أى أُمِرْتُ بالتبرِّى عمَّا عبدتم ، والإعراضِ عمّا به اشتغلتم ، والاستسلام للذى خلقنى ، وبالنبوة استخصّنى .

قوله جل ذكره : « هو الذى خلقكم مِن ترابٍ
ثمّ مِن نُطفةٍ ثم من عَلَقةٍ ثم
يُخرِجُكم طِفلاً ثم لتبلغوا أشُدَّكم ثم
لتكونوا شيوخاً . . »

فمن تُرْبةٍ إلى قَطْرَةٍ ؛ ومن قطرةٍ إلى عَلَقةٍ . . ثم من بطون أمهاتكم إلى ظهوركم فى دنياكم . . ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً . .

وهو الذى يحيى ويميت ، ثم يبعث فى أخرى الدارين .

قوله جل ذكره : « ألَم تَرَ إلى الذين يُجادلونَ

في آياتِ اللهِ أنى يُصْرَفون » .

في آيات الله يَتبلَّدُون ؛ فلا حُجةَ يوردُون ، ولا عذابَ عن أنفسهم يَرُدُّون ، سيعلمون حينَ لا ينفعهم عِلمُهم ، ويعتـذرون حين لا يُسمع عُذْرُهم ، وذلك عند ما :

« إذِ الأغْـلالُ في أعناقهم والسلاسلُ يُسْحَبُون * في الحميم ثم في النـار يُسجَرُون » . . الآيات .

يُسْحبُون في النار والأغلالُ في أعنَاقهم ، ثم يُذَاقُون ألوانَ العذاب . . فإذا أقرُّوا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم : أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثواهم ومصيرهم ، وساء ذهابُهم ومسيرهم .

قوله جل ذكره : « فاصْـبر إنَّ وعـدَ اللهِ حَقٌّ فإمَّا نُرِينَّك بعضَ الذى نعِدُهم أو نَتوفينَّكَ فإلينا يُرجَعُون » .

كُنْ بقلبكَ فارغاً عنهم ، وانظرْ منْ بَعدُ إلى ما يُفعلُ بهم ، واستيقنْ بأنه لابقاء لجولة باطلهم . . فإنْ لقيت بعضَ ما نَتوعدُهم به وإلاّ فلا تكُ في ريبٍ من مقاساتهم ذلك بَعْدُ . ثم أكَّدَ تسليتَه إياه وتجديدَ تصبيره وتعريفه بقوله :

« ولقد أرسلنا رُسلاً مِن قَبلكَ منهم مَن قصَصْنا عليك ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك ، وما كان لرسولٍ أن يأتىَ بآيةٍ إلا بإذنِ اللهِ فإذا جاء أمرُ اللهِ قُضِىَ بالحـــقِّ وخَسِرَ هنالِك المُبْطِلُون » .

قصصنا عليك قصصَ بعضهم ، ولم نخبرك عن قصص الآخرين .

ولم يكن فى وُسعِ أحدٍ الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا . فكذلك إنْ طالبُوك بآيةٍ فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أزحْنا به العُذْر. وأوضحنا صِحّةَ الأمر . . وما اقترحوُه ... فإنْ شئْنا أظهرْنا ، وإنْ شِئْنا ترَكْنا .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى جَعَل لكم الأنعامَ
لِتَرْكَبُوا مِنهاَ وَمِنْهَا تأْكُلُونَ *
ولكم فيهاَ منَافعُ ولتبلُغُوا عليها حاجةً
فى صُدُورِكم وعليها وعَلَى الفُلْكِ
تُحمَلونَ * ويُرِيكم آياتِه فأىَّ
آياتِ اللهِ تُنكِرُون »

ذَكَّرَهم عظيمَ إنعامه بتسخير الأنعام ؛ فقال جعلها لكم لتنتفعوا بهَا بالركوب والحمْل والعمل ، ولتستقوا ألبانها ، ولتأكلوا لحومَها وشحومَها ، ولتنتفعوا بأصوافها وأوبارها وأشعارها ، ولتقطعوا مسافة بعيدةً عليها . . . فعلى الأنعام وفى الفُلْكِ تَنْتقلون من صُقْعٍ إلى صُقعٍ . . وَأَنَا الذى يَسَّرْتُ لكم هذا ، وأنا الذى ألهمتكم الانتفَاع به ؛ فَثِقُوا فى ذلك واعرفوه .

قوله جَل ذكره : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا
كيف كان عاقبةُ الذين مِن قبلهمْ
كانوا أكثرَ منهمْ وأشدّ قوةً وآثاراً
فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا
يكْسبون » . . الآيات

أمَرَهم بالاعتبار بِمَنْ كانُوا قبلهُمْ ؛ كانوا أشدّ قوةً وأكثرَ أموالًا وأطولَ أعماراً ، فانجرّوا فى حِبَالِ آمالهم ، فوقعوا فى وهْدَة غرورهم ، وما بقى لهمْ

عن مراده فيهم ، واغتروا بسلامتهم فى مُدّةٍ ما أرخينا لهم عنان إمهالهم ، ثم فاجأناهُم بالعقوبة ، فلم يُعْجِزُوا للهَ فى مُرادِه منهم .

فلمّا رأوا شِدّةَ البأسِ ، ووقعوا فى مذلّةِ الخيبة واليأس تمنّوْا أن لوْ أعيدُوا إلى الدنيا من الرأس . . فقابلهم الله بالخيبة[1] ؛ وخرّطهم فى سِلكِ مَنْ أبادَهم من أهل الشِّرْكِ والسّخْطِ .

(١) لأن التوبة لا تكون بعد حصول العلم الضرورى ورؤية العذاب ، فإن أوانها يكون قد انقضى .

سورة فصلت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

أفلح مَنْ عرف « بسم الله » ، وما ربح مَنْ بقى عن « بسم الله » .

مَنْ صحب لسانُه « بسم الله » وصحب جَنانُه « بسم الله » كفى له شفيعاً « بسم الله » إلى مَنْ يُعيذُنا بِذِكْرِ « بسم الله » .

قوله جل ذكره : « حم * تنزيلٌ من الرحمن الرحيم » .

بحق وحياتى ، ومجدى فى صفاتى وذاتى . . هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم .

قوله جل ذكره : « كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآنا عربياً لقوم يعلمون» .

بُيِّنَتْ آياتُه ودلالاتُه .

« قرآناً عربياً لقوم يعلمون » : الدليل منصوبٌ للكافة ولكنَّ الاستبصارَ به للعالِمين — دون المُعْرِضين الجاحدين .

« بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرهُم فهم لا يَسمعُون » .

« بشيراً » : لِمَن اخترناهم واصطفيناهم .

« ونذيراً » : لِمَنْ أقصيناهم ، وعن شهودِ آياتنا أعميناهم .

« فأعرض أكثرهم . . » عند دعائنا إياهم ، فهم مُثْبَتُون فيا أردناهم ، وعلى ذلك

(الوصف)[1] علم المنام[2]

قوله جل ذكره : « وقالوا قلوبُنا فى أكِنَّةٍ مما تدعونا
إليه وفى آذاننا وَقْرٌ ومِنْ بيننا وبَيْنِك
حجابٌ فاعْمَلْ إننا عاملون » .

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء ، ولو قالوه عن بصيرةٍ لكان ذلك منهم توحيداً[3] ، فَمُنُوا بالمقْت لِمَا فقدوا من تحقيق القلب .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إلىَّ
أنَّما إلهُكُمُ إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه
واستغفروه وويلٌ للمشركين * الذين
لا يُؤْتُون الزكاةَ وهم بالآخرةِ هم
كافرون » .

إنما أنا بَشَرٌ مثلكم فى الصورة والبِنْيَة ، والذات والخِلقَة . والفرقانُ بينى وبينكم أنَّه يُوحَى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد ؛ فالخصوصية مِنْ قِبَلِهِ لا مِنْ قِبَلِى ، ولقد بَقِيتُ فيكم عمراً ، ولقيتمونى دهراً . . فما عثرتم منى على غير صواب ، ولا وجدتم فى قولى شوب كذاب . وأمرى إليكم أنِ استقيموا فى طاعته ، واستسلِموا لأمره . . وطوبى لِمَنْ أجاب ، والويلُ لِمَنْ أصرَّ وعاب ! .

---

(١) سقطت (الوصف) من ص وهى موجودة فى م .

(٢) روى أن قريشاً اختارت عتبة بن ربيعة كى يعرض على النبى (ص) أن يكف عن سب آلهتها وتسفيه أحلامها مقابل رياسة أو مال .. الخ ، وظل يتحدث ، فى ذلك حتى انتهى ، وعندئذ سأله النبى (ص) : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم .. فقال : إسمع .. بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت ..... إلى قوله تعالى : فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، فوثب عتبة ، ووضع يده على فم النبى وناشده ليكفن ... ثم مضى إلى قريش فأنبأها بما سمع ، وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً ، لأن ما سمعه ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر .. ثم أردف : ولقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لا يكذب ..

(٣) لأنه يكون حينئذ اعترافاً منهم بوجود غطاء من ظلمة البشرية يحجبهم من حقيقة الأحدية ، ويكون اعترافهم بقصورهم بداية لاستعدادهم لتلقى من الله .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم أجرٌ غيرُ ممنونٍ » .

« آمنوا » : شاهدوا ، « وعملوا الصالحات » : لازموا بِساطَ العبودية .

« آمنوا » : شهدوا الحضرة ، « وعملوا الصالحات » : وقفوا بالباب .

« آمنوا » : حضروا ، « وعملوا الصالحات » : بعد ما حضروا لم ينصرفوا .

« لهم أجر غير ممنون » : غير منقوص[1] ؛ فأجرُ النفوسِ الجنةُ ، وأجرُ القلوب الرضا بالله ، وأجرُ الأرواحِ الاستئناسُ بالله ، وأجرُ الأسرارِ دوام المشاهدة لله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أئِنَّكُم لتَكفُرُون بالذى خَلَقَ الأرضَ فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رَبُّ العالَمين » .

خَلَقَ الزمانَ ولم يكن قبله زمان ، وخَلَقَ المكان ، ولم يكن قبله مكان ؛ فالحقُّ — سبحانه — كان ولا مكان ولا زمان ؛ فهو عزيزٌ لا يُدْرِكُه المكانُ ، ولا يَمْلِكُه الزمان.

« وتجعلون له أنداداً » .. وكيف يكون الذى لم يكن ثم حصل[2] نِدًّا للذى لم يَزَلْ .. ولا يزال كما لم يزل ؟ ! ذلك ربُّ العالمين .

قوله جل ذكره : « وجَعَلَ فيها رواسِيَ مِن فوقِها وبارَكَ فيها وقَدَّرَ فيها أقواتَها فى أربعة أيامٍ سَوَاءً للسائلين » .

الجبالُ أوتادُ الأرضِ فى الصورة ، والأولياء أوتادٌ ورواسٍ للأرض فى الحقيقة .

---

(١) يقال منَنْت الحبل إذا قطعته ، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غَلَقٍ على الصديق ولا خيرى بممنون

وقيل نزلت الآية فى المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون .

(٢) الذى لم يكن ثم حصل هو الحادث ، المخلوق من العدم .. كيف يكون نداً القديم الأزلى السرمدى ؟ !

« وبارك فيها » : البركةُ الزيادة . . فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء ، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء .

« وقدَّر فيها أقواتَها » : وجعلها مختلفةً فى الطَّعْمِ والصورةِ والمقدار . وأرزاقُ القلوبِ والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم .

قوله جل ذكره : « ثم استوىٰ إلى السماء وهى دُخَانٌ
فقال لها وللأرضِ ائْتِيا طَوْعاً أو كَرهاً
قالتا أَتَيْنا طائعين »

« استوى » أى قَصَدَ ، وقيل فعل فعلاً هو الذى يعلم تعيينه[1].

ويقال رتَّبَ أقطارها ، وركَّبَ فيها نجومَها وأزهارَها .

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين » : هذا على ضرب المَثَل ؛ أى لا يتعسَّر عليه شىء مما خلقه ، فله مِنْ خَلْقِهِ ما أراده . وقيل بل أحياهما وأعقلهما وأنطقهما فقالتا ذلك . وجعل نفوسَ العابدين أرضاً لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فَلَكاً لنجومِ علمه وشموسِ معرفته .

وأوتادُ النفوسِ الخوفُ والرجاء ، والرغبةُ والرهبة . وفى القلوب ضياء العرفانِ ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والعقولِ والنفوسِ . والقلوبُ بيده يُصَرِّفُها على ما أراد من أحكامه .

قوله جل ذكره : « فقضاهُنَّ سَبْعَ سماواتٍ فى يومين
وأوحىٰ فى كل سماء أمْرَها وزيَّنا السماء
الدنيا بمصابيحَ وحِفْظاً ذلك تقــديرُ
العزيزِ العليمِ ».

(1) تقول العرب : فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا ؛ يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثانى ، ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض (النسفى حـ4 ص 89) .

ومن قال إنه صفة ذاتية زائدة تكون على معنى استوى فى الأزل بصفاته (القرطبى حـ1 ص 243)

وعلى الرأى الأول يكون الاستواء من صفات الفعل وعلى الثانى يكون من صفات الذات .

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وزَيَّنَ وجهَ الأرضِ بمصابيحَ هي قلوب الأحباب ؛ فأهلُ السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلكَ متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب .

قوله جل ذكره : « فإنْ أعرضُوا فَقُلْ أنذرتُكُم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ »

أي أخْبِر المُكَذِّبين لكَ أنَّ لكم سَلَفاً . . فإن سلكتم طريقهم في العناد ، وأبيتم إلاَّ الإصرار ألحقنا كم بأمثالكم .

« فأمَّا عادٌ فاستكبروا في الأرضِ بغير الحقِّ وقالوا مَنْ أشَدُّ مِنَّا قوةً أوَ لَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ الذى خَلَقَهم هو أشدُّ منهم قوةً وكانوا بآياتنا يجحدُون » .

ركنوا إلى قوة نفوسهم فخانتهم قواهم ، واستمكنت منهم بلواهم .

« فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيامٍ نَحِساتٍ [1] لِنُذِيقَهُم عذابَ الخزى في الحياةِ الدنيا ولَعَذَابُ الآخرةِ أَخْزَىٰ وهم لا يُنصَرون » .

فلم يغادر منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « وأمَّا ثمودُ فهديناهم فاستَحبُّوا العَمَىٰ على الهُدَىٰ فأَخَذَتْهم صاعقةُ العذابِ الهونِ بما كانوا يَكْسِبون * ونَجَّيْنا الذين آمنوا وكانوا يتَّقون » .

---

(١) في قراءة أبي عمرو « نَحْسَاتٍ » وبإسكان الحاء على أنها جمع المصدر « نحس » مستدلا بقوله تعالى : « في يوم نحس مستمر » ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه .

قيل إنهم فى الابتداء آمنوا وصدّقوا ، ثم ارتدُّوا وكذّبوا ، فأجرام مجرى إخوانهم فى الاستئصال .

« ونجينا الذين آمنوا . . » : منهم من نجّاهم من غير أن رأوا النار ؛ فعَبَروا القنطرةَ ولم يعلموا ، وقومٌ كالبرق الخاطف وهم أعلام ، وقومٌ كانوا كغض . . وهم أيضاً من الأكابر ، وقوم على الصراط يسقطون ويردُّهم الملائكة على الصراط . فبعدَ وبعدَ . . قومٌ بعدما دخلوا النار فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ثم إلى ركبتيه ثم إلى حَقْوَيْه[1] ، فإذا ما بلغت النار القلب قال الحقُّ لها : (لا تحرقى قلبه)[2] ؛ فإنه محترقٌ فىّ . وقومٌ يخرجون من النار بعدما امتُحِشُوا[3] فصاروا حُمَمًا[4] :

قوله جل ذكره : « ويومَ يُحْشَرُ أعداءُ اللهِ إلى النارِ فهم يُوزَعُون * حتى إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودِهم لِمَ شَهِدْتُم علينا قالوا أنطقَنا اللهُ الذى أنطقَ كلَّ شىء وهو خَلَقَكُم أولَ مرةٍ وإليه تُرْجعون * وما كنتم تستترون أن يشهدَ عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم ولكن ظَنَنتُم أنّ اللهَ لا يعلمُ كثيراً مما تعملُونَ * وذلكم ظنكم الذى ظَنَنْتُم بربِّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسِرين » .

---

(١) الحقو = الخصر .

(٢) مابين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٣) أمحش الحر أو النار جلده .أى أحرقه وقشره عن اللحم . ويقال هذه سنة أمحشت كل شىء إذا كانت جدبة .

(٤) الحمم = الفحم أو الرماد .. وكل ما احترق من النار .

شهدت عليهم أجزاؤهم ، ولم يكن في حسابهم أن الله سيُنْطِقها وهو الذي أنطق كلَّ شيء ، ولم يَدُرْ بخَلَدهم ما استقبلهم من المصير الأليم .

« ذلك ظنكم ... » : وكذا مَنْ قعد في وصف الأقوال ، ووَسَمَ موضعَه ، وحَكَمَ لنفسه أنه مُقَدَّمٌ بلده . فلا يُسْمَعُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله ، فإنْ خالف الحالُ قولَه فلا يُعتمد عليه بعد ذلك[1] .

والظنُّ بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق ، أمَّا إذا كان نتيجة الغرورِ وغيرَ مأذونٍ به في الشرع فإنه يُرْدِي صاحبَه .

قوله جل ذكره : « فإن يَصْبِروا فالنارُ مثوىً لهم وإن يَسْتَعْتِبُوا فما هم من المُعْتَبِينَ » .

فإنْ يصبروا على موضع الخسف فسينقلبون إلى النار . وإن يستعتبوا — فعلى ما قال — فما هم بمعتبين[2] .

« وقَيَّضنا لهم قُرَنَاء فزيَّنُوا لهم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم وحَقَّ عليهم القولُ في أُمَمٍ قد خَلَتْ مِن قَبْلِهِم من الجِنِّ والإنْسِ إنهم كانوا خاسرين » .

إذا أراد اللهُ بعَبْدٍ خيراً قَيَّضَ له قرناءَ خيرٍ يُعينونه على الطاعات ، ويَحْمِلونه عليها ، ويدعونه إليها . وإذا كانوا إخوانَ سوء حملوه على المخالفات ، ودَعَوْه إليها . . ومن ذلك الشيطانُ ؛ فإنهُ مُقَيَّضٌ مُسَلَّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات . . وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ . فإنها بئس القرين ! ! فهي تدعو العبدَ — اليومَ — إلى ما فيه هلاكه ، وتشهد عليه غداً بفعل الزَّلَّة . فالنفسُ — وشرُّ قرينٍ للمرءِ نفسُه — والشياطينُ وشياطينُ الإنْسِ . . كلها تُزَيِّن لهم

---

(١) يعود القشيري بعد قليل إلى هذا المعنى نفسه حين يتحدث عمن يكلفون بالقالة دون صفاء الحالة .

(٢) أي أن النار مثوى لهم في الحالين ، ولا مهرب لهم منها ؛ فلا صبرهم بنافع ، ولا طلب الرضا منهم بنافع ، ولا بد لهم من النار .

« ما بين أيديهم » من طول الأمل ، « وما خلفهم » من نسيان الزَّلَلِ ، والتسويف فى التوبة ، والتقصير فى الطاعة .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كَفَروا لا تَسْمَعُوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه لعلَّكم تَغْلِبُونَ »

استولى على قلوبهم الجَحْدُ والإنكارُ ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ ؛ فاحتالوا بكل وجهٍ ، وتواصَوْا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب ، ويسلب العقول ، وكل مَن استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا : إذا أَخَذَ محمدٌ فى القرآن فأَكْثِرُوا عند قراءته اللَّغوَ واللغطَ حتى يقع فى السهو والغَلَط .

ولم يعلموا أن الذى نُوِّرَ قلبهُ بالإيمان ، وأُيِّدَ بالفهم ، وأُمِدَّ بالنصرة ، وكوشف بسماع السِّرِّ من الغيب هو الذى يسمع ويؤمن . والذى هو فى ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبَه ، ولا يباشر السماعُ سِرَّه[1] .

قوله جل ذكره : « فَلَنُذِيقَنَّ الذين كفروا عذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهم أسوأَ الذى كانوا يعملون »

اليومَ بإدامة الحرمان الذى هو الفراق ، وغداً بالتخليد فى النار التى هى الاحتراق .

« ذلك جَزَاءُ أعداء اللهِ النارُ لهم فيها دارُ الخُلْدِ جزاء بما كانوا بآياتنا يَجْحَدُون » .

لهم فيها الخزى والهوان بلا انقطاعٍ ولا انصرام .

« وقال الذين كفروا ربَّنا أرِنا الذين

(١) إذا تذكرنا أن السر أعلى من القلب ومن الروح عرفنا أن «السماع» عند الشيخ ذو مرتبة عالية على عكس مايظنه المغرضون

أضلانا من الجنِّ والإنسِ نجعلْهُمَا تحت
أقدامِنا ليكُونا من الأسْفَلِين » .

من الجنِّ إبليس . ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول مَنْ سَنَّ المعصية (حين قتـــل أخاه)[1] .

« نجعلهما تحتَ أقدامنا » : هذه الإرادة وهذا التمنى زيادة فى عقوبتهم أيضاً ؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمنى ؛ فهم يجدون أنه لا نَفْعَ لهم من ذلك إذ لن يُجَابوا فى شىء ، ولن يُمْنَعَ عنهم العذاب .

ويفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبرِّى فيما بينهم ، فبعضهم يتبرأ من بعض ، كما يفيد بأن الندمَ فى غير وقته لا جدوى منه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين قالوا رَبُّنَا اللهُ ثم استقاموا
تتنزَّلُ عليهم المـــلائكةُ ألاَّ تخافوا
ولا تحزنوا وأبْشِروا بالجنة التى كنتم
تُوعَدون » .

« ثم » استقاموا : ثم حرف يقتضى التراخى ، فهو لايدل على أنهم فى الحال لا يكونون مستقيمين ، ولـكن معناه استقاموا فى الحال ، ثم استقاموا فى المآل بأن استداموا إيمانَهم إلى وقت خروجهم من الدنيا ، وهو آخرُ أحوالِ كونِهم مُـكلَّفين .

ويقال : قالوا بشرط الاستجابة أولاً ، ثم استبصروا بموجب الحجة ، ولم يثبتوا على وصف التقليد ، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة .

« استقاموا » : الاستقامة هى الثباتُ على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلالٍ بشىء من أقسامها . ويقال : هم على قسمين :

---

(1) زيادة من عندنا للتوضيح وليست موجودة بالمتن .

مستقيم (فى أصول)[1] التوحيد والمعرفة . . وهذه صفة جميع المؤمنين[2] .

ومستقيم فى الفروع من غير عصيان . . وهؤلاء مختلفون ؛ فمنهم .. ومنهم ، ومنهم .

« وأبشروا بالجنة » : الذين لهم البشارة هم كل من استقام فى التوحيد ، ولم يشرك . . فله الأمان من الخلود[3] . ويقال : مَنْ كان له أصل الاستقامة أَمِنَ[4] من الخلود فى النار ، ومن له كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوء بحال . . ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم : فمستقيمٌ فى عهده . ومستقيم فى عقده ، ومستقيم فى جهده ومراعاة حدِّه ، ومستقيم فى عقده وجهده وحدِّه وحبِّه وودِّه . . وهذا أتمُّهم .

ويقال : استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله .

ويقال : استقاموا فى تصفية العقد ثم فى توفية العهد ثم فى صحة القصد بدوام الوجد .

ويقال : استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم فى وقتهم وفى مآلهم .

ويقال : أقاموا على طاعته ، واستقاموا فى معرفته ، وهاموا فى محبته ، وقاموا بشرائط خدمته .

ويقال : استقامةُ الزاهدِ ألا يرجعَ إلى الدنيا ، وألا يمنعَه الجاهُ بين الناس عن الله . واستقامةُ العارفِ ألا يشوبَ معرفتَه حظٌ فى الدارين فيحجبه عن مولاه . واستقامةُ العابدِ ألا يعودَ إلى فترته واتباع شهوته ، ولا يتداخله رياء وتصنُّع . واستقامة[5] المُحِبِّ ألا يكون له أرَبٌ من محبوبه ، بل يكتفى من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عِزِّه ووجوده .

« ألا تخافوا ولا تحزنوا » : إنما يكون الخوف فى المستقبل من الوقت ، من حلولِ مكروهٍ أو فوات محبوبٍ ، فالملائكةُ يبشرونهم بأن كل مطلوبٍ لهم سيكون ، وكل محذورٍ لهم لا يكون .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (على أصل) وهى مقبولة حسب قوله تعالى فى موضع آخر (استقاموا على الطريقة) ولكننا آثرنا (فى أصول) لتنسجم مع الفروع .

(٢) عن أنس قال : لمّا نزلت هذه الآية قال النبى (ص) : هم أمتى ورب الكعبة .

(٣) أى التخليد فى النار .. ويقصد بهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين .

(٤) لاحظ الربط بين الأمن والأمان من ناحية والإيمان من ناحية أخرى .

(٥) أى أن مجرد ذكر المحب لله (الباقى) يكفيه من تذكر أى عطاء أو منح منحه الله .

والحزن من حُزُونة الوقت ، ومن كان راضياً بما يجرى فلا حزنَ له فى عيشه . والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزونة فى أحوالهم ، وإنما هم فى الرَّوْح والراحة .

« وأبشروا بالجنة » : أى بحسن المآب ، وبما وَعَدَ اللهُ من جميل الثواب .

والذى هو موعودٌ للأولياء بـغارة لِلَّلكِ موجودٌ اليومَ لخواصٍّ عباده بعطاء لِلَّلكِ ؛ فلا يكون لأحدهم مطالبةٌ فى المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت ؛ فلا يكون له خوفٌ ؛ لأن الخوف — كما قلنا من قبل — ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمَّا من زوال محبوبٍ أو حصولِ مكروه ، وإن الذى بصفة الرضا[1] لا حزونة فى حاله ووقته .

ويمكن القول : « لا تخافوا » من العذاب ، « ولا تحزنوا » على ما خلفتم من الأسباب ، « وأبشروا » بحسن الثواب فى المآب .

ويقال : « لا تخافوا » من عزل الولاية ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الجناية ، « وأبشروا » بحسن العناية فى البداية .

ويقال : « لا تخافوا » مما أسلفتم ، « ولا تحزنوا » على ما خلّفتم ، « وأبشروا » بالجنة التى لها تـكلفتم .

ويقال : « لا تخافوا » للذلّة ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الزلّة ، « وأبشروا » بدوام الوصلة .

قوله جل ذكره : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدُّنيا وفى الآخـرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسُكم ولكمْ فيها ما تدَّعُون * نزُلاً من غفورٍ رَحيم » .

الولاية من الله بمعنى المحبة ، وتـكون بمعنى النصرة .

---

(١) هذا من أدق الشروح لمعنى « الرضا » الذى كما نعرف من مذهب القشيرى مرحلة انتقال من المقامات إلى الأحوال .

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ للملائكة الذين تنزلوا عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطابٍ من الله .

والنصرة تصدر من المحبة ؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة فى الحال .

ويقال : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيـا » بتحقيق المعرفة ، « وفى الآخرة » بتحصيل المغفرة .

ويقال « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا » بالعناية ، « وفى الآخرة » بحسن الكفاية وجميل الرعاية .

« فى الحياة الدنيا » بالمشاهدة ، « وفى الآخرة » بالمعاينة .

فى الدنيا بالرضاء بالقضاء ، وفى الآخرة باللقاء فى دار البقاء .

فى الدنيا بالإيمان ، وفى الآخرة بالغفران .

فى الدنيا بالمحبة ، وفى الآخرة بالقربة .

« ولكم فيها » أى فى الجنة « ما تشتهى أنفسكم » : الولايةُ نقدٌ ، وتحصيل الشهوات وعدٌ ، فمَنْ يشتغل بنقده قلَّما يشتغل بوعده[1].

« ولكم فيها ما تدعون » : أى ما تريدون ، وتدعون الله ليُعطيَكم .

« نزلاً » : أى فضلاً وعطاء ، وتقدمةً لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبار[2].

---

(١) تفيد هذه الإشارة الممتعة حقاً فى توضيح الفكرة الصوفية الشائعة التى تقول إن العبادة الحقة هى المجردة عن الطمع فى الثواب والخوف من العقاب .. وهى عند القشيرى من أمارات الولاية والمحبة الصافية .. ويمعن بعض الصوفية فى ذلك فيدفعهم طلب الله لذاته إلى القول :

أريدك لا أريدك للثواب، ولكنى أريدك للعقاب
فكل مآربى قد نلت منها سوى ملذوذ وجدى بالعذاب

(٢) فتكون (نزلا) منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلاً . وقيل : على الحال . وقيل هو جمع نازل أى لكم ما تدعون نازلين .

« من غفور رحيم » : وفى ذلك مساغٌ لآمال المذنبين ؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى المغفرة ، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته .

قوله جل ذكره : « ومَنْ أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله
وعَمِلَ صالحاً وقال إنى منْ المسلمين » .

أى لا أحدَ أحسنُ قولاً منه ، ويكون المراد منه النبى صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام .

ويقال هم المؤمنون . ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله .

وقيل هم المؤذنون . ويقال الداعى إلى الله هو الذى يدعو الناس إلى الاكتفاء بالله وتَرْكِ طلب العِوَضِ من الله ، ويَتَّكِلُ أمره إلى الله ، ويرضى من الله بقسمة الله .

« وعَمِلَ صالحاً » : أى كما يدعو الخَلْقَ إلى الله يأتى بما يدعوهم إليه .

ويقال هم الذين عرفوا طريقَ الله ، ثم سلكوا طريقَ الله ، ثم دعوا الناسَ إلى الله .

ويقال بل سلكوا طريق الله ؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله ، ثم دعوا الخَلْق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه .

« وقال إننى من المسلمين » : المسلمون لحكمه هم الراضون بقضائه وتقديره .

قوله جل ذكر : « ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ
أُدْفَعْ بالتى هى أحسنُ فإذا الذى بينك
وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميمٌ » .

ادفعْ بالخصلة التى هى أحسن السيئةَ يعنى بالعفو عن المكافأة ، وبالتجاوز والصفح عن الزلة ، وترك الانتصاف[1] .

« فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » يُشْبِه الولىَّ الحميمَ — ولم يَصِرْ وليـاً مخلصاً .. وهذا من جملة حُسْنِ الأدب فى الخدمة فى حقِّ صحبتك مع الله ؛ تحلم مع عباده لأَجْلِه .

---

(1) هذه الأوصاف التى ذكرها القشيرى من أمارات الفتوة — كما ورد فى الفصل الذى عقده لها فى «رسالته» .

ومن جملة حُسْن الخُلُق فى الصحبة مع الخَلْقِ ألا تنتقم لنفسك، وأنْ تعفوَ عن خصمك.

قوله جل ذكره: « وما يُلَقَّاها إلاَّ الذين صَبَرُوا
وما يُلَقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم ».

لايقوم بحق هذه الأخلاق إلّا مَنْ أُكْرِم بتوفيق الصبر، ورُقِّى عن سفساف الشيم إلى معالى الأخلاق. ولا يصل أحسنَ الدرجاتِ إلا مَنْ صبر على مقاساة الشدائد.

قوله جل ذكره: « وإمَّا يَنزَغَنَّكَ من الشيطانِ نَزْغٌ
فاستعِذْ باللهِ إنَّه هو السميعُ العليمُ ».

إذا اتصلَتْ بقلبك نزغاتُ الشيطان فبادِرْ بذكر ربِّك، وارجعْ إليه قبل أية خطوة[1].. فإنك إن لم تخالف أولَ هاجسٍ من هواجس الشيطان صار فكرة، ثم بعد ذلك يحصل العزم على ما يدعو إليه الشيطان.. فإذا لم تتداركْ ذلك تجرى الزلَّة، وإذا لم تتداركْ ذلك بحُسْنِ الرُّجعى صار فتناً.. وبتمادى الوقت تصبح فى خَطَرِ كل آفة.

ولا يتخلص العبدُ من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة وصدق الاستغاثة وبذلك ينجو من الشيطان، وقد قال تعالى: « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان »[2]؛ فكلما ازداد العبدُ فى تبرِّيه من حَوْلِه وقوته[3]، وأخلص بين يدى الله بتضرعه واستعانته واستعاذته زاد اللهُ فى حِفْظه، ودَفَعَ الشيطان عنه.

قوله جَل ذكره: « ومن آياته الليلُ والنهارُ
والشمسُ والقمرُ لا تسجدوا للشمسِ
ولا للقمرِ واسجدوا للهِ الذى خَلَقَهُنَّ
إن كنتم إياهُ تعبدون ».

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (خطرة) بالراء، ونحن لا نرفض ذلك إذ يقول القشيرى فى رسالته ص ٤٦: والخواطر خطاب يرد على الضمائر وقد يكون الخاطر بإلقاء مَلَكٍ، وأو بإلقاء الشيطان، وقد يكون حديث النفس.. ويقول فى نفس الموضع: كل خاطر لا يشهد الظاهر فهو باطل.

(٢) آية ٦٥ سورة الإسراء.

(٣) لأنه كلما ازداد فى ذلك ازدادت عبوديته، فدخل فى زمرة «عبادى» الذين ليس للشيطان عليهم سلطان. وبهذا الفهم يتأيد السياق ويتماسك فى ظل الشاهد القرآنى.

أوْضَحَ الآياتِ ، وألاحَ البيّناتِ ، وأزاحَ عِلّةَ مَنْ رام الوصول . واختلافُ الليل والنهار ، ودورانُ الشمسِ والقمرِ من جملة أمارات قدرته ، ودلالات توحيده .

« لا تسجدوا للشمس » فى علائها ، « ولا للقمر » فى ضيائه : « واسجدوا لله » فقد غار[1] عليك أن تسجد لغيره .

والشمسُ — وإنْ عَلَتْ ، والقمر — وإنْ حَسُن . . فلأجْلِكَ خلقناها ، فلا تسجدْ لها ، واسجُدْ لنا .

ويقال : خَلَقَ الملائكة — ومع كثرة عباداتهم ، ومع تقدمهم فى الطاعة — قال لهم : اسجدوا لآدم ، وحين امتنع واحدٌ منهم لُعِنَ إلى الأبد . وقال لأولاد آدم العصاةِ المذنبين : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ... » فشتّان ما هما ! !

والحقُّ — سبحانه وتعالى — يأمرك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر . . وأنت لأجْلِ كلِّ حظٍّ خسيسٍ تنقل قَدَمَكَ إلى كلِّ أحدٍ ؛ وتدخل بمحياك عَلَى كلِّ أحدٍ ! !

قوله جل ذكره : « فإنِ استكبروا فالذين عند رَبِّك يُسَبِّحُون له بالليلِ والنهارِ وهم لا يَسْأَمون » [2]

أى إنْ تَرَفَّعَ الكفارُ فلا خَلَلَ ؛ لأن الحقَّ غنىٌّ عن كل أحد ، ثم إن الملائكة — الذين هم سكان الآخرة — يسجدون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون من عبادته .

---

(١) يقول القشيرى فى رسالته ص ١٢٦ «الغيرة كراهية مشاركة الغير ، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له من طاعة عبده» .

(٢) هذه آية سجدة ، واختلف فى موضع السجود منها . . فقال مالك إن موضعه «إن كنتم إياه تعبدون» لأنه متصل بالأمر . . وقال الشافعى إنه : «وهم لا يسأمون» لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال .

وقد تضمنت الآية صلاة الكسوف ، وذلك أن العرب كانت تقول : إن الشمس والقمر لايكسفان إلا لموت عظيم .. فصلّى النبى (ص) صلاة الكسوف (القرطبى حـ ١٥ ص ٣٦٤) .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أنك ترى الأرضَ
خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزّتْ
وربَتْ إنَّ الذى أحياها لمُحيى الموْتى
إنَّه عَلَى كل شىء قدير »

الأرضُ تكون جَدْبةً يابسةً فى الشتاء ، فإذا نزل عليها المطرُ اهتزت بالنبات واخضرّت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما ألَمّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه ، فظهرت فيها بركاتُ الندم ، وعفا عن أربابها ما قصرُّوا فى صِدْقِ القدَم . وكذلك إذا وقعت للعبد فترةٌ فى معاملاته ، أو غيبةٌ عن بساط طاعاته ، ثم تغمَّده الحقُّ — سبحانه — بما يدخل عليه من التذكر تظهر فى القلب أنوارُ الوفاق ، فيعود إلى مألوف مقامه ، ويرجع عود سداده غضًّا طريًّا ، ويصير شجر وفاقه — بعد ما أصابته الجدوبة — بماء العناية مستقيًا .

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة ، أو حدثت لهم من جرّاء سوء أدبٍ بدَرَ منهم حجبةٌ ثم نظر الحقُّ — سبحانه — إليهم بالرعاية.. اهتزّت رياضُ أُنسِهم ، واخضرّت مشاهدُ قربهم ، وانهزمت وفودُ وقتهم .

« إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير » : إن الذى أحيا الأرضَ بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر . وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُلحِدون فى آياتِنا لا يَخْفَوْنَ
علينا أَفَمَنْ يُلْقَى فى النارِ خيرٌ أم مَنْ
يأتى آمِنًا يومَ القيامةِ اعملُوا ما شئتُم إنه
بما تعملون بصير » .

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه . . فَلْيَعْمَلوا ما شاءوا . . فليسوا يَسْعَوْن إلاَّ فى دَمِهم ، وليسوا يمشون إلا إلى هلاكهم بأقدامهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفروا بالذكر لمَّا جاءهم وإنه لكتابٌ عزيز » .

الجواب محذوف ومعناه : بقوا عنًّا ، ووقعوا فى هوانهم وشقوا إلى الأبد .

« وإنه لكتاب عزيز » : كتابٌ عزيزٌ لا مِثْلَ له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله .

كتابٌ عزيزٌ غالبٌ لِشُبَهِ المبتدعين والكفار .

عزيزٌ لا يقدر على معارضته أحدٌ . . من قولهم أرض عزاز[1] .

كتابٌ عزيزٌ لأنه كلامُ ربٌّ عزيز إلى رسولٍ عزيزٍ بسفارة مَلَكٍ عزيزٍ إلى أُمَّةٍ عزيزة .

كتاب عزيزٌ على المؤمنين لأنه كتابُ حبيبِهم . . وكتابُ الحبيبِ إلى الحبيب عزيزٌ .

« لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِنْ خلفِه تنزيلٌ مِّن حكيم حميدٍ » .

أى لا ينقضه كتابٌ آخر لا مما تقدَّمه من الكتب ، ولا مما يأتى من بعده . . أى لا كتابَ بعده ، ولا نسخَ له .

ويقال لا يدفع[2] معناه لفظَه ، ولا يخالف لفظُه معناه . .

ويقال لا يقدر أحدٌ أنْ يأتىَ بمثله .

قوله جل ذكره : « مَّا يُقال لكَ إلا ما قد قيل للرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إنَّ ربَّكَ لذو مغفرةٍ وذو عقابٍ أليم » .

أصولُ التوحيدِ لا تختلف بالشرائع ؛ لجوهرُها فى الأحكام واحد : هو أنه تجب موافقةُ أوامره ، واجتناب مزاجره . ثم إن الله تعالى قال فى كل كتابٍ ، وشَرَعَ لكل أمة أنْ يعرفوا

---

(١) الأرض العزاز = الأرض الصلبة السريعة السيل (الوسيط) .

(٢) دَفَعَ الشىء = نحَّاه وأزاله ، قال تعالى : « ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

أنه للمطيعين مُثيبٌ ، وللكافرين ذو عذابٍ شديد .

قوله جل ذكره : « ولو جعلناهُ قرآنا أعجمياً لقالوا لولا
فُصِّلَتْ آياته ءأعجمىٌّ وعربىٌّ قُلْ هو
للذين آمنوا هُدًى وَشِفاء والذين
لا يؤمنون فى آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم
عَمًى أولئك يُنَادَوْن من مَكانٍ بعيد» .

أخبر أنه أزاح العِلَّةَ لِمَنْ أراد أنْ يعرفَ صِدْقَ الدعوة ، وصحة الشريعة .

ثم وصفَ الكتابَ بأنه شفاء للمؤمنين ، وسببُ شقاء للكافرين .

وهو شفاء للعلماء حيث استراحوا به عن كَدِّ الفكر وتحيرُّ الخواطر .

وهو شفاء لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته ، والتلذُّذ بالتفكّر فيه .

وهو شفاء لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق لما بهْ من لُطْفِ المواجيد .

وهو شفاء لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق ، وآثار خطاب الرب العزيز .

« والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى » : هم لايسمعون بقلوبهم من الحق ، ولا يستجيبون .. بقوا فى ظلمات الجحد والجهل .

« وهو عليهم عمًى » : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضلالا .

قوله جل ذكره : « ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِفَ
فيه ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لقُضِيَ
بينهم وإنّهم لفى شكٍّ منه مُريبٍ » .

آتينا موسى التوراةَ ، وأرسلناه إلى قومه ، فاختلفوا فى أمره .. فَمَنْ كَحَّلْنا سِرَّه بنور التوحيد صَدَّقه ، ومَنْ أعميناه عن مواقع البيان قابله بالتكذيب وجحده .

« ولولا كلمة سبقت من ربك » وهى أن عقوبتَهم فى النار بعد قيام القيامة لعجَّلنا

استئصالهم، ولأذقناهم فى الحال وبآلهم(١).

قوله جل ذكره: «مَنْ عَمِلَ صالحًا فلنفسه ومَنْ أساء فعليها وما ربُّكَ بظلامٍ للعبيد».

«فلنفسه» لأن النفعَ عائدٌ إليه. ومَنْ عمل عملاً سيئًا فإنما ظَلَمَ نَفْسَه، وأساء إليها، لأنه هو الذى يقاسى ضرَّه ويلاقى شرَّه.

قوله جل ذكره: «إليه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعةِ وما تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِن أكمامها وما تحملُ من أنثىٰ ولا تَضَعُ إلا بعلمه ويومَ يُنَادِيهم أين شُرَكائى قالوا ءاذَنَّاكَ ما مِنَّا من شهيد».

لمَّا استعجلوا وقالوا: متى تقوم هذه القيامةُ التى يَتَوَعَّدُنا بها؟ قال الله تعالى: إنَّ علمَ القيامة ينفرد به الحقُّ فلا يعلمه غيره، فكما لا يعلم أحدٌ ما الذى يخرج من الأشجار من الثمار، وما الذى تنطوى عليه أرحامُ النساء من أولادها ذكوراً وإناثاً، وما هم عليه من أوصاف الخِلْقة، وما يحصل من الحيوانات من نتاجها — فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله — فكذلك لا يعلم أحدٌ متى تقوم القيامة.

«ويوم يناديهم أين شركائى...»: يتبرءون من شركائهم، ولكن فى وقت لا تنفعهم كثرةُ نَدَمِهم وبكائهم.

قوله جل ذكره: «لا يسأمُ الإنسانُ من دعاء الخيرِ وإن مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ قنوطٌ».

---

(١) فى موضع سبق أوضح القشيرى أنه ربما كان من أسباب الحكمة الإلهية فى تأخير عقوبة أمة النبى (ص) — كما حدث للأمم السابقة — هو تأخير العذاب بسبب ما يخرج من أصلابهم من المؤمنين.

لا يَمَلُّ الإنسانُ من إرادة النفع والسلامة ، وإنْ مَسَّه الشرُّ فيئوسٌ لا يرجو زوالَه لِعَدَمِ علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه فى الرجوع إليه .

« ولَئِنْ أذقناه رحمةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضرَّاء مَسَّته ليقولَنَّ هذا لى وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئِن رُجِعْتُ إلى ربى إنَّ لى عِنـــدَه لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كفروا بما عَمِلُوا ولَنُذِيقَنَّهُم مِّن عذابٍ غَلِيظ » .

لئن كَشَفْنا عنه البلاءَ ، وأوجبنا له الرجاء لادَّعاه استحقاقا أو اتفاقا ، وما اعتقد أن ذلك مِنَّا فضلٌ وإيجاب .

ويقول : لو كان لى حشرٌ ونشرٌ لكان لى من الله لطفٌ وخير ، وغداً يعلم الأمر ، وأنه بخلاف ما تَوَهَّمَ . . وذلك عندما نذيقه ما يستوجبه من عذاب .

قوله جل ذكره : « وإذا أنعمنا على الإنسانِ أعرضَ ونأى بجانبه وإذا مَسَّهُ الشرُّ فذو دُعاءٍ عريضٍ » .

هو لا يميز بين البلاء والعطاء ؛ فكثيرٌ مما يتوهمه عطاء هو مكرٌ واستدراجٌ . . وهو يستديمه . وكثيرٌ مما هو فضلٌ وصَرْفٌ(١) وعطاء يظنه من البلاء فيعافَه(٢) ويكرهه .

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحبَه بالبَطَر ، وإذا أبليناه قابَلَه بالضجر .

ويقال إذا أنعمنا عليه أُعْجِبَ بنفسه ، وتكبَّر مختالا فى زَهْوِه ، لا يشكر ربَّه ، ولا يذكر فضلَه ، ويتباعد عن بِساط طاعته .

---

(١) صَرَفَ الله المكاره صَرْفا أى أبعدها .

(٢) فى م (فيعافيه) وهى خطأ فى النسخ .

والمستغنى عنَّا يهيم على وجهه ، وإذا مسَّه الشرُّ فذو دعاء كثيرٍ ، وتضرُّعٍ عريض ، وابتهالٍ شديد ، واستكشافٍ[1] دائم .

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عُتُوِّه ونُبُوِّه عَوْدٌ ، ولسوء طريقته فى الجحود إعادة .

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم إن كان من عند اللهِ ثم كفرتم به مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هو فى شقاقٍ بعيد * سَنُرِيهم آياتنا فى الآفاقِ وفى أنفسِهم حتى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ أو لم يَكْفِ بربِّكَ أنَّهُ على كل شىء شهيد * ألاَ إنَّهم فى مِرْيَةٍ مِّن لقاء ربِّهم ألاَ إنه بكل شىءٍ مُحيط » .

« سنريهم » : السين للاستقبال ؛ أى سيُظهر لهم من الآيات ، ومن الأحداث التى تجرى فى أحوال العالَم ، وما سيحلُّ بهم من اختلاف الأمور ما يتبيَّن لهم من خلاله أنَّ هذا الدِّين حقٌّ ، وأنَّ هذا الكتابَ حقٌّ ، وأن محمداً — صلى الله عليه وسلم — حقٌّ ، وأن المُجْرِىَ لهذه الآياتِ والأحداثِ والأمورِ والمنشئَ له هو الحقُّ — سبحانه .

ومن تلك الآيات ما كان من قَهْرِ الكفار ، وعُلُوِّ الإسلام ، وتلاشى أعداء الدين .

ويقال من تلك الآيات فى الآفاق اختلافُ أحكام الأعين مع اتفاق جواهرها فى التجانس.. وهذه آيات حدوثِ العالَم ، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته .

« وفى أنفسهم » : من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : « فى الآفاق » للعلماء ، « وفى أنفسهم » لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا ألَمُّوا بذَنْبٍ ، ومن الثواب إذا أخلصوا فى طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط ؛ وجمع وفَرْقٍ ، وحجبٍ

(١) الاستكشاف والاستصراف طلب كشف الضُّرِّ وصَرْفها

وجذب .. وما يجدونه بالضرورة فى معاملاتهم ومنازلاتهم [1] .

« أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » : هو الكافى ، ولكنهم — أى الكفار — فى مرية من لقاء ربهم فى القيامة . والإشارة فيه : أن العوامَّ لفى شك من تجويز ما يُكاشَفُ به أهلُ الحضور من تعريفات السرِّ .

« ألا إنه بكل شىء محيط » : عالِمٌ لا يخفى عليه شىء .

---

(1) يتفق هذا مع ما يذهب إليه جمهور الصوفية حين يميزون الأحوال والمقامات ، فالأحوال مواهب من الحق ، والمقامات مكاسب العبد — وإن كانت هذه المكاسب تتم هى الأخرى بفضل الله وعونه .

سُورَةُ الشُّورى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

سلوةُ العاصين فى سماع رحمةِ الله ، وحظوةُ العابدين فى رجائهم نعمةَ الله ، وراحةُ الفقراء فى رضاهم بقسمة الله .. لكلٍ من حاله نصيب ، وكلٌ فى مُتَنَفَّسِه مُصيب .

قوله جل ذكره : « حٰم * عسق »

الحاء مفتاح اسمه : حليم وحافظ وحكيم ، والميم مفتاح اسمه : مَلِك وماجد ومجيد ومنّان ومؤمن ومهيمن ، والعين مفتاح اسمه : عالم وعدل وعالٍ ، والعين مفتاح اسمه : سيِّد وسميع وسريع الحساب ، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقدوس[1] .

« كذلك يُوحِى إليك وإلى الذين مِن
قَبْلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيم » .

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحِى إليك العزيز الحكيم ، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم .

« له ما فى السموات وما فى الأرضِ
وهو العلىُّ العظيم » .

له ما فى السموات وما فى الأرض مُلْكاً .

« وهو العلىُّ العظيم » : عُلُوُّه وعظمتُه استحقاقُه لأوصاف المجد ؛ أى وجوب أن يكون بصفات المجد والجلال .

---

(١) وربما يتأيد اتجاه القشيرى فى تفسير هذه الحروف المقطعة هنا بالأسماء والأوصاف الإلهية بختام الآيات التالية بالعزيز الحكيم والعلى العظيم والغفور الرحيم .. كأن هذا هو المناخ الذى توحى به افتتاحية السورة .

قوله جل ذكره : « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم » .

أى تكاد السموات تنشق من عظمة مَنْ فوقهن وهو الله تعالى ، والفوقية هنا فوقية رتبة[1] ؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله .

ويقال مِنْ ثِقَلِ الملائكة الذين هم فوق السموات لكثرتهم . وفى الخبر : « أطت[2] السماء أطا وحق لها أن تئط ؛ ما مِنْ موضع قَدَمٍ فى السموات إلا وعليه قائم أو راكع أو ساجد » .

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شئ قالوا كادت السموات تنشق له .. وهنا لقُبح قول المشركين ولجرأتهم على الله تعالى ، ولعِظَم قولهم كادت السموات تنشق .. قال تعالى : « لقد جئتم شيئاً إدًّا . تكادَ السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبالُ هدًّا . أنْ دَعَوْا للرحمن ولداً »[3] وعلى هذا التأويل : « يتفطرن مِنْ فوقهن » أى إلى أسفلهن ، أى تنفطر جملتُها[4] .

ومع أنَّ أولادَ آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون ، ويستغفرون لمن فى الأرض .. ثم قال : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » : أى يغفر لهم مع كثرة عصيانهم . وفى الوقت الذى يرتكب فيه الكفارُ هذا الجُرْمَ العظيمَ بسبب شِرْكهم فإنه — سبحانه — لا يقطع رِزْقَه ونِعْمَه عنهم — وإنْ كان يريد أنْ يعذِّبهم فى الآخرة .

قوله جل ذكره : « والذين اتخذوا مِنْ دونِه أولياء اللهُ

---

(١) لجأ القشيرى إلى التأويل كى يتفادى نسبة المكانية إلى الألوهية .

(٢) أطَّ الظَّهْرُ صوَّتَ من ثِقَلِ الحِمْل (الوسيط) .

(٣) آيات ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ سورة مريم .

(٤) يقول النسفى : كان القياس أن يقال يتفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها كلمة الكفر ، ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق كأنه قيل : كدن يتفطرن من الجهة التى فوقهن دع الجهة التى تحتهن . (النسفى حـ٤ ص ١٠٠) .

حفيظٌ عليهم وما أنتَ عليهم بوكيل »

المشركون اتخذوا الشياطينَ أولياءَ مِنْ دونه ، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم . وليس يخفى على الله أمرُهم ، وسيعذبهم بما يستوجبونه . ولستَ — يا محمد — بمُسَلَّطٍ عليهم .

وفى الإشارة : كلُّ مَنْ يعمل بمتابعة هواه ويترك لله حدًّا أو ينقض له عهداً فهو يتخذ الشياطينَ أولياءَ ، والله يعلمه ، ولا يخفى عليه أمره ، وعلى الله حسابه .. ثم إنْ شاء عذَّبه، وإن شاء غَفَرَ له .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليكَ قرآناً عربياً
لِتُنْذِرَ أمَّ القُرىٰ ومَنْ حوْلَها وتُنذِرَ
يومَ الجَمعِ لا ريبَ فيه فريقٌ فى الجنةِ
وفريقٌ فى السعير » .

أنزلنا عليكَ قرآناً يُتْلَى بلغة العرب لتخوِّفَ به أهلَ مكةَ والذين حولَها . وجميعُ العالَم مُحْدِقٌ بالكعبة ومكةَ لأنها سُرَّةُ الأرضِ .

« وتنذر يومَ الجمع » : تنذرهم بيوم القيامة . والإنذارُ الإعلامُ بموضع المخافة . ويوم الجمع — وهو اليوم الذى يُجْمَعُ فيه الخلْقُ كلُّهم ، ويُجْمَعُ بين المرء وعمله، وبين الجسد وروحه[1]، وبين المرء وشكله فى الخير والشرِّ — لا شكَّ فى كَوْنه . وفى ذلك اليومِ فريقٌ يُبْعَثُ إلى الجنة وفريقٌ يحصل فى السعير . وكما أنهم اليومَ فريقان ؛ فريق فى راحة الطاعات وحلاوة العبادات ، وفريق فى ظلمة الشِّرْكِ وعقوبة الجحد .. فكذلك غداً ؛ فريقٌ هم أهل اللقاء ، وفريقٌ هم أهل الشقاء والبلاء .

قوله جل ذكره : « ولو شاءَ اللهُ لجعلَهم أمةً واحدةً
ولكن يُدْخِلُ مَن يشاء فى رحمته
والظالمون مالهم من ولىٍّ ولا نصير » .

إنْ أراد أن يجمعَهم كلَّهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع .. وإذاً لا زَيْنَ لهم . ولوشاء

(١) من هذا نفهم أن القشيرى يؤمن بالبعث الكامل أى بعودة الجسد والروح معاً إلى الحياة مرة أخرى .

أن يجمعهم كلَّهم على الفساد والعناد لم يكن دافع — وإذاً لاشينَ منه . وحيث خلقهم مختلفين — على ما أراد — فلا مبالاة بهم . . إنه إله واحدٌ جبَّارٌ غيرُ مأمور ، متولٍ جميع الأمور ؛ من الخير والشر ، والنفع والضر . هو الذى يحيى النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً ، ويميت النفوسَ والقلوبَ اليومَ وغداً[1] .. وهو على كل شىء

قوله جل ذكره : « وما اختلفتم فيه من شىءٍ فحكمه
إلى اللهِ ذلكم اللهُ ربِّى عليه توكلتُ
وإليه أُنيب » .

« فحكمُه إلى الله » : أى إلى كتاب الله ، وسُنَّةِ نَبِّيه صلى الله عليه وسلم ، وإجماعِ الأئمة ، وشواهدِ القياس . والعبرةُ بهذه الأشياء فهى قانون الشريعة ، وجملتها من كتاب الله ؛ فإنَّ الكتابَ هو الذى يدلُّ على صحة هذه الجملة[2] .

ويقال : إذا لم تهتدوا إلى شىءٍ وتعارضت منكم الخواطر فدَعُوا تدبيركم ، والتجئوا إلى ظلِّ شهود تقديره ، وانتظروا ما ينبغى لكم أن تفعلوه بحُكم تيسيره[3] .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم ؛ لا تدرون أبا لسعادة جَرَى حُكْمُكم أم بالشقاوة مضى اسمُكُم ؟ فَكِلُوا الأمرَ فيه إلى الله ، واشتغلوا فى الوقت بأمر الله دون التفكُّر فيما ليس لكم سبيل إلى عِلْمِه عن عواقبكم .

قوله جل ذكره : « فاطِرُ السموات والأرض جعل لكم
من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام
أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثلِه شىء
وهو السميعُ البصير » .

خَلَقَ لكم من أنفسكم « أزواجاً » : أى أشكالاً ؛ فَخَلَقَ حواءَ مِنْ آدم وخَلَقَ

(1) الإحياء والإماتة اليوم مرتبطان بالمعانى الصوفية من صفاء وكدورة ونحو ذلك .

(2) هذا ردٌّ على مَنْ يتهمون الصوفيه بعدم الاحتفال بالمصادر الأساسية الشريعة ، فضلا عن أننا نشعر باهتمامهم بالجانب العقلى حين يبرزون «القياس» كمصدر من مصادر التشريع .

(3) وهذا المصدر الأخير خاصة بالسادة الأولياء الأصفياء — يهمنا أمره حين ندرس مصادر الفقه الصوفى .

— بسبب بقاء التناسل — جميعَ الحيواناتِ أجناساً .

« يذرؤكم » : يُكثِّر خَلْقَكم . « فيه » الهاء تعود إلى البطن أى فى البطن ، وقيل : فى الرَّحِم ، وقيل : فى التزويج(١) .

« ليس كمثله شئٌ » : لأنه فاطر السموات والأرض ، ولأنه لا مِثْلَ يُضَارِعُه ، ولا شكلَ يشاكله . والكاف فى ليس « كمثله » صلة أى ليس مثله شئٌ . ويقال : لفظ « مثل » صلة ؛ ومعناه ليس كهُوَ شئٌ . ويقال معناه ليس له مثل ؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثله شئٌ وهو هو ، فلما قال : « ليس كمثله شيء » فمعناه ليس له مثل ، والحقُّ لا شبيهَ له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحكامه .

وقد وقع قومٌ فى تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون فى المكان ، وأقبحُ قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بَصَرَه فى حدقة ، وسَمْعَه فى عضو ، وقدرته فى يدٍ .. إلى غير ذلك .

وقومٌ قاسوا حُكْمَه على حُكْمِ عباده ؛ فقالوا : ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمنه قبيح ، وما يكون من الخلْق حسناً فنه حَسَنٌ !! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه — والحقُّ مستحِقٌّ للتنزيه دون التشبيه ، مستحق للتوحيد دون التحديد ، مستحق للتحصيل دون التعطيل والتمثيل .

قوله جل ذكره : « له مقاليدُ السمواتِ والأرضِ يَبْسُطُ
الرزقَ لِمَن يشاء ويَقْدِرُ إنَّه بكلِّ شيءٍ
عليمٌ » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمفاتيح للخزائن ، وخزائنه مقدوراته . وكما أن فى الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال ؛ فبعض القلوب معادن المعرفة ، وبعضها معادن المحبة ، وبعضها للشوق ، وبعضها للأُنْس .. وغير ذلك من الأحوال كالتوحيد والتفريد والهيبة والرضا . وفائدة التعريف بأن المقاليد له : أنْ يقطع العبدُ أفكارَه عن الخَلْق ، ويتوجَّه

---

(١) يقول النسفى : الضمير «فيه» على وجهه لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع أو المعدن للبث والتكثير .

فى طلب ما يريد من الله الذى « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، والذى هو « بكل شىءٍ عليم »: يوسّع ويضيّق أرزاقَ النفوسِ وأرزاقَ القلوب حسبما شاء وحَكَمَ وعَلِمَ .

قوله جل ذكره : « شَرَعَ لكم من الدِّين ما وَصَّى به
نوحًا والذى أوحينا إليكَ وما وصَّينا
به إبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ أنْ أقيموا
الدِّينَ ولا تتفرقوا فيه كَبُرَ على المُشركين
ما تدعوهم إليه اللهُ يجتبى إليه مَن يشاء
ويَهْدِى إليه مَنْ يُنيب » .

« شرع » : أى بَيَّنَ وأظهر . « من الدين » أراد به أصول الدين ؛ فإنها لا تختلف فى جميع الشرائع ، وأمَّا الفروع فمختلفة ، فالآية تدلُّ على مسائلَ أحكامُها فى جميعِ الشرائعِ واحدَةٌ .

ثم بيَّن ذلك بقوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . . وفى القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شُرِعَ فى زمان نوحٍ عليه السلام .

قوله جل ذكره : « وما تفرّقوا إلّا مِن بعدِ ما جاءَهم
العِلْمُ بَغْيًا بينهم ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ مِن
ربِّك إلى أجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بينهم »

يعنى أنهم أصرُّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عُذْرَ ولا شكَّ « ولولا كلمة سبقت من ربك » . . وهو أنه حَكَمَ بتأخيرِ العقوبةِ إلى يومِ القيامة لعجّل لهم ما يتمنونه .

قوله جل ذكره : « فلذلكَ فادعُ واستَقِمْ كما أُمِرْتَ
ولا تَتَّبِـعْ أهواءَهم وقُلْ آمنتُ بما
أنزل اللهُ من كِتابٍ وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ
بينَــكُم اللهُ ربُّنا وربُّكُم لنا أعمالنا

ولكم أعمالكم لا حُجَّةَ بيننا وبينكم
اللهُ يَجمعُ بيننا وإليه المصير » .

أى ادْعُ إلى هذا القرآن ، وإلى الدين الحنيفى ، واستقِمْ فى الدعاء ، وفى الطاعة . أمَرَ الكُلَّ من الخَلْقِ بالاستقامة ، وأفرده بذكر التزام الاستقامة .

ويقال : الألف والسين والتاء فى الاستقامة للسؤال والرغبة ؛ أى سَلْ منى أن أقيمك ، « ولا تتبع أهواءَهم ، وقلْ : آمنتُ بما أنزل اللهُ من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم » : أمرتَ بالعدل فى القضية ، وبأن أَعلَمَ أنَّ اللهَ إلهُ الجميع ، وأنّه يحاسِب غداً كُلّاً بعمله ، وبأن الحجةَ لله على خَلْقِه ، وبأن الحاجةَ لهم إلى مولاهم .

قوله جل ذكره : « والذين يُحَاجُّون فى اللهِ مِن بعدما
استُجِيبَ له حُجَّتُهم داحِضَةٌ عند ربِّهم
وعليهم غَضَبٌ ولهم عذابٌ شديدٌ » .

يجادلون فى الله من بعد ما استُجِيبَ لدعاء محمدٍ صلى الله عليه وسلم يومَ بدرٍ على المشركين. حُجَّتُهُ هؤلاء الكفار داحضة عند ربهم لأنهم يحتجون بالباطل ، وهم من الله مستوجِبون للعنة والعقاب[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى أنزل الكتابَ بالحقِّ
والميزانَ ومايُدْرِيكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ » .

أنزلَ الكتابَ ، وأنزل الحُكمَ بالميزان أى بالحق .

ويقال ألهمهم وزنَ الأشياء بالميزان ، ومراعاةَ العدل فى الأحوال .

« وما يدريك لعلَّ الساعة قريب » : يزجرهم عن طول الأمل ، وينبههم إلى انتظار هجوم الأجَل .

---

(١) سماها حجة حسب زعمهم — وإن كانت شبهة فى حقيقة أمرها . ومن أمثلة حجج أهل الكتاب أنهم كانوا يقولون للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، لنحن خير منكم وأولى بالحق .. وكل هذه الحجج داحضة بعدما دخل الناس فى الإسلام ، وتركوا الجاهلية وآثامها ، استجابة لدعاء الرسول : اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض .

قوله جل ذكره : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مُشْفِقُون منها ويعلمون أنها الحقُّ ألاَ إنَّ الذين يُمارون فى الساعةِ لفى ضلالٍ بعيد » .

المؤمنون يؤمنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، ويَـكِلُون أمورَهم إلى الله ؛ فلا يتمنون الموتَ حَذَرَ الابتلاء ، ولـكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه ، وكانوا مستعدين له[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ لطيفٌ بعباده يَرْزُقُ مَن يشاء وهو القوىُّ العزيز » .

« لطيف »[2] أى عالم بدقائق الأمور وغوامضها . واللطيف هو المُلْطِف المحسن . . وكلاهما فى وصفه صحيح . واللطف فى الحقيقة قدرة الطاعة ، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليومَ هو لُطفٌ منه به .

وأكثرُ ما يستعمل اللطف — فى وصفه — فى الإحسان بالأمور الدينية .

ويقال : خاطَبَ العابدين بقوله : « لطيف بعباده » : أى يعلم غوامضَ أحوالهم من دقيق الرياء والتصنُّع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ العُصاةَ بقوله : « لطيف » : لئلا ييأسوا من إحسانه .

ويقال : خاطَبَ الأغنياء بقوله : « لطيف » : ليعلموا أنه يعلم دقائقَ معاملاتهم فى جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراءَ . بقوله : « لطيف » أى أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء .

ويقال : سماعُ قوله : « اللهُ » يوجِبَ الهيبةَ والفزع ، وسماعُ « لطيفٌ » يوجِبُ السكونَ

---

(1) لأن الموت يقربهم من اللقاء .. لقاء المحبوب .

(2) تضاف أقوال القشيرى هنا فى «اللطيف» إلى ما ذكره فى كتاب التحبير فى التذكير (تحقيق بسيونى) وما ذكره فى كتاب : شرح أسماء الله الحسنى (تحقيق الحلوانى) صدر بالقاهرة سنة ١٩٦٩ ص ١٧٦ وما بعدها .

والطمأنينة . فسماعُ قوله : « اللهُ » أوجب لهم تهويلاً ، وسماع قوله : « لطيفٌ » أوجب لهم تأميلاً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطى قَدْرَ الكفاية وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مِنْ لُطفِه بالعبدِ علْمُه بأنه لطيف ، ولولا لُطفُه لَمَا عرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطفِه أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكلَّفَه دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لطفه بالعبد إبهام عاقبته عليه ؛ لأنه لو علِم سعادتَه لا تّكَلَ عليه ، وأقَلَّ عملَه . ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولتَرَكَ عَمَلَه . . فأراده أن يستكثِرَ فى الوقت من الطاعة .

ويقال : من لطفه بالعبد إخفاء أَجَلِه عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه .

ويقال : من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيَه ما عمله فى الدنيا من الزلة ؛ لئلا يتنغّص عليه العَيْشُ فى الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نوّر الأسرار[1] ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار[2] ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ فى الإعلان والإسرار .

قوله جل ذكره : « مَن كان يُرِيدُ حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ له فى حَرْثِهِ ومَن كان يريد حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ منها وما له فى الآخرة مِن نصيب » .

« من كان يريد حرث الآخرة » : نَزِدْه — اليومَ — فى الطاعات توفيقًا ، وفى المعارف وصفاء الحالات تحقيقًا . ونَزِدْه فى الآخرة ثوابًا واقترابًا وفنونَ نجاةٍ وصنوفَ درجاتٍ .

« ومَنْ كان يريد حَرْثَ الدنيا » : مكتفيًا به نؤتِهِ منها ما يريد ، وليس له فى الآخرةِ نصيب .

---

(١) هذه (الأسرار) جمع السر وهو الملكة الباطنية التى تعلو الروح — كما نعرف من المذهب العرفانى للقشيرى .

(٢) وأما (الأسرار) الثانية فهى جمع السر كما نعرفه — بمعنى الشأن الخفى .

قوله جل ذكره: «أمْ لهم شُرَكاء شَرعوا لهم من الدِّين
ما لم يأذنْ به اللهُ ولولا كلمةُ الفَصْلِ
لَقُضِيَ بينهم وإنّ الظالمين لهم عذابٌ أليم»

«ما لم يأذن به الله»: أى ليس ذلك مما أَمَرَ به، وإنما هو افتراء منهم.

«ولولا كلمة الفصل».. أى ما سبق به الحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة..

«ترى الظالمين مُشْفِقين مما كسبوا وهو
واقعٌ بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ
فى روضاتِ الجناتِ لهم ما يشاءون عند
ربِّهم ذلك هو الفضلُ الكبير».

إذا حصل الإجرام فإلى وقتٍ ما لا يُعَذِّبُهم الله فى الغالب، ولكنه لا محالةَ يعذبهم. وربما يَثْبُتُ ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسَّفون، ويعلمون أنَّ ذلك من الله لهم مُعَجَّلٌ قد أصابهم، أمَّا الكفار.. فغداً يُشْفِقُون مما يقع بهم عند ما يقرءونه فى كتابهم، لأنَّ العذابَ — لا محالةَ — واقعٌ بهم.

«والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات»: فى الدنيا جنان الوصلة، ولذاذة الطاعة والعبادة، وطيب الأُنْسِ فى أوقات الخلوة. وفى الآخرة فى روضات الجنة: «لهم ما يشاءون عند ربهم»: إنْ أرادوا دوامَ اللطفِ دامَ لهم، وإنْ أرادوا تمامَ الكشف كان لهم.. ذلك هو الفضلُ الكبير.

قوله جل ذكره: «ذلك الذى يُبَشِّر اللهُ عبادَه الذين
آمنوا وعَمِلوا الصالحات».

ذلك الذى يُبَشِّرُ اللهُ عبادَه قد مضى ذِكْرُه فى القرآن متفرقاً؛ من أوصاف الجنة وأطايبها، وما وَعَدَ اللهُ من المثوبة.. ونحو ذلك.

«قُل لا أسألكم عليه أجراً إلَّا المودةَ فى القُرْبَىٰ».

قُلْ — يا محمد — لا أسألكم عليه أجراً. مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً، ولكنَّ اللهَ — وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيِّه بما لهم من الكرامات الأبدية — لم يطلب عليه أجراً؛

فالله — سبحانه — لا يطلب عِوَضاً، وكذلك نبيُّه — صلى الله عليه وسلم — لا يسأل أجراً؛ فإن المؤمنَ قد أخذ من الله خُلُقاً حَسَناً.. فمتى يطلب الرسولُ منهم أجراً؟! وهو — صلوات الله عليه — يشفع لكلِّ مَنْ آمن به، والله — سبحانه — يعطى الثوابَ لكل مَنْ آمن به.

«إلا المودة فى القربى»: أراد أن تثبت مودتك فى القربى؛ فتودَّ مَنْ يتقرَّب إلى الله فى طاعته[1].

«ومَن يقترفْ حسنةً نَزِدْ له فيها حُسْناً إنَّ اللهَ غفورٌ شكورٌ».

تضعيف الثواب فى الآخرة للواحدِ من عَشَرَة إلى سبعمائة.. هذه هى الزيادة.

ويقال: الزيادة هى زيادة التوفيق فى الدنيا.

ويقال: إذا أتى زيادة فى المجاهدة تفضَّلْنا بزيادة.. وهى تحقيق المشاهدة.

ويقال مَنْ يقترفْ حسنةَ الوظائف[2] نَزِدْ له فيها حُسْنَ اللطائف.

ويقال: تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه؛ فهى مما لا يدخل تحت طَوْق[3] البَشَر.

قوله جل ذكره: «أم يقولون افترىٰ على اللهِ كَذِباً فإن يَشأ اللهُ يختِمْ على قلبِكَ ويمحُ اللهُ الباطلَ ويُحِقُّ الحقَّ بكلماتِه إنَّه عليمٌ بذاتِ الصدور».

أى أنَّك إن افترَيْتَه خَتَمَ اللهُ على قلبِكَ، ولكنكَ لم تكذِبْ على ربِّكَ.

ومعنى الآية أنَّ اللهَ يتصرَّف فى عباده بما يشاء: مِنْ إبعادٍ وتقريب، وإدناء وتبعيد[4].

---

(١) استغلت هذه الآية الكريمة استغلالا عقدياً وسياسياً فى عصور متأخرة خصوصاً من جانب المتشيعين لعلى كرم الله وجهه وبيته.. وواضح أن القشيرى أطلق القرابة على كل من يتقرب إلى الله بالطاعة؛ فهى عنده قرابة فى الله، وربما كان ذلك نتيجة سنيته وحرصه على سنيته. (أنظر مدخل اللطائف حـ١ ص ٢٥).

(٢) المقصود بالوظائف أداء العبادات والتزام آداب الشريعة.

(٣) فى ص وردت (طرق) بالراء وهى خطأ فى النسخ.

(٤) يقول مجاهد: «يختم على قلبك» أى يربط عليه بالصبر على أذاهم واتهامهم له بالافتراء والكذب لئلا تدخله مشقة بسبب تكذيبهم.

قوله جل ذكره : « وهو الذى يَقْبَلُ التوبةَ عن عبادِه
ويعفو عن السيئاتِ ويعلمُ ما تفعلون »

« ويعفو عن السيئات » الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهى هنا للعهد ؛ أى تلك السيئات التى تكفى التوبةُ المذكورةُ فى الشريعة لقبولها ؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء[1] . « ويعلم ماتفعلون »: من الأعمال على اختلافها[2] .

وهو « الذى » . . . : الذى من الأسماء الموصولة التى لايتم معناها إلا بِصِلَةٍ ، فهو قد تعرَّف إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فالزَّلةُ — وإن كانتْ توجِبُ للعبد ذميمَ الصِّفَةِ — فإنَّ قبولَها يوجِبُ للحقِّ حميدَ الاسم .

ويُقال : قوله : « عباده » اسم يقتضى الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)[3] حتى تمنَّى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حسابَ الأولين والآخرين لعلّه يقول له : عبدى . ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود فى « التوبة عن عباده » ؛ وإذاً فلا ينبغى لهم أن يتمنوا كذلك ، وعليهم أن أن يتوبوا لكى يَصِلوا إلى ذلك .

ويقال لمَّا كان حديثُ العفوِ عن السيئات ذَكَرَها على الجمع والتصريح[4] فقال : « ويعفو عن السيئات » . ثم لمَّا كان حديثُ التهديد قال : « ويعلم ما تفعلون » فذكره على التلويح ؛ فلم يقل : ويعلم زلَّتك — بل قال ويعلم « ما » تفعلون ، وتدخل فى ذلك الطاعةُ والزَّلةُ جميعاً[5] .

قوله جل ذكره : « ويستجيبُ الذين آمنوا وعَمِلُوا
الصالحاتِ ويزيدُهم من فَضْلِه .. »

---

(١) يشير القشيرى إلى الآية الكريمة «إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»

(٢) ويدخل فى ذلك — كما سيأتى بعد قليل — المعاصى والطاعات .

(٣) مابين القوسين إضافة من عندنا طبقاً لما نعرفه من أسلوب القشيرى فى مثل هذا الموضع .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (والتضرع) وهى خطأ فى النسخ لعدم ملاءمتها للسياق ؛ فالتصريح يقابل «التلويح» المذكور فيما بعد .

(٥) فى هذه الإشارة وما تلاها يبدو انفتاح باب الأمل أمام العصاة ، وكيف يحثهم هذا الإمام الجليل على التوبة الآملة والرجاء الوطيد فى رحمة الله .

(أى إذا دَعَوْه استجابَ لهم)[1] بعظيم الثواب فى الآخرة .

« ويزيدهم من فضله » : يقول المفسرون من أهل السُّنَّة فى هذه الزيادة إنها الرؤية .

ذَكَرَ التوبة وأهلها ، وذكر العاصين بوصفهم ، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. فلمَّا وصل إلى الزيادة — التى هى الرؤية — قال : « ويزيدهم » على الجمع ؛ والكناية[2] إذا تلَتَ مذكوراتٍ رجعت إليها جميعاً ؛ فيكون المعنى أن الطاعاتِ فى مقابلها الدرجات ، وتكون بمقدارها فى الزيادة والنقصان ، وأمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل .. والفضلُ ليس فيه تمييز .

ويقال : لمَّا ذكر أنَّ التائبين تُقْبَلُ توبتُهم ، ومَنْ لم يَتُبْ غفر زلَّته[3] ، وأنَّ المطيعين لهم الجنة .. فلربما خَطَرَ ببالِ أحدٍ : وإذاً فهذه النارُ لِمَنْ هى ؟ ! فقال جل ذكره :

« والكافرون لهم عذابٌ شديدٌ » .

فالعصاةُ من المؤمنين لهم عذابٌ .. أمَّا الكافرون فلهم عذابٌ شديدٌ ؛ لأنَّ دليلَ الخطاب يقتضى هذا وذاك ؛ يقتضى أن للمؤمنين لهم عذابٌ .. ولكنْ ليس بشديد ، وأمَّا عذابُ الكافرين فشديدٌ .

ويقال : إن لم يَتُبِ العبدُ خوفاً من النار ، ولا طمعاً فى الجنة لكانَ من حقِّه أن يتوب ليَقْبَلَ الحقُّ — سبحانه .

ويقال إن العاصى يكون أبداً منكسرَ القلب ، فإذا عَلِمَ أن اللهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أنْ ليت له طاعةً مُيَسَّرَةً ليقبلها ، فيقول الحقُّ : عبدى ، إنْ لم تَكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إنْ أتيتَ بها تصلح لقبولها .

قوله جل ذكره : « ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعبادِه لَبَغَوْا فى الأرضِ ولكنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ

---

(١) مابين القوسين زيادة من عندنا وجدناها ضرورية لتوضيح العبارة .

(٢) يقصد القشيرى بالكناية الضمير فى «ويزيدهم» .

(٣) لأنه ربط ذلك بمشيئته — سبحانه — فقال «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» .

مَا يشاءُ إنَّه بعباده خبيرٌ بصير » .

هذا الخطاب فى الظاهر يشبه الاعتذار فى تخاطب الآدميين . والمعنى : أنى لم أبسط عليكَ أيها الفقيرُ فى الدنيا لِمَا كان لى من العلم أنى لو قسمتُ عليك الدنيا لَطَغَيْتَ ، ولسَعَيْتَ فى الأرض بالفساد .

ويقال : قوله : « ولكن . . . » : لكن كلمة استدراك ، فالمعنى : لم أُوَسِّعْ عليكَ الرزقَ بمقدار ما تريد ؛ ولم أمنع عنك (الكُلَّ)(١) ؛ لأنى أُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما أشاء .

قوله جل ذكره : « وهو الذى يُنَزِّلُ الغيثَ مِن بعد ما قنطُوا وينشرُ رَحمَتَــــه وهو الولىُّ الحميدُ » .

الله — سبحانه يُحْيِي القلوب ؛ فكما أنه « هو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » ، فبعدما أصابت الأرضَ جدوبةٌ ، وأبطأ نزولُ الغيثِ ، وقَنِطَ الناسُ من مجيء المطر ، وأشرفَ الوقتُ على حدِّ الفَوَاتِ يُنَزِّلُ اللهُ بفضله الغيثَ ، ويحيى الأرضَ بعد قنوطِ أهلها . . فكذلك العبد ؛ إذا ذَبُلَ غُصنُ وقته ، وتكدَّرَ صَفْوُ ودِّه ، (وكسفت)(٢) شمسُ أُنْسِه ، (وبَعُدَ)(٣) عن الحضرةِ وساحاتِ القرب عَهْدُه فربما ينظر إليه الحقُّ برحمته ؛ فينزل على سِرِّه أمطارَ الرحمة ، ويعود عودُه طريًّا ، ويُنْبِتُ فى مشاهد أُنْسِه ورداً جَنياً . . وأنشدوا :

إنْ راعنى منك الصدود فلعلَّ أيامى تعــــود

ولعــلَّ عهدك باللِّوى يحيا فقــد تحيا العهود

والغصن ييبس تارةً وتراه مُخْضرًّا يميــد

قوله جل ذكره : « ومِنْ آياته خَلْقُ السموات والأرضِ

(١) هكذا فى م ، وهى فى ص (الكيل) وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .
(٢) هكذا فى ص ، وهى فى م (كشفت) بالشين وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح .
(٣) سقطت فى ص وموجودة فى م والسياق يتطلبها .

وما بثَّ فيهما من دابةٍ وهو على جمْعِهِمْ
إذا يشاء قديرٌ » .

جعل اللهُ في كلِّ شيء من المخلوقات دلالةً على توحُّدِه في جلاله ، وتفرُّدِه بنعت كبريائه وجماله(١) .

« وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » : والإشارة منها أنَّ الحقَّ — سبحانه — يغار على أوليائه أن يَسْكُنَ بعضُهم بقلبه إلى بعضٍ ؛ فأبداً يُبَدِّدُ شملَهم ، ولاتكاد الجماعةُ من أهل القلوب تتفق في موضعٍ واحدٍ إلا نادراً ، وذلك لمدةٍ يسيرة .. كما قالوا :

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كأنهم
بأكنافِ أطرافِ السماء نجومُ

وفي بعض الأحايين قد يتفضَّل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار ، ويحصل بينهم — في الظاهر — اجتماعٌ والتقاء ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ — سبحانه — بفضله إلى أنَّ في اجتماعهم بركاتٍ لحياة العالَم .

وهذا — وإن كان نادراً — فإنه على جَمْعِهم — إذا يشاء — قدير .

قوله جل ذكره : « وما أصابكم مِن مُصيبةٍ فَبِما كَسَبَتْ
أيديكم ويعفو عن كثير » .

إذا تحقَّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءه ، وعلِمَ أن ذلك جزاء له ، وعقابٌ على مابَدَرَ منه من سوء الأدب لاستحيى بخجلته مِنْ فِعْلِه ، ولَشَغَلَه ذلك عن رؤية الناس ، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئهم أو يدعوَ عليهم ، وإنما يشغله تلافي ما بَدَرَ منه من سوء الفعلِ عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلَّط عليه من الخلْق .. تاركاً الأمرَ كلَّه لربِّه .

ويقال : إذا كَثُرَت الأسبابُ من البلايا على العبد ، وتوالى عليه ذلك .. فَلْيَفْكِرْ في أفعاله المذمومة .. كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله — مع العفو الكثير — هذا المبلغ ؟ ! فعند ذلك يزداد حزْنُه وتأسُّفُه ؛ لعِلْمِه بكثرة ذنوبه ومعاصيه .

---

(١) سبق أن نبهنا القشيري إلى توحيد الحالة وتوحيد الدلالة .

قوله جل ذكره : « ومن آياته الجوارِ فى البحْرِ كالأعلام » .

يريد بها السفن التى تجرى فى البحار ؛ يرسل اللهُ الريحَ فتُسَيِّرها مرةً ، ويُسَكِّنها أخرى ، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة .. وهو بهذا يَحُثُّهم على التفكُّر والتنبُّه دائماً .

والإشارة فى هــــذا إلى إمساك الناس[1] فى خلال فَتْرَةِ الوقت عن الأنواء المختلفة ، وحفظهم فى إيواء السلامة ، فالواجبُ الشكرُ فى كل حالة ، وإذا خَلُصَ الشكرُ استوجب جزيلَ المزيد .

قوله جل ذكره : « فما أُوتيتُم مِن شىء فَمتَاعُ الحياةِ
الدُّنيا وما عند اللهِ خيرٌ وأبقى للذين
آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلُون » .

يعنى أنَّ الراحاتِ فى الدنيا لا تصفو ، ومن المشائب لا تخلو . وإنْ اتفق وجودُ البعض منها فى أحايين فإنها سريعة (الزوال)[2] ، (وشيكة)[3] الارتحال .

« وما عند الله » من الثواب الموعود « خيرٌ » من هذا القليل الموجود .

قوله جل ذكره : « والذين يَجْتَنِبُونَ كبائرَ الإثمِ
والفواحِشَ وإذا ما غَضِبُوا هم يَغْفِرون »

« كبائر الإثم » : الشِّرك . و « الفواحش » : ما دون ذلك من الزلاَّت . فإذا تركوها لا يتجرَّعون كاسات الغضب بل تسكن لديهم سَوْرَةُ النَّفْسِ ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم فى عموم الأحوال .

« والذين استجابُوا لربِّهم وأقاموا
الصلاةَ وأمْرُهم شُورَىٰ بينهم ومما
رزقناهم يُنفِقُون » .

---

(١) المقصود بإمساك الناس هنا حفظ الله سبحانه وتعالى لهم .

(٢) وردت (العذاب) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت (وسكية) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

« استجابوا لربهم » : فيما دعاهم إليه وما أَمَرَهم به من فنون الطاعات ؛ فهؤلاء هم الذين لهم حُسْنُ الثوابِ وحميدُ المآبِ .

والمستجيبُ لربِّه هو الذى لا يبقى له نَفَسٌ إلا على موافقـة رضاه[1] ، ولا تَبْقَى منه لنَفْسِه بقية .

« وأمرهم شورَى بينهم » : لا يستبدُّ أحدُهم برأيه ؛ لأنه يَتَّهِمُ أمرَه ورأيَه أبداً[2] . ثم إذا أراد القطعَ بشىء يتوكل على الله .

قوله جل ذكره : « والذين إذا أصابَهُمُ البغْىُ هُم يَنْتَصِرون » .

« البغىُ » : الظلمُ ، فيعلم أحدهم أن الظلمَ الذى أصابه هو من قِبَلِ نَفْسِه ، فينتصر على الظالم وهو نفسه ؛ بأنْ يكبحَ عنانها عن الركض فى ميدان المخالفات .

قوله جل ذكره : « وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وأَصْلَحَ فأجرُه على الله إنَّه لا يُحب الظَّالمين » .

(يعنى لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجانى عليكم فى المكافأة أو الانتقام)[3] .

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » : مَنْ عفا عن الجانى ، وأصلح ما بينه وبين الله — أصلَح اللهُ ما بينه وبين الناسِ . « فأجره على الله » : فالذى للعبد من الله وعلى الله ، وعند الله خيرٌ مما يعمله باختياره .

قوله جل ذكره : « وَلَمَنِ انتصر بعد ظُلْمِه فأولئك ما عليهم مِن سبيلٍ * إنَّما السبيلُ على الذين يظلمون الناسَ ويَبْغُون فى الأرضِ بغير الحقِّ أولئك لهم عذابٌ أليم » .

---

(1) هذا ما يعرف عند الصوفية بمراعاة الأنفاس .

(2) هذا أصل من أصول أهل الملامة النيسابورية .

(3) ما بين القوسين سقط فى ص وموجود فى م .

عَلِمَ اللهُ أن الكُلَّ من عباده لا يجد التحررَ من أحكام النَّفْس ، ولا يتمكن من محاسن الخُلُق فرخَّص لهم في المكافأة على سبيل العدل والقسط — وإنْ كان الأَوْلى بهم الصفح والعفو .

« إنما السبيل على الذين يظلمون الناس . . » : السبيلُ بالملامة لِمَنْ جاوز الحدَّ ، (وعدا الطَّوْرَ)[1] ، وأتى غيرَ المأذونِ له من الفعل . . فهؤلاء لهم عذابٌ أليم .

قوله جل ذكره : « ولَمَن صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور » .

صَبَرَ على البلاءِ من غير شكوى ، وغَفَرَ — بالتجاوز عن الخَصْمِ — ولم تبقَ لنفْسِه عليه دعوى ، بل يُبرِئ خَصْمَه من كل دعوى ، في الدنيا والعقبى . . فذلك من عزم الأمور .

قوله جل ذكره : « ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فما له من وليٍّ مِن بَعْدِه وترى الظالمين لَمَّا رأَوُا العذابَ يقُولُون هل إلى مَرَدٍّ من سبيلٍ » .

إنَّ الذين أضلَّهم اللهُ ، وأعمى أبصارَهم وبصائرَهم ، وأوقعهم في كدِّ عقوبتهم ، وحَرَمَهم بَرْدَ الرضا لحكمِ ربِّهم ليس لهم وليٌّ من دون الله ، ولا مانعَ لهم من عذابه .وتراهم إذا رأوا العذابَ يطلبون منه النجاة فلا ينالونها .

وتراهم يُعْرَضُون على النار وهم خاشعون من الذُّلِّ ؛ لا تنفعهم ندامةٌ ، ولا تُسْمَعُ منهم دعوةٌ ، ويُعَيِّرُهم المؤمنون بما ذَكَّروهم به فلا يسمعون ، فاليومَ لا ناصرَ ينصرهم ، ولا راحمَ يرحمهم .

قوله جل ذكره . « آستجيبُوا لربِّكم مِن قَبْلِ أن يأتِيَ يومٌ لا مَرَدَّ له مِنَ اللهِ ما لكم مِن ملجأٍ يومَئذٍ وما لكُم من نَكِيرٍ » .

الاستجابةُ لله الوفاء بعهده ، والقيامُ بحقِّه ، والرجوعُ عن مخالفته إلى موافقته، والاستسلامُ

---

(١) في ص (وعد) وهي خطأ في النسخ . ويقال عدا وتعدى الطور أي جاوز حدَّه وقدره (الوسيط) .

فى كل وقتٍ لحكمِه . والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ . وعن قريبٍ سيُغلَقُ البابُ على القلب بغتةً ، ويُؤْخَذُ فلتةً .

قوله جل ذكره : « فإنْ أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً
إنْ عليكَ إلا البلاغُ » .

فإنْ أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة ، ثم نحن أعلمُ بما نعاملهم به .

« وإنَّا إذا أذقنا الإنسان مِنّا رحمةً فَرِحَ
بها ، وإن تُصِبْهُم سيئةٌ بما قدَّمت
أيديهم فإنَّ الإنسانَ كفورٌ » .

إذا أذقنا الإنسان مِناً رفاهيةً ونعمةً فَرِحَ بتلك الحالة ، وقابلها بالبَطَرِ ، وتوصَّل بتمام عافيته إلى المخالفة ، وجعل السلامةَ ذريعةً للمخالفة . وإنْ أصابته فتنةٌ وبلية ، ومَسَّتْهُ مصيبةٌ ورزية فإنه كفورٌ بنعمائنا ، جحودٌ لآياتنا .

قوله جل ذكره : « لله مُلْكُ السموات والأرضِ يَخْلُقُ
ما يشاءُ يَهَبُ لِمَن يشاء إناثاً ويَهَبُ لِمَن
يشاء الذكور »[1] .... .

يهب لمن يشاء الذكور ، ولمن يشاء الإناث ، ولمن يشاء الجنين ، ويجعل من يشاء عقيماً ، فلا اعتراضَ عليه فى تقديره ، ولا افتياتَ فى اختياره ، فهو أَوْلَى بعباده من عباده .

قوله جل ذكره : « وما كان لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَه اللهُ
إلا وحياً أو مِن وراءِ حجابٍ أو يُرْسِل
رسولا فيوحِيَ بإذنه ما يشاء إنَّه عَلِيٌّ
حكيم » .

لله بحقِّ مُلْكِه أن يفعل ما يشاء ، ويعطى مَنْ يشاء مِن عباده ما يشاء ، ولكن أجرى

(١) يرى النسفى أنه قدم الإناث على الذكور هنا ليوضح أنه فاعل لما يشاؤه لا لما يشاء الإنسان ، فكان تقديم الإناث اللاتى من جملة مالا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم . حـ٤ ص ١١١ .

العادة وحَكَمَ بأنه لا يفعل إلا ما وَرَدَ فى هذه الآية ؛ فلم يُكلِّم أحداً إلا بالوحى ، أو من وراء حجاب ؛ يعنى وهو لا يرى الحقَّ ، فالمحجوبُ هو العبد لا الرب ، والحجابُ أن يخلق فى محل الرؤية ضد الرؤية . . تعالى اللهُ عن أن يكونَ من وراء حجاب ؛ لأن ذلك صفةُ الأجسام المحدودة التى يُسْبَلُ عليها ستر . إنه « علىٌّ » : فى شأنه وقَدْرِه ، « حكيمٌ » : فى أفعاله .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمْرِنا
ما كُنتَ تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ
ولكن جعلناه نوراً نهدى به مَن نشاءُ
من عِبادنا وإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِراطٍ
مستقيم » .

أى ذلك مثلما أوحينا إليك « روحاً » من أمرنا يعنى القرآن ؛ سَمَّاه روحاً لأنه مَنْ آمن به صار به قلبُه حَيًّا .

ويقال « روحاً من أمرنا » : أى جبريل عليه السلام ، ويسمى جبريل روح القدس .

« ما كنت تدرى ما الكتاب . . » : ما كنت تدرى قبل هذا ماالقرآن ، «ولا الإيمان»: أى تفصيل هذه الشرائع .

« ولكن جعلناه » : أى القرآن « نوراً » نهدى به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين .

« ألاَ إلى الله تصير الأمور » : لأن منه ابتداء الأمور .

سُورَةُ الزُّخْرُف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم « الله : اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بجُودِه وكَرَمِه لم يُعَلِّقْ بغيره صواعدَ هِمَمِه ، ولم يَقِف على سُدَّةِ مخلوقٍ بِقَدَمِه في ابتغاء كَرَمِه . اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَه خفايا لُطْفِه[1] لم يتذلَّل[2] في طَلَب شيء مِنْ غيرِه ، ولم يَرْجِع إلى غيره في شَرِّه وخَيْرِه .

قوله جل ذكره : « حم * والكتابِ المبين * إنَّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تَعْقِلُون »

الحاء تدل على حياته والميمُ على مجده . . وهذا قَسَمٌ ؛ ومعناه : وحياتي ومجدي وهذا القرآنِ إنَّ الذي أخبرْتُ عن رحمتي بعبادي المؤمنين حقٌّ وصِدْقٌ . وجعلناه قرآناً عربياً ليتيسَّرَ عليكم فَهْمُ معناه .

قوله جل ذكره : « وإنَّه في أُمِّ الكتابِ لدينا لَعَلِيٌّ حكيم »

« في أم الكتاب لدينا » : أي أنه مكتوب في اللَّوح المحفوظ .

« لعليٌّ حكيم » لَعَلِيُّ القَدْرِ ، حكيمُ الوصفِ ؛ لا تبديلَ له ولا تحويل .

قوله جل ذكره : « أَفَنَضْرِبُ عنكم الذكرَ صفحاً أن كنتم قوماً مُسْرِفين »

أي أننا لا نفعل ذلك ؛ (فيكون معنى الاستفهام)[3] أفنقطع عنكم خطابَنا وتعريفَنا

---

(١) هكذا في م وهي في ص (بخفاء حكمه) . وقد آثرنا الأولى لأنها أكثر تمشياً للسياق .

(٢) هكذا في م وهي في ص (لم تبدلل) وواضح الخطأ الناسخ .

(٣) ما بين القوسين إضافة من عندنا ليتماسك السياق . والاستفهام في الآية يفيد الإنكار .

إنْ أسرفتم فى خلافكم ؟ لا . . . إننا لا نرفع التكليفَ بِأنْ خالفتُم ، ولا نهجركم — بقطع الكلام عنكم — إنْ أسرفتم .

وفى هذا إشارةٌ لطيفةٌ وهو أنه لا يقطع الكلامَ — اليومَ — عمَّنْ تمادَى فى عصيانه ، وأسرف فى أكثر شانه . فأحرى أنَّ مَنْ لم يُقَصِّرْ فى إيمانه — وإنْ تلطَّخَ بعصيانه ، ولم يَدْخُلْ خَلَلٌ فى عِرفانه — ألا يَمْتَنِعَ عنه لطائفَ غفرانه[1] .

قوله جل ذكره : « وكم أرسلنا من نبيٍّ فى الأوَّلين *

وما يأتيهم من نبيٍّ إلَّا كانوا

به يستهزئون » .

ما أتاهم من رسولٍ قابلوه بالتصديق ، بل كَذَّبَ به الأكثرون وجحدوا ، وعلى غَيِّهم أصرُّوا . . .

فأهلكنا أشدَّ منهم بطشاً »

أى لم يُعْجِزْنا أحدٌ منهم ، ولم نغادِرْ منهم أحداً ، وانتقمنا مِنَ الذين أساءوا .

قوله جل ذكره : « ولَئِن سألتَهم مَنْ خَلَقَ السمواتِ

والأرضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ العليم »

كانوا يُقِرُّون بأنَّ اللهَ خالقُهم ، وأنَّه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ، وإنما جحدوا حديثَ الأنبياء ، وحديثَ البعثِ وجوازه .

« الذى جعل لكم الأرضَ مَهْداً وجعَلَ

لكم فيها سُبُلاً لعلكم تهتدون »

كما جعَلَ الأرضَ قراراً لأشباحهم جعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم ؛ فالخَلْقُ سُكَّانُ الأرضِ ، فإذا انتهت المدةُ — مدةُ كَوْنِ النفوسِ على الأرضِ — حَكَمَ اللهُ بخرابها . . كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّةِ قضى اللهُ بخرابها .

---

(١) هكذا تتجلى نزعة الأمل والتفاؤل عند هذا الصوفى حيث يحاول فى إشارته أن يبين كيف أن رحمة الله تمتد لتشمل المؤمنين العصاة حتى من أسرف منهم على نفسه .

قوله جل ذكره : « والذى نَزَّلَ من السماء ماء بِقَدَرٍ
فأنشرنا به بلدةً مَيْتاً كذلك تُخْرَجون »

يعنى كما يُحْيِى الأرضَ بالمطرِ يحيى القلوبَ بحُسن النَّظَر .

قوله جل ذكره : « والذى خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها »

أى الأصنافَ من الخَلْق

« وجعل لكم من الفُلْكِ والأنعامِ
ما تَرْكبون »

كذلك جَنَّسَ عليكم الأحوالَ كلها ؛ فمِنْ رغبةٍ فى الخيرات إلى رهبةٍ مما توعَّدكم به من العقوبات . ومن خوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزَّلَّات إلى رجاءٍ يبعثكم على فعل الطاعات طمعاً فى المثوبات . . وغير ذلك من فنون الصفات

« لِتَسْتَوُوا على ظهوره » .

يعنى الفُلْكَ والأنعام . .

« ثم تَذْكُروا نِعْمَةَ ربِّكم إذا استويتم
عليه وتقولوا سبحان الذى سَخَّرَ لنا هذا
وما كُنَّا له مُقْرِنين »

مطيعين ، وكما سَخَّرَ لهم الفُلْكَ فى البحر ، والدوابَّ للركوب ، وأعظم عليهم المنة بذلك فكذلك (سَهَّلَ للمؤمنين مركبَ التوفيق فحَمَلهم عليه إلى بساط الطاعة[1]) ، وسهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادة فحَمَلهم عليه إلى عَرَصَات الجود ، وسَهَّل للعارفين مركبَ الهِمَمِ فأناخوا بعقْوةِ العِزَّةِ . وعند ذلك تَحُطُّ الكافة ؛ إذ لم تخرق سرادقاتِ العزَّةِ هِمَّةُ مخلوقٍ : سواء كان مَلَكاً مُقَرَّباً أو نبياً مُرْسَلاً أو ولياً مُكَرَّماً ، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كلُّ مخلوقٍ ، ويقف وراءَها كلُّ مُحْدَثٍ مسبوق[2] .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م فأثبتناه فى هذا الموضع ؛ لأن مرتبة المؤمنين عامة تليها مرتبة المريدين وهى خاصة ، ثم العارفين وهم خواص الخواص .

(٢) يرتبط ذلك بمذهب القشيرى فى والفناء ، وكيف أن الصمدية تجل عن الاستشراف .. ناهيك بما يزعمه آخرون من حلول واتحاد .. وغير ذلك .

قوله جل ذكره: « وجعلوا له من عبادِه جزْءًا إنَّ الإنسانَ لَكَفُورٌ مبينٌ »

هم الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته.. تعسًا لهم في قولهم ذلك وخِزْيًا [1] !! فردَّ عليهم ذلك قائلا:

« أم اتَّخذَ مما يَخلُقُ بناتٍ وأصفاكم بالبنين »

قال لهم على جهة التوبيخ، وعابَهم بما قالوا؛ إذ — على حدّ قولهم — كيف يُؤثِرُهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات؟! فني قولهم ضلالٌ؛ إذ حكموا للقديمِ بالوَلَدِ. وفيه جهلٌ؛ إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبنين — وهم يستنكفون من البنات.. ثم.. أي عيب في البنات؟ ثم.. كيف يحكمون بأن الملائكةَ إناثٌ — وهم لم يشاهدوا خِلقَتَهم؟

كلُّ ذلك كان منهم خطأً محظوراً.

قوله جل ذكره: « وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عبدناهم مالهم بذلك من عِلْمٍ إنْ هم إلّا يَخرُصُون »

إنما قالوا ذلك استهزاءً واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً، فقال تعالى: « ما لهم بذلك من علم » ولو علِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولا.

ثم قال: « أم آتيناهم كتاباً من قَبلِه فهم به مُستَمْسِكونَ »

أي ليس كذلك، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليدٍ لا يُفْضى إلى العلم، فقال:

« بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مُهتَدون »

(1) في م (وحزناً) وهي غير ملائمة — كما هو واضح.

فنحن نقتدى بهم ، ثم قال :

« وكذلك ما أرسلنا من قَبْلِكَ فى
قرية من نذيرٍ إلا قال مُتْرَفُوها إنّا
وجدنا آباءنا عَلَى أُمَّةٍ وإنا عَلَى آثارهم
مقتدون »

سلكوا طريقَ هؤلاء فى التقليد لأسلافهم ، والاستنامةِ إلى ما اعتادوه من السِّيرة والعادة .

قوله جل ذكره : « قال أَو لو جئتُكم بأهدىٰ
مما وجَدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما
أرسِلْتُم به كافرون »

فلم ينجعْ فيهم قولُه ، ولم ينفعْهم وَعْظُهُ ، وأصرُّوا عَلَى تكذيبِهم ، فانتقمَ الحقُّ — سبحانه — منهم كما فعل بالذين من قبلهم .

قوله جل ذكره : « وإذ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه
إننى بَرَاءٌ مما تعبدون »

أخبر أنَّ إبراهيمَ لمَّا دعا أباه وقومَه إلى الله وتوحيده أبَوْا إلَّا تكذيبَه ؛ فتبرأ منهم بأجمعِهم ، وجعلَ اللهُ كلمةَ التوحيدِ باقيةً فى عَقِبِه وقومه .

قوله جل ذكره : « بل مَتَّعْتُ هؤلاء وآباءهم
حتى جاءهم الحقُّ ورسولٌ مبين » .

أرْخَيْنَا عنانَ إمهالهم مدةً ، ثم كان أمرُهم[1] أنِ انتصرْنا منهم ، ودَمَّرْناهم أجْمعين .

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ

(١) هكذا فى ص وهى فى م (آخرهم) وهى مقبولة فى السياق على معنى (آخر أمرهم) أو (آخر شأنهم) .

عَلَى رجل من القريتين عظيم »

إمّا أبى مسعود الثقفى[1] أو أبى جهل ، وهذا أيضاً من فرْط جهلهم .

« أم يَقْسِمون رحمةَ ربِّكَ ؟
نحن قَسَمْنَا بينَهم معيشتَهم فى الحياةِ
الدنيا ورفعنَا بعضَهم فوقَ بعضٍ
درجاتٍ ليتخذَ بعضُهم بعضاً سُخْرِيًّا ،
ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ ممّا يَجْمَعون »

أم يَقْسِمون ـ يا محمد ـ رحمةَ ربك فى التخصيص بالنبوة ؟ أيكون اختيارُ اللهِ ـ سبحانه ـ عَلَى مقتضى هواهم ؟ بئس ما يحكون !

« نحن قسمنا بينهم ...... » فلم نجعل القسمة فى الحياة الدنيا لهم .... فكيف نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء ؟! .....

والإشارة من هنا : أن الحقّ ـ سبحانه ـ لم يجعل قسمةَ السعادةِ والشقاوةِ إلى أحد ، وإنّما المردودُ مَنْ ردّه بحكمه وقضائه وقَدَره ، والمقبولُ ـ من جملة عباده ـ مَنْ أراده وقَبِلَه . . . لا لعلّةٍ أو سبب ، وليس الردُّ أو القبولُ لأمرٍ مُكتَسَب[2] . . .

ثم إنه قَسَمَ لبعضِ عِبادِه النعمةَ والغنى ، ولبعض القلّةَ والفقر ، وجعل لكلِّ واحدٍ منهم سكنًا يسكنون إليه يستقلون به ؛ فللأغنياء وجودُ الإنعام وجزيل الأقسام .. فشكروا واستبشروا ، وللفقراء شهودُ المُنعِم والقَسّام .. فَحَمدوا وافتخروا . الأغنياءُ وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا ، والفقراء سمعوا قوله : « نحن » فاشتغلوا[3].

---

(١) هو أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفى من الطائف ، وأبو جهل من مكة فالقريتان هما الطائف ومكة . ويروى أن الوليد بن المغيرة ـ وكان يسمى ريحانة قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل عليّ أو على أبى مسعود .

(٢) مرة أخرى ينبه القشيرى إلى أن المعول عليه فى الأمر فضل الله وقسمته ، ولهذا الرأى شأنه فى مسألة الثواب والعقاب التى اتخذها المعتزلة وسيلةً من وسائل تبرير الحرية الإنسانية ـ كما نبهنا إلى ذلك فى هوامش كثيرة من الكتاب .

(٣) أى (اشتغلوا) بالله وطاعته دون غاية غيره أو مطمع زائل . ونحن لا نستبعد أنها قد تكون فى الأصل (فاستقلوا) فهذا هو تعبير الشيخ المألوف فى مثل هذا السياق .

وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : أما ترضون أن يرجع الناس بالغنى ؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهليكم ؟

« ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا .. » : لو كانت المقاديرُ متساويةً لتعطَّلت المعايشُ ، ولَبَقِيَ كلٌّ عندَ حاله ؛ فجعل بعضَهُم مخصوصين بالرِّفْه والمال ، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال .. حتى احتاج الفقيرُ في جَبْرِ حاجته إلى أن يعملَ للغنيِّ كي يرتفق من جهته بأجرته فَيَصْلُحُ بذلك أمرُ الغنيِّ والفقير جميعاً .

قوله جل ذكره : « ولولا أن يكونَ الناسُ أمةً واحدةً
لجعلنا لِمَن يَكفُرُ بالرحمٰنِ لبيوتِهم
سُقُفاً من فضة ومعارجَ عليها يَظْهَرُون »

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر ؛ فالذي يبقى عنَّا لو صَبَبْنَا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته . ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارجَ من فضة ، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا .

ولو فعلنا .. لم يكن لِمَا أعطيناه خَطَرٌ ؛ لأنَّ الدنيا بأَسْرِها ليس لها عندنا خطر .

قوله جل ذكره : « ومَن يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمٰنِ
نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين » .

مَن لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع الله حَادَ عن ذكره ، وأخلدَ إلى الخواطر الرديَّة قيَّضَ اللهُ له مَنْ يَشْغَلُه عن الله — وهذا جزاءُ مَنْ تَرَكَ الأدبَ في الخلوة . وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربِّه .. فلو تعرَّض له مَنْ يشغله عن ربه صَرَفه الحق عنه بأي وجهٍ كان ، وصَرَفَ دواعيه عن مفاتحته بما يشغله عن الله .

ويقال : أصعبُ الشياطين نَفْسُكَ ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ خَطَرَ فراغ قلبه ، واتَّبَعَ شهوته ، وفتح ذلك البابَ عَلَى نَفْسه بقي في يد هواه أسيراً لا يكاد يتخلَّصُ عنه إلا بعد مُدَّة .

قوله جل ذكره : « وإنهم ليصدونهم عن السبيل
ويحسَبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا

قال يا ليت بينى وبينك بُعْدَ المشرقين

فبئس القرين »

الذى سوّلت له نَفْسُهُ أمراً يَتَوَهَّمُ أنه على صواب ، ثم يحمل صاحبَه على موافقته فى باطله ، ويدّعى أنه على حقٍّ . وهو بهذا يَضُر بنَفْسِه ويضر بغيره . ثم إذا ما انكشف — غداً — الغطاء تبيَّن صاحبُه خيانتَه ، ونَدِمَ على صُحْبَتِه ، ويقول : « يا ويلتىٰ ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً »[1] و « ياليت بينى وبينك بعد المشرقين » . ولكنَّ هذه الندامةَ لا تنفعُ حينئذٍ ؛ لأنّ الوقتَ يكونُ قد فات ، لهذا قال تعالى :

« ولن ينفعكم اليومَ إذ ظلمتم أنكم

فى العذاب مُشْتَرِكون »

قوله جل ذكره : « أفأنت تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدِى

العُمْىَ ومَنْ كان فى ضلالٍ مبين » .

هذا الاستفهام فيه معنى النفى ؛ أى أنه ليس يمكنُكَ هدايةَ مَنْ سَدَدْنا بصيرته ، ولبَّسْنا عليه رُشْدَه ، ومَنْ صَبَبْنا فى مسامع فَهْمِه رصاصَ الشقاء والحرمان... فكيف يمكنك إسماعه؟!

قوله جل ذكره : « فإمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فإنّا منهم

منتقمون »

يعنى : إن انقضى أجَلُكَ ولم يتفق لكَ شهودُ ما نتوعَّدُهم به فلا تتوهَّمْ أنَّ صِدْقَ كلامِنا يشوبُه مَيْنٌ[2] ، فإنّ ما أخبرناك عنه — لا محالة — سيكون .

قوله جل ذكره : « أو نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم فإنا عليهم

مقتدرون »

أثبتَهُ عَلَى حدِّ الخوفِ[3] والرجاء ، ووقَفَهُ عَلَى وصفِ التجويز لاستبداده[4] — سبحانه

---

(١) آية ٢٨ سورة الفرقان .

(٢) في م (مبين) وهى خطأ في النسخ إذ الصواب (المين) أى الكذب .

(٣) فى ص (الحزن) ، لكننا آثرنا عليها ما جاء في م فالخوف — لا الحزن — يقابل الرجاء فى المصطلح الصوفى (أنظر رسالة القشيرى ص ٣٥) .

(٤) استبد بالأمر عد انفرد به (الوسيط) .

بعلم الغيب . والمقصود كذلك أن يكونَ كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير — فالله يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : « فاستمسِكْ بالذى أُوحِىَ إليكَ إنك على صراطٍ مستقيم »

اجتهِدْ من غير تقصير وتوكَّلْ على اللهِ من غير فُتور ، وقِفْ حيثما أُمِرْتَ ، وثِقْ بأنك على صِراطٍ مستقيم .

قوله جل ذكره : « وإنه لَذِكْرٌ لكَ ولقومِكَ وسوف تُسْألون » .

أى إنَّ هذا القرآن لَذِكْرٌ لك ؛ أى شرفٌ لك ، وحُسْنُ صيتٍ ، واستحقاقُ منزلةٍ .

قوله جل ذكره : « واسْأَلْ مَنْ أرسلنا مِن قَبْلك مِن رُسُلنا أجعلنا من دون الرحمن آلِهةً يُعبَدُون » .

حَشَرَ أرواحَ الأنبياء — عليهم السلام — ليلةَ الإسراء ، وقيل له — صلى الله عليه وسلم : سَلْهم : هل أمَرْنا أحداً بعبادة غيرنا ؟ فلم يَشُكَّ النبى — صلى الله عليه وسلم — ولم يسأل[1]

ويقال : الخطابُ له ، والمرادُ به غيره . فَمَنْ يرتاب فى ذلك ؟ (ويقال : المراد منه سَلْ أقوامهم ، لكى إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ فى إبرام الحجة عليهم)[2] .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا . . . .

. . . . إذا هم منها يضحكون »

كرَّر قصةَ موسىَ غيرَ مرةٍ فى القرآن ، وأعادَها هنا مجملةً ؛ أرسلناه بدلالتنا ، أرسلناه بحجةٍ ظاهرةٍ قاهرةٍ ، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط ، فقوبل بالهزء والضحك

---

(١) عن ابن عباس أنه قال : « لا أسأل قد اكتفيت » ومنه أيضاً : أنه لم يسأل لأنه كان أعلم بالله منهم .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ص وموجود فى م . والمقصود بها : اسأل مؤمنى أهل الكتابين التوراة والانجيل — وعلى هذا الرأى جمهور من المفسرين منهم مجاهد والضحاك وقتادة .

والتكذيب . ومع أنَّ اللهَ سبحانه لم يُجْرِ عليه من البيِّنات شيئاً إلا كان أوضحَ مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاء أوحَشَ مما قبله . فلمَّا عضَّهم الأمرُ قالوا : يأيها الساحرُ ، ادْعُ لنا ربَّك ليكشف عنَّا البليَّةَ لنؤمنَ بك ، فدعا موسى ... فكشف اللهُ عنهم ، فعادوا إلى كفرهم ، ونقضوا عَهْدَهُم .

قوله جل ذكره : « ونادَى فرعونُ في قومه قال : يا قومِ أليس لي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهارُ تجرى مِنْ تحتى أفلا تُبْصِرون » .

تعزَّزَ بمُلْكِ مصر ، وجَرْى النيل بأمره ! وكان في ذلك هلاكُه ؛ ليُعْلَمَ أنَّ مَنْ تعزَّزَ بشيء من دون الله فحتفُه وهلاكُه في ذلك الشيء .

« أم أنا خيرٌ مِنْ هذا الذى هو مَهِينٌ ولا يكاد يُبين » .

استصغر موسى وحديثَه ، وعابَه بالفقر . . فَسَلَّطه اللهُ عليه ، وكان هلاكه بيديه ، فما استصغر أحدٌ أحداً إلا سَلَّطه اللهُ عليه[1] .

قوله جل ذكره : « فاستخَفَّ قَوْمَهُ فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين »

أطاعوه طاعةَ الرهبة ، وطاعةُ الرهبةِ لا تكون مخلصةً ، وإنما تكون الطاعةُ صادقةً إذا صَدَرَتْ عن الرغبة .

قوله جل ذكره : « فلمَّا آسَفُونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » .

« أسفونا » أغضبونا ، وإنما أراد أغضبوا أولياءنا ، فانتقمنا منهم . وهذا له أصل في باب

---

(١) يحاول القشيرى أن يغمز بأولئك الذين يتعرضون للأولياء والعارفين ، وكيف أن الحق — سبحانه — يتولى عنهم ردَّ كيد الكائدين .

الجمع[1] ؛ حيث أضاف إيسافَهم لأوليائه إلى نَفْسِه . . وفى الخبر : أنه يقول : «مَرِضْتُ فلم تَعُدْنى»[2] .

وقال فى قصة ابراهيم عليه : « يأتوك رجالاً . . » [3]

وقال فى قصة نبيّنا — صلى الله عليه وسلم : « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[4] .

قوله جل ذكره : ولمَّا ضُرِبَ ابنُ مريمَ مَثَلاً إذا قومُكَ منه يَصِدُّون » .

وضَرْبُ المَثَلِ بعيسى هو قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم »[5] ؛ خَلَقَ عيسى بلا أب كما خلق آدم بلا أبوين . فجحدوا بهذه الآية .

وقيل هو قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم »[6] ، فقالوا : رضينا بأن نكون فى النار مع عيسى وعُزَيْرٍ والملائكة ، وليس لهم فى الآية موضع ذِكْرٍ ؛ لأنه سبحانه قال : « وما » تعبدون ، ولم يقل « ومن » تعبدون[7] .

قوله جل ذكره : وقالوا ءالهتُنا خيرٌ أم هُوَ ماضربوه لك إلّا جَدَلاً بل هم قومٌ خَصِمون » .

ما ضربوه لك إلا جدلاً»:وذلك أنهم قالوا : إن قال آلهتكم خيرٌ فقد أقرَّ بأنها معبودة ، وإن قال: عيسى خيرٌ من آلهتكم فقد أقرَّ بأن عيسى يصلح لأن يُعْبد ، وإن قال : ليس واحدٌ منهم

---

(١) عندما يضاف الفعل إلى الحق يكون المعنى منصرفاً إلى حال الجمع ، وعندما ينسب إلى الخلق يكون منصرفاً إلى حال الفرق ، مثلما أوضح القشيرى هنا ، ومثلما أوضح عند قوله تعالى «: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

(٢) أصل الحديث : أنه تعالى يقول : «يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، واستسقيتك فلم تسقنى ، واستطعمتك فلم تطعمنى» القرطبى : ج ٢٠ ، ص ٥٥ .

(٣) آية ٢٧ سورة الحج . والخطاب فى الآية لابرهيم فى مقام الفرق ، ولنبينا فى مقام الجمع .

(٤) آية ٨٠ سورة النساء .

(٥) آية ٥٩ سورة آل عمران .

(٦) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

(٧) لأن «من» للعاقل و«ما» لغير العاقل فالمقصود الأصنام .

خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه السلام . هم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه ، ولم يكن سؤالهم للاستفادة . فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم : أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعبَد ؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام يستحقُ أن يكون معبوداً من دون الله . وهكذا بيّن الله — سبحانه — لنبيّه أنهم قوم جَدِلون[1] ، وأنَّ حُجَتَهم داحضةٌ عند ربهم

قوله جل ذكره « إنْ هُوَ إلَّا عَبْدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل » .

فليس عيسى إلا عبدٌ أنعمنا عليه بالنبوَّة .

« ولو نشاء لَجَعَلْنا منكم ملائكةً فى الأرضِ يَخْلُفُون »

ولو شِئْنا لأنزلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الأرض بَدَلَكم .

ثم قال : « وإنه لَعِلْمٌ للساعةِ فلا تَمْتَرُنَّ بها واتبعونِ هذا صِراطٌ مستقيم »

« وإنه لعِلْمٌ للساعة » : يعنى به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للساعة ، « فلا تمترنَّ » بنزوله بين يدىَ القيامة[2] .

« ولا يَصُدَنَّكم الشيطانُ إنه لكم عدوٌ مبين »

ولا يصدنكم الشيطانُ عن الإيمان بالساعة ، وعن اتّباع الإيمانِ بهُداى .

---

(١) سبب نزول هذه الآية وما سبقها تلك المناظرة التى حاول بها عبد الله بن الزبعرى السهمى أن يستهوى قريشاً بإثارة اعتراضات باطلة ، فأفحمه المنطق القرآنى ، وأخرس لجاجه .

يقول معروف الكرخى : إذا أراد الله بعبده خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل (الروض الفائق ، ج ١ ، ص ١٣٩) .

(٢) عن أبى هريرة — كما ثبت فى صحيح مسلم وابن ماجه — قال قال رسول الله (ص) : ليتزلن عيسى ابن مريم حكماً عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يُسعى إليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » .

قوله جل ذكره : « ولمّا جاء عيسى بالبيناتِ قال قد جئتكم بالحكمة ولأُبيّنَ لكم بعضَ الذى تختلفون فيه فاتقوا اللهَ وأطيعونِ » .

ذكرَ مجيءَ عيسى عليه السلام أول مرة ؛ حيث أتى قومَه بالشرائع الواضحة ، ودعاهم إلى دين الله ، ولكنهم تحزَّبوا عليه[1] ، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة .

« الأَخلاَّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين » .

ما كان لغيرِ اللهِ فمآله إلى الضياع . والأخلاء الذين اصطحبوا عَلَى مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو ؛ يتبرأ بعضُهم من بعضٍ ، فلا ينفع أحدٌ أحداً .

وأمَّا الأخلاء فى الله فيشفع بعضهم فى بعض ، ويتكلم بعضهم فى شأن بعض ، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله : « إلا المتقين » .

وشرط الخلَّة[2] فى الله ؛ ألا يستعمل بعضُهم بعضاً فى الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعضٍ؛ حتى تكونَ الصحبةُ خالصةً لله لا لنصيبٍ فى الدنيا ، ويكون قبولُ بعضهم بعض لأجْلِ الله ، ولا تجرى بينهم مُداهَنَـةٌ ، وبقَدْرِ ما يرى أحدُهم فى صاحبه من قبولٍ لطريقِ اللهِ يقبله ، فإنْ عَلِمَ منه شيئاً لا يرضاه اللهُ لا يَرْضَى ذلك من صاحبه ، فإذا عاد إلى تركه عاد هذا إلى مودته ، وإلّا فلا ينبغى أن يُساعدَه عَلَى معصيته ، كما ينبغى أن يتقيه بقلبه ، وألا يسكنَ إليه لغرضٍ دنيوى أو لطمعٍ أو لِعِوَض .

قوله جل ذكره : « يا عبادِ لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزَنُون » .

يقال لهم غداً : « يا عبادى[3] لا خوفٌ عليكم اليومَ » مما يلقاه أهل

(١) كان تحزبهم إلى فرق متعددة هم : اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية .

(٢) تضاف هذه الآراء إلى ما ذكره القشيرى فى رسالته فى باب « الصحبة » .

(٣) بالياء فى الوصل والوقف مدنى وشامى وأبو عمرو ، وبفتح الياء أبو بكر ، والباقون بحذف الياء .

الجمع[1] من الأهوال ، ولا أنتم تحزنون فيما قصَّرتم من الأعمال …

أمَّا الذنوب . . قد غفرناها ، وأمَّا الأهوال … فكفيناها ، وأمَّا المظالم . . فقضيناها .

فإذا قال المنادى : هذا الخطاب يُطمِعُ الكلَّ قالوا : نحن عباده ، فإذا قال :

« الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين »

أَيِسَ الكفارُ ، وقَوِىَ رجاءُ المسلمين[2] .

قوله جل ذكره : « ادخلوا الجنةَ أنتم وأزواجُكم تُحْبَرُون[3] »

فى رياض الجنة ، وتَرْتَعون .

ويقال : « تحبرون » من لذة السماع .

قوله جل ذكره : « يُطَافُ عليهم بصِحافٍ من ذهبٍ وأكوابٍ وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ وأنتم فيها خالدون » .

العُبَّاد لهم فيها ما تشتهى أنفسهم لأنهم قاسوا فى الدنيا — بحُكم المجاهدات — الجوعَ والعطشَ ، وتحمَّلوا وجُوهَ المشاقِّ ، فيُجازون فى الجنةَ بوجوهٍ من الثواب .

وأمَّا أهل المعرفة والمحبُّون فلهم ما يلذ أعينهم من النظر إلى الله[4] لطول ما قاسوه من فَرْطِ الاشتياق بقلوبهم ؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم .

---

(١) يفسر النسفى أهل الجمع بأنهم أهل مكة (آية ٤٥ سورة القمر) .

(٢) قريبٌ مما ذكره القشيرى ما أورده الحارث المحاسبى فى رعايته : (ينادى المنادى يوم القيامة « يا عبادى لا خوف عليكم اليوم …» فيرفع الخلائق رءوسهم ، ويقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى الثانية : «الذين آمنوا …» ثم ينادى الثالثة : « الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكس أهل الكبائر رءوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم) .

(٣) تحبرون أى تسرون سروراً يظهر حباره (= أثره) على وجوهكم .

(٤) الجنة الحقيقية عند أرباب الأحوال رؤية الله ، وورد فى الخبر : « أسألك لذة النظر إلى وجهك » .

قوله جل ذكره : « وتلك الجنةُ التى أُورِثتمُوها بما كنتمْ تعملون »

أى يقال لهم — والخطاب للمطيعين غداً — : أنتم يا أصحابَ الإخلاص فى أعمالكم ؛ والصدق فى أحوالكم :

« لكم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ منها تأكلون » .

من الفاكهة الكثيرة تأكلون ، وفى الأُنْس تتقلبون .

قوله جل ذكره : « إنَّ المجرمين فى عذاب جهنَّم خالدون » .

هؤلاء هم الكفار المشركون ، فهم أهل الخلود[1] ، لا يُفَتَّرُ عنهم العذاب ولا يُخَفَّف .

وأمَّا أهل التوحيد : فقد يكون منهم قومٌ فى النار . ولكن لا يخلدون فيها . ودليلُ الخطابِ يقتضى أنه يُفَتَّرُ عنهم العذاب . ورد فى الخبر الصحيح : أنه يُميتهم الحقُّ — سبحانه — إماتةً إلى أن يُخرِجَهم من النار — والميت لايحسُّ ولا يتألم[2] .

« لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبْلِسُون » .

الإبلاس[3] من الخيبة ، ويدل ذلك عَلَى أن المؤمنين لا يأس لهم فيها ، وإن كانوا فى بلائهم فهم عَلَى وصف رجائهم ؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهى حسابهم .

ولقد قال الشيوخ : إنَّ حالَ المؤمن فى النار — من وجهٍ — أَرْوَحُ لقلبه من حاله فى الدنيا ؛ فاليومَ — خوفُ الهلاكِ ، وغداً — يقينُ النجاة ، وأنشدوا :

عيبُ السلامةِ أنَّ صاحبَها متوقِّعٌ لقواصمِ الظَّهْرِ
وفضيلةُ البلوى تَرَقُّبُ أهلِها — عقبَ الرجاء — مودةَ الدهرِ

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى أبدية النار ، على خلاف ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن القوة الجسمانية متناهية فلا يقوى على فنائها ، ولأن دوام الإحراق مع بقاء الحياة خروج عن حكم العقل (انظر شرح المواقف ، جـ ٨ ، ص ٣٠٧ وشرح المقاصد ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٢) روى أحمد فى مسنده : « .. أماتهم إماتةً حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة . أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة .. » .

(٣) أبلس : سكت لحيرته وانقطاع حجته .

قوله جل ذكره : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين »

هذا الخطاب يُشْبِهُ كلمة العُذْر — وإنْ جلّ قَدْرُه — سبحانه — عن ذلك .

قوله جل ذكره : « ونادوا يا مالِكُ ليَقْضِ علينا ربُّكَ
قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحقِّ
ولكنَّ أكثركم للحقِّ كارِهون » .

لو قالوا : « يا مَالِك » لعلّ أقوالَهم[1] كانت أقربَ إلى الإجابة ، ولكنَّ الأجنبيةَ حالت بينهم وبين ذلك[2] ، فكان الجوابُ عليهم :

« إنكم ما كثون » فيها . . نُصِحتُم فلم تنتصحوا ، ولم تقبلوا القولَ فى حينه ، وكان أكثرهم للحق كارهين .

قوله جل ذكره : « أم أبرَموا أمراً فإنّا مُبرِمون »[3]

بل أمورُهم مُنْتَقَضةٌ عليهم ؛ فلا يتمشّى لهم شىء مما دبّروه ، ولا يرتفع لهم أمرٌ عَلَى نحو ما قدّروه — وهذه الحالُ أوضحُ دليل عَلَى إثبات الصانع .

قوله جل ذكره : « أم يَحْسَبون أنّا لا نَسْمَعُ سِرّهم
ونجواهم بلى ورُسُلُنا لديهم يكتبون » .

إنما خوّفهم بسماع الملَكَ ، وبكتابتهم أعمالَهم عليهم لغفلتهم عن الله — سبحانه ، ولو كان لهم خبرٌ عن الله لما خوّفهم بغير الله ، ومَنْ عَلِمَ أنَّ أعمالَه تُكْتَبُ عليه ، وأنه يُطَالَبُ بمقتضى ذلك — قَلّ إلمامُه بما يخاف أنْ يُسْأَلَ عنه . .

قوله جل ذكره : « قُلْ إن كان للرحمٰن وَلَدٌ فأنا أوّلُ
العابدين » .

---

(١) فى ص (أموالكم) وقد آثرنا عليها (أقوالكم) التى فى م كما يتضح من السياق القرآنى والسياق التفسيرى .

(٢) يلفت القشيرى نظرنا — من بعيد — إلى أن الدعاء ينبغى أن يتجه بالكلية إلى الرب سبحانه ،وقد يكون لذلك أهميته فى فكرة الاستشفاع بالوسيلة — كما يتصورها هذا الإمام.

(٣) يقال إن الآية نزلت فى تدبير الكائدين المكر بالنبى (ص) فى دار الندوة حين استقر أمرهم — حسب مشورة أبى جهل — على أن يبرز من كل قبيلة رجل ، ثم يشتركون فى قتله فتضعف المطالبة بدمه صلوات الله عليه . وكانت النتيجة أن قتلوا جميعاً يوم بدر .

أى إنْ كان فى ضميركم وفى حُكْمِكم وفى اعتقادكم أنَّ للرحمن ولداً فأنا أوّلُ مَنْ يستنكِفُ من هذه المقالة .

قوله جل ذكره : « سبحان ربِّ السمواتِ والأرضِ ربِّ العرشِ عمَّا يَصِفون » .

تنزَّه الله تنزيهاً ، وتقدَّس تقديساً عمّا قالوه . وفى هذه الآيات وأمثالها دليلٌ على جوازِ حكاية قول المبتدعة — فيما أخطأوا فيه من وصف المعبود — قصداً للردِّ عليهم ، وإخباراً بتقبيح أقوالهم ، وبطلانِ مزاعمهم .

ثم قال جلَّ ذكره :« فَذَرْهُمْ يخوضوا ويلعبوا حتى يُلاقوا يومَهم الذى يُوعَدون » .

إذ ليس يفوت أمرُهم ، وهم لا محالةَ سيلقون صغرهم .

وفى هذا دليلٌ على أنه لا ينبغى للعبد أن يَغْتَرَّ بطول السلامة فإنَّ العواقبَ غيرُ مأمونة .

قوله جل ذكره « وهو الذى فى السماء إلهٌ وفى الأرضِ إلهٌ وهو الحكيمُ العليمُ» .

المعبودُ — فى السماء — اللهُ ، والمقصودُ — فى طلب الحوائج فى الأرضِ — اللهُ .

أهلُ السماءِ لا يعبدون غيرَ الله ، وأهل الأرضِ لا يَقْضِى حوائجَهم غيرُ الله .

« وهو الحكيم » فى إمهالِه للعُصاة ، « العليم » بأحوالِ العِباد .

« وتباركَ الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وعنده علمُ الساعةِ وإليه تُرْجَعون » .

تعالى وتقدَّس وتنزَّه وتكبَّرَ الذى له مُلْكُ السمواتِ والأرض .

السمواتُ والأرضُ بقدرته تظهر . . لا هو بظهورها يتعزَّز[1] .

---

(١) الصوفية يستدلون بالخالق على ما خلق ، لأنه حاضر ومشهود ، وهو قديم قامت به الحادثات ... يقول ابن عطاء الله السكندرى : « متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك ؟ »

قوله جل ذكره : « ولا يملك الذين يَدْعون من دونه الشفاعةَ إلا مَن شهِدَ بالحقِّ وهم يعلمون » .

أي شهد — اليوم — بالتوحيد ، فيثبت له الحقُّ حقَّ الشفاعة . وفى الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة(١) .

قوله جل ذكره : « ولَئِن سألْتَهم مَنْ خَلَقَهم ليقولُنَّ اللهُ فأنَّى يُؤْفَكون » .

فكيف لا يعتبرون ؟ وكيف يتكبَّرون عن طاعة الله .

« وقِيلِه يارَبِّ إنَّ هؤلاء قومٌ لا يؤمنون * فاصفحْ عنهم وقُلْ سلامٌ فسوف يَعْلَمون »

أي يعلم علمَ الساعة ويعلم(٢) « قيلَه يارب »

« فاصفح عنهم . . » أي أَمْهِلْهُم ، وقل لكم منى سلامٌ ... ولكن سوف تعلمون عقوبة ما تستوجبون .

---

(١) واضح أن القشيرى يصرف الآية إلى المسلمين عامة ويخرج المشركين ،وتذهب بعض التفاسير إلى أن معنى « الذين من دونه » هم عيسى وعزير والملائكة ، فهم لا يملكون الشفاعة .

(٢) عاصم وحمزة يجران (قيلِه) على الإضافة وعنده علم الساعة وعلم قيله يارب ، والسبعة على النصب: ويعلم قيلَه ...

سورة الدخان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ ذَكَرَها نال فى الدنيا والعُقْبى بهجتَه ، ومَنْ عَرَفَها بَذَلَ فى طلبها مُهْجَتَه .

كلمةٌ إذا استولت على قلبٍ عطَّلَته عن كلِّ شُغْل ، كلمةٌ إذا واظَبَ على ذِكْرِها عبْد أَمَّنَتْهُ من كلِّ هَوْل .

قوله جل ذكره : « حم * والكتابِ المبين »

الحاء تشير إلى حقِّه ؛ والميم تشير إلى محبته . ومعناه : بحقى وبمحبتى لعبادى ، وبكتابى العزيز إليهم : إنِّى لا أُعذِّبُ أهلَ معرفتى بفرقتى[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلناه فى ليلةٍ مباركةٍ إنَّا كُنَّا مُنذِرين * فيها يُفرَقُ كُلُّ أمرٍ حكيم »

« فى ليلة مباركة » : قيل هى ليلة القَدْر ، وقيل هى النصف من شعبان وهى ليلة الصَّك[2] .

أَنْزَلَ القرآنَ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كلَّ سَنَةٍ بمقدار ما كان جبريلُ ينزل به على الرسول صلى الله عليه وسلم[3] .

وسمَّاها : « ليلة مباركة » لأنها ليلة افتتاح الوصلة . وأشدُّ الليالى بركةً ليلةٌ يكون العبدُ فيها حاضراً بقلبه ، مشاهداً لربِّه ، يَتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة ، ويجد فيها نسيم القربة .

---

(١) يبدو أن القشيرى لم يعتبر « إنا أنزلناه... » جواباً للقسم ، وإلى هذا يذهب بعض النحاة الذين يعتبرون ذلك صفةً للمُقْسَم به ، ولا تكون صفة المُقْسَمِ به جواباً للقسم (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١٦ ص ١٢٥) .

(٢) من أسماء هذه الليلة : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصك .

(٣) أى على مدى ثلاث وعشرين سنةً .

وأحوال هذه الطائفة[١] فى لياليهم مختلفة ، كما قالوا:

لا أظلِمُ الليـــلَ ولا أدَّعى أنَّ نجومَ الليل ليست تزولُ

لَيلِى كما شاءت : قصيرٌ إذا جادَتْ ، وإنْ ضنَّتْ فَلَيْلِى طويلُ

« فيها يفرق كل أمرٍ حكيم » يكتب من أمِّ الكتاب فى هذه الليلة ما يحصل فى السنة كلِّها من أقسام الحوادث فى الخير والشرِّ ، فى المحن والمِنَنِ ، فى النصر والهزيمة ،فى الخصب والقحط .

ولهؤلاء القوم (يعنى الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجدب ، والوصل والفصل ، والوفاق والخلاف ، والتوفيق والخذلان ، والقبض والبسط . . فكم مِنْ عبدٍ ينزل له الحكم والقضاء بالبُعْدِ والشقاء ، وآخر ينزل حكمه بالرِّفد والوفاء .

قوله جل ذكره : « أمْراً من عندنا إنَّا كُنَّا مُرْسِلين *
رحمةً من ربِّكَ إنه هو السميعُ العليم » .

« رحمة من ربك » : وهى الرسولُ — صلى الله عليه وسلم ، قال صلوات الله عليه : « أنا رحمة مهداة »

ويقال : « إنا كنا مرسلين » رحمةً لنفوسُ أوليائنا بالتوفيق ، ولقلوبهم بالتحقيق .

« إنه هو السميع العليم » : « السميع » لأنين المشتاقين ، « العليم » بحنين المحبين .

قوله جل ذكره : « ربِّ السمٰوات والأرضِ وما بينهما
إن كنتم موقنين »

مالك السمٰوات والأرضين ، ومالك ما بينهما — وتدخل فى ذلك أكسابُ العباد . وتَملُّكُها بمعنى القدرة عليها ، وإذا حَصَلَ مقدورٌ فى الوجود دَلَّ على أنه مفعولُه ؛ لأن معنى الفعل مقدورٌ وجِدَ[٢] .

---

(١) يقصد طائفة الصوفية .

(٢) لاحظ كيف يحاول القشيرى أن يدخل فى « وما بينهما » أفعالَ العباد ، فحتى أكساب العباد — فى نظر هذا المتكلم داخلةٌ — من حيث هى مقدورة — فى نطاق الخَلْق المنسوب إلى الله .

قوله جل ذكره « لا إله إلا هو يحى ويميتُ ربُّكم وربُّ آبائِكم الأولين »

هذه الكلمة فيها نَفْىُ ما أثبتوه بجهلهم ، وإثباتُ ما نَفَوْه بجحدهم .

« ربكم ورب آبائكم الأولين » : مُرَبِّى(١) أصلَكم ونَسْلَكُمْ .

قوله جل ذكره : « بل هم فى شكٍّ يلعبون »

اللَّعِبُ فِعْلٌ يجرى على غير ترتيبٍ تشبيهاً باللُّعاب الذى يسيل لا(٢) على نظام مخصوص ؛ فوَصَفَ المنافقَ باللَّعبِ ؛ وذلك لتردُّدِه وتحيُّرِه نتيجةَ شكِّه فى عقيدته .

قوله جل ذكره : « فارتقِبْ يومَ تأتى السماءُ بدُخَانٍ مبين » .

هذا من أشراط الساعة ؛ إذ يتقدم عليها(٣) .

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجَّلة (أى تتم هنا فى هذه الدنيا) فيومُهم الذى تأتى السماء فيه بدخان مبين هو يومُ غيبةِ الأحباب ، وانسدادِ ما كان مفتوحاً من الأبواب ، أبوابِ الأُنسِ بالأحباب وفى معناه قالوا :

فما جانبُ الدنيا بسَهْلٍ ولا الضُّحى بطَلْقٍ ولا ماءُ الحياةِ ببارِدِ

قوله جل ذكره : « يَغْشَى الناسَ هذا عذابٌ أليم » .

---

(١) لاحظ كيف يربط القشيرى بين « التربية » و « الرب » .

(٢) سقطت (لا) من ص .. وهى ضرورية كما هو واضح من السياق ، وهى موجودة فى م ، ولا تخفى على القارىء روعة الربط بين « اللعب » و « اللعاب » ، ومدى السخرية من دماغ المنافق وقد ماثلت فماً تتحرك فيه الشكوكُ تحرُّكَ اللعاب .

(٣) هناك اتجاهان فى معنى « الدخان » فى هذه الآية : أحدهما أنه — كما يذكر القشيرى أنه من أشراط الساعة ، خَرَّجَ الثعلبى من حذيفة أنه سأل النبى (ص) : « يا نبى الله ، ما الدخان فى هذه الآية ؟ فقال : هو دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين ليلة ويوماً ، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأمَّا الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره » . وأما الاتجاه الثانى فهو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبى عليهم ، وقد كشفه الله عنهم . ويؤيد ابن مسعود هذا القول الثانى بهذا الكشف ، لأنه لو كان قبل يوم القيامة ما كشفه اللهُ عن الناس .

وعذابُ هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيمٌ في الغالب ، وهو عذابٌ مُستَعذَبٌ ، أولئك يقولون :

« ربَّنا اكْشِفْ عنَّا العذابَ إنَّا مؤمِنون »

وهؤلاء يستزيدون — على العكس من الخلق — العذابَ ، وفي ذلك يقول قائلهم :

فكلُّ مآربي قد نِلْتُ منها سوى ملذوذِ وجدى بالعذاب[1]

فهم يسألون البلاءَ والخلقُ يستكشفونه ، ويقولون :

أنت البلاءُ فكيف أرجو كَشْفَه

إنَّ البلاءَ إذا فَقَدْتُ بلائى

قوله جل ذكره : « أنَّى لهم الذكرى وقد جاءَهم رسولٌ مبين »

إنْ خالفوا دواعى قلوبهم من الخواطر[2] التى تَرِدُ من الحقِّ عليهم عوقبوا — فى الوقت بما لا يَتَّسِعُ لهم ويُسْعِفهم ، فإذا أخذوا فى الاستغاثة[3] يقال لهم : أنَّى لكم الذكرى وقد جاءكم الرسول[4] على قلوبكم فخالفتم ؟ !

قوله جل ذكره : « إنَّا كاشفو العذابِ قليلاً إنَّكم عائدون * يومَ نَبْطِشُ البطشةَ الكبرى إنَّا منتقِمون » .

---

(١) البيت للحلاج مسبوق بهذا البيت :

أريدك ، لا أريدك للثواب ولكنى أريدك للعقاب

(ديوان الحلاج المقطعة السابعة)

(٢) الخواطر من الحق ، والهواجس والوساوس من الشيطان .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (الاستعانة) وكلاهما مقبول فى السياق .

(٤) الرسول هنا — لأن الحديث هنا عن الصوفية — مقصود به ما يَرِدُ على قلوبهم من لدن الحقّ من الكشوفات والمواصلات

حيث نورثكم حزنا طويلا ، ولا تجدون فى ظلال انتقامنا مقيلا .

قوله جل ذكره : ولقد فَتَنَّا قبلَهم قومَ فرعونَ وجاءهم رسولٌ كريم * أن أدُّوا إلىَّ عِبَادَ اللهِ إنِّى لكم رسولٌ أمين » .

فَتَنَهم(١) بعد ما أَصَرُّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشد من نفرة عنودهم(٢)

« وجاءهم رسول كريم » : يطالبهم بإزالة الظلم عن بنى إسرائيل ، وأن يستبصروا ، واستنفرهم لله ، وأظهر الحُجَّةَ من قِبَلِ الله .

« فأَسْرِ بعبادى ليلاً إنكم مُتَّبَعون » .

أمَرَه بأن يَسْرِىَ بعباده المؤمنين ، وعرَّفهم أنهم سيُنقَذون ، وأنَّ عدوَّهم « جُنْدٌ مُغْرَقون »

قوله جل ذكره : « كم تركوا من جنَّاتٍ وعيون * وزروعٍ ومقامٍ كريم * ونعمةٍ كانوا فيها فَكِهين » .

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم ، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم .

« كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

وأسكَنَّا قوماً آخرين فى منازلهم ودورهم .

قوله جل ذكره . « فما بَكَتْ عليهم السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظَرين » .

لم يكن لهم من القَدْرِ والخطَرِ ما يتحرك فى العالَم بسببهم ساكنٌ ، أو يسكن متحركٌ

---

(١) هكذا فى ص وهى مقبولة فى السياق إشارة إلى ما فى الآية الكريمة : « ولقد فتنا . . . » أما فى م فهى (فثبتهم) وواضح فيها خطأ الناسخ .

(٢) نفر الجلد : وَرِمَ وتجافى عن اللحم ، ونفرت المرأة من زوجها : أعرضت وصدّت ، ونفر من الشىء : فزع منه وانقبض غير راض به .

ولا الخضراء بسببهم اغبرّتْ ، ولا الغبراء لغيبتهم اخضَرّتْ. لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثر ، ولم يظهر مِنْ فِبَلِهم على قلبِ أحدٍ من عبادِنا أثَر . وكيف تبكى السماءُ لَفقْدِ من لم تستبشر به مِنْ قَبْلُ ؟ بعكس المؤمن الذى تُسَرُّ السماء بصعودِ عمله إليها ، فإنها تبكى عند غيابه وفَقْدِه[1] .

قوله جل ذكره : ولقد نَجَّيْنَا بنى إسرائيلَ من العذابِ المُهِين * من فرعون إنَّه كان عالياً من المُسْرفين * ولقد اخترناهم على عِلْمٍ على العالَمين » .

نجَّاهم ، وأفنى عدوَّهم ، وأهلكه .

« ولقد اخترناهم . . . » أى عَلِمنا ما يحتقبون من أوزارهم[2] ، فرفعنا — باختيارنا — من أقدارِهم ما وَضَعَه فِعْلُهم وتدنسُّهم بأوضارهم .

ويقال : « على عِلمٍ منا » بأحوالهم أنهم يُؤْثِرون أمرَنا على كل شىء

ويقال : « على علمٍ منا » بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا .

ويقال : « على علم منا » بما نودع عندهم من أسرارنا ، وما نكاشفهم به من حقائق حقّنا .

قوله جل ذكره : « وآتيناهم من الآياتِ ما فيه بلاءٌ مبين »

من مطالبته بالشكر عند الرخاء ، والصبر عند الكَدَرِ والعناء[3] .

قوله جل ذكره : إن هؤلاء ليقولون * إن هى إلا مَوْتَتُنا

---

(١) عن شريح الحضرمى : قال النبى (ص) : « ألا لا غربة على مؤمن ، فما مات مؤمن فى غربة غائباً عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » .

(٢) فى ص (إقدارهم) والسياق يرفضها ، والصواب ما فى م .

(٣) لأن البلاء يكون بالنعمة والنقمة ، قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

الأولى ومانحن بمُنْشَرِين * فأْتوا
بآبائِنا إن كنتم صادقين » .

اقترح أبو جهلٍ على النبي — صلى الله عليه وسلم — أن يحييَ لهم نَفْسًا[1]:
« لتخبرنا : هل أنت صادق أم لا ؟ » فأخبر الله — سبحانه — أنهم اقترحوا هذا بعد قيام الحُجَّةِ عليهم،وإظهار ماأزاح لهم من العُذْر : ثم قال جلَّ ذكره :

أهم خيرٌ أم قومُ تُبَّعٍ والذين مِن قبْلِهم
أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين * وما خَلَقْنا
السمٰوات والأرضَ ومابينهما لاعبين*ماخلقناهما
إلا بالحقِّ ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

« تُبّع » هو ملك اليمن ، وكان مسلمًا ، وكان في قومه كثرة ، وأهلك الله سبحانه قومَه على كثرة عددهم ، وكمال قُوَّتِهم .

قوله جل ذكره : « وماخَلَقْنا السمٰوات والأرض . »

ما خلقناهما إلا بالحقِّ ، بالحُكْمِ الحقِّ ؛ وبالأمرِ الحقِّ ... « فأنا مُحِقٌّ في خَلْقِهما » : أي كان لي خَلْقُهما .

قوله جل ذكره :«إنَّ يومَ الفَصْل ميقاتُهم أجمعين * يومَ
لا يُغْنِي مولىً عن مولىً شيئًا ولا هم
يُنصرون * إلا مَن رَحِمَ اللهُ إنه هو
العزيزُ الرحيم »

---

(1) حدّد أبو جهل ذلك حين قال النبي: إبعث لنا — إن كنت صادقاً — رجلا مثل قصيّ بن كلاب لنسأله عمّا يكون بعد الموت .

وهذا القول من أبي جهل فيه ضعف ؛ لأن البعث يكون للجزاء لا التكليف .

يومئذٍ لا يُغنى ناصرٌ عن ناصر ولاحميمٌ عن حميم ، ولا نسيبٌ عن نسيبٍ . . شيئاً . ولا ينالهم نصرٌ إلا من رَحِمَه الله ؛ وبفَضْلِهِ ونِعْمته .

قوله جل ذكره : « إنَّ شجرة الزَّقوم * طعامُ الأثيم * كالمُهْلِ يغلى فى البطون * كَغَلْىِ الحميم » .

« الأثيم » مرتكبُ الذنوب . « المهل » : النحاس المذاب . « الحميم » : الماء الحار .

قوله جل ذكره : « خُذُوه فاعتِلوه إلى سواءِ الجحيم * ثم صُبُّوا فوقَ رأسِه من عذاب الحميم » .

ادفعوا به إلى وسط الجحيم . ويقال له :

« ذُقْ إنك أنت العزيزُ الكريم » :

أنت كذلك عند قومك ، ولكنك عندنا ذليلٌ مَهِينٌ .

قوله جل ذكره : « إن المتقين فى مقامٍ أمين * فى جناتٍ وعيون» .

آمنين من المحن من جميع الوجوه ، لباسُهم من حرير ، وفراشُهم من سندسٍ وإستبرق ، « متقابلين » : لا يبرحون ولا يبغون عنها حِوَلاً .

قوله جل ذكره : « كذلك وزَوَّجْناهم بحورٍ عين » .

تباح لهم صُحْبَتُهن ، ولا يكون فى الجنة عقد تزويج ولا طلاقٌ ، ويمكّن الولىُّ بهذه الأوصاف من هذه الألطاف . ثم قد يُخْتطفُ قومٌ من بين هذه الأسباب ، فيتحررون عن هذه الجملة ؛ فكما أنهم فى الدنيا مُختطَفون عن كلِّ العلائق فإنهم فى الآخرة تطمع الحورُ العينُ فى صحبتهم فيستلبهم الحقُّ عن كلِّ شىء . (1)

(1) الصوفية الخُلَّص يعبدون الله لا طمعاً فى جنة ولا خوفاً من عذاب ، فرؤيةُ الله جنتهم ، واحتجابُه عنهم جهنمهم الكبرى . ومبعث ذلك أنهم يحبون الله لِذاته ، وفى ذلك يقول قائلهم :

إن ذا الحب لمن يفنى له   لا لدارٍ ذات لهوٍ وطُرَف
لا ولا الفردوس - لا يألفها   لا ولا الحوراء من فوق غرف

الزاهدُ فى الدنيا يحميه منها ، والعارفُ فى الجنة يحميه من الجنة .

قوله جل ذكره : « لا يذوقون فيها الموتَ إلا الموتةَ الأولى ووقاهم عذابَ الجحيم » .

الموتة الأولى هى بقبض أرواحهم فى الدنيا ، ويقيهم الله فى الآخرة العذابَ بفضله ، وذلك هو الظَّفَرُ بالبغية ، ونجاح السُّؤل .

قوله جل ذكره : « فإنما يسرناه بلسانك . . » .

يامحمد ، ليتذكر به أهلُك ، فارتقِبْ العواقبَ تَرَ العجائب. إنهم يرتقبون ، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون .

سورة الجاثية

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » باسم مَلِكٍ لا يستظهر بجيشه، أحدٍ لا يستمسك بعيشه[1]، جبارٍ ارتدى بكبريائه، قهّارٍ اتصف بعزِّ سنائه.

« بسم الله » باسم كريمٍ صمَد، لا يستغرقُ وجودَه أمَد، أبديٌّ عظيمٍ أحَد، لا يوجَدُ من دونه مَفَرٌّ ولا ملتحد.

قوله جل ذكره: « حم * تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم ».

« العزيز »: فى جلاله، « الحكيم »: فى أفعاله.

« العزيز »: فى آزاله، « الحكيم »: فى لطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله جل ذكره: « إنَّ فى السمواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين ».

شواهد الربوبية لائحةٌ، وأدلةُ الإلهية واضحةٌ؛ فَمَنْ صحا مِنْ سَكْرَةِ الغفلة، ووضع سِرَّه فى محالِّ العِبْرة[2] حَظِىَ — لا محالةَ — بحقائق الوصلة.

قوله جل ذكره: « وفى خَلْقِكم وما يَبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لقومٍ يوقِنون ».

---

(1) هكذا فى ص، وفى م. ولو صح أنها هكذا عن القشيرى فربما كان قصده أن الله سبحانه — حى بدون عوامل استمساك تثبت هذه الحياة .. فهو حى لا بسبب أو عارض لأنه لا يفتقر إلى ذلك، أما المحدث فإنه يعتمد فى حياته على ما يحفظ حياته، وتزول هذه الحياة بزوال عوامل هذا الحفظ.

(2) هكذا فى م وهى فى ص (بعزه) ونحن نؤثر الأولى لملاءمة الاعتبار لسياق التدبر فى المخلوقات.

إذا أتم العبدُ نَظَرَه فى استواء قدِّه وقامته ، واستكمال عقله وتمام تمييزه ، وماهو مخصوص به فى جوارحه وحوائجه ، ثم فكَّرَ فيما عداه من الدواب ؛ فى أجزائها وأعضائها . . ثم وقف على اختصاص وامتياز بنى آدم من بين البريَّة من الحيوانات فى الفهم والعقل والتمييز والعلم ، ثم فى الإيمان والعرفان ووجوهِ خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة فى فنون الإحسان — عرَفَ تخصُّصَهم بمناقبهم ، وانفرادَهم بفضائلهم ، فاستيقن أن الله كرَّمهم ، وعلى كثيرٍ من المخلوقات قدَّمَهم .

قوله جل ذكره : « واختلافِ الليلِ والنهارِ وما أنزل
اللهُ من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرضَ
بعد موتِها وتصريفِ الرياحِ آياتٌ
لقومٍ يعقِلون » .

جَعَلَ اللهُ العلومَ الدينيةَ كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل ، مُحَقَّقَةً بالشواهد . فَمَنْ لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُه عن الصراط المستقيم[1] ، ووقع فى عذاب الجحيم ؛ فاليومَ فى ظلمة الحيرة والتقليد ، وفى الآخرة فى التخليد فى الوعيد .

قوله جل ذكره : « تلك آياتُ اللهِ نتلوها عليكَ بالحقِّ
فبأىِّ حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون ؟ »

فمَنْ لا يؤمن بها فبأى حديثٍ يؤمن ؟ ومن أى أصل يستمد بعده ؟ ومن أى بَحْرٍ فى التحقيق يغترف ؟ هيهات ! ما بقى للإشكال فى هذا مجال .

قوله جل ذكره : وَيلٌ لكلِّ أفَّاكٍ أثيم * يسمعُ آياتِ
الله تُتْلَى عليه ثم يُصِرُّ مُستكبِراً
كأن لم يسمعها فبشِّرْه بعذابٍ أليم » .

---

(١) فى هذا ردٌّ على من يزعمون أن الصوفية يتنكرون للعلوم الكسبية ؛ فهى كما هو واضح ذات أهمية قصوى فى تثبيت الإيمان . هذا فى الوقت الذى يقر القشيرى بالعلوم الوهبية كما يتضح من الهامش رقم (٢) فى الصفحة التالية .

كلٌّ صامتٍ ناطقٌ؛ يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان فى الحكم[1] .

فمَن استمع بسمع الفهم ، واستبصر بنور التوحيد فاز بذُخْرِ الدارين ، وتصدَّى لعِزِّ المنزلين . ومَنْ تصامم بحكم الغفلة وقع فى وهدة الجهل ، ووُسِم بكَيِّ الهَجْر .

قوله جل ذكره : « وإذا علِمَ من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُوًا أولئك لهم عذابٌ مُهين » .

قابله بالعناد ، وتأوَّله عَلَى ما يقع له من وجوه المراد مِنْ دون تصحيحٍ بإسناد ... فهؤلاء « لهم عذاب مهين » : مُذِلٌّ .

وقد يُكاشَفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفاتٍ لا يتداخله فيها ريبٌ ، ولا يتخالجه منها شكٌّ فيما هو به من حاله ... فإذا استهان بها وقع فى ذُلِّ الحجبة وهوانِ الفرقة[2] .

قوله جل ذكره : « مِن وَرائهم جَهَنَّمُ ولا يُغْنى عنهم ما كَسَبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذابٌ عظيم » .

فعند هذه الفترة ، وفى وقت هذه المحنة فلا عُذْرَ يُقْبَلُ منهم ، ولا خطابَ يُسْمَعُ عنهم ، ولهم عذابٌ متصل ، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف :

فَخَلِّ سيلَ العينِ بعدك للبكا ... فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى سَخَّرَ لكم البحرَ لتجرىَ الفُلْكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فَضْله ولعلَّكم تَشْكرون » .

عندما يركبون البحر فلربما تَسْلَمُ السفينةُ ولربما تغرق .

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى أن كل شىء ناطق بالوحدانية .. إما نطق قالة — كما فى حال الإنسان ، وإما نطق دلالة — كما فى حال الجمادات .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى العلوم الوهبية ، وضرورة اعتبارها رافداً هاماً من روافد الإيمان الكشفى والتوحيد الشهودى .

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير، تمشي به رياح العناية، وأشرعةُ التوكل مرفوعةٌ، والسُّبُلُ في بحر اليقين واضحة. وطالما تهب رياحُ السلامة فالسفينةُ ناجيةٌ. أمَّا إنْ هبَّت نكباتُ الفتنةِ فعندئذٍ لا يبقى بيد الملاَّحِ شيء، والمقاديرُ غالبةٌ، وسرعان ما تبلغ قلوبُ أهلِ السفينةِ الحناجرَ.

قوله جل ذكره: «وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون».

«جميعاً منه»: كلُّ ما خَلَقَ من وجوه الانتفاع بها - كلُّه منه سبحانه؛ فما من شيءٍ من الأعيان الظاهرة إلا - ومن وجه - للانسان به انتفاع.. وكلها منه سبحانه؛ فالسماء لهم بناء، والأرضُ لهم مهاد.. إلى غير ذلك. ومِنَ الغَبْنِ أن يستسخرك ما هو مُسَخَّرٌ لك![1] وليتأمل العبدُ كلَّ شيء.. كيف إنْ كان خَلَلٌ في شيء منها ماذا يمكن أن يكون؟! فلولا الشمسُ.. كيف كان يمكن أن يتصرَّف في النهار؟[2] ولو لم يكن الليلُ كيف كان يسكن بالليل؟ ولو لم يكن القمر.. كيف كان يهتدى إلى الحساب والآجال؟... إلى غير ذلك من جميع المخلوقات.

قوله جل ذكره: «قل للذين آمنوا يَغْفِروا للذين لا يَرْجُون أيامَ اللهِ ليَجزِيَ قوماً بما كانوا يكسبون»[3].

نَدَبَهم إلى حُسْنِ الخُلُق، وجميلِ العِشْرة، والتجاوزِ عن الجهل، والتنقي من كدورات البشرية. ومقتضياتِ الشُّحِّ.

---

(1) هذا الكلام ينصرف إلى الدنيا بأسرها.. فلا ينبغي أن يسترقك ما هو هبة لك.

(2) بحثاً عن معاشه.

(3) يقال إن الآية نزلت بسبب أن رجلاً من قريش شتم عمر بن الخطاب فهَمَّ أن يبطش به. ويقال نزلت في عمر حينما أراد أن يبطش بغلام عبد الله بن أبيّ حين ذهب ليستقي لسنه حتى ملئت قرب النبي وقرب أبي بكر، فلما بلغ ذلك عبد الله قال: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك، فلما بلغ عمر ذلك اشتمل سيفه وأراد التوجه لقتله، فأنزل الله هذه الآية.

وَبيَّنَ أنَّ اللهَ — سبحانه — لا يفوته أحدٌ . فَمَنْ أراد أنْ يعرفَ كيف يحفظ أولياءَه ، وكيف يُدَمِّر أعداءَه . فَلْيَصبِرْ أياماً قلائلَ ليَعْلَمَ كيف صارت عواقبُهم .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صالحاً فلِنَفْسِه ومَنْ أساءَ فعليها ثم إلى ربِّكم تُرْجَعون »

مَنْ عَمِلَ صالحاً فله مَهْناه ، ومن ارتكب سيئةً قاسى بلواه .. ثم مرجعه إلى مولاه .

قوله جل ذكراه : « ولقد آتينا بنى إسرائيلَ الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ ورزقناهم من الطيباتِ وفضَّلناهم على العالَمين » .

كَرَّر فى غير موضعٍ ذِكْرَ موسى وذِكْرَ بنى إسرائيل .. بعضه على الجملة وبعضه على التفصيل . وهنا أجْمَلَ فى هذا الموضع ، ثم عقبه حديث نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« ثم جعلناكَ على شريعةٍ من الأمرِ فاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يَعْلمون »

أفردناك بلطائفَ فاعرفْها ، وسَنَنَّا لكَ طرائقَ فاسلُكْها ، وأثبتنا لك حقائقَ فلا تتجاوزْها ، ولا تجنحْ إلى متابعة غيرك :

« إنَّهم لن يُغْنُوا عنكَ من الله شيئا .. »

إنْ أرادَ بكَ نعمةً فلا يمنعها أحدٌ ، وإن أراد بك فتنةً فلا يَصْرِفها عنك أحدٌ . فلا تُعَلِّقْ بمخلوقٍ فكْرَك ، ولا تتوجهْ بضميرك إلى شىء ، وثِقْ بربِّك ، وتوكَّلْ عليه .

قوله جل ذكره : «هذا بصائرُ للناس وهدىً ورحمةٌ لقومٍ يوقِنون » .

أنوارُ البصيرةِ إذا تلألأت انكشفت دونها بهمةُ التجوز .

ونَظَرُ الناسِ على مراتب(١) : فَمِنْ ناظرٍ بنور نجومه(٢) — وهو صاحب عقل ،

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مراكب) بكاف وهى خطأ من الناسخ

(٢) « « « « « « (وماهو) وهى خطأ من الناسخ .

ومن ناظرٍ بنور فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقَوِّيه لَوْحٌ — ولكنه من وراء السِّرِّ[1] ، ومن ناظرٍ بيقين عِلْمٍ بحكم برهانٍ وشَرْطِ فكرٍ ، ومِنْ ناظرٍ بعين إيمان بوصف اتِّباع ، ومن ناظرٍ بنور بصيرةٍ هو على نهارٍ ، وشمسُه طالعة وسماؤه من السحاب[2] مصحية[3] .

قوله جل ذكره : « أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ
أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات
سواء محياهم ومماتهم ساء ما يَحْكُمون » .

أَمَنْ خفضناه فى حضيض الضَّعةِ كَمَنْ رفعناه إلى أعالى المَنَصَّة ؟

أَمَنْ أخذنا بيده ورحمناه كَمَنْ داسَه الخذلانُ فرجمناه ؟

أَمَنْ وهبناه بَسْطَ وقتٍ وأُنْسَ حالٍ ورَوْحَ لُطْفٍ حتى خَصَصْناه ورَقَّيْناه ، ثم قَرَّبْناه وأَدْنَيْناه كَمَنْ ترك جُهْدَه واستفراغَ وسعه وإسبالَ دَمْعه واحتراق قلبه . . فما أنعشناه ؟ .

قوله جل ذكره : « أفرأيتَ مَنِ اتخذ إلهه هواه وأضلَّه
الله على عِلْمٍ وخَتَمَ على سَمْعِهِ وقلبه وجعل
على بَصَرِهِ غِشاوةً ... » .

مَنْ لم يَسْلُكْ سبيلَ الاتباع ، ولم يستوفِ أحكامَ الرياضة ، ولم يَنْسلِخْ عن هواه بالكلية ، ولم يؤدِّبْه إمامٌ مُقْتَدًى فهو ينجرفُ فى كل وَهْدَةٍ ، ويهيمُ فى كلِّ ضلالة ، ويضلُّ فى كل فجٍّ ، خسرانُه أكثر من رِبْحِه !! أولئك فى ضلالٍ بعيد ؛ يعملون القُرَبَ على ما يقع لهم من نشاطِ نفوسهم[4] ، زِمامُهم بيد هواهم ، أولئك أهل[5] المكر.. اُسْتُدْرِجُوا وما يَشْعُرون ! .

---

(١) الفراسة ما يخلقه الله فى قلب العبد من غير كسب منه ، وهى من ثمرات الإيمان الكامل ، وما يسميه القشيرى هنا (لوحاً) يسميه فى موضع آخر (سواطع) أنوار تلمع فى القلب تدرك بها المعانى (الرسالة ص ١١٦) . ولمعرفة الفرق بين اللوائح والطوالع والروائع أنظر الرسالة ص ٤٣ . ويعرف الجنيد الفراسة فيقول : هى مصادفة الإصابة ، ثم يذكر أنها موهبة كائنة دائمة (التعرف الكلاباذى ص ١٥٧) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الصحاب) بالصاد وواضح فى ذلك خطأ الناسخ .

(٣) هذه الدرجة الأخيرة — كما هو واضح — أجل درجات النظر لخلوها من الآفات .

(٤) لأن النفس محل المعلومات ، فعملهم مرتهن بنفوسهم وأهوائهم .

(٥) هكذا فى (ص) وهى فى م (أصل) وهى خطأ من الناسخ لأنهم «أهل» المكر إشارة إلى قوله تعالى : «ومكروا ومكر الله» .

قوله جل ذكره : « وقالوا ما هى إلاَّ حياتُنا الدنيا نموتُ
ونحيا وما يُهلِكُنا إلا الدهرُ وما لهم
بذلك من عِلْمٍ إنْ هم إلاَّ يظنون » .

لم يَعتَبِروا بما وجدوا عليه خَلَفهم وسَلَفهم ، وأزْجَوْا فى البهيمية عَيْشَهم وعُمْرَهم ، وأعفوا عن كَدَّ الفكرة قلوبهم . . . فلا بالعلم استبصروا ، ولا من التحقيق استمدوا . رأسُ مالِهم الظنُّ — وهم غافلون .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ
ما كان حُجَّتَهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا
إن كنتُم صادقين » .

طلبوا إحياءَ موتاهم ، وسوف يَرَوْن ما استبعدوا .

ثم أخبر أنَّ مُلْكَ السمٰواتِ والأرضِ لله ، وإذا أقام القيامةَ يُحْشَرُ أصحابُ البطلان ، فإذا جاءهم يومُ الخصام :

« وترى كلَّ أمةٍ جاثيةً كلُّ أمةٍ تُدْعَى
إلى كتابِها اليومَ تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملون » .

كلٌّ بحسابه[1] مطالَبٌ ... فأمَّا الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا ، وأمَّا الذين كفروا فهلكوا وبادوا[2] .. ويقال لهم : أأنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عُقْبا كم كَذَّبتم مولاكم ؟ فاليومَ — كما نسيتمونا — ننساكم ، والنارُ مأواكم .

قوله جل ذكره : « فلله الحمدُ ربِّ السمٰواتِ وربِّ الأرضِ
ربِّ العالمين * وله الكبرياءُ فى السمٰواتِ
والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

لله الحمدُ على ما يُبْدِى ويُنْشِى ، ويحيى ويُفْنِى ، ويُجْرِى ويُمْضِى .. إذ الحُكْمُ لله . والكبرياءُ لله ، والعظمةُ والسَّناءُ لله ، والرفعة والبهاءُ لله .

---

(١) هذا أيضاً رأى يحيى بن سلام ، وقيل «كتابها» المُنَزَّلُ عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ .

(٢) هكذا فى م ، وهى فى ص (وبادوا) وهى خطأ من الناسخ .

سورة الأحقاف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ للقلوب سالبة ، للعقول غالبة ، للمطيعين واهبة ، للعارفين ناهبة . . فالذين يحبهم فلهم لُطفُه ، والذين ينهبهم فَمَنْ مَحَقه فهو عنه خَلَفُه[1] .

قوله جل ذكره : « حمٓ * تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيم » .

حَمَيْتُ قلوبَ أهلِ عنايتى فَصَرَفْتُ عنها خواطرَ التجويز ، وَثَبَّتُّها فى مشاهدِ اليقينِ بنور التحقيق ؛ فلاحت فيها شواهدُ البرهان ؛ فأضَفْنا إليها لطائفَ الإحسان ؛ فكَمُلَ منالُها من عين الوصلة ، وغذيناهم بنسيم الأُنْس فى ساحات القربة .

« العزيز » : المُعزّ للمؤمنين بإنزال الكتاب عليهم .

« الحكيم » ، المُحْكِم لكتابه عن التبديل والتحويل .

قوله جل ذكره : « ما خَلَقْنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلّا بالحقّ وأجلٍ مُسَمًّى والذين كفروا عمّا أُنْذِروا مُعْرِضون » .

الكافرون مُعْرِضُون عن موضع الإنذار ، مقيمون على حدِّ الإصرار

---

(1) وفى ذلك يقول شاعرهم : :

ألست لى خلفا ؟ كفى شرفاً . فما وراءك لى قصد ولا أمل

ويقول أبو حمزة موضحاً كيف أن هذا الموت فى سبيل محبوبه عين الحياة :

وتحيى محباً أنت فى الحب حتفه وذا عجبٌ .. كون الحياة مع الحتف !

(اللمع للسراج ص ٣٢٥) .

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم ماتدْعون من دونِ اللهِ أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شِرْكٌ فى السموات ائتونى بكتابٍ مِن قَبلِ هذا أو أثارةٍ مِنْ عِلمٍ إن كنتم صادقين» .

أرونى .. أى أثرٍ فيهم فى الملك ، أو القدرة على النفع والضر ؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ فأظهِرُوها ، أو دلالة فبيِّنوها .. وإذ قد عَجَزْتُم عن ذلك فهلاَّ رجعتم عن غيِّكم وأقلعتم ؟

قوله جل ذكره : « ومَنْ أضَلُّ ممن يدعو مِن دونِ اللهِ مَن لايستجيب له إلى يومِ القيامة وهم عن دعائهم غافلون » .

مَنْ أشدُّ ضلالاً مِمَّنْ عَبَدَ الجمادَ الذى ليس له حياة ولا له فى النفع أو الضر إثبات ؟

قوله جل ذكره . « وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين » .

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوةُ بين الأصنام وعابديها .

قوله جل ذكره : « وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال الذين كفروا للحقِّ لمَّا جاءَهم هذا سِحْرٌ مبين » .

رموا رُسُلَنا بالسِّحر ثم بالافتراء والمكر .. قُلْ — يامحمد — كفى بالله بينى وبينكم شهيداً ؛ أنتم أشركتم به ، وأنا أخلصت له توحيداً . وما كنت بدعاً من الرسل ؛ فلستُ بأول رسولٍ أُرْسِل ، ولا بغير ماجاءوا به من أصول التوحيد جئتُ ، إنما أمرتكم بالإخلاص فى التوحيد ، والصدقِ فى العبودية ، والدعاءِ إلى محاسن الأخلاق .

قوله جل ذكره : « وما أدْرِى ما يُفعَلُ بى ولا بكم إنْ

أتّبِعُ إلّا مايُوحَى إلىّ وما أنا إلاّ
نذيرٌ مبين » .

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى : « ليغفرَ لكَ اللهُ ماتقدم من ذنبك وما تأخر »[1] .

وفى الآية دليلٌ على فساد قول أهل القَدَرِ والبدع حيث قالوا : « إيلامُ البرىء قبيحٌ فى العقل » . لأنه لو لم يَجُزْ ذلك لكان يقول : أَعْلَمُ — قطعاً — أنى رسول الله ، وأنى معصومٌ .. فلا محالةَ يغفر لى ، ولكنه قال : وما أدرى ما يُفعَلُ بى ولا بكم ؛ ليُعْلَمَ أن الأمرَ أمرُه ، والحكمَ حكمُه ، وله أن يفعلَ بعباده مايريد[2] .

قوله جل ذكره : « قُلْ أرأيتم إن كانَ مِنْ عندِ اللهِ
وكَفَرْتُم به وشَهِدَ شاهدٌ[3] من
بنى إسرائيل على مِثْلِهِ فآمن واستكبرتُم
إنّ اللهَ لايَهْدِى القومَ الظالمين » .

تبيَّنَ له أنه لاعُذْرَ لهم بحال ، ولا أمانَ لهم من عقوبةِ الله . وما يتروحون إليه من حُجَجِهم عند أنفسهم كلُّها — فى التحقيق — باطلٌ . وأخبر أن الكفار قالوا : لو كان هذا الذى يقوله

---

(١) آية (٢) سورة الفتح وبنزولها نسخت هذه الآية ، وزال فرح المشركين واليهود والمنافقين الذين كانوا يقولون : كيف نتبع نبياً لا يدرى ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يفعل به — وبنزول هذه الآية أرغم الله أنوفهم ، وقالت الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ! وهنيئاً لنا !

(٢) القشيرى ينكر أن يذهب البشر إلى التماس تعليلات للأفعال الإلهية ؛ لأن أفعال الله سبحانه لا تخضع للأغراض ؛ فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فهو يعود بالأمر كله إلى الحكمة والإرادة الإلهيتين ، وطالما هما فى غير نطاق الإنسانية فلا ينبغى إخضاعهما للمفاهيم الإنسانية من حسن وقبح ، وخير وشر ؛ لأن هذه المفاهيم متأثرة بالمصلحة والغرض .. والله منزه عن ذلك ، فله أن يفعل بعباده ما يشاء ، وإذا كان رب الأسرة لا يقودها إلا إلى الخير فما ظنك برب البرية وخالق كل شىء ؟ !

(٣) هو عبد الله بن سلام عند الجمهور ، ولهذا قيل إن هذه الآية مدنية ؛ لأن إسلامه كان بالمدينة . وروى أنه سأل النبى عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال الرسول (ص) : أول أشراط الساعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد حوت ، وأما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه وإن سبق ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً . (صحيح البخارى حـ٢ ص ٢٢٦) .

من الحشر والنشر حقًّا لم تتقاصر رتبتُنا عند الله عن رتبة أحدٍ ، ولتَقَدَّمْنا — فى الاستحقاق — على الكُلِّ . ولمَّا لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرَّحوا :

« فسيقولون هذا إفْكٌ قديم » .

ولقد بعَثَ اللهُ أنبياءَه — عليهم السلام — وأنزل عليهم الكتب ، وبيَّنَ فى كلِّ كتاب، وعلى لسانِ كلِّ رسولٍ بأنه يبعث محمداً رسولاً ، ولكن القومَ الذين فى عصر نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — كتموه ، وحسدوه .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون » .

مضى تفسيرُ الاستقامة . وإنَّ مَنْ خرج على الإيمان والاستقامة حَظِىَ بكلِّ كرامة ، ووصل إلى جزيل السلامة .

وقيل : السين فى « الاستقامة » سين الطَّلَب ؛ وإن المستقيم هو الذى يبتهل إلى الله تعالى فى أن يُقيمَه على الحق ، ويُثَبِّتَه على الصدق .

قوله جل ذكره : « ووَصَّيْنا الإنسانَ بوالديه إحساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ووضعته كُرْهًا » . .

أمَرَ الإنسانَ برعاية حقِّ والديه على جهة الاحترام ، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام ، وإذا لم يُحْسِنْ الإنسانُ حُرْمةَ مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سيِّده أبعد . ولو لم يكن فى هذا الباب إلا قوله — صلى الله عليه وسلم : « رضا الرب من رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما » لكان ذلك كافياً . ورعايةُ حق الوالد من حيث الاحترام ، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام . ووَعَدَ اللهُ على برِّ الوالدين قبولَ الطاعة بقوله جلَّ ذكره :

« أولئك الذين نتقبَّلُ عنهم أحسنَ ما عَمِلوا
ونتجاوزُ عن سيئاتِهم فى أصحاب الجنة
وَعْدَ الصدقِ الذى كانوا يوعَدون » .

فقبولُ الطاعةِ وغفران الزَّلَّة مشروطان ببِرِّ الوالدين . وقد ذمَّ اللهُ — سبحانه — الذى

يتصف فى حقهما بالتأفُّفِ ، وفى ذلك تنبيهٌ على ما وراء ذلك من أى تعنُّف ، وعلى أنَّ الذى يَسْلكُ ذلك يكونُ من أهل الخسران ، وبالتالى يكون ناقصَ الإيمان .

وسبيلُ العبدِ فى رعاية حق الوالدين أن يُصْلِحَ ما بينه وبين الله ، فحينئذٍ يَصْلُحُ ما بينه وبين غيره — على العموم ، وأهله — على الخصوص .

وشَرُّ خصال الولدِ فى رعاية حق والديه أنْ يتبَرَّم بطول حياتهما ، ويتأذَّى بما يحفظ من حقهما . وعن قريب يموت الأصلُ ويبقى النسلُ ، ولا بدَّ من أن يتبع النسلُ الأصلَ[1] ، وقد قالوا فى هذا المعنى :

رویدك إن الدهــــــرَ فيه كفايةٌ لتفريق ذات البيْنِ . . فانتظر الدهرا[2]

قوله جل ذكره : « ويوم يُعْرَضُ الذين كفروا على النارِ أَذْهَبْتُمْ طيباتِكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليومَ تُجْزَوْنَ عذابَ الهُونِ بما كنتم تستكبرون فى الأرضِ بغير الحقِّ وبما كنتم تَفْسُقُون » .

سبيلُ العبد ألا ينسى فى كل حالٍ معبودَه ، وأنْ يتذكرَ أنه معه فى همِّه وسروره ، وفى مناجاته عند رخائه وبلائه . فإن اتفق أنْ حَصَلَ له أُنْسٌ ، وغَلَبَ عليه رجاء وبسطٌ ثم هجم على قلبه قَبْضٌ أو مَسَّهُ خوف . . فليخاطِبْ ربَّه حتى لا يكونَ من جملة مَنْ قيل له : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا . . . »

قوله جل ذكره : « واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومَه بالأحقافِ[3] وقد خلَتِ النُّذُرُ من بين

(١) أى أن أولاده سوف يعاملونه بالكيفية التى عامل بها أبويه .

(٢) إذا لاحظنا اهتمام القشيرى هنا برعاية حقوق الأبوين ، وإذا تذكرنا أنه فى موضع آخر يرى أن حقوق الشيوخ والمربين لا تقل عن ذلك ؛ «لأن الوالدين يربون الأشباح . والشيوخ يربون الأرواح » علمنا أن هذه الإشارة موجهة إلى المريدين بنفس الدرجة الموجهة إلى العموم .

(٣) الأحقاف = ج حقف وهى رمال عظام معوجة لا تبلغ أن تكون جبالا . وقال الكلبى : أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمن الغرق . وهناك اختلاف فى مكان ديار عاد يرجع إليه فى كتب التفسير .

يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا اللهَ إنى
أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم » .

أخبر بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجّه عليهم من العتاب ، وأَخْذِهم بأليم العذاب .

قوله جل ذكره : « ولقد مكنّاهم فيما إن مكنّاكُم فيه ...»
فلم يُغْنِ عنهم ما آتيناهم . . . وانظروا كيف أهلكناهم .

قوله جل ذكره : « وإذ صَرَفنا إليك نَفَراً من الجنِّ
يستمعون القرآنَ فلمّا حضروه قالوا
أنصِتوا فلما قُضِىَ ولَّوْا إلى قومهم
مُنذرين » .

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الجنِّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس . وإن قوماً أتوه ليلة الجن[1] وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قومٌ منهم ؛ فاليومَ فى الجن مؤمنون ، وفيهم كافرون .

« فلما حضروه قالوا أنصتوا . . » الصيحةُ على الباب وفوق البساط غيبةٌ ؛ ولهذا لما حضر الجنُّ بساطَ خدمته — صلى الله عليه وسلم — تواصوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا بساطَه : « أنصتوا » ، فأهلُ الحضور صفتُهم الذبولُ والسكونُ ، والهيبة والوقار . والثورانُ أو الانزعاجُ يدل على غيبةٍ أو قِلّةِ تيقُّظٍ أو نقصان اطلاع[2] . « فلما قُضِىَ . . » يعنى الوحى « ولوا إلى قومهم منذرين » وأخبروهم بما رأوه وسمعوه .

قوله جل ذكره : « يا قومَنا أجيبوا داعِىَ الله وآمِنوا

---

(١) حدث ابن مسعود عن هذه الليلة ، وأبان كيف سمع — وقد كان وحده بصحبة النبي وهو يقرأ القرآن — لَغَطاً وغمغمة ، وشاهد أمثال النسور تهوى وتمشى فى رفرفها ... الخ .

(٢) هنا نجد القشيرى ينصح بالكتمان ولا يرى الإفصاح ، وقد سئل الجنيد فى ذلك فأجاب : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب» (أنظر بحث هذه القضية فى كتابنا «نشأة التصوف الإسلامى» ط المعارف ص ٢٢٩).

به يغفرْ لكم من ذنوبِكم ويُجِرْكم من عذاب أليم » .

يقال الإجابة على ضربين : إجابةٌ لله ، وإجابة للداعى ؛ فإجابة الداعى بشهود الواسطة — وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . وإجابةُ الله بالجهرِ إذا بَلَغَتْهُ الرسالةُ على لسان السفير ، وبالسِّرِّ إذا حصلت التعريفاتُ من الواردات على القلب ؛ فمستجيبٌ بنفسه ومستجيب بقلبه ومستجيبٌ بروحه ومستجيبٌ بسرِّه . ومن توقف عن دعاء الداعى إيَّاه ، ولم يبادِرْ بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخَاطب به[1] .

قوله جل ذكره : « أو لم يَرَوْا أن اللهَ الذى خَلَقَ السمٰوات والأرضَ ولم يَعْىَ بخَلْقِهِنّ بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى ؟ بلى : إنه على كل شىء قدير » .

الرؤيةُ هنا بمعنى العلم .

« ولم يَعْىَ » أى ولم يعجز ولم يضْعف .

قوله جل ذكره : « ويوم يُعرضُ الذين كفروا على النار » .

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة :

« أليس هذا بالحقّ ؟ قالوا : بلى وربِّنا . قال : فذوقوا العذابَ . . »

جزاء لكم على كُفْرِكم .

قوله جل ذكره : « فاصبِرْ كما صَبَرَ أولوا العَزم من الرُّسُلِ » .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (يطالب به) وكلاهما مقبول فى السياق فالدعاء خطاب ومطالبة للمدعو .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء فى التفسير أنهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم وسلم . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب وأيوب ويونس .

والصبرُ هو الوقوفُ لحُكْمِ الله ، والثباتُ من غير بَثٍّ ولا استكراهٍ .

قوله جل ذكره : « كأنهم يومَ يرَوْنَ ما يوعَدُون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهارٍ » .

ويقال مُدّةَ الخلْقِ : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتَهى آجالهم بالإضافة إلى الأزلية[1] كلحظةٍ بل هى أقلّ ؛ إذ الأزلُ لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأى خَطَرٍ لما حصل فى لحظةٍ . . خيراً كان أو شرّاً ؟ !

(١) بالإضافة إلى = بالنسبة إلى .

سورة محمد "صلى الله عليه وسلم" (١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

مَنْ ذَكَرَ « بسم الله » جلَّتْ رُتْبَتُهُ ، ومَنْ عرَفَ « بسم الله » صَفَتْ حالتُهُ ، ومَن أحبَّ « بسم الله » أشكلت قصتُهُ(٢) ، ومَن صَحِبَ « بسم الله » امتحقت أُنَيَّتُهُ(٣) ، وتلاشت — بالكلية — جُملَتُهُ .

قوله جل ذكره : « الذين كَفَروا وصَدُّوا عن سبيل الله أضـلَّ أعمالَهم * والذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ وآمنوا بما نُزِّل على محمدٍ وهو الحقُّ من ربِّهم كَفَّرَ عنهم سيئاتِهم وأصلح بالَهم » .

« الذين كفروا » : امتنعوا ، وصَدُّوا مَنَعُوا ؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحَجْبَةَ والغيبة .

« أضل أعمالهم » : أى أحبطها .

« والذين آمنوا .. » بما نُزِّلَ على محمد ، « وهو الحق من ربهم .. »

---

(١) وتسمى عند بعض المفسرين « سورة القتال » .

(٢) الكلام فى هذه النقطة كثير لا يتسع له هامش ضيق ، ومن أراد أن يعرف كيف أن قصة المحبين الإلهيين مشكلة فيكفى أن يعلم أن قمة هذه القصة الوصول إلى التوحيد .. أن يختفى الموحِّد فى الموحَّد فلا يكون هناك إلا واحد ، إن تحدث فبالله ، وإن تحرك فبالله . هو بين الناس كائن وعنهم بائن ، يقضى عمره بين وجد وفقد .. (أنظر قصة هذا الحب بتفاصيلها الدقيقة فى كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى ، باب الحب والفناء والمعرفة .

(٣) تلاشت آثار بشريته لا بشريته .

أصلح حالَهم ، فالكفرُ للأعمالِ مُحْبِطٌ ، والإيمانُ للتخليد [1] مُسْقِط .

ويقال : الذين اشتغلوا بطاعةِ الله ، ولم يعملوا [2] شيئاً مما خَالَفَ اللهَ — فلا محالةَ — تقوم بكفاية اشتغالهم بالله .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّ الذين كفروا اتَّبعوا الباطلَ
وأنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا الحقَّ من ربِّهم
كذلك يضرِبُ اللهُ للناسِ أمثالَهم » .

أى يضرب أمثالَ هؤلاء لحسناتهم ، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم .

ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقة السُّنَّةِ ، ورعاية حقوق الله ، وإيثار رضاه ، والقيام بطاعته .
ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداع ، والعملِ بالهوى ، وإيثارِ الحظوظ ، وارتكابِ المعصية .

قوله جل ذكره : « فإذا لَقِيتُم الذين كفروا فَضَرْبَ
الرِّقابِ حتى إذا أثخنتموهم فَشُدُّوا الوَثاقَ
فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِداء حتى تَضَعَ الحربُ
أوزارَها » .

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالعدوِّ فالعفوُ عنهم وتَرْكُ المبالغةِ فى التشديد عليهم — للندمِ مُوجِبٌ ، وللفرصةِ تضييعٌ ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسِهم ، واستئصالُ أصولِهم ، واقتلاعُ شَجَرِهم من أصله .

وكذلك العبدُ إذا ظفر بنفسه فلا ينبغى أن يُبْقِيَ بعد انتفاش شوكها بقيةً من الحياة ، فَمَنْ وضع عليها إصبعاً بَثَّتْ سُمَّها فيه [3] .

« فإمَّا مَنًّا بعد وإمَّا فداء » ذلك إذا رجا المسلمون فى ذلك غبطةً أو فائدةً ؛ مثل إفراجِ

---

(١) العذاب المؤبد .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (ولم يعلموا) وهى خطأ من الناسخ .

(٣) ذلك لأن نفسك التى بين جنبيك هى أعدى أعدائك ، وجهادها هو الجهاد الأكبر . . لأنها تقودك إلى دواعى الهوى ، وفى ذلك عند الصوفية شِركٌ خفى .

الكفّار عن قوم من المسلمين ، أو بسبب ما يؤخذ من الفداء .. وأمثال هذا ، فحينئذٍ ذلك مُسَلَّمٌ على ما يراه الإمام [1].

كذلك حال المجاهدة مع النفس : حيث يكون فى إغفاءِ ساعةٍ أو فى إفطارِ يومٍ ترويحٌ للنفس من الكدّ ، وتقويةٌ على الجهد فيما يستقبل من الأمر — فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصوابُ من شيخ المريد ، أو فتوى لسانِ الوقت ، أو فراسة صاحب المجاهدة [2].

قوله جل ذكره : « والذين قُتِلُوا فى سبيلِ الله فَلَن يُضِلَّ أعمالَهم * سيهديهم ويُصْلِحُ بالَهم * ويُدْخِلُهم الجنَّةَ عرَّفَها لهم » .

إذا قُتِل أحدٌ فى سبيل الحقِّ تولَّى وَرَثَةَ المقتولِ بأحسنَ مِنْ تولية المقتول .

وكذلك يَرْفَعُ درجاتِه ؛ فيُعْظِمُ ثوابَه ، ويُكْرِمُ مآبَه .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا اللهَ يَنصرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقدامَكم » .

نصرةُ الله من العبد نصرةُ دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرةُ اللهِ للعبد بإعلاء كلمته ، وقَمْعِ أعداء الدين ببركاتِ سَعْيه وهمَّته .

« ويثبت أقدامكم » بإدامةِ التوفيقِ لئلا ينهزمَ من صولةِ أعداءِ الدين .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا فَتَعساً لهم وأضلَّ أعمالَهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل اللهُ فأحبط أعمالَهم » .

---

(١) للإمام الحق فى أن يقتل أو يمن أو يفادى أو يسترق . والرسول نفسه . قتل عقبة بن معيط والنضر ابن الحارث يوم بدر ، وفادى سائر أسارى بدر ، ومنّ على ثمامة الحنفى وهو أسير ، ومن على سبى هوازن ، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين .. هذه كلها ثابتة فى الصحيح — وهذه الأربعة إليها مذهب الشافعى .

(٢) تهمنا هذه الفقرة إذا تذكرنا أن القشيرى متشدد فى الرخص ، وقياس الرخصة هنا على آية القتال وعلى حرب المشركين وعلى تصرف الإمام .. فيها دقة تحتاج إلى تدبر . ثم تهمنا فى معرفة من الذى يمنح الرخصة للمريد ؟

تعساً لهم: لعناً وطرداً ، وقَمْئاً وبُعْداً !

« أضلَّ أعمالهم » : هَتَكَ أستارَهم ، وأظْهرَ للمؤمنين أسرارَهم ، وأخْمَدَ نارَهم .

قوله جل ذكره : « أفلم يسيروا فى الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبة الذين مِنْ قبلهم » .

وكيف أهلكهم وأبادهم وأفناهم ؟

قوله جل ذكره : « ذلك بأن اللهَ مَوْلَى الذين آمنوا وأنَّ الكافرين لا مَوْلَى لهم » .

المولى[1] هنا بمعنى الناصر[2] ؛ فاللهُ ناصرٌ للذين آمنوا ، وأمَّا الكافرون فلا ناصرَ لهم .

أو المولى من الموالاة وهى ضد المعاداة ، فيكون بمعنى المحب ؛ فهو مولى الذين آمنوا أى يُحِبُّهم ، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى فى آية أخرى : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت »[3] .

ويصح أن يقالَ إنَّ هذه أرجى[4] آية فى القرآن ؛ ذلك بأنه سبحانه يقول : إن الله مولى الذين آمنوا » ولم يقل : مولى الزهَّادِ والعُبَّادِ وأصحاب الأورادِ والاجتهادِ ؛ فالمؤمنُ — وإنْ كان عاصياً — من جملة الذين آمنوا ، (لا سيما و « آمنوا » فعل ، والفعل لا عمومَ له)[5] .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ جناتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ »

---

(١) تضاف أقوال القشيرى هنا فى (المولى) إلى حديثه عن ذلك الاسم فى كتاب والتحبير فى التذكير ، وإلى حديثه فى (الولاية والولى) فى مواضع متفرقة من مصنفاته .

(٢) جاءت (الناظر) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

(٣) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

(٤) جاءت (أوحى) فى ص وهى خطأ فى النسخ .

(٥) سقطت العبارة بين القوسين من ص وجاءت فى م . والقشيرى مستفيد من السياق القرآنى إذ عبَّر عن الإيمان بالفعل وهو « آمنوا » وعبر عن الكفر بالاسم فقال : « وأن الكافرين لا مولى لهم » .

مضى الكلامُ فى هذه الآية .

« والذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعامُ والنارُ مثوًى لهم » .

الأنعامُ تأكل من أى موضع بلا تمييز ، وكذلك الكافرُ لا تمييزَ له بين الحلال والحرام . [كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها ؛ بل فى كل وقت تقتات وتأكل ، وكذلك الكافر ، وفى الخبر : « إنه يأكل فى سبعة أمعاء » . أمّا المؤمن فيكتفى بالقليل كما فى الخبر : « إن كان ولا بُد فثُلُثٌ للطعام وثُلُثٌ للشراب وثلث للنفس» و«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه»][1] .

ويقال : الأنعامُ تأكل على الغفلة ؛ فَمَنْ كان فى حال أكله ناسياً ربَّه فأكْلُه كأكلِ الأنعام .

قوله جل ذكره : « وكأيِّن من قريةٍ هى أشدُّ قوةً من قريتك التى أخرجَتْكَ أهلكناهم فلا ناصرَ لهم »[2] .

« أهلكناهم » : يعنى بها مَنْ أهلكهم من القرون الماضية فى الأعصر الخالية .

قوله جل ذكره : أفمَن كان على بيِّنةٍ من ربِّه كَمَن زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِه واتبعوا أهواءَهم » .

« البيِّنة » : الضياء والحُجّة ، والاستبصار بواضح الحجة : فالعلماءُ فى ضياءِ برهانهم ، والعارفون فى ضياءِ بيانهم[3] ؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبصِرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون .

---

(١) ما بين القوسين الكبيرين ساقط بتمامه من ص وثابت فى م ، وهذه الأخبار موجودة فى الجامع الصغير ج٢ ص ١٥٣ وفى كتاب « الأطعمة » بالجزء الثالث من صحيح البخارى ، وفى الأذكار للنووى . وتكملة الخبر الأول : من أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : يأكل المسلم فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، وروى كذلك عن ابن عمر .

(٢) عن ابن عباس قال : لما خرج النبى (ص) من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأنت احب البلاد إلىّ ولولا المشركون أهلك أخرجونى لما خرجت منك» فنزلت الآية — ذكره الثعلبى ، وهو حديث صحيح .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (ثباتهم) ولكن ما فى ص هو الأصوب ؛ لأننا نعرف من مذهب القشيرى أن (البيان) للعارفين والبرهان لأرباب العلم .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الجنةِ التى وُعِدَ المتقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى ولهم فيها من كل الثمراتِ ومغفرةٌ من ربِّهم ».

كذلك اليومَ شأنُ الأولياء ، فلهم شرابُ الوفاء ، ثم شرابُ الصفاء ، ثم شرابُ الولاء ، ثم شرابٌ حالَ اللقاء .

ولكلٍّ من هذه الأشربة عَمَلٌ ، ولصاحبه سُكْرٌ وصحو ؛ فَمَنْ تحسَّى شرابَ الوفاء لم ينظر إلى أحدٍ فى أيام غيبته عن أحبابه :

وما سَرَّ صدرى مُنْذ شطَّتْ بك النوى
أنيسٌ ولا كأس ولا متصرف

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الصفاء خَلُصَ له عن كلِّ شَوْبٍ ، فلا كدورةَ فى عهده ، وهو فى كلِّ وقتٍ صافٍ عن نَفْسه ، خالٍ من مُطَالَبَاته[1] ، قائمٌ بلا شُغلٍ — فى الدنيا والآخرة — ولا أرَبٍ .

ومَنْ شَرِبَ كأسَ الولاء عَدِمَ فيه القرار ، ولم يَغِبْ بِسِرِّه لحظةً فى ليلٍ أو نهار .

ومَنْ شَرِبَ فى حال اللقاء أَنِسَ على الدوام ببقائه ؛ فلم يطلب — مع بقائه — شيئاً آخَرَ من عطائه ؛ لاستهلاكه فى علائه عند سطوات كبريائه[2] .

قوله جل ذكره : « ومنهم مَن يستمع إليك حتى إذا خرجوا مِنْ عِندِك قالوا للذين أوتوا

---

(١) أى مطالبات الحظوظ ، حظوظ النفس .

(٢) ننبه إلى أهمية هذه الفقرة التى أطال فيها القشيرى حديثه من الأشربة حيث لم يتناولها بتفصيلٍ فى رسالته عند بحث مصطلح السُّكْر .

العِلْمَ ماذا قال آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ اللهُ
على قلوبِهم واتَّبعوا أهواءهم » .

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل اللهُ ؛ لِمَا فيه من افتضاحِهم .

« والذين اهتدوا زَادَهم هُدًى وآتاهم
تقواهم »

« اهتدوا » : بأنواع المجاهدات ، « فزادهم هدًى» : بأنوار المشاهدات .

« اهتدوا » : بتأمل البرهان ، « فزادهم هدًى » برَوْح البيان .

« اهتدوا » : بعلم اليقين ، « فزادهم هدًى » : بحقِّ اليقين .

[« اهتدوا » : بآداب المناجاة ، « فزادهم هدىً » : بالنجاة ورَفْع الدرجات .

« اهتدوا » : إلى ما فيه من الحقِّ ولم يختلفوا فى أنه الحق ، « فزادهم هدًى » بالاستقامة على طريق الحق][1] .

قوله جل ذكره : « فهل ينظرون إلا الساعةَ أن تأتيهم
بغتةً فقد جاء أشراطُها فأنَّى لهم إذا
جاءتهم ذِكْراهم ، فاعْلَمْ أنّه لا إله إلا اللهُ
واستغفرْ لِذَنبكَ وللمؤمنين والمؤمناتِ ».

كان عالماً بأنه : « لا إله إلا الله » فأمره بالثبات عليها ؛ قال (ص) : « أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له[2] » .

ويقال : كيف قيل له : « فاعلم . . » ولم يقل : عَلِمْتُ ، وإبراهيم قيل له : « أَسْلِمْ[3] .. » قال : « أسلمت ... » ؟ فيُجاب بأنَّ إبراهيمَ لمَّا قال : « أسلمت » ابْتُلِيَ ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم لم يقل : علمت فَوُقِيَ .

---

(١) ما بين القوسين الكبيرين ساقط فى ص وموجود فى م .

(٢) البخارى عن أنس : (والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له)

والشيخان عن عائشة : (والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) .

(٣) آية ١٣١ سورة البقرة : « قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » .

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَه شَرْع كَشْفَ سِرّه ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم لم يأتِ بعدَه شرعٌ .

ويقال : نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أخبر الحقُّ عنه بقوله : « آمن الرسول[1] .. » والإيمان هو العلم — وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أتمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه : « عَلِمْتُ » .

ويقال : فرقٌ بين موسى عليه السلام لمّا احتاج إلى زيادةِ العلم فأُحيلَ على الخضر ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم قال له : « وقُلْ ربِّ زدنى علماً[2] » .. فكم بين مَنْ أُحيلَ فى استزادة العلم على عَبْدٍ وبين مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحق !!

ويقال لمّا قال له « فاعلم أنه لا إله إلا الله[3] » كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخَلْق ، ثم بالانقطاع منه — أى من الرسول — إليه .. أى إلى الحق سبحانه . والعبدُ إذا قال هذه الكلمةَ على سبيلِ العادةِ والتغافلِ عن الحقيقة — أى كان بصفة النسيان — فليس لقوله كثيرُ قيمةٍ ؛ كأن يُقال عند التعجب من شىء .. فليس لهذا قَدْرٌ . أمّا إذا قالها مخلصاً فيها ، ذاكراً لمناها ، متحققاً بحقيقتها .. فإنْ كان بنفسه فهو فى وطن التفرقة .. وعندهم[4] هذا من الشِّرْكِ الخفىّ ، وإن قالها بحقّ فهو الإخلاص . فالعبد يعلم أولاً ربَّه بدليلٍ وحُجَّةٍ ؛ فعِلْمُه بنفسه كَسْبىٌّ .. وهو أصل الأصول ، وعليه ينبنى كل علم استدلالى[5] ! ثم تزداد قوةُ علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج ، ويتناقص علمُه بنفسه لغَلَبَاتِ ذِكْرِ اللهِ على القلب . فإذا انتهى إلى حال المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُهُ فى تلك الحالة ضرورياً . ويقلُّ إحساسُه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلالىّ وكأنه غافلٌ[6] عن نفسه أو ناسٍ لنفسه .

---

(١) آية ٢٨٥ سورة البقرة : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون» .

(٢) آية ١١٤ سورة طه .

(٣) هنا يفرق القشيرى بين التوحيد المنطوق باللسان ، والتوحيد عند أرباب الحقيقة .

(٤) أى عند أرباب الحقائق ، لأن أى شعور بالغيرية نتيجة عدم الإخلاص نقص فى التوحيد .

(٥) من هذا يتضح أن الصوفية لا يهملون العقل تماماً بل يحترمونه فى مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان ، ولكنهم لا يعولون عليه تماماً فى بقية معراجهم الروحى . وهذا رد حاسم على من ينكرون على الصوفية علاقتهم بالعقل والعلوم العقلية .

(٦) فى ص (وكأنه قال) وهى خطأ من الناسخ كما هو واضح من السياق بعده .

ويقال : الذى على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر ، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة ، حتى إذا غرق فى البحر فلا إحساسَ له بشىء سوى ما هو مستغرقٌ فيه ومستهلك[1] .

« واستغفِرْ لذنبك » : اى إذا عَلِمْتَ أنك علمت فاستغفِرْ لذنبك من هذا ؛ فإن الحقّ — على جلال قدْرِه — لا يعلمه غيره[2] .

قوله جل ذكره : « ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلَتْ سورةٌ فإذا أُنزلت سورةٌ مُحكمةٌ وذُكِرَ فيها القتالُ رأيتَ الذين فى قلوبهم مَرَضٌ ينظرون إليك نَظَرَ المغشىّ عليه من الموتِ . . .

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحى ، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحىُ بسرعةٍ فقال تعالى : « فإذا أُنزلت سورة محكمة[3] وذكر فيها القتال » رأيتَ المنافقين يكرهون ذلك لِمَا كان يشق عليهم من القتال ، فكانوا يفتضحون عندئذ ، وكانوا ينظرون إلى النبى صلى الله عليه وسلم — بغاية الكراهة .

... فأَوْلَى لهم » .

---

(1) القشيرى هنا مستفيد من شيخه أبى على الدقاق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قائلا : «التواجد يوجب استيعاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد ، فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر» الرسالة ص ٣٧ .

(2) يذكرنا هذا بقول رابعة بعد ليال قضتها فى الصلاة والاستغفار : «إن صلاتنا فى حاجة إلى صلاة ، واستغفارنا فى حاجة إلى استغفار» كما يذكرنا بقول القشيرى فى موضع مماثل : «... جلت الصمدية عن أن يستشرف من إدراكها بشر» ، وفى ذلك يقول أبو عبد الله الجلاء (ت ٣٠٦ هـ) :

كيفية المرء ليس المرء يدركها ... فكيف كيفية الجبار فى القِدَمِ ؟

هو الذى أحدث الأشياءَ مبتدءاً ... فكيف يدركه مستحدث النسم ؟

(شذرات الذهب جـ٢ ص ٢٤٩) .

(3) قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة . وقيل معناها مبينة غير متشابهة : لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال .

تهديد[1] .

قوله جل ذكره : « طاعةٌ وقولٌ معروفٌ » .

وهو قولهم : « لولا أنزلت سورة ... » .

ويقال : فأولى لهم طاعةٌ منهم لله ولرسوله . « وقول معروف » بالإجابة لما أُمِرُوا به من الجهاد .

ويقال : طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أَمثَلُ بهم .

قوله جل ذكره « فإذا عَزَمَ الأمرُ فلو صَدَقُوا اللهَ لكان خيراً لهم » .

إذا عزم الأمرُ — أى جَدَّ وفُرِضَ القتالُ — فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم ونفاقِهم وتقاعدِهم عن الجهاد .

قوله جل ذكره : « فهل عَسَيْتُم إن تَوَلَّيْتُم أَنْ تُفسِدوا فى الأرضِ وتُقَطِّعُوا أرحامَكمُ » .

أى فلعلكم إنْ أعرضتم عن الإيمان — بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم — ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا فى الأرض ، وتسفكوا الدماء الحرامَ ، وتقطعوا أرحامكم ، وتعودوا إلى جاهليتكم .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لَعَنَهم اللهُ فأَصَمَّهُم وأَعمَى أبصارَهم » .

أصَمَّهم عن سماعِ الحقِّ وقبولِه بقلوبهم ، وأعمى بصائرَهم .

---

(1) يقول الشاعر :

فأولى ثم أولى ثم أولى ... وهل للدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

وقال الأصمعى معناها : قاربه ما يهلكه وأنشد :

فعادى بين هاديتين منها ... وأولى أن يزيد على الثلاث

وقال المبرد : يقال لمن هَمَّ بالعطب : أولى لك ! أى : قاربت العطب .

قوله جل ذكره : « أفلا يتدبّرون القرآنَ أمْ على قلوبٍ أقفالها » .

أى إن تدّبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان ، وأراحهم من ظلمة التحيُّر .

« أم على قلوبٍ أقفالها » : أقفلَ الحقُّ على قلوب الكفار فلا يُداخِلُها زاجرُ التنبيه ، ولا ينبسط عليها شعاعُ العلم ، فلا يحصل لهم فَهْمُ الخطاب ؛ فالبابُ إذا كان مُقفَلاً .. فكما لا يدخل فيه شىء لا يخرج منه شىء ؛ كذلك قلوبُ الكفار مقفلةٌ ، فلا الكفرُ الذى فيها يَخْرُجُ ، ولا الإيمانُ الذى هم يُدْعَوْن إليه يدخل فى قلوبهم.

وأهلُ الشِّركِ والكفرِ قد سُدَّت بصائرهم وغُطِّيَتْ أسرارهم ، ولُبِّسَ عليهم وجهُ التحقيق.

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين ارتدُّوا على أدبارِهم مِن بعدِ ما تَبَيَّنَ لهم الهُدَى الشيطانُ سَوَّلَ لهم وأمْلَى لهم » .

الذى يطلع فجرُ قلبه ، ويتلألأ نورُ التوحيد فيه ، ثم قَبْلَ متوع نهارِ إيمانه انكسفت شمسُ يومِهِ ، وأظلم نهارُ عرفانه ، ودَجا ليلُ شكِّه ، وغابت نجومُ عقله .. فحدِّث عن ظُلُماته . . ! ولا حرج ![1]

[ذلك جزاؤهم على مَالأتهم مع المنافقين ، وتظاهرهم .. فإذا توفَّتْهُم الملائكةُ تتصل آلامُهم ، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتُهم .][2] .

قوله جل ذكره : « أم حَسِبَ الذين فى قلوبِهم مَرَضٌ أن لن يُخْرِجَ اللهُ أضغانَهم » .

ليس الأمرُ كما تَوَهَّموه ، بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسَهم ، ولقد أخبر الرسولَ عنهم ، وعرَّفه أعيانهم .

---

(١) القشيرى هنا يغمز بمن ينتمون إلى طريقة الصوفية ثم يفسخون عقدهم مع الله ، ويتخلون عن طريق الإرادة بعد قطعهم مسافة قصيرة .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين ساقط فى م وثابت فى ص .

قوله جل ذكره : « ولو نشاءُ لأريناكهم فَلَعرَفْتَهم بسيامم ولَتَعْرِفَنَّهم فى لَحْنِ القولِ » .

أى فى معنى الخطاب ، فالأَسِرَّةُ تَدُلُّ على السريرة ، وما يخامر القلوبَ فعَلَى الوجوهِ يلوحُ أثَرُه :

لستُ ممن ليس يــدرى ما هـــوان من كرامة
إنَّ للحبِّ وللبغــضِ على الوجـــه علامة

والمؤمنُ ينظر بنور الفراسة[1] ، والعارفُ ينظر بنورِ التحقيق ، والموحِّدُ ينظر بالله فلا يستتر عليه شىء[2] .

ويقال : بصائرُ الصديقين غيرُ مُغَطَّاة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدوا كل خوخة غير خوخة أبى بكر »[3] .

قوله جل ذكره : « ولَنَبْلُوَنَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخبارَكم » .

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهرُ الرجال ، فيظهر المخلصُ ، ويفتضح الماذقُ ، وينكشف المنافق ، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا ، والذين كفروا ونافقوا وقعوا[4] فى الهوان وأُذِلُّوا ، ووسموا بالشقاوة وقُطعوا .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ ولا تُبطِلوا أعمالَكم » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بعين الفراسة) . روى الترمذى والطبرانى من حديث أبى أمامة ، والترمذى من حديث أبى سعد ، والطبرانى وأبو نعيم والبزاز بسند صحيح عن أنس «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» .

(٢) يفيد هذا الكلام فى ترتيب القوم : مؤمن ثم عارف ثم موحد فالموحدون أعلى درجات السائرين .

(٣) يقول القشيرى فى كتابه «المعراج» ص ٧٢ : (كان الصديق مخصوصاً من البصيرة بما لم يخص به غيره قال (ص) : «سدوا كل خوخة غير خوخة أبى بكر» . وذلك لما فتحوا فى المسجد من كل دار خوخة ، والإشارة فيه أن الصديق ليس بممنوع من الإبصار بحال) .

(٤) سقطت (وقعوا) فى ص ، وموجودة فى م .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالرياء والإعجاب والملاحظة .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالمساكنة إليها . « ولا تبطلوا أعمالكم » بطلب الأعواض عليها .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله[1] .

قوله جل ذكره : « فلا تَهِنُوا وتَدْعوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأَعْلَوْن واللهُ معكم » .

أي لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة[2] .

أنتم الأعلون بالنصرة . قوله « والله معكم » . أي بالنصرة ويقال : لا تضعفوا بقلوبكم ، وقوموا بالله ؛ لأنكم — والله معكم — لا يخفى عليه شيءٌ منكم ، فهو على الدوام يراكم . ومَنْ عَلِمَ أنَّ سَيِّدَه يراه يتحمل كلَّ مشقةٍ مشتغلاً برؤيته :

« ولن يَتِرَكُم أعمالَكُم »

أي لا ينقصكم أَجْرَ أعمالكم .

قوله جل ذكره : « إنَّما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يُؤْتِكُم أجورَكم ولا يسألكم أموالَكم »

تجنبوا الشِّركَ والمعاصي حتى يَفِيَكُم أجورَكم .

واللهُ لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة[3] .

« إن يسألكموها فيُحْفِكُم تبخلوا ويُخْرِجْ أضغانَكم » .

---

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الذين يزعمون أن الطاعة توجب على الله الثواب . ويرى القشيرى أنه لا وجوب على الله ؛ فكل شيء من فضله ؛ لأن طاعة العبد لا توجب لله زينا ، ومعصيته لا تلحق به سبحانه شينا . «والله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» .

(٢) عند هذا الحد انتهت النسخة م ، ولذا فإننا نعتمد على النسخة ص في بقية السورة ، وهي مساحة كبيرة .

(٣) وهي على حد تعبير سفيان بن عيينه : غيض من فيض .

« الإحفاء » الإلحاح فى المسألة ... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نَفْسه ، فأمَّا الإخوان ومَنْ عَلَتْ رتبتُهم فى باب حرية القلب فلا يُسامَحون فى استيفاءِ ذَرَّةٍ ، ويُطالَبون ببذل الرُّوح ، والتزام الغرامات .

قوله جل ذكره : « ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لتنفقوا فى سبيلِ اللهِ فمنكم مَن يبخلُ ومَن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نَفْسِه » .

البخلُ مَنْعُ الواجب ، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه لأنه لو لم يفعل ذلك لحصَلَ له الثراء — هكذا يظن .

وقوله جل ذكره : « واللهُ الغنىُّ وأنتم الفقراءُ » .

« غنىٌّ » بنفسه على قول ، وغنىٌّ بوصفه على القول الثانى[1] . وغناه كونه لا تتقيد مراداته . أمَّا العبدُ فهو فقيرٌ بنفسه ؛ لأنه لا يستغنى عن مولاه ؛ فى الابتداء منذ خَلْقه إلى الانتهاء ، وهو فى دوام الأوقات مفتقرٌ إلى مولاه .

والفقيرُ الصادقُ مَنْ يشهد افتقارَه إلى الله . وصِدْقُ الفقير فى شهود فقره إلى الله . ومَنْ افتقر إلى الله استغنى بالله ، ومَنْ افتقر إلى غير الله وقع فى الذُّلِّ والهوان .

ويقال : اللهُ غنىٌّ عن طاعتِكم ، وأنتم الفقراءُ إلى رحمته .

ويقال : اللهُ غنىٌّ لا يحتاج إليكم ، وأنتم الفقراءُ لأنكم لا بديلَ لكم عنه .

قوله جل ذكره : « وإن تَتَوَلَّوْا يستبدِلْ قومًا غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالَكم » .

يستبدل قومًا غيركم يكونون أشدَّ منكم طاعةً ، وأصدقَ منكم وفاء ؛ فهو قادرٌ على خَلْقِ أمثالكم ثم لا يكونون أمثالكم فى العصيانِ والإعراضِ وتَرْكِ الشكرِ والوفاءِ ... بل سيكونون خيراً منكم .

---

(١) أى يمكن أن تكون من صفات الذات أو من صفات الفعل انظر « الغنى » فى كتاب « التحبير فى التذكير » للإمام القشيرى تحقيق د . بسيونى .

سورة الفتح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » تشير إلى سُمُوِّه فى أزَلِهِ ، وعُلُوِّه فى أَبَدِه ؛ وسُمُوُّه فى أزله نَفْىُ البداية عنه بحقِّ القِدَم، وعُلُوُّه فى أبده نَفْىُ الانتهاء عنه باستحالة العَدَم؛ فمعرفةُ سُمُوِّه توجِبُ للعبد سُمُوًّا ، ومعرفةُ عُلُوِّه توجِبُ للعبدِ عُلُوًّا(١) .

قوله جل ذكره : « إنا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً » .

قضينا لك قضاء بَيِّناً ، وحكمنا لكَ بتقويةِ دينِ الإسلام ، والنصرةِ على عدوِّك ، وأكرمناكَ بفتح ما انغلق على قلبِ مَنْ هو غيرك —مِنْ قَبْلِك— بتفصيلِ شرائعِ الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه .

نزلت الآيةُ فى فتحِ مكة ، ويقال فى فتح الحُدَيبية(٢).

ويقال : هديناك إلى شرائع الإسلام ، ويَسَّرْنا لك أمورَ الدين .

« ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدَّم مِن ذنبك
وما تأخر » .

---

(١) واضح أن مذهب القشيرى في معرفة أسماء الله سبحانه لا يقتصر على المعرفة الكلامية النظرية بل يتجاوز ذلك إلى التأدب بها ، والتخلق بأخلاق الله .. فالعمل مترتب على العلم (انظر مقدمتنا لكتاب التحبير فى التذكير) .

(٢) يقال نزلت هذه السورة بين مكة والمدينة (رواية محمد بن اسحاق عن الزهرى عن عروة عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم) وأنها نزلت في شأن الحديبية. (كذلك فى البخارى في سماع قتادة عن أنس) . وقال الضحاك : «مبينا» أى بغير قتال . وقال مجاهد: كان فتح الحديبية آية عظيمة إذ نزح ماؤها فمج فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال الشعبى: عن فتح الحديبية ؛ فقد أصاب فيها ما لم يصب في غزوة : غفر الله له ذنبه ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ؛ وظهرت الروم على الفرس .

كلا القسمين — المتقدِّم والمتأخِّر — كان قبلَ النبوة[1] .

ويقال « ما تقدَّم » من ذَنْبِ آدمَ بِحُرْمتك ، « وما تأخر » : من ذنوب أُمَّتك[2] .

وإذا حُمِلَ على تَرْك الأَوْلَى[3] فقد غفر له جميع ما فصـــل من قبيل ذلك ، قبل النبوة وبعدها[4] .

ولمّا نزلت هذه الآية قالوا : هنيئاً لك ! فأنزل الله تعالى :

« لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » . . ويقال : حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربين .

« ويُتِمَّ نعمتَه عليكَ ويَهْدِيكَ صراطاً مستقيماً » .

يتم نعمته عليك بالنبوة ، وبوفاء العاقبة ، وببسط الشريعة ، وبشفاعته لأمته ، وبرؤية الله غداً ، [وبإظهار دينه على الأديان ، وبأنه سيد ولد آدم ،وبأنه أَقْسَمَ بحياته ،وخصَّه بالعيان][5].
وبسماعِ كلامه سبحانه ليلةَ المعراج ، وبأن بَعَثَه إلى سائرِ الأُمم . . وغير ذلك من مناقبه .

« ويهديك صراطاً مستقيماً » يثبتك على الصراط المستقيم ، ويزيدك هدايةً على هداية ، ويهدى بك الْخَلْقَ إلى الحقِّ .

ويقال : يهديك صراطاً مستقيماً بترك حَظِّك .

« وينصرك اللهُ نصراً عزيزاً » .

---

(١) نصّ القشيرى على «قبل النبوة» لأن الأنبياء معصومون من الذنب.

(٢) هذا أيضا قول عطاء الخراسانى .

(٣) ترك الأولى تعبير أدبى مهذب عن «الذنب». ويقال : كان الذنب المتقدم على يوم بدر قوله صلى الله عليه وسلم : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض». والذنب المتأخر كان يوم حنين حيث رمى جمرات في وجوه المشركين قائلا : «شاهت الوجوه . . حم . لاينصرونه». فانهزم القوم عن آخرهم ، ولم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملا وحصباء. وعند عودة النبى مع أصحابه قال لهم : لو لم أرمهم لم ينهزموا ! فأنزل الله عز وجل : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

(٤) روى الترمذى عن أنس أن النبى فرح بهذه الآية فرحاً شديداً وقال : لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على وجه الأرض» .

(٥) ما بين القوسين الكبيرين موجود في ص وغير موجود في م .

لا ذُلَّ فيه ، وتكون غالباً لا يغلِبُكَ أحدٌ .

ويقال : ينصرك على هواكَ ونَفْسِك ،وينصرك بِحُسْنِ خُلُقِك ومقاساةِ الأذى من قومك.

ويقال نصراً عزيزاً : مُعِزاً لك ولمن آمن بك .

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوهٍ من الأفضال أَكْرَمَ بها نبيَّه — صلى الله عليه وسلم — وخصَّه بها من الفتح والظَّفَرِ على النَّفْس والعدو ، وتيسير ما انغلق على غيره ، والمغفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة . . ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصُ عظيمةٌ .

قوله جل ذكره : « هو الذى أنزل السَّكينةَ فى قلوبِ المؤمنين » . .

السكينةُ ما يسكن إليه القلبُ من البصائر والُحجَج ، فيرتقى القلبُ بوجودِها عن حدِّ الفكرة إلى رَوْحِ اليقين وثَلَج الفؤاد ، فتصير العلومُ ضروريةً[1] . . وهذا للخواصِّ .

فأمّا عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها : السكونُ والطمأنينةُ واليقين .

ويقال : من أوصافِ القلب فى اليقين المعارف والبصائر والسكينة .

وفى التفاسير : السكنة ريح هفَّافة . وقالوا : لها وجهٌ كوجه الإنسان . وقيل لها جناحان .

« ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »

أى يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم . تطلع أقمارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين ، ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين .

«ولِلّهِ جنودُ السمٰوات والأرضِ وكان اللهُ عليماً حكيماً » .

« جنود السمٰوات والأرض » : قيل : هى جميع القلوب الدالَّةِ على وحدانية الله .

ويقال : مُلْكُ السموات والأرضِ وما به من قوَّى تقهر أعداء اللهِ .

(١) أى لا تعود كسبيه حيث لم يعد للإنسان من نفسه لنفسه شىء .

ويقال : هم أنصارُ دينه .

ويقال : ما سلَّطه الحقُّ على شيء فهو من جنوده ، سواء سلَّطَه على وليِّه فى الشدة والرخاء، أو سلَّطَه على عدوِّه فى الراحة والبلاء .

قوله جل ذكره : « لِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جنَّاتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ خالدين فيها ويُكفِّرَ عنهم سيئاتِهم ، وكان ذلك عند اللهِ فوزاً عظيماً » .

يَسْتُرُ ذنوبَهم ويمحوها عنهم . وذلك فوزٌ عظيم ، وهو الظَّفَرُ بالبغية[1] .

وسُؤْلُ كلِّ أحدٍ ومأمولُه ، ومُبْتغاه ومقصودُه مختلِفٌ . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفَراً به .

قوله جل ذكره : « ويُعَذِّبَ المنافقين والمنافقاتِ والمشركين والمشركات ، الظانِّين باللهِ ظنَّ السَّوْءِ عليهم دائرة السَّوْء » .

يعذبهم فى الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .

و« ظن السوء » : هو ما كان بغير الإذن ؛ ظنوا أنَّ الله لاينصر دينَه ونَبِيَّه عليه السلام.

« عليهم دائرة السوء » : عاقبته تدور عليهم وتحيقُ بهم .

« ولعَنَهم» : أبعدهم عن فضله ، وحقت فيهم كلمتُه ، وما سبقت لهم — من الله سبحانه — قِسْمتُه .

قوله جل ذكره : إنَّا أرسلناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً » .

« أرسلناك شاهداً » : على أُمَّتِكَ يومَ القيامة . ويقال : شاهداً على الرُّسُلِ والكتب .

ويقال : شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا . ويقال : شاهداً لأمتك بتوحيدنا . « ومبشراً » : لهم مِنَّا بالثواب ، . « ونذيراً » للخَلْق ؛ زاجِراً ومُحَذِّراً من المعاصى والمخالفات .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص بالنعمة .

ويقال : شاهداً مِنْ قِبَلِنا ، ومُبَشِّراً بأمرنا ، ونذيراً من لَدُنّا ولنا ومنّا .

قوله جل ذكره : « لِتُؤْمِنوا بالله ورسولِه وتُعَزِّروه وتوقِّروه وتسبحوه بُكْرةً وأصيلاً » .

قرئ[1] : « ليؤمنوا » بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أى ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أى الرسول ، ويوقروه : أى يُعَظِّموا الرسولَ . وتُسبِّحوه : أى تُسبِّحوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً[2] .

وقرئ : « لتؤمنوا » — بالتاء — أيها المؤمنون بالله ورسوله وتعزروه — على المخاطبة.
وتعزيرُه يكون بإيثاره بكلِّ وجه على نَفْسك ، وتقديم حُكْمِه على حُكْمِك . وتوقيرُه يكون باتباع سُنَّتِه ، والعلم بأنه سيِّدُ بَرِيَّته[3] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُبايعونَكَ إنما يُبايعون الله » .

وهذه البيعة هى بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمُرَة[4] .

وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث عثمانَ رضى الله عنه إلى قريش ليُكلِّمهم فأرجفوا بقَتْلِه . وأتى عروة بن مسعود[5] إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : جئتَ بأوشاب الناس لتفضَّ بَيْضَتَكَ بيدك، وقد استعدت قريش لقتالك، وكأنِّى بأصحابك

---

(١) قراءة ابن كثير وابن محيصن وأبى عمرو .. وكذلك «يسبحوه» بالياء ، والباقون بالتاء على الخطاب

(٢) ونلاحظ أن القشيرى قدتوقف قبل تسبحوه فجعلها بالتاء ،وهناك من المفسرين من يرى ذلك أيضاً (انظر القرطبى ح١٦ ص ٢٦٧) .

(٣) عزرت الرجل أى رددت عنه ونصرته وأيَّدته — وهو من الأضداد — لأنه قد يأتى بمعنى أدَّبته ولُمْتُه .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : «لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» والسمرة : شجرة الطلح .

(٥) جاء فى السيرة لابن إسحاق ح٣ ص ٧٧٨ :

بعد أن خرج الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت ، فلما سمعت قريش بذلك استعدت لقتاله مع أنه لم يكن ينوى قتالا وتعاقبت السفراء بينه وبينهم ، وكان كل سفير من قريش يذهب إلى النبى ثم يعود ليقنع قريش بحقيقة نية النبى ولكنهم كانوا لا يرضون بما جاء به ، حتى جاء دور عروة بن مسعود الثقفى — وهو عند قريش غير متهم وقال للنبى «إن قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها أبداً عليهم عنوة . وحينما قال عروة : وايم الله لكأنى بهؤلاء — يريد أصحاب الرسول — قد انكشفوا عنك غداً . فانبرى أبو بكر قائلا : أنحن ننكشف عنه ... الخ .

قد انكشفوا عنك إذا مسَّهم حرُّ السلاح ! فقال أبو بكر : أتظن أنَّا نسلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبايعهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أن يُقاتلوا وألا يهربوا[1] ، فأنزل الله تعالى:

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » : أى عقْدُك عليهم هو عقد الله .

قوله جل ذكره : « يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم » .

أى « يد الله » : فى المنة عليهم بالتوفيق والهداية[2] : «فوق أيديهم» بالوفاء حين بايعوك.

ويقال : قدرة الله وقوته فى نصرة دينه ونصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم فوقَ نَصْرِهم لدين الله ولرسوله .

وفى هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع[3] كما قال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

قوله جل ذكره : « فَمَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نَفْسِه»

أى عذابُ النكثِ عائدٌ عليه .

«ومَن أَوْفَىٰ بما عَاهَدَ عليه الله فَسَيُؤْتيه أجراً عظيماً » .

أى من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً .

وإذا كان العبد بوصف إخلاصِه ، يعامِل اللهَ فى شىء هو به متحقِّقٌ ، وله بقلبه شاهدٌ فإنَّ الوسائطَ التى تُظْهِرُها أماراتُ التعريفاتِ تجعله محواً فى أسرارِه . . والحكم عندئذ راجعٌ إلى الواحد — جلَّ شأنه[4] .

---

(١) قال جابر بن عبد الله بايعنا رسول الله (ص) تحت الشجرة على الموت وعلى ألا نفر فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت بطن بعيره ولم يسر مع القوم .

(٢) نلاحظ أن القشيرى هنا يؤول اليد حتى ينفى عن الله الاتصاف بالجارحة .

(٣) أنت حين بايعت أو حين رميت فأنت من حيث الظاهر تقوم بعمل وأنت فى حال الفرق ، ولكن الحقيقة أنه لا فاعل إلا الله فمنه التوفيق والسداد والإصابة .. وهذا هو حال الجمع . وبمقدار ما يكون العبد فى منزلة التمكين وبعيداً عن التلوين يكون دنوه من حال الجمع ، التى بعدها حال جمع الجمع .. ونبينا صلى الله عليه وسلم كان عندها إذ هو صلوات الله عليه محمول لا متحمل ؛ أى بربه لا بنفسه .

(٤) أى إذا أفضى العبد بشىء من العرفان عندئذ فيكون نطقه وما يظهر عليه من الله وبالله .

قوله جل ذكره : « سيقول لك المخلفون من الأعراب
شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا
يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم »

لمَّا قَصَدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم التوجهَ إلى الحديبية تخلَّفَ قومٌ من الأعراب عنه. قيل : هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع ، وقالوا : «شغلتنا أموالنا وأهلونا» وليس لنا مَنْ يقوم بشأننا وقالوا : انتظروا ماذا يكون ؛ فما هم فى قريش إلاَّ أَكَلَةُ رأسٍ[1]. فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءوه مُعْتَذِرين بأنه لم يكن لهم أحدٌ يقوم بأمورهم ! وقالوا : استغفر لنا .

فأطلعه الله — سبحانه — على كذبهم ونفاقهم ؛ وأنهم لا يقولون ذلك اخلاصاً ، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

« قُلْ فَمَن يملك لكم من الله شيئاً إنْ
أرَاد بكم ضَرًّا أو أراد بكم نفعاً بل كان
الله بما تعملون خبيراً »

فضَحَهم . ويقال : ما شغل العبد عن الله شُؤْمٌ عليه .

ويقال : عُذْرُ المماذِقِ وتوبةُ المنافقِ كلاهما ليس حقائق .

قوله جل ذكره «بل ظَنَنتُمْ أن لن ينقلبَ الرسولُ والمؤمنون
إلى أهليهم أبداً وزُيِّنَ ذلك فى قلوبكم
وظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْء وكُنتمْ قوماً بُوراً ».

حسبتم أن لن يرجعَ الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى أهليهم أبداً ، وزَيَّنَتْ لكم الأمانى ألا يعودوا ، وأنَّ الله لن ينصرهم . « وكنتم قوماً بوراً » أى هالكين فاسدين .

---

(1) أى هم قليل .

ويقال: إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده يتمنّى ما تتقاصر عنه مُكْنتُه، وتلك صفةُ كلِّ عاجز، ونعتُ كلِّ لئيم. ثم إن الله — سبحانه — بعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده «ولا يحيق المكرُ السيء إلا بأهله[1]».

ويقال: من العقوبات الشديدة التي يعاقِبُ اللهُ بها المُبْطِلَ أنْ يتصوَّرَ شيئاً يتمنَّاه ويوطِّن نَفْسَه عليه لفرط جَهْله، ويُلقي الحقُّ في قلبه ذلك التمني حتى تسول له نفسُه أن ذلك كالكائن .. ثم يعذبه الله بامتناعه.

قوله جل ذكره: «ومن لم يُؤمن بالله ورسوله فإنَّا أعتدنا للكافرين سعيراً»

وما هو آتٍ فقريب.. وإنَّ الله ليرخي عنانَ الظَّلَمَةِ ثم لا يفلتون من عقابه.. وكيف — وفي الحقيقة — ما يحصل منهم هو الذي يجريه[2] عليهم؟

قوله جل ذكره: «ولله مُلْكُ السموات والأرض يغفرُ لمن يشاء ويُعَذِّبُ من يشاء وكان اللهُ غفوراً رحيماً»

يغفرُ — وليس له شريك يقول له: لا تفعلْ، ويعذّب من يشاء — وليس هناك مانعٌ عن فعله يقول له: لا تفعلْ.

قوله جل ذكره: «سيقولُ المُخَلَّفون إذا انطلقتُم إلى مغانمَ لتأخذوها ذرونا نتَّبِعكم يريدون أن يبدلوا كلامَ الله قل لن تتبعونا»

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم اللهُ خيبرَ،

---

(١) آية ٤٣ سورة فاطر.

(٢) هكذا في ص وهي في م (يجزيه) بالزاي وقد رجحنا (يجريه) أولاً لاتصالها بمذهب القشيري وكون الله — على الحقيقة — فاعل كل شيء حتى أكساب العباد. وثانيا لأنها لو كانت بالزاي لقال: يجزيهم عليه.

وأنّ فيها سيظفرُ بأعدائه ، فلمّا هَمّ بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا فى ذلك من الغنيمة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما يخرج معى إلى خيبر من خرج إلى الحديبية ، والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا »

فقال المتخلفون : إنما يقول المؤمنون ذلك حَسداً لنا ؛ وليس هذا من قول الله ! فأنزل اللهُ تعالى ذلك لتكذيبهم ، ولبيان حكمه ألا يستصحبَهم فهم أهل طمع ، وكانت عاقبتُهم أنهم لم يجدوا مرادَهم ، ورُدُّوا بالمذلة وافتضح أمرهم .

قوله جل ذكره : « قُل للمُخَلَّفين من الأعراب سَتُدْعون
إلى قوم أولى بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم
أوْ يُسْلِمون فإن تطيعوا يؤتِكم اللهُ
أجراً حسَناً وإن تتولوا كما توليتم من قبلُ
يُعذبْكم عذاباً أليماً »

جاء فى التفاسير أنهم أهلُ اليمامة أصحاب مسيلمة — وقد دعاهم أبو بكر وحاربهم ، فالآية تدل على إمامته . . وقيل هم أهل فارس — وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم؛ فالآيةُ تدل على صحة إمامته . وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبى بكر . « أولى بأس شديد » أولى شدّة . فإنْ أطعتُم استوجبتم الثواب ، وإن تخلّفتم استحققتمُ العقاب . ودلت الآيةُ على أنه يجوز أن تكون للعبد بداية غير مرْضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح — كما كان لهؤلاء رأنشدوا :

إذا فسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه
فَرَجَّ له عوْدَ الصلاح . . لعلَّه

قوله جل ذكره : « ليس على الأعمىٰ حَرَجٌ ولا على
الأعرج حرجٌ ولا على المريض حَرَجٌ ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَه

---

(١) العبارات التى وردت فى إثبات صحة الإمامين جاءت فى م ولم ترد فى ص .

يُدخله جنات تجرى من تحتها الأنهارُ
ومن يتولَّ يُعَذِّبْه عذاباً أليماً »

هؤلاء أصحاب الأعذار . . رفع عنهم الحَرَجَ فى تخلفهم عن الوقعة فى قتال المشركين .

وكذلك مَنْ كان له عُذْرٌ فى المجاهدة مع النفس . . فإنَّ الله يُحبُّ أنْ تؤتى رُخَصُه كما كما يحب أن تؤتى عزائمه(1) .

قوله جل ذكره : « لقد رَضِىَ اللهُ عن المؤمنين إذ
يبايعونك تحت الشجرة فعَلِمَ ما فى قلوبهم
فأنزل السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

هذه بيعة الرضوان ، وهى البيعة تحت الشجرة بالحديبية ، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين . . . » .

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلثمائة وقيل وأربعمائة . وكانوا قصدوا دخولَ مكة ، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صادِّين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب ، فقصده المشركون ، ثم صالحوه على أن ينصرفَ هذا العام ، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج ، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً)(2) وكان النبى قد رأى فى منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشر بذلك أصحابه ، فلما صدهم المشركون خامر قلوبَهم شىء ، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمةٌ حتى قال الصِّدِّيقُ : لم يَقُلْ العام ! فسكنت قلوبهم بنزول الآية ؛ لأن الله سبحانه علم ما فى قلوبهم من الاضطراب والتشكك . فأنزل السكينة فى قلوبهم ،

(1) هذه لفتة هامة جداً ، حيث لم نتعود من القشيرى فى سائر مصنفاته أن يستجيز الرخصة . وربما هو يتحدث هنا عن عامة المسلمين ، ولكن حينما يتحدث عن الصوفية يعتبر اللجوء إلى الرخصة بمثابة فسخ عقد الإرادة (أنظر الرسالة ص ١٩٩) .

(2) ما بين القوسين تكملة من عندنا اعتمدنا فيها على المصادر المختلفة . أوردناها ليتضح السياق

وثبّتهم باليقين. « وأثابهم فتحاً قريباً » هو فتحُ خيبر بعد مدة يسيرة ، وماحصلوا عليه من مغانمَ كثيرةٍ من خيبر . وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة[1] .

وفى الآية دليلٌ على أنه قد تخطر ببال الانسان خواطرُ مُشكِّكة ، وفى الرّيب موقعة ،ولكن لا عبرة بها ؛ فإنّ الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيدُ قلبَه ، وقارن التحقيق سِرَّه فلا يضرُّه كيدُ الشيطان ، قال تعالى : إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »[2] .

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » ويدخل فى ذلك جميعُ ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجّل لكم هذه — يعنى خيبر[3] ، وقيل : الحديبية .

« وكفَّ أيدى الناس عنكم » لما خرجوا من المدينة حَرَسهم اللهُ ، وحفظ عيالهم ، وحمى بَيْضَتهم حين همَّ اليهود[4] فى المدينة بعد خروج المسلمين ، فمنعهم اللهُ عنهم.

أو يقال : كفَّ أيدى الناس من أهل الحديبية .

« ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما »

لتكون هذه آيةً للمؤمنين وعلامةً يَسْتدلُّون بها على حراسة الله لهم .

« ويهديكم صراطاً مستقيماً » : فى التوكل على الله والثقة به .

ويقال : كفُّ أيدى الناس عن العبد هو أنْ يَرْزُقَه من حيث لا يحتسب، لئلا يحتاجَ إلى أن يتكفَّفَ الناس .

ويقال : أنْ يَرْفعَ عنه أيدى الظَّلَمة .

---

(١) هذا أيضا قول ابن عباس ومجاهد .

(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٣) يرجح أنها خيبر ، لأن الحديبية كان فيها صلح .

(٤) يرجح الطبرى ذلك ، لأن كف أيدى المشركين فى الحديبية مذكور فى قوله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم »

ويقال : ألا تحمله الطالبةُ بسبب كثرة العيال وتفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه ؛ فيأخذ من الأشياء — برخصة التأويل — ماليس بطيِّب[1] .

قوله جل ذكره : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط اللهُ

بها وكان اللهُ على كل شيء قديراً »

قيل : فتح الروم وفارس[2] . وقيل : فتح مكة[3] .

وكان الله على كل شيء قديراً : فلا تعلقوا بغيره قلوبكم .

قوله جل ذكره : « ولو قاتلكم الذين كفروا لوَلَّوا

الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً »

يعنى : خيبر وأسد وغطفان وغيرهم — لو قاتلوكم لانهزموا ، ولا يجدون من دون الله ناصراً

قوله جل ذكره : « سُنةَ اللهِ التى قد خَلَتْ من قبل

ولن تجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبديلا »

أى سُنَّةُ اللهِ خذلانُهم ولن تجد لسنة الله تحويلا .

قوله جل ذكره : « وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم

وأيديكم عنهم ببطن مكة منْ بَعد أنْ

أظفركُم عليهم وكان اللهُ بما تعملون بصيراً »

قيل إن سبعين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلماً فاستحييناهم) فأنزل اللهُ هذه الآيةَ فى شأنهم[4] .

---

(١) مرة أخرى ننبه إلى إضافة هذا الكلام إلى موقف القشيرى من الرخصة ومداها .

(٢) قال ابن عباس : هى أرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى .

(٣) عن الحسن أيضاً وقتادة ، وقال عكرمة : حنين .

(٤) فى ص ، و م (فأخذهم سلمان) ، وهو خطأ فى النسخ ، فالرواية عن يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس أن (ثمانين) رجلا من أهل مكة هبطوا على النبى (ص) من جبل التنعيم متسلحين يريدون —

وقيل أخذ اثنى عشر رجلا من المشركين — بلا عهـــد — فَمَنَّ عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم[1] وقيل : هم أهلُ الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين ، وحصل ترامى الأحجار بينهم ؛ فاضطرهم المسلمون إلى بيوتهم ، فأنزل اللهُ هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدى بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا عن عجز ؛ فأما الكفار فكفُّوا أيديهم رُعْبًا وخوفًا ؛ وأمَّا المسلمون فَنَهْيًا مِنْ قِبَلِ الله ، لما فى أصلابهم من المؤمنين — أراد اللهُ أن يخرجوا ، أو لِمَا عَلِمَ أن قومًا منهم يؤمنون .

والإشارة فيه : أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يَسْلَمَ الناسُ منك ، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك ، فلا من أحد عليهم حَيفٌ ، ولا منهم على أحد حيفٌ ولا حسابٌ ولا مطالبة ولا صلحٌ ولا معاتبة ، ولا صداقة ولا عداوة . وكذا من كان بالحق — وأنشدوا:

فلم يبقَ لى وقتٌ لِذِكرِ مُخَالِفٍ

ولم يبق لى قلبٌ لذكر موافق.

« قوله جل ذكره : « هم الذين كفروا وصدُّوكم عن المسجدِ الحرام والهَدْىَ معكوفًا أن يبلغَ مَحِلَّه »

« كفروا » وجحدوا ، « وصدوكم » ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية .

« والهدى معكوفًا[2] »: أى منعوا الهَدْىَ أن يبلغ مَنحرَه ، فمعكوفًا حالٌ من الهدى أى محبوسًا .

= غرة (أن يصيبوه على غفلة) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأخذتهم سلماً فاستحييتهم . (أى أخذوا قهراً وأسلموا أنفسهم (وقال ابن الأثير) السلم (بكسر السين وفتحها لغتان فى الصلح) . وفى رواية قتادة أن النبى سألهم : وهل لكم على ذمة ؟ (= أى عهد) قالوا : لا ، فأرسلهم فنزلت .

وفى رواية الترمذى أنهم ثمانون رجلا هبطوا عليه عند صلاة الصبح ، فأخذهم وأعتقهم . وذكر ابن هشام أنهم يُسَمَّوْنَ العتقاء .. ومنهم معاوية وأبوه .

(١) عن قتادة : أن المشركين رموا رجلا من أصحاب النبى يقال له زُنيم بسهم فقتلوه ، فبعث النبى خيلا فأتوا باثنى عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم النبى (ص) : هل لكم على ذمة ؟ ... الخ .

(٢) فى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله (ص) معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر الرسول وحلق رأسه ، فنحروا بنحره وحلقوا ، وقد غضب الرسول ان توقف عن ذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق تلك السَّنَةَ سبعين بَدَنَةً .

قوله جل ذكره : « ولولا رجالٌ مؤمنونَ ونساءٌ
مؤمناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم[1] فتصيبكم
منهم مَعَرَّةٌ بغير علم ليُدْخِلَ اللهُ في رحمته
مَن يشاء »

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرَّة منكم بغير علم لَسلَّطْنا كم عليهم ولأظفرناكم بهم.

وفي هذا تعريفٌ للعبد بأن أموراً قد تنغلق وتتعسَّر فيضيق قلب الإنسان . . ولله في ذلك سِرٌّ ، ولا يعلم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري . . كما قالوا :

كم مرة حفَّت بك المكاره خير لك اللهُ . . وأنت كاره

قوله جل ذكره : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم
الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية فأنزل اللهُ سكينَتَه
على رسوله وعلى المؤمنين وألْزَمهم
كلمةَ التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها
وكان اللهُ بكل شيءٍ عليما »

يعني الأَنَفَةَ[2] ؛ أي دَفَعَتْهم أنفةُ الجاهلية أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سَنَةَ الحديبية ، فأنزل اللهُ سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة ، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالحِلْم .

« وألزمهم كلمة التقوى » وهي كلمةُ التوحيد تَصْدُرُ عن قلبٍ صادق : فكلمةُ التقوى يكون معها الاتقاءُ من الشِّرْك.

---

(١) أن تطئوهم : بالقتل والإيقاع بهم . يقال وطئت القوم : أي أوقعت بهم . فجواب لولا محذوف والمعنى : ولو أن تطئوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم في دخول مكة ، ولسلطكم عليهم، ولكننا صنا من كان فيها يكتم وإيمانه .

(٢) هكذا في م وهي في ص (الأنية) وقد رجحنا الأولى .

« وكانوا أحقَّ بها » حسب سابق حُكْمِه وقديم[1] علمه . . « وكان الله بكل شيء عليما »

ويقال : الإلزامُ فى الآية هو إلزامُ إكرامٍ ولطف ، لا إلزام إكراهٍ وعُنفٍ ؛ وإلزامُ برٍّ لا إلزام جبر . .

وكم باسطين إلى وَصْلنا
أكفهمو . . لم ينالوا نصيبا !

ويقال كلمة التقوى : التواصى بينهم بحفظ حق الله .

ويقال : هى أنْ تكون لك حاجةٌ فتسأل الله ولا تُبديها للناس .

ويقال : هى سؤالك من الله أنْ يحرُسَك من المطامع .

قوله جل ذكره : لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ
لتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ
آمنين مُحَلِّقين رءوسَكم ومُقَصِّرِين
لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون
ذلك فتحاً قريباً . »

أى صدقه[2] فى رؤياه ولم يكذبه ؛ صدقه فيما أراه[3] من دخول مكة « آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين » كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأخبر أصحابه . فوطَّن أصحابه نفوسهم على دخول مكة فى تلك السنة . فلمّا كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شىء ، حتى قيل لهم لم يكن فى الرؤيا دخولهم فى هذا العام ، ثم أذن الله فى العام القابل ، فأنزل الله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » فكان ذلك تحقيقا لما أراه ، فرؤياه صلوات الله عليه حق ؛ لأن رؤيا الأنبياء حق .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (وقدر) وقد رجحنا الأولى .

(٢) أى على حذف الجار كقوله تعالى : «صدقوا ما عاهدوا الله عليه .»

(٣) إشارة إلى الرؤيا التى أراه إياها من دخوله وصحبه مكة آمنين

وكان فى ذلك نوعُ امتحانٍ لهم : « فعلم مالم تعلموا » أتم من الحكمة فى التأخير[1] .

وقوله : « إن شاء الله » معناه إذ شاء الله كقوله : « إن كنتم مؤمنين »

وقيل . قالها على جهة تنبيههم إلى التأدُّب بتقديم المشيئة فى خطابهم[2]

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى : إن شاء الله آمنين أو غير آمنين .

وقيل . يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلِّهم أو دخول بعضهم ؛ فان الدخول كان بعد سنة ، ومات منهم قومٌ .

قوله جل ذكره . « هو الذى أرسل رسولَه بالْهدَى ودينِ الحقِّ لِيُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه وكفَى باللهِ شهيداً » .

أرسل رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الحنفى ، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين[3] ؛ فما من دينٍ لقوم إلا ومنه فى أيدى المسلمين سِرٌّ ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات .

وقيل : ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام[4] .

وقيل : فى القيامة حيث يظهر الإسلامُ على كل الأديان .

وقيل : ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل .

قوله جل ذكره . « محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشِدَّاءُ على الكفَّارِ رُحماءُ بينهم »

---

(١) قد تكون الحكمة فى التأخير هو ما سيحدث لهم من الخير والصلاح والتفوق وكثرة العدد ، فإنه عليه السلام رجع من هذا الموقف إلى خيبر فافتتحها ، ورجع بأموال وعدة ورجال أضعاف ما كان عليه فى ذلك العام ، وأقبل على مكة فى أهبة وعدة . يدلك على ذلك أنهم كانوا عام الحديبية سنة ست عددهم ألف وأربعمائة ، وكانوا بعده عشرة آلاف .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : «ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله» .

(٣) أى أن (الدين) فى الآية اسم جنس ، أو اسم بمعنى المصدر ، ويستوى فيه المفرد والجمع .

(٤) أى عند نزوله لا يبقى على وجه الأرض كافر .

« أشداء » . جمع شديد ، أى فيهم صلابةٌ مع الكفار .

« رحماء » . جمع رحيم ،وصَفَهم بالرحمة والتوادِّ فيما بينهم .

« ... تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من اللهِ ورضواناً »

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان .

« ... سيماهم فى وجوهِهم من أثرِ السجود »

أى علامة التخشع التى على الصالحين .

ويقال : هى فى القيامة يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ ، وأنهم يكونون غداً محجلين .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « منْ كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجههُ بالنهار »(1)

ويقال فى التفسير : « معه » أبو بكر ، و « أشداء على الكفار » عمر ؛ و « رحماء بينهم » : عثمان ، و « تراهم ركعاً سجداً » علىٌّ رضى الله عنهم(2)

وقيل : الآيةُ عامةٌ فى المؤمنين .

« ذلك مَثَلُهم فى التوراةِ ومَثَلُهم
فى الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْأه فآزَرَهُ
فاستغلظ فاستوى على سوقِهِ يُعْجِبُ
الزُّرَّاعَ ليغيظَ بهم الكفار » .

هذا مَثَلُهم فى التوراة ، وأمَّا مَثَلُهم فى الإنجيل فكزرع(3) أخرج شطأه أى : فراخَه .

---

(1) جاء فى سنن ابن ماجة : حدثنا اسماعيل بن محمد الطلحى قال وحدثنا ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كثرت صلاته ...» وقال ابن العربى : هو مدسوس على وجه الغلط .

(2) هكذا فى م أما فى ص فلم يرد ذكر للصحابة رضوان الله عليهم سوى الجزء الأخير الخاص بعلى كرم الله وجهه ،وقد يمكن لو تذكرنا ما جاء فى هامش ص ٤٢٥ – أن نستنبط أن ناسخ ص – الذى هو قادمى الأصل كما قلنا فى مدخل الكتاب – ربما كان شيعياً .

(3) فعلى هذا يجوز الوقف على (التوراة) ثم يستأنف الكلام فيكون هناك مثلان. وقال مجاهد : هو مثل واحد . وعند النسفى : مكتوب فى الإنجيل :سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (حـ٤ ص ١٦٤) .

يقال : أشطأ الزرعُ إذا أخرج صغاره على جوانبه . « فآزره » أى عاونه. «فاستغلظ » أى غلُظ واستوى على سوقه ؛ وآزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض . يعجب هذا الزرعُ الزرّاع ليغيظ بالمسلمين الكفار ؛ شَبَّهَ النبى (صلى الله عليه وسلم) بالزرع حين تخرج طاقةواحدة ماينبت حولها فتشتد ، كذلك كان وحده فى تقوية دينه بمن حوله من المسلمين .

فَمَنْ حمل الآية على الصحابة : فمن أبغضهم دخل فى الكفر، لأنه قال:« ليغيظ بهم الكفار» أى بأصحابه الكفارَ. ومَنْ حمله على المسلمين ففيه حُجَّة على الإجماع ، لأنَّ منْ خالف الإجماع — فالله يغايظ به الكفارَ — فمخالفُ الإجماعِ كافرٌ.

قوله جل ذكره:« وعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيمًا »

وَعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة للذنوب ، وأجراً عظيماً فى الجنة فقوله : « منهم » للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان .

بسم الله الرحمن الرحيم

[« بسم اللهِ » : إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ القِـدَم .

« الرحمنِ الرحيمِ » : إخبارٌ عن بقائه بوصفِ العَلاء والـكَرَم .

كاشَفَ الأرواحَ بقوله : « بسم اللهِ » فهَيَّمَها .

وكاشَفَ النفوسَ بقوله : « الرحمنِ الرحيمِ » فتَيَّمَها ؛ فالأرواحُ دَهْشَى فى كَشْفِ جلالهِ ، والنفوسُ عَطْشَى إلى لُطفِ جماله] .

عبد الـكريم القشيرى

فى

بسملة « الشمس »

سورة الحجرات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ كريمٌ مَنْ تَنصَّلَ إليه من زلَّاته تَفَضَّلَ عليه بنجاته ، ومَنْ توَسَّلَ إليهِ بطاعاته تطوَّل عليه بدرجاته .

« بسم الله » اسم عزيز مَنْ تقرّب إليه بمناجاته قابَلَه بلطف أفضاله ، ومَنْ تحبَّبَ إليه بإيمانه أقبلَ عليه بكشف جلاله وجماله .

قوله جل ذكره : « يَأيها الذين آمنوا لا تُقَدِّموا بين
يَدَىِ اللهِ ورسولِه واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ
سميعٌ عليمٌ » .

« يأيها الذين آمنوا » : شهادةٌ للمنادَى بالشَّرف .

« لا تقدموا » أمرٌ بتحمُّل الكُلَف. قدَّمَ الإكرام بالشرف على الإلزام بالكُلَف أى لا تقدموا بحكمكم « بين يدى الله ورسوله » : أى لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله ، أى لا تعملوا من ذات أنفسكم شيئاً .

ويقال : قفوا حيثما وُقِفتم ، وافعلوا ما به أُمِرْتُم ، وكونوا أصحابَ الاقتداء والاتّباع . . لا أربابَ الابتداء والابتداع .

قوله جل ذكره : « يَأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتَكم
فوقَ صوتِ النبيِّ ولا تجهروا له
بالقولِ كجهرِ بعضكُم لبعضٍ أن
تحبطَ أعمالُكم وأنتم لا تشعرون » .

أَمَرَهم بحفظِ حرمته ، ومراعاةِ الأدب فى خدمته وصحبته ، وألاَّ ينظروا إليه بالعين التى ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخُلُقِه يُلاينُهم فينبغى ألا يتبسَّطوا معه متجاسرين ، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به مِنْ تخلُّقِه عن حدودِهِم زائدين .

ويقال : لا تبدأوه بحديثٍ حتى يُفاتِحَكم .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يَغُضُّون أصواتَهم عندَ رسولِ اللهِ أولئك الذين امتحنَ اللهُ قلوبَهم للتقوى لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم » .

هم الذين تقع السكينةُ عليهم من هيبة حضرته ، أولئك هم الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى بانتزاع حُبِّ الشهوات منها ، فاتقوا سوء الأخلاقِ ، وراعوا الأدبَ .

ويقال : هم الذين انسلخوا من عادات البشرية .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يُنَادونكَ مِن وراءِ الحُجُراتِ أكثرهم لا يَعْقِلون * ولو أنَّهم صَبَروا حتى تَخْرُجَ إليهم لكان خيراً لهم واللهُ غفورٌ رحيم » .

أى لو عرفوا قَدْرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَك ، والتزموا هَيْبَتَك .

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا ، ولم يوقظوك وقت القيلولة بندائهم لكان خيراً لهم (١) .

أمَّا أصحابه — صلواتُ الله عليه وسلامه — الذين يعرفون قدْره فإنَّ أحدهم — كما فى الخبر: « كأنه يَقْرَعُ بابَه بالأظافر » .

---

(١) يقال : نزلت فى قوم من بنى تميم منهم الأقرع بن حابس وسويد بن هاشم ، ووكيع بن وكيع ، وعيينة ابن حصن ، وأن الأقرع نادى النبى (ص) من وراء حجرته أن اخرج إلينا فإن مدحنا زينٌ وذمَّنا شينٌ . وكان ذلك وقت الظهيرة والنبى فى راحته وبعض شئونه الخاصة . فاستيقظ وخرج لهم .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتُصْبِحوا على ما فَعَلْتُم نادمين » .

دلّت الآية[1] على تَرْكِ السكونِ إلى خَبَرِ الفاسق إلى أن يظهر صِدْقُه .

وفى الآية إشارة إلى تَرْكِ الاستماع إلى كلامِ الساعى والنَّمَّامِ والمغتابِ للناس .

والآيةُ تَدُلُّ على قبول خبرِ الواحدِ إذا كان عَدْلاً .

والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة[2] . ويقال هو الخارج عن حدِّ المروءة .

ويقال : هو الذى ألقى جِلبابَ الحياء .

قوله جل ذكره : « واعلموا أنَّ فيكم رسولَ اللهِ لو يُطيعُكم فى كثيرٍ من الأمرِ لَعَنِتُّم ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنَه فى قلوبكم وكَرَّه إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون » .

أى لو وافقكم محمدٌ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى كثير مما تطلبون منه لوقعتم فى العَنَتِ — وهو الفساد[3] . ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأصابتكم من ذلك شدة .

والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم فى أكثر الأمور إذا لم يَرَ فى ذلك مصلحة لكم وللدين .

---

(١) يقال : نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط .. أرسله النبى (ص) ليجبى الصدقات من بنى المصطلق . فلما أبصروه تقدموا نحوه فهابهم ؛ فقد كانت بينه وبينهم إحنة .. فعاد من فوره إلى النبى وأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فلم يقنع النبى (ص) بما سمع وأرسل إليهم خالد بن الوليد ليتثبت من الأمر فأخبروه أنهم على إسلامهم ، وأنهم كانوا خارجين إلى سفير النبى لإكرامه ، واستيقن خالد من ذلك حين سمع أذانهم وصلاتهم .. فعاد إلى النبى وجلى حقيقة الأمر .

(٢) مشتق من فَسَقَت الرطبة أى خرجت من قشرها ، والفأرة من جحرها .

(٣) للعنت معان أخرى : فهو : الفجور والزنا — كما جاء فى سورة النساء . وهو : الوقوع فى أمر شاق كما جاء فى آخر سورة براءة .

« ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمان » : الإسلام والطاعة والتوحيد ، وزيَّنَها فى قلوبكم .

« وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان . . » : هذا من تلوين الخطاب .

وفى الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقِّ فى القَدَر(1) ، وتخصيص المؤمنين بألطاف لا يشترك فيها الكفارُ . ولولا أنَّه يوفِّر الدواعيَ للطاعات لَحَصَلَ التفريط والتقصير فى العبادات .

« فضلاً من الله ونعمة » : أى فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمةً . والله عليم حكيم .

قوله جل ذكره : « وإن طائفتان(2) من المؤمنين اقتتلوا فأصْلِحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التى تبغى حتى تفِيءَ إلى أمْرِ الله فإن فاءتْ فأصْلِحوا بينهما بالعَدْلِ وأقْسِطوا ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطين » .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه — والفسق دون الكفر — لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين — لا محالة — فاسقة إذا اقتتلا .

وتدل الآية على وجوب نصرة المظلوم ؛ حيث قال : « فإن بغت إحداهما على الأخرى . . . » .

والإشارة فيه : أن النفس إذا ظَلَمَتِ القلب بدعائه إلى شهواتها ، واشتغالها فى فسادها فيجب

---

(1) يقصد القشيرى أن القائلين بأن الله سبحانه المنفرد بخلق ذوات العباد وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم و . . . على صواب لأن الآية صريحة فى خلق الأفعال ؛ فهو الذى حبَّب إلى الإيمان والعكس .

(2) يقال نزلت فى ابن أُبَىّ حين وقف الرسول على مجلس به بعض الأنصار وهو على حمار فقال ابن أبى : خلِّ سبيل حمارك فقد آذانا ، فانبرى له عبد الله بن رواحة قائلاً :

والله إنَّ بول حماره لأطيب من مسكك .

وبعد أن مضى الرسول (ص) طال الخوض بينهما حتى استبَّا وتجالدا ، واشتبك الأوس والخزرج وتجالدوا بالعصى . وقيل بالأيدى والنعال والسعف ، فرجع الرسول (ص) إليهم فأصلح بينهم .

أن يقاتلها حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة . فإن استجابت إلى الطاعة يُفَق عنها لأنها هى المطيَّةُ إلى باب الله .

قوله جل ذكره : « إنَّما المؤمنون إخوةٌ فأصْلِحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلَّكم تُرْحَمون ».

إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين مِنْ أوْكد عزائم الدِّين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وِزْرِ الواشى والنَّمام ؛ والمصْدَرِ فى إفساد ذات البَيْن.

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صِدْق هِمةِ عبدٍ فى إصلاح ذات البيْن)[1] فإنه يرفع عنهم تلك العصبيَّة[2].

فأما شرط الأخوة : فَمِنْ حقِّ الأُخُوةِ فى الدِّين ألا تُحْوِجَ أخاك إلى الاستعانة بك أو التماس النصرة عنك ، وألا تُقصِّرَ فى تَفَقُّدِ أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مساءلتك .

ومن حقّه ألا تُلْجِئَه إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذْرَه ؛ فإنْ أشكلَ عليكَ وَجْهه عُدْتَ باللائمة على نفسك فى خفاء عُذْرِه عليك ومن حقه أنْ تتوبَ عنه إذا أذْنَبَ ، وتَعودَه إذا مرض . وإذا أشار عليك بشىء فلا تُطَالِبْهُ بالدليل عليه وإبراز الحُجَّة — كما قالوا :

إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دعاهم   لأيَّةِ حَرْبٍ أم لأى مكان

ومِنْ حقِّه أنْ تحفظَ عَهْدَه القديم ، وأنْ تُراعِيَ حقَّه فى أهله المتصلين به فى المشهد والمغيب ، وفى حال الحياة وبعد الممات[3] — كما قيل :

وخليل إن لم يكن منصفاً كُنْتَ منصفا

(١) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص المعصية ونحن نؤثر الأولى لملاءمتها للسياق .

(٣) فى هذه الفقرة ما يدحض مزاعم الذين يقولون بأن الصوفية قوم انعزاليون ، لايفهمون معنى العلاقات الاجتماعية ولايقدرونها .

تنحّى له الأمرَ ين وكُنْ ملاطفا
إنْ يَقُل لكَ استوِ احترفْ تَ رضًى لا تكلّفا

قوله جل ذكره: « يأيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يَكُنَّ خيراً منهن ، ولا تَلْمِزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بعد الإيمان ومَن لم يَتُبْ فأولئك هم الظالمون » .

نهى اللهُ — سبحانه وتعالى — عن ازدراء الناس ، وعن الغِيْبَةِ ، وعن الاستهانةِ بالحقوق ، وعن تَرْكِ الاحترام .

« ولا تلمزوا أنفسكم » : أى لا يَعِيبَنَّ بعضُكم بعضاً ، كقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »[1] .

ويقال : ما استصغر أحدٌ أحداً إلا سُلِّطَ عليه . ولا ينبغى أن يُعْتَبَر بظاهر أحوال الناس فإنَّ فى الزوايا خبايا . والحقُّ يستر أولياءه فى حجابِ الضَّعَةِ[2] ؛ وقد جاء فى الخبر :

« رُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأبَرَّه »[3] .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً ، أيُحِبُّ

(١) آية ٢٩ سورة النساء .

(٢) الضعة هنا بمعنى خمول الذكر وانطفاء المنظر .

(٣) فى بعض الروايات بزيادة : « وإن البراء منهم » ؛ وعند مسلم بلفظ « رُبَّ أشعث أغبر مدفوع إلى الأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه » .

أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً
فكرهتموه واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ
توّابٌ رحيم » .

النَّفْسُ لاتَصْدُقُ ، والقلبُ لايَكْذِبُ . والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ ومَنْ بَقِيَتْ عليه من حظوظه بقيّةٌ — وإنْ قَلَّتْ — فليس له أن يَدَّعى بيانَ القلب بل هو بنفسه مادام عليه شيء من نَفْسِه ، ويجب أن يَتَّهِمَ نَفْسَهُ فى كل مايقع له من نقصان غيره . هـذا أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يخطب . « كلُّ الناس أفقهُ من عمر .. امرأةٌ أفقهُ من عمر » .

« ولا تجسسوا » . والعارف لا يتفرغ من شهود الحقِّ إلى شهود الخَلْق . . فكيف يتفرغ إلى تجَسُّسِ أحوالهم ؟ وهو لا يتفرغ إلى نَفْسِه فكيف إلى غيره ؟ « ولا يغتب بعضكم بعضاً » : لا تحصل الغيبة للخَلْق إلّا من الغيبةِ عن الحقِّ .

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً .. » جاء فى التفسير أن المقصود بذلك الغيبة ؛ وعلى ذلك يدل ظاهر الآية . وأخَسُّ الكفّار وأقلُّهم قَدْراً مَنْ يأكل الميتةَ .. وعزيزٌ رؤيةُ مَنْ لا يغتاب أحداً بين يديك .

قوله جل ذكره : « يأيها الناسُ إنّا خلقناكم مِن ذَكَرٍ
وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا
إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكم إن الله
عليمٌ خبيرٌ » .

إنّا خلقناكم أجمعكم من آدمَ وحواء ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا لا لتُكاثروا ولا لتنافسوا . فإذا كانت الأصولُ تربةً ونطفةً وعَلَقَةً .. فالتفاخر بماذا ؟ أبا لحمأ المسنون ؟ أم بالنطفة فى قرار مكين ؟ أم بما ينطوى عليه ظاهرك مما تعرفه ؟ ! [1] وقد قيل :

(١) ربما نفهم من هذه العبارة ما يقصده القشيرى فى موضع آخر مماثل من سخرية بالإنسان وتحطيم لتجبره ؛ كأن يقول له : من أنت أيها الإنسان ؟ أنت كنيف فى قميص ! ألا ترى إلى ريح إبطك إذا عرقت ، وإلى ريح فمك إذا جعت ! ؟ ... ونحو ذلك .

إنَّ آثارَنا تَدُلُّ علينا فانظُروا بعدَنا إلى الآثارِ

أم بأفعالك التى هى بالرياء مَشُوبة ؟ أم بأحوالك التى هى بالإعجاب مصحوبة ؟ أم بمعاملاتك التى هى ملأى بالخيانة ؟

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟ أتقاكم أى أبعَدكم عن نَفْسِه ، فالتقوى هى التحرُّر من النفس وأطماعها وحظوظها . فأكرمُ العبادِ عند اللهِ مَنْ كان أبْعد عن نَفْسِه وأقربَ إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : « قالتِ الأعرابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنوا ولَـكن قولوا أسْلَمنا » .

الإيمانُ هو حياة القلب ، والقلب لا يحيا إلا بعد ذَبْح النَّفس ، والنفوسُ لا تموت ولـكنها تغيب ، ومع حضورها لا يَتِمُّ خيرٌ ، والاستسلامُ فى الظاهر إسلام . وليس كلُّ مَن استسلَمَ ظاهراً مخلصٌ فى سِرِّه .

« ولمَّا يَدْخُلِ الإيمان فى قلوبكم »

فى هذا دليلٌ على أن محلَّ الإيمانِ القلبُ . كما أنه فى وصف المنافقين قال تعالى : « فى قلوبهم مرض » ؛ ومرَضُ القلبِ والإيمانُ ضدان .

« إنمـا المؤمنون الذين آمنوا باللهِ ورسـولِه ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم فى سبيلِ اللهِ أولئك هم الصادقون » .

جَعَلَ اللهُ الإيمـانَ مشروطاً بخصالٍ ذَكَرَها ، ونَصَّ عليها بلفظ « إنما » وهى للتحقيق الذى يقتضى طَرْدَ العَكْسِ ؛ فَمَنْ خَرَجَ عن هذه الشرائط التى جَعَلَها للإيمان فمردودٌ عليه قَوْلُه .

والإيمانُ يوجِبُ للعبد الأمان ، فما لم يكن الإيمان موجِبًا للأمانِ فصاحبُه بغيره أوْلَى .

قوله جل ذكره : « قُلْ أتُعَلِّمون اللهَ بدينِكم واللهُ يعلم
ما في السمٰوات وما في الأرضِ واللهُ
بكل شيء عليم » .

تدل الآية على أنَّ الوقوفَ[1] في المسائل الدينية يُعتَبرُ واجباً ؛ فالأسامى منه تُؤخَذ ، والأحكامُ منه تُطلَب ، وأوامره مُتَّبعة[2] .

قوله جل ذكره : « يَمُنُّون عليك أنْ أسلموا قُل
لا تَمُنُّوا علىَّ إسلامَكم بلِ اللهُ
يَمُنُّ عليكم أنْ هَداكم للإيمانِ إن
كنتم صادقين » .

مَنْ لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإنْ رآها مِنْ نَفْسه كان شِرْكاً ، وإنْ رآها لنفسه كان مكراً فكيف يمن العبد بما هو شِرْكٌ أو بما هو مكر ؟ !

والذى يجب عليه قبول المِنَّة ... كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّة ؟ ! هذا لعمرى فضيحة ! بل المِنَّةُ لله ؛ فهو ولىُّ النعمة . ولا تكون المنةُ منةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً في حاله ، فأمَّا إذا كان معلولاً في صفة من صفاته فهي محنةٌ لصاحبها لا مِنَّة .

والمِنَّةُ تُكَدِّرُ الصنيعَ إذا كانت من المخلوقين ، ولكن بالمِنَّةِ تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يعلم غيب السمٰوات والأرضِ
واللهُ بصيرٌ بما تعملون » .

---

(1) هكذا في م وهى بمعنى (التوقف) (والتوقيف) عند بعض الأمور . ولهذا فما جاء في ص وهو (التوفيق) خطأ في النسخ .

(2) فالاتباع واجب و لابتداع مرفوض - كما نبهنا القشيرى من قبل .

ومَنْ وُقِف ها هنا تَـكدَّرَ عليه عَيْشُهُ ؛ إذ ليس يدرى ما غيبه فيه ، وفى معنى هذا قول القائل :

أبكى . . وهل تدرين ما يبكينى ؟
أبكى حذاراً أن تفارقينِى
وتقطعى وَصْـــــلى وتهجرينى[1]

(١) فى (اللمع) للسراج وتقطعى (سبل) وتهجرينى (اللمع ص ٣٠٥) وكلاهما صحيح فى المعنى ملائم للوزن .

سُورَةُ قٓ

« بسم الله » اسم جَبَرَ أحوالَ مَنْ رَحِمَه ، متجبِّرٌ بكبريائه على من أقماه قَهَرَه وحرَمه .

« بسم الله » لطيفٌ يعلم خفايا تصنُّع العابدين ، غافرٌ لجلائلِ ذنوبِ العاصين .

قوله جل ذكره : « قٓ والقرآنِ المجيدِ ».

قٓ مفتاح أسمائه : « قوى وقادر وقدير وقريب » .. أقسم بهذه الأسماء وبالقرآن المجيد . وجوابُ القَسَم محذوف ومعناه لَتُبْعَثُنَّ فى القيامة .

ويقال جوابه : « قد علمنا ما تنقُصُ الأرضُ منهم وعندنا كتاب حفيظ » أى لقد علمنا . وحذفت اللام لمَّا تطاول الخطاب .

ويقال : جوابه قوله : « مايبدَّلُ القولُ لدىّ » .

قوله جل ذكره : « بل عَجِبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب » .

« منذرٌ منهم » : هو محمد صلى الله عليه وسلم

والتعجُّبُ نوعٌ من تعبير النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارج العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْل . وقد مضى القولُ فى إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك :

« أئذا مِتْنا وكُنَّا تراباً ذلك رَجْعٌ بعيدٌ »

أى يَبْعُدُ عندنا أنْ نُبْعثَ بعد ما مِتْنا . فقال جل ذكره :

« قد عَلِمْنا ما تنقص الأرضُ منهم
وعندنا كتابٌ حفيظ » .

فى هذا تسلية للعبد فإنه إذا وُسِّدَ التراب ، وانصرف عنه الأصحاب ، واضطرب لوفاته الأحباب . . فَمَنْ يَتَفَقَّدُه ومَنْ يتَعَهَّدُه . . . وهو فى شفير قبره ، وليس لهم منه شىء سوى ذِكْرِه ، ولا أحدَ منهم يدرى ما الذى يقاسيه المسكين فى حُفْرته ؟ فيقول الحقُّ — سبحانه : « قد علمنا . . . » ولعلَّه يخبر الملائكة قائلا : عَبدى الذى أخرَجته من دنياه — ماذا بقى بينه مَنْ يهواه ؟ هذه أجزاؤه قد تفرَّقَتْ ، وهذه عِظامُه بَلِيَتْ ، وهذه أعضاؤه قد تَفَتَّتَتْ !

« وعندنا كتابٌ حفيظ » : وهو اللَّوحُ المحفوظ ؛ أثبتنا فيه تفصيل أحوالِ الخَلْقِ من غير نسيانٍ ، وبيَّنّا فيه كلَّ ما يحتاج العبدُ إلى تَذَكُّرِه .

قوله جل ذكره : « بل كَذَّبوا بالحقِّ لمَّا جاءهم فهم فى أمْرٍ مَرِيج » .

« مريج » أى مختلط ومُلْتبس ؛ فهم يترددون فى ظُلُمات تحيُّرِهم ، ويضطربون فى شكِّهم .

قوله جل ذكره : « أَفَلَمْ ينظروا إلى السماء فوقَهم كيف بَنَيْناها وزَيَّنّاها وما لها من فروج » .

أَوَلَمْ يعتبروا ؟ أَوَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بما رفعنا فوقهم من السماء ، رفعنا سَمْكَها فَسَوَّيْناها ، وأثبتنا فيها الكواكبَ وبها زَيَّنّاها ، وأَدَرْنا فيها شَمْسَها وقمرَها ؟ أو لم يروا كيف جَلَّسْنا عَيْنَها ونَوَّعْنا أثرَها ؟

« والأرضَ مَدَدْناها وألقينا فيها رواسِيَ
وأنبتْنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيج » .

والأرض مددناها ؛ فجعلناها لهم مِهاداً ، وجَعَلْنا لها الجبالَ أوتاداً ، وأنْبَتْنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً . . كل ذلك :

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ »

علامةً ودلالةً لكل من أناب إلينا ، ورجع من شهودِ أفعالنا إلى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهودِ حقِّنا وذاتنا[1] .

قوله جل ذكره : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ » .

أنزلنا من السماء ماء مباركاً كثيرَ النفع والزيادة ، فأنبتنا به « جنات وحب الحصيد » : أى الذى يُحْصَد — كما تقول : مسجد الجامع .

الأجزاء متجانسة . ولكنَّ أوصافَها فى الطعوم والروائحِ والألوانِ والهيئاتِ والمقادير مختلفة .

قوله جل ذكره : « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » .

والنخلُ باسقاتٌ : طويلاتٌ ، لها طَلْعٌ منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطَّلْع أو لما فيها من الثمار . وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالتفاح والكمثرى وغيرها ، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب وغيرها . . كلٌّ ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكى ينتفعوا به .

« . . . وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ » .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جفَّ نباتُها ، وكما فعلْنا كُلَّ هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك — كذلك نجمعكم فى الحشر والنشر ، فليس بَعْثُكم بأبعدَ من هذا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ❁ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

---

(١) هذا الترتيب فى منازل الشهود له أهمية فى فهم المعراج الروحى عند هذا الإمام ، وواضح منه أن أعلى درجات الشهود شهود الذات .. وذلك بشرائط سبقت الإشارة إليها فى غير موضع من الكتاب ، ولكننا مع ذلك لا ننسى أن القشيرى — كما نعرف من منهجه — يرى الاستشراف من (الذات) من المحال ، فقد جلت الصمدية عن الدرك واللحوق .. مهما سما العبد فى معراجه الروحى .

لوط • وأصحابُ الأيكةِ وقومُ تُبّعٍ
كلٌّ كذّبَ الرُّسُلَ فحقّ وعيد » .

إنّا لم نَعْجَزْ عن هؤلاء — الذين ذكر أسماءهم — وفيه تهديدٌ لهم وتسلية للرسول .

« أفعَيِينا بالخلقِ الأول ؟ بل هم فى
لَبْسٍ من خَلْقٍ جديد » .

أى إنّا لم نعجزْ عن الخَلْق الأول . . فكيف نعجز عن الخلق الثانى — وهو الإعادة ؟ لم يتعص علينا فعلُ شىء ، ولم نتعب من شىء . . فكيف يشق علينا أمر البعث؟أى ليس كذلك(1).

قوله جل ذكره : « ولقد خَلَقْنا الإنسانَ ونعلم ما تُوَسْوِسُ
به نَفْسُه ونحن أقربُ إليه من حَبْلِ
الوريد » .

نعلم ما توسوس به نَفْسُه من شهواتٍ تطلب استنفاذها ، مثل التصنُّع مع الخَلْق ، وسوء الخُلُق ، والحقد . . وغير ذلك من آفات النَّفْس التى تُشَوِّش على القلب والوقت .

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » فحَبْلُ الوريد أقربُ أجزاء نَفْسِه إلى نَفْسِه ، والمرادُ من ذلك العلم والقدرة ، وأنه يسمع قولَهم ، ولا يشكل عليه شىءٌ من أمرهم .

وفى هذه الآية هَيْبَةٌ وفزَعٌ وخوفٌ لقومٍ ، ورَوْحٌ وسكونٌ وأُنْسُ قلبٍ لقومٍ .

قوله جل ذكره : « إذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيانِ عَنِ اليمين وعَنِ
الشمالِ قعيد » .

خوّفَهم بشهود الملائكة وحضور الحَفَظَةِ ، وبكتابتهم عليهم أعمالَهم ، فهما قَعيدا(2) كلٌّ

---

(1) فالاستفهام هنا للإنكار أو النفى .

(2) عبر عن المثنى بالمفرد للدلالة بواحدٍ على الاثنين مثل قول الشاعر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى ... بريئاً ومن أجل الطوى رمانى

أى رمانى بأمر كنت منه بريئاً وكان والدى منه بريئاً .

أحد : ويقال : إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيراتِه ، وواحدٌ على يساره يكتب معاصيه ، وإذا قام فواحدٌ عند رأسِه وواحد عند قَدَمِه ، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرُ خَلْفَه .

ويقال : هما اثنان بالليل لـكلٍّ واحدٍ ، واثنان بالنهار .

ويقال : بل الذى يكتب الخيرات اليومَ يكون غيره غداً ، وأمَّا الذى يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال : بل الذى يكتب المعصية اثنان ؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلةٍ اثنان آخران لئلا يُعْلَمَ من مساويك إلا القليل منها ، ويكون عِلْمُ المعاصى متفرقاً فيهم[1] .

قوله جل ذكره : « وجاءتْ سَـكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كُنتَ منه تحيد » .

إذا أشرفت النَّفْسُ على الخروجِ من الدنيا فأحوالُهم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يزداد فى ذلك الوقت خوفُهُ ولا يَتَبيَّنُ إلا عند ذهابِ الروح حالَه . ومنهم مَنْ يُكاشَفُ قبلَ خروجه فيَسكن رَوْعُه ، ويُحفَظُ عليه عَقْلُه[2] ، ويتم له حضورُه وتمييزُه ، فيُسْلِمَ الرُّوحَ على مَهَلٍ مِنْ غير استكراهٍ ولا عبوس . . ومنهم ، ومنهم . . وفى معناه يقول بعضهم :

أنا إنْ مِتُّ ــ والهوى حشو قلبى ــ فبداء الهـوى يموت الـكرامُ

ثم قال جل ذكره : « ونُفِخَ فى الصُّورِ ذلك يومُ الوعيد * وجاءتْ كلُّ نَفْسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ » .

سائقٌ يسوقها إمّا إلى الجنة أو إلى النار ، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشرِّ .

---

(۱) واضح من ذلك مقدار ما يبثه الصوفية فى نفوس العصاة من تفاؤل ورجاء أملاً فى فتح باب التوبة

(۲) سقطت (عقله) من النسخة م ، وموجودة فى ص .

ويقال له : « لقد كُنتَ فى غفْلةٍ من هذا فكَشَفْنا عنكَ غطاءكَ فبصرُكَ اليومَ حديدٌ » .

المؤمنون — اليومَ بَصَرُهم حديد ؛ يُبْصرون رُشْدَهم ويحذرون شرَّهم .

والكافر يقال له غداً : « بصرك اليومَ حديد » أى : ها أنت عَلِمْتَ ما كنتَ فيه من التكذيب ؛ فاليومَ لا يُسْمَعُ منكَ خطابٌ ، ولا يُرْفَعُ عنكَ عذابٌ .

قوله جل ذكره : « وقال قرينُه هذا ما لدىَّ عتيد » .

لا يَخفَى من أحوالهم شىء إلا ذُكِرَ ، إنْ كان خيراً يُجَازون عليه ، وإن كان غير خيرٍ يُحَاسَبون عليه : إمَّا برحمةٍ منه فيغفر لهم وينجون ، وإمَّا على مقدار جُرْمِهم يُعَذَّبون .

« أَلْقِيا فى جهنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عنيد * مَنَّاعٍ للخيرِ مُعْتَدٍ مُرِيب » .

منَّاعٍ للزكاة المفروضة .

ويقال : يمنع فَضْلَ مائِه وفَضْلَ كَلَئِه عن المسلمين .

ويقال : يمنع الناسَ من الخيرِ والإحسانِ ، ويسىء القول فيهما حتى يُزَهِّدَ الناسَ فيهما .

ويقال : المناعُ للخير هو المِعْوانُ على الشَّرِّ .

ويقال : هو الذى قيل فيه : « ويمنعون الماعون »(١) .

« مريب » : أى يُشَكِّكُ الناسَ فى أمره لأنه غير مخلص ، ويُلَبِّسُ على الناس حالَه لأنه منافق .

قوله جل ذكره : « قال قرينُه ربَّنا ما أَطْغَيْتُه ولكن كان فى ضلالٍ بعيد » .

يقول المَلَكُ من الحَفَظَةِ المُوَكَّلُ به : ما أَعْجَلْتُه على الزَّلَّة .

---

(١) آية ٧ سورة الماعون .

وإنما[1] كَتَبْتُها بعد ما فَعَلَهَا — وذلك حين يقول الكافر : لم أفعلْ هذا ، وإنما أعجلني بالكتابة عليّ ، فيقول المَلَكُ : ربَّنا ما أعجلته ..

ويقال : هو الشيطانُ المقرونُ به ، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطانُ : ما أكرهته على كفره ، ولكنه فعل — باختياره — ما وسوسْتُ به إليه .

فيقول جل ذكره : « قال لا تَخْتَصِموا لديَّ وقد قَدَّمْتُ إليكم بالوعيد * ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ وما أنا بظلاَّمٍ للعبيد » .

لا تختصموا لديَّ اليومَ وقد أمَرْتُكم بالرُّشْدِ ونَهَيْتُكم عن الغَيّ .

قوله جل ذكره : يومَ نقولُ لجهنَّمَ هلِ امتلأْتِ وتقول هل من مزيد » [2]

« نقول لجهنَّم » ، « وتقول » : القولُ هنا على التوسُّع ؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقالت ذلك بل يُحْيِيها حتى تقولَ ذلك .

« هل من مزيد » : على جهة التغليظ ، والاستزادة من الكفار .

ويقال : بل تقول « هل من مزيد » : أى ليس فيَّ زيادة كقوله عليه السلام لمَّا قيل له : يومَ فتح مكةَ : هل ترجع إلى دارك ؟ قال : وهل ترك لنا عقيل داراً ؟ ! [3] أى لم يترك ، فإن الله — تعالى — يملأ جهنمَ من الكفارِ والعصاةِ ، فإذا ما أُخرِجَ العصاةُ من المؤمنين ازدادَ غيظُ الكفارِ حتى تمتلئُ بهم جهنم .

---

(1) هكذا في ص وهي في م (ما) والصواب ما أثبتنا .

(2) عن قتادة عن أنس عن النبي (ص) قال : يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فتقول قط قط . وفي رواية أبي هريرة : يقال لجهنم هل امتلأت وتقول : هل من مزيد فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول : قط قط (البخاري ح ٣ ص ١٢٨) .

(3) عن الزهري عن علي بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح : يا رسول الله ، أين تنزل غداً ؟ قال النبي (ص) : وهل ترك لنا عقيل من منزل ؟ ثم قال : لا يرث المؤمن الكافر ولا يرث الكافر المؤمن (البخاري ح ٣ ص ٤٢) .

قوله جل ذكره : « وأُزْلِفَتِ الجنّةُ للمتقين غيرَ بعيد » .

يقال : إنَّ الجنّةَ تُقرَّبُ من المتقين ، كما أنَّ النّارَ تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين .

ويقال : بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . وهم خواص الخواص .

ويقال : هم ثلاثةُ أصناف : قوم يُحْشَرون إلى الجنة مشاةً وهم الذين قال فيهم : « وسيق الذين اتقوا ربَّهم إلى الجنة زمراً[1] » — وهم عوام المؤمنين[2] وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا على طاعاتهم المصوَّرة لهم بصورة حيوان ، وهم الذين قال فيهم جَلَّ وعلا : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً »[3] — وهؤلاء هم الخــواص وأمّا خاص الخاص فهم الذين قال عنهم : « وأزلفت الجنة للمتقين » أى تُقرَّبُ الجنةُ منهم

وقوله : « غير بعيد » تأكيدٌ لقوله : وأزلفت » .

ويقال : « غير بعيد » : من العاصين تطييباً لقلوبهم .

قوله جل ذكره : « هذا ماتُوعَدون لكلِّ أوَّابٍ حفيظ » .

الأوَّابُ : الراجعُ إلى الله فى جميع أحواله .

« حفيظ » : أى محافظ على أوقاته ، (ويقال محافظ على حواسه فى الله حافظ لأنفاسه مع الله)[4] .

قوله جل ذكره : « مَنْ خَشِىَ الرحمنَ بالغيبِ وجاء بقلبٍ مُنيب » .

الخشيةُ من الرحمنِ هى الخشية من الفراق . (والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأُنْس ؛ ولذلك لم يقل : من خشى الجبّار ولا من خشى القهّار)[5] .

(١) آية ٧٣ سورة الزمر .
(٢) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص
(٣) آية ٨٥ سورة مريم .
(٤) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .
(٥) ما بين القوسين موجود فى ص وساقط فى م .

ويقال : الخشية من الله تقتضى العلم بأنه يفعل مايشاء وأنه لا يسألُ عمّا يفعل .

ويقال : الخشيةُ ألطفُ من الخوف ، وكأنها قريبةٌ من الهيبة[1] .

« وجاء بقلب منيب » : لم يقل بنَفْسٍ مطيعة بل قال : بقلبٍ منيب ليكونَ للعصاةِ فى هذا أملٌ ؛ لأنهم — وإن قصّروا بنفوسهم وليس لهم صِـــدْقُ القَدَمِ — فلهم الأسَفُ بقلوبهم وصدق الندّم .

قوله جل ذكره : « ادخلوها بسلامٍ ذلك يومُ الخلود » .

أى يقـال لهم : ادخلوها بسلامةٍ من كل آفةٍ ، ووجودِ رضوان ولا يسخـطُ عليـكم الحقُّ أبداً .

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ : ادخلوها بسلامٍ ، ومنهم من يقول له : لـكم ما تشاءون فيها — قال تعالى :

« لهم ما يشاءون فيها ولَدَيْنا مَزيد » .

لم يقل : « لهم ما يسألون » بل قال : « لهم ما يشاءون » : فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤلَهم يتحقق لهم فى الوَهْلة ، وإذا كانوا اليوم يقولون : ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان . . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

« ولدينا مزيد » : اتفق أهل التفسـير على أنه الرؤية ، والنظر إلى الله سبحانه[2]. وقومٌ يقولون : المزيد على الثواب فى الجنة — ولا منافاة بينهما .

---

(١) يقول الدقاق شيخ القشيرى : هى مراتب : الخوف والخشية والهيبة ؛ فالخوف من شرط الإيمان « وخافونِ إن كنتم مؤمنين» والخشية من شرط العلم : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء» . والهيبة من شرط المعرفة : « ويحذركم الله نفسه » . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على ضربين : رهبة وخشية ؛ فصاحب الرهبة يلتجىء إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجىء إلى الرب (الرسالة ص ٦٥) .

(٢) أجمعوا على أن الله تعالى يُرى بالأبصار فى الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ؛ لأن ذلك كرامة من الله تعالى لقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» . وجوّزوا الرؤية بالعقل وأوجبوها بالسمع ؛ وإنما جاز فى العقل لأنه موجود ، وكل موجود تجوز رؤيته إذا وضع الله سبحانه فينا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : « أرنى أنظر إليك» جهلاً وكفراً . وجاء السمع بوجوبه فى مثل :=

قوله جل ذكره : « وكم أهلكنا قبلَهم مِن قَرْنٍ هم أشَدُّ منهم بَطْشًا فَنَقَّبوا فى البلادِ . . هل من محيص ؟ » .

أى اعتَبِروا بالذين تَقَدَّموكم ؛ انهمكوا فى ضلالتهم ، وأصَرُّوا ، ولم يُقْلِعوا . . فأهلكناهم وما أبْقَيْنا منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « إنَّ فى ذلك لَذِكْرَىٰ لِمَن كان له قَلْبٌ أو ألْقَى السَّمْعَ وهو شهيد » .

قيل : « لمن كان له قلب » : أى من كان له عقل . وقيل : قلب حاضر . ويقال قلبٌ على الإحسان مُقْبِل . ويقال : قَلْبٌ غيرُ قُلَّب .

« أو ألقى السمع » : استمع إلى ما ينادى به ظاهرُه من الخَلْق وإلى ما يعود إلى سِرِّه من الحق[1] . ويقال : لمن كان له قلبٌ صاحٍ لم يَسْكر[2] من الغفلة . ويقال : قلبٌ يعد أنفاسَه مع الله . ويقال : قلبٌ حيٌّ بنور الموافقة . ويقال : قلبٌ غيرُ مُعْرِضٍ عن الاعتبار والاستبصار .

ويقال : « القلبُ — كما فى الخبر — بين إصبعين من أصابع الرحمن » : أى بين نعمتين ؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء ، وما ينفعه به من النَّعماء ، فكلُّ قلبٍ منَعَ الحقُّ عنه الأوصافَ الذميمةَ وألْزَمَه النعوتَ الحميدةَ فهو الذى قال فيه:«إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » . وفى الخبر: « إن لله أوانىَ ألا وهى القلوب ، وأقربها من الله مارقَّ وصفا » شبَّه القلوب بالأوانى ؛ فقلبُ الكافرِ منكوسٌ لا يدخل فيه شىء ، وقلبُ المنافقِ إناء مكسور ، ما يُلْقى فيه من أوَّله يخرج من أسفله ، وقلبُ المؤمنِ إناء صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ ويبْقَى .

= « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» . « ووجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» .. وقوله «ص» .. إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته يوم القيامة» . وأجمعوا على أنه لا يرى فى الدنيا بالأبصار ، ولكن بالقلوب ؛ لأن الدنيا دار فناء ولا يُرَى الباقى فى الدار الفانية .. وهى على العموم رؤية بلا كيفية ولا إحاطة .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الخلق) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (يسكن) وهى خطأ فى النسخ .

ولكنّ هذه القلوبَ مختلفةٌ ؛ قلبٌ مُلَطَّخٌ بالانصالات وفنون الآفات ؛ فالشرابُ الذى يُلقَى فيه يصحبه أثر ، ويتلطخ به .

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قَدْراً .

قوله جل ذكره : « ولقد خَلَقْنا السموَاتِ والأرضَ وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ومَا مَسَّنا من لُغُوبٍ » .

وأنى يَمَسُّه اللُّغوبُ .. وهو صَمَدٌ لا يحدث فى ذاته حادث؟ !

قوله جل ذكره : « فاصْبِرْ على ما يقولون وسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ الغروب » .

إنْ تأذَّ سَمْعُكَ بما يقولون فىَّ من الأشياء التى يتقدَّس عنها نَعْتى فاصبِرْ على ما يقولون ، واستروِحْ عن ذلك بتسبيحك لنا .

« ومن الليلِ فَسَبِّحْه وأدبارَ السُّجودِ » .

فالليلُ وقتُ الخلوة — والصفاء فى الخلوة أتمّ وأصفَى .

قوله جل ذكره : « واستمِعْ يومَ يُنادِ المنادِ من مكانٍ قريبٍ * يومَ يَسمعُون الصيحةَ بالحقِّ ذلك يومُ الخروج » .

النداءُ من الحقِّ — سبحانه — واردٌ عليهم ، كما أنَّ النجوى تحصل دائمًا بينهم . والنداءُ الذى يَرِدُ عليهم يكون بغتةً ولا يكون للعبد فى فِعْلِهِ اختيارٌ .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحن نُحيى ونُميتُ وإلينا المصير » .

إلينا مَرْجِعُ الكُلِّ ومصيرُهم .

قوله جل ذكره : « يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِراعاً
ذلك حَشْرٌ علينا يسير » .

هذا يسيرٌ علينا : سواء خلقناهم جملةً أو فرادى[1] ؛ قال تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفسٍ واحدة »[2] .

قوله جل ذكره : « نحن أعلم بما يقولون وماأنت عليهم
بجبّارٍ فذَكِّرْ بالقرآنِ مَن يخافُ
وعيدِ » .

ما أنت عليهم بمُسَلَّطٍ تُكرِهِهم .

وإنما يُؤثِّرُ التخويفُ والإنذارُ والتذكيرُ في الخائفين ، فأمّا مَنْ لا يخاف فلا ينجعُ فيه التخويفُ — وطيرُ السماء على أُلَّافِها تقعُ .

---

(١) هكذا في ص وهي في م (فرداً)
(٢) آية ٢٨ سورة لقمان .

سُورَة الذَّارِيَات

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها عزَّ لسانُه ، ومَنْ عَرَفَها اهتزَّ بصحبتِها جنانه

« بسم الله » كلمةٌ للألباب غلاَّبةٌ ، كلمة لأرواح المحبين سلاَّبةٌ .

قوله جل ذكره: « والذارياتِ ذَرْواً * فالحاملاتِ وِقْراً *
فالجاريات يُسْراً * فالمُقَسِّمات أمراً *
إنَّما تُوعَدون لصادِقٌ * وإنَّ
الدينَ لواقع » .

والذارياتُ : أى الرياح الحاملات « وقراً » أى السحاب « فالجاريات » أى السفن .
« المقسمات أمراً » أى للملائكة .. أقسم بربٍّ هذه الأشياء و بقدرته عليها . وجواب القسم :
« إنما توعدون لصادق .. » والإشارة فى هذه الأشياء أن من جملة الرياح . الرياح الصبيحية(١)
تحمل أنينَ المشتاقين إلى ساحات العزَّةِ فيأتى نسيمُ القربةِ إلى مَشَامِّ أسرارِ أهل المحبة ..
فعندئذ يجدون راحةً من غلَبَات اللوعة ، وفى معناه أنشدوا :

وإنى لأستهدى الرياحَ نسيمكم إذا أقبلَتْ من أرضكم بهبوب
وأسألُها حمْلَ السلام إليكو فإنْ هى يوماً بَلَّغتْ .. فأجيبى

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب النفية ، ويُؤْذن بهواجم النَّوى والفُرْقة . فإذا عَنَّ لهم من
ذلك شيء أبصروا ذلك بنور بصائرهم ، فيأخذون فى الابتهال ، والتضرُّع فى السؤال استعاذةً
منها .. كما قالوا :

---

(١) إشارة إلى صيحاتهم عند اشتداد الوجد .

أقول — وقد رأيتُ لها سحاباً من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحَّت عزاليها[1] بِبَيْنٍ حوالينا الصدودُ ولا علينا

وكما قد يَحْمِلُ الملاَّحُ بعضَ الفقراء بلا أجرة طمعاً فى سلامة السفينة — فهؤلاء[2] يرجُون أن يُحمَلوا فى فُلْكِ العناية[3] فى بحار[4] القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .

ومِنَ الملائكةِ مَنْ يتنزَّلُ لتفقد أهل الوصلة ، أو لتعزية أهل المصيبة ، أو لأنواعٍ من الأمور تتصل بأهل هذه القصة ، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم : هل عندهم خبرٌ عن فراقهم ووصالهم — كما قالوا :

بربِّكما يا صاحبيَّ قِفَا بيا أسائلكم عن حالهم وأسألانيا

« إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع » : الحقُّ — سبحانه — وَعَدَ المطيعين بالجنة ، والتائبين بالرحمة ، والأولياء بالقربة ، والعارفين بالوصلة ، ووَعَدَ أرباب المصائب بقوله : « أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة[5] » وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد — واللهُ رءوفٌ بالعباد .

قوله جل ذكره : « والسماء ذاتِ الحبُكِ * إنَّكم لفى قولٍ مُخْتلفٍ * يُؤْفَكُ عنه مَنْ أفِكَ »

« ذات الحبك » أى ذات الطرائق الحسنة — وهذا قَسَمٌ ثانٍ ، وجوابه : « إنكم لفى قول مختلف » يعنى فى أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم فأحدهم يقول : إنه ساحر ، وآخر يقول : مجنون ، وثالث يقول : شاعر . . وغير ذلك .

---

(١) الأعزل من السحاب مالا مطر فيه (الوسيط جـ ٢ ص ٦٠٥) .

(٢) يقصد الصوفية .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (الكفاية) .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م (بحالٓ) .

(٥) إشارة إلى الآيتين ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .
« الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان ، وقمر المحبة ، ونجوم القُرب .. إنكم فى باب هذه الطريقة لفى قولٍ مختلف ؛ فمِنْ مُنْكرٍ يجحد الطريقة ، ومِنْ مُعترضٍ يعترض على أهلها يتوهَّم تقصانهم فى القيام بحق الشريعة[1] ، ومن متصفِّف[2] لايخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقِّ أولياءه بالأحوال السنية ، قال قائلهم :

قد سَحبَ الناسُ أذيالَ الظنون بنا   وفرَّقَ الناسُ فينا قولهم فِرَقَا
فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غَيْرَكم   وصادقٌ ليس يدرى أنه صَدَقَا

قوله جل ذكره : « يُؤْفَكُ عنه مَنْ أُفِكَ » .

أى يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِف ، وذلك أنهم كانوا يصدُّون الناسَ عنه[3] ويقولون: إنه لمجنون .

قوله جل ذكره : « قُتِلَ الخرَّاصُون * الذين هُم فى غَمْرَةٍ سَاهُون » .

لُعِنَ الكذَّابون الذين هم فى غمرة الضلالة وظلمة الجهالة ساهون لاهون .

قوله جل ذكره : « يَسْأَلونَ أيَّانَ يومُ الدِّينِ * يومَ هُم على النارِ يُفْتَنُون * ذُوقوا فِتْنَتَكم هذا الذى كُنتم به تَسْتَعْجِلون » .

يسألون أيان يومُ القيامة ؟ ؛ يستعجلون بها ، فلأَجْلِ تكذيبهم بها كانت نفوسُهم لاتسكن

---

(١) نلاحظ هنا حرص الإمام القشيرى على أن أرباب الحقيقة لايتنكرون بحال من الأحوال لأى حق من حقوق الشريعة .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (متقشف) التى هى خطأ فى النسخ .

(٣) واضح أن القشيرى يرى الضمير فى (عنه) التى فى الآية عائداً إلى الرسول (ص) . ويعيده بعض المفسرين إلى القرآن أو إلى الدين أو إلى (ما توعدون) . ومعنى عبارة القشيرى أنه يصرف عنه من صرفه فى سابق علمه .

إليها - ويوم هم على النار يُحرَقون ويُعذَّبون يقال لهم : ذوقوا عقوبتكم ، هذا الذى كنتم به تستعجلون .

والإشارة فيه إلى الذين يكذبون فى أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء ، ويكذبون فى أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب ، ويكذبون على الله فيما يدَّعونه من الأحوال - - قُتِلُوا ولُعِنوا - - وسيلقون غِبَّ تلبيسهم بما يُحرَمون من اشتمام رائحة الصدق .

قوله جل ذكره : « إنَّ المتقين فى جناتٍ وعيون * آخذين ما آتاهم ربُّهم إنهم كانوا قبل ذلك مُحسنين » .

فى عاجلهم فى جنّاتِ وَصْلِهم ، وفى آجلهم فى جنّاتِ فَضْلِهم ؛ فغداً درجات ونجاة ، واليومَ قُرُبات ومناجاة ، فما هو مؤجَّلٌ حظٌّ أنفسهم ، وما هو معجّلٌ حقُّ ربِّهم . هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم ؛ يأخذون نصيبهم منه بِيَدِ الشكر والحمد ، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربُّهم فى الجنة من فنون العطاء والرِّفْد .

ومَنْ كان اليومَ آخذه بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان ، وملاحظة القسمة فى العطاء والحرمان . كان غداً آخذه بلا واسطة فى الجنان عند اللقاء والعيان . « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » ؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا[1] ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا . . فهم كما فى الخبر : « أعبد الله كأنك تراه . . . »[2] .

قوله جل ذكره : « كانوا قليلًا من الليل ما يَهْجَعون * وبالأسحارِ هُم يستغفرون » .

---

(١) العارف كائن بائن (هذا رأى يحيى بن معاذ : رسالة القشيرى ص ١٥٧) والمعنى أنه وإن بدا بين الناس يشاركهم ويعاشرهم إلا أنه مشتغل عنهم بمعروفه لا يُشغل عنه طرفة عين .

(٢) جاء فى الحلية عن زيد بن أرقم : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واحسب نفسك فى الموتى ، واتق دعوة المظلوم » كذلك رواه الطبرانى والبيهقى عن معاذ بلفظ : « أعبد الله ولا تشرك به شيئاً واعمل كأنك تراه ، واعدد نفسك فى الموتى » .

المعنى إمَّا : كانوا قليلًا وكانوا لا ينامون إلا بالليل (كقوله تعالى : « وقليلٌ منْ عبادى الشكور »[1] أو : كان نومُهم بالليل قليلًا ، أو :)[2] كانوا لا ينامون بالليل قليلًا[3] .

« وبالأسحار هم يستغفرون » : أخبر عنهم أنهم — مع تهجدهم ودُعائهم — يُنْزِلون أنفسَهم فى الأسحار منزلةَ العاصين ، فيستغفرون استصغاراً لِقدْرِهم ، واستحقاراً لِفعْلهم .

والليلُ . . للأحباب فى أُنْس المناجاة ، وللعصاة فى طلب النجاة . والسَّهرُ لهم فى لياليهم دائمًا ؛ إمّا لفَرْطِ أَسَفٍ أو لِشدّةِ لَهَفٍ ، وإمّا لاشتياقٍ أو لفراقٍ — كما قالوا :

كم ليلةٍ فيك لاصباحَ لها ... أفنَيْتُها قابضاً على كبدى

قد غُصَّت العينُ بالدموع وقد ... وَضَعْتُ خدى على بنان يدى

وإمّا لكمال أُنْسٍ وطيب روح — كما قالوا :

سقى اللهُ عيشاً قصيراً مضى ... زمانَ الهوى فى الصبا والمجون

لياليه تحكى انسدادَ لحاظٍ ... لعَيْنى عند ارتداد الجفون

قوله جل ذكره : « وفى أموالهم حقٌّ للسائل والمحروم » .

السائلُ هو المُتَكفِّف ، والمحرومُ هو المتعفِّف — ويقال هو الذى يحرم نفسه بترك السؤال . هؤلاء هم الذين يُعْطُون بشرط العلم[4] ، فأمّا أصحابُ المروءة : فغير المستحق للعلم أَوْلَى من المستحق[5] . وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة ؛ لأنهم أهل الإيثار — فى الوقت — لكلِّ ما يُفْتَحُ عليهم به .

---

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وسقط فى ص .

(٣) يقول النسفى : ولا يجوز أن تكون ما نافية على معنى أنهم لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فلا تقول : زيداً ماضربت (النسفى جـ٤ ص ١٨٤) .

(٤) أى حسب شرائط الشريعة فى الزكاة .

(٥) هكذا فى م وهى مشطوبة بخط فوقها فى ص ... والعبارة قد تبدو غامضة ، وقد يكون مراد القشيرى — إن صحت عنه العبارة هكذا — أن أهل المروءة لايتقيدون فى عطائهم بما تفرضه الشريعة للمستحقين وحسب فإن المستحق يأخذ ما هو حق له ، وإنما يعطون دائمًا ويمنحون دائماً بغض النظر عن استحقاق أو عدمه .

قوله جل ذكره : « وفى الأرضِ آياتٌ للموقِنِين * وفى أنفُسِكم أفلا تُبْصِرُون * وفى السماء رِزْقُكُم وما توعَدون » .

كما أنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيء فكذلك العارف يتحمَّل كلَّ أحد .

ومَنْ استثقل أحدًا أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فلِغَيْبته عن الحقيقة ، ولمطالعته الخَلْقَ بعين التفرقة — وأهلُ الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة .

ومن الآيات التى فى الأرض أنها يُلْقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقمامة — ومع ذلك تُنْبِتُ كلَّ زَهْرٍ ونَوْرٍ .. كذلك العارف يتشرب كلَّ ما يُسْقَى من الجفاء ، ولا يترشح إلاَّ بكل خُلُقٍ عَلِيّ وشيمةٍ زكيّة [1] .

ومن الآيات التى فى الأرضِ (أنَّ ما كان منها سبخًا يُتْرَكُ ولا يُعَمَّر لأنه لا يحتمل العمارة — كذلك الذى لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَل ، فقابلته بهذه الصفة) [2] كإلقاء البذر فى الأرض السبخة .

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » : أى وفى أنفسكم أيضًا آيات ، فمنها وقاحتها فى همّتها [3] ، ووقاحتها فى صفتها ، ومنها دعاواها العريضة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أنّ ذَرّةً أو (. . .) [4] بها أو منها .

« وفى السماء رزقكم وما توعدون » : أى قسمة أرزاقكم فى السماء ، فالملائكة الموكَّلون بالأرزاق ينزلون من السماء .

ويقال : السماء هاهنا المطر ، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى .

---

(١) يقول الجنيد : « الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح » ، وقال أيضا : « إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر » (الرسالة ص ١٣٩) .

(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط فى ص .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (صمتها) ويبدو أن الهاء اشتبهت على الناسخ .

(٤) مشتبهة فى النسختين .

قوله جل ذكره: « فَفِرُّوا إلى اللهِ إنِّى لكم منه نذيرٌ مبين » .

أى فارجعوا إلى الله — والإنسان بإحدى حالتين؛ إمَّا حالة رغبةٍ فى شىء، أو حالة رهبةٍ من شىء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جَلْبِ نَفْعٍ أو دفع ضُرٍّ.. وفى الحالتين ينبغى أنْ يكونَ فِرارُه إلى الله؛ فإنَّ النافعَ والضارَّ هو اللهُ.

ويقال: مَنْ صَحَّ فِرارُه إلى اللهِ صَحَّ قَرارُه مع الله.

ويقال: يجب على العبد أنْ يفرَّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التُّقَى، ومن الشَّكِّ إلى اليقين، ومن الشيطانِ إلى الله.

ويقال: يجب على العبد أنْ يفرَّ من فعله — الذى هو بلاؤه إلى فعله الذى هو كفايته، ومن وصفه الذى هو سخطه إلى وصفه الذى هو رحمته، ومن نفسه — حيث قال: « ويحذركم الله نفسه » إلى نفسه حيث قال: « ففروا إلى الله »[1].

قوله جل ذكره: « ولا تجعلوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ إنِّى لكم منه نذيرٌ مبين » .

أُخَوِّفُكم أليمَ عقوبته إنْ أشركتُم به — فإنَّه لا يَغفِرُ أنْ يُشرَكَ به.

ثم بيَّنَ أنه على ذلك جرَت عادتُهم فى تكذيب الرُّسُل، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك.

قوله جل ذكره: « فَتَولَّ عنهم فما أنت بملوم » .

فأَعْرِضْ عنهم فليست تلحقك — بسوء صنيعهم — ملامة[2].

قوله جل ذكره: « وذَكِّرْ فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين » .

ذَكِّرِ العاصين عقوبتى ليرجعوا عن مخالفةِ أمرى، وذَكِّرِ المطيعين جزيلَ ثوابى ليزدادوا

---

(١) هنا استخدم القشيرى ثقافته الكلامية فيما يتصل بصفات (الفعل) وصفات (الذات) (أنظر تقديمنا لكتاب التحبير فى التذكير).

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (ملايه) وهى خطأ من الناسخ.

طاعةً وعبادةً ، وذَكْرُ العارفين ما صَرَفْتُ عنهم من بلائى ، وذكْرُ الأغنياء ما أَتحتُ[1] لهم من إحسانى وعطائى ، وذَكْرُ الفقراء ما أوجبْتُ لهم من صَرْفِ الدنيا عنهم وأَعْدَدْتُ لهم من لقائى .

قوله جل ذكره : « ومَاخَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلا لِيَعْبدونِ * ماأريد منهم مِن رِزْقٍ وما أريد أن يُطْعِمون * إنّ اللهَ هو الرَّزّاقُ ذو القوةِ المتين » .

الذين اصطفيْتُهم فى آزالى ، وخَصَصْتُهم — اليومَ — بحُسْنِ إقبالى ، ووعدْتُهم جزيلَ أفضالى — ما خَلَقْتُهم إلاَّ ليعبدونِ .

والذين سخطت عليهم فى آزالى ، وربطتهم — اليوم — بالخذلان فيما كلَّفتهم من أعمالى ، وخَلَقْتُ النارَ لهم — بحُكْمِ إلهيّتى ووجوب حُكْمى فى سلطانى — ما خلقتهم إلا لعذابى وأنكالى ، وما أَعْدَدْتُ لهم من سلاسلى وأغلالى .

ما أريد منهم أنْ يُطْعِموا أو يرزقوا أحداً من عبادى فإنَّ الرزّاقَ أنا .

وما أريد أن يطعمونِ فإنى أنا اللهُ « ذو القوةِ » : المتينُ القوِىّ .

قوله جل ذكره : « فإن للذين ظلموا ذنوباً مثلَ ذنوبِ أصحابِهم فلا يستعجِلونَ » .

لهم نصيبٌ من العذابِ مثلَ نصيبِ مَنْ سَلَفَ من أصحابهم من الكفار فلِمَ استعجالُ العذابِ — والعذابُ لن يفوتَهم ؟ .

« فويلٌ للذين كفروا من يومِهم الذى يُوعَدون » .

وهو يوم القيامة .

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (أحث) وهى غير ملائمة للسياق .

سورة الطور

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ ما استولت على قلبِ عارفٍ إلاّ تَيَّمَتْه بكشف جلاله ، وما استولت على قلب مُتَأَفِّفٍ إلاّ أكرمته بلطف أفضاله . فهى كلمةٌ قهّارةٌ للقلوب . ولكن لا لكلِّ قلب ، مُذْهِبَةٌ للكروب . ولكن لا لكلِّ كرب .

قوله جل ذكره : « والطور * وكتابٍ مسطورٍ * فى رَقٍّ منشور » .

أقسم الله بهذه الأشياء (التى فى مطلع السورة) ، وجواب القَسم قوله : « إن عذاب ربك لواقع » . والطورُ هو الجبلُ الذى كُلِّمَ عليه موسى عليه السلام ؛ لأنه مَحَلُّ قَدَمِ الأحبابِ وقتَ سماع الخطاب . ولأنه الموضعُ الذى سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وذِكْرَ أُمَّته حتى نادانا ونحن فى أصلاب آبائنا فقال : أعطيتكم قبل أن تسألونى « وكتابٍ مسطور » : مكتوب فى المصاحف ، وفى اللوح المحفوظ .

وقيل : كتاب للملائكة فى السماء يقرءون منه ما كان وما يكون .

ويقال : ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده .

ويقال ما كتب من قوله : سبقت رحمتى غضبى(١) .

ويقال : هو قوله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرضَ يرثها عبادى الصالحون »(٢) .

---

(١) فى الحديث أن الله كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : «إن رحمتى سبقت غضبى» .

(٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

ويقال : الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُعْطَى لعباده بأيمانهم وشمائلهم يوم القيامة .

« فى رقّ منشور »[1] : يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب .

« والبيتِ المعمور » .

فى السماء الرابعة[2] . ويقال : هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته . ويقال : هى مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل : الكعبة .

« و السقفِ المرفوع »

هى السماء . وقيل سماء هِمَمِهم فى الملكوت .

« و البحرِ المسجور »

البحار المملوءة .

أقسم بهذه الأشياء : إنَّ عذابَه لواقع . وعذابُه فى الظاهر ما توعَّدَ به عبادَه العاصين ، وفى الباطن الحجابُ بعد الحضور ، و السترُ بعد الكشف ، والردُّ بعد القبول .

« مَا لَهُ مِن دافع »

إذا ردَّ عَبْداً أبرمَ القضاء ردَّه :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخرَ ــ الدهرَ ــ تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : « يومَ تمورُ السماءُ مَوْرًا * وتسير الجبالُ سيرًا » .

« تمور » : أى تدور بما فيها ، وتسير الجبالُ عن أماكنها ، فتسير سيرا .

« فويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبين * الذين هم فى خوضٍ يلعبون » .

---

(١) الرق هو الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه ، منشور لا ختْم عليه أو لائح .

(٢) يقابل الكعبة معمور بالملائكة .

ويقال : على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمِنَها .

ويقال : قوله : « وفى السماء رزقكم » وها هنا وقف ثم تبتدئ : « وما توعدون » .

قوله جل ذكره : « فَوَرَبِّ السماء والأرضِ إنَّهُ لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون » .

أى : إنَّ البعثَ والنشرَ لَحَقٌّ .

ويقال : إنَّ نصرى لمحمدٍ ولدينى ، وللذى أتاكم به من الأحكام — لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون .

كما يقال : هذا حقٌّ مثل ما أنك هاهنا .

ويقال : معناه : « أنَّ اللهَ رازقُكم » — هذا القولُ حقٌّ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُم : مَنْ ربُّكم ؟ ومَنْ خالقكم ؟ قلتم : الله .. فكما أنكم تقولون : إن الله خالق — وهذا حقٌّ .. كذلك القولُ بأنَّ اللهَ رازقٌ — هو أيضًا حقٌّ .

ويقال : كما أنَّ نُطْقَكَ لايتكلم به غيرُكَ فرزقُكَ لايأكله غيرك .

ويقال : الفائدة والإشارة فى هذه الآية أنه حال برزقك على السماء ، ولا سبيلَ لك إلى العروج إلى السماء لتشتغلَ بما كلفك ولا تتعنَّى فى طلب مالا تصل إليه .

ويقال : فى السماء رزقكم ، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُم .. فإنْ أرَدْتَ أنْ ينزلَ عليكَ رزقُكَ فأصْعِدْ إلى السماء عملَكَ — ولهذا قالوا : الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق ، وقال تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقًا »[1] .

قوله جل ذكره : « هل أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيم المُكرَمين » .

---

(١) آية ١٣٢ سورة طه .

قيل فى التفاسير : لم يكن قد أتاه خبرُهم قبل نزول هذه الاية .

وقيل : كان عددُهم اثنى عشر مَلَكاً . وقيل : جبريل وكان معه سبعة . وقيل : كانوا ثلاثة .

وقوله : « المكرمين » قيل لقيامه — عليه السلام — بخدمتهم . وقيل : أكرم الضيفَ بطلاقة وجهه ، والاستبشار بوفودهم .

وقيل : لم يتكلَّف إبراهيمُ لهم ، وما اعتذر إليهم — وهذا هو إكرام الضيف — حتى لا تكون من للضيف عليه مِنَّةٌ فيحتاج الضيف إلى تحملها .

ويقال : سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوِّ عند الكرام كريم .

ويقال : ضيفُ الكرام لايكون إلا كريمًا .

ويقال : المكرمين عند الله .

قوله جل ذكره : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قومٌ مُنكَرُون » .

أى سلّمنا عليك (سلامًا) فقال إبراهيم : لكم منى (سلامٌ) .

وقولهُم : « سلامًا » أى لك منّا سلام ، لأنَّ السلامَ : الأمانُ .

« قومٌ مُنكَرون » : أى أنتم قوم منكرون ؛ لأنه لم يكن يعرف مِثْلَهم فى الأضياف . ويقال : غُرَباء .

قوله جل ذكره : « فرَاغَ إلى أهْلِه فجاء بِعِجْلٍ سمين * فقَرَّبَه إليهم قال ألا تأكلون » .

أى عَدَلَ إليهم من حيث لا يعلمون[1] ، وكذلك يكون الروغان[2] .

(١) أى من حيث لا يعلم الأضياف .

(٢) وكذلك يكون روغان الكرام : خِفْيَةً حتى لا يُسبب لأضيافه الحرج .

« فجاء بعجلٍ سمين » فشواه ، وقرَّبه منهم وقال : « ألا تأكلون ؟ » وحين امتنعوا عن الأكل :

« فأوْجَسَ منهم خيفــــةً قالوا :
لا تَخَفْ ، وبَشَّروه بِغُلامٍ عليم » .

تَوَهَّمَ أنهم لصوص فقالوا له : « لا تخف » .

« وبشروه بغلام عليم » : أى بَشَّروه بالوَلَد ، وببقاء هذا الوَلَدِ إلى أن يصير عليًا ؛ والعليم مبالغة من العلم ، وإنما يصير عليًا بعد كبره .

« فأقْبَلَتِ امرأتُه فى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وقالت عجوزٌ عقيم » .

« فى صرّة » أى فى صيحة شديدة ، « فصكت وجهها » أى فضربت وجهها بيدها كفعل النساء « وقالت عجوز عقيم » : أى أنا عجوز عقيم . وقيل : إنها يومَها كانت ابنةَ ثمانٍ وتسعين سنة ، وكان إبراهيمُ ابنَ تسع وتسعين سنة .

« قالوا كذلكِ قال رَبُّكِ إنَّه هو
الحكيمُ العليمُ » .

أى قلنا لكِ كما قال ربُّكِ لنا ، وأنْ نُخْبِرَكِ أنَّ اللهَ هو الحَكِيمُ لأفعاله ، « العليمُ » الذى لا يخفى عليه شىء[1]

« قال فما خَطْبُكُمْ أيها المُرْسَلون ؟ » .

سألهم : ما شأنُكم ؟ وما أمرُكم ؟ وبماذا أرْسِلْتُمْ ؟

« قالوا إنّا أرْسِلْنا إلى قومٍ مُجْرِمين *
لِنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طين *

---

(١) روى أن جبريل قال لها حين استبعدت : انظرى إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة .

مُسَوَّمَةً عند ربِّكَ للمُسْرِفين * فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وَجَدْنا فيها غير بيتٍ من المسلمين » .

هم قوم لوط ، ولم نجد فيها غيرَ لوطٍ ومَنْ آمن به .

قوله جل ذكره : « وتَرَكْنا فيها آيةً للذين يخافون العذابَ الأليم » .

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون — دون القاسية قلوبهم[1] .

قوله جل ذكره : « وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعونَ بسلطانٍ مُبين » .

أى بحجة ظاهرة باهرة[2] .

. . . . إلى قوله : « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنَّا لَمُوسِعون » : أى جعلنا بينها وبين الأرض سعة ، « وإنا لقادرون » : على أن نزيد فى تلك[3] السعة .

« والأرضَ فرَشْناها فَنِعْمَ الماهدونَ » .

أى جعلناها مهاداً لكم . ثم أثنى على نَفْسه قائلاً : « فنعم الماهدون » .
دلَّ بهذا كلِّه على كمال قدرته ، وعلى تمام فضله ورحمته .

قوله جل ذكره : « ومن كلِّ شىء خلقنا زَوْجَيْنِ لعلَّكم تَذَكَّرون » .

أى صنفين فى الحيوان كالذكَرِ والأنثى ، وفى غير الحيوانِ ؛ كالحركة والسكون ، والسواد والبياض ، وأصناف المتضادات .

---

(١) قيل هى ماء أسود منتن .
(٢) هكذا فى م وهى فى ص (قاهرة) وكلاهما مقبول فى السياق .
(٣) هكذا فى م وهى فى ص (سلك) والسياق لايتقبل هذه .

قوله جل ذكره : « أم تأمُرُهم أحلامُهم بهـذا أم هم قومٌ طاغون » .

أتأمرهم عقولهم[1] بهذا ؟ أم تحملهم مجاوزة الحدّ فى ضلالهم وطغيانهم عَلَى هذا ؟

قوله جل ذكره : « أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول[2] من ذات نفسك فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين فيما رموك به !

قوله جل ذكره ، « أم خُلِقـوا من غـير شىء أم هم الخالقون ؟ » .

كلاّ ليس الأمرُ كذلك ، بل اللهُ هو الخالق وهم المخلوقون .

أم هم الذين خلقوا السموات والأرضَ ؟ أم عندهم خزائن ربك .

— أى خزائن أرزاقه ومقدوراته ؟ أم هم المسيطرون المتسلّطون عَلَى الناس ؟ .

أم لهم سُلّمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجرى فى السموات ؟ فليأتِ مستمعُهم بسلطانٍ مبين .

ثم إنه سفّهَ أحلامهم فقال :

« أم له البناتُ ولكم البنون * أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مُثْقلون » .

أم تسألهم عَلَى تبليغ الرسالة أجرًا فهم مثقلون من الغُرْم والإلزام فى المال (بحيث يزهدهم ذلك فى اتباعك ؟ .

---

(١) كانت قريش يدعون أهل الأحلام والنُّهى — فإسناد الأحلام إلى الكفار فى الآية مجاز فيه سخرية منهم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كى يتضح السياق — فالقشيرى كما هو واضح فى آخر السورة لا يعنى سوى كلمات مقتضبة ، وإنما يهتم بالجانب الإشارى — إن وجد .

أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك ؟

أم يريدون كيداً[1] أي أن يمكروا بك مكراً فالذين كفروا هم المكيدون .

أم لهم إلهٌ غير الله يفعل شيئاً مما يفعل الله ؟ تنزيهاً له عن ذلك ! .

قوله جل ذكره : « وَإِن يَرَوْا كِسْفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مركوم » .

أي إنْ رأوْا قطعةً من السماء ساقطةً عليهم قالوا : إنه سحابٌ مركوم[2] رُكِم بعضه عَلَى بعض والمقصود أنهم مهما رَأوْا من الآيات لا يُؤمنون . ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى شاهدوا بالعين لقالوا : إنما سُكِّرَتْ أبصارنا ، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً .

قوله جل ذكره : « فَذَرْهُم حتى يُلاقوا يَوْمَهم الذى فيه يُصعَقون * يومَ لا يُغنى عنهم كَيْدُهم شيئاً ولا هم يُنصَرُون » .

أي فأعرضْ عنهم حتى يُلاقوا يومَهم الذى فيه يموتون ، يوم لا يُغنى عنهم كيدُهم شيئاً ، ولا يُمْنَعون من عذابنا .

قوله جل ذكره : « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون » .

دونَ يوم القيامة لهم عذابُ القَتْلِ والسَّبْيِ ، وما نَزَلَ بهم من الهوان والخزى يوم بدر وغيره[3] .

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » : أنَّ اللهَ ناصرٌ لدينه .

قوله جل ذكره : « واصْبِرْ لِحُكْمِ ربِّكَ فإنك بأعْيُنِنَا » .

---

(١) يقال هو كيدهم الرسول والمؤمنين بدار الندوة — وقد يقصد به الكفار أجمعين .

(٢) فى ص (مكروم) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) ويقال عذاب القبر لأنه يسبق القيامة .

أنت بمرأى مِنَّا، وفى نصرةٍ منَّا .

« فإنك بأعيننا »[1] : فى هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسى الصبر .

« وسَبِّحْ بحَمْدِ ربِّكَ حين تقومُ » .

أى تقوم للصلاةِ المفروضةِ عليك.

« ومن الليلِ فَسَبِّحْهُ وإدْبارَ النجوم »

قيل : المغرب والعشاء وركعتا الفجر .

وفى الآية دليل وإشارة إلى أنه أمَرَه أنْ يَذْكُرَه فى كلِّ وقت ، وألا يخلوَ وقتٌ من ذِكْرِه.

والصبرُ لحكمِ اللهِ شديدٌ ، ولكن إذا عَرَفَ اطلاعَ الربِّ عليه سَهُلَ عليه ذلك وهان .

---

(١) التعبير بالجمع هنا قد يفيد زيادة الرعاية فى حق المصطفى صلوات الله عليه ، خصوصاً إذا تذكرنا أنه سبحانه قال فى حق موسى عليه السلام «ولتصنع على عينى» فالتعبير فى هذه الحالة بالمفرد ، والله سبحانه أعلم .

سُورَةُ النَّجْم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ حليمٌ رحيمٌ ، يحلم[1] فيما يعلم ، ويستر مايبصر وينفر[2] ، وعَلَى العقوبة يقْدِرْ ، يرَى ويُخفى ، ويَعْلم ولا يُبدِى .

قوله جل ذكره : « والنجم إذا هَوَىٰ * ما ضَلَّ صاحبكم وما غَوَىٰ »

والثريا إذا سقط وغرب . ويقال : هو جِنْسُ النجوم أقسم بها .

(ويقال : هي الكواكب)[3] . ويقال : أقسم بنجوم القرآن عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم

ويقال هي الكواكب التي تُرمَى بها الشياطين .

ويقال أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم عند مُنْصَرفِهِ من المعراج .

ويقال : أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقولِ الطالبين .

وجوابُ القسَم قوله : « ما ضل صاحبكم وما غوى » : أي ما ضَلَّ عن التوحيد قط ، « وما غوى » : الغَيُّ : نقيضُ الرُّشد . . وفي هذا تخصيصٌ للنبي صلى الله عليه وسلم حيث تولىّ — سبحانه — الذّبَّ عنه فيما رُمِىَ به ، بخلاف ماقال لنوح عليه السلام وأَذِنَ له حتى قال : « ليس بي ضلالة[4] ، وهود قال : « ليس بي سفاهة[5] . . وغير ذلك ، وموسى

(١) هكذا في م وهي في ص (يكلم) وواضح أنها خطأ من الناسخ .

(٢) هكذا في م وهي في ص (يضير) وهي خطأ من الناسخ .

(٣) موجود في م وساقط في ص .

(٤) آية ٦١ سورة الأعراف .

(٥) آية ٦٧ سورة الأعراف .

الويلُ كلمة تقولها العربُ لمن وقع فى الهلاك .

« فى خوضٍ يلعبون » : فى باطل التكذيب يخوضون .

« يومَ يُدَعُّون إلى نارِ جهنم دَعًّا * هذه النار التى كنتم بها تُكذِّبون * أفَسِحْرٌ هذا أمْ أنتم لا تُبصِرون » .

يومَ يُدْفَعون إلى النارِ دَفْعًا ، ويقال لهم : هذه هى النار التى كنتم بها تُكذِّبون . . ثم يسألون : أهذا من قبيل السحر على ماقلتم أم غُطِّىَ على أبصاركم ؟ !

قوله جل ذكره : « اَصْلَوْها فاصبروا أو لاتصبروا سواءٌ عليكم إنَّما تُجزَوْنَ ما كنتم تعملون »

والصبرُ على الجزاء فى العاقبة لاقيمة له ، لأنَّ عذابَهم عقوبةٌ لهم :

قوله جل ذكره : « إنَّ المتقين فى جنَّاتٍ ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربُّهم ووقاهم ربُّهم عذابَ الجحيم » .

المتقون فى جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً(1) . « فاكهين » أى مُعْجَبين بما آتاهم ربهم وما أعطاهم .

ويقال : « فاكهون » : أى ذوو فاكهة : كقولهم رجل تامر أى ذو تمر ، ولا بنٌ أى ذو لَبَن .

قوله جل ذكره : « كُلُوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون »

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطَعْمِه ولَذَّتِه ، وقومٌ يصير هنيئاً لهم سماعُ قولهم

---

(1) يشير القشيرى إلى النعيم العاجل الذى هو الوصلة والقربة . فمن المعلوم أن الصوفية يسلكون طريقهم فى حياة وسطى فيها قيامة وحشر ونشر وثواب ؛ وعقاب ، بما يشعرون ؛ من هجر ووصل ، وخوف ورجاء . ونحو ذلك من الأحوال .

عنه — سبحانه — هنيئاً ، وقوم يصير لهم ذلك هنيا ليِّنا وهم بمشهد منه :

فاشرب على وجهها كَغرَّتِها مُدامةً فى الكئوس كالشَّرر

« مُتَّكئين على سُرُرٍ مصفوفةٍ
وزَوَّجْناهم بحورٍ عين »

يظلّون فى سرور وحبور ، ونصيب من الأُنس موفور .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا واتَّبعَتْهم ذُرِّيَّتهم
بإيمانٍ ألحقْنا بهم ذُرِّيَّتهم »

يُكمِلُ عليهم سرورهم بأنْ يُلحِق بهم ذُرِّيَّاتِهم ؛ فإنَّ الانفرادَ بالنعمة عمَّن القلبُ مشتغِلٌ به من الأهل والولد والذرية يوجِب تَنَغص العيش .

وكذلك كلُّ مَنْ قلبُ الولىِّ يلاحِظه من صديقٍ وقريب ، وولىٍّ وخادم ، قال تعالى فى قصة يوسف : « وأتونى بأهلكم أجمعين »

وفى هذا المعنى قالوا :

إنِّى على جفواتها — فبربِّها وبكلِّ مُتَّصلٍ بهـا متوسِّلِ

لأحبها ، وأحِبُّ منزلَها الذى نزلت به وأحب أهـــل المنزلِ

« وما ألتناهم من عَمَلهم من شىء
كلُّ آمرىء بما كَسَبَ رهينٌ »

أى ما أنقصنا من أجورهم من شىء بل وفينا ووفَّرنا . وفى الابتداء نحن أوْلَيْنا وزدنا على ما أعطينا .

« كلُّ امرىء بما كسب رهين » مُطَالَبٌ بعمله ، يوفّىٰ عليه أجره بلا تأخير ، وإنْ كان ذنباً فالكثيرُ منه مغفور ، كما أنه اليوم مستور .

قوله جل ذكره : « وأمددناهم بفاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيم »

أى لا يجرى بينهم باطلٌ ولا يؤثمهم كما يجرى بين الشَّرْبِ[1] فى الدنيا ، ولا يَذْهبُ الشُّرْبُ بعقولهم فيجرى بينهم ما يُخرِجهم عن حَدِّ الأدبِ والاستقامة .

وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن المعلوم مَنْ يسقيهم ، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه ؟ .

قوله جل ذكره : « ويطوف عليهم غِلمانٌ لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنون » .

والقومُ عن الدارِ وعمَّن فى الدار مُخْتَطَفُون لاستيلاء ما يستغرقهم ؛ فالشرابُ يؤنِسُهم ولكن لا بِمَنْ يجانسهم[2] ؛ وإذا كان — اليومَ — للعبد وهو فى السجن فى طول عمره ساعةٌ[3] امتناع عن سماع خطاب الأغيار ، وشهود واحدٍ من المخلوقين — وإنْ كان ولداً عزيزاً ، أو أخاً شفيقاً — فمِنَ المحال أنْ يُظَنَّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى . . إنْ كان من أهل القبول والجنة ، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة .

وإذا كان العبدُ فى الدنيا يقاسى فى غُرْبَته من مُقَاساة الدنيا والتى — فماذا يجب أن يقال إذا

(١) الشَّرْب بالفتح القوم يشربون ويجتمعون على الشراب (الوسيط واللسان) .

(٢) هكذا فى م وهى أقرب إلى الصواب مما جاء فى ص (يجالسهم) باللام لأن السياق يتدعم بالأولى ؛ فالأنس الحاصل يومئذ بالحق لا بالخلق .

(٣) هذه محاولة طيبة يقدمها التفسير الإشارى عند بحث قضية التنعم فى الآخرة ونفى الحسيات عن هذا التنعم ؛ لأنه إذا تصورنا أن العبد فى ساعة الفناء يكون محواً فيما يشهد ، وأن ذلك يحدث فى الدنيا .. فما بالك فى الآخرة وهم ناظرون إلى ربهم ؟ !

رجع إلى منزله ؟ أيبقى على ما كان عليه فى سفرته ؟ أم يلقى غير ما كان يقاسى فى سَفْرته ، ويتجرع غير ما كان يُسْقَى من كاسات كُرْبته ؟.

قوله جل ذكره : « وأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون ﴿
قالوا إنّا كُنّا قَبْلُ فى أهلنا مشفقين ﴿
فَمَنَّ اللهُ علينا ووقانا عذابَ السَّموم ».

لولا أنهم قالوا : « فَمَنَّ اللهُ علينا » لكانوا قد لاحظوا إشفاقهم ، ولكن الحقّ ـ سبحانه ـ اختطفهم عن شُهود إشفاقهم ؛ حيث أشهدهم مِنَّتَه عليهم حتى قالوا : « فَمَنَّ الله علينا ، ووقانا عذاب السموم ، إنّا كُنّا مِنْ قَبْلُ ندعوه إنه هو البرُّ الرحيم » .

قوله جل ذكره : « فَذَكِّرْ فما أنت بنعمة ربِّكَ بكاهنٍ ولا مجنون » .

أى أنهم يعلمون أنك ليست بك كَهَانةٌ ولا جُنونٌ ، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه ؛ فالسَّفيهُ يبسط لسانَه فيمن يَسُبُّه بما يعلم أنه منه برىء .

« أم يقولون شاعرٌ نتربَّصُ به رَيْبَ المَنُون ﴿ قُلْ تربَّصوا فإنى معكم من المُتَرَبِّصين » .

نتربص به حوادث الأيام ؛ فإنَّ مِثْلَ هذا لا يدوم ، وسيموت كما مات مِنْ قبله كُهّانٌ وشعراء .

ويقال : قالوا : إنَّ أباه مات شابّا ، ورَجَوْا أنْ يموت كما مات أبوه ، فقال تعالى :

« قل تربصوا ... » فإننا منتظرون ، وجاء فى التفسير أنَّ جميعَهم ماتوا . فلا ينبغى لأحدٍ أن يُؤَمِّلَ موتَ أحد . فقَلَّ مَنْ تكون هذه صنعتُه إلا سَبَقَتْه المَنيةُ — دون أنْ يُدْرِكَ ما يتمنّاه مِنْ الأمنيّة .

قال لفرعون : « وإنى لأظنُّكَ يا فرعونُ مثبوراً »[1] . وقال لنبينا صلى الله عليه وسلم : « ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » : معناه ماضلَّ صاحبُكم ، ولا غفَلَ عن الشهود طَرْفةَ عينٍ .

قوله جل ذكره : « وما ينطقُ عن الهوىٰ * إنْ هو إلا وَحْيٌ يُوحَىٰ » .

أى ما ينطق بالهوى ، وما هـذا القرآنُ إلا وحيٌ يُوحَى . وفى هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة ؛ إذ قال لداود : « فاحْكُم بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تتَّبع الهوى »[2] .

وقال فى صفة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم : « وما ينطق عن الهوى » .

(ومتى ينطق عن الهوى وهو فى محل النجوى ؟ فى الظاهر مزمومٌ بِزِمام التقوى ، وفى السرائر فى إيواء المولى ، مُصَفًّى عن كدورات البشرية ، مُرَقًّى إلى شهود الأَحَدِية ، مُكاشَفٌ بجلالِ الصمدية ، مُخْتَطفٌ عنه بالكُلِّيَّة ، لم تبقَ منه إلا للحقِّ بالحقِّ بقية . . ومَنْ كان بهذا النعت . . متى ينطق عن الهوى ؟)[3].

قوله جل ذكره : « عَلَّمهُ شـديدُ القُوَىٰ * ذو مِرَّةٍ فاستوىٰ * وهو بالأُفُقِ الأعلىٰ » .

أى جبريل عليه السلام . و « ذو مِرَّة » : أى ذو قوة وهو جبريل . « وهو بالأفق الأعلى » أى جبريل .

« ثم دَنَا فتَدَلَّىٰ * فـكان قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنىٰ » .

دنا جبريلُ من محمدٍ عليه السلام ، فتدلَّى جبريلُ : أى نَزَلَ من العُلُوِّ إلى محمد .

وقيل : « تدلَّى » تفيد الزيادةَ فى القُرْب ، وأَنَّ محمداً عليه السلام هو الذى دنا من ربِّه دُنُوَّ كرامة ، وأَنَّ التدلِّى هنا معناها السجود .

(1) آية ١٠٢ سورة الإسراء .

(2) آية ٢٦ سورة ص .

(3) كل ما بين القوسين موجود فى مكان آخر ، وضعناه فى مكانه الصحيح حتى يستقيم السياق .

ويقال : دنا محمدٌ من ربِّه بما أُودِعَ من لطائفِ المعرفة وزوائدِها ، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أدناه .

« فكان قاب قوسين أو أدنى » : فكان جبريل — وهو فى صورته التى هو عليها — من محمد صلى الله عليه وسلم بحيث كان بينهما قَدْرُ قوسين أو أدنى .

ويقال : كان بينه — صلى الله عليه وسلم — وبين الله قَدْر قوسين : أراد به دُنُوَّ كرامة لا دُنُوَّ مسافة .

ويقال : كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيقَ الأُلْفَةِ بينهم إلصاقُ أحدِهم قوسَه بقوس صاحبه عبارةً عن[1] عقد للموالاة بينهما ، وأنزل اللهُ — سبحانه — هذا الخطابَ على مقتضى معهودهم . ثم رفع اللهُ هذا فقال : « أو أدنى » أى بل أدنى .

قوله جل ذكره : « فأوحَىَ إلى عَبدِه ما أوحَىَ »

أى أوحى اللهُ إلى محمد ما أوحى . ويقال : أحْمَلَ أحمالاً[2] لم يَطَّلِعْ عليها أحدٌ .

ويقال : قال له : ألم أجدك يتيمًا فآويتُك؟ ألم أجدك ضالًا فهديتُك ؟

ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟

ويقال : بَشَّرَه بالحوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أنَّ الجنةَ مُحَرَّمةٌ عَلَى الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمَّتُك . والأَوْلَى أن يقال: هذا الذى قالوه كله حَسَنٌ ، وغيره مما لم يَطَّلِعْ أحدٌ .. كله أيضًا كان له فى تلك الليلة وحدَه ، إذ رقَّاه إلى ما رقَّاه ، ولقَّاه بما لقَّاه ، وأدناه حيث لا دنوٌّ قبله ولا بعده ، وأخذه عنه حيث لا غيرٌ ، وأصحاه له فى عين ما محاه عنه ، وقال له ما قال .. دون أن يَطَّلِعَ أحدٌ على ما كان بينهما من السِّرِّ[3] .

---

(١) كما نقول فى أسلوبنا الآن (تعبيراً عن ..)

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما جاء فى م (أجمله إجمالاً) بالجيم فالسياق يرفضهما .

(٣) هذه الفقرة الأخيرة محاولة من جانب أرباب الحقيقة لفهم بعض جوانب فى قصة الإسراء والمعراج . ومضمون كلام القشيرى أننا لو كنا نستسيغ حدوث أحوال الكشوفات والمواصلات التى تتاح للأولياء العارفين .. فكيف لا نتقبلها بالنسبة للمصطفى عليه صلوات الله وسلامه ؟ وبمعنى آخر : نجد التفسير الصوفى يبرز نفسه فى قوة ونصاعة لتوضيح قضية من قضايا التدين ، كانت موضع جدل فى زمانها وبعد زمانها .

قوله جل ذكره : « ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأىٰ » .

ما كذَّبَ فؤادُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره من الآيات . وكذلك يقال : رأى ربَّه تلك الليلة على الوصف الذي عَلِمَه قبل أن يراه[1] .

قوله جل ذكره : « أفتُمارونه على ما يَرىٰ » .

أفتجادلونه على ما يرى ؟

قوله جل ذكره : « ولقد رآه نَزْلَةً أُخرىٰ * عند سِدْرَةِ المنتهىٰ * عندها جنةُ المأوىٰ » .

أي جبريلُ رأى اللهَ مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرة المنتهى ؛ وهي شجرة في الجنة ، وهي منتهى الملائكة ،وقيل : تنتهي إليها أرواحُ الشهداء . ويقال : تنتهي إليها أرواحُ الخَلْقِ ، ولا يَعْلم ما وراءها إلا الله تعالى — وعندها « جنة المأوى » وهي جنة من الجنان .

قوله جل ذكره : « إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يغشىٰ » .

يغشاها ما يغشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به .

وفي خبر : يغشاها رفرف طير خُضْرٍ .

ويقال : يغشاها فَرَاشٌ من ذَهَبٍ .

---

(1) يقول القشيري في كتابه المعراج ص ٩٤ : « واختلفوا في رؤية الله سبحانه ليلة المعراج ؛ فقالت عائشة رضي الله عنها : إن النبي (ص) لم يرَ ربَّه ليلة المعراج ، ومَنْ زعم أن محمداً رأى ربَّه ليلة المعراج فقد أعظم على الله الفرية . وقال ابن عباس : إن نبينا (ص) رأى ربَّه ليلة المعراج .

ثم اختلفت الرواية عن ابن عباس ؛ ففي رواية أنه رآه بعين رأسه ، وفي رواية أنه رآه بقلبه . وقال أهل التحقيق من أهل السُّنَّة : اختلافهم في هذه المسألة دليل على إجماعهم أن الحق سبحانه يجوز أن يُرى ؛ لأنه لولا أنَّهم كانوا متفقين على جواز الرؤية لم يكن لاختلافهم في الرؤية في تلك الليلة معنى .

وقد رويت في هذا الباب أخبار ، والله أعلم بصحتها ، فإن صحَّ ذلك فلها وجوه من التأويل ، من ذلك ما روى أنه قال : « رأيت ربي في أحسن صورة » — فهذا الخبر يحتمل وجوهاً منها : رأيتُ ربي وأنا في أحسن صورة يعني في أكمل رتبة وأتم فضيلة ، وأقوى ما كنت ؛ لم يصحبني دهش ، ولا رهقتني حيرة .

ويمكن أن تكون الرؤية بمعنى العلم ، أي رأيت من قدرة الله تعالى ودلائل حكمته ، ولم يشغلني شهود المصور عن ذكر المصوِّر ، بل رأيت الفاعل في الفعل .

وقيل : الصورة بمعنى الصفة ، يقال : أرني صورة هذا الأمر أي : صفته . و« في » على معنى « على » أي رأيت ربي على أحسن صفة من جلالة وصفه وإفضاله معي .

ويقال : أُعْطِيَ رسول الله (ص) عندها خواتيم البقرة ، وغُفِرَ لمن مات من أُمَّته لا يشرك بالله شيئاً .

قوله جل ذكره : « ما زاغ البصرُ وما طَغَىٰ »

ما مَالَ — صلوات الله عليه وسلامه — ببصره عمَّا أُبيح له من النظر إلى الآيات ، والاعتبارِ بدلائلها.

فما جَاوَزَ حَدَّه ، بل رَاعَى شروطَ الأدبِ في الحضْرة[1] .

قوله جل ذكره : « لقد رأَىٰ من آياتِ ربِّه الكُبْرىٰ » .

أي « الآية » الكبرى ، وحَذَفَ الآية . . وهي تلك التي رآها في هذه الليلة . ويقال : هي بقاؤه في حال لقائه ربَّه بوصفِ الصَّحْوِ ، وحَفِظَه حتى رآه[2] .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم اللَّاتَ والعُزَّىٰ ● وَمَنَاةَ الثالثةَ الأخرى ● أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنثى ؟

● تلك إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ » .

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها ؛ فاللات صنمٌ لثقيف ، والعُزَّى شجرةٌ لغطفان ، ومناة صخرة لهذيل وخزاعة[3] .

ومعنى الآية : أَخْبِرونا ... هل لهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله من القدرة أن تفعل بمائذٍ بها ما فَعَلْنا نحن لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم من الرُّتب والتخصيص ؟ .

---

(١) قال أبو يزيد البسطامي : حفظ النبي (ص) طرفه في المسرى ، فما زاغ البصر وما طغى ، لعلمه بما يؤهل له من المشاهدة ، فلم يشاهد في ذلك شيئاً ، ولم يُسِر طرفه أحداً ، ثم لما رُدَّ إلى محل التأديب نظر إلى الجنة والنار ، والأنبياء والملائكة للإخبار عنها ، وتأديب الخَلْق بها ؛ فالمقام الأول مقام خصوص والمقام الثاني مقام عموم .

وقال رويم : لما أُكرِمَ عليه الصلاة والسلام بأعظم الشرف في المسرى عَلَتْ هِمَّتُه عن الالتفات إلى الآيات والكرامات والجنة والنار فما زاغ البصر وما طغى ؛ أي ما أعار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استقلَّ الأنهار والأودية .

(٢) سئل الشبلي : «كيف ثبت النبي (ص) في المعراج للقاء والمخاطبة ؟ فقال : إنه هُيِّيء لأمرٍ فمُكِّنَ فيه»

ويقارن القشيري في موضع آخر بين موسى عليه السلام إذ خرَّ صعقا بمجرد سماع النداء وبين نبينا عليه الصلاة والسلام إذ ثبت في محل المشاهدة ، ويضيف : إن موسى في حال التلوين ، ومحمد في حال التمكين .

(٣) هذه الأصنام كلها مؤنثات .. وكانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله !

ثم وبّخهم فقال : أرأيتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسون البنات إلى الله ؟ تلك إذاً قسمةٌ ناقصةٌ !

قوله جل ذكره : « إنْ هي إلّا أسماءٌ سمّيْتُموها أنتم
وآباؤُكم ما أنزلَ اللهُ بها من سُلْطانٍ إن
يتّبعونَ إلّا الظّنَّ وما تهْوَى الأنفُسُ
ولقد جاءهم من ربِّهمُ الهُدَى » .

أنتم ابتدعتُم هذه الأسماء من غير أنْ يكونَ اللهُ أمَرَكم بهذا ، أو أذِن لكم به .

فأنتم تتبعون الظنّ ، « وإن الظنَّ لا يغنى من الحقّ شيئاً »[1]

« ولقد جاءهم من ربِّهم الهدى » : فأعرضوا عنه ، وكما أنّ ظنّ الكفار أوْجَبَ لهم الجهلَ والحَيْرةَ والحُكْمَ بالخطأ — فكذلك فى هذه الطريقة[2] : مَنْ عَرَّجَ على أوصاف الظنّ لا يَحْظَى[3] بشىء من الحقيقة ؛ فليس فى هذا الحديث إلا القطعُ والتحقُّق ، فنهارُهم قد متَعَ[4] ، وشمُسهم قد طلعت ، وعلومُهم أكثرها صارت ضرورية .

أمّا الظنُّ الجيلُ بالله فليس من هذا الباب ، والتباسُ عاقبةِ الرجلِ عليه ليس[5] أيضاً من هذه الجلة ذات الظن المعلول فى الله ، وفى صفاته وأحكامه .

قوله جل ذكره : « أم للإنسانِ ما تمَنَّى » .

أى ليس[6] للإنسان ما يتمنّاه ؛ فإنّه يتمنى طولَ الحياةِ والرفاهيةَ وخِصْبَ العَيْشِ .. ومالا نهاية له ، ولكنّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه .

---

(1) آية ٢٨ فى السورة نفسها .

(2) يقصد طريقة الصوفية .

(3) فى م (يخطى) وهى خطأ فى النسخ

(4) فى ص (منع) بالنون وهى خطأ ، فمتوع النهار من المصطلحات الصوفية التى زادها القشيرى على (اللوائح والطوالع واللوامع) كما نوهنا من قبل .

(5) هكذا ، م وهى فى ص (ليبن) وهى خطأ من الناسخ .

(6) هى (أم) المنقطعة ، ومعنى الهمزة فيها للإنكار ، أى الإنسان — يعنى الكافر — ما تمنى من شفاعة الأصنام ، وغير ذلك من التمنى .

ويقال : ما يتمنّاه الإنسانُ أنْ يرتفعَ مرادُه واجباً في كل شيء — وأن يرتفعَ مرادُ عَبْدٍ واجباً في كل شيء ليس من صفات الخَلْقِ بل هو لله ، الذي له ما يشاء :

« فلله الآخرةُ والأُولىٰ » .

له الآخرةُ والأُولى خَلْقاً ومِلْكاً ، فهو المَلِكُ المالكُ صاحبُ المُلْكِ التام . فأمَّا المخلوقُ فالنقصُ لازمٌ للكُلِّ .

قوله جل ذكره : « وكم مِّن مَلَكٍ في السموات لا تُغْنِي شفاعتُهم شيئاً إلا مِن بعد أن يأْذَنَ اللهُ لِمَن يشاء ويرضَىٰ ».

وهذا ردٌّ عليهم حيث قالوا : إنَّ الملائكةَ شفعاؤنا عندالله(1) .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكةَ تسميةَ الأنثى * وما لَهم به مِنْ عِلْم إن يتَّبعون إلا الظنَّ وإنَّ الظنَّ لا يُغْني من الحق شيئاً » .

هذه التَّسْمِيةُ من عندهم ، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً .. بل ظَنّاً — والظنُّ لا يفيد شيئاً .

قوله جل ذكره : « فأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّىٰ عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا * ذلك مبلَغُهُم من العِلْم إنَّ ربَّك هو أَعْلَمُ بِمَن ضلَّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بمن اهتدى » .

أي أَعْرِض عمَّن أعرض عن القرآنِ والإيمان به وتدَبُّرِ معانيه ، ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا .

---

(1) لا تنفع شفاعةُ أحدٍ إلا إذا أذن الله .. فإذا كانت الملائكة مع كثرتها وقربها من الله لا تصلح الشفاعة إلا بإذن من الله — فكيف تصلح هذه الأصنام للشفاعة ؟ !

ذلك مبلغهم من العلم؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة، وإنَّ ربَّك عليمٌ بالضالِّ، عليمٌ بالمهتدِى.. وهو يجازى كُلًّا بما يستحق.

قوله جل ذكره: «ولله ما فى السموٰاتِ وما فى الأرضِ ليَجزِىَ الذين أساءوا بما عَمِلوا ويجزِىَ الذين أحسنوا بالحسنى».

يجزى الذين أساءوا بالعقوبات، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله جل ذكره: «الذين يجتَنِبُون كبائرَ الإثمِ والفواحِشَ إلَّا اللَّمَمَ».

الذنوبُ كلُّها كبائر لأنها مخالِفةٌ لأمر الله، ولكنَّ بعضَها أكبرُ من بعضٍ. ولا شىء أعظمُ من الشِّرك. «والفواحش» المعاصى.

«إلا اللمم»: تكلموا فيه، وقالوا: إنه استثناء منقطع، واللمم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش.

ويقال: اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهًا — فأخبر أنه يغفرها.

ويقال: اللمم هو أن يأتىَ المرء ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة.

وقال بعضُ السَّلَفِ: هو الوقعة من الزِّنا تحصل مرةً ثم لا يعود إليها، وكذلك شرب الخمر، والسرقة.. وغير ذلك، ثم لا يعود إليها.

ويقال: هو أن يهم بالزَّلَّة ثم لا يفعلها.

ويقال: هو النَّظَر. ويقال: ما لاحدَّ عليه من المعاصى، وتُكَفِّر عنه الصلوات. (والأصحُّ أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصى)[1].

قوله جل ذكره: «إنَّ ربَّكَ واسِعُ المغفرةِ هو أعلمُ بكم إذ أنشأكم من الأرضِ وإذ أنتم

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص.

أجِنَّةٌ فى بطونِ أمهاتِـكم فلا تُزَكُّوا
أنفُسَكم هو أعلمُ بِمَنِ اتَّقَى » .

« إذ أنشأكم من الأرض » : يعنى خَلْقَ آدم .

ويقال : تزكيةُ النَّفْسِ من علامات كَوْنِ المرء محجوباً عن الله ؛ لأنَّ المجذوب إلى الغاية والمستغرق فى شهود ربِّه لا يُزَكِّى نفسه[1].

« هو أعلم بمن اتقى » : لأنه أعلمُ بكم منكم .

ويقال : مَن اعتقد أنَّ على البسيطة أحداً شرٌّ منه فهو مُتَكَبِّرٌ .

ويقال : المسلمُ يجب أنْ يكونَ بحيث يرى كلَّ مسلمٍ خيراً منه ؛ فإن رأى شيخاً ، قال : هو أكثرُ منِّى طاعةً وهو أفضلُ منِّى ، وإنْ رأى شاباً قال : هو أفضلُ منى لأنه أقلُّ منِّى ذَنْباً .

قوله جل ذكره : « أفرأيتَ الذى تَوَلَّى ﴿ وأعطى قليلاً وأكدَى » .

أعرض عن الحقِّ ، وتصدَّق بالقليل . « وأكدى » أى قطع عطاءه .

« أعنده عِلْمُ الغيبِ فهو يَرَىٰ »

« فهو يرى » : فهو يعلم صِحَّةَ ذلك . يقال : هو المنافق الذى يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك :

« أعنده علم الغيب » : فهو يرى حاله فى الآخرة ؟

« أمْ لم يُنَبَّأْ بما فى صُحُفِ موسى ﴿
وإبراهيمَ الذى وَفَّىٰ » .

---

(١) قارن ذلك بقول النسفى فى ذكر المرء لطاعته : « .. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر » النسفى جـ ٤ ص ١٩٨ . ونظن أن فى عبارة النسفى شيئاً يستحق التصويب : فالأولى أن يقال : وهذا إذا كان على سبيل الاعتراف بالنعمة — لا على سبيل الإعجاب أو الرياء — فإنه جائز ..

أم لم يُنبّأ هذا الكافرُ بما فى صحف موسى ، وصحف إبراهيم الذى وفّى ؛ أى أتمّ ما طُولِبَ به فى نفسِه ومالِه ووَلدِه .

قوله جل ذكره : « ألّا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى * وأن ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى * وأنّ سَعْيَهُ سوف يُرَى * ثم يُجْزَاهُ الجزاءَ الأوْفَى » .

الناسُ فى سَعْيِهم مختلفون ؛ فَمَنْ كان سعيُهُ فى طلب الدنيا خسِرت صفقتُه ، ومن كان سعيُهُ فى طَلَبِ الجنة ربحت صفقته ، ومن كان سعيُهُ فى رياضة نَفْسِه وصل إلى رضوان الله ، ومَنْ كان سعيه فى الإرادة شَكَرَ اللهُ سَعْيَهُ ثم هداه إلى نَفْسِه .

وأمّا المُذْنِبُ — فإذا كان سعيُهُ فى طلب غفرانه ، وندَمِ القلبِ على ما اسودَّ من ديوانه ، فسوف يجد من الله الثوابَ والقربة والكرامة والزلفة .

ومَنْ كان سَعْيُه فى عَدِّ أنفاسِه مع الله ؛ لا يُعرِّج على تقصير ، ولا يُفرِّط فى مأمور فسيرى جزاء سَعْيِه مشكوراً فى الدنيا والآخرة ، ثم يشكره بأنْ يُخاطِبَه فى ذلك المعنى بإسماعِه كلامَه من غير واسطة : عبدى ، سَعْيُك مشكور ، عبدى ، ذَنْبُكَ مغفور .

« ثم يجزاه الجزاء الأوْفى » : هو الجزاء الأكبرُ والأجَلُّ ، جزاء غير مقطوعٍ ولاممنوعٍ .

قوله جل ذكره : « وأنّ إلى ربِّكَ المُنْتَهَى » .

إليه المرجعُ والمصيرُ ، فابتداءُ الأشياء من الله خَلْقاً ، وانتهاءُ الأشياء إلى الله مصيراً .

ويقال : إذا انتهى الكلامُ إلى اللهِ تعالى فاسْكُتُوا .

ويقال : إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفةِ الله فليس بعدَه شىء إلا ألطافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحوالٍ . . يُجْرِيها على مرادِه — وهى حظوظٌ للعباد .

قوله جل ذكره : « وأنّه هو أضْحَكَ وأبْكَى » .

أراد به الضحك والبكاء المتعارَف عليهما بين الناس ؛ فهو الذى يُجْرِيه ويَخْلُقُه .

ويقال: أضحك الأرضَ بالنباتِ، وأبكى السماء بالمطر.

ويقال: أضحك أهلَ الجنة بالجنة، وأبكى أهل النار بالنار.

ويقال: أضحك المؤمنَ في الآخرة وأبكاه في الدنيا، وأضحك الكافرَ في الدنيا وأبكاه في الآخرة.

ويقال: أضحكهم في الظاهر، وأبكاهم بقلوبهم.

ويقال: أضحك المؤمنَ في الآخرة بغفرانه، وأبكى الكافرَ بهوانه.

ويقال: أضحك قلوبَ العارفين بالرضا، وأبكى عيونهم بخوف الفراق.

ويقال: أضحكهم برحمته، وأبكى الأعداء بسخطه.

قوله جل ذكره: «وأنه هُوَ أمات وأحيا».

أماته في الدنيا، وأحياه في القبر؛ فالقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة.

ويقال: أماته في الدنيا، وأحياه في الحشر.

ويقال: أمات نفوسَ الزاهدين بالمجاهدة، وأحيا قلوبَ العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات نفوسَهم بالمعاملات، وأحيا قلوبهم بالمواصلات.

ويقال: أماتها بالهيبة، وأحياها بالأُنس.

ويقال: بالاستتار، والتجلِّي.

ويقال: بالإعراض عنه، والإقبال عليه.

ويقال: بالطاعة، والمعصية.

قوله جل ذكره: «وأنَّه خَلَقَ الزوجينِ الذَّكَرَ والأُنثى».

سماهما زوجين لازدواجهما عند خلقهما من النُّطْفة.

قوله جل ذكره: «وأنه هُو أغنىٰ وأقنىٰ».

«أغنى»: أعطى الغِنَى، «أقنى»: أكثر القنية أي المال. وقيل «أقنى»: أي أحوجه إلى المال — فعلى هذا يكون المعنى: أنه خَلَقَ الغِنَى والفقر.

ويقال : « أقنى » أى أرضاه بما أعطاه[1].

ويقال : « أغنى » أى أقنع ، « وأقنى » : أى أرضى .

« وأنّه هو ربُّ الشِّعْرَىٰ »

(الشِّعرى : كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وكانت خزاعة تعبدها فأَعْلَمَ اللهُ أنه ربُّ معبودهم هذا)[2] .

« وأنه أهْلَكَ عاداً الأولىٰ * وثموداَ فما أبقىٰ * وقومَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إنهم كانوا هم أظلَمَ وأطغىٰ » .

عاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى هى إرَم ذات العماد ، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً . وأهْلَكَ مِنْ قَبْلِهم قومَ نوحٍ الذين كانوا أظلمَ من غيرهم وأغوى لِطُولِ أعمارهم ، وقوة أجسادهم .

« والمؤتفِكةَ أهوى * فغشَّاها ما غشَّىٰ »

أى المخسوف بها ، وهى قرى قوم لوط ، قَلَبَها جبريل عليهم ، فهى مقلوبة معكوسة .

وقوله : « أهوى » أى : أسقطها اللهُ إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها ، ثم عَكَسَها وألقاها فى الأرض ، فغشاها ما غشاها من العذاب .

قوله جل ذكره : « فبأى آلاء ربِّك تتمارَىٰ ؟ »

فبأى آلاء ربك — أيها الإنسان — تتشكك ؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إنعامَه عليهم وإحسانَه إليهم .

قوله جل ذكره : « هذا نذيرٌ من النُّذُر الأولى » .

---

(١) أقنى : من معانيها أرضى — كما ورد فى أكثر المعاجم .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا اعتماداً على كتب التفاسير ، وهى غير موجودة فى نص القشيرى ؛ ولكننا أردنا إضافتها لنلفت النظر إلى خاطرة تراودنا .. أليس هناك ارتباط بين افتتاحية السورة « والنجم إذا هوى » وبين هذه النهاية ؟ . عابدون ومعبودون يهوون ويتساقطون ويهلكون .. أبعد هذا أيها الإنسان تتشكك فى أن هذا النذير صلوات الله عليه لم يأتِ بدعاً ؟ !

هو محمد صلى الله عليه وسلم ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين .

« أَزِفَتِ الآزِفَةُ * ليس لها من دون الله كاشِفَةٌ » .

أى قَرُبَت القيامة . ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله ، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردِّها وكَشْفِها إلا الله .

ويقال : إذا قامت قيامة هذه الطائفة — اليومَ — فليس لها كاشفٌ غيره . وقيامتُهم تقوم فى اليوم غيرَ مَرَّةٍ . تقوم بالهَجْرِ والنَّوى والفراق .

قوله جل ذكره : « أَفَمِنْ هذا الحديثِ تَعْجَبونَ .... » .

أفمن هذا القرآن تعجبون ، وتكونون فى شكٍّ ، وتستهزئون ؟

« وأنتم سامِدونَ » : أى لاهون ..

« فاسجدوا لله واعبدوا » : فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه[1] .

(1) عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال : « ... فسجد رسول الله (ص) وسجد مَنْ خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف» (البخارى ج ٢ ص ١٣٠) .

سُورَةُ القَمَر (1)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله »: كلمة بها نور القلوب والأبصار ، وبعرفانها يحصل سرورُ الأرواحِ والأسرار . كلمة تدلُّ على جلاله — الذى هو استحقاقه لأوصافه . كلمة تدل على نعته الذى هو غاية أفضاله وألطافه .

قوله جل ذكره : « اقتربَتِ الساعةُ وانشقَّ القمرُ » .

أجمع أهلُ التفسير على أنَّ القمرَ قد انشقَّ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال ابن مسعود (2) : « رأيت حراء بين فلقتى القمر » ولم يوجد لابن مسعود مخالف فى ذلك ؛ فقد روى أيضاً عن أنس وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم .. كلهم رووا هذا الخبر .

وفيه إعجازٌ من وجهين : أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك ، والثانى خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يَرَه ؛ لأنه لا ينكتم مثله فى العادة فإذا خفى كان نقض العادة .

وأهل مكة رأوا ذلك ، وقالوا : إنَّ محمداً قد سحر القمر .

ومعنى « اقتربت الساعة » : أى ما بقى من الزمانِ إلى القيامةِ إلا قليلٌ بالإضافةِ إلى ما مضى.

قوله جل ذكره : « وإن يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويقولوا

---

(1) يسميها البخارى : سورة «اقتربت الساعة» .

(2) عن يحيى بن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله (ص) فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله (ص) : اشهدوا .

وعن قتادة عن أنس قال : انشق القمر فرقتين .

وعن مجاهد عن أبى معمر عن عبد الله قال : انشق القمر ونحن مع النبى (ص)فصار فرقتين . فقال لنا : اشهدوا اشهدوا . (البخارى حـ٣ ص ١٣٠) .

وقد جاء فى النسفى : قال ابن مسعود رضى الله عنه « رأيت حراء بين فلقتى القمر » (النسفى ص ٢٠١) .

سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ» .

يعنى أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النظر فيها ، ولو نظروا لحصل لهم العلمُ واجباً .

« سحر مستمر » : أى دائمٌ قوىٌّ شديد .. (ويقال إنهم قالوا : هذا ذاهب لا تبقى مدته)[1] فاستمر : أى ذهب .

« وكذّبوا واتبعوا أهواءهم » : التكذيب واتباع الهوى قرينان ؛ فإذا حصَل اتباعُ الهوى فمِنْ شُؤمِه يحصل التكذيب ؛ لأنَّ اللهَ يُلَبِّس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر[2] الرشد .

أما اتباع الرضا فمقرونٌ بالتصديق ؛ لأنَّ اللهَ ببركاتِ اتباع الحقِّ يفتح عينَ البصيرة فيحصل التصديق .

وكلُّ امرئٍ جرَتْ له القِسْمةُ والتقدير فلا محالةَ يستقر له حصولُ ما قُسِمَ وقدِّر له .

« وكل أمر مستقر » : يستقر عملُ المؤمنِ فتُوجَبُ له الجنة ، ويستقر عملُ الكافرِ فيُجازَى .

قوله جل ذكره : «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ» .

جاءهم من أخبارِ الأنبياء والأممِ الذين مِنْ قَبْلِهم والأزمنةِ الماضية ما يجب أنْ يحصلَ به الارتداعُ ، ولكنَّ الحقَّ — سبحانه — أسْبَلَ على بصائرهم سُجُوفَ الجهلِ فَعَمُوا عن مواضع الرشد .

« حكمة بالغة . . » : بدل من (ما) فيما سبق : (ما فيه مزدجر) .

والحكمة البالغة هى الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكّرَ فيها .

« فما تغنِ النذر » : وأى شىء يغنى إنذارُ النذيرِ وقد سَبَقَ التقديرُ لهم بالشقاء ؟

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٢) هكذا فى ص . وهى فى م (لا يستبشر) ، والأصوب ما أثبتنا .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عنهم يومَ يَدْعُ الداعِ إلى شيء
نُكُر * خُشَّعاً أبصارُهم » .

« فتولَّ عنهم » : هاهنا تمام الكلام — أي فأعرِضْ عنهم . وهذا قبل الأمر بالقتال .
ثم استأنف الكلامَ : « يوم يدعُ الداعِ .. » والجواب : « يخرجون من الأجداث » — أراد به يوم القيامة .

ومعنى « نُكُرٍ » : أي شيء ينكرونه (بهَوْله وفظاعته)[1] وهو يوم البعث والحشر .

وقوله : « خشعاً » منصوب على الحال ، أي يخرجون من الأجداث — وهى القبور — خاشعى الأبصار .

« ... كأنهم جرادٌ مُنتَشِرٌ *
مُهْطِعين إلى الداعِ يقول الكافرون
هذا يومٌ عَسِرٌ » .

كأنهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم ، « مهطعين » : أى مُديمى النظر إلى الداعى — وهو إسْرافيل .

« يقول الكافرون هذا يوم عَسِر » : لتوالى الشدائد التى فيه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ فكَذَّبوا
عَبْدَنا وقالوا مجنونٌ وازْدُجِرَ *
فَدَعا ربَّه أنِّى مغلوبٌ فانتصِر *
ففتحنا أبوابَ السماء بماء مُنْهَمِرٍ »

كذب قوم نوح نبيَّهم ، وقالوا : إنه مجنون ، وزجروه وشتموه .

وقيل : « ازدُجِر » : أى استطار عَقْلُه ، أى قومُ نوحٍ قالوا له ذلك .

فدعا ربَّه فقال : إنى مغلوب ؛ أى بتسلُّطِ قومى علىَّ ؛ فلم يكن مغلوباً بالحُجَّة لأنَّ الحُجَّة كانت عليهم ، فقال نوح لله : اللهمَّ فانتَصِرْ منهم أى انتَقِمْ .

---

(١) ما بين القوسين توضيح من جانبنا غير موجود فى النص .

ففتحنا أبواب السماء بماء مُنْصَبٍّ ، وشَقَقْنَا عيونًا بالماء ، فالتقى ماء السماء وماء الأرضِ على أمرٍ قد قُدِّرَ فى اللوح المحفوظ ، وَقُدِرَ عليه بإهلاكهم !

وفى التفاسير : أن الماء الذى نَبَعَ من الأرضِ نَضَبَ . والماء الذى نزل من السماء هو البخارُ اليومَ .

« وحَمَلْناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ »

وحملنا نوحًا على « ذات ألواح » أى سفينة ، « ودسر » يعنى المسامير وهى جمع دسار أى مسمار .

« تجرى بأعْيُنِنا جزاءً لِمَن كان كُفِرَ »

« بأعيننا » : أى بمرأى منَّا . وقيل : تجرى بأوليائنا .

ويقال : بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم .

ويقال : بأعين الماء الذى أنبعناه من أوجه الأرض .

« جزاءً لمن كان كُفِرَ » : أى الذين كفروا بنوح[1] .

قوله جل ذكره : « ولقد تركناها آيةً فهل من مُدَّكِرٍ »

جعلنا أَمْرَ السفينةِ علامةً بَيِّنَةً لِمَنْ يعتبر بها .

« فهل من مدكر » : فهل منكم من يعتبر ؟ . أمرَهم بالاعتبار بها[2] .

قوله جل ذكره : « فكيف كان عذابى ونُذُرِ »

قالها على جهة التعظيم لأمرِه .

وقد ذَكَرَ قصة نوحٍ هنا على أفصحِ بيانٍ وأقصرِ كلامٍ وأتمِّ معنًى[3] .

---

(١) يرى بعض المفسرين أن (الذى كُفِر) هو نوح عليه السلام لأنه مكفور به ، فكل نبى رحمة لأمته ، فكان نوح رحمة مكفورة .

(٢) أى أن الاستفهام — بلغة البلاغيين — قد خرج عن معناه الأصلى إلى الأمر .

(٣) كأن القشيرى يريد أن يوضح تعليلاً (لتكرار) قصة نوح . ونحن نعلم أن القشيرى لا يستريح تماماً لفكرة القول بالتكرار فى القرآن .

وكان نوحٌ — عليه السلام — أطولَ الأنبياء عمراً ، وأشدَّهم للبلاء مقاساةً

ثم إن اللهَ — سبحانه — لما نجَّى نوحاً متَّعه بعد هلاك قومه ومتع أولادَه ، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولاد نوحٍ عليه السلام . وفى هذا قوةٌ لرجاء أهل الدين ، إذا لقوا فى دين الله محنةً ؛ فإنَّ اللهَ يُهلِكُ — عن قريب — عَدوَّهم ، ويُمكِّنُهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم .

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، وسنةُ اللهِ فى جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أولياءه بعد أن يزهق أعداءه .

قوله جل ذكره : « ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فهل من مُدَّكِرٍ »

يَسَّرنا قراءتَه على ألسنةِ الناسِ ، ويسَّرنا عِلْمه على قلوبِ قومٍ ، ويسَّرْنا فَهْمَه على قلوب قومٍ ، ويَسَّرْنا حِفْظَه على قلوبِ قومٍ ، وكلُّهم أهلُ القرآن ، وكلُّهم أهل الله وخاصته .

ويقال : كاشَفَ الأرواحَ من قومٍ — بالقرآن — قبل إدخالها فى الأجساد .

« فهل من مدكر » لهذا العهد الذى جرى لنا معه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُر * إنَّا أرْسلنا عليهم ريحاً صرْصراً فى يومِ نحسٍ مُسْتَمِرٍ * تنزعُ الناسَ كأنهم أعجازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ » .

كَذَّبوا هوداً ، فأرسلنا عليهم « ريحاً صرصراً » أى : باردةً شديدة الهُبوب ، يُسْمَعُ لها صوت .

« فى يوم نحس مستمر » أى : فى يوم شؤم استمرَّ فيه العذابُ بهم ، ودام ذلك فيهم ثمانيةَ أيام وسَبْعَ ليالٍ . وقيل : دامَ الشؤم تنزع ريحُه الناسَ عن حُفَرِهم التى حفروها

حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنقَطِعٍ. وقيل: كانت الريح تقتلع رءوسهم عن مناكبهم ثم تُلقى بهم كأنهم أصول نخلٍ قطعت رءوسُها.

« ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فهل
من مُدَّكِرٍ ؟ » .

هَوَّنا قراءتَه وحِفْظَه؛ فليس كتابٌ من كُتُبِ الله تعالى يُقرأ ظاهراً إلاَّ القرآن.

قوله جل ذكره: « كَذَّبَتْ ثمودُ بالنُّذُرِ * فقالوا أَبَشَراً
مِنَّا واحداً نتَّبِعُهُ ؟.. إنَّا إذاً لفى
ضلالٍ وسُعُرٍ » .

هم قوم صالح. وقد مضى القولُ فيه، وما كان من عقرهم للناقة.. إلى أن أرسل الله عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك، فَصيَّرَهم كالهشيم، وهو اليابس من النبات، « المحتظر » : أى: المجمول فى الحظيرة، أو الحاصل فى الحظيرة[1] ..

قوله جل ذكره: « كَذَّبَتْ قومُ لوط بالنُّذُر *
إنَّا أرسلنا عليهم حاصِباً إلاَّ آلَ لوطٍ
نَجَّيْناهُم بِسَحَرٍ * نعمةً من عندنا
كذلك نجزى مَن شَكَرَ » .

فأرسلنا عليهم « حاصباً » : أى: حجارةً رُمُوا بها.

« كذلك نجزى مَنْ شكر » : أى: جعلنا إنجاءهم فى إهلاكِ أعدائهم.

وهكذا نجزى من شكر؛ فمثل هذا نعامِلُ به مَن شَكَرَ نعمتنا.

والشُّكْرُ على نِعَمِ الدفع أتمُّ من الشكر على نِعَمِ النفع — ولا يَعْرِفُ ذلك إلا كلُّ مُوَفَّقٍ كَيِّس.

« فَطَمَسْنا أَعْيُنَهم فذوقوا عذابى ونُذُرِ »

(1) يقصد القشيرى أنها قد تقرأ بفتح الظاء وبكسرها.

جاء جبريلُ ومَسَحَ بجناحه عَلَى وجوههم فَعَمُوا ، ولم يهتدوا[1] للخروج — وكذلك أجرى سُنَّتَه فى أوليائه أن يَطْمِسَ على قلوبِ أعدائهم حتى يلبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ثم يُخَلِّصهم من كيدهم .

قوله جل ذكره : « سَيُهْزَمُ الجمعُ ويولُّونَ الدُّبُرَ » .

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحقَّق ذلك يومَ بدر ، فصار ذلك من معجزاته صلوات الله عليه وسلامه[2] .

قوله جل ذكره : « يومَ يُسْحَبون فى النارِ على وجوهِهم ذوقوا مَسَّ سَقَر » .

سَحْبُهم على الوجوهِ أمارةٌ لإذلالهم ، ولو كان ذلك مرةً واحدةً لكانت عظيمة — فكيف وهو التأبيد والتخليد ؟ ! .

وكما أنَّ أمارةَ الذُّلِّ تظهر على وجوههم فعلامةُ إعزازِ المؤمنين وإكرامهم تظهر على وجوههم ، قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة »[3] . وقال : « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم[4] » .

قوله جل ذكره : « إنَّا كلَّ شىء خلقناه بِقَدَرٍ »

أى بِقَدَرٍ مكتوب فى اللوح المحفوظ .

ويقال : خلقنـــاه بقدر ما علمْنا وأردْنا وأخبرْنا .

قوله جل ذكره : « وماأمْرُنا إلَّاواحدةٌ كلَمْحٍ بالبَصَر »

أى إذا أردنا خَلْقَ شىء لا يتعسَّرُ ولا يتعذَّرُ علينا ، نقول له : كُنْ — فيكون

(1) هكذا فى م وهى فى ص (لم يتمكنوا) .

(2) عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال وهو فى قبة يوم بدر : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لاتُعبد بعد اليوم — فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربِّك فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر (البخارى ج ٣ ص ١٢١) .

(3) آية ٢٢ سورة القيامة .

(4) آية ٢٤ سورة المطففين .

بقدرتنا. ولايقتضى هذا استئناف[1] قول فى ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القديم أن يكون أمراً لتلك المكون إنما يحصل فى ذلك الوقت.

« كلمح بالبصر » : أى كما أن هذا القَدْرَ عندكم (أى قَدْرَ مايلمح أحُدكم ببصره) لا تلحقكم به مشقةٌ — كذلك عندنا : إذا أردنا نخلق شيئاً — قلّ أو كَثُرَ، صَغُرَ أو كَبُرَ — لا تلحقنا فيه مشقة.

قوله جل ذكره : « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مُدَّكِر ».

أى أهلكنا القرونَ التى كانت قبلكم فكلُّهم أمثالكم من بنى آدم ...

« وكلُّ شىء فعلوه فى الزُّبُرُ ».

فى اللوح المحفوظ مكتوبٌ قبل أن يعمله[2]. وفى صحيفة الملائكة مكتوب. لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها..

« وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ ».

كلُّ صغيرٍ من الخَلْق، وكلُّ كبيرٍ من الخَلْقِ — مخترمه المنيةُ.

ويقال : كلُّ صغيرٍ من الأعمال وكبيرٍ مكتوبٌ فى اللوح المحفوظ، وفى ديوان الملائكة.

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف؛ لئلا يتجاسر العبدُ على الزَّلَّةِ إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها.

قوله جل ذكره : « إنَّ المُتَّقين فى جناتٍ ونَهَر * فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِرٍ ».

---

(١) هكذا فى م — وهى — فى ص (استيفاء) وكلاهما يمكن أن يتقبله السياق. على معنى أن قوله القديم « كن » لا (يستأنف) عند خلق الحدث. وعلى معنى أنه لايشترط أن يستوفى خلق الحدث الأمرَ يمكن اكتفاء بقوله القديم — والله أعلم.

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب فى السياق من (يعلمه) التى جاءت فى م لأن ما (فعلوه) التى فى الآية تؤدى إلى ذلك.

لهم بساتين وأنهار ، والجمعُ إذا قوبل بالجمع فالآحادُ تُقابَلُ بالآحاد .

فظاهرُ هذا الخطاب يقتضى أن يكون لكل واحدٍ من المتقين جنةٌ ونَهرٌ .

« فى مقعد صدق » : أى فى مجلس صِدْقٍ .

« عند مليكٍ مقتدرٍ » : أراد به عِنْدِيَّةَ القُرْبة والزلفة .

ويقال : مقعد الصدق أى مكان الصدق ، والصادق فى عبادته مَنْ لا يتعبَّدُ على ملاحظة الأطماع ومطالبة الأعواض .

ويقال : مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْه الأطماع ، ومَنْ صَدَقَ فى العبودية تحرَّرَ عن المقاصد الدَّنِيَّة .

ويقال : مَن اشتغل بالدنيا حَجَبَتْه الدنيا عن الآخرة ، ومَنْ أَسَرَه نعيمُ الجنة حُجِبَ عن القيام بالحقيقة ، ومَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكوْن بجملته[1] .

* * *

---

(١) أرباب الحقيقة لا تشغلهم فكرة الثواب والعقاب على النحو المألوف عند العابدين بنفوسهم . فجنَّتُهم الكبرى هى رؤيتهم لمحبوبهم ، ولهم فى ذلك أقوال كثيرة شعراً ونثراً .. من ذلك :

قول أبى على الروزبارى :

من لم يكن بك فانياً عن حبه ... وعن الهوى والأُنس بالأحباب
أو تيمة صبابة جمعت له ... ما كان مفترقاً من الأسباب
فكأنه بين المراتب واقف ... لمنال حظ أو لحسن مآب

ويقول الجنيد : كل محبة كانت لغرض إذا زال الغرض زالت تلك المحبة . ويقول يحيى بن معاذ :

إن ذا الحب لمن يفنى له ... لا لدار ذات لهو وطُرَف
لا ولا الفردوس — لا يألفها — ... لا ولا الحوراء من فوق غُرَف

ويقول أحدهم :

كلهم يعبدون من خوف نارٍ ... ويرون الجنان حظًّا جزيلاً
ليس لى فى الجنان والنار رأى ... أنا لا أبتغى بحبى بديلا

(انظر كتابنا « نشأة التصوف الإسلامى » ط المعارف ص ١٩٥ ، ص ١٩٦) .

سورة الرحمن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : إخبارٌ عن عِزِّه وعظمته .

« الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن فضله ورحمته .

فبشهود عظمته يكمل سرورُ الأرواح ، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح . ولولا عظمته لما عَبَدَ الرحمنَ عابدٌ ولولا رحمتُه لما أحبَّ الرحمنَ واحدٌ .

قوله جل ذكره : « الرحمنُ * علَّم القرآن » .

أى الرحمن الذى عَرَفَه الموحِّدون وجَحدَه الكافرون هو الذى علَّم القرآن . ويقال : الرحمن الذى رحمهم ، وعن الشِّرك عَصَمَهم ، وبالإيمان أكرمهم ، وكلمةَ التقوى ألزمهم — هو الذى عرَّفهم بالقرآن وعلَّمهم .

ويقال : انفرد الحقُّ بتعليم القرآن لِعباده .

ويقال : أجرى اللهُ تعالى سُنَّتَه أنه إذا أعطى نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً[1] أشْرَكَ أُمَّتَه فيه[2] على ما يليق بصفاتهم ؛ فلمَّا قال له (صلم) : « وعلَّمكَ ما لم تكن تعلم »[3] . قال لأمته : « الرحمن * علَّم القرآن » .

ويقال : علَّم اللهُ آدمَ الأسماء كلَّها ثم أمره بِعَرْضِها على الملائكة وذكر آدمُ ذلك لهم — قال تعالى : « أنبِئْهم بأسماء هؤلاء » يا آدم ، وعلَّمَ (نبيَّنا صلى الله عليه وسلم)[4]

---

(١) (شيئاً) غير موجودة فى م . وموجودة فى ص — والسياق يقوى بها .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (فيه أمته) .

(٣) «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم» آية ١١٣ سورة النساء .

(٤) ما بين القوسين إضافة من جانبنا ليتضح السياق .

المسلمين[1] القرآنَ فقال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ، والمُصَلِّ مُناجٍ ربَّه » قال لآدم : أذْكُرْ ما علَّمْتُكَ للملائكة . وقال لنا : ناجِني ياعبدى بما عَلَّمْتُك[2] . وقد يُلاطَفُ مع أولاد الخدم بما لا يُلاطَفُ به آباؤهم .

ويقال : لمَّا علَّم آدمَ أسماء المخلوقاتِ قال له : أَخْبِرِ الملائكةَ بذلك ، وعلَّمَنا كلامَه وأسماءه فقال : إقْرَأوا علىَّ وخاطِبوا به معى .

ويقال : علَّم الأرواحَ القرآنَ — قَبْلَ تركيبها فى الأجساد بلا واسطة[3] ، والصبيانُ إنما يتعلَّمونَ القرآنَ — فى حالِ صِغَرِهم — قبل أنْ عَرَفَتْ أرواحُنا أحداً ، أو سَمِعْنا من أحدٍ شيئاً . علَّمَنَا أسماءه :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادَفَ قلبى فارغـــاً فتمكّنَا

ويقال : سقياً لأيامٍ مضت — وهو يُعلِّمنا القرآن .

ويقال : برحمته علّمَهم القرآنَ ؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآنَ — لا بقراءة القرآن يَصِلُون إلى رحمته .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الإنسانَ * علَّمَهُ البيانَ » .

« الإنسان » : هاهنا جِنْسُ الناس ؛ عَلَّمَهم البيانَ حتى صاروا مُمَيِّزِين[4] — فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان . وعَلَّمَ كُلَّ قومٍ لسانَهم الذى يتكلمون ويتخاطبون به .

والبيانُ ما به تبينُ المعانى — وشَرْحُه فى مسائل الأصول .

ويقال : لمَّا قال أهلُ مكة إنما يُعلِّمه بَشَرٌ ردَّ الله — سبحانه — عليهم وقال : بل عَلَّمَهُ اللهُ ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ صلى الله عليه وسلَّم . وقيل هو آدم عليه السلام .

ويقال : البيان الذى خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرِفُ به كيفيةَ مخاطبةِ الأغيار من الأمثال والأشكال . وأمَّا أهل الإيمان والمعرفة فبيانُهم هو عِلْمُهم كيفيةَ مخاطبةِ مولاهم — وبيانُ

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (المسلمون) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) أنظر كتابنا (البسملة بين أهل العبارة وأهل الإشارة) ورأينا فى معنى (الرحمن) .

(٣) إشارة إلى يوم الذر .

(٤) بتشديد الياء وفتحها على معنى أن البيان علامة تميزهم عن سائر الحيوان ، وبكسرها على معنى أن البيان وسيلة انفرد بها الإنسان للتعبير عمَّا تكنه نفسه للتمييز بين الأشياء .

العبيدِ مع الحقِّ مختلفٌ : فقومٌ يخاطبونه بلسانهم ، وقومٌ بأنفاسهم ، وقوم بدموعهم :

دموعُ الفتى عمَّا يحسُّ تترجمُ وأشـــواقه تبدين ما هو يكتم

وقومُ بأنينهم وحنينهم :

قُلْ لى بألسنة التنفُّس كيف أنت وكيف حالك ؟

قوله جل ذكره : « الشمسُ والقمرُ بِحُسْبَانٍ » .

يعنى يجرى أمرهما على حدٍّ معلومٍ من الحساب فى زيادة الليل والنهار ، وزيادة القمر ونقصانه ، وتُعْرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام .. وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأجَلُ . . فالشمسُ تُكَوَّرُ والقمرُ ينكدر .

وكذلك لشمسِ[1] المعارفِ وأقمارِ العلوم — فى طلوعها فى أوج[2] القلوبِ والأسرار — فى حكمة الله حسابٌ معلومٌ ، يُجْرِيها على ما سَبَقَ به الحُكْمُ .

قوله جل ذكره : « والنَّجمُ والشَّجرُ يسجدان » .

ويقال : النجم من الأشجار : ما ليس له ساق[3] ، والشجر : ما له ساق .

ويقال : النجومُ الطالعةُ والأشجارُ الثابتةُ « يسجدان » سجودَ دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال .

قوله جل ذكره : « والسماء رَفَعَها ووَضَعَ الميزان » .

سَمَكَ السماء وأعلاها ، وعلى وصفِ الإتقانِ والإحكام بناها ، والنجومَ فيها أجراها ، وبثَّ فيها كواكبها ، وحفظ عن الاختلالِ مناكبَها ، وأثبت على ما شاء مشارقَها ومغاربَها . . وخَلَقَ الميزانَ بين الناس ليعتبروا الإنصافَ فى المعاملات بينهم .

ويقال : الميزانُ العَدْلُ .

« ألا تَطْغَوْا فى الميزان »

---

(١) هكذا بالمفرد فى م وهى فى ص بالجمع (شموس) ونرجح أنها بالمفرد حسبا نعرف من أسلوب القشيرى فشمس الحقائق واحدة إذا طلعت غطّى نورها أقمار العلوم .

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما جاء فى م (روح) فلا معنى لها هنا .

(٣) لأنه ينجم عن الأرض بلا ساق مثل البقول (النسفى ـ ٤ ص ٢٠٧) .

احفظوا العَدْل فى جميع الأمور؛ فى حقوق الآدميين وفى حقوق الله، فيعتبرُ العدلُ، وتَرْكُ الحَيْفِ وعجاوزةُ الحدِّ فى كل شىء؛ فنى الأعمال يُعْتَبَرُ الإخلاصُ، وفى الأحوال الصدقُ، وفى الأنفاس الحقائقُ ومساواةُ الظاهرِ والباطنِ وتَرْكُ المداهنةِ والخداعِ والمكرِ ودقائقِ الشِّركِ وخفايا النفاق وغوامض الجنايات.

«وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولاتُخْسِروا الميزان».

(وأقيموا الوزن بالمكيال الذى تحبون أن تُكَالوا به، وعلى الوصف الذى ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف)[1].

قوله جل ذكره: «والأرضَ وضعها للأنام * فيها فاكهةٌ والنَّخْلُ ذاتُ الأكمام * والحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحانُ».

خلق الأرض وَجَعلَها مهاداً ومثوى للأنام.

ويقال: وضعها على الماء وبسط أقطارها، وأنبت أشجارها وأزهارَها، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارَها.

«فيها فاكهة..» يعنى ألوانُ الفاكهة المختلفة فى ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها، وحرارتها وبرودتها.. وغير ذلك من اختلافِ فى حَبِّها وشجرها، وورقها ونَوْرها.

«والنخل ذات الأكمام» وأكمام النخل ليفها وما يُغَطِّيها من السَّعف.

«والحَبُّ»: حَبُّ الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحُبوب.

«ذو العصف»: والعصف ورق الزرع[2]

(١) ما بين القوسين مضطرب فى النص حاولنا تنظيمه ليعطى معنى.

(٢) قال الضحاك: العصف التبن، وقال بعضهم العصف هو المأكول من الحب، والريحان النضيج الذى لم يؤكل. وقال أبو مالك: العصف أول ما ينبت تسميه النبط هبوراً. وقال بعضهم: العصف ورق الحنطة. (البخارى ج ٣ ص ١٣١). وسميت الرياح عواصف لأنها تأتى بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه.

« والريحان » الذى يُشَمّ . . ويقال : الرزق لأن العرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله »

ذكَّرهم عظيمَ مِنَّتِه عليهم بما خَلَقَ من هذه الأشياء التى ينتفعون بها من مأكولاتٍ ومشمومات وغير ذلك .

قوله جل ذكره : « فبأىِّ آلاء ربِّكما تُكَذِّبان »

فبأى آلاء ربكما تجحدان ؟ والآلاء النَّعماء .

والتثنيةُ فى الخطاب للمُكلَّفين من الجِنّ والإنس .

ويقال : هى على عادة العرب فى قولهم : خليلىَّ ، وقِفا ، وأرحلاها ياغلام ، وأزجراها ياغلام .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الإنسانَ من صلصالٍ كالفخّار »

« الإنسان » : يعنى آدم ، والصلصالُ الطينُ اليابس الذى إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار .

ويقال : طين مخلوط بالرمل .

ويقال : مُنتِنٌ ؛ من قولهم صَلّ وأَصَلّ إذا تغيّر .

« وخَلَقَ الجانَّ من مارجٍ من نارٍ »

المارج : هو اللهب المختلط بسواد النار

« فبأىِّ آلاء ربكما تكذبان »

يذَكِّرُ الخَلْقَ من الجن والإنس كما سبق — وكرَّر اللهُ سبحانه هذه الآية فى غير موضع على جهة التقرير بالنعمة على التفصيل ، أى نعمةً بعد نعمة .

ووجُه النعمة فى خلق آدم من طين أنه رقاه إلى رتبته بعد أن خلقه من طين .

ويقال ذَكَّرَ آدمَ نسبته وذكّرنا نسبتنا لئلا نُعْجَبَ بأحوالنا .

ويقال عرَّفَه قدرَه لئلا يتعدّى (١) طَوْرَه .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (لا يعدو) .

قوله جل ذكره : « رَبُّ المشرقين وربُّ المغربين * فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبان » .

« المشرقين » : مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما .

ووجه النعمة فى ذلك جريانهما على ترتيب واحدٍ حتى يكمل انتفاع الخَلْقِ بهما .

و يقال : مشرق القلب ومغربه ، وشوارق القلب وغواربه إنما هى الأنوار والبصائر التى جرى ذِكْرُ بعضها فيما مضى .

قوله جل ذِكْرُه : مَرَجَ البحرين يلتقيان * بينهما بَرْزَخٌ لا يبغيان » .

« برزخ » أى حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر ، أراد به البحر العذب والبحر الملح . و يقال : لا يبغيان على الناس ولا يغرقانهم .

« يخرُجُ منهما اللؤلؤُ والمَرْجانُ »

اللؤلؤ : كبار الدُّرِّ ، والمَرجان : صغار الدرِّ . ويقال : المرجان النَّمْل .

وفى الإشارة : خَلَقَ فى القلوب بحرين : بحر الخوف وبحر الرجاء . و يقال القبض والبسط وقيل الهيبة(١) والأُنس . يُخرج منها اللؤلؤ والجواهر وهى الأحوال الصافية واللطائف المتوالية .

و يقال : البحران . إشارة إلى النفس والقلب ، فالقلب هو البحر العَذْب والنفس هى البحر الملح . . فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين ، وكلُّ حالة لطيفة . . ومن النفس كل خلق ذميم(٢) . والدرُّ من أحد البحرين يخرج ، ومن الثانى لا يكون إلا التمساح مما لا قَدْرَ له من سوا كن القلب . « بينهما برزخ لا يبغيان » : يصون الحقُّ هذا عن هذا ، فلا يَبْغِى هذا على هذا .

قوله جل ذكره : « وله الجَوارِ المُنْشَآتُ فى البحرِ كالأعلامِ »

« الجوارى » : واحدها جارية ، وهى السفينة .

(١) هكذا فى م وهى الصواب أمَّا فى ص فهى (الهيبط) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) النفس عند الصوفية محلٌّ المعلولات والقلب محل المحمودات .

« الأعلام » : الجبال

(له هذه السفن التى أنشئت وخلقت فى البحر كأنها الجبال العالية)[1] .

قوله جل ذكره : « كُلُّ مَنْ عليها فانٍ »

كل من على وجه الأرض فى حكم الفناء من حيث الجواز - ومن حيث الخبر : ستفنى الدنيا ومن عليها و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . « والوجه » : صفة لله —سبحانه— لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلّ عليه جَوازاً ، وورد الخبر بكونه قطعاً .

ويقال : فى بقاء الوجه بقاء الذات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، ولا محالة شَرطها قيامها بنفسه وذاته - وفائدة تخصيص الوجه[2] بالذكر أن ما عداه يُعْرَفُ بالعقل ، والوجه لا يُعْلَمْ بالعقل ، وإنما يُعْرَفُ بالنقل والأخبار - و « يبقى » : وفى بقائه . سبحانه خَلَفٌ عن كلّ تلفٍ[3] ، وتسليةٌ للمسلمين عمَّا يصيبهم من المصائب ، و يفوتهم من المواهب .

قوله جل ذكره : يسأله مَن فى السموات والأرض كُلَّ يومٍ هو فى شأن » .

أهلُ السموات يسألون أبداً المغفرة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة ، أى لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه) .

وفى السموات والأرض مَنْ لا يسأله : وهم مَنْ قيل فيهم: مَنْ شَغَلَه ذِكْرى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أُعطى السائلين[4] .

و يقال: ليس كلُّ مَنْ فى السمواتِ والأرض يسألونه مِمَّا فى السموات والأرض ولكن :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُفْشيه   قَوْلٌ ولا قَلَمٌ للخَلْق يحكيه

---

(١) ما بين القوسين مستدرك فى هامش الورقة بالنسخة ص

(٢) سقطت لفظة (الوجه) من النسخة م .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (تالف) وهى صحيحة ولكن السياق والموسيقى الداخلية تتأكد بـ (تلف) .

(٤) « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » رواه البخارى فى التاريخ ، والبزار فى المسند ، والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب .

« كلَّ يوم هو فى شأن » مِنْ إحياء و إماتة ، وقبضِ قوم وبَسْطِ قومٍ .. وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات ، وما يُجْرِيه عليها من اختلاف الصفات .

وفى الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا : إنّ اللهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً ، فأخبر أنه كل يوم هو فى شأن ، ولو أُخْلِيَ العالَم لحظةً من حِفْظِه لتلاشى وبَطَلَ .

(ومن شأنه أن يغفرَ ذنباً ، ويَسْتُرَ عيباً ، ويُذْهِبَ كرباً)[1] ، ويُطَيِّبَ قلبا ، ويُقْصِي عَبْداً ويُدْنِي عبداً ... إلى غير ذلك من فنون الأفعال . وله مع عباده كلَّ ساعةٍ بِرٌّ جديدٌ ، وسِرٌّ[2] بينه وبين عبده — عن الرقباء — بعيد .

ويقال : كل يوم هو فى شأنٍ سَوْقِ المقادير إلى أوقاتها .

ويقال : كل يوم هو فى شأنٍ إظهارِ مستورٍ وسَتْرِ ظاهرٍ ، وإحضارِ غائبٍ وتغييبِ حاضرٍ .

قوله جل ذكره : « سَنَفْرُغُ لكم أَيُّهَ الثَّقَلَانِ[3] » .

أى للحسابِ يومَ القيامة — وليس به اشتغالٌ ... تعالى اللهُ عن ذلك .

ومعنى الآية : سنقصد لحسابكم .

قوله جل ذكره : « يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ إنِ استطعتُم أن تَنفُذُوا من أقطارِ السموات والأرضِ فانفُذُوا لا تَنفُذُون إلا بسُلْطان » .

أقطارُ السمواتِ والأرضِ نواحيها . أى إنْ قدرتم أن تخرجوا من مُلْكِي فاخرجوا .

---

(١) هذا الرأى أيضاً لأبى الدرداء (البخارى حـ٣ ص ١٣١) .
(٢) هكذا فى م ، أما فى ص فهى (يُسْر) وقد رجحنا الأولى لأن (السر) يكون بعيداً عن الرقباء .
(٣) (الثقلان) = الإنس والجن سُمِّيا بذلك لأنهما ثقلا الأرض .

ثم قال : «لاتنفذون إلا بسلطان» . أى لا تصلون إلى موضع إلّا وهناك سلطانى ومُلْكى ولا تنفذون فى قُطْرٍ إلا وهناك عليكم حجة[1] .

قوله جل ذكره : « يُرْسَلُ عليكما شُوَاظٌ من نارٍ وَنُحَاسٌ فلا تنتصران » .

أى فلا تنتقمان . والشواظُ : اللَّهَبُ من النار لا دخانَ معه . والنحاس : الصُّفْرُ[2] المذاب

قوله جل ذكره : « فإذا انشقَّتِ السماء فكانت وردةً كالدِّهان » .

ينفكُّ بعضها عن بعض وتصير فى لون الورد الأحمر . ويقال : بها الفَرَسُ الموردة كالدهان وهو جمع دهن . أى كدهن الزيت وهو دردى الزيت .

ويقال : كما أن الوردة يتلَّون لونُها ؛ إذ تكون فى الربيع إلى الصُّفْرة ، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء ، وبعد ذلك إلى الغبرة — فكذلك حالُ السماء تتلون من وصفٍ إلى وصفٍ فى القيامة .

قوله جل ذكره : « فيومئذٍ لاَّ يُسْأَلُ عن ذَنْبِهِ إنسٌ ولا جان » .

أراد فى بعض أحوال[3] القيامة لا يُسألون ، ويُسْألون فى البعض . . . فيومُ القيامة طويلٌ .

ويقال : لمَّا كانت لهم يومئذٍ علامات : فللكفارِ سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين ، وللمسلمين بياض الوجه وغيرُ ذلك من العلامات — فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم : من أنتم ؟ لأنهم يعرفون كُلّاً بسيامهم .

(1) هكذا فى م وهى فى ص (وجهه) . فإذا قبلنا (حجة) فيكون المعنى أنكم أينما توجهتم فى بقاع السموات والأرض فستجدون ثالما برهاناً على وحدانية الله ، وشاهداً على ربوبيته . وإذا قبلنا (وجهه) فهى على معنى : «فأينما تولوا فثم (وجه) الله» .

(2) الصفر = النحاس الأصفر .

(3) أحوال القيامة هنا بمعنى مواطن القيامة فى ذلك اليوم الطويل . وربما كانت (أهوال) .

ويقال : لا يُسْألون سؤالاً يكون لهم ويُسْألون(1) سؤالا يكون عليهم(2) .

قوله جل ذكره : « يُعْرَفُ المُجْرِمون بسِيماهم فيُؤْخذُ بالنواصى والأقدام » .

المؤمنون غُرٌّ مُحَجَّلُون ، والكفّارُ سود الوجوه زُرْقُ العيون ، فيعرف الملائكة هؤلاء فيأخذون بنواصيهم ، ويَجُرُّونهم مرة بها ومرةً بأقدامهم ثم ملقونهم فى النار ، ويطرحونهم فى جهنم :

« هذه جَهَنَّمُ التى يُكذِّب بها المجرمون
* يطوفون بَينها وبين حميمٍ آنٍ » .

يقال لهم : هذه جهنم التى كنتم بها تكذبون !

« حميم » : ماء حارٌّ . « آن » تناهى فى النضج

قوله جل ذكره : « ولِمَنْ خافَ مَقامَ ربِّه جَنَّتان »

يقال: لِمَنْ خاف قُرْبَ ربِّه منه واطلاعه عليه .

ويقال : لمن خاف وقوفَه غداً بين يدى الله — جنتان ، ولفظة التثنية هنا على العادة فى قولهم: خليلىَّ ونحوه .

وقيل : بل جنتان على الحقيقة ، مُعَجَّلة فى الدنيا من حلاوة الطاعة وروْح(3) الوقت ، ومؤجَّلة فى الآخرة وهى جنة الثواب . ثم هم مختلفون فى جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون فى الآخرة على حسب درجاتهم .

« ذَوَاتا أفنانٍ * فبأى آلاء ربكما تكذبان
فيهما عينان تجريان » .

دلَّ على أن الجنتين فى الآخرة . والأفنانِ الأغصان . وهى جمع فنن .

---

(1) سقطت (ويسألون) هذه من م وموجودة فى ص وهى ضرورية .

(2) هذه المحاولات التى يبذلها القشيرى مقصود منها — حسبما نظن — التوفيق بين هذ الآية وبين آيات أخرى مثل : «فوربك لنسألنهم أجمعين» ومثل «وقفوهم إنهم مسئولون» .

ومن قبيل هذه المحاولات قول قتادة : ختَمَ الله على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

(3) هكذا فى م وهى فى ص (بروح) .

ويقال : ذواتا ألوانٍ من كلّ صنفٍ ولونٍ تشتهيه النَّفْسُ والعينُ — وتكون جمع فن .

« فيهما عينان تجريان » إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسبيل .

ويقال : عينان تجريان غداً لمن كان له — اليومَ — عينان تجريان بالدموع .

« فيهما من كلِّ فاكهةٍ زَوْجان » .

زوجان أي صِنْفان وضَرْبان ؛ كالرطب واليابس ، والعنب والزبيب .

ويقال : إنها في نهاية الحسن والجودة .

« مُتَّكئين على فُرُشٍ بطائنُها من إستبرقٍ وجَنَى الجنتين دَانٍ » .

بطائنها من استبرق فكيف بظهائرها ؟ . « والبطائن » : مايلي الأرض . « والاستبرق » : الديباج الغليظ . وإنما خاطَبَهم على قَدْرِ فَهْمِهم ؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشْبِه ما في الدنيا ، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أفهامهم[1].

« وجنى الجنتين دان » : أي مايجتنى من ثمرها — إذا أرادوه — دنا إلى أفواههم فتناولوه من غير مَشَقَّةٍ تنالهم . وفي الخبر المسند : « مَنْ قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر غَرَسَ الله له شجرةً في الجنة أصلها الذهب وفرعها الدر وطلعها كثدي الأبكار ألين من الزبد وأحلى من العسل ، كلما أخذ منها شيئاً عاد كما كان » — وذلك قوله : ودنا الجنتين دان .

ويقال : ينالها القائم والقاعد والنائم .

قوله جل ذكره : « فيهن قاصراتُ الطَّرْف لم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبْلَهم ولا جانٌّ » .

أي في الجنان حورٌ قَصَرْن عيونَهن عن غير أزواجهن .

وإذا كانت الزوجاتُ قاصراتِ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن فأَوْلى بالعبد إذ رجا لقاءه — سبحانه — أن يقصر طَرْفَه ويغُضَّه عن غير مُبَاحٍ .

---

(١) هذا رأي على جانب كبير من الأهمية يوضح مدى تصور القشيري لنعيم الجنة وابتعادها عن المحسات .

بل عن الكُلِّ .. إلى أن يلقاه .

ويقال : من الأولياء مَنْ لا ينظُرُ إليهن — وإنْ أُبيح له ذلك لتحرُّره عن الشهوات، ولعلوِّ همته عن المخلوقات[1] — وأنشدوا :

جُنِنَّا بلَيْلَى وهى جُنَّتْ بغـــيرنا
وأخــــرى بنـا مجنونة لا نُريدها

ويقال : هُنَّ لمن قصرت يدُه عن الحرام والشبهة، وطرفُه عن الرِّيَبِ .

« لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » : لم يصحبهن غيرُ الولىِّ ولم يَحُزْنَ غيرَه، وفى الخبر . اشتاقت الجنة لثلاثة[2] .

« كأنهنَّ الياقوتُ والمَرْجَانُ » .

أى : فى صفاء الياقوت ولون المرجان .

قوله جل ذكره : « هَلْ جَزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحْسَانُ؟ » .

يقال : الإحسانُ الأول من الله والثانى من العبد؛ أى : هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالنصرة إلَّا أن يُحْسِنَ لنا بالخدمة ؟ وهل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالولاء إلا أن يحسن لنا بالوفاء ؟ .

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثانى من الله ؛ أى : هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث القبول والثواب ؟ .

وهل جزاء من أحسن من حيث الخدمة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث النعمة ؟

ويصح أن يكون الإحسانان من الحقِّ ؛ أى : هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه فى الابتداء إلا أن نُحْسِنَ إليه فى الانتهاء ؟ وهل جزاء مَنْ فاتحناه باللُّطف إلا أن نُرْبِىَ له فى الفضل والعطف ؟ .

---

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى القشيرى فى موضوع «الرخصة» .

(٢) إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة : على وعمار وسلمان .
(الترمذى عن أنس ، ورواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير أبى ربيعة الأيادى . وقد حسّن الترمذى حديثه . قاله الحافظ الهيثمى) ونرجح أن الموضع الصحيح للخبر هو بعد النص الشعرى السابق ، ونرجح أيضا أن السبب فى استشهاد القشيرى بهذا الخبر هنا هو إثبات اشتياق الجنة لأهل الخصوص ، بينما هؤلاء الزهاد الثلاثة لا أرَبَ لهم فى الدارين ، لأنهم يأتون بربهم .

ويصحُّ أن يكون كلاهما من العبد ؛ أى : هل جزاء من آمن بنا إلّا أن يَثْبت فى المستقبل على إيمانه ؟ وهل جزاء مَنْ عَقَدَ معنا عقد الوفاء إلا أنْ يقوم بما يقتضيه بالتفصيل ؟ .

ويقال : هل جزاء مَنْ بَعُدَ عن نَفْسِه إلاَّ أنْ نُقرِّبَه منَّا ؟

وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عَنْ نَفسِه إلاَّ أنْ يبقى بنا ؟ .

وهل جزاء مَنْ رَفَع لنا خطوة إلاَّ أن نكافئَه بكل خطوة ألف حُظْوَة ،

وهل جزاء من حفظ لنا طَرْفَه إلا أن نُكْرِمَه بلقائنا ؟ .

قوله جل ذكره : « ومِن دونِهما جَنَّتانِ » .

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتا ؛ جنتان أُخْرَيَان . وليس يريد دونهما فى الفضل ، ولكن يريد « جنتان » سواهما[1].

« مُدْهامَّتانِ » .

أى : خضراوان خُضْرةً تضرب إلى السواد . فالدهمة السواد[2] والفعل منه ادهامَّ والاسم منه مُدْهَامٌّ ، والمؤنث مدهامّة ، والتثنية للمؤنث مدهامتان .

« فِيهمَا عَيْنَانِ نَضَّاختَانِ » :

والنَّضْخُ فَوَرَانُ العين بالماء .

« فيهما فاكهةٌ ونَخْلٌ ورُمَّانٌ »

الأسماء متشابهة . . والعيون[3] فلا .

« فيهن خَيْرَاتٌ حِسانٌ » .

---

(١) قارن ذلك برأى النسفى الذى يقول : هما جنتان من دون تينك الجنتين الموعودتين المقربين وهما لمن دونهم من أصحاب اليمين وفى موضع آخر من صفحة ذاتها يقول النسفى : وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين لأن مدهامتان دون (ذواتا أفنان) ونضاختان دون (تجريان) وفاكهة (دون كل فاكهة) (النسفى ح ٤ ص ٢١٣) .

(٢) هذا رأى الخليل أيضاً .

(٣) ربما يقصد القشيرى (= الأعيان) فهذا هو الاصطلاح المألوف استعماله فى علمى الفلسفة والكلام ، بل إن القشيرى نفسه يستعمله فى مثل هذا الموضع . والمقصود أن القرآن يتحدث عن نعيم الجنة حسب أفهام الناس ، ولكن الأعيان غير الأسماء .

أى : حورٌ خَيِّرات الأخلاق حِسانُ الوجوه . واحدها خَيِّرة والجمع خيِّرات وهذا هو الأصل ثم خُفِّف فصارت خيرات .

« حُورٌ مقصوراتٌ فى الخيام » .

محبوسات على أزواجهن . وهُنَّ لِمَنْ هو مقصورٌ الجوارح عن الزَّلاَّت ، مقصورُ القلب عن الغفلات ، مقصور السِّرِّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال .

وفى بعض التفاسير : أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ فى فرسخ لها ألف باب[1] .

ويقال : قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن . وفى الخبر : أنهن يقلن : نحن الناعمات[2] . فلا نبؤس ، الخالدات فلا نبيد ، الراضيات فلا نسخط .

وفى خبر عن عائشة رضى الله عنها : أن المؤمناتِ أجبْنَهُنَّ : نحن المصلياتُ وما صَلَّيْتُنَّ ، ونحن الصائماتُ وما صُمْتُنَّ ، ونحن المتصدِّقاتُ وما تَصَدَّقْتُنَّ ، قالت عائشة يغلبهن قولُه .

« لم يَطْمِثْهُنَّ[3] إنسٌ قبْلَهُم ولا جَانٌّ » .

قوله جل ذكره : « مُتَّكِئين على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعبقريٍّ حِسانٍ » .

قيل : رياض الجنة ، وقيل : المجالس ، وقيل : الزرابىّ والوسائد — وهى خُضْرٌ « وعبقرى حسان » : العبقرى عند العرب كلُّ ثوبٍ مُوَشًّى .

قوله جل ذكره : « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

مضى تفسيره .

---

(1) حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد حدثنا أبو عمران الجونى عن أبى بكر بن عبد الله ابن قيس عن أبيه : أن رسول الله (ص) قال : إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون . البخارى ج٣ ص ١٣٢ . وذكر ابن جرير الطبرى أن الخيمة لؤلؤة أربعة فراسخ فى اربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب (ج٢٧ ص ٨٤) .

(2) نحن الناعمات فلا نبؤس أبداً ، نحن الخالدات فلا نموت أبداً ... رواه الترمذى عن على : وقال : حديث غريب . ورواه البيهقى وأبو نعيم عن أبى أوفى فى صفة الجنة ، وذكره السراج فى اللمع ص ٣٤٥

(3) الطمث : الجماع بالتدمية

سُورَةُ الوَاقِعَة

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بِسْمِ الله »: اسم جبّار مَن اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه، فإنْ أَبَى إلاّ تمادياً فى عصيانه حَالَ بينه وبين اختياره[1] بقَهْرِ سلطانه، وإنْ لم يلازم هذه[2] الطاعة أَلجأه بالبلاء فيأتيها باضطراره.

اسمٌ عزيزٌ أزلىٌّ، جبّارٌ صَمَدِىٌّ، قهّارٌ أحدىٌّ، للمؤمنين ولىٌّ، وبالعاصين حَفِىٌّ، ليس لجماله كُفِىٌّ، ولا فى جلاله سمىٌّ، لكنه[3] للعُصَاةِ من المؤمنين ولىٌّ.

قوله جل ذكره: « إذا وَقَعَتِ الواقعةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ».

إذا قامت القيامة لا يردُّها شىء.

« كاذبة » هاهنا مصدر: كالعافية، والعاقبة، أى: هى حقّةٌ لا يردها شىء، وليس فى وقوعها كذب.

ويقال: إذا وقعت الواقعة فَمَنْ سَلَكَ منهاج الصحة والاستقامة وَصَلَ إلى السلامة ولقى الكرامة، ومَنْ حادَ عن نهج الاستقامة وَقَعَ فى الندامة والغرامة، وعند وقوعها يتبين الصادق من الماذق:

إذا اشتبكت دموعٌ فى خدودٍ   تَبَيَّنَ مَنْ بكى مِمَّن تباكى

« خافِضَةٌ رافِعَةٌ »

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (إحسانه).

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (شدة) الطاعة.

(٣) هكذا فى م، وفى ص توجد كلمة غير واضحة الكتابة.

« خافضة » : لأهل الشقاوة ، « رافعة » : لأهل الوفاق .

« خافضة » : لأصحاب الدعاوى ، « رافعة » : لأرباب المعانى .

« خافضة » : للنفوس ، « رافعة » : للقلوب .

« خافضة » : لأهل الشهوة ، « رافعة » : لأهل الصفوة .

« خافضة » : لمن جَحَد ، « رافعة » : لمن وَحَّدَ .

قوله جل ذكره : « إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا » .

حُرِّكت حركةً شديدة .

قوله جل ذكره : « وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا * فكانت هباء مُنبَثًّا » .

فَتُتَّتَ فكانت كالهباء الذى يقع فى الكوَّة عند شعاع الشمس .

قوله جل ذكره : « وكُنتُم أزواجاً ثلاثةً * فأصحابُ الميمنَةِ ما أصحابُ الميمنة * وأصحابُ المشْئمَةِ ما أصحابُ المشْئمَةِ * والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » .

« ما أصحاب الميمنة » ؟ على جهة التفخيم لشأنهم والتعظيم لِقَدْرِهم ، (وهم أصحاب اليُمْن والبركة والثواب) (١) .

« ماأصحاب المشأمة » : على جهة التعظيم وللمبالغة فى ذَمِّهم ، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا فى جانب اليمين من آدم عليه السلام يومَ الذَّرِّ ، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله .

---

(١) موجود فى ص وغير موجود فى م .

ويقال : الذين يُعطَوْن الكتابَ بأيمانهم ، والذين يُعطَوْن الكتاب بشمائلهم .

(ويقال : هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين .. إلى الجنة ، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات الشمال .. إلى النار)[1] .

« والسَّابقون السَّابقون » : وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى الخصال الحميدة ، (والأفضال الجليلة)[2] .

ويقال : السابقون إلى الهجرة . ويقال : إلى الإسلام . ويقال : إلى الصلوات الخمس .

ويقال : السابقون بصدْق القَدَم . ويقال : السابقون بعُلُوِّ الهِمَم . ويقال : السابقون إلى كل خير . ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى النَّدم إن لم يتسارعوا بصدق القَدَم .

ويقال : الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ماسبق إليه :

« أولئك المقَرَّبون »

ولم يقل : المُتَقَرِّبون ، بل قال : أولئك المُقَرَّبون — وهذا عين الجَمْع ، فَعَلِمَ الكافة أنهم بتقريب ربِّهم سبقوا — لا بِتَقَرُّبهم[3]

« فى جنَّاتِ النعيم »

أى : فى الجنة[4] . ويقال : مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا فى الجنة ثم يُقَرَّبون من الجنة ، وإنما يُقَرَّبون إلى غير الجنة : يُقَرَّبون من بِساط القربة . .

وأنَّى بالبساط ولا بساط ؟ ! مقربون . . ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة ؛ مُقَرَّبةٌ نفوسُهم من الجنة وقلوبهم إلى الحقِّ .

مُقَرَّبةٌ قلوبهُم من بساط المعرفة ، وأرواحُهم من ساحات الشهود — فالحقُّ عزيز . . لا قُرْبَ ولا بُعْدَ ، ولا فَصْلَ ولا وَصْلَ .

---

(١) موجودة فى م وغير موجود فى ص .

(٢) موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٣) هذه إشارة إلى أن العمل الإنسانى — وحده — لا يعوَّل عليه إذا قيس بالفضل الإلهى .

(٤) يتحدث القشيرى هنا فى ضوء حال الفرق والجمع .

ويقال : مقربون ولكن من حظوظهم ونصيبهم . وأحوالهم — وإنْ صَفَتْ — فالحقُّ وراء الوراء .

قوله جل ذكره : « ثُلَّةٌ مِنَ الأولين * وقليلٌ مِنَ الآخرين » .

الثُّلَّة : الجماعة . ويقال : ثلة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبيَّنا صلى الله عليه وسلم .

ويقال : ثُلَّةٌ من الأولين : من السلف وقليل من المتأخرين : من الأمة .

« على سُرُرٍ موضونة »[1] .

أى منسوجة نسيج الدرع من الذهب . جاء فى التفسير : طولُ كل سريرٍ ثلثمائة ذراع ، إنْ أراد الجلوسَ عليه تواضع ، وإن استوى عليه ارتفع .

« مُتَّكِئِينَ عليها متقابلين » .

أى لايرى بعضُهم قفا بعضٍ . وَصَفَهم بصفاء المودة وتَهَذُّب الأخلاق .

« يَطُوفُ عليْهم وِلدانٌ مُخَلَّدون » .

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يبرحون ولدانٌ فى سِنٍّ واحدة .. لا يهرمون .

وقيل : مُقَرَّطون (الخلدة . القُرْط)

« بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفون » .

« بأكواب » جمع كوب وهى آنية بلا عروة ولا خرطوم ، « وأباريق » : جمع إبريق وهو عكس الكوب (أى له خرطوم وعروة) .

ولا صداع لهم فى شربهم إياها ، كما لا تذهب عقولهم بسببها .

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون ، ولحم طيرٍ مما يشتهون ، وحُورٌ عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، أى : المصون ، جزاء بما كانوا يعملون .

---

(١) وَضَنَ الثوب نَسَجَه بالجوهر ، فهو واضن وهى واضنة والمفعول موضون .

قوله عز ذكره : « لا يَسْمَعون فيها لَغوًا ولا تأثيماً * إلَّا قِيلاً سلاماً سلاما » .

اللغو : الباطل من القول ، والتأثيم : الإثم والهذيان ولا يسمعون إلا قيلاً سلاماً ، وسلاماً : نعت للقيل .

« وأصحابُ اليمين ما أصحاب اليمين * في سِدْرٍ مخضود » : لا شوكَ فيه ، « وطلحٍ منضود » : والطلح شجر الموز ، متراكم نضيد بعضه على بعض .

« وظلٍ ممدود » كما بين الإسفار[1] إلى طلوع الشمس[2] . وقيل : ممدود أى دائم .

« وماء مسكوب » : جارٍ لا يتعبون فيه .

« وفاكهةٍ كثيرة » : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم .

« وفُرُشٍ مرفوعة » لهم .وقيل : أراد بها النساء[3] .

« إنَّا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكاراً » أى الحور العين .

« عُرُبا » : جمع عَرُوب[4] وهى الغَنِجَةُ المتحببةُ إلى زَوْجِها . ويقال عرباً : أى مُتَشَهِّيَات إلى أزواجهن .

« أترابًا » : جمع تِرْب ، أى : هُنَّ على سِنٍّ واحدة .

« لأصحاب اليمين » : أىَ خلقناهن لأصحاب اليمين .

« ثُـلَّةٌ من الأولين * وثُلَّةٌ من الآخِرين » : أى : ثلة من أُولَى هذه الأمة ، وثُلة من أخْراها .

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سَمُومٍ وحميم » : والسَّموم فيحُ جهنم وحَرُّها . والحميم : الماء الحار .

---

(١) طلوع الفجر أو الصبح .
(٢) سقطت (الشمس) من م .
(٣) لأن المرأة يكنى عنها بالفِراش .
(٤) جاء عند البخارى : عروب مثل : صبور يسميها أهل مكة : العَرِبة وأهل المدينة : الغَنِجة ، وأهل العراق : الشكِلة (البخارى حـ٣ ص ١٢٢) .

« وظلٍّ من يحموم » ، وهو الدُّخان الأسود .

« لا باردٍ ولا كريم » : لا بارد : أى لا راحةَ فيه . ولا كريمٍ : ولا حَسَنٍ لهم ؛ (حيث لا نفع فيه) .

« إنهم كانوا قبل ذلك مُتْرَفين » : أى : كانوا فى الدنيا مُتَنَعِّمين .

« وكانوا يُصِرُّون على الحِنْثِ العظيم » أى الذَّنْبِ العظيم .

« وكانوا يقولون أئذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعُوثُونَ ؟ » أى : أنهم يُكَذِّبون بالبعث .

ثم يقال لهم : « إنكم أيها الضالون المُكَذِّبون » اليومَ « لآكلون من شَجَرٍ من زَقُّوم » وجاء فى التفسير : أن الزقوم شجرة فى أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافرُ فى جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً .

« فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحَميم » شرابٌ لا تهنأون به « فشاربون شُرْبَ الهيم » : وهى الإبل العطاش . ويقال : الهيم أى الرَّمْلُ ينضب فيه كلُّ ما يُصَبُّ عليه .

« هذا نُزُلهم يومَ الدِّين » : يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خَلَقْنَاكُم فلولا تُصَدِّقون » .

نحن خلقناكم : يا أهلَ مكةَ — فهلاّ آمَنْتُم لتتخلصوا ؟ تومِّخون وتُعاتَبون .. واليومَ تعتذِرون ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسْمَعُ منكم شىء .

وإن أشدَّ العقوبات عليهم يومئذٍ أنهم لا يتفرَّغون من آلامِ نفوسِهم وأوجاعِ أعضائهم إلى التحسُّر على مافاتهم فى حقِّ الله .

ويقال : أشدُّ البلاء — اليومَ — على قلوب هذه الطائفة[1] خوفُهم من أنْ يَشْغَلَهم — غداً — بمقاساة آلامهم عن التحسُّر على ما تكدَّرَ عليهم من المشارب فى هذا الطريق . وهذه محنةٌ لا شىء أعظمُ على الأصحاب منها . وإنَّ أصحابَ القلوبِ — اليومَ — يبتهلون إليه ويقولون : إنْ

(١) يقصد الصوفية .

حَرَمْتَنا مشاهدَ الأُنْس فلا تَشْغَلْنا بلذّاتٍ تشغلنا عن التحسُّر على ما فاتنا ، ولا بآلامٍ تشغلنا عن التأسُّف على ما عَدِمْنا منك .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم ما تُمنون * ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ » .

يقال : مَنَى الرجلُ وأَمْنَى . والمعنى : هل إذا باشَرْتُم وأنزلتم وانعقد الولد .. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ والخَلْقُ هاهنا : التصوير ؛ أى : أأنتم تجمعون صُوَرَ المولود وتُرَكِّبون أعضاءه .. أم نحن ؟ .

وهم كانوا يُقِرُّون بالنشأة الأولى فاحتجَّ بهذا (على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذى كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصلٌ فى)[1] إثبات الصانع ؛ فإن أصلَ خِلْقَةِ الإنسان من قطرتين : قطرة من صُلْبِ الأب وهو المنى وقطرة من تريبة الأم[2] ، وتجتمع القطرتان فى الرَّحِم فيصير الولد . وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التى هى أجزاء الإنسان من العَظْمِ والعَصَبِ والعِرقِ والجِلْدِ والشَّعْرِ .. ثم يركبها على هذه الصور فى الأعضاء الظاهرة وفى الأجزاء الباطنة حيث يُشَكِّلُ كل عضوٍ بشكلٍ خاص ، والعِظام بكيفية خاصة .. إلى غير ذلك .

وليس يخلو : إمّا أنْ يكونَ الأبوان يصنعانه — وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصر عِلْمِهما وقُدْرتِهما عن ذلك وتَمَنّيهما الولدَ ثم لا يكون ، وكراهتهما الولدَ ثم يكون !

والنُّطفة أو القَطْرةُ مُحالٌ تقديرُ فِعْلها فى نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بَعْدُ ، ولا عِلْمَ لها ولا قدرة .

أو مِنْ غيرِ صانعٍ .. وبالضرورة يُعْلَمُ أنه لا يجوز .

فلم يَبْقَ إلاَّ أن الصانعَ القديمَ المَلِكَ العليمَ هو الخالق[3] .

قوله جل ذكره : « نحن قَدَّرْنا بينكم الموتَ وما نحنُ بمسْبوقين * على أن نبدِّلَ أمثالَكم ونُنْشِئَكمْ فيما لا تعلمون » .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٢) تريبة الأم عظمة الصدر والجمع ترائب .

(٣) هذا نموذج طيب يصور طريقة القشيرى متكلماً .

يكون الموتُ في الوقتِ الذي يريده ؛ منكم مَنْ يموت طفلا ومنكم من يموت شابًّا ، ومنكم من يموت كهلاً ، وبِعِللٍ مختلفة وبأسبابٍ متفاوتةٍ وفي أوقاتٍ مختلفة .

« وما نحن بمسبوقين » في تقديرنا فيفوتنا شيء ولَسْنا بعاجزين عن أن نَخْلُقَ أمثالَكم ، ولا بعاجزين عن تبديلِ صُوَرِكم التي تعلمون ؛ إن أردنا مَسْخَكم وتبديلَ صُوَرِكم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ .

ويقال : ونُنْشِئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة[1] .

قوله جل ذكره : « ولقد عَلِمْتُم النَّشْأَةَ الأُولَى فلولا تَذَكَّرُون » .

أي : أنتم أقررتم بالنشأة الأولى .. فهلَّا تذكَّرون لتعلموا جَوَازَ الإعادة ؛ إذ هي في معناها[2] .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتُم ما تَحْرُثُون * أأنتم تَزْرَعُونَه أم نحن الزَّارِعُون ؟ »

أي : إذا ألقيتم الحَبَّ في الأرض . . أأنتم تُنْبِتُونه أم نحن المُنْبِتون ؟ وكذلك وُجوهُ الحكمةِ في إنبات الزَّرْع ، واقسام الحَبَّةِ الواحدةِ على الشجرة النابتةِ منها (في قِشْرِها ولحائها وجِذْعِها وأغصانها وأوراقها وثمارها)[3] — كل هذا :

« لَوْ نشاءُ لجعلْناهُ حُطاماً فظَلْتُم تَفَكَّهون » .

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خُضْرَته ، فصِرْتُم تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه ، وإنفاقكم عليه ، ثم تقولون :

« إنَّا لَمُغْرَمُون * بل نحن محرُومون »

أي : لَمُلْزَمون غرامةَ ما أنفقنا في الزَّرع ، وقد صار ذلك غُرْماً علينا — فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقُه بغير عِوَضٍ .

---

(١) وضع هذا السطر في مكان تال بعد (في معناها) فنقلناه إلى موضعه الصحيح .

(٢) أي أن الإعادة لا تفترق في شيء عن الخَلْق الأول .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

« بل نحن محرومون » بل نحن محرومون بعد أن ضاع منّا الرزق .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم الماء الذى تشرَبون * أأنتم أنزلتُموهُ مِنَ المُزْنِ أم نحن المُنزِلون * لو نشاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فلولاَ تَشْكُرون » .

أأنتم أنزلتموه من السحاب.. أم نحن نُنزِلُهُ متى نشاء أنَّى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء ؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً فى الوقت وفى المقدار وفى الكيفية ، فى القِلّة وفى الكثرة .

ولو نشاء لجعلناه ملحاً . . أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ اللهِ — سبحانه — عليكم فى تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التى خَلَقَها لكم .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم النَّار التى تورُون * أأنتم أنشأتُم شَجَرَتَها أم نحن المُنْشِئون * نحن جَعَلْنَاها تَذْكِرَةً ومتاعاً للمُقْوِين » .

وَرَى الزَّنْدَ يَرِي فهو وارٍ .. وأَوْراه يُورِيه أى يقْدَحُهُ .

يعنى : إذا قدحتم الزند .. أرأيتم كيف تظهر النار — فهل أنتم تخلقون ذلك ؟

أأنتم أنشأتم شجرتها — يعنى المَرْخَ والعَفَار[1] — أم نحن المنشئون ؟

« نحن جعلناها تذكرة » : أى يمكن الاستدلالُ بها .

« ومتاعاً للمُقْوِين » : يقال : أقوى الرجلُ إذا نزل بالقواء أى : الأرض الخالية .

فالمعنى : أن هذه النار « تذكرة » يتذكَّر بها الإنسان ما توعده به فى الآخرة من نار جهنم ، و « متاعا » : يستمتع بها المسافر فى سفره فى وجوه الانتفاع المختلفة .

---

(١) المرخ : شجر يتفرش ويطول فى السماء ليس له ورق ولا شوك ، سريع الورى يُقتدح به .
والعفار : شجيرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لبنىّ أحمر ، ويتخذ منها الزناد فيسرع الورى . وفى أمثال العرب : «فى كل شجر نار واستمجد المرخُ والعفار» .

قوله جل ذكره : « فَسَبِّح باسم ربِّك العظيم »

أى : اسبحْ بفكرك فى بحار عقلك ، وغُصْ بقوة التوحيد فيها تَظْفَرْ بجواهر العلم ، وإيَّاك أنْ تُقَصِّرَ فى الغوص لسببٍ أو لآخر ، وإياك أن تتداخَلَكَ الشُّبَهُ فيتلفَ رأسُ مالِك ويخرجَ من يدك وهو دينُك واعتقادك . . وإلاَّ غرقتَ فى بحار الشُّبَه ، وضَلَلْتَ .

وهذه الآيات(١) التى عَدَّها الله — سبحانه — تُمَهِّدُ لسلوكِ طريقِ الاستدلال ، فكما فى الخبر « فِكْرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سَنَة » — وقد نبَّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ * وإنَّه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم * إنه لَقُرْآنٌ كريمٌ * فى كتابٍ مكنونٍ * لايَمَسُّه إلا المُطَهَّرُون * تنزيلٌ من ربِّ العالمين » .

قيل : هى مواقع نجوم السماء : ويقال : مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

« إنه لقرآن كريمٌ »: والكَرَمُ نَفْىُ الدناءة — أى: أنه غير مخلوق(٢) ويقال : هو« قرآن كريمٌ » : لأنه يدل على مكارم الأخلاق .

ويقال هو قرآن كريمٌ لأنه من عند ربٍّ كريم على رسولٍ كريمٍ ، على لسان مَلَكٍ كريم . « فى كتاب مكنون» : يقال : فى اللوحْ المحفوظ . ويقال : فى المصاحف . وهو محفوظ عن التبديل . « لايمسّه إلا المطهرون » عن الأدناس والعيوب والمعاصى .

---

(١) إذا تدبرنا هذه الآيات ألفينا القرآن يخاطب العقل الإنسانى بالتدبر فى ثلاثة أشياء : الغذاء والماء والنار ، وبدون الثلاثة لا تقوم الحياة ولا تنتظم .

(٢) هذه إحدى الأفكار الخطيرة التى اشتجر حولها الخلاف بين الأشاعرة الذين يقولون : (القرآن غير مخلوق) وبين المعتزلة الذى يقولون : إنه مخلوق .

ويقال : هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر : أى لا ينبغى أنْ يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُتطهِّراً من الشِّرْكِ ومن الأحداث[1] .

ويقال : لا يجد طَعْمَهُ وبَرَكَته إلّا مَنْ آمنَ به .

ويقال : لا يقربه إلاَّ الموحِّدون ، فأمّا الكفّار فيكرهون سماعَه فلا يقربونه .

وقرئ : المُطَهَّرون : أى الذين يُطَهِّرون نفوسَهم عن الذنوب والخُلُقِ الدَّنِىّ .

ويقال : لا يَمَسُّ خبره إلاَّ من طُهِّرَ يومَ القسمة عن الشقاوة .

ويقال : لا يَفْهَم لطائفَهُ إلّا مَنْ طَهَّرَ سِرَّه عن الكون[2].

ويقال : المطهَّرون سرائرَهم عن غيره .

ويقال : إلا المُحْتَرمون له القائمون بحقِّه .

ويقال : إلا مَنْ طُهِّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة

« تنزيلٌ من ربِّ العالَمين » : أى مُنَزَّلٌ من قِبَلِهِ — سبحانه .

قوله جل ذكره : « أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنون * وتجعلون رِزْقَكم أنَّكم تُكَذِّبون » .

أبهذا القرآن أنتم تُنافِقون ، وبه تُكَذِّبون .

« وتجعلون رزقكم . . . » : كانوا إذ أُمْطِروا يقولون : أُمْطِرْنا بِنَوْءِ كذا .

يقول : أتجعلون بَدَلَ إنعامِ اللهِ عليكم بالمطر الكفرانَ به ، وتتوهمون أن المطرَ — الذى هو نعمةٌ من الله — من الأنواء والكواكب ؟! .

ويقال : أتجعلون حظَّكم ونصيبَكم من القرآنِ التكذيبَ ؟ .

قوله جل ذكره : « فلولا إذا بَلَغَتِ الحُلْقومَ * وأنتم حِينَئِذٍ تنظرون * ونحنُ أقْرَبُ إليه مِنكم ولكن لاَ تُبْصِرُون » .

---

(1) هى هنا جمع حدَث أى النجاسة التى ترتفع بالوضوء أو الغسل أو التيمم .

(2) لنتذكر أن هذا الكتاب الذى وضعه القشيرى هو لفهم (لطائف الإشارات) القرآنية ، ولندرك رأيه فى سمات هذا اللون من التفسير وأهله .

يخاطِبُ أولياء الميت[1] فيقول: هلّا إذا بلَغَتْ روحهُ الحلقوم، وأنتم تنظرون إلى هذا المريض، رجعتم إلى الله تعالى، وتحققتم به؟ فنحن أقرب إليه منكم بالعلم والرؤية والقدرة.. ولكن لا تبصرون!

ويقال: أقرب ما يكون العبدُ من الحقِّ عندما يتم استيلاء ذِكْرِه وشهودِه عليه، فينتفِي إحساسُ العبدِ بغيره، وعلى حسب انتفاء العلم والإحساسِ بالأغيار — حتى عن نفسه — يكون تحقُّقُ العبد في سِرِّه حتى لا يرى غير الحقّ.

فالقرب والبعد معناهما: أنَّ العبدَ في أوان صحوه وأنه لم يُؤْخَذْ — بَعْدُ — عن نفسه؛ فإذا أُخِذَ عنه فلا يكون إلا الحق.. لأنه حينئذٍ لا قُرْبَ ولا بُعْدَ.

قوله جل ذكره: «فلولا إن كنتم غيرَ مدينين * تَرْجِعونها إن كنتم صادقين».

ليس لكم من أمر الموت شيء.

«ترجعونها» أي: تردُّون الروح إلى الجسد.

«إن كنتم صادقين»: في أنه لا بعث[2].

قوله جل ذكره: «فأمّا إن كان من المُقَرَّبين * فرَوْحٌ وريحانٌ وجنّتُ نعيم».

المقرَّبون هم الذين قرَّبهم اللهُ بفضله، فلهم «رَوح وريحان».

ويقال: الرَّوْحُ الاستراحة، والريحانُ الرزقُ.

وقيل: الرَّوْحُ في القبر، والريحانُ: في الجنة.

---

(1) في م (البيت) وفي ص (الميت) وهذه هي الصواب.

(2) نشعر أن تعبير القشيري هنا مقتضب، ويلزم التوضيح: ترتيب الآية هو: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين.. أمّا نحن فنحن أقرب إليه منكم يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا أو بملائكة الموت. أمّا أنتم.. فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثمة قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت والمبدىء المعيد؟!

ويقال : لا يخرج مؤمنٌ من الدنيا حتى يؤتى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشمه قبل خروج روحه ، فالرَّوْح راحةٌ عند الموت ، والريحان فى الآخرة .

وقيل : كانت قراءة النبي (ص) « الرُّوح » بضم الراء أى لهم فيها حياة دائمة .

ويقال : الرَّوْحُ لقلوبهم ، والريحان لنفوسهم ، والجنةُ لأبدانهم .

ويقال : رَوْحٌ فى الدنيا ، وريحانٌ فى الجنة ، وجنَّةُ نعيمٍ فى الآخرة .

ويقال : رَوْحٌ وريحان مُعَجَّلان ، وجنة نعيم مؤجلة .

ويقال : رَوْحٌ للعابدين ، وريحان للعارفين ، وجَنَّةُ نعيم لعوام المؤمنين .

ويقال : رَوْحٌ نسيم القرب ، وريحان كمال البسط ، وجنة نعيمٍ فى محل المناجاة .

ويقال : رَوْح رؤية الله ، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة ، وجنة نعيم أن يدوم هذا ولا ينقطع .

قوله جل ذكره : « وأمَّا إن كَانَ من أصْحَابِ اليَمين ＊
فسلامٌ لكَ من أصْحَاب اليَمين » .

أن نخبرك بسلامة أحوالهم .

ويقال : سترى فيهم ما تحب من السلامة .

ويقال : أمانٌ لك فى بابهم ؛ فلهم السلامة . ولا تَشْغِلْ قلبَكَ بهم

ويقال : فسلامٌ لك — أيها الإنسان — إنك من أصحاب اليمين ، أو أيها الإنسانَ الذى من أصحاب اليمين .

قوله جل ذكره : « وأمَّا إن كان من المُكَذِّبين
الضَّالِّين ＊ فَنُزُلٌ من حَميمٍ ＊
وتصْليةُ جَحيم » .

إن كان من المكذبين لله ، الضالّين عن دين الله فله إقامةٌ فى الجحيم .

قوله جل ذكره : « إنَّ هذا لهو حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسمِ ربِّكَ الْعَظِيم » .

هذا هو الحق اليقين الذى لا محالةَ حاصلٌ .

« فسبحْ باسْم ربِّك الْعَظِيم » أى قَدِّس اللهَ عمَّا لا يجوز فى وصفه .

وقال : صلِّ لله . ويقال : اشكر اللهَ على عصمة أُمَّتِكَ من الضَّلال ، وعلى توفيقهم فى اتِّباع سُنَّتِكَ .

سُورَةُ الحَدِيد

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

سماعُ بسم الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِى به الحقُّ — سبحانه وتعالى — قلوبَ أحبّائه ، فإذا شَرِبوا طَرِبُوا ، وإذا طَرِبوا انبسطوا[1] ، ثم لشهود حقّه[2] تعرَّضوا ، وبنسيم قُرْبه استأنسوا[3] ، وعند الإحساس بهم غابوا .. فعقولُهم تُسْتَغرقُ[4] فى لُطْفِه ، وقلوبهم تُسْتَهلَكُ فى كَشْفِه .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ لِلَّهِ ما فى السَّموات والأرض وهو العزيزُ الحكيمُ » .

التسبيحُ التقديسُ والتنزيه ، ويكون بمعنى سباحة الأسرار فى بحار الإجلال ، فيظفرون بجواهر التوحيد ويَنْظِمونها فى عقود الإيمان ، ويُرَصِّعونها فى أطواق الوصلة :

وقوله « ما » فى السموات والأرض المرادُ به « من » فى السموات والأرض ، يسجدون لله طوعاً وكرهاً ؛ طوعاً تسبيحَ طاعةٍ وعبادة ، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة .

وتَحْمِلُ « ما » على ظاهرها فيكون المعنى : ما من مخلوقٍ من عينٍ أو أثرٍ إلا ويَدُلُّ على الصانع ، وعلى إثبات جلاله ، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه .

---

(١) انبسطوا أى : ذاقوا حال البسط . ويصل العارف إلى القبض والبسط بعد حالى الرجاء والخوف . والمبسوط قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء ، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شىء بحال من الأحوال (الرسالة ص ٣٥) .

(٢) شهود حق الله لا يتم إلا بعد اختفاء حظوظ العبد .

(٣) من الأنس . سئل الجنيد عنه فقال : هو ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة . وسئل ذو النون عنه فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب .

وسئل الشبلى عنه فقال : هو حشتك منه .(التعرف للكلاباذى ص ١٢٦، ١٢٧) .

(٤) ضبطناها هكذا مبنية للمجهول لأن المفروض أن شمس الحقيقة يستغرق نورها نجوم العقل .

ويقال: يُسبح لله ما في السموات والأرض ، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهدِ الطّلبِ . . . ولكنه — سبحانه عزيزٌ[1].

ويقال: ما تقلّب أحدٌ من جاحدٍ أو ساجدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد ، فما يُصرّفهم إلا مَنْ خَلَقَهم ؛ فمِنْ مُطيعٍ ألْبَسه نطاق وفاقه — وذلك فَضْلُه ، ومِنْ عاصٍ رَبَطَه بعُقلة الخذلان — وذلك عَدْلُه .

« وهوَ العزيزُ الحكيم » : العزيز : المُعِزُّ لِمَنْ طَلَبَ الوصول ، بل العزيز : المتقدِّسُ عن كل وصول . . فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إلا حظَّه ونصيبه وصفته على ما يليق به .

قوله جل ذكره : « له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ يُحْيِي ويُمِيتُ وهو على كل شيء قديرٌ » .

المُلْكُ مبالغةٌ من المِلْك ، وهو القدرة على الإبداع ، ولا مالكَ إلا الله . وإذا قيل لغيره : مالك فعلى سبيل المجاز ؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلْكِ الناس صحيحة في الشرعِ ، ولكنّ لفظَ المِلْك فيها توسُّعٌ كما أن لفظَ التيمم في استعمال التراب — عند عدم الماء — في السفر مجازٌ ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة ، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز .

« يُحيي ويُميتُ » : يُحْيِي النفوسَ ويميتها . ويُحْيِي القلوبَ بإقباله عليها ، ويميتها بإعراضه عنها .
ويقال: يحييها بنظره وتفضّله ، ويميتها بقهره وتعزُّزه .

قوله جل ذكره : « هو الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شيء عليمٌ » .

« الأول » : لاستحقاقه صفة القِدَم ، و « الآخرُ » لاستحالة نعت العَدَم .

و « الظاهر » بالعلو والرفعة ، و « الباطن » : بالعلم والحكمة .

ويقال: « الأول » فلا افتتاحَ لوجوده و « الآخِر » فلا انقطاعَ لثبوته .

« الظاهر » فلاخفاء في جلال عِزّه ، « الباطن » فلا سبيل إلى إدراك حقِّه .

ويقال « الأول » بلا ابتداء ، و « الآخِر » بلا انتهاء ، و « الظاهر » بلاخفاء ، و «الباطن» بنعت العلاء وعزّ الكبرياء .

(1) أي حلّت الصمدية أن يستشرف من ذاتها أحد .. فكل واقف بالباب على البساط .

ويقال « الأول » بالعناية ، و « الآخِر » بالهداية ، و « الظـــــاهر » بالرعاية ، و « الباطن » بالولاية .

ويقال : « الأول » بالخَلْق ، و « الآخِر » بالرزق ، و « الظاهر » بالإحياء ، و « الباطن » بالإماتة والإفناء .

قال تعالى : « اللهُ الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم »[1].

ويقال : « الأول » لا بزمان ، و « الآخر » لا بأوان ، و « الظاهر » بلا اقتراب ، و « الباطن » بلا احتجاب .

ويقال : « الأول » بالوصلة ، و « الآخر » بالخلّة ، و « الظاهر » بالأدلة ، و « الباطن » بالبعد[2] عن مشابهة الجلة[3].

ويقال : « الأول » بالتعريف ، « والآخـــر » بالتكليف ، « والظاهر » بالتشريف « والباطن » بالتخفيف[4]

ويقال : « الأول » بالإعلام ، « والآخر » بالإلزام ، « والظاهر » بالإنعام « والباطن » بالإكرام .

ويقال : « الأول » بأن اصطفاك « والآخر » بأن هداك ، « والظاهر » بأن رعاك ، « والباطن » بأن كفاك .

ويقال[5] : مَنْ كان الغالبُ عليه اسمه « الأول » كانت فكرته فى حديثِ سابقته : بماذا سمّاه مولاه ؟ وما الذى أجرى له فى سابق حُكْمه ؟ أبسعادته أم بشقائه ؟ .

---

(1) آية ٤٠ سورة الروم .

(2) سقط – (بالبعد) فى النسخة م وموجودة فى ص

(3) المقصود (بالجلة) هنا جملة المخلوقات .

(4) هكذا فى م وهى فى ص (بالتحقيق) وهذه وإن كانت – صحيحة إلا أن السياق الموسيقى الذى جرى عليه المصنف يرجح (بالتخفيف) على معنى أنه علم ضعف عباده فلم يكلفهم فوق طاقتهم .

(5) هذه الفقرة هامة فى بيان أن الصوفية حينما يتصدون لدراسة الأسماء والصفات يهتمون بالآداب ؛ والسلوك وكيف يتخلّق الصوفى بأخلاق الله ويتأدب بأسمائه أنظر مقدمة كتاب ؛ التحبير فى التذكير تحقيق بسيونى) .

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه « الآخِرِ » كانت فكرته فى : بماذا يختم له حالَه؟ وإلامَ يصير مآلُه؟ أعَلَى التوحيد يَخْرُجُ من دنياه أو — والعياذُ بالله — فى النارِ غداً — مثواه ؟

ومَن كان الغالبُ على قلبه اسمُه « الظاهر » فاشتغاله بشكر ما يجرى فى الحال من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحُسْنِ الرعاية .

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه « الباطن » كانت فكرتُه فى استبهام أمره عليه فيتعثَّر ولا يدرى . . أفَضْلٌ ما يعامله به ربُّه أم مَكْرٌ ما يستدرجه به ربُّه ؟

ويقال : « الأول » علم ما يفعله عبادُه ولم يمنعه عِلْمُه من تعريفهم ، « والآخِر » رأى ما عَمِلوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم « والظاهر » ليس يَخْفَى عليه شىء من شأنهم ، وليس يَدَعُ شيئاً من إحسانهم « والباطن » يعلم ماليس لهم به عِلْمٌ من خسرانهم ونقصانهم فيدفع[1] عنهم فنونَ مِحَنِهم وأحزانهم .

قوله جل ذكره : « هُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرضَ فى ستةِ أيامٍ ثم استوىٰ عَلَى العرشِ ».

مضى الكلام فى ذلك .

« يَعْلَمُ ما يَلِجُ فى الأرضِ وما يخرُجُ مِنْها » .

أى ما يدخل فيها من القَطْرِ ، والكنوزِ ، والبذورِ ، والأمواتِ الذين يُدْفَنون فيها ، « وما يخرج منها » من النبات وانفجار العيون وما يُسْتَخْرَجُ من المعادن .

« وما يَنزِلُ من السَّماء » .

من المطر والأرزاق . أو ما يأتى به الملائكةُ من القضاء والوحى .

« وما يَعْرُجُ فيها » .

أى وما يصعد إليها من الملائكة ، وطاعاتِ العِباد ، ودعوات الْخَلْقِ ، وصحف الُمكَلَّفين ، وأرواح المؤمنين .

---

(١) هنا إشارة لنعم الدفع أو المنع التى لا يفطن إليها الناس .

« وهو مَعَكم أيْنَ مَا كُنتم والله
بما تعملون بَصير » .

« وهو معكم » بالعلم والقدرة .

ويقال(1) : « يعلم ما يلج فى الأرض » إذا دُفِنَ العَبْدُ فالله سبحانه يعلم ما الذى كان فى قلبه من إخلاصٍ فى توحيدِه ، ووجوهِ أحزانه خسرانه ، وشكِّه وجحوده ، وأوصافه المحمودة والمذمومة .. ونحو ذلك مما يخفى عليكم .

« وما ينزل من السماء » على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات وفنون الأحوال العزيزة .

« وما يعرج فيها » من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت ، وحسراتهم إذا علَت .

قوله جل ذكره : « يُولِجُ اللَّيلَ فى النَّهارِ ويُولِجُ
النَّهارَ فى اللَّيلِ » .

مضى معناه .

قوله جل ذكره : « آمِنوا باللهِ وَرسُولِهِ وأنفقوا مِمَّا
جَعَلَكم مُسْتَخْلَفِين فيه فالذين آمنوا
منكم وأنفقوا لهم أجْرٌ كبيرٌ » .

صَدِّقوا باللهِ ورسولِهِ ، وتَصَدَّقوا « مما جعلكم مستخلفين فيه » بتمليككم ذلك وتصييره إليكم . والذين آمنوا منكم وتصدَّقوا على الوجه الذى أُمروا به لهم ثوابٌ عظيمٌ : فإنَّ ماتحويه الأيدى مُعَرَّضٌ للزوال ، فالسَّعيدُ مَنْ قدَّمَ فى دنياه مَالَه فى الآخرة عمارة حاله ، والشقىُّ من سار فيما له فى الآخرة وَبالُ مآله .

قوله جل ذكره : « وما لَكُم لاتُؤمنون باللهِ والرسولُ
يدعوكم لتؤمِنوا بربِّكم وقد أخَذَ
ميثاقَكُمْ إن كنتم مُؤمنين » .

(1) هذه الفقرة استدركها القشيرى متأخراً عن موضعها الأصلى قليلا .

أى شىء لكم فى تَرْكِكُم الإيمان بالله وبرسوله ، وما أتاكم به من الحشر والنشر ، وقد أزاح العِلّةَ بأنْ ألاحَ لكم الحُجّةَ ، وقد أخَذَ ميثاقَكم وقتَ الذَّرِّ ، وأوجب عليكم ذلك بحُكم الشَّرْع .

قوله جل ذكره : « هُوَ الذى يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آياتٍ
بَيِّناتٍ لِيُخرِجَكم من الظُّلُماتِ إلى
النورِ وإنَّ اللهَ بكم لرءوفٌ رحيمٌ » .

ليخرِجَكم من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الشكِّ إلى نور اليقين .

وكذلك يُريهم فى أنفسهم من الآياتِ بكشوفاتِ السِّرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون فيه النفعَ والخيرَ ؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير[1] إلى سعة فضاء التفويض ، وملاحظة فنون جريان المقادير .

وكذلك إذا أرادت النَّفْسُ الجنوحَ إلى الرُّخَص والأخذ بالتخفيف[2] وما تكون عليه المطالبةُ بالأشَقِّ — فإن بادَرَ إلى ماتدعوه الحقيقةُ إليه وَجَدَ فى قلبه من النور ما يَعْلَمُ به ظلمةَ هواجس النَّفْسِ[3].

قوله جل ذكره : « وما لَكُمْ ألاَّ تُنفقوا فى سبيلِ اللهِ
وللهِ ميراثُ السمواتِ والأرضِ » .

ما فى أيديكم ميراثُه لله ، وعن قريبٍ سيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتطاول أحوالكم . وهو بهذا يحثهم على الصدقةِ والبدارِ إلى الطاعة وتَرْكِ الإخلاد إلى الأمل . ثم قال :

« لا يَسْتَوِى منكم مَنْ أنفق مِن
قَبْلِ الفتحِ وقاتَلَ أولئكَ أعظمُ درجةً

---

(١) أى ظلمات التدبير الإنسانى ، والتعويل على النفس ، فاعتماد الإنسان على تدبيره مجلبة لشقائه . . وأنَّى للطين أن يكون ذا تدبير ؟ !

(٢) هكذا فى م وهى الصواب أما (التحقيق) التى فى ص فهى خطأ فى النسخ ؛ لأن الاسير خاص بجنوحٍ إلى (التخفيف) كما نعلم

(٣) يتفق هذا مع قول الرسول الكريم «استفت قلبك ولو أفتاك المفتون» .

من الذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا
وكلاً وَعَدَ اللهُ الُحسْنَىٰ واللهُ بما
تعملُون خبيرٌ » .

لا يستوى منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك . بل أولئك أعظم ثوابًا وأعلى درجةً من هؤلاء ؛ لأنَّ حاجةَ الناسِ كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشقّ على أصحابه[1] .

ثم قال : « وكلاً وَعَدَ الله الحسنى » إلاَّ أنَّ فضيلة السَّبْقِ لهم ، ولهذا قالوا :

السباقَ السباقَ قولاً وفعلاً حذِّر النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوقِ

قوله جل ذكره : « مَّن ذا الذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فيُضاعِفَه له وله أجْرٌ كريمٌ » .

المراد بالقرض الصدقة ، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطييباً لقلوبهم ، فكأن المتصدِّق وهو يقرض شيئاً كالذى يقطع شيئاً من ماله ليدفعَه إلى المُسْتَقْرِض .

ويقال « يقرض » أى يفعل فعلاً حسناً ، وأراد بالقرض الحسن ها هنا ما يكون من وجهِ حلالٍ ثم عن طِيبِ قلبٍ ، وصاحبُه مخلصٌ فيه ، بلا رياء يشوبه ، وبلا مَنٍّ على الفقير ، ولا يُكَدِّره تطويلُ الوعد ، ولا ينتظر عليه كثرة الأعواضِ .

ويقال : أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُبَّ الدارين[2] ، فنى الخبر : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى »[3] ومَنْ لم يتحرَّرْ من شىء فخروجُه عنه تكلُّفٌ[4] .

---

(1) لأن الإسلام لم يكن بعد . قد عز واستمكن وانتشر فى الأرجاء .

(2) أى دون أن يكون تصدقك على ما تفعل عوضاً أو عرضاً سواء فى الدنيا أو فى الآخرة إذ يكفى أن تعلم أى شرف لك أن : تُقْرِض الله ! !

(3) حدث الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال : «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » البخارى ح٣ ص ١٩١ (كتاب النفقات) .

(4) هكذا فى ص وهى فى م «تكلف » كما أثبتنا لأن السياق يقتضى ذلك . وتوجد بعد (تكلف) عبارة مشتبهة فى الخط والمعنى ، تشبه أن تكون : (وهو على من يصل إليه رب به) .

قوله جل ذكره : « يومَ ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يَسْعَى
نورُهم بين أيديهِمْ وبأَيْمانِهِم بُشْراكُمُ
اليومَ جنَّاتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ
خالدين فيها ذلكَ هُوَ الفوزُ العظيمُ » .

وهو نورٌ يُعطَى للمؤمنين والمؤمنات بقَدْر أعمالهم الصالحة ، ويكون لتلك النور مطارحُ شعاع يمشون فيها والنورُ يسعى بين أيديهم ، ويحيط بجميع جهاتهم .

ويقال : « وبأَيْمانهم » كتُبُهم .

« بشراكم اليومَ جنات » أى بشارتكم اليومَ — من الله جنات . وكما أن لهم فى العرصة هذا النور فاليومَ لهم فى قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه ، ويهتدون به فى جميع أحوالهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ينظر بنور الله » وقال تعالى : « فهو على نورٍ من ربِّه[1] » .

وربما ينبسط ذلك النورُ على مَنْ يَقْربُ منهم . وربما يقع من ذلك على القلوب قهراً — ولأوليائه — لامحالةَ — هذه الخصوصية .

قوله جل ذكره : « يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذين
آمنوا انظرونا نقتبِسْ من نُورِكم » .

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبسَ من نوركم . وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعطَوْنَ كتُبَهم وهم فى النور ، فإذا مَرُّوا . . . انطفأ النور أمام المنافقين وسَبقَ المؤمنون ، فيقول المنافقون للمؤمنين : انتظرونا حتى نقتبسَ من نوركم . فيقول المؤمنون :

« قيل ارْجِعوا وراءَكُمْ فالتمسُوا نوراً »

أى إلى الدنيا وأَخلِصوا ! — تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين فى الدنيا .

ويقال : ارجعوا إلى حُكْم الأزلِ فاطلبوا[2] هذا من القِسْمة ! — وهذا على جهة ضرب المَثل والاستبعاد .

---

(١) آيه ٢٢ سورة الزمر .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (فاطلبوا) وقد آثرنا الأولى لأنها آكد فى الاستبعاد — وهو المقصود .

« فضُرب بينهم بسُورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمةُ
وظاهرُهُ مِن قِبَلِهِ العذابُ » .

« بسورٍ : وهو جَبَلُ أصحاب الأعراف ، يستر بينهم وبين المنافقين ، فالوجهُ الذى يلى المؤمن فيه الرحمة وفى الوجه الآخر العذابُ .

قوله جل ذكره : « يُنادونَهُم ألم نكن مّعكم ؟ قالوا : بلى ،
ولكنكم فَتَنتم أنفُسكم ... » .

ألم نكن معكم فى الدنيا فى أحكام الإيمان فى المناكحة والمعاشرة ؟ .

قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ..

« وتربصتم ، وارتبتم ، وغرَّتكُمُ الأمانىُّ حتى جاء أمرُاللهِ
وغرَّكم بالله الغَرورُ » .

تربصتم عن الإخلاص ، وشككتم ، وغرَّكم الشيطان ، وركنتم إلى الدنيا .

قوله جل ذكره : « فاليومَ لا يُؤخَذُ مِنكم فِدْيةٌ ولا مِنَ
الذين كفروا مأواكم النَّارُ هى موْلاكم
وبئسَ المصيرُ » .

النارُ مأواكم ومصيرُكم ومُتَقَلَّبُكُم .

وهى « مولاكم » أى هى أوْلَى بكم ، وبئس المصير !

ويقال : مخالفةُ الضمائر والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر[1] ، والأسرار لا تنكتم عند الاختبار

قوله جل ذكره : ألَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشَعَ
قلوبُهُم لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ من الحقِّ
ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ

(١) السياق حديث عن المنافقين وعن الكفار .. وأراد القشيرى أن ينقل هذا السياق إلى الجو الصوفى فوجه تحذيره لأرباب الرياء والدعوى، أولئك الذين يظنون أنهم إن تظاهروا بالقيام بموافقة الشريعة وموافقة القوم فإن الأسرة سريعاً ما تكشف السريرة — على حد تعبيره فى موضع مماثل .

مِن قَبْلُ فَطَالَ عليهمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ
قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقون » .

ألم يَحِنْ للذين آمنوا أن تتواضعَ قلوبُهم وتلين لذِكْر الله وللقرآنِ وما فيه من العِبَرِ ؟ وألا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل ؟ وأراد بهم اليهودَ ، وكثيرٌ من اليهود فاسقون كافرون .

وأراد بطول الأَمَدِ الفترةَ التي كانت بين موسى ونبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، وفي الخبر : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابتهم ملالةٌ فقالوا : لو حَدَّثْتنا .

فأنزل اللهُ تعالى : « الله نَزَّل أحسَنَ الحديث .. » فبعد مُدَّةٍ قالوا :

لو قَصَصْتَ علينا !

فأنزل اللهُ تعالى : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ... » فبعد مدةٍ قالوا : لو ذَكَّرْتَنا ووَعَظْتَنا !

فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وفي هذه الآية ما يشبه الاستبطاء .

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة ، والشهوة والصفوة لا تجتمعان ؛ فإذا حصَلت الشهوةُ رَحَلت الصفوة . وموجِبُ القسوة هو انحرافُ القلب عن مراقبة الربِّ . ويقال : موجب القسوة أوَّله خَطْرة فإن لمْ تُتدَارَكْ صارت فكرة وإن لَّم تُتدارَكْ صارت عزيمة ، فإن لم تُتَدَارَكْ جرَت المخالفة ، فإن لم تُتدارَكْ بالتلافي صارت قسوةً وبعدئذ تصير طَبعاً ورَيْناً[1]

قوله جل ذكره : « اعلموا أنَّ اللهَ يُحْيِى الأرضَ بعد موتها
قد بيّنا لكم الآياتِ لعلّكم تعقِلُونَ » .

يُحيى الأرضَ بعد موتها بإنزال المطرِ عليها وإخراج النَّبتِ منها .

---

(١) رَانَ الثوب ؛ رَيْناً أي تطبَّع وتدنَّس ، ورانت النفس أي خبثت وغثت . (الوسيط) .

ويُحيي القلوبَ الميتةَ — بعد إعراضِ الحقِّ عنها — بحسن إقباله عليها[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ المُصَّدِّقين والمصدقاتِ وأقرضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لهم وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » .

أى المتصدقين والمتصدقات .

« وأقرضوا الله قرضاً حسناً » : يعنى فى النوافل .

« يضاعفُ لهم » فى الحسنات ، الحسنةُ بعَشْرِ أمثالها . . إلى ما شاء اللهُ

« ولهم أجر كريم » : ثوابٌ كبيرٌ حَسَنٌ . والثوابُ الكريمُ أنَّه لا يضِن بأقصى الأجْرِ على الطاعةِ — وإنْ قَلَّتْ .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ أولئكَ هُمُ الصِّدِّيقون والشُّهداء عند ربِّهم لهم أجْرهم ونُورُهم » .

الصدِّيقون : مبالغة فى الصدق ، والشهداء : الذين استشهدوا فى سبيل الله ، فالمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء — لهم أجرهم فى الجنة ونورهم فى القيامة .

« والذين كفروا وكَذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ الجحيمِ » .

والصدِّيق مَن استوى ظاهرُه وباطنُه .

ويقال : هو الذى يحمل الأمرَ على الأشقّ ، ولا يَنْزِلُ إلى الرُّخَصِ ، ولا يجنح للتأويلات .

والشهداءُ : الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة ، ويعتكفون بأسرارهم فى أوطان القربة ،

« ونورهم » : ما كحل الحقّ به بصائرهم من أنوار التوحيد .

---

(1) كان المفروض أن تكون العبارة هكذا :
(ويحيى القلوب الميتة بعد إعراضه عنها) .
فاستعمال (الحق) فى الإضافة مسألة تهم أرباب القلوب المتحققين الفانين عن الخلق الباقين بالحق .

قوله جل ذكره : « اعلموا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتَفَاخُرٌ بينكم وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ » .

الحياةُ الدنيا مُعرَّضَةٌ للزوال ، غيرُ لابثةٍ ولا ماكثة ، وهي في الحالِ شاغلةٌ عن الله ، مُطْمِعةٌ[1] وغير مُشْبِعة ، وتجرى على غير سَنَن الاستقامة كجريان لَعِب[2] الصبيان ، فهي تُلْهى عن الصوابِ واستبصار الحقِّ ، وهي تفاخرٌ وتكاثرٌ في الأموال والأولاد .

« كَمَثَلِ غَيْثٍ أعجَبَ الكُفَّارَ نباتُه ثم يهيجُ فتراهُ مُصْفرًّا ثم يكونُ حُطاماً » .

الكفار : الزُّرَّاع .

هو في غاية الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف ، ثم ينتهي إلى أنْ يتحطمَ ويتكسَّر .

« وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ » .

لأهله من الكفّار .

« ومغفرةٌ من اللهِ ورِضْوانٌ » .

لأهله من المؤمنين .

« وما الحياةُ الدنيا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ » .

الدنيا حقيرةٌ — وأحقرُ منها قَدْراً طالبُها وأقلُّ منه خَطَراً المزاحم فيها ، فما هي إلا جيفة ؛ وطالبُ الجيفةِ ليس له خطرٌ . وأخس أهلِ الدنيا مَنْ بَخِلَ بها .

وهذه الدنيا المذمومة هي التي تَشْغَلُ العبدَ عن الآخرة !

---

(1) ربما كانت — (مطمعة) في الأصل ؛ فقد تبدو الدنيا ذات قيمة ولكنها في الحقيقة عديمة القيمة .

(2) في النسختين (لعاب) الأطفال ، ومع ذلك فقد آثرنا أن نثبت هنا (لعب) بالرغم من تحمسنا لاستعمال (اللعاب) في موضع سبق ؛ ذلك لأننا نرى إضافة اللعاب إلى الصبيان لا يزيد المعنى تأكيداً ، فاللعاب ظاهرة فسيولوجية تجرى على غير نظام — وهذا هو المطلوب — عند الكبار والصغار على حد سواء ، بينما إضافة اللعب إلى الصبيان تعطى المعنى المطلوب .

قوله جل ذكره : « سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ من رَّبِكم وَجَنَّة عَرْضُها كَعَرضِ السماء والأرضِ أُعِدَّتْ

للذين آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ » .

أى سارِعوا إلى عَمَلٍ يوجب لكم مغفرةً من ربِّكم ، وذلك العملُ هو التوبة .

« وجنة عرضها . . . » ذَكَر عَرْضها ولم يذكرْ طولها ؛ فالطول على ما يوافيه العَرْضُ .

« أُعِدَّت للذين آمنوا باللهِ ورُسلِهِ » : وفى هذا دليلٌ على أنَّ الجنةَ مخلوقةٌ[1] .

« ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتيه مَن يشاء واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم » .

وفى ذلك ردٌّ على من يقول : « إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات ، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها »[2] ... لأن الفضلَ لا يكون واجباً .

ويقال : لمَّا سمعت أسرار المؤمنين[3] هذا الخطاب[4] ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح ، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبة ، مُستبشِرة برعاية حقوق الله ؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاء من جانب الحقِّ سبحانه .

قوله جل ذكره : « ما أَصَابَ من مُصيبةٍ فى الأرضِ وَلَا فى أنفُسِكُم إلَّا فى كِتَابٍ مِن قَبْلِ أن نَّبْرأها ، إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يسيرٌ » .

المصيبة حَصْلَةٌ[5] تقع وتحصل . فيقول تعالى : لا يحصل فى الأرض ولا فى أنفسكم شىء

---

(١) هكذا أيضاً يرى ابن القيم فى (اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥٢) . والأشاعرة والسلف يرون ذلك ويرون أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وأنهما باقيتان .

(٢) هذا رأى المعتزلة الذين اعتبروا ذلك من مقتضيات العدل الالهى .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (الموحدين) .

(٤) هكذا فى ص وهى فى م (الخطاة) وواضح فيها خطأ الناسخ لأن الأمر متعلق بالفعل (سابقوا ...)

(٥) بمعنى حادث يحصل ؛ وهى فى (خصلة) بالخاء والصواب حصلة . (انظر ما يقوله القشيرى فى سورة التغابن عند وما أصاب من مصيبة» على معنى : (حصل الحجر حصلا وحصلة) أى وقع بلزق الهدف أو أصابه .

إلا وهو مُثْبَتٌ فى اللوح المحفوظ على الوجه الذى سبق به العِلْمُ ، وحقٌ فيه الحكم ؛ فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه فى اللوح المحفوظ .

فكلُّ ما حصل فى الأرض من خصبٍ أو جدبٍ ، من سعةٍ أو ضيق ، من فتنة أو استقامة وما حصل فى النفوس من حزن أو سرور ، من حياةٍ أو موت كلُّ ذلك مُثبت فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل .

وفى قوله : « من قبل أن نبرأها » دليلٌ على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه . وللعبدِ فى العلم بأنَّ ما يصيبه : من بسطٍ وراحةٍ وغير ذلك من واردات القلوب من الله — أشدُّ السرور وأتمُّ الأنسِ ؛ حيث عَلِمَ أنه أُفْرِدَ بذلك بظهر غيبٍ منـــه ، بل وهو فى كنز العَدَم ، ولهذا قالوا :

سقياً لعهدك الذى لو لم يكن ما كان قلبى للصبابة معهدا[1]

قوله جل ذكره : « لكيلا تأسَوا على ما فاتكُم ولا تفرحُوا بما آتاكم » .

عَدَمُ الفرحة بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النَّفْس، فقيمةُ الرجالِ تتبين بتغيُّرِهم — فَمَنْ لم يتغيرْ بما يَرِدُ عليه — مما لا يريده — من جفاء أو مكروهٍ أو محنة فهو كاملٌ ، ومَنْ لم يتغيَّرْ بالمســـارِّ كما لا يتغير بالمضارِّ ، ولا يَسُرُّه الوجودُ كما لا يُحْزِنُه العَدَمُ — فهو سَيِّد وقته[2].

ويقال : إذا أردتَ أن تعرفَ الرجلَ فاطلبْه عند الوارد ؛ فالتغيُّرُ علامةُ بقاء النَّفْس بأىِّ وجهٍ كان :

« واللهُ لا يحبُّ كلَّ مُختالٍ فخورٍ » .

---

(١) وهكذا نرى أن الجبرية عند الصوفية ترتبط بالمحبة القديمة ، فالله البارىء الخالق العبد من العدم .. لن يريد به إلا الخير .. وحتى لو أصاب العبد تلف .. فمرحباً به فهو تلف فى سبيل المحبوب .

(٢) التغير من علامات التلوين ، والثبات فى المسارِّ والمضار — عند تقلب الأحوال على العارف — من علامات التمكين . فسادات الوقت هم أهل التمكين .

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها[1]، والفخرُ (ناتجٌ)[2] عن رؤيةِ مابه يفتخر .

قوله جل ذكره : « الذين يبخلون ويأمُرُونَ الناس
بالبخلِ ، ومَن يتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هو
الغنىُّ الحميدُ » .

بخلوا بكتمان صفة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وأمَروا أتباعَهم بذلك ، وذلك لمَّا خافوا من كسادِ سُوقهم وبطلان رياستهم .

« ومن يتولّ . . عن الإيمان ، أو إعطاءِ الصَّدَقَة « فإن الله هو الغنى الحميد » .

والبخلُ — على لسان العلم — منْعُ الواجب[3] ، فأمّا على بيان هذه الطائفة[4] فقد قالوا :

البخلُ رؤية قَدْرٍ للأشياء ، والبخيلُ الذى يُعْطِى عند السؤال[5] ، وقيل : مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمَهُ فهو بخيل[6] .

قوله جل ذكره : « لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيِّنات وأنزلنا
معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ
الناسُ بالقِسْطِ » .

أى أرسلناهم مُؤيَّدين بالحُجَجِ اللائحة والبراهين الواضحة ، وأزَحْنا العِلّةَ لِمَنْ أراد سلوكَ الحُجَّةِ المُثْلَى ، ويسَّرْنا السبيل على مَنْ آثَرَ اتباعَ الهُدَى . وأنزلنا معهم الكُتُبَ المُنَزّلةَ ، و « الميزانَ » : أى الحُكْمَ بالقرآن ، واعتبار العَدْلِ والتسويةِ بين الناس .

« ليقومَ الناسُ بالقسط » : فلا يَظْلِمُ أحدٌ أحداً .

---

(١) هكذا فى ص وهى أصوب من (زينتها) التى فى م ، فرؤية النفس آفة يحذر منها أرباب الطريق — خاصة أهل الملامة .

(٢) إضافة من عندنا حتى يتضح السياق .

(٣) يقصد منع الزكاة المفروضة حسب علوم الشريعة .

(٤) يقصد طائفة الصوفية .

(٥) أى لاينتظر حتى يسأله سائل ، وإنما هو يعطى دائماً دون انتظار لدعوة داعٍ أو سؤال سائل .

(٦) لأنه ينبغى أن يكون مستعداً لاعطائه لغيره عند أى ظرف من الظروف ، والمقصود أن يكون فى الحد إيثار الفتيان (راجع فصل الفتوة فى رسالة القشيرى) .

قوله جل ذكره : « وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شــديدٌ ومنافعُ للناسِ وليَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُه ورُسُلَه بالغيبِ إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ ».

« أنزلنا الحديد » : أى خلقنا الحديد.

ونصرة الله هى نصرةُ دينه ، ونصرةُ الرسولِ باتّباعِ سُنَّتِه .

« إن الله قوى عزيز » : أقوى من أنْ يُنازِعَه شريكٌ ، أو يضارِعَه فى المُلْكِ مليك ، وأعزُّ من أنْ يحتاج إلى ناصر .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيمَ وجَعَلْنا فى ذُرِّيَّتِهما النُّبُوَّةَ والكتابَ »

أى : أرسلنا نوحاً ، ومن بعده إبراهيمَ ، وجعلنا فى نَسْلِهما النبوَّةَ والكتاب .

« فمنهم مهتدٍ » .

أى : مستجيبٌ .

« وكثيرٌ منهم فاسقون » .

خرجوا عن الطاعة .

قوله جل ذكره : « ثم قَفَّيْنَا على آثارهم برُسُلِنا وقَفَّيْنَا بعيسى ابن مريمَ وآتيناه الإنجيلَ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً » .

أى : أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم .

« ورَهْبانيةً ابتدعُوها مَا كتبْناها عليهم » .

بَيَّنَ أنه لم يأمرهم بالرهبانيَّة[1] بل هم الذين ابتدعوها

---

(١) الرهبانية هى : الفعلة المنسوبة إلى الرُّهْبان وهو الخائف - صيغة فعلان من رهب مثل خشيان من خشى ، وكانوا يفرون إلى الجبال والصحراوات ليتخلصوا من الفتنة فى دينهم ، ويقطعون أنفسهم عن الزواج والنسل .

ثم قال :

« إلّا ابتغاء رِضْوانِ اللهِ » .

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا (أن يقوموا بحقّنا)(1)

« فآتَيْنا الذين آمنوا منهم أجرَهم

وكثيرٌ منهم فاسقون » .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا اتّقُوا اللهَ

وآمِنوا برسولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ

من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشُون

به ويغفرْ لكم والله غفورٌ رحيم » .

نزلت فى قومٍ من أهل الكتاب أسلموا .

« كفلين » : أى نَصِيبَيْنِ ؛ نصيباً على الإيمانِ بالله ، وآخَرَ على تصديقهم وإيمانهم بالرُّسُل .

قوله جل ذكره : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أهلُ الكتابِ

ألا يَقْدِرون عَلَى شىء من فَضْلِ اللهِ

وأنَّ الفَضْلَ بيدِ اللهِ يُؤْتيه مَنْ يشاء

واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم » .

ومعناه : يعلم أهل الكتاب ، و «لا» صلة . أى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله(2) ؛ فإن الفضل بيد الله . و « اليد » هنا بمعنى : القدرة ، فالفضلُ بقدرة الله .

---

(1) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(2) ونظيره قول ابن جنى فى « لئلا يعلم أهل الكتاب» أى ليعلموا فهي مؤكدة قائمة مقام إعادة الجملة مرة أخرى . (الإتقان للسيوطى حـ1 ص 171) ط الحلبى .

والإشارة فى هذا : اتَّقُوا اللهَ بِحفْظِ الأدبِ معه ، ولاتأمنوا مَكْرَه أن يَسْلبَكم ماوَهَبَكم من أوقاتكم . وكونوا على حَذَرٍ من بَغَتَاتِ تقديره فى تغيير ما أذاقكم من أُنْسِ محبته .

واتَّبِعوا السُّفَراء والرُّسُلَ ، وحافظوا على اتِّباعِهم حتى يُؤْتِيَكُم نصيبيْن من فضله : عصمةً ونعمةً ؛ فالعصمة من البقاء عنه ، والنعمة هى البقاء به .

ويقال : يؤتكم نصيبين : نصيباً من التوفيق فى طَلَبِه ، ونصيباً من التحقيق فى وجوده[1]

---

(١) (الوجود) هنا ليس معناه (ضد العدم) بل هو أعلى درجات الشهود ، فالتواجد بداية ، والوجد واسطة والوجود نهاية (انظر الرسالة ص ٣٧) .

سُورَةُ المُجَادلة

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم»

«بسم الله» كلمةٌ مَنْ عَرَفها بَذَلَ الرُّوحَ فى طلبها — وإن لم يَحْظَ بوصولها، كلمةٌ مَنْ طلبها اكتفى بالطلب من[1] قبولها.

كلمة جبَّارة لا تنظر إلى كلِّ أَحَد، كلمة قهَّارةٌ لا يُوجَدُ من دونها مُلْتَحَد.

كلمةٌ منها بلاء الأحباب — لكن بها شفاء الأحباب.

قوله جل ذكره: «قد سَمِعَ اللهُ قولَ التى تجادِلُكَ فى زوجها وتشتكى إلى اللهِ».

لمَّا صَدَقَتْ[2] فى شكواها إلى اللهِ وأَيِسَتْ من استكشاف ضُرِّها من غير الله — أنزلَ اللهُ فى شأنها: «قد سمع الله...».

تَضَرَّعَتْ إلى الله، ورَفَعَتْ قِصَّتَها إلى الله، ونَشَرَتْ غُصَّتَها[3] بين يدى الله — فنَظَرَ إليها الله، وقال: «قد سَمِعَ اللهُ».

ويقال: صارت فرجةً[4] ورخصةً للمسلمين إلى القيامة فى مسألة الظِّهار[5]، وليعلمِ العالِمون أنَّ أحداً لا يخسر عَلَى الله.

وفى الخبر: أنها قالت: يارسولَ الله، إنَّ أَوْساً تزوَّجنِي شابَّةً غنيةً ذات أهلٍ،

---

(١) وتقدير الكلام: اكتفى من القبول بالطلب، أى اكتفى أن يشرف بطلبها وعلى الله إتمام الفضل بالقبول - وهذا أساس هام فى منهج الطالبين والسالكين.

(٢) هى خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخى عبادة.

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (قصتها) وقد آثرنا ما جاء فى م لتلوين الكلام وخدمة السياق.

(٤) فى النسختين (فرحة) ولا بأس بها فى المعنى ولكننا نشعر أن (فرجة) تدعم السياق على نحوٍ آكد.

(٥) ظاهَرَ امرأته ظهاراً أى قال لها: أنتِ علىَّ كظهر أمى؛ أى أنتِ حرام.

ومالٍ كثير ، فلما كبرت سِنِّي[1] ، وذَهَبَ مالى ، وتفرّق أهلى جعلنى عليه كظَهْرِ أمِّه ، وقد ندم وندمت ، وإنّ لى منه صبيةً صِغاراً إنْ ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا .

فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم — فى رواية — : ما أُمِرْتُ بشىء فى شأنك .

وفى رواية أخرى أنه قال لها : بِنْتِ عنه (أى حرمت عليه) .

فترددت إلى رسول الله (ص) فى ذلك ، وشَكَتْ .. إلى أن أنزل الله حُكْمَ الظِّهار .

قوله جل ذكره : « الذين يُظَاهِرُون مِنكم من نسائهم ماهُنَّ أمهاتِهم إنْ أُمهاتُهم إلّا اللائى ولَدْنَهُم وإنهم لَيقولون مُنكَراً من القولِ وزُوراً وَإنّ اللهَ لَعَفُوٌّ غفور » .

قَوْلُ الذين يقولون لنسائهم — جرياً على عادة أهل الشِّرْكِ — أنتِ علىَّ كظهر أمى . . هذا شىء لم يَحْكُم اللهُ به ؛ ولا هذا الكلامُ فى نَفْسِه صِدْقٌ ، ولم يثبتْ فيه شَرْعٌ ، وإنما هو زورٌ مَحْضٌ وكَذِبٌ صِرْفٌ .

فَعلِمَ الكافةُ أن الحقائق بالتلبيسِ لا تتعزّز[2] ؛ والسَّبَبُ إذا لم يكن صحيحاً فبالمعاودةِ لا يثبت ؛ فالمرأةُ لمَّا سمعت من رسول الله (ص) قولَه : بِنْتِ عنه — كان واجباً عليها السكونُ والصبرُ ؛ ولكنّ الضرورةَ أنطقتْها وحَمَلتْها على المعاودة ، وحصلت من ذلك مسألة : وهى أن كثيراً من الأشياء يحكم فيها ظاهرُ العلمِ بشىء ؛ ثم تُغَيِّر الضرورة ذلك الحُكْمَ لصاحبها[3] .

قوله جل ذكره : « والذين يُظَاهِرون من نسائهم ثم

---

(١) وفى رواية : خلا سنِّى ونثرت بطنى — أى كثر ولدى .

(٢) ربما كانت فى الأصل (لاتتغرر) ومع ذلك فالمعنى هكذا مقبول .

(٣) هذه غمزة رقيقة بأولئك المتشبثين بالظواهر ، ودعوة إلى التريث .

يعودون لما قالوا فتحريرُ رقبةٍ مِن
قَبلِ أن يتماسّا * ذلكم تُوعَظون بهِ
واللهُ بما تعملون خبير .. » .

الظِّهار — وإن لم يكن له فى الحقيقة أصل ، ولا بتصحيحه نطق أو دلالة شرع ، فإنه بعد ما رُفِعَ أمرُه إلى الرسول (ص) ولوّح بشىء ما ، وقال فيه حُكمه ، لم يُخلِ الله ذلك من بيانٍ ساق به شَرْعه ؛ فقضى فيه بما انتظم جوانب الأمر كلَّه .

فارتفاعُ الأمر حتى وصوله إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، والتحاكُم لديه حَمَل التعدِّى عناء فعله ، وأعاد للمرأة حقَّها ، وكان سَبيلاً لتحديد للمسألة برُمّتها .. وهكذا فإنّ كلّ صعبٍ إلى زوالٍ .. وكلُّ ليلةٍ — وإنْ طالَتْ — فإلى إسفار[1] .

قوله جل ذكره : « إنّ الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه كُبِتُوا
كما كُبِتَ الذين من قبْلهم وقد
أنزلنا آياتٍ بيِّناتٍ وللكافرين
عذابٌ مُهين » .

الذين يُخالِفون أمرَ اللهِ ويتركون طاعةَ رسولِ الله أُذِلُّوا وخُذِلوا ، كما أُذِلّ الذين من قبْلهم من الكُفّار والعُصاة .

وقد أجرى اللهُ سُنّتَه بالانتقام من أهل الإجرام ؛ فمَنْ ضيّعَ للرسولِ سُنةً ، وأحدَثَ فى دينه بِدْعةً انخرط فى هذا السلك ، ووقع فى هذا الذُّلِّ .

قوله جل ذكره : « يومَ يبعثُهم اللهُ جميعاً فيُنبِّئُهم بما
عَمِلوا أحصاه اللهُ ونَسُوهُ واللهُ على
كل شىء شهيدٌ » .

يقال : إذا حُوسِبَ أحدٌ فى القيامة على عمله تصور له مافعله وتذكّره ، حتى كأنه قائمٌ فى تلك الحالة عن بِساط الزَّلّة ، فيقع عليه من الخَجَلِ والنَّدَم ما يَنسى فى جَنْبه كُلَّ عقوبة .

---

(١) حدث تدخل من جانبنا فى ترميم هذه الفقرة التى جاءت فى النسختين منبهمة الكتابة والمعنى .

فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاه ، فإنْ جرَى المقدورُ ووقَعَ فى هجنة التقصير فلتكنْ زَلّتُه على بال ، وليتضرعْ إلى الله بحُسْن الابتهال .

قوله جل ذكره : « ألم ترَ أنّ الله يعلمُ ما فى السموات

وما فى الأرضِ ما يكون من نجوىٰ

ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعهم ولا خمسةٍ

إلا هو سادِسُهم ولا أدنىٰ من ذلك

ولا أكثرَ إلا هو معَهُم أينما كانوا

ثم ينبئهم بما عمِلُوا يومَ القيامةِ

إنّ اللهَ بكل شيء عليمٌ » .

مَعِيّةُ الحقِّ — سبحانه — وإن كانت على العموم بالعِـلم والرواية ، وعلى الخصوص بالفضل والنصرة — فلهذا الخطاب فى قلوب أهل المعرفة أثرٌ عظيمٌ ، ولهم إلى أنْ ينتهىَ الأمرُ بهم إلى التولُّه[1] فالوَلَهِ فالهيمان فى غمار سماع هذا عيش راغد .

ويقال : أصحابُ الكهف — وإنْ جَلّتْ رتبتُهم واختصت من بين الناس مرتبتُهم — فالحقُّ سبحانه يقول : « سيقُولون ثلاثةٌ رابعهم كلبُهم »[2] ولمّا انتهى إلى هذه الآية قال : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة ... » فشتّان بين مَنْ رابعُهُ كَلْبُهُ وبين من رابعهُ ربُّهُ !!

ويقال: أهلُ التوحيد، وأصحابُ العقولِ من أهل الأصولِ يقولون : اللهُ واحدٌ لامن طريق العدد[3] ، والحقُّ يقول : « مايكون من نجوىٰ ثلاثة إلا هو رابعهم... » ويقال : حيثما كنتَ فأنا معكَ ؛ إنْ كنتَ فى المسجد فأنا معك ، وإن كنت فى المصطبة فأنا معكَ ، إنْ طَلَبَ العلماء

(١) وردت التأويل فى ص والتأول فى م والصحيح — فى نظرنا — أن تكون التولُّه ؛ فهو المنزلة التى تسبق الوَلَه والهيمان .

(٢) آية ٢٢ سورة الكهف .

(٣) الواحد على الحقيقة ليس عدداً لأن العدد هو ما بلغ نصف مجموع حاشيتيه ، وليس قبل الواحد شيء .

التأويل[1] وشوّشوا قلوبَ أُولى المواجيد فلا بأس -- فأنا معهم .

إنْ حضرتَ المسجد فأنا معك بإسباغ النعمة ولكن وَعْداً ، وإنْ أتيتَ المصطبة فأنا معك بالرحمة وإسبال ستر المغفرة ولكن نَقْداً .

هَبْكَ تباعَدْتَ وخالَفْتنى تقدرُ أنْ تخرجَ عن لُطفى ؟!

قوله جل ذكره : « ألَمْ تَرَ إلى الذين نُهوا عن النجوىٰ
ثم يعودون لما نُهوا عنه ويتناجَون بالإثم
والعدوانِ ومعصيةِ الرسولِ ، وإذا
جاءوك حَيَّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ به اللهُ » .

آذَوْا قلوبَ المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم[2] ، ولم تكن فى تناجيهم فائدةٌ إلا قصدهم بذلك شَغْلَ قلوبِ المؤمنين ، ولم ينتهوا عنه لمَّا نهُوا عنه ، وأصَرُّوا على ذلك ولم ينزَجِروا ، فتوعَّدهم اللهُ على ذلك ، وتكون عقوبتهُم بأن تتغامز الملائكةُ فى بابهم فيما بينهم ، وحين يشاهدون ذلك تَتَرَجَّمُ ظنونُهم ، ويتعذَّبون بتقَسُّم قلوبهم ، ثم لا ينكشف الحالُ لهم إلَّا بما يزيدهم حزناً على حزنٍ ، وأسَفاً على أسفٍ .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا إذا تَنَاجَيْتُم
فلا تتناجوا بالإثم والعُدوانِ ومعصيةِ
الرسولِ وتناجوا بالبرِّ والتقوىٰ واتقوا
اللهَ الذى إليه تُحْشَرون » .

إنما قَبُحَ ذلك منهم وعَظُمَ الخطرُ لأنه تضمَّن إفسادَ ذاتِ البَيْن ، وخيرُ الأمورِ ما عاد بإصلاحِ ذاتِ البَيْن ، وبعكسه إذا كان الأمر بضدِّه .

---

(1) «فإن حجج أهل هذه الطائفة أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من قواعد كل مذهب . والناس : إما أصحاب النقل والأثر ، وإما أرباب العقل والفكر .. وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ؛ فالذى للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذى للخلْق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم من أهل الوصال والناس أهل الاستدلال» الرسالة القشيرية ص ١٩٨ وانظر تذكرة الحفاظ للذهبى حـ٤ ص ١٥ .

(2) كان اليهود والمنافقون يتغامزون فيما بينهم ويأتيهم إغاظةً للمؤمنين ، وكانوا إذا أقبلوا على الرسول قالوا له : السام عليك يا محمد .. والسام هو الموت .

قوله جل ذكره : « إنما النّجوى من الشيطانِ ليَحْزُنَ
الذين آمنوا وليس بِضَارِّهم شيئاً إلاَّ
بإذنِ اللهِ وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون » .

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً ، والقلوبُ حاضرةً ، والتوكلُ صحيحاً ، والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثيرَ لمثل هذه الحالات ، وإنما هذا للضعفاء .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم
تَفَسَّحوا فى المجالِس فافسحوا يَفْسَحِ اللهُ
لكم وإذا قيل انشُزُوا فانشُزُوا »[1].

لكمال رحمته بهم وتمام رأفته عليهم ، عَلَّمَهم مراعاةَ حُسْنِ الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة (دون أحكام العبادة)[2] فى التفسُّح فى المجالس والنظام فى حال الزَّحمة والكثرة . . وأعْزِزْ بأقوامٍ أمرَهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحققهم بأركانه !

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا ناجَيْتُم الرسولَ
فقَدِّموا بين يَدَىْ نجواكم صدقةً ذلك
خيرٌ لكم وأطهرُ فإن لم تجدوا فإنَّ اللهَ
غفورٌ رحيم »[3].

لمَّا كان الإذنُ فى النجوى مقروناً ببذْلِ المالِ امتنعوا وتركوا ، وبذلك ظَهَرَت جواهر

---

(١) (انشزوا) أى : انهضوا للتوسعة على المقبلين ، أو انهضوا من مجلسه صلى الله عليه وسلم إذا أمِرتُم بالنهوض عنه ، أو انهضوا إلى الصلاة ، أو إلى الجهاد ، أو إلى أعمال الخير .

(٢) هذه موجودة فى م وغير موجودة فى ص .

(٣) رُخِّصَ بعدئذ فى المناجاة من غير صدقة . وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نُسِخَ . وقيل : ما كان إلا ساعة من نهار ثم نُسِخَ . . ويحكى : أن علياً كرَّم الله وجهه كان يتصدَّق بدرهم كُلَّما ناجى الرسول — فى بداية الأمر ثم توقَّف لمَّا نسخت الآية ، وأزيلت المؤاخذة .

الأخلاق وقلوةُ الرجال ــ ولقد قال تعالى : « ولا يَسْألكم أمْوالكم * إن يسألكموها فيحْفكم تبْخلوا ويخْرج أضغَانكُم »(١) .

قوله جل ذكره : « ألم تَرَ إلى الذين تولَّوا قوماً غَضِبَ الله عليهم مَّا هُم منكم ولا منهم » .

مَنْ وافقَ مغضوباً عليه أشْرَكَ نَفْسَه فى استحقاق غضبِ مَنْ هو الغضبان ؛ فمَنْ تَوَلَّ مغضوباً عليه مِنْ قِبَلِ اللهِ استوجبَ غَضبَ اللهِ وكفى بذلك هواناً وخسراناً .

« ويَحْلِفون على الكَذِبِ وهم يَعْلَمون * أعَدَّ اللهُ لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيْمَانَهم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ فلهم عذابٌ مُّهين »

هذا وصفٌ للمنافقين

« اتخذوا أيمانهم جُنَّة » أى وقايةً وستراً ؛ ومَن استتر بجُنَّةِ طاعته لتَسْلَمَ له دنياه فإنَّ سهامَ التقديرِ مِنْ ورائه تكشفه من حيث لا يشعر . . فلا دِينُه يبقى ، ولا دنياه تَسْلَم ، ولقد قال تعالى : « لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أولادُهم من الله شيئاً »(٢) .

قوله جل ذكره : « يومَ يَبْعَثُهم اللهُ جميعاً فيَحْلِفون له كما يَحْلِفون لكم ويحْسَبون أنَّهم على شىء ألا إنَّهم هم الكاذبون » .

عقوبتُهم الكبرى ظَنُّهم أنَّ ما عَمِلوا معَ الخَلْقِ يتمشَّى أيضاً فى مُعَامَلةِ الحقِّ ، فَفَرْطُ الأجنبيةِ وغايةُ الجهلِ أكَبَّتهم على مناخرهم فى وَهْدَةِ نَدَمِهم .

---

(١) آية ٣٧ سورة محمد .

(٢) آية ١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره : « استَحْوَذَ عليهم الشيطانُ فأنساهم ذِكْرَ اللهِ أولئك حِزْبُ الشيطانِ ألاَ إنَّ حِزْبَ الشيطان هم الخاسرون » .

إذا استحوذ الشيطانُ على عَبْدٍ أنساه ذِكْرَ اللهِ .

والنَّفسُ إذا استولَتْ على إنسان أنْسَتْهُ اللهَ .

ولقد خَسِرَ حزبُ الشيطان ، وأَخْسَرُ منه مَنْ أعان نَفْسَهُ — التي هي أعدى عدوِّه ، إلّا بأنْ يسعى في قَهْرِها لَعَلَّه ينجو مِنْ شرِّها .

قوله جل ذكره : « إن الذين يُحَادُّون اللهَ ورسولَه أولئك في الأذَلِّين » .

مَنْ أرْمَتْهُ شِقْوَتُه لم تُنْعِشْهُ قُوَّتُه ، ومَنْ قَصَمَهُ التقديرُ لم يَعْصِمْهُ التدبير ، ومَن استهانَ بالدِّين انخرطَ في سِلْكِ الأذَلِّين .

قوله جل ذكره : « كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنا ورُسُلِي إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ » .

الذي ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقاومة مع التقدير ؟ (1) .

قوله جل ذكره : « لا تَجِدُ قوماً يُؤْمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوَادُّون مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَه » .

مَنْ جَنَحَ إلى منحرفٍ عن دينه ، أو داهَنَ مُبْتَدِعاً في عهده نَزَعَ اللهُ نورَ التوحيدِ من قلبه فهو في خيانته جائرٌ على عقيدته ، وسيذوق قريباً وَبَالَ أمره .

« أولئك كَتَبَ في قلوبهم الإيمانَ وأيَّدهم بروح منه » .

خلق اللهُ الإيمان في قلوب أوليائه وأثبته ، ويقال : جعل قلوبَهم مُطَرَّزَةً باسمه .. وأعْزِزْ بِحُلَّةٍ لأسرار قومٍ طرازُها اسمُ « الله » ! !

(1) التدبير للخلق والتقديرُ للحق .

سُورَةُ الحَشْر [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ — الكونُ بجملته فى طلبه . . وهو عزيز .

الشموسُ والأقمارُ والنجومُ ، والليلُ والنهارُ ، وجميع ما خَلَقَ اللهُ من الأعيان والآثار متنادِيةٌ على أنفُسِها : نحن عبيدُه . . نحن عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ . . نريد مَنْ لم يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ للهِ ما فى السَّمٰوَاتِ ومَا فِى الأَرْضِ وهو العزِيزُ الحَكِيمُ » .

قدَّسَ اللهَ ونَزَّهَهُ كُلُّ شىء خَلَقَه ؛ فكلُّ ما خَلَقَه جَعَلَه على وحدانيته دليلاً ، ولِمَنْ أراد أنْ يَعْرِفَ إلٰهيتَه طريقًا وسبيلاً .

أتقن[2] كلَّ شىء وذلك دليلُ عِلْمِه وحكمته ، ورَتَّبَ كُلَّ شىء ، وذلك شاهِدٌ على مشيئته وإرداته .

« وهو العزيز » فلا شبيه يساويه ، ولا شريك له فى المُلْكِ ينازِعُه ويُضاهيه .

« الحكيم » الحاكم الذى لا يُوجَدُ فى حُكْمِهِ عَيْبٌ ، ولا يتوجَّهُ عليه عَتْبٌ[3] .

قوله جل ذكره : « هو الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكِتابِ من ديارِهِم لأولِ الحَشْرِ » .

هم أهل النضير ، وكانوا قد عاهدوا النبيَّ (ص) ألاَّ يكونوا عليه ، ثم بعد أُحُد نقضوا

---

(١) ويسميها ابن عباس سورة النضير (البخارى حـ٣ ص ١٢٣) .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (أيقن) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (عيب) وهى خطأ فى النسخ .

العَهْدَ ، وبايعوا أبا سفيان وأهلَ مكة ، فأخبر اللهُ تعالى رسولَه بذلك ، فبعثَ صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة ، فأوهم أنه يشكو من الرسول فى أخذ الصَّدَقَة . وكان رئيسهم كعب ابن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة (غيلةً) ، وغزاهم[1] رسول الله (ص) وأجلاهم عن حصونهم المنيعة وأخرجهم إلى الشام ، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفَرَ عليهم لكثرتهم ، ولِمَنَعَةِ حصونهم .

وظلُّوا يهدمون دورَهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا ، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب ، فَسُمُّوا أولَ الحشر ، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وحُشِرَ إلى الشام .

قال جل ذكره : « فاعتبروا يا أُولِى الأبصار » .

كيف نَصَرَ المسلمين — مع قِلَّتِهِم — عليهم — مع كثرتهم . وكيف لم تمنعهم حصونهم إذا كانت الدائرةُ عليهم . وإذا أراد اللهُ قَهْرَ عدوٍّ استنوقَ[2] أَسَدُه .

ومن مواضع العِبْرةِ فى ذلك ما قاله : « ما ظننتم أن يخرجوا » بحيث داخلتكم الرِّيبةُ فى ذلك لِفَرْطِ قُوَّتِهم — فصَانَتْهُم بذلك عن الإعجاب .

ومن مواضع العبرة فى ذلك أيضاً ما قاله « وظنُّوا أنهم مانِعَتُهُم حصونُهم من الله » فلم يكن كما ظنُّوه — ومَنْ تَقَوَّى بمخلوقٍ أسلَمَه ذلك إلى صَغَارِه[3] ومذَلَّتِه .

ومن الدلائل الناطقة ما أُلْقِى فى قلوبهم من الخوفِ والرُّعب ، ثم تخريبُهم بيوتهم بأيديهم علامةُ ضعف أحوالهم ، وبأيدى المؤمنين لقوة أحوالهم ، فتمت لهم الغَلَبَةُ عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم .

هذا كلُّه لا بُدَّ أن يحصل به الاعتبارُ — والاعتبارُ أحَدُ قوانين الشَّرْع .

ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بغيره اعتَبَرَ به غيرُه .

---

(١) حاصرهم إحدى وعشرين ليلة وأمر بقطع نخيلهم وأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير واحد ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى أريحا وأذرعات بأرض الشام .

(٢) الألف والسين والتاء فيها للصيرورة أى صار ناقة والمقصود : تخاذل المتجبر وصغر شأنه .

(٣) الصَّغار = الرضى بالمذلة والهوان .

ويقال: يُخَرِّبون بيوتَهم بأيديهم، وقلوبَهم باتِّباع شهواتِ نفوسِهم، ودِينهم بما يمزجونه به من البِدَع.

قوله جل ذكره: «ولولا أن كَتَبَ اللهُ عليهم الجلاء لَعَذَّبَهم في الدنيا ولهم في الآخِـرَةِ عذابُ النار».

لولا أنْ قضى اللهُ عليهم أنْ يخرجوا لعذَّبهم اللهُ بالقتل والاستئصال(1)، ثم في الآخرة لهم عذابُ النار.

«ذلك بأنهم شَاقُّوا اللهَ ورسولَهُ ومَن يُشَاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شديدُ العقاب».

ذلك بأنهم خالفوا أمرَ الله. والمشاقّة أن يتحول المرء إلى شِقٍّ آخر.

فالعاصى إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاقَّ الله، ولِمَنْ شاقَّ اللهَ عذابُ النار.

قوله جل ذكره: «ما قَطَعْتُم من لِّينَةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذنِ اللهِ وليُخْزِيَ الفاسقين».

اللِّينة: كلُّ نوعٍ من النخيل ماعدا العجوة والبَرْنِيّ(2).

لمَّا أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقَطْعِ بعض نخيل بنى النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟!.

فبقى المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضِّح أن ذلك بإذن الله.. فانقطعَ الكلامُ.

وفى هذا دليلٌ على أن الشريعةَ غيرُ مُعَلَّلَةٍ، وأنَّ الأمرَ الشرعيَّ إذا جاء بَطَلَ التعليلُ،

(1) هكذا فى ص وهى فى م (الاستيصار) وهى خطأ فى النسخ.

(2) واحدته البَرْنِيَّة، وهو نوع جيد من التمر مدوَّر أحمرُ مُشْرَبٌ بصفرة. (الوسيط).

وسكتت الألسنةُ عن المطالبة بـ « لِمَ ؟ » وخُطُورُ الاعتراضِ أو الاستقباحِ خروجٌ عن حدِّ العرفان . والشيوخُ .

قالوا : مَنْ قال لأستاذِه وشيخه[1] : « لِمَ ؟ » لا يفلح . وكلُّ مريدٍ يكون لأمثالِ هذه الخواطر فى قلبه جَوَلان لا يجىءُ منه شىء . ومَنْ لم يتجرَّدْ قلبُه من طَلَبِ التعليل ، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجرى واستحسانَ ما يبدو من الغيب لِسِرِّه وقلبِه — فليس من اللهِ فى شىء

قوله جل ذكره : « وما أفاءَ اللهُ على رسولِه منهم فما

أوجفتم عليه من خيلٍ ولا رِكابٍ

ولكنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَه على مَن يشاء

واللهُ على كل شىء قدير » .

يريد بذلك أموالَ بنى النضير[2] ، فقد كانت من جملة الفَىْء لا من الغنيمة ؛ فالفىْء ما صار إلى المسلمين من أموالِ الكفَّارِ من غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيْلٍ ورِكابٍ ، وتدخل فى جملته أموالُهم إذا ماتوا وصارت إلى بيت المال . والغنيمة ما كانت بقتالٍ وإيجافِ خيلٍ وركابٍ . وقد خَصَّ رسولُ الله (ص) بأموالِ هؤلاء فقراءَ المهاجرين ، واستأثر لنفسه بما شاء ، فطابت نفوسُ الأنصارِ بذلك ، وشكَرَ اللهُ لهم . ذلك لأن تحرُّرَ القلب من الأعواضِ والأملاكِ صِفَةُ السادة[3] والأكابر . ومَنْ أَسَرَتْهُ الأخطارُ وبقى فى شُحِّ نَفْسِه فهو فى تضييقه وتدنيقه ، وهو فى مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث فى استيفاء حظوظه — وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة[4] شىء

---

(1) لاحظ كيف يوجِّه القشيرى إشارته إلى المريدين ، وما ينبغى أن تكون عليه علاقتهم بشيوخهم .

(2) عن الزهرى عن مالك بن أوس عن عمر رضى الله عنه قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله (ص) مما لم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركاب ، فكانت لرسول الله (ص) خاصةً ينفق على أهله منها نفقة سنته ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله (البخارى ج٣ ص ١٣٣) .

(3) هكذا فى ص وهى فى م (السعادة) وهى خطأ من الناسخ .

(4) يقصد طريقة الصوفية .

وأهلُ الصفاء لم تبقَ عليهم من هذه الأشـــياء بقيةٌ ، وأمَّا مَنْ بَقِيَ عليه منها شيءٌ فَتَرسّمٌ(١) سُوقِيٌّ . . لا مُتحقِّقٌ صوفيٌّ .

قوله جل ذكره : « وما آتاكُمُ الرسولُ فَخُــذُوهُ ،
وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا اللهَ
إنَّ اللهَ شديدُ العقابِ » .

هذا أصل من أصولِ وجوبِ متابعتِه ، ولزومِ طريقته وسيرته — وفى العِلْمِ تفصيلُه .

والواجبُ على العبدِ عَرْضُ ما وقع له من الخواطر وما يُكاشَفُ به من الأحوالِ على العلم — فما لا يقبله الكتابُ والسُّنَّة فهو فى ضلال(٢) .

قوله جل ذكره : « للفقراء المهاجرين الذين أُخْرِجوا من
ديارِهم وأموالِهم يبتغون فَضْلاً من اللهِ
ورضواناً ويَنصُرُون اللهَ ورســـولَه
أولئك هم الصادقون » .

يريد أن هذا الفىء لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدارَ مائةِ رجلٍ .

« يبتغون فضلاً من الله » وهو الرزق « ورضواناً » بالثواب فى الآخرة .

وينصرون دين الله ، « أولئك هم الصادقون » : والفقيرُ الصادقُ هو الذى يترك كلَّ سببٍ وعلاقة ، ويفرغ أوقاته لعبادة الله ، ولا يعطف(٣) بقلبه على شىء سوى الله ، ويَقِفُ مع الحقِّ راضياً بجَرَيانِ حُكْمِه فيه .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مترسِّم) . وعلى الأول يكون المعنى أنه شخص تهمه الرسوم والأشكال ، أما باطنه وحقيقته فغير رسمه ، وعلى الثانى يكون المعنى أنه يكتفى من التصوف بالسِّمة أى العلامة ؛ كالثوب مثلا .. وباطنه غير سليم . والربط بين الصفاء والتصوف — كما يتضح من العبارة — عنصر أساسى فى مذهب القشيرى . (انظر الرسالة باب التصوف) .

(٢) نحسب أنه ليس بعد هذا مجال للتخرص بأن الصوفية يجانبون الشريعة أو يقلِّلون من قَدْرها . فمحصول خواطرهم ، ومكاشفاتهم من خلال أحوالهم .. كل ذلك ينبغى ألا يكون مرفوضاً من الشرع . ومحاولة عقد لقاء بين الحقيقة والشريعة عنصر أساسى آخر فى مذهب القشيرى — رحمه الله .

(٣) عطف يعطف هنا بمعنى مال وانحنى تجاه ناحية تاركاً ناحية أخرى — وهذا هو أصل معنى اللفظة قبل أن تأخذ معانيها المتوسعة .

قوله جل ذكره : « والذين تبوّءوا الدارَ والإيمانَ من قَبْلِهم يُحِبُّون مَنْ هاجَرَ إليهم ولا يَجِدون فى صدورِهِم حاجةً مِمَّا أُوتوا ويُؤْثِرون على أنفسِهِم ولو كان بِهِم خصاصةٌ » .

نزلت هذه الآية فى الأنصار . « تبوءوا الدار » أى سكنوا المدينة قبل المهاجرين ..

« يحبون من هاجر إليهم » من أهل مكة .

« ولا يجدون فى صدورهم حاجة » مما خُصِّصَ به المهاجرون من الفىء ، ولا يحسدونهم على ذلك ، ولا يَعْتَرِضون بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين ، حتى لو كانت بهم حاجةٌ أو اختلالُ أحوالٍ .

« ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المُفْلِحون » .

قيل نزلت الآية[1] فى رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول .

وقيل نزلت فى رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرَّب منه الطعامَ وأطفأ السراجَ ليُوهِمَ ضيفَه أنه يأكل ، حتى يؤْثِرَ به الضيفَ عَلَى نفسه وعَلَى عياله ، فأنزل اللهُ الآية فى شأنه[2].

ويقال : الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللئيمُ من بناها لنفسه)[3].

وقيل : لم يقل اللهُ : ومَنْ يتقِ شحَّ نفسه بل قال : ومن يوقَ شحَّ نَفْسه[4] .

ويقال : صاحبُ الإيثارِ يُؤْثِرِ الشبعانَ على نفسه — وهو جائع .

---

(١) حديث القشيرى هنا رغم ا بعد عن الإيثار يصلح أن يكون متمماً للفصل الذى عقده فى رسالته عن الفتوة ص ١١٣ .

(٢) هكذا فى رواية أبى هريرة (البخارى حـ٣ ص ١١٣) .

(٣) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

(٤) فتقاه من الله لا من نفسه .

ويقال: مَنْ مَيَّزَ بين شخصٍ وشخصٍ فليس بصاحبِ إيثارٍ حتى يؤثِرَ الجميعَ دون تمييز.

ويقال: الإيثار أنْ تَرَى أنّ ما بأيدى الناسِ لهم، وأن ما يحصل فى يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذنَ فيها.

ويقال: مَنْ رأى لنفسه مِلْكاً فليس من أهل الإيثار.

ويقال: العابدُ يؤثِر بدنياه غيرَه، والعارفُ يؤثِر بالجنةِ غيرَه [1].

وعزيزٌ مَنْ لا يطلبُ مِنَ الحقِّ لنفْسِه شيئاً: لافى الدنيا من جاهٍ أو مالٍ، ولا فى الجنّة من الأفضال، ولا منه أيضاً ذَرّةً من الإقبال والوصال وغير ذلك من الأحوال [2].

. . . وهكذا وصفُ الفقير؛ يكون بسقوطِ كلِّ أَرَبٍ.

قوله جل ذكره: «والذين جاءوا مِن بَعْدِهِمْ يقولون:
رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقُونا
بالإيمانِ، ولا تَجعلْ فى قُلوبِنا غِلًّا
للذينآمنوا، ربَّنا إنكَ رءوفٌ رحيمٌ».

أى والذين هاجروا من بعدهم، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة . . كلُّهم يَتَرَحَّمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم، ويسلكون طريقَ الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجيرون من اللهِ أنْ يجعلَ لأحدٍ من المسلمين فى قلوبهم غِلًّا أى حِقْداً. ومَنْ [3] لا شفقةَ له على جميع المسلمين فليس له نصيبٌ من الدِّين.

قوله جل ذكره: «أَلَمْ تَرَ إلى الذين نافقوا يقولونَ

---

(١) ومن قبيل ذلك ما يقوله الحسين النورى (ت ٢٩٥ هـ):
«اللهم إن يكن قد سبق فى مشيئتك التى لاتتخلف أن تملأ النار من الناس أجمعين فإنك قادر على أن تملأها بى وحدى وأن تذهب بهم إلى الجنة».

(٢) لأن الأحوال من الله، فهى من عين الجود، كما أن المقامات ببذل المجهود.

(٣) سقطت (ومن) من م وهى موجودة فى ص، وهى ضرورية للسياق.

لإخوانِهم الذين كفروا من أهلِ
الكتابِ لئن أُخرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ
مَعَكم ولا نُطيع فيكم أحداً أبداً ،
وإن قُوتِلتُمْ لَنَنصُرَنَّكمْ ، واللهُ
يَشْهَدُ إنَّهم لكاذبون » .

يريد بهم منافقى المدينة ؛ ظاهَروا بنى النضير وقريظة ، وعاهَدوهم على الموافقة بكلِّ وَجْهٍ ، فأخبر اللهُ — سبحانه — أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه ، وأخبرَ أنَّهم لايتناصرون ، وأنَّهم يتخاذلون ، ولَئِنْ ساعدوهم فى بعضِ الحروب فإنهم يتخاذلون إنْ رَأَوْهم ينهزمون أمام مَنْ يجاهدونهم .

قوله جل ذكره : « لَأَنتم أشَدُّ رهبةً فى صدورِهم من اللهِ
ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون » .

أخبر — سبحانه — أن المسلمين أشدُّ رهبةً فى صدورهم من الله[1] ، وذلك لِقلَّةِ يقينهم ، وإعراضِ قلوبِهم عن الله .

قوله جل ذكره : « لا يُقَاتِلونكم جميعاً إلّا فى قُرًى مُحصَّنةٍ
أو مِن وراء جُدُرٍ بَأْسُهُم بينهم شديدٌ » .

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلَّا مُخَاتلةً ، أو من وراء جدرانٍ . وإنما يشتدُّ بأسُهم فيما بينهم ، أى إذا حارب بعضُهم بعضاً ، فأمَّا معكم ... فلا .

« تحسَبُهم جميعًا وقلوبُهم شتَّى ذلك بأنهم
قومٌ لا يَعْقِلون » .

إجتماعُ النفوسِ — مع تنافُرِ القلوبِ واختلافها — أصلُ كلِّ فسادٍ ، وموجِبُ كُلِّ تخاذُلٍ ، ومقتضى تجاسُرِ العدوِّ .

---

(١) والمعنى أنهم بشفاههم يقولون : نحن نخاف الله ، ولكنهم فى الحقيقة يخافون منكم خوفاً أشدَّ من خوفهم من الله ، وذلك لقلة يقينهم ... الخ .

واتفاق القلوب؛ والاشتراكُ في الهِمّة ؛ والتساوى فى القَصْدِ يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ وكلَّ سعادة . . ولا يكون ذلك للأعداء قطّ ؛ فليس فيهم إلا اختلالُ كلِّ حالٍ ، وانتقاضُ كلِّ شَمْلٍ .

قوله جل ذكره : « كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهم قريباً ذاقوا وَبَالَ أمْرِهم ولهم عذابٌ أليم » .

مَثَلُ بنى قُرَيظة كمثل بنى النضير[1] ؛ ذاق النضير وَبَالَ أمرهم قبل قريظة بِسَنَةٍ[2] ؛ وذاق قريظة بعدَهم وبال أمرهم .

قوله جل ذكره : « كَمَثَلِ الشيطانِ إذ قال للإنسانِ اكْفُرْ ؛ فلمّا كَفَرَ قال إنى برىءٌ منك إنِّى أخافُ اللهَ ربَّ العالَمين » .

أى مَثَلُ هؤلاء المنافقين مع النضير — فى وَعْدِهم بعضهم لبعض بالتناصر — كمثل الشيطان « إذ قال للإنسان . . . . » .

وكذلك أربابُ الفترة وأصحاب الزّلّة وأصحاب الدعاوى . . هؤلاء كلُّهم فى درجة واحدة فى هذا الباب — وإنْ كان بينهم تفاوت — لا تنفع صُحْبَتُهم فى الله ؛ قال تعالى : « الأخلاء يومئذٍ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين »[3] وكلُّ أحدٍ — اليومَ — يألَفُ شَكْلَه ؛ فصاحبُ الدعوى إلى صاحب الدعوى ، وصاحبُ المعنى إلى صاحب المعنى .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ ولتَنظُرْ نَفْسٌ ماقدَّمَتْ لِغَدٍ واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون » .

---

(١) يرى النسفى أن : « مَثَلَهم كمثل أهل بدر » (النسفى جـ ٤ ص ٢٤٣) .

(٢) وكان ذلك عقب مرجع النبى (ص) من الأحزاب؛ .فى رواية عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما رجع النبى (ص) من الخندق ، ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال : قد وضعت السلاح والله ما وضعناه فاخرُجْ إليهم قال : فإلى أين ؟ قال : ههنا — وأشار إلى بنى قريظة (البخارى جـ٣ ص ٢٣) .

(٣) آية ٦٧ سورة الزخرف .

التقوى الأولى على ذكر العقوبة فى الحال والفكر فى العمل خيرِه وشرِّه[1] .

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة ، ومَنْ لا محاسبةَ له فى أعماله ولا مراقبة له فى أحواله .. فَمَنْ قريب سيفتضح[2] .

وعلامةُ مَنْ نَظَرَ لِغَدِه أن يُحْسِنَ مراعاةَ يومِه ؛ ولا يكون كذلك إلّا إذا فَكَّرَ فيما عَمِلَه فى أمْسِه والناس فى هذا على أقسام : مُفَكِّرٌ فى أمْسِه : ما الذى قُسِمَ له فى الأزل ؟ وآخر مفكِّرٌ فى غَدِه : ما الذى يلقاه ؟؟ وثالثٌ مُسْتَقِلٌّ بوقته فيما يلزمه فى هذا الوقت فهو مُصْطَلَمٌ عن شاهده موصولٌ بربِّه ، مُنْدَرِجٌ فى مذكوره[3] ؛ لا يتطلَّعُ لماضيه ولا لمستقبله ، فتوقيتُ الوقتِ يشغله عن وقته[4] .

قوله جل ذكره : « ولا تكونوا كالذين نسُوا اللهَ فأنساهم أنفسَهم أولئك هم الفاسقون » .

تركوا طاعتَه فتَرَكَهم فى العذاب ؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا .. أولئك هم الفاسقون[5] .

قوله جل ذكره : « لا يستوى أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنَّةِ أصحابُ الجنَّةِ هم الفائزون » .

لا يستوى أهلُ الغَفْلةِ مع أهلِ الوصلة .

وأصلُ كلِّ آفةٍ نسيانُ الربِّ ، ولولا النسيان لما حَصَلَ العصيان ، والذى نسِىَ أمرَ نَفْسِه فهو الذى لا يجتهد فى تحصيل توبته ، ويُسَوِّفُ فيما يلزِمُه به الوقتُ من طاعتِه .

---

(1) ويكون العبد فيها فى مرحلة التوبة (أى قبل السُّكْر) : فما دام هناك وارد لثواب أو عقاب أو فكر فى حالٍ أو مآل — فهذه فى منازل السالكين دون المرحلة التالية .

(2) تفيد هذه الإشارة فى توضيح الفرق فى الاصطلاح بين : المراقبة والمحاسبة .

(3) لأن أقصى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور ، وقد اعتبرنا « الأوصافَ » أسماءَ مفعول تعبيراً عن فناء الإرادة الإنسانية ، وتجرد العبد من كل فعل فى نفسه ولنفسه .

(4) ولهذا يقولون: الصوفىُّ ابن وقته ؛ ومعناه أنه مشتغل بما هو أولى به فى الحال ، قائم بما هو مُطَالَبٌ به فى الحين ، مستسلمٌ لما يبدو له من الغيب من غير اختيارٍ له . ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت . (الرسالة ص ٣٤) .

(5) سيعود القشيرى لاتمام إشارة هذه الآية بعد الآية التالية .

قوله جل ذكره : « لوأنزَلْنَا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرَأَيتَهُ خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خشيةِ اللهِ وتلك الأمثالُ نَضْرِبها للناس لَعَلَّهم يتَفَكَّرون » .

أى لو كان للجبلِ عقلٌ وصلاحُ فِكْرٍ وسِرٍّ ، وأنزلنا عليه هذا القرآنَ لخضَعَ وَخَشَعَ . ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال : تكاد السمواتُ يَتَفَطَّرْنَ منه »[1] ويدل عليه أيضاً قوله :

« وتلك الأمثالُ نضربها للناس» : ليعقلوا ويهتدوا ، أى بذلك أمَرْناهم ، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن .

ويقال : ليس هذا الخطابُ على وَجْهِ العتابِ معهم ، بل هو على سبيل المدح وبيانِ تخصيصه إيّاهم بالقوة ؛ فقال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » لم يطِقْ ولَخَشَعَ — وهؤلاء خَصَصْتُهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابى[2].

قوله جل ذكره : « هواللهُ الذى لا إلهَ إلَّاهُوَ عالِمُ الغيبِ والشهادة هو الرحمٰن الرحيم » .

« الغيب » : مالا يُعْرَفُ بالضرورة ، ولا يُعْرَف بالقياس من المعلومات[3] . ويقال : هو ما استأثر الحقُّ بعِلْمِه ، ولم يجعل لأحدٍ سبيلًا إليه .

« والشهادة » : ما يَعْرِفُه الخلْقُ .

وفى الجملة : لا يَعزُبُ عن عِلْمِه معلومٌ .

---

(۱) آية ۹۰ سورة مريم .

(۲) يتصل هذا بموضوع السماع عند الصوفية ، وقد عقد السراج له فصلاً ممتعاً فى «اللمع» ، ومن أقواله المتصلة بهذه النقطة التى أثارها القشيرى يقول السراج : ألا ترى أحدهم يكون ساكنا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ، وقد يكون من هو أقوى منه ساكناً فى وجده لا يظهر منه شىء من ذلك (اللمع ص ۳۷۵) ويجيب الجنيد حين سئل عن سكونه وقلة اضطرابه عند السماع : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

(۳) أى لايعرف بالضرورة العقلية ولابالقياس العقلى لأن العقل يستمد أحكامه من المحسات ، والغيب بعيد عن المحسات ، فلا سبيل للخلق إليه بوسائلهم المحدودة وحدها .

قوله جل ذكره : « هو اللهُ الذى لا إله إلا هو المَلِكُ القُدُّوسُ السلامُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ العزيزُ الجبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكون » .

المَلِكُ : ذو القدرة على الإيجاد .

القدوس : المُنَزَّهُ عن الآفة والنقص .

السلام : ذو السلامة من النقائص ، الذى يُسَلِّمُ على أوليائه ، والذى سَلِمَ المؤمنون من عذابه .

المؤمن : الذى يُصَدق عَبْدَه فى توحيده فيقول له : صَدَقْتَ يا عبدى .

والذى يُصَدِّق نفسَه فى إخباره أى يعلم أنه صادق .

ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى المخبر لعباده بأنه يُؤَمِّنهم من عقوبته .

المهيمن : الشاهد ، وبمعنى الأمين ، ويقال مؤيمن (مُفَيْعِل) من الأمن قلبت همزته هاء وهو من الأمان ، ويقال بمعنى المؤمِن .

العزيز : الغالبُ الذى لا يُغْلَب ، والذى لا مثيلَ له ، والمستحق لأوصاف الجلال ، وبمعنى : المُعِزّ لعباده . والمَنيعَ الذى لا يَقْدِرُ عليه أحد .

الجبَّار : الذى لاتصل إليه الأيدى . أو بمعنى المُصْلِح لأمورهم من : جَبَرَ الكَسْرَ . أو بمعنى القادر على تحصيل مراده[1] مِنْ خَلْقِه على الوجه الذى يريده من : جَبَرْتُه على الأمر وأجبرته .

المتكبر : المتقدِّس عن الآفات .

قوله جل ذكره : « هو اللهُ الخالقُ البارىء المُصَوِّرُ له الأسماء الحُسْنَى يُسَبِّحُ له ما فى السموات والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم » .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (مرات) .

هو المنشىء للأعيان والآثار .

« له الأسماء الحسنى » : المُسَمَّيات الحِسَان .

« وهو العزيز الحكيم » : مضى معناهما ، وقد استقصينا الكلام فى معانى هذه الأسماء (فى كتابنا المسمّى : « البيان والأدلة فى معانى أسماء الله تعالى »)[1] .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود فى م وهو موجود فى ص . وهذه أول مرة نعرف القشيرى كتاباً بهذا الاسم فلم يرد ذكره فى كتب الفهارس والتراجم . وكنا نعلم حتى هذه اللحظة أن القشيرى قد عالج دراسة الأسماء والصفات فى كتابين فقط أولهما : التحبير فى التذكير تحقيق بسيونى . والثانى : شرح أسماء الله الحسنى تحقيق الحلوانى .

سُورَةُ المُمْتَحِنَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم مَلِكٍ لا أصلَ لمُلْكِهِ عند حَدَثٍ ولا نَسْلَ له ، فَمَنْهُ يَرِث . ملكٍ لا يَسْتَظْهِرُ بجيشٍ وعُدَد ، ولا يتعزَّزُ بقَوْمٍ وعَدَد . ملكٍ للخَلْقِ[1] بأجمعهم — لكنه اختار قوماً — لا ليَتَشفع بهم — بل لِنفْعِهم ، وردَّ آخرين وأذلَّهم بعَنْفهم ووضْعِهم :

قوله جل ذكره : « يٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عَدُوِّى وعَدُوَّكم أولياء تُلْقُونَ إليهم بالمودَّةِ وقد كفروا بما جاءكم من الحقِّ يُخْرِجون الرسولَ وإيَّاكم أن تُؤْمنوا بالله ربِّكم إن كنتم خَرَجْتم جِهاداً فى سبيلى وابتغاء مَرْضاتى »[2] .

قال صلى الله عليه وسلم : « أعدى عدوِّك نَفْسُكَ التى بين جنبيك[3] وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام : « عادِ نَفْسَكَ فليس لى فى المملكة مُنَازِعٌ غيرها » . فَمَنْ عادى نَفْسَه فقد قام بحقِّ الله ، ومَنْ لم يعادِ نفسه لحقته هذه الوصمةُ . وأصلُ الإيمانِ الموالاةُ والمعاداةُ فى الله ومَنْ جَنَحَ إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (الحق) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) نزلت الآية فى حاطب بن أبى بلتعة الذى بعث فى السر بكتاب مع امرأة يقال لها سارة إلى أهل مكة يحذرهم فيه من استعداد النبى لهم والتهيؤ لقتالهم ، فوضعت الكتاب فى عقاص شعرها . ونزل جبريل على الرسول ليخبره بالأمر ، فأرسل فى إثرها فرسانه ، فانتزعوا الكتاب منها .

وحينما هم عمر رضى الله عنه بضرب عنق حاطب قال الرسول : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ ففاضت عينا عمر ، ونزلت الآية .

(٣) ينظر الصوفية إلى النفس على أنها محل المعلولات (الرسالة ص ٤٨) .

قوله جل ذكره : « وأنا أعلَمُ بما أخْفَيْتم وما أعْلَنتم
ومَن يَفْعَلْهُ منكم فقد ضَلَّ سَوَاء
السبيلِ » .

أنا أعلم « بما أخفيتم » من دقائقِ التصنُّع وخَفِيَّات الرياء .

« وما أعلنتم » من التزيُّن للناس .

« ما أخفيتم » من الاستسرار بالزَّلة ، « وما أعلنتم » ، من الطاعة والبِرِّ .

« ماأخفيتم » من الخيانة « وما أعلنتم » من الأمانة .

« ما أخفيتم » من الغِلِّ والغِشِّ للناس ، « وما أعلنتم » من الفضيحةِ للناس .

« ما أخفيتم » من ارتكابِ المحظورات ، « وما أعلنتم » من الأمرِ بالمعروف .

« ما أخفيتم » من تركِ الحشمة منى وقلة المبالاةِ باطِّلاعى ، وما أعلنتم من تعليم الناسِ ووَعْظِهِمْ .

« ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل » فقد حادَ عن طريق الدين ، ووَقَعَ فى الكفر .

قوله جل ذكره : « إن يَثْقَفُوكم يكونوا لكم أعداء
ويَبْسُطوا إليكم أيْدِيَهُم وألسِنَتَهُم
بالسُّوء ووَدُّوا لو تكْفُرون * لَن
تنفَعَكم أرحامُكم ولا أولادُ كم ».

إنْ يَظْفَروا بكم وصادَفوكم يكونوا لكم أعداء ، ولن تَسْلَموا من أيديهم بالسوء ولامن ألسنتهم بالذمِّ وذكرِ القبيح .

« ووَدُّوا لو تكفرون » : ولن ينفَعَكُم تَوَدُّدُكم وتَقَرُّبُكُم إليهم ، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام . ثم عقوبةَ الآخرةَ تُدْرِكُكُم [1].

---

(1) لأنكم حينئذ تكونون قد آثرتم قرابتكم بأعدائكم على حقوق الله .

وكذلك صفة المخالف ، ولا ينبغي للمرء أنْ يتعطَّش إلى عشيرته — وإنْ داهَنَتْه في قالَةٍ ، ولا أنْ ينخدعَ بتغررها — وإنْ لايَفْتُه في حالة

قوله جل ذكره : « قد كانت لكم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبراهيم والَّذينَ معه إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرَآءُ منكم ومما تَعْبُدُون من دون الله ، كَفَرْنا بكم ، وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وَحْدَه إلَّا قَوْلَ إبراهيمَ لأبيه لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شىء » .

أى لكم قُدْوَةٌ حسنة بإبراهيم ومَنْ قبله من الأنبياء حيث تبَّرءوا من الكفار من أقوامهم ؛ فاقْتَدُوا بهم .. إلَّا استغفار إبراهيم لأبيه — وهو كافر — فلا تقتدوا به .

ولا تَسْتَغْفِروا للكفار . وكان إبراهيمُ قد وعده أبوه أنه يُؤْمِن فلذلك كان يستغفر له ، فلمَّا تَبيَّنَ له أنه لن يُؤْمِنَ تبَرَّأَ منه

ويقال : كان منافقاً . . ولم يَعْلَمْ إبراهيم ذلك وقتَ استغفاره له .

ويقال : يجوز أنه لم يعلم فى ذلك الوقت أنَّ اللهَ لا يغفر للكفار .

والفائدةُ فى هذه الآية تخفيفُ الأمر على قلبِ الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتعريفهم أنَّ مَنْ كانوا قبلهم حين كَذَّبوا بأنبيائهم أهلكهم اللهُ ، وأنهم صبروا ، وأنه ينبغى لذلك أنْ يكونَ بالصبرِ أمرُهم .

قوله جل ذكره : « ربَّنا عليكَ تَوَكَّلْنا وإليكَ أَنَبْنَا وإليكَ المصير » .

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصحُّ أن يكون معناه : قولوا : « ربَّنا عليكَ توكلنا » .

وقد مضى القولُ فى معنى التوكل والإنابةُ .

قوله جل ذكره : « رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتنةً للذين كفروا
واغفِرْ لنا رَبَّنَا إنَّكَ أنت العزيزُ
الحكيمُ ».

ربَّنا لا تُظْفِرْهم بنا ، ولا تُقَوِّهم علينا .

والإشارة فى الآية : إلى الأمرِ بِسُنَّةِ إبراهيم فى السخاء وحُسْنِ الخُلُقِ والإخلاصِ والصدقِ والصبرِ وكلِّ خصلةٍ له ذَكَرَها لنا .

قوله جل ذكره : « عَسَى اللهُ أن يجعلَ بينكم وبين الذين
عَادَيْتُمْ منهم مَوَدَّةً واللهُ قديرٌ واللهُ
غفورٌ رحيمٌ » .

وقفهم فى مقتضى قوله تعالى : « عسى الله » عند حدِّ التجويز . . لا حُكْماً بالقَطْعِ ، ولا دَفْعَ قلبٍ باليأس . . ثم أمَرَهم بالاقتصاد فى العداوة والولاية معهم بقلوبهم ، وَعرَّفهم بوقوع الأمر حسب تقديره وقدرته ، وجَرَيانِ كلِّ شىء على ما يريد لهم ، وصَدَّق هذه الترجية بإيمانِ مَنْ آمَنَ منهم عند فتح مكةَ ، وكيف أسلم كثيرون ، وحصل بينهم وبين المسلمين مودةٌ أكيدة .

قوله جل ذكره : « لاينهاكم اللهُ عن الذين لم يُقَاتِلوكم
فى الدِّينِ ولم يُخرِجوكم من دياركم أن
تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم إنَّ اللهَ يُحبُّ
المُقْسِطين * إنمَّا ينهاكم اللهُ عن الذين
قاتلوكم فى الدِّينِ وأخرجوكم من دياركم
وظَاهَروا على إخراجِكم أن
تَوَلَّوْهم ، ومَن يتَوَلَّهُم فأولئك هم
الظالمون » .

أمَرَهُم بشدة العداوة مع أعدائهم على الوجه الذى يفعلونه ، وأمّا من كان فيهم ذا خُلُقٍ حَسَنٍ ،

أو كان منه للمسلمين وجهُ نَفْعٍ أو رِفْقٍ — فقد أُمِرَتم بالملاينة معه . وللمُؤلَّفةُ قلوبهم شاهدٌ لهذه الجملة ، فإنَّ اللهَ يحب الرِّفق فى جميع الأمور[1].

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا جاءكُم
المؤمناتُ مهاجراتٍ فامْتَحِنُوهنَّ اللهُ
أَعْلَمُ بإيمانهنَّ فإنْ علمتُموهنَّ مؤمناتٍ
فلا تَرْجِعوهُنَّ إلى الكفَّارِ .... » .

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يمتحنهن باليمين ، فَيَحْلِفْنَ إنَّهن لم يخرجن إلَّا للهِ ، ولم يخرجن مغايظةً لأزواجهن ، ولم يخرجن طمعاً فى مالٍ .

وفى الجملة : الامتحانُ طريقٌ إلى المعرفة ، وجواهرُ[2] الناس تتبيَّن بالتجربة[3] . ومَنْ أَقْدَمَ على شيء من غير تجربة تَحَسَّى كأسَ الندمَ .

« ولا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوافِرِ »[4].

لا توافِقوا مَنْ خَالَفَ الحقَّ فى قليل أو كثير .

قوله جل ذكره : « يأيها النبيُّ إذا جاءكَ المؤْمِنَاتُ
يُبَايِعنكَ عَلَى أن لَّا يُشْرِكْنَ باللهِ شيئاً
ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِين ولا يَقْتُلْنَ
أولادهُن ولا يأتين بِبُهتانٍ يفترينه بين
أيديهنَّ وأَرْجُلِهِنَّ ولا يَعْصِينكَ فى
معروفٍ فبايِعْهُنَّ واستغفرْ لَهُنَّ اللهَ
إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم » .

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف » .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (وجوابه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (المعرفة) .

(٤) العصمة : ما يعتصم به من عقد وسبب ، والكوافر : جمع كافرة وهى التى بقيت فى دار الحرب أو لحقت بدار الحرب مرتدة . أى لا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة زوجية .

إذا جاءك النساء يبايعنك على الإسلام فطالِبْهُنَّ وشارِطْهُنَّ بهذه الأشياء :

تَرْكِ الشِّرك ، وتَرْكِ السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء فى إلحاق النَّسبِ ، وألا يعصينك فى معروفٍ ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به ، ويدخل فى ذلك تَرْكُ النياحةِ وشقِّ الجيوب ونَتْفُ الشَّعرِ عند المصيبة وتخميشُ[1] الوجوه والتبرُّجُ وإظهارُ الزينة . . . وغير ذلك مما هو من شعائر الدِّين فى الجملة .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تَتَوَلَّوْا قوماً غَضِبَ اللهُ عليهم قد يئِسوا من الآخرة كما يَئِسَ الكفَّارُ من أصحابِ القُبور » .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . يئسوا من الآخرة كما يئِسَ أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويُبْعثوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال : كما يئس الكفار حين اعتقدوا أن الخَلْقَ لا يُبْعَثُون فى القيامة[2].

---

(١) خمش . أى جرح بشرته .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (الآخرة) وكلاهما صحيح فى السياق .

سُورَةُ الصَّف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة مَنْ وفقه اللهُ لعرفانها لم يَصْبِرْ عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصلَ إلى المُسَمَّى بها بجَنَانِه : في البداية بتأمُّل برهانه لمعرفة سلطانه ، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتحقق مما هو كبيانه .

قوله جل ذكره : « سَبَّحَ لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيزُ الحكيم » .

مَنْ أراد أنْ يصفوَ له تسبيحُه فَلْيُصَفِّ قلبَه من آثار نَفْسِه ، ومَنْ أراد أن يَصْفُوَ له في الجنةِ عَيْشُه فَلْيُصَفِّ من أوضارِ ذَنْبِه نَفْسَه .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقُولون ما لا تفعلون * كَبُرَ مَقْتاً عند اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلون » .

جاء في التفاسير أنهم قالوا : لو عَلِمْنا ما فيه رضا الله لَفَعَلْنا ولو فيه كل جهد .. ثم لمَّا كان يومُ أُحُد لم يثبتوا ، فنزلت هذه الآية في العتاب[1] .

وفي الجملة : خلفُ الوعدِ مع كلِّ أحَدٍ قبيحٌ ، ومع اللهِ أقبح .

ويقال إظهارُ التجلُّدِ من غير شهود مواضعِ الفقر إلى الحقِّ في كلِّ نَفَسٍ يؤذِنُ بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى[2] . . . واللهُ يحب التبرِّي من الحوْلِ والقوة .

---

(١) قال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيَّه (ص) بثواب شهداء بدر قال بعض الصحابة : اللهم اشهد لئن لقينا قتالاً لَنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنَا .. ففروا يوم أحد ، فعيرهم الله بذلك .

(٢) أي بدعوى النَّفْس ؛ تسوِّل له نفسه أن له في الأمر شيئاً ، وأن تدبيره هو الذي مكَّنَ له .

ويقال : لم يتوعّد — سبحانه — زَلّةً بِمثْلِ ما على هذا حين قال : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »(١) .

قوله جل ذكره : « إنَّ اللهَ يُحب الذين يُقَاتِلون فى سبيلهِ صَفًّا كأنهم بُنْيَانٌ مَرْصوصٌ » .

المحبةُ توجِبُ الإيثارَ ، وتقديم مُرَادِ حبيبك عَلَى مُرَادِ نَفْسِك ، وتقديم محبوب حبيبك على محبوبِ نَفْسِك . فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبدِ أنْ يُقَاتِلَ على الوجه الذى ذكره فمَنْ لم يُؤْثِرْ محبوبَ اللهِ على محبوبِ نَفْسِهِ — أى على سلامته — انسلخ من محبته لربِّه ، ومَنْ خلا من محبةِ اللهِ وَقَعَ فى الشقِّ الآخر ، فى خسرانه .

قوله جل ذكره : « وإذْ قال موسى لقومه ياقوم لِمَ تُؤذُونَنى وقد تعلمون أنِّى رسولُ اللهِ إليكم ؟ فلمَّا زاغوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم واللهُ لا يَهْدِى القومَ الفاسقين » .

لمَّا زاغوا بِتَرْكِ الحدِّ أزاغ اللهُ قلوبهم بنقض العهد .

ويقال : لمَّا زاغوا عن طريق الرُّشْدِ أزاغ الله قلوبَهم بالصدِّ والردِّ والبُعْدِ عن الوُدِّ .

ويقال : لما زاغوا بظواهرهم أزاغ اللهُ سرائرَهم .

ويقال : لمَّا زغوا عن خدمة الباب أزاغ اللهُ قلوبَهم عن التشوُّق إلى البساط .

ويقال : لمَّا زاغوا عن العبادة أزاغ اللهُ قلوبَهم عن الإرادة .

قوله جل ذكره : « وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيلَ إنِّى رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقًا لِمَا بين يَدَىَّ من التوراةِ ومُبَشِّراً برسولٍ يأتى من بَعْدِى

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) : « أتيتُ ليلة أُسْرِىَ بى على قومٍ تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من نار كلما قُرِضَتْ وَفَتْ (= تمت وطالت) قلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : « هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ، ويقرءون كتاب الله ولا يعملون » . (ابو نعيم من حديث مالك بن دينار عن ثمامة) .

اسمُهُ أحمدُ ، فلمَّا جاءهم بالبيِّنات قالوا
هذا سِحْرٌ مبين » .

بَشَّرَ كلُّ نبيٍّ قومَه بنَبِيِّنا صلى الله عليه وسلم ، وأفرد الله — سبحانه — عيسى بالذِّكْرِ في هذا الموضع لأنه آخِرُ نبيٍّ قبل نبيِّنا صلى الله عليه وسلم : فبيَّن بذلك أن البشارة به عَمَّتْ جميعَ الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام .

قوله جل ذكره : « يُريدون لِيُطْفِئوا نورَ اللهِ
بأفواهِهِم واللهُ مُتِمُّ نورِه ولو كَرِهَ
الكافرون[1] » .

فَمَن احتال لِوَهَنه ، أو رامَ وهْيَه انعكس عليه كَيْدُه ، وانتقض عليه تدبيرُه .

« ويأبى الله إلَّا أن يتم نوره » : كما قالوا :

وللهِ سِرٌّ في عُلاهُ وإنما كلامُ العِدَى ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

كأنه قال : مَنْ تَمَنَّى أَنْ يُطْفِئَ نورَ الإسلامِ بكيده كمن يحتال ويزاول إطفاء شعاعِ الشمس بنَفْثِه ونَفْخِه فيه — وذلك من المُحَال .

قوله جلّ ذكره : « هو الذى أَرْسَلَ رسولَه بالهُدَى
ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه
ولو كَرِهَ المُشْرِكون » .

لمَّا تقاعد قومُه عن نصرته ، وانبرى أعداؤه لتكذيبه ، وجحدوا ما شاهدوه من صِدْقِهِ قيَّضَ الله له أنصاراً من أمته هم : نُزَّاعُ القبائل ، والآحادُ الأفاضل ، والساداتُ الأماثل ، وأفرادُ المناقب — فبذلوا في إعلاء نصرة دينه مُهَجَهم ، ولم يُؤْثِروا عليه شيئاً من كرائمهم ، ووقوه

(١) حكى عطاء عن ابن عباس : أن الوحى حين أبطأ على رسول الله (ص) أربعين يوماً قال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود : أبشروا ! فقد أطفأ اللهُ نورَ محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم أمره ؛ فحزن النبى (ص) — فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحىُ بعدها .

بأرواحهم ، (وأمدَّهم اللهُ سبحانه بتوفيقه كى ينصروا دينه ، أولئك أقوامٌ عَجَنَ الله بماء السعادة طينَتَهم ، وخَلَقَ من نور التوحيد أرواحَهم[1]) وأهَّلَهم يومَ القيامة للسيادة على أضرابهم .

ولقد أرسل اللهُ نبيَّه لدينه مُوَضِّحاً ، وبالحقِّ مُنْصِحاً ، ولتوحيده مُعْلِناً ، وبجهده فى الدعاء إليه مستغرِقاً . . . فأقْرَعَ بنُصْحِه قلوباً نُكْراً ، وبصَّرَ بنور تبليغه عيوناً عُمْياً .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليم * تُؤْمِنون باللهِ ورسولِه وتجاهِدون فى سبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفُسِكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون » .

سَمَّى الإيمانَ والجهادَ تجارةً لِمَا فى التجارة من الرِّبح والخسران ونوعِ تَكَسُّبٍ من التاجر — وكذلك : فى الإيمان والجهاد رِبْحُ الجنَّة وفى ذلك يجتهد العبد ، وخسرانها إذا كان الأمرُ بالضِّدِّ .

وقوله : « تؤمنون بالله . . . » أى فى ذلك جهادُكم وإيمانُكم واجتهادُكم ، وهو خيرٌ لكم .

ثم بَيَّن الربحَ على تلك التجارة ماهو فقال :

« يَغفِرْ لكم ذُنوبَكُمْ ويُدْخِلْكم جنـاتٍ تجرى مِن تحتِها الأنهارُ

---

(١) ما بين القوسين ورد فى م وسقط فى ص .

وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ».

قدّم ذِكْرَ أهمّ الأشياء — وهو المغفرة . ثم إذا فَرَغَت القلوبُ عن العقوبة قال :

« ويدخلكم جناتٍ . . . » فبعد ماذَكَرَ الجنّةَ ونعيمَها قال : « ومساكن طيبة » :
وبماذا تطيب تلك المساكن ؟ لا تطيب إلّا برؤية الحقّ سبحانه ، ولذلك قالوا :

أجيرانَنَا ما أوحشَ الدارَ بعدكم   إذا غِبْتُمو عنها ونحن حضورُ !
نحن في أكملِ السرورِ ولكنْ   ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ
عيبُ مانحن فيه ياأهلَ ودّى   أنكم غُيَّبٌ ونحن حضورُ

قوله جل ذكره : « وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ
وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

أى ولكم نعمة أخرى تحبونها: نصرٌ من الله ؛ اليومَ حِفْظُ الإيمان وتثبيتُ الأقدام على صراط الاستقامة ، وغداً على صراط القيامة .

« وفتح قريب » : الرؤية والزلفة . ويقال الشهود . ويقال: الوجود[1] أبدَ الأبَد .

« وبشر المؤمنين » : بأنهم لايبقون عنك فى هذا التواصل .

قوله جل ذكره : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ
كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ
مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت

---

(١) لفظة (الوجود) بالمعنى الصوفى مقبولة هنا ، ولكننا فى ذات الوقت لا نستبعد أن تكون (الخلود) إشارة إلى قوله تعالى : « خالدين فيها أبداً » .

طائفةٌ من بنى إسرائيلَ وكَفَرت
طائفةٌ فأيَّدْنا الذين آمنوا على عدُوِّهم
فأصبحوا ظاهرين ».

أى كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أنَّ عيسى لمَّا استعانَ واستنصرَ الحواريين نصروه .. فانصروا محمداً إذا استنصركم.

ثم أخبر أنَّ طائفةً من بنى إسرائيل آمنوا بعيسى فأُكرِموا ، وطائفةً كفروا فأُذِلُّوا ، وأظفرَ أولياءه على أعدائه ... لكى يعرف الرسولُ صلى الله عليه وسلم أنَّ اللهَ سبحانه يُظفِرُ أولياءه على أعدائه .

سورة الجمعة

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ » .

« بسم الله » اسم عزيز إذا تجلّى لقلبِ عَبْدٍ بوصفِ جمالِه تجمعت أفكارُه على بساط جُودِه فلم يتفرّق بسواه[1] .

ومَنْ تجلّى لسِرِّه بنعت جلالِه اندرجت جملتُه ، واستُهْلِكَ في وجوده فلم يشعرْ بكرائم دُنْياه ولا بعظائم عُقْباه . .

وكم له من إنعام ! وكم له من إحسان ! وكما في أمثالهم :« جرى الوادى فطمَّ على القَرِيِّ[2] »

قوله جل ذكره : « يُسَبِّحُ للهِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ » .

تَسْبَحُ في بحارِ توحيد الحقِّ أسرارُ أهلِ التحقيق ، وبحَرُهم بلا شاطىء ؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروجَ ولا براحَ ، فحازت أيديهم جواهرَ التفريد فرصّعوها في تاج العرفان كي يَلْبَسُوه يومَ اللّقاء .

« المَلِكِ القُدُّوسِ العزيزِ الحكيمِ » .

« الملك » : الملك المتفرِّد باستحقاق الجبروت .

« القدوس » : المُنَزَّهُ عن الدرك والوصول : فليس بيد الخَلْقِ إلاَّ عرفان الحقائق بنعت التعالى ، والتأمل في شهود أفعاله ، فأمّا الوقوف على حقيقة أنِّيته — فقد جَلَّت الصمديةُ عن

(١) لاحظ هنا دقة استعمال الاصطلاحين (الجمع والفرق) .

(٢) القَرِيّ = مجرى الماء في الروضة والجمع : أقرية وأقراء وقريان ، ويضرب المثل عند تجاوز الشيء حدّه .

إشرافٍ عليه ، أو طمعِ إدراكٍ فى حالِ رؤيته ، أو جوازِ إحاطةٍ فى العِلْمِ به . . فليس إلا قالة بلسانٍ مُسْتَنْطَقٍ ، وحالة بشهودِ حقٍّ مستغرق[1] :

وقُلْنَ لنا : نحـــــن الأهِلَّة إنما نُضئ لِمَنْ يَسْرِى بليلٍ ولا نَقْرِى[2]

قوله جل ذكره : « هو الذى بَعَثَ فى الأُمِّيينَ رسولاً منهم
يتلوا عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويُعَلِّمُهم
الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا مِن
قَبْلُ لَفِى ضلالٍ مبين » .

جرَّده عن كلِّ تكلُّفٍ لِتَعَلُّمٍ ، وعن الاتصافِ بتطلُّبٍ[3] . . ثم بعثَهُ فيهم وأظْهَرَ عليه من الأوصاف ما فاق الجميع .

فكما أيتَمَهُ فى الابتداء عن أبيه وأمِّه ، ثم آواه بلُطْفِه — وكان ذلك أبلغَ وأتمَّ — فإنه كذلك أفرده عن تكلُّفِه العلم — ولكن قال : « وعلَّمك مالم تكن تعلم »[4] .

وقال : « ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً »[5] ألبسه لباسَ العزَّة ، وتوَّجه بتاجِ الكرامة ، وخَلَعَ عليه حُسْنَ التولِّى . لتكونَ آثارُ البشرية عنه مندرجة[6] ، وأنوارُ الحقائقِ عليه لائحة .

وآخَرِين منهم لمَّا يَلْحَقُوا بِهِم وهو
العزيزُ الحكيم » .

---

(1) هذه الفقرة التى كتبها القشيرى عن (القدوس) على جانب كبير من الأهمية ؛ إذ هى توضح : أن الصوفى مهما ارتفع فى معراجه الروحى لا يستشرف من (الذات) فقدجاءت الصمدية عن ذلك ، وإنما هو يتحقق من شهود (الفعل) .. ولا شك أن أهل السنة المتشددين سيجدون فى هذا النص مايعطفهم نحو التصوف وأهله .

(2) أى ولا نستضيف .. والمقصود أن السالكين طريق الله دائماً على الدرب سائرون وأن الحق سبحانه لا وقوف على كنهه .

(3) حتى ينتفى عنه سوء الظن فى تعلمه شيئاً من الكتب السابقة ، وأن ما يدعو إليه ثمرة قراءته .

(4) آية ١١٣ سورة النساء .

(5) آية ٥٢ سورة الشورى .

(6) هى هكذا فى ص وفى م مشتبهة ، والمقصود لتطوى عنه آثار البشرية — لا البشرية نفسها — وتلوح عليه أنوار الحقائق.

أى بَعثَهَ فى الأميين ، وفى آخرين منهم وهم العجم ، ومن يأتى . . إلى يوم القيامة ؛ فهو صلى الله عليه وسلم مبعوثٌ إلى الناسِ كافَّة .

قوله جل ذكره : « ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يشاءُ
واللهُ ذو الفَضْلِ العظيمِ » .

يقصد به هنا النبوة ، يؤتيها « من يشاء » ؛ وفى ذلك ردٌّ على مَنْ قال : إنها تُسْتَحَقُّ لكثرة طاعة الرسول — وردٌّ على من قال : إنها لتخصيصهم بطينتهم ؛ فالفضل ما لا يكون مُسْتَحَقًّا ، والاستحقاق فَرضٌ[1] لا فضل .

ويقال : « فضل الله » هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به .

ويقال : هو الأُنْسُ بالله ، والعبدُ يَنْسَى كلَّ شىء إذا وَجَدَ الأُنْسَ .

ويقال : قَطَعَ الأسبابَ ، — بالجملة — فى استحقاق الفضل ، إذ أَحالَه على المشيئة .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لم
يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسفَاراً
بِئْسَ مَثَلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بآياتِ
اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِى القومَ الظالمين » .

« ثم لم يحملوها » : ثم لم يعملوا بها .

ويُلْحَقُ بهؤلاء[2] فى الوعيد — من حيث الإشارة — الموسومون[3] بالتقليد فى أى

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (فرد) وهى خطأ فى النسخ ؛ إذ المقصود أنه منحه الاستحقاق فضلاً منه لا (فرضاً) عليه ؛ فلا وجوبَ على الله — كما نعرفُ من مذهب القشيرى .

(٢) أى باليهود الذين لا فائدة لهم فيما يحملونه من الكتب ، فهى تبشر بمحمد ، وهم يجحدون به .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (المؤمنون) .

معنىً شتَّى : فى علم الأصول ، ومِمَّا طريقُه أدلةُ العقول ، وفى هذه الطريقة[1] مِمَّا طريقُه المنازلات .

قوله جل ذكره : « قُلْ يأيها الذين هادوا[2] إن زَعَمْتُم
أنكم أولياءُ للهِ من دونِ الناسِ فَتَمَنَّوُا
الموتَ إن كُنتُم صادقين *
ولا يتمنَّونَهُ أبداً بما قدَّمَتْ أيْديِهم .
واللهُ عليمٌ بالظالمين » .

هذا من جملة معجزاته صلى الله عليه وسلم ، فَصَرْفُ قلوبِهم عن تمنِّى الموتِ إلى هذه المدة دَلَّ على صِدْقِه صلوات الله عليه[3] .

ويقال : من علامات المحبة الاشتياقُ إلى المحبوب ؛ فإذا كان لا يَصِلُ إلى لقائه إلا بالموتِ فتمنِّيه — لا محالة — شرطٌ ، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً . . وكان كما أخبر .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنَّ الموتَ الذى تفرون منه فإنه
مُلاقيكُم ثم تُرَدُّون إلى عالمِ الغيبِ
والشهادةِ فَيُنَبِّئُكم بما كنتم
تعملون » .

الموتُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ . وفى الخبر : « مَنْ كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءه » . والموتُ جِسْرٌ والمقصدُ عند الله . . ومَنْ لم يَعِشْ عفيفاً فَلْيَمُتْ ظريفاً[4] .

---

(١) يقصد طريقة الصوفية .

(٢) أخطأ الناسخ فى م وجعلها (آمنوا) .

(٣) والآية تؤكد هذا مرتين باستعمال أسلوب إنشائى (فتمنوا) وأسلوب خبرى (ولا يتمنونه أبداً) .

(٤) سئل الجنيد عن الظرف فقال : « اجتناب كل خُلُق دنى واستعمال كل خلق سَنِىٍّ وأن تعمل لله ثم لا ترى أنك عملت » (اللمع للسراج ص ٦٦٢) .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا إذا نُودِىَ للصلاةِ من يومِ الُجمعة فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ذلكم خيرٌ لكم إن كُنتُم تعلمون » .

أوْجَبَ السَّعْىَ يومَ الجمعة إذا نودِىَ لها ، وأمَرَ بِتَرْكِ البيع[1] .

ومنهم من يحمله على الظاهر ؛ أى تَرْكُ المعاملة مع الخَلْق[2] ، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنًى آخر : هو تَرْكُ الاشتغالِ بملاحظة الأعراض[3] ، والتناسى عن جميع الأغراض إلا معانقة الأمر ؛ فنهم مَنْ يسعى إلى ذِكْرِ الله ، ومنهم من يسعى إلى الله ، بل يسعون إلى ذِكْرِ الله جَهْراً بِجَهْرٍ ، ويسعون إلى الله تعالى سِرًّا بسِرٍّ .

قوله جل ذكره : « فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فَضْلِ اللهِ واذكروا اللهَ كثيراً لعلَّكم تُفلِحون»

إنما ينصرف مَنْ كان له جَمْعٌ يرجع إليه ، أو شغلٌ يقصده ويشتغل به — ولكن .. مَنْ لا شُغْلَ له ولا مأوى .. فإلى أين يرجع ؟ وإنما يقال : « وابتغوا من فضل الله » إذا كان له أَرَبٌ .. فأمَّا مَنْ سَكَنَ عن المطالبات ، وكُفِىَ داء الطَّلَبِ .. فما له وابتغاء ما ليس بيده ولا هو فى رِقِّهِ ؟!

قوله جل ذكره : « وإذا رأوْا تجارةً أوْ لَهْواً انفضُّوا إليها وتركوكَ قائما .. قُلْ ما عند اللهِ

---

(1) هكذا فى ص وهى الصواب حسب الآية ، ولكنها فى م (الجميع) .
(2) هكذا فى ص وهى فى م (الحق) وهى خطأ فى النسخ .
(3) جمع (عَرَض) الحياة الدنيا.

خَيْرٌ من اللَّهْوِ ومن التجارة واللهُ خيرُ

الرَّازقين » .

مَنْ أَسَرَتْهُ أخطارُ الأشياء استجاب لكلِّ داعٍ جرَّه إليه لَهْوٌ أو حَمَلَه عليه سَهوٌ ومَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقة لم ينحرف عن الحضور ، ولم يلتفت في حال الشهود . « قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة » وما عندالله للعُبَّاد والزُّهَّاد — غداً[1] — خيرٌ مما[2] نالوه في الدنيا نقداً . وما عند الله للعارفين — نقداً — من واردات القلوب وبواده[3] الحقيقة خيرٌ مما يُؤمِّل المستأنِف[4] في الدنيا والعُقْبى .

---

(1) ويجوز أنها في الأصل « وعداً » لتقابل « نقداً » فهذا نمط في تعبير القشيري مألوف ، ومع ذلك فالوعد (غداً) .

(2) هكذا في ص وهي في م (من) والصواب (مما)

(3) البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، وهي إما موجبات فرح أو موجبات ترح ، وسادات الوقت لا تغيرهم البواده ، لأنهم فوق مايفجؤهم حالاً وقوة (الرسالة — ص ٤٤) .

(4) موجودة في ص وغير موجودة في م وهي ضرورية للسياق ، والمستأنف : هو المريد المبتدىء الذي مازال يفكر في الثواب الآجل والثواب العاجل .

سُورَةُ المُنَافِقُون

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم مَنْ تحقَّق به صَدَقَ فى أقوالِه ، ثم صَدَقَ فى أعمالِه ، ثم صدق فى أخلاقِه ثم صَدَقَ فى أحوالِه ، ثم صَدَقَ فى أنفاسه[1] .. فصِدْقُه فى القول ألّا يقولَ إلّا عن برهان ، وصِدْقُه فى العمل ألا يكونَ للبِدْعةِ عليه سلطانٌ ، وصِدْقُه فى الأخلاقِ ألا يُلاحِظَ إحسانَه مع الكافَّة بعين النقصان ، وصِدْقُه فى الأحوال أنْ يكونَ على كَشْفٍ وبيانٍ ، وصِدْقُه فى الأنفاس ألا يتنفَّسَ إلا على وجودٍ كالعيان[2] .

قوله جل ذكره : « إذا جاءكَ المنافقُون قالوا : نَشْهَدُ إنَّكَ لرسُولُ اللهِ ، والله يَعْلَمُ إنَّك لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إنَّ المنافقين لَكَاذِبون » .

كَذَّبَهم فيما قالوا وأظهروا ، ولكنهم لم يشهدوا عن بصيرة ولم يعتقدوا تصديقك ، فهم لم يكذبوا فى الشهادة[3] ولكنَّ كذَّبَهم فى قولهم : إنَّهم مخلصون لك ، مُصَدِّقون لك . فصِدْقُ القالة لا ينفع مع قُبْحِ الحالة .

(١) هكذا فى ص وهى فى م (انفاسه) والصواب ما أثبتنا بدليل ما بعده .

(٢) لاحظ هنا كيف تتفق إشارة البسملة مع السياق العام للسورة .

(٣) أى تقريرهم بأن محمداً رسول الله حقيقة ليس فيها كذب ، فمن حيث الظاهر فقد نطقت ألسنتهم بالصدق ، ولكن الكذب كامن فى القلب .

ويقال : الإيمان ما يوجِبُ الأمان ؛ فالإيمانُ يوجِبُ للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصَه من العذاب أكثره وأقله . . إلّا ما ينقله من (أعلى)[1] جهنم إلى أسفلها .

قوله جل ذكره : « اتَّخَذوا أيْمَانَهم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ إنَّهم ساء ما كانوا يعملُون » .

تَسَتَّرُوا بإقرارِهِم ، وتكَشَّفُوا بنفاقهم عن أستارِهِم فافتضحوا ، وذاقوا وبالَ أحوالهم .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنَّهم آمنوا ثم كفروا فَطُبِـعَ على قُلُوبِهِم فَهُم لا يفقهُون » .

استضاءوا بنورِ الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ السعادة ، فانطفأ نورُهم بقَهْرِ الحرمان ، وبقوا فى ظلمات القسمة السابقة بحُـكْمِ الشقاوة .

قوله جل ذكره : « وإذا رَأيْتَهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم وإن يقولوا تَسْمَعْ لقولِهم كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُون كُلَّ صيحةٍ عليهم هم العدُوُّ فاحْذَرْهم ، قَاتَلَهُم اللهُ أنَّىٰ يُؤفَـكُون » .

أى هم أشباحٌ وقوالبُ وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق — فالجوزُ[2] الفارغُ مُزَيَّنٌ ظاهِرُه ولـكنه للعب الصبيان[3] .

« يحسبون كل صيحة عليهم .. » وذلك لِجُبْنِهِم ؛ إذ ليس لهم انتعـاشٌ بربِّهم ، ولا استقلالٌ بغيرهم .

---

(١) سقطت (أعلى) من الناسخ فى م وهى موجودة فى ص .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص « الموض » وقد رجحنا الأولى .

(٣) فى هذه الإشارة تنبيه إلى قاعدة صوفية : أن العبرة بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح (أى الأجساد) .

« هم العدوُّ فاحذرهم » هم عدوٌّ لك — يا محمد — فاحذَرْهم ، ولا يَغُرَّنَّكَ تَبَسُّطُهم في الـكلام على وجهِ التودُّدِ والتقرُّب .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَـكم
رسولُ اللهِ لَوَّوْا رُءوسَهم ورأيْتَهُم
يَصُدُّون وهم مُسْتَـكْبِرون » .

سموا إلى ما يقال لهم على وجه التـكبُّر ، وإظهار الاستغناء عن استغفارك لهم . . تَخَلَّ سبيلَهم ؛ فليس للنُّصح فيهم مساغٌ ، ولن يُصْحِيَهم من سَكْرَتِهم إلَّا حَرُّ ما سيلقونه من العقوبة ، فما دام الإصرارُ من جانبهم فإنهم :

« سواء عليهم أَستَغْفَرْتَ لهم أمْ لم
تَستَغْفِرْ لهم لن يَغفِرَ اللهُ لهم إنَّ اللهَ
لا يَهْدِى القومَ الفاسقين » .

فقد سبق العِلْمُ بذلك :

قوله جل ذكره : « هم الذين يقولون لا تُنفقوا على مَنْ
عِندَ رسولِ اللهِ حتى يَنفَضُّوا وللهِ
خزائنُ(1) السمواتِ والأرضِ ولـكنَّ
المنافقين لا يفقهُون » .

كأنهم مربوطون بالأسباب ، محجوبون عن شهود التقدير ، غيرُ متحقِّقين بتصريف الأيام ، فأنطقَهُم بما خَامَرَ قلوبَهم مِنْ تَمَنِّى انطفاء نورِ رسول الله ، وانتكاث شَمْلهم ، فتواصَوْا فيما بينهم بقولهم : « لا تنفقوا على من عند رسول الله » فقال تعالى « ولله خزائنُ السمواتِ . . . » .

وليس استقلالُك — يا محمد — ولا استقلالُ أصحابِك بالمرزوقين . . بل بالرازق ؛ فهو الذى يمسكـكم .

---

(1) « ولله خزائن السموات والأرض » بهذا أجاب كثيرون من أرباب الطريق كحاتم الأصم والجنيد والشبلى عندما كانوا يسأل أحدهم : من أين تأكل ؟

قوله جل ذكره : « يقولون لئن رَجَعْنا إلى المدينة
لَيُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذَلَّ ولله العزّةُ
ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين
لا يعلمُون » .

إنما وقع لهم الغَلَطُ فى تعيين الأعزّ والأذَلّ ؛ فتوهّموا أنّ الأعزّ هم المنافقون ، والأذلّ هم المسلمون ، ولكن الأمر بالعكس ، فلا جَرَمَ غَلَبَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وأُذِلّ المنافقون بقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » : فلله عزُّ الإلهية ، وللرسول عِزُّ النبوّة ، وللمؤمنين عِزُّ الولاية . . وجميعُ ذلك لله ؛ فعزُّه القديم صِفَتُه ، وعزُّ الرسولِ وعِزُّ المؤمنين له فعلاً ومِنّةً وفَضْلاً ، فإذاً لله العزّةُ جميعاً .

ويقال : كما أنّ عِزّةَ الله — سبحانه — لا زوالَ لها فعزّةُ الأنبياء بأنْ لا عَزْلَ لهم ، وعزّةُ المؤمنين بألا يَبْقَى منهم مُخَلّدٌ فى النار .

ويقال : مَنْ كان إيمانه حقيقياً فلا زوالَ له .

ويقال : مَنْ تعزّزَ بالله لم يلحقْه تغيُّرٌ عن حالِه بغيرِ الله .

ويقال : لا عِزَّ إلّا فى طاعةِ الله ، ولا ذُلّ إلّا فى معصيةِ الله . . وما سوى هذا فلا أصلَ له .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا لا تُلْهِكُم
أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكْرِ الله
ومَن يفعلْ ذلك فأولئك هم
الخاسرون » .

لا تُضَيِّعوا أمورَ دينكم بسبب أموالكم وأولادِكم بل آثِروا حقّ الله ، واشْتَغِلوا به يَكْفِكُم أمورَ دنياكم وأولادكم ؛ فإذا كُنْتَ لله كان اللهُ لك[1] .

---

(١) لنتذكر ما قلناه فى مدخل هذا الكتاب بأن القشيرى نفسه قد ضرب المثل على ذلك حين هاجر من بلده تاركاً أهله فى رعاية الله حينما تعرّضت عقيدته للمحنة .

ويقال: حقُّ اللهِ مما ألزمكَ القيامَ به، وحقُّك ضمن لك القيام به؛ فاشتغِلْ بما كُلِّفْتَ لا بما كُفِيت.

قوله جل ذكره: «وأنفِقُوا من مّا رزقنـٰكُم مِّن قبل أن يأتِيَ أحَدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَّرتنى إلى أجلٍ قريبٍ فأصدَّقَ وأكُن مِّن الصالحين».

لا تغْتَرُّوا بسلامةِ أوقاتِكم، وترَقَّبوا بَغَتاتِ آجالِكم، وتأهَّبوا لما بين أيديكم من الرحيل، ولا تُعرِّجوا فى أوطان التسويف.

سُورَةُ التَّغَابُن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله . . » كلمةٌ عزيزةٌ مَنْ ذَكَرَها يحتاج إلى لسانٍ عزيزٍ فى الغيبة لا يُبْتَذَلُ ، وفى ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَل . ومَنْ عَرَفَها يحتاج إلى قلبٍ عزيزٍ ليس فى كلِّ ناحية منه خليط ، ولا فى كلِّ زاوية زبيط .

قوله جل ذكره : « يُسَبِّحُ لله ما فى السموات وما فى الأرضِ له المُلْكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شىءٍ قديرٌ » .

المخلوقاتُ كلُّها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحةٌ . . ولكن لا يَسْمَع تسبيحَها مَنْ به طَرَشُ النكرة . .

ويقال : الذى طَرَأَ صَمَمُه قد يُرْجَى زواله بنوعٍ معالجة ، أمَّا مَنْ يُولَدُ أصَمَّ فلا حيلةَ فى تحصيلِ سماعِه . قال تعالى : « فإنك لا تُسْمِعُ الموتى »(1) وقال تعالى : « ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعهم »(2).

قوله جل ذكره : « هو الذى خَلَقَكم فمنكم كافرٌ ومنكم مُؤْمِنٌ واللهُ بما تعملون بصير » .

منكم كافرٌ فى سابق حُكْمِه سَمّاه كافراً ، وعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر ... وكذلك

(1) آية ٥٢ سورة الروم .
(2) آية ٢٣ سورة الأنفال .

كانوا . ومنكم مؤمنٌ فى سابق حُكْمِه سَمَّاه مؤمناً ، وعَلِمَ فى آزاله أنه يُؤْمِن وخَلَقَه مؤمناً ، وأراده مؤمناً . . والله بما تعملون بصير .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحقِّ وصَوَّرَكم فأحْسَنَ صُوَرَكُم وإليه المصيرُ » .

« خلق السموات والأرض بالحق » : أى وهو مُحِقٌّ فى خَلْقِه .

« وصوَّركم فأحسن صوركم » لم يَقُلْ لشىء من المخلوقات هذا الذى قال لنا ، صوَّر الظاهرَ وصوَّر الباطنَ ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته ، والباطن شاهدٌ على جلال قربته[1] .

قوله جل ذكره : « يعلم مافى السمواتِ والأرضِ ويعلمُ ما تُسِرُّون وما تُعْلِنون واللهُ عليمٌ بذاتِ الصدور » .

قَصَّروا حِيَلَكُم عن مطلوبكم ، فهو تتقاصر عنه علومُكم ، وأنا أعلمُ ذلك دونَكم . . فاطلبُوا منِّى ، فأنا بذلك أعلم ، وعليه أقدر .

ويقال : « ويعلم ماتسرُّون » . فاحذروا دقيقَ الرياء ، وخَفِىَّ ذات الصدور « وماتعلنون » : فاحذروا أن يخالِفَ ظاهرُكم باطنَكم .

فى قوله « ما تسرُّون » أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربه .

وفى قوله « ما تعلنون » أمرٌ بالصدق فى المعاملة والمحاسبة مع الخَلْق[2] .

قوله جل ذكره : « ألَمْ يأتِكُم نَبَأُ الذين كفروا مِن قَبْلُ فذاقوا وبالَ أمرِهم ولهم عذابٌ

(١) القربة هنا إشارة إلى تميز الإنسان من بين المخلوقات بقيام المحبة بمعناها الخاص بينه وبين الحق سبحانه ، وقد سبق بيان ذلك فى مواضع مختلفة .

(٢) مرة أخرى ننبه إلى ضرورة فهم الفرق بين اصطلاحى : المراقبة والمحاسبة — حسب المنهج القشيرى .

أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رُسُلُهم
بالبيِّنـاتِ فقالوا أبَشَرٌ يَهْدُونـا
فكفروا وتولَّوا واستغنى اللهُ واللهُ
غنيٌّ حميد ».

المراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ ، ومَنْ لم يعتبِرْ عثَرَ فى مَهْوَاةٍ من الأَمَلِ ، ثم لا يَنْتَعِشُ إلّا بعد فواتِ الأمرِ من يده .

« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم . . » . شاهدوا الأمرَ من حيث الخَلْقِ فتطوّحوا فى متاهاتِ الإشكالِ المختلفةِ الأحوال . ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلّصوا من تفرقة الأباطيل ، واستراحوا بشهود[1] التقدير من اختلافِ الأحوالِ ذات[2] التغيير .

قوله جل ذكره : « زَعَمَ الذين كفروا أَنْ لَّن يُبْعَثُوا
قُلْ : بلى وربِّى لَتُبْعَثُنَّ ثم لَتُنَبَّؤُنَّ
بما عَمِلْتُم ، وذلك على اللهِ يسير » .

الموتُ نوعان : موتُ نَفْسٍ ، وموتُ قلبٍ ؛ ففى القيامة يُبْعَثون من موت النَّفْس ، وأمّا موتُ القلبِ فلا بَعْثَ منه — عند كثيرٍ من مخلصى هذه الطائفة ، قال تعالى مُخْبِراً عنهم : « قالوا يا ويلنا مَنْ بَعَثنا من مرقَدِنا ؟ »[3] فلو عرفوه لَمَا قالوا ذلك ؛ فموتُ قلوبهم مُسْتَمِرٌّ إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً ، فهذا الوقتُ وقتُ موتِ قلوبهم .

قوله جل ذكره : « فآمِنوا باللهِ ورسولِهِ والنورِ الذى
أنزلنا واللهُ بما تعملون خبيرٌ » .

« النور الذى أنزلنا » : القرآن . ويجوز أنْ يكونَ ما أنزل فى قلوب أوليائه من السكينة وفنون الألطاف .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (من شهود) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) فى النسختين (ذوى) وقد رأينا أن تكون (ذات) أو (ذوات) .
(٣) آية ٥٢ سورة يس ، والفرق واضحٌ بين هذه المقالة وبين ما قاله أصحاب الكهف المؤمنون .

قوله جل ذكره : « يومَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلكَ يومُ التغابُنِ ومَن يُؤْمِن باللهِ ويَعْمَلْ صَالحًا يُكَفِّرْ عنه سيئاتِه ويُدْخِلْهُ جنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم » .

المطيعُ — يومئذٍ — فى غبن لأنه لم يستكثر من الطاعة ، والعاصى فى غبن لأنه استكثر من الزَّلَّة[1] .

وليسَ كلُّ الغبنِ فى تفاوت الدرجات قِلَّةً وكثرة ، فالغبن فى الأحوال أكثر .

قوله جل ذكره : « ما أصابَ من مصيبةٍ إلَّا بإذنِ اللهِ ومَن يُؤْمِن باللهِ يَهْدِ قلبَهُ واللهُ بكل شىء عليم » .

أىُّ حَصْلةٍ حَصَلَت فمِنْ قِبَلِهِ خَلْقاً ، وبعلمه وإرادته حُكْماً .

ومَنْ يؤمنْ باللهِ يهدِ قلبَه حتى يهتدى إلى الله فى السَّراء والضَّراء — اليومَ — وفى الآخرة يهديه إلى الجنة .

ويقال : « يهدِ قلبه » للأخلاق السنيَّة ، والتنقِّى من شُحِّ النفْس .

ويقال : « يهدِ قلبه » لاتِّباع السُّنَّةِ واجتنابِ البِدْعة .

قوله جل ذكره : « وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ فإن تَوَلَّيْتُم فإنَّما على رسولِنا البلاغُ المبينُ » .

---

(١) قال بعض الصوفية : إن الله كتب الغبن على الخَلْقِ أجمعين ، فلا يلقى أحدٌ ربَّه إلا مغبوناً ؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب ، وفى الأثر قال النبى (ص) : « لا يلقى اللهَ أحدٌ إلا نادماً إن كان مسيئاً إن لم يحْسِن ، وإن كان محسناً إن لم يزدد» القرطبى حـ ١٨ ص ١٣٨ .

طاعةُ اللهِ واجبةٌ ، وطاعةُ الرُّسُلِ — الذين هم سفراء بينه وبين الخَلْقِ — واجبةٌ كذلك . والأنوار التي تظهر عليك[1] وتطالَبُ بمقتضياتها كلُّها حقٌّ ، ومن الحقّ . . فتجب طاعتُها أيضاً .

قوله جل ذكره : « يـٰأيها الذين آمنوا إنَّ مِنْ أزواجِكُمْ وأولادِكم عَدُوًّا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفِروا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم » .

إذا دَعَوْكَ لتجمعَ لهم الدنيا فهم عدوٌّ لك ، أمَّا إذا أخذتم منها على وجه العفاف[2] فليسوا لكم أعداء

قوله جل ذكره : « إنَّما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ واللهُ عندَه أجرٌ عظيم » .

« فتنة » : لأنهم يشغلونكم عن أداء حقِّ الله ؛ فما تَبْقَ عن الله مشغولاً بجمعه فهو غيرُ ميمونٍ عليك .

ويقال : إذا جمعتم الدنيا لغير وَجْهِه فإنكم تُشغَلُون بذلك عن أداء حقِّ مولاكم ، وتشغلكم أولادُكم ، فتبقون بهم عن طاعة الله — وتلك فتنةٌ لكم . . ترومون إصلاحَهم . فتفسدون أنتم وهم لا يُصْلَحون ! .

قوله جل ذكره : «فاتقوا اللهَ ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفِقوا خيراً لأنفسِكُم ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأولئك هم المُفلِحون » .

---

(١) الخطاب هنا موجهٌ إلى صاحب الأحوال والكشوفات .

(٢) عَفَّ عفَّةً وعفافاً أي كفَّ عما لا يحل ولا يجمل . ويقال : هم أعفَّة الفقر ، أي : إذا افتقروا لا يسألون . (الوسيط) .

أى ما دمتم فى الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا اللهَ . والتقوى عن شهود التقوى بعد ألا يكونَ تقصيرٌ فى التقوى غايةُ التقوى .

« ومن يوقَ شُحَّ نَفْسِه » حتى ترتفعَ الأخطارُ[1] عن قلبه ، ويتحرَّر من رِقِّ المكونات ، فأولئك هم المفلحون .

قوله جل ذكره : « إن تُقْرِضوا اللهَ قرضاً حَسَنًا يُضاعِفْهُ لكم ويغفِرْ لكم واللهُ شكورٌ حليم ».

يتوجَّه بهذا الخطاب إلى الأغنياء لِبَذْلِ أموالهم ، وللفقراء فى إخلاء أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثارِ مرادِ الحقِّ على مرادِ أنفسِهم .

فالغنىُّ يُقال له : آثِرْ حُكْمِى على مرادك فى مالِك ، والفقيرُ يقال له : آثِرْ حُكْمِى فى نَفْسِك وقلبك ووقتك وزمانك .

« عالِمُ الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الحكيم » .

جلَّ شأنه .

---

(١) المقصود بالأخطار هنا : حسبان أن للشىء أهميةً وشأناً .

سُورَةُ الطَّلَاق

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمُ مَنْ لاسبيلَ إلى وِصاله ، ولا غُنْيَةَ — فى غيره — عن فِعاله ، اسمُ مَنْ عَلِمَهُ وقع فى كل سكونٍ وراحة ، اسمُ مَنْ عرَفَه وقع فى كل اضطراب وإطاحة[1]، العلماء بسراب علمهم استقلوا فاستراحوا ، والعارفون بسلطانِ حُكْمِهِ اصْطُلِموا عن شواهدِهم .. فبادوا وطاحوا .

قوله جل ذكره : « يٰأيها النبىُّ إذا طَلَّقْتُمُ النساءَ فطلِّقوهن لعدَّتِهِنَّ وأحصوا العِدَّةَ
وأتقوا اللهَ ربَّكم ... » .

الطلاقُ — وإنْ كان فراقاً — فلم يجعله الحقُّ محظوراً . . . وإن كان من وجهٍ مكروها .

وللطلاق وقتية[2] : سُنِّيَّة وبِدْعية ، ومباحة ، لا سنية ولا بدعية ؛ فالسنية : أنْ تطلِّقَ فى طُهْرٍ لم تُباشَر فيه طلقةً واحدة ، والبدعية : فى حال الحيض وطُهْرٍ جُومعت فيه ، والمباحة : فى طهر بعد حيض ثم يطلقها من قبل أن يجامعها[3] — والطلاق أكثر من واحدة .

---

(١) أطاحه إطاحةً أى أفناه وأذهبه .

(٢) أى وجوه مرتبطة بأوقات خاصة . روى الدارقطنى عن ابن عباس قال : الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ووجهان حرامان : فأما الحلال فأن يطلقها طاهراً من غير جماع ، وأن يطلقها حاملا مستبيناً حَمْلُها . وأما الحرام فأن يطلقها وهى حائض ، أو يطلقها حين يجامعها لا تدرى اشتمل الرَّحِم على ولدٍ أم لا .

(٣) قال السُّدِّى : نزلت فى عبد الله بن عمر طلَّق امرأته حائضاً تطليقةً واحدة ، فأمره رسول الله (ص) بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر ، فإذا أراد أنْ يطلقها فليطلقها حين تطهر — من قبل أن يجامعها .
ويقال : إنها نزلت فى أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية .. فلم يكن قبلها للمطلقة عدَّة ، وحين طلقت على عهد النبى (ص) طلقت بالعدة (هكذا فى كتاب أبى داود) .

والعِدّةُ — وإن كانت فى الشريعة لتحصين ماء الزوج (محاماة على الأنساب)[1] لئلا يدخل على ماء الزوج ماءُ آخر — فالغالبُ والأقوى فى معناها أنها للوفاء للصحبة الماضية فى وصلة النكاح[2].

والإشارة فى الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلَّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التى لم تحِضْ ، وهذه الآيسة من الحيض ، وتلك التى انقطع حَيْضُهَا ، والحُبْلَى حتى تلد . . . كل ذلك مراعاةً للحرمة : وعِدّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة فى كونها أطول؛ لأن حُرْمَة الميت أعظم[3] وكذلك الإمداد فى أيام العِدّة . . . المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : « وتِلْكَ حدودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حدودَ اللهِ فقد ظَلَمَ نَفْسَه » .

العبوديةُ : الوقوف عند الحدّ ، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه ، ومَنْ راعى مع اللهِ حَدَّه أخلص اللهُ له عَهْدَه . .

« لا تدرى لعلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعد ذلك أمراً » .

قالوا : أراد نَدَماً ، وقيل : وَلَداً ، وقيل : مَيْلاً إليها ، أولها إليه ؛ فإن القلوبَ تتقلب :

والإشارة فى إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبرُ مع الأشكال حقًّا للحرمة المتقدمة فالخلاصُ من مُسَاكنة الأمثال ، والتجرُّدُ لعبادة الله تعالى أَوْلَى وأَحَقُّ .

قوله جل ذكره : « ومَن يتَّقِ اللهَ يجعل لَهُ مَخرَجاً * ويَرْزُقْهُ من حيث لا يَحْتَسِبُ » .

---

(١) موجودة فى ص وغير موجودة فى م .

(٢) القشيرى يركز جهده فى استخراج إشارات فى الصحبة والصاحب وغير ذلك من المعانى من آيات الطلاق — غير مهم بتفاصيل هذا الموضوع الواسع الذى تعنى به كتب الفقه المتخصصة .

(٣) يقول القشيرى فى الصفحة ١٨٨ من المجلد الأول من هذا الكتاب : كانت عِدّةُ الوفاة فى ابتداء الإسلام سنة مستديمة كقول العرب ؛ وفعلهم ، ثم نُسِخَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ إذ لابدَّ من انتهاء مدة الحداد . « وللمطلقات متاعٌ بالمعروف » والإشارة فيه ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .

إذا صَدَقَ العبدُ فى تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تخْرُجُ من بين العجين لا يَعْلَقُ بها شيء - ويضربُ الله تعالى على المُتَّقِى سرادقاتِ عنايته ، ويُدْخِلُه فى كنف الإيواء ، ويَصْرِفُ الأشغال عن قلبه ، ويُخْرِجُه من ظلمات تدبيره ، ويُجَرِّدُه من كل أمر ، وينقله إلى شهود قضاء تقديره .

قوله جل ذكره : « ومَن يتوكلْ على اللهِ فهو حَسْبُه ».

لم يقل : ومَنْ يتوكل على الله فتوكُّلُه حَسْبُه ، بل قال : فهو حسبه ؛ أى فاللهُ حَسْبُه أى كافيه .

« إنَّ اللهَ بالغُ أمرِه قد جعل اللهُ لكلِّ
شىء قَدْراً » .

إذا سَبَقَ له شىء من التقدير فلا محالةَ يكون ، وبتوكُّله لا يتغير المقدور ولا يستأخر ، ولكنَّ التوكُّلَ بنيانه على أنْ يكونَ العبدُ مُرَوَّحَ القلب غيرَ كارهٍ .. وهذا من أجَلِّ النِّعم .

قوله : « واللائى يئِسْنَ من المحيض » . . . إلى قوله :
« يجعل لَهُ من أمره يُسْرًا » .

التوكلُ : شهود نَفْسِكَ خارجًا عن المُنَّة[1] تجرى عليكَ أحكامُ التقديرِ من غيرتدبيرٍ منك ولا اطّلاعٍ لكَ على حُكْمِه ، وسبيلُ العبدِ الخمودُ والرضا دونَ استعلامِ الأمر ، وفى الخبر : « أعوذ بك من عِلْمٍ لاينفع » : ومن العلم الذى لاينفع — ويجب أنْ تستعيذَ منه — أن يكون لك شُغْلٌ أو يستقبلك مُهِمٌّ من الأمر ويشتبه عليك وجهُ التدبيرِ فيه ، وتكون مُطَالَبًا بالتفويض — فطَلَبُكَ العلم وتمنِّيكَ أنْ تعرفَ متى يصلح هذا الأمرُ ؟ ولأى سَبَبٍ ؟ ومِنْ أىِّ وجهٍ ؟ وعلى يد مَنْ ؟ . . . كل هذا تخليطٌ ، وغيرُ مُسَلَّمٍ شىء منه للأكابر .

فيجب عليك السكونُ ، وحُسْنُ الرضا . حتى إذا جاء وقتُ الكَشْفِ فترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينتظر العبدُ فى هذه الحالة تعريفًا فى المنام أو ينظر فى (...)[2] من الجامع ،

(١) المُنَّة بضم الميم هى ما فى إمكان الإنسان وحيله واستطاعته .
(٢) مشتبهة فى النسختين .

أو يرجو بيان حاله بأن يجرى على لسان مستنطق فى الوقت . . كلُّ هذا تركٌ للأدب ، والله لا يَرْضَى بذلك من أوليائه ، بل الواجبُ السكونُ .

قوله جل ذكره : « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ، ومَن قُدِرَ عليه رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتاه اللهُ لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا ما آتاها » .

إذا اتسع رزقُ العبد فعلى قَدْرِ المُكنَةِ يُطَالَبُ بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه — أى ضُيِّق — فلينفق مما آتاه الله أى من متاع البيت ، ومن رأسِ المال — إن لم يكن من الربح ، ومن ثمنِ الضيعة — إن لم يكن من الغَلَّة .

ومَنْ ملك ما يكفيه للوقت ، ثم اهتمَّ بالزيادة للغد فذلك اهتمامٌ غيرُ مرضىٍّ[1] عنه ، وصاحبُه غير مُعَان . فأمَّا إذا حصل العجزُ بكلِّ وجهٍ ، فإن الله تعالى : لا يكلف نفساً إلَّا ما آتاها ، وسيجعل الله بعد عسرٍ يسرًا . هذا من أصحاب المواعيد — وتصديقه على حسب الإيمان ، وذلك على قَدْرِ اليقين — ويقينه على حسب القِسْمة . وانتظارُ اليُسْرِ[2] من اللهِ صفةُ المتوسطين فى الأحوال ، الذين انحطُّوا عن حدِّ[3] الرضا واستواء وجودِ السبب وفَقْدِه ؛ وارتقوا عن حدِّ اليأس والقنوط ، وعاشوا فى أفياء[4] الرجال يُعَلِّلون[5] بحُسْنِ المواعيد . . وأبداً هذه حالتهم وهى كما قلنا[6] :

إنْ نابَكَ الدهرُ بمكروهِهِ فعِشْ بتهوين تصاريفه

فعَنْ قريبٍ ينجلى غَيْمُه وتنقضى كلُّ تصاريفه

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (مرحوم) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص . (البرّ) وقد آثرنا الأولى نظراً لسياق الآية ذاتها .

(٣) هكذا فى م وهى فى ص (درجة) وقد آثرنا الأولى بدليل ورودها فيما بعد .

(٤) هكذا فى ص ولكنها فى م (الفناء) والصواب الأولى .

(٥) أى يُشْكِّلون النفس .

(٦) أى أن النص الشعرى للقشيرى نفسه . (انظر القشيرى الشاعر فى كتابنا : الإمام القشيرى)

قوله جل ذكره : « وكأيّن من قريةٍ عَتَتْ عن أمرِ ربِّها
ورُسُلِه فحاسَبْنَاها حِسابًا شديدًا
وعَذَّبْناها عذابًا نُكرًا * فذاقت
وبالَ أمرِها وكان عاقبةُ أمرِها
خُسْرًا » .

مَنْ زرع الشوكَ لم يَجْنِ الوردَ ، ومَنْ أضاع حقَّ اللهِ لا يُطَاع فى حظّ نَفْسه[1] . ومن اجترأ[2] بمخالفةِ أمرِ الله فليصبِرْ على مقاساة عقوبة الله .

قوله جل ذكره : « قد أنزلَ اللهُ إليكم ذِكرًا *
رسولاً يتلوا عليكم آياتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ
من الظلماتِ إلى النُّورِ » .

إنَّ كتابَ اللهِ فيه تبيانٌ لكلِّ شيء . . فَمَن استضاء بنوره اهتدى ، ومَنْ لجأ إلى سعة فنائه وَصَلَ من داء الجهل إلى شِفائه[3] .

ومَنْ يؤمِنْ بالله ، ويعمل صالحًا لله ، وفى الله ، فله دوامُ النُّعمى من الله . . قال تعالى :
« قد أحسن اللهُ له رِزْقًا » .

والرزقُ الحسنُ ما كان على حدِّ الكفاية ؛ لا نقصانَ فيه تتعطَّلُ الأمورُ بسببه ، ولا زيادةَ فيه تَشْغَلُه عن الاستمتاع بما رُزِق لحِرْصِه .

كذلك أرزاقُ القلوبِ . أحسنُها أن يكون له من الأحوال ما يشتغل به فى الوقت ؛ من غير

---

(1) هكذا فى ص وهى أصوب مما فى م (حق نفسه) فالحقوق لله والحظوظ للعبد .
(2) هكذا فى ص وهى أصوب مما فى م (احترق) فسياق الآية يوحى بذلك .
(3) أصل الجملة (وصل إلى شفائه من داء الجهل) .. ولكن حرص القشيرى على التركيب الموسيقى دفعه إلى هذه الصياغة .

نقصان يجعله يتعذّب بتعطّشه ، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خطرٍ من مغاليطَ لا يَخرُجُ منها إلّا بتأييدٍ سماويٍّ من الله[1] .

قوله جل ذكره : « اللهُ الذى خَلَقَ سَبْعَ سمواتٍ ومن

الأرض مِثْلَهنَّ يَتَنَزَّلُ الأمرُ بينهنَّ

لتعلموا أنَّ اللهَ على كل شىء قديرٌ

وأن اللهَ قد أحاط بكلِّ شىء علمًا » .

خَلَقَ سبعَ سمواتٍ ، وخَلَقَ ما خَلَقَ وهو مُحِقٌّ فيما خَلَقَ وأمر ، حتى نعلم استحقاقَ جلاله وكمالَ صفاته ، وأنه أمضى فيما قضى حُــكماً ، وأنه أحاط بكل شىء علماً .

(١) رأى القشيرى فى « الرزق الحسن » مفيد فى دراسة الجانب النفسى عند الصوفية ، والحدود التى يبدأ عندها الصراع الداخلى ، وآفات ذلك ، وعلاجه .

سُورَةُ التَّحريم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . اسمٌ عزيزٌ يُمهِل مَنْ عصاه ، فإذا رجع وناداه . . أجابه ولبَّاه[1] فإنْ لم يتوسَّل بِصِدْقِ قَدَمِه في ابتداء أمره ثم تَنَصَّلَ بصِدْقِ نَدَمِه في آخر عمره أوْسَعَه غفراً[2] ، وقبل منه عُذْرًا ، وأكْمَلَ له ذُخْراً ، وأجْزَلَ له بِرًّا .

قوله جل ذكره : « يٰأيها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ لَكَ تبتغى مرْضاتَ أزواجِكَ واللهُ غفورٌ رَّحيم » .

جاء في القصة : أن النبي صلى الله عليه وسلم حَرَّم على نفسه مارية القبطية ، وفي الحال حَلَفَ ألاَّ يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة حيث رأت النبي صلى الله عليه وسلم معها في يومها[3] .

وقيل : حَرَّمَ على نَفْسِه شرْبَ العسل لمَّا قالت له زوجاته ، إنَّا نشم منك ريح المغافير ! — والمغافير صمغ في البادية كريه الرائحة ، ويقال : بقلة كريهة الرائحة . . . فعاتَبَه اللهُ على ذلك .

وهى صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصغائر عليه ، وتَرْكٌ للأَوْلَى على مذهب مَنْ لم يجوِّز .

---

(1) هكذا في م وهي في ص (أبكاه) وهي خطأ في النسخ .

(2) هكذا في م وهي في ص (عفواً) وهي وإن كانت مقبولة إلا أن التركيب الموسيقي يجعلنا نؤثر (غفراً).

(3) الدارقطني عن ابن عباس عن عمر قال : دخل الرسول (ص) بأم ولده مارية في بيت حفصة وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت : تدخلها بيتي ! ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهي حرام عليَّ إن قربتها .

وقيل : إنه طَلَّقَ حفصة طلقةً واحدة ، فأمره الله بمراجعتها ، وقال له جبريل : إنها صوّامةٌ قوّامة.

وقيل : لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطليقها فمنعه اللهُ عن ذلك .

وقيل : لمّا رآه حفصة مع مارية فى يومها قال لها : إنّى مُسِرٌّ إليك سِرًّا فلا تخبرى أحداً : إنَّ هذا الأمر يكون بعدى لأبى بكر ولأبيك .

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة ، وأوحى الله له بذلك ، فسأل النبيُّ حفصة : لِمَ أخبرتِ عائشة بما قلت ؟ .

فقالت له : ومَنْ أخبرك بذلك ؟ قال أخبرنى الله ، وعَرَّفَ حفصةَ بعضَ ما قالت ، ولم يصرِّحْ لها بجميع ما قالت ، قال تعالى : « عرّف[1] بعضه وأعرض عن بعض » ، فعاتبها على بعضٍ وأعْرَضَ عن بعض — على عادة الكِرام .

ويقال : إن النبى — صلى الله عليه وسلم — لمّا نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من كل قاطعٍ يقطعنى عنك » .

وظاهرُ هـــذا الخطاب[2] عتابٌ على أنَّه مراعاةً لقلب امرأته حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّ اللهُ له .

والإشارةُ فيه : وجوبُ تقديم حقِّ الله — سبحانه — على كل شيء فى كل وقت .

قوله جل ذكره : « قد فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانِكمْ واللهُ مولاكم وهو العليمُ الحكيم » .

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام ، وتجاوزاً عنه . وقيل : إنه كَفَّرَ بعتق رقبة ، وعاوَدَ مارية .

---

(١) وفى قراءة «عَرَفَ» بدون التشديد : أى غضب فيه وجازى عليه ، وهو كقولك لمن أساء إليك : لأعرفن لك ما فعلت أى : لأجازينَّك عليه ، وجازاها النبى بأن طلقها طلقة واحدة . وكان أبو عبد الرحمن السلمى يحصب بالحجارة من يقرأها مشددة .

(٢) أى « يأيها النبى لم تُحرِّم ما أحلَّ الله لك .. »

واللهُ — سبحانه — أجرى سُنَّتَه بأنه إذا ساكَن عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوَّشَ على خواصهِّ محلٌّ مـا ساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أنْ يُعَاوِدَ ربَّهُ ، ثم يكفيه ذلك — ولـكن بعد تطويل مدةٍ ، وأنشدوا فى معناه :

إذا عُلِّقَت روحى حبيباً تعلَّقت به غِيَرُ الأيام كى تَسْلُبَنِّيَهْ

وقد ألقى الله فى قلبِ رسوله صلى الله عليه وسلم تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن(١) ، وما كان من حديث طلاق حفصة ، وما عاد إلى قلب أبيها ، وحديث الـكفاية ، وإمساكه عن وطء مارية تسعًا وعشرين ليلة ... كل ذلك غَيْرَةً من الحق عليه ، وإرادتُه — سبحانه — تشويشُ قلوبهم حتى يكون رجوعُهم كلُّهم إلى الله تعالى بقلوبهم .

قوله جل ذكره : « إنْ تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبُكُما وإن تظاهرا عليه فإنَّ اللهَ هو مولاهُ وجبريلُ وصالِحُ المؤمنينَ والملائكةُ بعد ذلك ظهير » .

عاتبهما على السير من خَطَرَاتِ القلب ، ثم قال : « وإن تظاهرا عليه ... » .

« صالح المؤمنين » مَنْ لم يكن منهم فى قلبه نفاق ، مثل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وجاء : أن عمر بن الخطاب لمـا سَمِعَ شيئًا من ذلك قال لرسول الله :

لو أمرتنى لأضربنَّ عُنُقَها ! (٢)

---

(١) دخل عليه عمر فى المشربة فإذا هو مضطجعٌ على حصير قد أثَّر فى جنبه ، وبجواره قبضة من شعير وتكاد خزانته تخلو من كل شيء فبكى عمر وقال : ياننبىَّ الله .. أنت رسول الله .. وذاك قيصر وكسرى فى الثمار والأنهار ، فقال النبى : يابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ فقال عمر : إن كان يشق عليك من أمر النساء .. فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون ! ولم يزل يحدثه حتى تبسَّم صلوات الله عليه وخرجا إلى الناس .

(٢) لما سمع عمر الناس بالمسجد يقولون : لقد طلق الرسول نساءه ! غضب وذهب إلى بيت النبى ليعلم الأمر فذهب أولاً إلى عائشة وقال : يابنة أبى بكر أقد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله ؟ فقالت : يابن الخطاب عليك بعيبتك ، فاتجه إلى حفصة وقال : والله لقد علمت أن رسول الله لايحبك ولولا أنا لطلقك.. فبكت بكاءً شديداً . وذهب إلى رسول الله قائلا : والله لئن أمرنى رسول الله بضرب عنق ابنتى لفعلت .

والعتاب فى الآية مع عائشة وحفصة رضى الله عنهما إذ تكلمتا فى أمر مارية .

ثم قال تعالى زيادةً فى العتاب وبيان القصة :

« عسى رَبُّه إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبْدِلَهُ أزواجًا خيراً مِّنكُنَّ مسلمات مُؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيِّبات وأبكاراً » .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا قُوا أنفُسَكُم وأهليكُم ناراً وَقُودُها الناسُ والحجارةُ » .

أى : فقِّهوهم ، وأدِّبوهم ، وادعوهم إلى طاعة الله ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم .

ودلَّت الآيةُ : على وجوبِ الأمرِ بالمعروف فى الدِّين للأقرب فالأقرب .

وقيل : أظهِرُوا من أنفسكم العبادات ليتعلَّموا منكم ، ويعتادوا كعادتكم .

ويقال : دلُّوهم على السُّنَّةِ والجماعة .

ويقال : عَلِّموهم الأخلاقَ الحِسان .

ويقال : مُرُوهم بقبول النصيحة .

« وقودها الناس والحجارة » : الوقود : الحطب .

ويقال : أمر الناس يصلح بحجرة أو مَدَرَة ، فإن أصل الإنسان مدرة ، ولو أنه أقام حَجَرَةً مقامَ مَدَرة فلا غروَ من فَضْلِ الله .

اللهمَّ فألقِ فيها بَدَلنا حَجَراً وخلِّصْنا منها .

قوله جل ذكره : « يأيها الذين كفروا لا تعتَذِروا اليومَ إنمَّا تُجزَوْنَ ما كنتم تعملون » .

إذا فاتَ الوقتُ استفحل الأمرُ ، وانغلق البابُ ، وسقطت الحِيَلُ . . فالواجبُ البدارُ والفرارُ لتصل إلى رَوْحِ القَرار .

قوله جل ذكره : « يٰأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً
نصوحاً عسى رَبُّكُم أن يُكَفِّرَ
عنكم سيئاتِكم ويُدْخِلَكُم جنّات
تجرى من تحتها الأنهارُ »

التوبةُ النصوحُ : هى التى لا يَعقُبها نَقْضٌ .

ويقال : هى التى لا تَراها من نَفْسِك ، ولا ترى نجاتَكَ بها ، وإنما تَراها بربِّك.

ويقال: هى أنْ تجدَ المرارةَ فى قلبك عندذكر الزَّلَّة كما كُنْتَ تجد الراحةَ لنفسك عندفعْلها .

قوله جل ذكره : « يومَ لا يُخْزِى اللهُ النبىَّ والذين آمنوا
معه نُورُهُم يسعى بين أيديهم وبأيْمانِهم
يقولون : رَبَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا واغفِرْ
لنا إنَّك على كل شىء قدير » .

لا يُخزِى اللهُ النبىَّ بِتَرْكِ شفاعته ، والذين آمنوا معه بافتضاحهم بعد ما قَبِلَ فيهم شفاعته .

« نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » عبَّر بذلك عن أنَّ الإيمانَ من جميع جهاتهم .

ويقال : بأيمانهم كتابُ نجاتهم : أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم ، وما يخصُّهم اللهُ به من الأنوارِ فى ذلك اليوم .

« يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا » : يستديمون التضرُّعَ والابتهالَ فى السؤال[1] .

قوله جل ذكره : « يٰأيها النبىُّ جاهِدِ الكفَّارَ والمنافقين واغلُظْ
عليهم ومأواهم جهنَّمُ وبئس المصير » .

أمَرَه بالمُلاينَةِ فى وقت الدعوة ، وقال : « وجادلهم بالتى هى أحسنُ »[2] ثم لمَّا أصرُّوا — بعد بيان الحُجَّةِ — قال : « واغْلُظْ عليهم » : لأن هذا فى حالِ إصرارهم ، وزوالِ أعذارهم .

---

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الصوفية من بعيد كى لا يكفوا عن التضرع والابتهال قط فإن خير العمل أدومه ؛ فالاستدامة شرط أساسى لأن الطريق الصوفى طويل وشاق .

(٢) آية ١٢٥ سورة النحل

قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للذين كفروا امْرَأَةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ كَانَتَا تَحتَ عَبْدَيْنِ من عبادنا صالحيْن فخَانَتَاهُما فلم يُغْنيا عَنْهُمَا من الله شيئاً ، وقيل ادْخُلا النارَ مع الداخلين » .

لمَّا سَبَقَتْ لهما الفُرْقَةُ يومَ القِسْمة لم تنفعْهما القربةُ يومَ العقوبةُ .

قوله جل ذكره : « وضَربَ اللهُ مثلاً للذين آمنوا امرأةَ فِرْعَونَ إذ قالت ربِّ ابْنِ لى عندك بيتاً فى الجنة ونجِّنى من فرعونَ وعَمَله ونجِّنى من القومِ الظالمين » .

قالوا : صغرت هِمَّتُها حيث طلبت بيتاً فى الجنة ، وكان من حقِّها أنْ تطلب الكثير .. ولا كما تَوهَّموا : فإنها قالت : ربِّ ابن لى عندك ، فطلبَتْ جوارَ القربة ، ولَبيْتٌ فى الجوار أفضلُ من ألف قصرٍ فى غير الجوار . ومن المعلوم أنَّ العندِيَّةَ هنا عِندِيَّةُ القربة والكرامة .. ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره ، وله خصوصية . وفى معناه أنشدوا :

إنى لأحْسُد جارَكم لجواركم ... طُوبى لمَن أضحى لدارِكَ جاراً
يا ليت جارَكَ باعنى من داره ... شِبْرًا لِأُعطيه بِشِبْرٍ داراً

قوله جل ذكره : « ومَريَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ التى أحْصنَتْ فَرْجَهَا فنفَخْنا فيه من رُوحِنَا وصدَّقَت بكلمات ربِّها وكُتُبه وكانت من القانتين » .

خَتَمَ السورةَ بذِكْرِها بعد ما ذكر امرأة فرعون ، وهما من جملة النساء ، ولمَّا كثُرَ فى هذه السورة ذِكْرُ النساء أراد اللهُ سبحانه ألَّا يُخْلِىَ السورةَ من ذكرها تخصيصا لقدْرِها[1]

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (لذكرها) والصواب ما أثبتنا . وجميل من القشيرى أن يلفت نظرنا إلى هذا الملحظ — الذى نظن — والله أعلم — أنه فيه تنبيهاً لنساء النبى بعرض نموذجين لامرأتين صالحتين عزفتا عن الدنيا .

سورة الملك (١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » اسمُ مَنْ لم تَتَعطّر القلوبُ إلّا بنسيمِ إقبالِهِ ، ولم تتقطّر الدموعُ إلّا للوعة فراقه أو روْحِ وصاله ؛ فدموعُهم فى كلتا الحالتين مُنْسكبة ، وقلوبُهم فى عموم أحوالهم مُلْتَهِبَة وعقولُهم فى غالب أوقاتهم مُنْتَهَبَة .

قوله جل ذكره : « تباركَ الذى بيدِه المُلْكُ وهو عَلَى كلِّ شىءٍ قدير » .

تَقَدَّسَ وتعالَى ، مَنْ إحسانهُ تَواتَرَ وتَوالَى ، فهو المتـكبِّرُ فى جلالِ كبريائه ، المتعزِّد فى علاء بهائه ودوامِ سنائه .

« بيده المُلك » : بقدرته إظهارُ مايريد ، وهو على كل شىء قدير .

« الذى خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكم أحْسَنُ عملاً وهو العزيزُ الغفور » .

خَلَقَ الموتَ والحياةَ ، ابتلاء للخَلْق ، يختبرهم ليَظْهَرَ له شكرانُهم وكفرانُهم ، كيف يكونان عند المحنة فى الصبر وعند النعمة فى الشكر — وهو العزيز الغفور .

« الذى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواتٍ طِباقاً مَّا تَرَىٰ فى خَلْقِ الرحمٰنِ مِن تفاوت فارجِعِ البصرَ هل ترى من فُطُورٍ؟ »

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم بشأن هذه السورة : « هى المانعة هى المنجية تنجيكم من عذاب القبر » .

عرَّفهم كمالَ قدرتِه بدلالات خَلْقِه ، فسَمَكَ السماء وأمسكها بلا عَمَد ، وركَّبَ أجزاءها غيرَ مُستعينٍ بأحدٍ فى خَلْقِها ، وبالنجومِ زَيَّنَهَا ، ومِنَ استراقِ سمعِ الشياطين حَصَّنَها ، وبغيرِ تعليمِ مُعَلِّمٍ أحكمها وأتقنها .

« ما ترى فى خَلْقِ الرحمن من تَفَاوُتٍ ، فارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ من فُطُور ؟ » : لا ترى فيما خَلَقَ تفاوتاً ينافى آثارَ الحكمة ولا يدل على كمالِ القدرة .

ويقال : ما ترى فيها تفاوتاً ، فى استغنائه عن الجميع . . «ماترى فيها تفاوتاً فى الخَلْق ؛ تَخَلُّقُ الكثير واليسير عنده سيَّان ، فلا يَسْهُلُ عنده القليلُ ولا يَشُقُّ عليه الكثير ؛ لأنه مُتَنَزِّهٌ عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به .

فأنعِمِ النظرَ ، وكَرِّرِ السَّبْرَ والفِكْرَ . . فلن تجد فيها عيباً[1] ولا فى عِزِّه قصوراً .

قوله جل ذكره : « ولقد زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رُجوماً للشياطينِ وأعْتَدْنا لهم عذابَ السعير » .

زَيَّنَ السماء بالكواكب والنجوم ، وزَيَّنَ قلوبَ أوليائه بأنواعٍ من الأنوار والنجوم ؛ فالمؤمنون قلوبُهم مُزَيَّنَةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأمُّلِ البرهان ، ثم بالتوفيق لطلب البيان . والعارفون قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بشمسِ التوحيد ، وأرواحهُم مُزَيَّنَةٌ بأنوار التفريد ، وأسرارُهم مزينةٌ بآثارِ التجريد[2] . . وعلى القياس : لكلِّ طائفةٍ أنوارٌ .

« وجعلناها رُجوماً للشياطين » : فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم ، ومنها ما هو للاهتداء به معلوم . . فأخبر أن هذا القَدْرَ من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفى ، وإنما يُعَذِّبهم مؤبَّدين فى السعير .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (عبثا) .

(٢) يميز الكلاباذى بين التفريد والتجريد فيقول (ملخصاً) :

التجريد : أن يتجرد بظاهره عن الأعراض وباطنه عن الأعواض ، يفعل ذلك لوجوب حقِّ الله تعالى لا لعلة غيره ولا لسبب سواه ، ويتجرد بسره عن المقامات والأحوال التى ينازلها .

والتفريد : أن ينفرد عن الأشكال ، وينفرد فى الأحوال ، ويتوحد فى الأفعال ويغيب عن رؤية أحواله برؤية محوِّلها ولا يأنس بأشكاله ولا يستوحش (التعرف ص ١٣٢) .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا بربِّهم عذابُ جهنَّم
وبئسَ المصير * إذا أُلقُوا فيها سَمِعوا
لها شهيقاً وهى تَفُور * تكادُ تَمَيَّزُ من
الغيظِ كُلَّما أُلقِىَ فيها فَوْجٌ سألهم
خَزَنَتُها ألمْ يأتِكم نذير ؟ » .

أخبر : أنهم يحتَجُّ عليهم بإرسال الرسل ، فتقول لهم الملائكةُ : ألم يأتكم نذير ؟

« قالوا : بلى قدجاءنا نذيرٌ فكذَّبنا
وقُلنا ما نَزَّلَ اللهُ من شىء إنْ أنتم
إلا فى ضلالٍ كبير * وقالوا لو كُنَّا
نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنَّا فى أصْحَاب
السَّعير » .

« وقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ . . » فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول ، فاستوجبوا العقوبة لأَجْلِه[1] ، لم يسمعوا نصيحةَ الناصحين ولا وَعْظَ الواعظين ، ولا ما فيه لقلوبهم حياة .

وفى الآية للمؤمنين بشارة ؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون ؛ فإنَّ مَنْ سَمِعَ بالحقِّ سمع كل ما يقال عن الحق مِنْ كل مَنْ يقول عن الحق ، فيحصل له الفهم لما يسمع ، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُهُ من الله وبالله وفى الله .

قوله جل ذكره : « فاعترفوا بِذَنبِهم فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ
السعير » .

اعترفوا بذنبهم ولكن فى غير وقت الاعتراف . . فلا جَرَمَ يقال لهم : « فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعير » .

---

(1) من الآية ومن إشارتها يتضح : أن العقوبة لا تكون إلا بعد إرسال الرسل الذين يَبْسُطُون الحجة ويسقطون العلة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهم بِالْغَيْبِ

لهم مَغفِرةٌ وأجْرٌ كبير » .

الخشيةُ توجِب عدمَ القرار(1) فيكون العبدُ أبداً — لانزعاجه — كالحبِّ على المَقْلَى ؛ لا يَقَرُّ ليلَه أو نهارَه ، يتوقَّعُ العقوباتِ مع مجارى الأنفاس ، وكلّما ازداد فى الله طاعةً ازداد لله خشيةً .

قوله جل ذكره : « وأسِرُّوا قولَكم أوِ اجْهَرُوا به

إنَّه عليمٌ بذاتِ الصُّدور » .

خوَّفَهم بعِلْمِه ، وندَبَهم إلى مراقبته ؛ لأنه يعلم السِّرَّ وأخفى ، ويسمع الجَهْرَ والنجوى . . ثم قال مُبَيِّناً :

« ألاَ يعلمُ مَنْ خلَقَ وهو اللَّطيفُ

الخبير » .

وفى كل جُزْءٍ مِنْ خَلْقِه — من الأعيانِ والآثارِ — أدلةٌ على علمه وحكمه .

قوله جل ذكره : « هو الذى جَعَلَ لكمُ الأرضَ ذَلُولاً

فامْشُوا فى مناكِبِها وكُلُوا مِن رِزْقِه

وإليه النُّشُور » .

أى إذا أردتم أن تضربوا فى الأرضِ سَهَّلَ عليكم ذلك .

كذلك جعل النَّفْس ذلولاً ؛ فلو طَالَبْتَها بالوفاقِ وَجَدْتَها مُسَاعِدةً مُوَافقة ، مُتَابِعةً مُسَابِقة . . وقد قيل فى صفتها :

هى النَّفْسُ ماعَوَّدْتَها تتعوَّدُ وللدهرِ أيامٌ تُذَمُّ وتُحْمَدُ

قوله جل ذكره : « أأمِنتُم مَّن فى السماء أن يَخْسِفَ بكم

الأرضَ فإذا هى تمورُ * أمْ أمِنتُم مَّن

---

(1) هكذا فى ص وهى فى م (الفراق) والصواب ما أثبتنا — بدليل ما بعدها .

في السماء أن يُرْسِلَ عليكم حاصِباً
فستعلمون كيف نذير ».

« من في السماء » أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء . فهم موكَّلون بالعذاب.

وخوَّفهم بالملائكة أن يُنْزِلوا عليهم العقوبةَ من السماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، وكذلك خوَّفهم أنْ يُرْسِلوا عليهم حجارةً كما أرسلوا على قوم لوط . وبيَّن أنَّ مَنْ كذَّب قَبْلَ هؤلاء رُسُلَهم كيف كانت عقوبتهم ، ثم زاد في البيان وقال :

« أوَلَم يَرَوْا إلى الطير فوقَهم صافَّاتٍ
ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلَّا الرحمنُ
إنَّه بكلِّ شيء بصيرٌ » .

أولم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها ، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة — بخلاف الأجسام[1] الأخر . . . مَنِ الذى يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن في الفضاء ؟ وما الذى يوجبه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأُخر ؟ .

« أمَّنْ هذا الذى هو جُندٌ لَكم
ينصرُكم من دونِ الرحمنِ إنِ
الكافرون إلا في غُرور » .

إنْ أراد الرحمنُ بك سوءا . فمَنْ الذى يُوَسِّعُ عليكم ما قَبَضَه ، أو يمحو ما أثبته ، أو يُقَدِّمُ ما أخَّرَه ، أو يؤَخِّرُ ما قدَّمَه ؟ .

قوله جل ذكره : « أفَمَن يمشى مُكِبًّا على وَجْهِهِ
أهْدَى أمَّن يمشى سويًّا على صراطٍ
مُستقيم * قُلْ هو الذى أنشأكم ».

(١) هكذا في م وهي في ص (الأصنام) والصواب ما أثبتناه ، لأن المقصود المقارنة بين الطيور وغيرها من (الأجسام) بصفة عامة .

وخَصَّكم بالسمع والبصر والأفئدة ، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نِعَمه .

« ويَقُولونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إن
كُنتمُ صادقين ؟ » .

وأجاب عنه حيث قال : لا تستعجلوا العذاب ، وبيَّن أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون .

قوله جل ذكره : « قل أرأيتم إنْ أهْلَكَنِيَ اللهُ ومَن
معِيَ أو رَحِمَنا فَمَن يُجِيرُ الكافرين
من عذابٍ أليم * قُلْ هو الرحمٰنُ
آمَنَّا به وعليه توكلنا . . . . »

وإليه أمورنا – جملةً – فوَّضْنَا .

« قُلْ أرأيتم إنْ أصبح ماؤكم غَوْراً
فَمَن يأتيكم بماء مَّعِين » .

مَنِ الذى يأتيكم بالماء إذا صار غائراً فى الأرض لا تناله الأيدى .

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب .

سُورَةُ الْقَلَمِ [1]

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ كريمٌ مَنْ شهد لُطفَه لم يتذلَّلْ بعده لمخلوق ، ولم يَستَهِنْ فيما نابَه مِن ضُرٍّ أصابه أو خيرٍ أراده بمُحْدَثٍ مرزوق .

إنْ أعطاه قابله بالشُّكر ، وإن منعه استجابه بجميل الحمد[2] .

قوله جل ذكره : « نٓ والقلمِ وما يَسْطُرون » .

« ن » قيل : الحوت الذي على ظهره السكون ، ويقال : هي الدواة .

ويقال : مفتاح اسمه ناصر واسمه نور .

ويقال : إنه أقسم بنُصْرَة الله تعالى لعبادِه المؤمنين .

وأقسم بالقلم — وجوابُ القسم قولُه :

« ما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بمَجْنُون * وإنَّ لك لأجْراً غير ممنون » .

ما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء عنه :

إنه مجنون ، أزاله عنه بنفيه ، ومحقِّقاً ذلك بالقَسَم عليه .. وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فما يقوله الأعداءُ فيه يردُّه — سبحانه — عليهم بخطابه وعنه بنفيه .

---

(١) هكذا في ص ، وفي م سورة ن والقلم .

(٢) يمكن أن يفيد ذلك في التمييز بين الشكر والحمد — كما يرى القشيري .

« وإنَّ لك لأجراً غير مَمْنُون » : أى غير منقوص .. لمَّا سَمَتْ هِمَّتُه صلى الله عليه وسلم عن طلبِ الأعواض أثبت اللهُ له الأجر ، فقال له : إن لك لأجراً غير منقوص — وإنْ كُنْتَ لا تريده .

ومن ذلك الأَجْرِ العظيم هـذا الخُلُق ، فأنت لستَ تريدُ الأجْرَ — وبِنَا لَسْتَ تريد ؛ فلولا أنْ خَصَصْنَاكَ بهذا التحرُّر لكنتَ كأمثالِك فى أنهم فى أسْرِ الأعواض .

قوله جل ذكره : « وإنَّكَ لَعلى خُلُقٍ عظيم » .

كما عرّفه اللهُ سبحانه أخبارَ مَنْ قَبْلَه من الأنبياء عرّفه أنه اجتمعت فيه متفرقاتُ أخلاقهم فقال له : إنك لعلى خلق عظيم .

ويقال : إنه عَرَضَ عليه مفاتيحَ الأرضِ فلم يقبلْها ، ورقّاه ليلةَ المعراج ، وأراه جميع الملائكة والجنة فلم يلتفت إليها ، قال تعالى : « مازَاغَ البصرُ وما طَغَى » فما التفت يميناً ولا شمالاً ، ولهذا قال تعالى : « وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم » . . ويقال : « على خلق عظيم » : لا بالبلاء تنحرف ، ولا بالعطاء تنصرف ؛ احتمل صلوات الله عليه فى الأذى شَجَّ رأسِه وثَغْرِه ، وكان يقول :

« اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . وغداً كلٌّ يقول : نفسى نفسى وهو صلوات الله عليه يقول : أمتى أمتى .

ويقال : عَلَّمه محاسنَ الأخلاق بقوله : « خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعرف وأعْرِضْ عن الجاهلين »(1) .

سأل صلواتُ الله عليه جبريلَ : بماذا يأمرنى ربى ؟ قال : يأمرك بمحاسن الأخلاق ؛ يقول لك : صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وأعْطِ مَنْ حَرَمك واعفُ عَمَّن ظَلَمَك ، فتأدَّبَ بهذا ؛ فأثنى عليه وقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

قوله جل ذكره : « فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بأيِّكُمُ المفْتُونُ * »

---

(1) آية ١٩٩ سورة الأعراف .

إنَّ رَبَّكَ هو أعلمُ بِمَن ضَلَّ عن
سبيلِهِ وهو أعلمُ بالمهتَدِين » .

المفتون : المجنون لأنه فُتِنَ أى مُحِنَ بالجنون .

« فلا تُطِع المُكذِّبين » .

معبودُكَ واحدٌ فليكن مقصودُك واحداً . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكنْ مشهودك واحداً .

« ودُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنون » .

مَنْ أصبح عليلا تمنَّى أنْ يكونَ الناس كلُّهم مَرْضَى . وكذا مَنْ وُسِمَ بكيِّ الهجران ودَّ أنْ يُشارِكه فيه مَنْ عاداه .

« ولا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِين »

وهو الذى سقط من عيننا ، وألقيناه بالبعد عنا .

« هَمَّازٍ مشَّاء بنميمٍ »

محجوبٍ عنَّا مُعَذَّبٍ بخذلانِ الوقيعة فى أوليائنا .

« مَنَّاعٍ للخيرِ[1] »

مُهانٍ بالشُّحِّ ، مسلوب التوفيق .

« مُعْتَدٍ أثيم »

ممنوعِ الحياء ، مُشَتَّتٍ فى أودية الحرمان .

« عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم »

لئيم الأصل ، عديم الفضل ، شديد الخصومة بباطله ، غير راجعٍ فى شىء من الخير إلى حاصله .

« أن كان ذا مالٍ وبنين * إذا تُتْلَى
عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوَّلين » .

(١) عند الجمهور — هو الوليد بن المغيرة ، وكان يقول لبنيه العشرة : من أسلم منكم منعته رفدى .

(أى : لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين.. ثم استأنف الكلام فقال)[1] : إذا تتلى .. قابلها بالتكذيب ، وحكم أنَّ القرآن من الأساطير .

« سَنَسِمُهُ على الخُرطوم »

أى سنجعل له فى القيامة على أنفِهِ تشويهاً لصورته كى يُعْرَفَ بها .

قوله جل ذكره : « إِنَّا بَلَوْنَاهُم كما بَلَوْنا أَصحابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِين » .

أى امتحنَّاهم[2] .. حين دعا عليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فابتلاهم الله بالجوع ، حتى أكلوا الجِيَف — كما بلونا أصحاب الجنة ، قيل: إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مثمرة وكان له ثلاثة بنين ، وكان للمساكين كل ما تعدّاه المِنْجل فلم يجذه من الكَرْم ، فإذا طُرح على البساط فكل شىء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين ، فما أخطأه القطافُ من نخله وكَرْمه يَدَعه للمساكين ، وكان يجتمع منه مال ، فلما مات هو قال وَرَثَتُه : إنَّ هذا المالَ تفرّق فينا ، وليس يمكننا أن نفعلَ ما كان يفعله أبونا ، وأقسموا ألا يُعْطُوا للفقراء شيئاً ، فأهلكَ اللهُ جَنَّتَهُم ؛ فندموا وتابوا .

وقيل : أبدلَهم اللهُ جنةً حسنة ، فأقسموا ليصرمُنَّ جنَّتهم وقت الصبح قبلَ أنْ تفطِنَ المساكينُ ، ولم يقولوا : إن شاء الله :

« فطاف عليها طائفٌ من ربِّك وَهُمْ نائمون * فأصبحت كالصَّريم » .

أرسل عليها من السماء آفةً فأحرقت ثمارهم . وأصبحت « كالصريم » أى كالليل المسودِّ ، فنادى بعضُهم بعضاً وقت الصبح : أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام ، فانطلقوا

---

(١) مابين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .. والمعنى : لاتطعه — مع هذه النقائص والمثالب — ليساره وحظه من الدنيا وكثرة أولاده .

(٢) يقصد أهل مكة حين دعا عليهم الرسول : اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف .

لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعهم أحدٌ . وقصدوا إلى الصرام «على حَرْدٍ» أى : قادرين عند أنفسهم ، وقال : على غضبٍ منهم على المساكين .

فلمّا رأوا الجنةَ وقد استؤصِلَتْ قالوا : ليست هذه جنتنا ! !

ثم قالوا : بل هذه جَنّتُنا .. ولكنّا حُرِمْنا خيرَها .

قال أوسطُهم : أى أعدلُهم طريقةً وأحسنُهم قولاً :

« أَلَمْ أَقُل لَّكم لولا تُسَبِّحون ؟ »

أى : تستثنون وتقولون : إن شاء الله[1] .

« قالوا سبحان ربِّنا إنّا كنّا ظالمين »

ثم أقبل بعضُهم على بعض يتلاومون ، ويقولون :

« عسى ربُّنا أن يُبْدِلَنَا خيراً منها
إنَّا إلى ربِّنا راغِبون » .

قال تعالى : « كذلك العذاب » لأهل مكة « ولَعَذابُ الآخرة أكبر » :

وهكذا[2] تكون حالُ مَنْ له بدايةٌ حسنةٌ ويجدُ التوفيق على التوالى ، ويجتنبُ المعاصى ، فيُعَوِّضه اللهُ فى الوقتِ نشاطا ، وتلوحُ فى باطنه الأحوالُ . فإذا بَدَرَ منه سوء دعوى أو تَرْكَ أدبٍ من آداب الخدمة تَنْسَدُّ عليه تلك الأحوالُ ويقع فى قُرُوحٍ[3] من الأعمال . فإذا حَصَلَ منه بالعبادات إخلالٌ ، ولبعض الفرائض إهمالٌ — انقلب حالُه ، ورُدَّ من الوصال إلى البعاد ، ومن الإقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، فصارت صفوتُه قسوةً . وإن كان له بعد ذلك توبة ، وعلى مَا سَلَفَ منه ندامة — فقد فات الأمْرُ من يده ، وقلَّما يصل إلى حاله .

---

(١) هذا أيضاً رأى مجاهد ، فجعل قولك : إن شاء الله من التسبيح ، وهذه هى حقيقة تقديم المشيئة ، فهى تنزيه لله بأن لا شىء إلا بمشيئته .

(٢) هذه الإشارة موجهة إلى أرباب السلوك يقصد بها إلى الترضيح أن العبرة بالخواتيم ، وينبغى الاهتمام بهذه الفقرة كلها عند بحثنا عن وصايا القشيرى للمريدين » .

(٣) جمع أقرح وهو ما اسودّ من الجلد وتقشّر .

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك رعايةً لما سَلَفَ فى بدايته من أحواله ... فإنّ الله تعالى رءوفٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « إنَّ للمتقين عند ربِّهم جناتِ النَّعيم » .

الذين يتقون الشِّرْكَ والكُفْر ، ثم المعاصىَ والفِسْقَ ، لهم عند الله الثوابُ والأجْر .

قوله جل ذكره : « أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين ؟ * ما لكم كيف تحكمون ؟! * أمْ لكم كتابٌ فيه تَدْرُسُون ؟ »

كيف تحكمون ؟ هل لديكم حجة ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ أم لكم منا عهود فيها تحكمون ؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفى ذلك .

قوله جل ذكره : « يومَ يُكْشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَوْن إلى السجودِ فلا يستطيعون »

« عن ساقٍ » : أى عن شِدَّةٍ يومَ القيامة .

ويقال فى التفسير : عن ساقِ العرش .

يُؤْمَرون بالسجود ؛ فأمّا المؤمنون فيسجدون ، وأمّا الكفار فتُشَدُّ أصلابُهم فلا تنحنى .

وقيل : يكشف المريضُ عن ساقه — وقت التوفِّى — ليُبْصِرَ ضعفَه ، ويقول المؤذِّنُ : حىَّ على الصلاة — فلا يستطيع .

وعلى الجملة فقد خوَّفَهم بهذه الحالة : إمّا عند انتهائهم فى الدنيا أو ابتدائهم فى الآخرة .

« .... وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السجود وهم سالِمون » .

يُذَكِّرُهم بذلك ليزدادوا حسرةً ، ولتكونَ الحجةُ عليهم أبلغَ .

قوله جل ذكره : « فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديثِ سَنَسْتَدرِجُهم من حيثُ لا يعلمون » .

سنُقَرِّبهم من العقوبة بحيث لا يشعرون .

والاستدراجُ : أنْ يريد الشيء ويَطْوِى عن صاحبه وَجْهَ القَصْدِ فيه ، ويُدْرِجُه إليه شيئاً بعد شيء ، حتى يأخذه بغتةً .

ويقال : الاستدراج : التمكين من النِّعم مقروناً بنسيان الشكر (١) .

ويقال : الاستدراجُ : أنهم كلما ازدادوا معصيةً زادهم نعمةً .

ويقال : ألا يُعاقِبَه فى حالِ الزَّلَّة ، وإنما يؤخِّر العقوبةَ إلى ما بعدها .

ويقال : هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم .

ويقال : الاغترارُ بطول الإمهال .

ويقال : ظاهرٌ مغبوط وباطنٌ مُشَوَّش .

قوله جل ذكره : « وأُمْلِى لهم إنَّ كَيْدِى متينٌ »

أُمْهِلُهم .. ثم إذا أَخَذْتُهم فأَخْذِى أليمٌ شديدٌ .

قوله جل ذكره : « أم تسألهم أجراً فهم من مَغْرَم مُثْقَلون » .

أى : ليس عليهم كُلْفة مقابلَ ما تدعوهم إليه ، وليست عليهم غرامة إنْ هم اتبعوك .. فأنت لا تسأل أجراً .. فما موجِباتُ التأخُّرِ وتركُ الاستجابة ؟

« أم عِندهم الغيبُ فهم يكتبون ؟ » .

أم عندهم شىء من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا ؟ » .

---

(١) فى النسختين (بلسان) وهى خطأ قطعا ، فقد اشتبهت على كلا الناسخين . ومما يؤيد رأينا قول سفيان الثورى فى « سنستدرجهم » نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر (القرطبى حـ١٨ ص ٢٥١) .

قوله جل ذكره: « فاصبِرْ لحُكمِ رَبِّكَ ولا تَكُن كصاحب الحوتِ إذ نادى وهو مكظوم ».

صاحب الحوت: هو يونس عليه السلام، نادى وهو مكظوم: مملوء بالغيظ على قومه. فلا تستعجلْ — يا محمد — بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقى ما لقى، وتَثَبَّتْ عند جريان حكمنا، ولا تُعارِضْ تقديرنا.

« لولا أن تدارَكَه نعمةٌ من رَبِّه لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم ».

أى: لولا أنَّ اللهَ رَحِمَه بفضلِه لَطُرِحَ بالفضاء وهو مذموم، ولكن:

« فاجْتباه ربُّه فجعله من الصالحين ».

فاصطفاه واختاره، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

قوله جل ذكره: « وإن يكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقونَكَ بأبصارهم ».

كانوا إذا أرادوا أنْ يُصيبوا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثةَ أيامٍ، ثم جاءوا ونظروا إلى ذلك الشىء قائلين: ما أحسنه من شىء! فكان يسقط المنظور فى الوقت. وقد فعلوا ذلك بالنبى صلوات الله عليه، فقالوا: ما أفصحه من رجل! ولكنَّ اللهَ سبحانه حفظه، ومَرَّ بذكره عليه(1).

(1) تنبه إلى نقطة هامة .. ورود اسم القشيرى عند القرطبى لا يعنى أنه إمامنا عبد الكريم القشيرى صاحب هذا الكتاب، بل ربما كان أحد أبنائه الستة .. فكلهم أئمة. وربما كان ابنه أبا نصر عبد الرحمن (انظر القرطبى الجزء العشرين ص ٥٤) وليس أدل على ذلك من المقارنة بين قول القشيرى هنا وما جاء عند القرطبى فى جـ ١٨ ص ٢٥٥ (قال القشيرى: وفى هذا نظر لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض، ولهذا قال: ويقولون إنه لمجنون) أى ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن.

سُورَةُ الحَاقَّة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة عزيزةٌ تحتاج في سماعها إلى سَمْعٍ عزيزٍ لم يُسْتعملْ في سماع الغيبة ، وتحتاج في معرفتها إلى قلبٍ عزيزٍ لم يَتَبَذَّلْ في الغفلة والغيبة ، لم ينظرْ صاحبُه بعينه إلى ما فيه رُتبة ، ولم تتبع نَفَسُه اللَّبس[1] والطِّبَّةَ[2] .

قوله جل ذكره : « الحاقَّةُ * ما الحاقَّةُ * وما أدراكَ ما الحاقَّةُ » .

« الحاقة » : اسمٌ للقيامة لأنها تَحُقُّ[3] كلَّ إنسانٍ بعملِه خَيْرِه وشَرِّه .

« وما أدراك ما الحاقة ؟ » : استفهام يفيد التعظيم لأمرها ، والتفخيمَ لشأنها .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعة » .

ذَكَرَ في هذه السورة : الذين كَذَّبوا رُسُلَهم من الأمم ، وأصرُّوا على كُفْرِهم ، ولم يقبلوا النصيحةَ من أنبيائهم ، فأهلكهم ، وانتقم لأنبيائه منهم .

والفائدةُ في ذِكْرِهم : الاعتبارُ بهم ، والتحرُّزُ عمَّا فعلوا لئلا يُصيبَهم ما أصابهم .

وعقوبةُ هذه الأمةِ مُؤَجَّلةٌ مُؤَخَّرةٌ إلى القيامة ، ولكنَّ خواصَّهم عقوبتهم مُعجَّلة ؛ قومٌ

---

(١) هكذا في ص أما في م فهي (اللهو) .

(٢) هكذا في ص وهي في م (الطيبة) وقد رجحنا — وهو ترجيح بعيد — أنها قد تكون (الطَّبَّة) بمعنى الحذق والمهارة الناتجين عن الحيلة والتدبير، وربما كانت (ولم يتبع مع نفسه اللين والطيبة فالنفس أعدى الأعداء) .

(٣) لأنها تحق كل محاق في دين الله أي كل مخاصم (وهو قول الأزهرى) . وحاقّه أي خاصمه وادعى كل واحد منهما الحق (الصحاح) .

من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا ، أو أضاعوا أدبًا يعاقبهم برياح الحجبة[1]، فلا يَبْقَى فى قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للدِّين ، ولا مِمَّا كان لهم من الأوقات ، ويصيرون على خَطَرٍ فى أحوالهم بأنْ يُمْتَحنوا (بالاعتراض على التقدير)[2] والقِسْمة .

وأمَّا فرعون وقومُه فكان عذابُهم بالغَرَقِ . . كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربِّه مشتغِلٌ ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ — فإذا لم يشكر النعمةَ ، وأساء أدبَه ، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم اللهُ به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة ، ثم أغرقه فى بحار الاشتغال فيتكدر مَشْرَبُه ، ويصير على خَطَرٍ بأن يُدْرِكَه سُخْطُ الحقِّ وغضبُه .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ » .

وكذلك تكون مِنَّتُه على خواصٍّ أوليائه حين يحملهم فى سفينة العافية ، والكون يتلاطم فى أمواج بحارِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها ، فيكونون بوصف السلامة ، لا مُنَازَعَةَ ولا محاسبةَ لهم مع أحد ، ولا تَوَقُّعَ شيء من أحدٍ ؛ سالمون من الناسِ ، والناسُ منهم سالمون .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ . . . . . » .

بدأ فى وصف القيامة والحساب . .

« . . . . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ » .

وفى كلِّ نَفَسٍ مع هؤلاء القوم[3] محاسبةٌ ومطالبةٌ ، منهم مَنْ يستحق المعاتبة ، ومنهم من يستحق المعاقبة .

---

(١) فى الإشارة قياس على الرياح التى أهلكت عاداً .

(٢) موجود فى ص أما فى م فهى (الإعراض) فقط .

(٣) يقصد أهل المجاهدات والمذاقات .

قوله جل ذكره: « فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَه بيمينه فيقولُ
هاؤمُ اقرءوا كتابيَه * إنِّى ظننتُ
أنِّى مُلاقٍ حِسابِيَه » .

يسلم له السرورُ بنعمة الله ، ويأخذ فى الحمد والمدح .

« فهو فى عيشةٍ رَّاضية » .

القومُ — غداً — فى عيشةٍ راضية أى مَرْضِيَّةٍ لهم ، وهؤلاء القوم — اليومَ — فى عيشةٍ راضية ، والفرق بينهما أنهم — غداً — فى عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم ، وارتفعت مآرِبُهم ، وحصلت حاجاتُهم ، وهم — اليومَ — فى عيشةٍ راضية إذ كَفُّوا مآرِبَهم فَدَفَعَ عن قلوبِهم حوائجَهم ؛ فليس لهم إرادةُ شىء ، ولا تَمَسُّهم حاجةٌ . وإنما هم فى رَوْحِ الرضا . . فَعَيْشُ أولئك فى العطاء ، وعَيْشُ هؤلاء فى الرضاء ؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنًى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال . ويقال لأولئك غداً .

« كُلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتُمْ
فى الأيامِ الخالية » .

ويقال لهؤلاء : اسمعوا واشهدوا . . اسمعوا منَّا . . وانظروا إلينا ، واستأنِسوا بقُرْبنا ، وطالعوا جمالَنا وجلالَنا . . فأنتم بنا ولنا .

قوله جل ذكره : « وأمَّا من أُوتِيَ كتابَه بشماله
فيقولُ : يا ليتنى لم أُوتَ كِتابيَه *
ولم أدرِ ما حِسابِيه * ياليتها كانتِ
القاضيةَ » .

هناك — اليومَ — أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتُهم ، ويتضاعف أنينُهم — ليلَهم ونهارَهم — فليلُهم ويلٌ ونهارهم بُعَاد ؛ تَكَدَّرتْ مشارِبُهم ، وخربت أوطانُ أُنْسِهم ، ولا بكاؤهم يُرْحَم ، ولا أنينُهم يُسْمَع . . فعِنْدَهم أنهم مُبْعَدون . . وهم فى الحقيقة من الله مرحومون ، أسبلَ عليهم الستر فَصَغَّرَهم فى أعينهم — وهم أكرمُ أهل القصة ! كما قالوا :

لا تُنْكِرنْ جحدى هواكَ فإنما   ذاكَ الجحودُ عليك سترٌ مُسْبَلُ

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بما تُبْصِرون * وما لا تبْصِرون » .

« لا » : صلة والمعنى : أُقْسِم ؛ كأنه قال : أقسم بجميع الأشياء ، لأنه لا ثالثَ لما يبصرون وما لا يبصرون . وجوابُ القَسَم :

« إنَّه لقولُ رسولٍ كريمٍ » .

أى وجيهٍ عند الله . وقولُ الرسولِ الكريمِ هو القرآنُ أو قراءةُ القرآن .

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أى أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو :

« تنزيلٌ من ربِّ العالَمين » .

قوله جل ذكره : « ولو تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل * لَأَخَذْنَا منه باليمين * ثم لقَطَعْنَا منه الوتين » .

أى لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه ، ولو تعمَّد لعذَّبناه . والقول بعصمة الأنبياء واجب . ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم ، وهذا القرآن :

« وإنه لتذكِرةٌ للمتقين * وإنَّا لَنَعْلَمُ أنَّ منكم مُكذِّبين * وإنه لَحَسْرَةٌ على الكافرين * وإنه لَحَقُّ اليقين » .

حقُّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء[1] .

وعلوم الناس تختلف فى الطرق إلى اليقين خفاء وجلاء ؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين ، وخفاء الطريق وجلائه ، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً ، ثم ما يكون مع الإدراكات[2] .

---

(١) لو كان اليقين نعتاً لم يجز أن يضاف إليه كما لا نقول : هذا ورد الأحمر ، فالإضافة هنا — كما يرى القشيرى — إلى الشيء نفسه . فإن القرآن حق يقينٌ ويقينٌ حق .

(٢) انظر محاولة القشيرى التفرقة بين معانيها فى رسالته ص ٤٧ .

سُورَةُ المعَارج

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ من قالها وَجَدَ جمالَها ، ومَنْ شهدها شهد جلالَها .

وليس كلُّ مَنْ قالَهَا نالَهَا ، ولا كلُّ من احتالها[1] عَرَفَ جلالَها .

كلمةٌ رفيعة عن إدراكِ الألبابِ منيعة ، كلمةٌ على الحقيقة الصمدية دالَّة ، كلمة لابُدَّ للعبدِ من ذِكْرِها في كل حالة .

قوله جل ذكره : « سأل سائِلٌ بعذابٍ واقع » .

الباء في « بعذاب » بمعنى عن ، أي سأل سائلٌ[2] عن هـــذا العذاب لِمَنْ هو ؟ فقال تعالى :

« للكافرين ليس له دافِعٌ * مِن الله ذي المعارج » .

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج ؛ فهذا العذابُ من الله .

ومعنى « ذي المعارج » ذي الفضل ومعالي الدرجات التي يُبَلِّغُ إليها أولياءه .

قوله جل ذكره : « تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه في يومٍ كان مِقْدارُه خمسين ألفَ سنةٍ » .

---

(١) هكذا في النسختين ، ولو صحّ أنها هكذا في الأصل فربما كان المعنى : ليس كلُّ من ادَّعى أنه بحيلته وتدبيره ومهارته وحذقه وصل إليها قد عرف أسرارها .

(٢) هو النضر بن الحارث قال : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وربما تكون سأل بمعنى دعا ؛ ويكون السائل هو النبي (ص) .

« الروح » أي جبريل ، في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا يعني به يوم القيامة .

ويقال : معناه يحاسِبُ الخلْقَ في يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسيرٍ ما لو كان الناسُ يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة ، والله يُجْرِي ذلك ويُمضيه في يومٍ واحد .

ويقال : من أسفلِ المخلوقاتِ إلى أعلاها مسيرةُ خمسين ألف سنة للناس ؛ فالملائكة تعرج فيه من أسفله إلى أعلاه في يومٍ واحد .

قوله جل ذكره : « فاصبِرْ صبراً جميلاً » .

فاصبرْ — يا محمد[1] — على مقاساةِ أذاهم صبرًا جميلاً . والصبرُ الجميلُ ما لا شكوى فيه .

ويقال : الصبر الجميل ألا تَسْتَثْقِلَ الصبرَ بل تستعذبه .

ويقال : الصبرُ الجميلُ ما لا ينتظِرُ العبدُ الخروجَ منه ، ويكون ساكناً راضياً .

ويقال : الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبْلِي .

ويقال : الصبرُ الجميل ما تجرَّد عن الشكوى والدَّعْوى .

قوله جل ذكره : « إنَّهم يرَوْنه بعيداً ، ونراه قريباً »

إنَّ ما هو آتٍ فقريبٌ ، وما استَبْعَدَ مَنْ يستَبْعِد إلاَّ لأنه مُرْتابٌ ؛ فأمَّا الواثقُ بالشيء فهو غيرُ مُسْتَبْعِدٍ له .

قوله جل ذكره : « يومَ تكُون السماء كالمُهْلِ ، وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ » .

الإشارة فيه أنه في ذلك اليوم مَنْ كان في سُمُوِّ نخوته ونُبُوِّ صولته يلين ويستكين ويَضْعُفُ مَنْ كان يَشْرُفُ ، ويَذِلُّ مَنْ كان يُدِلُّ .

قوله جل ذكره : « ولا يَسْأَلُ حميمٌ حميماً » .

لا يتفرَّغُ قريبٌ إلى قريبٍ ؛ فلكلِّ امرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه .

---

(1) هكذا في ص وهي في م (بالحمد) ووواضح فيها أنها اشتبهت على الناسخ .

ولا يتعهّدُ المساكينَ — في ذلك اليوم — إلا الله .

« يُبَصَّرونَهم يَوَدُّ المُجْرِمُ لو يفتدى
مِنْ عذابِ يَوْمئذٍ ببنيه ● وصاحِبَتِه
وأخيه ● وفصيلتِهِ التى تُؤْوِيه ● ومَن
فى الأرضِ جيماً ثم يُنجيه » .

« يبصرونهم » أى يعرفون أقاربهم ، ولكن لا تَرِقُّ قلوبُ بعضهم على بعض .

ويتمنَّى المجرمُ يومئذٍ أَنْ يُفتدِيَ من عذاب جهنم بأعز مَنْ كان عليه فى الدنيا من قريبٍ ونسيب وحميمٍ وولدٍ ، وبكلٍّ من فى الأرض حتى يخلص من العذاب .

« كَلاًّ إنَّها لظَىٰ » .

اسم من أسماء جهنم .

« نَزَّاعةً للشَّوَىٰ »(1) .

قَلاَّعةٌ للأطراف . تكشط الجِلْدَ عن الوجه وعن العَظْم .

قوله جل ذكره : « تدعو مَنْ أَدْبَرَ وتَوَلَّىٰ » .

تقول جهنمُ للكافرِ والمنافقِ : يا فلان . . إلىَّ إلىَّ .

والإشارة فيه : أنَّ جهنمَ الدنيا تعلق بقلبِ المرء فتدعوه بكلابِ الحرصِ إلى نَفْسِهِ وتجرُّه إلى جمعها حتى يؤثرها على نَفْسه وكلٍّ أحد له ؛ حتى لقد يَبْخَلُ بدنياه على أولاده وأعِزَّته ... وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها .

قوله جل ذكره : « إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هلوعاً » .

(1) والشَّوى جمع شواة وهى جلدة الرأس ؛ قال الأعشى :

قالت قُتَيْلَةُ : ماله ... قد جُلِّلت شيباً شواتُه

وجاء فى الصحاح : الشوى جمع شواة وهى جلدة الرأس . وهى اليدان والرجلان والرأس من الآدميين ، وكل ما ليس مقتلا . يقال : رماه فأشواه أى لم يصب المقتل .

وقال الضحاك : تفرى الجلد واللحم عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً . ونرى أن المقصود — والله أعلم . أن العذاب لا يقضى عليهم ؛ حتى يستمر دائماً بهم إلى الأبد .

وتفسيره ما يتلوه :

« إذا مَسَّه الشَّرُّ جَزوعًا * وإذا مَسَّه الخيرُ مَنوعًا » .

والهَلَعُ شِدَّةُ الحِرصِ مع الجزع . ويقال هلوعا : متقلِّبًا فى غمرات الشهوات .

ويقال : يُرْضيه القليلُ ويُسْخِطه اليسير .

ويقال : عند المحنة يدعو ، وعند النعمة ينسى ويسهو .

« إلَّا المُصَلِّينَ * الذين هم على صلاتِهم دائمونَ » .

استثنى منهم المصلين — وهم الذين يُلازِمون أبداً مواطنَ الافتقار ؛ مِنْ صَلِيَ بالمكان[1] .

« والذين فى أموالِهم حَقٌّ معلومٌ * للسائلِ والمحرومِ » .

وهو المُتَكفِّف والمُتَعَفِّف .

وهم على أقسام : منهم مَنْ يُؤْثِر بجميع مالِه ؛ فأموالُهم لـكلِّ مَنْ قَصَدَ ، لا يخصُّون سائلاً من عائل . ومنهم مَن يعطى ويمسك — وهؤلاء[2] منهم — ومنهم مَنْ يرى يَدَه يَدَ الأمانة فلا يتكلَّف باختياره ، وإنما ينتظر ما يُشَار عليه به من الأمر ؛ إمَّا بالإمساك فيقف أو ببذْلِ الـكُلِّ أو البعضِ فيستجيب على ما يُطَالَبُ به وما يقتضيه حُكْمُ الوقت . . . .
وهؤلاء أَتَمُّهُم .

---

(١) صَلَيتِ الناقة أو الحامل ونحوها استرخى صلاها لقرب نتاجها (الوسيط) .
(٢) أى الذين تتحدث عنهم الآية .

« والذين يُصَدِّقون بيوم الدِّين » .

وأمارتهُم الاستعدادُ للموتِ قبل نزوله ، وأن يكونوا كما قيل :

مستوفزون على رِجْلٍ كأنهمو قد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا

قوله جل ذكره : « والذين هم لفروجهم حافظون * إلاَّ على أزواجِهم أو ما مَلَكَتْ أيمانُهم فإنَّهم غيرُ ملومين * فَمَنِ ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وإنما تكون صحبتُهم مع أزواجهم للتَّعَفُّفِ وصَوْنِ النَّفْسِ ، ثم لابتغاء أن يكونَ له وَلَدٌ من صلبه يذكر الله . وشَرْطُ هذه الصحبة : أن يعيش معها على ما يهون ، وألا يجرَّها إلى هوَى نَفْسِه ويحملها على مرادِه وهواه .

قوله جل ذكره : « والذين هم لأماناتِهم وعَهْدِهم راعون »

يحفظون الأمانات التي عندهم للخَلْق ولا يخونون فيها . وأماناتُ الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة — فلا يُدَنِّسُونها بالخطايا ؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق ، والأسرارُ التي بينهم وبين الله أماناتٌ عندهم . والفرائضُ واللوازمُ والتوحيدُ .. كل ذلك أماناتٌ .

ويقال : من الأمانات إقرارُهم وقتَ الذَّرِّ . ويقال : من الأمانات عند العبد تلك المحبة التي أودعها اللهُ في قلبه .

قوله جل ذكره : « والذين هم بشهاداتِهم قائمون » .

شهادتهم لله بالوحدانية ، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض — يقومون بحقوق ذلك كله .

قوله جل ذكره : « فمالِ الذين كفروا قِبَلَكَ مُهْطِعين * عن اليمينِ وعن الشمالِ عِزِينَ » .

والإهطاع أن يُقْبِلَ ببصره إلى الشيء فلا يرفعه عنه ، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي صلى الله عليه وسلم « وعزين » : أي حَلَقًا حَلَقًا ، وجماعةً جماعة .

« أَيَطْمَعُ كلُّ امرئٍ منهم أن يُدْخَلَ جنَّةَ نعيم ؟ »

كلا .. إنك لا تدعو عن هذا ! وليس هذا بصوابٍ ؛ فإنهم ـ اليومَ ـ كفار ، وغدًا يعاملون بما يستوجبون .

« فلا أقسمُ بربٍّ المشارق والمغارب . . » لا — هنا صلة ، والمعنى أقسم . وقد مضى القولُ في المشارق والمغارب ـ « إنا لقادرون » على ذلك .

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا » غاية التهديد والتوبيخ لهم .

« يومَ يخرجون من الأجداث سِراعاً » كأنهم يسرعون إلى أصنامهم ، شبَّه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى النُّصُبِ ـ اليومَ ـ كي يقوموا بعبادتهم إياها .

سُورَةُ نُوح

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ لِمَنْ قامت السمواتُ والأرض بقدرته، واستقامت الأسرارُ والقلوبُ بنصرته.. دلَّت الأفضالُ على جلالِ شانه، وذلَّت الرِّقابُ عند شهودِ سلطانه. أشرقت الأقطارُ بنوره فى العُقبى، وأشرقت الأسرارُ بظهوره فى الدنيا، فهو المقدَّس بالوصف الأعلى.

قوله جل ذكره: « إنَّا أرسلنا نوحًا إلى قومِهِ أنْ أنذرْ قومَكَ من قَبْلِ أن يأتِيَهُم عذابٌ أليم »

أرسلنا نوحًا بالنبوَّةِ والرسالة. « أن أنذِر قومك » أى بأن أنذرهم وإرسالُ الرُّسُلِ من الله فضلٌ[1]، وله بحق مُلْكه أن يفعل ما أراد، ولم يجبْ عليه إرسالُ الرُّسُلِ لأن حقيقته لا تقبل الوجوب.

وإرسالُ الرسل إلى مَنْ عَلِمَ أنه لا يَقْبَل جائز[2]، وتكليفُهم من ناحية العقل جائز[3].

فنوحٌ — عَلِمَ منهم أنهم لا يقبلون.. ومع ذلك بَلَّغ الرسالة وقال لهم: إنى لكم نذير مبين:

« قال يا قومِ إنى لكم نذيرٌ مبين *

أنِ اعبدوا اللهَ واتقوهُ وأطيعونِ *

(١) فى النسختين (فعل) وهى صواب بدليل قوله فيما بعد: (أن يفعل) ما أراد ولكننا رجحنا (فضل) لأن القشيرى يستحسن استعمال (الفضل) عندما يتحدث عن نفى (الوجوب) على الله.

(٢) كى يكون ذلك عليهم حجة، قال تعالى: «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل».

(٣) ولكن لا عقاب إلا بعد إرسال الرسل؛ لأن العقل وحده غير كافٍ فى تعلم المعرفة (قارن ذلك بآراء المعتزلة).

« يَغفِرْ لكم من ذنوبكم ويُؤخِّرْكم
إلى أجلٍ مُسمّى إنَّ أجَلَ اللهِ إذا جاء
لا يُؤَخَّرُ لو كنتم تعلمون » .

يغفر لكم « من » ذنوبكم : مِنْ هنا للجنس لا للتبعيض كقوله تعالى :

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان » .

ويقال : ما عملوه دون ماهو معلوم أنهم سيفعلونه ؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراء لهم .. وذلك لا يجوز . فأبوا أن يَقْبَلوا منه ، فقال :

« قال ربِّ إني دعوتُ قومي ليلاً
ونهاراً * فلم يزِدْهم دُعائي إلا فِراراً » .

بيّنَ أنّ الهداية ليست إليه ، وقال : إنْ أَرَدتَ إيمانَهم فقلوبُهم بقدرتك — سبحانك .

قوله جل ذكره : « وأصرُّوا واستكبروا استكباراً »

وإنّي ما ازدَدتُ لهم دعاء إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً .

ويقال : لمّا دام بينهم إصرارُهم تولّدَ من الإصرار استكبارُهم ، قال تعالى :

« فطال عليهم الأمدُ فقَسَت قلوبهم »(1)

قوله جل ذكره : « ثم إنيّ دَعَوْتُهُم جهاراً * ثم إنيّ
أعْلَنتُ لهم وأسرَرْتُ لهم إسراراً *
فقلتُ استغفروا ربّكم إنه كان
غفّاراً * يُرْسِلِ السماء عليكم مدراراً *
ويُمْدِدْكُم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم
جنّاتٍ ويجعل لكم أنهاراً » .

---

(1) آية ١٦ سورة الحديد .

ليعلمَ العالِمون : أنّ الاستغفار قَرْعُ أبوابِ النعمة ، فمن وقعت له إلى اللهِ حاجةٌ فلن يَصِلَ إلى مرادِه إلّا بتقديم الاستغفار .

ويقال : مَنْ أراد التَّفَضُّل فعليه بالعُذْر والتنصُّل .

قوله : « يرسل السماء عليكم . . . . » : كان نوح عليه السلام كلمّا ازداد فى بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم فى الكفر والنسيان .

قوله جل ذكره : « ما لكم لا ترجُون للهِ وقاراً ؟ »

ما لَكُم لا تخافون للهِ عَظَمَةً ؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمِّلون على توقيركم للأمرِ من اللهِ لُطفاً ونعمة ؟ .

« أَلَم تَرَوْا كيف خَلَقَ اللهُ سَبْعَ
سماواتٍ طباقاً * وجعل القمرَ فيهنّ
نوراً وجعل الشمسَ سراجاً »

ثم نبّههم إلى خَلْقِ السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة ، وعلى أنَّ خالقها يستحقُّ صفاتِ العُلُوِّ والعِزّة .

ثم شكا نوحٌ إلى الله وقال :

« قال نوحٌ ربِّ إنَّهم عَصَوْنى
واتَّبعوا مَن لم يَزِدْه مالُه ووَلَدُهُ
إلّا خساراً * ومكروا مكراً كُبّاراً »

يعنى كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا فى الدنيا وهلكوا فى الآخرة .

« وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على
الأرضِ من الكافرين ديّاراً » .

وذلك بتعريفِ اللهِ تعالى إيّاه أنّه لن يؤمِنَ من قومك إلّا من قد آمن . فاستجاب الله فيهم دعاءه وأهلكهم .

سُورَةُ الجِنّ [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم عزيز به أَقَرَّ مَنْ أَقَرَّ بربوبيته ، وبه أَصَرَّ مَنْ أَصَرَّ على معرفته ، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليقته ، وبه ظَهَرَ ما ظَهَرَ من مقدوراته ، وبه بَطَنَ ما بَطَنَ من مخلوقاته [2] ، فَمَنْ جَحَدَ فبخذلانه [3] وحرمانه ، ومن وَحَدَ [4] فبإحسانه وامتنانه .

قوله جل ذكره : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ من الجنّ فقالوا : إِنَّا سَمِعْنا قرآناً عجباً »

قيل : إن الجنَّ كانوا يأتون السماء فيستمعون إلى قولِ الملائكة ، فيحفظونه ، ثم يلقونه إلى الكهنة ، فيزيدون فيه وينقصون . . وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام . فلمَّا بُعِثَ نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ورُجِمُوا بالشُّهُبِ عَلِمَ إبليس أنه وقع شئ [5] ففرَّ جنوده ، فأتى تسعةٌ منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته صلى الله عليه وسلم فآمنوا ، ثم آتوا قومهم وقالوا : إنَّا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به . . . إلى آخر الآيات .

(وجاءه سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى : «وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن ..» [6])

---

(١) أخطأ الناسخ فى ص وجعلها (سورة المزمل) بينما التفسير جارٍ لسورة الجن .

(٢) إشارة إلى الجن .. وهنا نوع من الترابط بين إيحاءات البسملة والسورة .

(٣) الباء هنا معناها (بسبب) أى أن الجاحد جحد بسبب خذلان الله له فى القسمة .

(٤) هكذا فى ص وهى الصواب بينما هى فى م (قصد) ونحن نعلم أن القشيرى يستعمل (جحد) و (وحد) متقابلين .

(٥) «حدث شىء فى الأرض» (الترمذى) .

(٦) ما بين القوسين ورد فى م ولم يرد فى ص ، والآية هى رقم ٢٩ سورة الأحقاف .

قوله جل ذكره : « وأنه تعالىٰ جَدُّ ربِّنا ما اتَّخَذَ صاحِبةً
ولا ولداً » .

الجَدُّ العظمة ، والعظمةُ استحقاقُ نعوتِ الجلال .

« وأنَّه كان يقول سفيهُنا على الله
شططاً » .

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعنى إبليس . والشطط السَّرَف .

« وأنَّا ظنَنَّا أن لَّن تقولَ الإنسُ
والجِنُّ على اللهِ كَذِباً » .

فى كفرهم وكلهم بالشِّرك .

« وأنَّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون
برجالٍ من الجِنِّ فزادوهم رَهَقاً » .

أى ذِلة وصغار ؛ فالجنُّ زادوا للإنس ذِلَّةً ورهقاً[1] (فكانوا إذا نزلوا يقولون : نعوذ بربِّ هذا الوادى فيتوهم الجنُّ أنهم على شيء فزادوهم رهقاً)[2] حيث استعاذوا بهم .

قوله جل ذكره : « وأنَّهم ظنُّوا كما ظَنَنتُم أن لَّن يَبعَثَ
اللهُ أحداً » .

أى ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجن ألّا بعثَ ولا نشور — كما ظننتم أيها الإنس .

« وأنَّا لَمَسْنَا السماء فوجدناها مُلِئَتْ
حَرَساً شديداً وشُهُباً » .

يعنى حين منُعوا عن الاستماع .

« وأنَّا كُنَّا نقعد منها مقاعِدَ لِلسَّمعِ
فَمَن يستمعِ الآن يَجِدْ له شهاباً رَّصَداً » .

---

(١) أى أن الجن زادوا الإنس رهقاً وهو الخطيئة والإثم حين استعاذوا بغير الله .
وقال مجاهد : زاد الإنس الجنَّ رهقاً أى طغيانا بهذا التعوذ حتى قالت الجن : سُدْنا الإنس والجن .
(٢) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

فالآن قد مُنِعنا .

« وأنَّا لا ندرى أشَرٌّ أُريد بمَن فى
الأرض أم أراد بهم ربُّهم رَشَدًا ؟ » .
« وأَلَّوِ استقاموا على الطريقةِ
لأسقيناهم ماءً غَدَقًا » .

الاستقامة على الطريقة تقتضى إكمالَ النعمةِ وإكثارَ الراحةِ . والإعراضُ عن الله يُوجِب تنغُّصَ العَيْشِ ودوامَ العقوبة .

قوله جل ذكره : « وأنَّ المساجدَ للهِ فلا تدعوا مع
الله أحداً » .

للمسجد فضيلة ، ولهذا خصَّه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع ؛ فهو محلُّ العبادة .. وكيف بمحلِّ العابد عنده إذا حلَّ محلَّ قَدَمِه[1] ؟! .

ويقال : أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها ، أخبر أنها لله ، فلا تعبدوا بما لله غيرَ الله .

قوله جل ذكره : « وأنَّه لمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعوه كادوا
يكونون عليه لِبَدًا » .

لما قام عبد الله يعنى محمداً عليه السلام يدعو الخلْقَ إلى الله كاد الجنُّ والإنس يكونون مجتمعين عليه ، يمنعونه عن التبليغ ، قل يامحمد :

« قُلْ إنى لا أَمْلك لكم ضَرًّا
ولا رَشَدًا * قُلْ إنى لن يُجيرَنى من
اللهِ أحدٌ ولن أَجِدَ مِن دونه
مُلْتَحَدًا » .

لا أَقْدِر أن أَدْفعَ عنكم ضرًّا ، أو أسوقَ لكم خيراً .. فكلُّ شىءٍ من الله . ولن أجدَ من دونه مُلْتجأً إلا :

---

(1) العبارة غامضة وتحتاج إلى توضيح .. وربما قصد القشيرى إلى أنه إذا كان المسجد وهو محل قدم العابد مكرماً .. فما بالك بالعابد نفسه ، ومحله عند الله ؟ .

« إلا بلاغاً من اللهِ ورسالاتهِ »

فلن يُنَجِّيني من الله إلا تبليغي رسالاته بأمره .

« ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه فإنَّ له نار جَهَنَّمَ خالدين فيها أبداً » .

قوله جل ذكره : « قُلْ إنْ أدْرِي أقريبٌ ما تُوعَدُون أمْ يجعلُ له ربي أَمَداً »

أي : لا أدْرِي ما تُوعَدون من العقوبة ، ومن قيام الساعة أقريب أم بعيد ؟ فكونوا على حذرٍ . ويجب أنْ يتوقَّع العبدُ العقوباتِ أبداً مع مجاري الأنفاس ليَسْلم من العقوبة .

قوله جل ذكره : عالِمُ الغيبِ فلا يُظهرُ على غَيبِهِ أحداً • إلا مَنِ ارتضىٰ من رَّسولٍ »

فيطلعه بقَدْرِ ما يريده .

« ليَعْلَمَ (١) أن قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم وأحاط بما لديهم وأحصىٰ كُلَّ شيء عدداً » .

أرسل مع الوحي ملائكةً قُدَّامه وخَلْفه .. هم ملائكةٌ حَفَظَة ، يحفظون الوحيَ من الكهنة والشياطين ، حتى لا يزيدوا أو ينقصوا الرسالاتِ التي يحملها . . . . والله يعلم ذلك ، وأحاط عِلْمُهُ به .

---

(١) قرأ ابن عباس (ليُعْلَم) أي ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم .

سورة المزمل

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم».

«بسم الله»: الحادثاتُ بالله حصَلَت، قلوبُ العارفين بالله عَرَفَتْ ما عَرَفَت وأرواحُ الصِّدِّيقين بالله أَلِفَتْ مَنْ أَلِفت وفهومُ الموحِّدين بساحاتِ جلاله وقَفَت، ونفوسُ العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته اتَّصَفَت وعقولُ الأولين والآخرين بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت.

قوله جل ذكره: «يأيها المُزَّمِّل * قُمِ الليلَ إلاَّ قليلاً»

أى: المتزمل المتلفِّف فى ثيابه. وفى الخبر: أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ من شَعْرٍ ووَبَرٍ، وقالت عائشة رضى الله عنها: كان نصفُه علىَّ وأنا نائمة، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّى، وطولُ المِرْطِ أربعةَ عشر ذراعاً[1].

«نِصفَه أوِ انقصْ منه قليلاً * أو زِدْ عليه ورتِّلِ القرآن ترتيلاً».

قم الليل إلا قليلاً، نصفَه بَدَلٌ منه؛ أى: قم نصف الليل، وأنقِصْ من النصف إلى الثلث أو زِدْ على الثلث، فكان عليه الصلاة والسلام فى وجوب قيام الليل مُخَيَّرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث. وكان ذلك قبل فَرْضِ الصلوات الخمس، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة — وإن كانت بقيت واجبة على الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويقال: يأيها المتزمِّل بأعباء النبوَّة.. قم الليل.

(١) معنى هذا: أن السورة مدنية وليست مكية، لأن النبى لم يبْنِ بعائشة إلا فى المدينة.

ويقال : يأيها الذى يُخفِي ما خصصناه به قُمْ فأنذِرْ . . فإنَّا نصرناك[1] .

ويقال : قُمْ بنا . . يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كلُّ الناس . . قُمْ أنت فليسكن الكلُّ . . ولتَقُمْ أنت .

ويقال : لمَّا فَرَضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نَفْسِه لأجل أُمّته وإكراماً لشأنه وقدره .

وفى الخبر : « أنه ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ... » ولا يُدْرَى التأويل للخبر[2] ، أو أنَّ التأويل معلوم . . وإلى أن ينتهى إلى التأويل فللأحبابِ راحاتٌ كثيرة ، ووجوهٌ من الإحسان موفورة .

قوله جل ذكره : « ورَتِّلِ القُرآنَ ترتيلاً »

إِرْتَعْ بِسِرِّكَ فى فَهْمِه ، وتَأَنَّ بلسانك فى قراءته .

« إنَّا سَنُلْقِي عليكَ قولا ثقيلاً » .

قيل : هو القرآن . وقيل : كلمة لا إلَـهَ إلا الله .

ويقال : الوحى ؛ وسمّاه ثقيلاً أى خفيفاً على اللسان ثقيلاً فى الميزان .

ويقال : ثقيل أى : له وزن وخطر . وفى الخبر : كان إذا نَزَل عليه القرآن — وهو على ناقته — وضعت جِرانها[3] ، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرَّى عنه .

وروى ابن عباس : أنَّ سورة الأنعامِ نَزَلَتْ مرةً واحدةً فبَرَكَت ناقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقل القرآن وهيبته .

ويقال « ثقيلا » سماعه على مَنْ جحده

---

(١) هذان تخريجان مجازيان للفظة (المزمل) .

(٢) هذا الخبر فعلا كان موضع نظر ؛ فقد روى عن طريقين عن أبى هريرة على الشك ، فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إذا مضى شطر الليل—أو ثلثاه ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا» وفى رواية أخرى : « ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك ، أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتى يضىء الفجر» . وخرجه ابن ماجه من حديث ابن شهاب عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن الرسول (ص) قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول ... » وهكذا انتظم الحديث والقرآن .

(٣) أى : صدرها .

ويقال: «ثقيلاً بعبئه — إلاَّ على من أيِّدَ بقوةٍ سماوية، ورُبِّي فى حِجْرِ التقريب»

قوله جل ذكره: «إنَّ ناشِئَةَ الليلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وأقوَمُ قِيلاً».

أى: ساعات الليل، فكلُّ ساعةٍ تحدث فهى ناشئة[1]، وهى أشد وطئاً أى: مُوَطَّأَة أى: هى أشدُّ مواافقةً للسانِ والقلبِ، وأشدُّ نشاطاً.

ويحتمل: هى أشدُّ وأغلظُ على الإنسان من القيام بالنهار.

«وأقوم قيلا» أى: أَبْيَنُ قولاً.

ويقال: هى أشدُّ مواطأةً للقلب وأقوم قيلًا لأنها أبعدُ من الرياء، ويكون فيها حضورُ القلبِ وسكونُ السِّرِّ أبلغَ وأتمَّ.

قوله جل ذكره: «إنَّ لكَ فى النَّهارِ سَبْحاً طويلًا».

أى: سبحًا فى أعمالك، والسبح: الذهاب والسرعة، ومنه السباحة فى الماء.

فالمعنى: مذاهبُك فى النهار فيما يَشْغَلُكَ كثيرةٌ — والليلُ أَخْلَى لك.

قوله جل ذكره: «واذكُرِ اسمَ ربِّكَ وتبتَّلْ إليه تبتيلاً».

أى: انقطِعْ إليه انقطاعًا تامًا.

«ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فاتَّخِذْهُ وكيلاً».

الوكيلُ مَنْ تُوكَلُ إليه الأمورُ، أى: تَوَكَّلْ عليه وكِلْ أمورَك إليه، وثِقْ به.

ويقال: إنك إذا اتخذتَ من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالَكَ وطالبوك بالأجرة، وإذا اتخذتنى وكيلاً أُوَفِّرُ عليكَ مَالَكَ وأُعطيكَ الأجر.

---

(١) قال ابن مسعود: الحبشة يقولون: نشأ أى قام. فكأن ناشئة الليل مصدر بمعنى قيام الليل ... مثل خاطئة وكاذبة .. فإذا افترضنا أنها كلمة شائعة الاستعمال عند الحبشة بهذا المعنى فإنها ذات أصل عربى أيضاً.

ويقال : وكيلك ينفق عليك من مالك ، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالى .

ويقال : وكيلك مَنْ هو فى القَدْرِ دونك ، وأنت تترفَّعُ أن تكلِّمَه كثيراً . . وأنا ربُّكَ وسيِّدُكَ وأحبُّ أنْ تكلِّمَنى وأُكلِّمَكَ .

قوله جل ذكره : « وٱصبِرْ علىٰ ما يقُولونَ وٱهجرهم هَجْراً جميلاً » .

الهَجْرُ الجميلُ : أن تعاشِرَهم بظاهرك وتُبايِنَهم بِسِرِّكَ وقلبك .

ويقال : الهجرُ الجميل ما يكون لحقِّ ربِّك لا لِحَظِّ نَفْسِك .

ويقال : الهجرُ الجميلُ ألا تُكلِّمَهم ، وتكلمنى لأجْلِهم بالدعاء لهم .

وهذه الآية منسوخة بآية القتال[1] .

قوله جل ذكره : « وذرنى والمكذِّبينَ أولى النَّعمة ومَهِّلْهم قليلاً » .

أى : أُولِى التَّنَعُّم[2] ، وأَنظِرْهم قليلاً ، ولا تَهتَمّ بشأنهم ، فإنى أكفيكَ أمرَهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ لَدينا أنكالاً وجَحيماً * وطَعَاماً ذا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً » .

ثم ذكر وصف القيامة فقال :

« يومَ تَرْجُفُ الأرضُ والجبالُ
وكانتِ ٱلجبالُ كثيباً مَّهيلاً » .

---

(1) قال قتادة : كان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعد بقتالهم وقتلهم فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك . (القرطبى) حـ١٩ ص ٤٥) .

(2) هم صناديد قريش ، ورؤساء مكة من المستهزئين .

وقال يحيى بن سلام : إنهم بنو المغيرة .

وقالت عائشة : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر .

ثم قال :

« إنَّا أرسلنا إليكمْ رسُولاً شَاهِداً
عليكُمْ كما أرْسلنا إلى فِرْعَونَ
رسُولاً » .

يعنى : أرسلنا إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً عليكم « كما أرسلنا إلى فرعون رسُولا » ، « فَعصى فرعونُ الرسُولَ فأخذنَاهُ أخذاً وبيلاً » ثقيلا .

« فكيف تتقون إن كفرتم يوماً » من هَوْله يصير الولدانُ شيباً — وهذا على ضَرْبِ المثل .

« السماء مُنْفَطِرٌ به » أى بذلك : اليوم لهوله[1] .

ويقال : مُنْفَطِرٌ بالله أى : بأمره .

« كان وعده مفعولا » : فما وَعَدَ اللهُ سيصدقه .

« إنَّ هذه تذكرةٌ » : يعنى : هذه السورة ، أو هـــذه الآيات مَوْعظَةٌ ؛ فمَن اتعظ بها سَعِدَ .

« إنَّ ربَّك » يا محمد « يعلم أنك تقوم أدنى من ثُلُثَى الليلِ ونصفَه وثُلُثَه وطائفة من الذين معك » من المؤمنين .

« واللهُ يُقَدِّرُ الليلَ والنهارَ » فهو خالقهما « عَلِمَ أن لَّن تُحْصُوه » وتطيقوه .

« فتاب عليكم » أى : خَفَّفَ عنكم[2] ، « فاقرءوا ما تَيَسَّرَ من القرآنِ » من خمس آيات إلى مازاد . ويقال : من عَشْرِ آيات إلى ما يزيد[3] .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (لقوله) والصواب ما جاء فى م كما هو واضح من السياق .

(٢) كان الرجلُ لا يدرى متى نصف الليل من ثلث فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطىء فانتفخت أقدامهم ، وانتقعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم (مقاتل) .

(٣) قال الحسن : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجه القرآن ، وقال كعب : كُتِب من القانتين .
وفى حديث مسند عن عبد الله بن عمرو : أن النبى (ص) قال : «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين (= أعطى من الأجر قنطاراً) » خرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده .

« عَلِمَ أن سَيَكُونُ منكُمْ مَرْضَىٰ وآخَرونَ يضربُون فى الأرضِ » يسافرون ، ويعلم أصحاب الأعذار ، فَنَسَخَ عنهم قيامَ الليل .

« وأقيمُوا الصلاةَ » المفروضة .

« وأقرِضُوا اللهَ قرضاً حسناً » مضى معناه .

« وَمَا تُقَدِّموا لأنفسِكُمْ مِّن خيرٍ تجدُوه » أى : ما تقدّموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا .

سُورَةُ المُدَّثِّر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها نزهةُ قلوبِ الفقراء ، كلمةٌ سماعُها بهجة أسرارِ الضعفاء ، راحةُ أرواحِ الأحِبَّاء ، قوةُ قلوبِ الأولياء ، سَلْوَةُ صدورِ الأصفياء ، قُرَّةُ عيونِ أهلِ البلاء .

قوله جل ذكره : « يٰأيها المُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ » .

يٰأيها المتدثر بثوبه .

وهذه السورة من أول ما أُنْزِلَ من القرآن . قيل : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذَهَب إلى حِرَاء قبل النُّبُوة ، فبَـدا له جبريلُ فى الهواء ، فرجع الرسول إلى بيت خديجة وهو يقول « دثِّرونى دثِّرونى » فَدُثِّرَ بثوبٍ فنزل عليه جبريل وقال : « يٰأيها المدثر ، قم فأنذِرْ »[1] .

وقيل : أيها الطالبُ صَرْفَ الأذى عنك بالدثار اطلبْه بالإنذار .

ويقال : قُمْ بنا ، وأَسْقِطْ عنك ما سوانا ، وأَنذِر عبادَنا ؛ فلقد أقمناك بأشرف المواقف ، ووقفناك بأعلى المقامات .

ويقال : لمَّا سَكَنَ إلى قوله : « قم » وقام قَطَعَ سِرَّه عن السُّكونِ إلى قيامِهِ ، ومن الطمأنينة فى قيامه .

قوله جل ذكره : « وربَّكَ فَكَبِّرْ » .

---

(١) حدَّث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (ص) : جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى ، فنوديت ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فلم أر أحداً ، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ، ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا جبريل على عرش فى الهواء فأخذتنى رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت : دثرونى . فصبوا على ماء . رواه البخارى بهذه النهاية : دثرونى وصبوا على ماء بارداً فدثرونى وصبوا على ماء بارداً فنزلت : يٰأيها المدثر » .

كَبِّرْه عن كلِّ طَلَبٍ ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ ، وعِلَّةٍ وخَلْقٍ .

« وثيابَكَ فطهِّرْ » .

طَهِّرْ قلبك عن الخلائق أجمع ، وعن كلِّ صفةٍ مذمومة .

وطَهِّرْ نَفْسَك عن الزَّلَّات ، وقلبَك عن المخالفات ، وسِرَّك عن الالتفاتات .

ويقال : أَهْلَكَ طَهِّرْهم بالوعظ ؛ قال تعالى : « هُنَّ لِباسٌ لكم »[1] ، فيعبر عنهن — أحيانًا — بالثياب واللِّباس .

قوله جل ذكره : « والرُّجْزَ فاهْجُرْ » .

أى : المعاصى . ويقال : الشيطان . ويقال : طَهِّرْ قلبَك من الخطايا وأشغال الدنيا .

ويقال : مَنْ لا يَصِحُّ جِسْمُه لا يجد شهوةَ الطعام كذلك مَنْ لا يَصِحُّ قلبُه لا يجد حلاوةَ الطاعة .

« ولا تَمْنُن تَسْتَكثِر » .

لا تُعْطِ عطاء تطلب به زيادةً على ما تعطيه .

ويقال : لا تستكثِرْ الطاعةَ من نفسك .

ويقال : لا تَمْنُنْ بعملك تَسْتَكثِرَ عملك ، وتُعْجَبَ به .

« ولربِّكَ فاصبِرْ » .

أى : أنت تُؤْذَى فى الله . فاصبِرْ على مقاساةِ أذاهم .

قوله جل ذكره : « فإذا نُقِرَ فى النَّاقورِ ＊ فذلك يَوْمئذٍ يَوْمٌ عسيرٌ ＊ على الكافرين غيرُ يسيرٍ » .

يعنى : إذا قامت القيامةُ ، فذلك يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ هيِّنٍ .

قوله جل ذكره : « ذَرْنى وَمنْ خَلَقْتُ وحيداً » .

---

(١) آية ١٨٧ سورة البقرة .

أى : لا تهتمْ بشأنهم ، ولا تحتفِلْ ؛ فإنِّى أ كفيكَ أمرَهم .

إنِّى خَلَقْتُه وحدى ؛ لم يشارِكْنى فى خلقى إيَّاه أحدٌ .

ويحتمل : خَلَقْتُه وَحْدَه لا ناصرَ له .

قوله جل ذكره : « وجَعَلْتُ له مالاً ممدُوداً ❋ وَبنِينَ شُهوداً » .

حضوراً معه لا يحتاجون إلى السَّفَرِ .

« ومَهَّدْتُ له تمهيداً » .

أراد : تسهيلَ التصرُّف ، أى : مكَّنْتُه من التصرُّف فى الأمور[1] .

« ثُم يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » .

يطمع أن أزيده فى النعمة :

« كَلَّا ، إنَّه كانَ لآياتِنا عَنيداً » .

جَحوداً .

« سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » .

سأحمله على مشقَّةٍ من العذاب .

« إنَّه فَكَّرَ وقَدَّرَ ❋ فَقُتِلَ كيف قَدَّرَ ❋ ثم قُتِلَ كيف قَدَّرَ » .

أى : لُعِنَ كيف فكَّر ، وكيف قدَّر ، ويعنى به : الوليد بن المغيرة[2] الذى قال فى النبى صلى الله عليه وسلم : إنَّه ليس بشاعرٍ ولا بمجنونٍ ولا بكذَّاب ، وإنه ليس إلا ساحر ، وما يأتى به ليس إلا سحرٌ يُرْوَى :

---

(١) واضح من هذا أن القشيرى يؤمن بحرية الإنسان ، وأن الجبرية عنده ليست مطلقة .

(٢) كان الوليد يدعى ريحانة قريش فلما سمعت منه واصفاً القرآن : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ... » قالت قريش : صبأ الوليد لتصبون قريش كلها ، فلما ذهب إليه أبو جهل ليثنيه . قال له بعد أن فند مزاعمهم : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟

« ثم نَظَر * ثم عَبَسَ وبَسَر[1] *
ثم أدْبرَ واستكبرَ * فقال :
إنْ هذا إلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إنْ هذا
إلَّا قولُ البَشَرِ * سأُصْلِيهِ سَقَرَ *
وَمَا أدْراكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي ولا تَذَرُ *
لَوَّاحةٌ للبَشَرِ » .

لا تُبقِي لحمًا ، ولا تذَرُ عظمًا ، تحرق بشرة الوجه وتُسَوِّدها ، من لاحته الشمسُ ولوَّحته .

« عَلَيْهَا تِسعةَ عشرَ » .

قال المشركون : نحن جَمْعٌ كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر ؟ ! فأنزل الله سبحانه :

« وَمَا جعلْنا أصحابَ النَّارِ إلَّا ملائكةً
ومَا جعلْنا عِدَّتَهُم إلاَّ فِتْنةً للذينَ
كَفرُوا لِيستَيْقِنَ الذينَ أوتُوا
الكتابَ ويزْدادَ الذينَ آمنوا إيمانًا
ولا يرْتابَ الذين أوتُوا الكتابَ
والمؤمنونَ » .

فيزداد المؤمنون إيمانًا ، ويقول هؤلاء : أى فائدة فى هذا القدْر ؟ فقال تعالى :

« كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يشاء
ويَهْدِى من يشاء » .

ثم قال :

« وَما يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلَّا هُو
وَما هِيَ إلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ » .

أى : تقاصرتِ علومُ الخَلْقِ فلم تتعلَّقْ إلا بمقدار دون مقدار ، والذى أحاط بكل شىء علمًا .
هو الله — سبحانه .

(١) بَسَر أى كلح وجهه وتغير لونه .

« كَلاَّ وَٱلقمرِ »

كلاّ — حرفُ ردعٍ وتنبيه ؛ أى : ارتدعوا عما أنتم عليه ، وانتبهوا لغيره وأقسم بهذه الأشياء « كَلا والقمرِ » : أى بالقمر ، أو بقدرته على القمر .

وبالليل إذا أَدْبرَ .. وقُرِئ « ودَبَرَ » أى : مضى ، «والصُّبح إذا أسفر» أى : تجلَّى

« إنَّهـا لَإحدَى الـكُبَرِ » .

أى : النار لإحدى الدواهى الـكُبَر .

ويقال فى « كلا والقمر » إشارةٌ إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالُها فى الزيادة بزيادة البراهين ، فإنها تزداد ، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام فى العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، فالعلم يأخذ فى النقصان ، وتطلع شمسُ المعرفة ، فكما أنه إذا قَرُبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقًا — كذلك إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفانِ تأخذ أقمارُ العلوم فى النقصان لزيادة المعارف ؛ كالسراج فى ضوء الشمس وضياء النهار . « والليل إذا أدبر» أى إذا انكشفت ظُلَمُ البواطن ، « والصبح إذا أسفر » وتجلَّت أنوار الحقائق فى السرائر . . إنها لإحدى العظائم ! وذلك من باب التخويف من عودة الظُّلَم إلى القلوب[1] .

« نَذيراً للبشرِ » فى هذا تحذيرٌ من الشـواغل التى هى قواطع عن الحقيقة ، فيحذروا المساكنةَ والملاحظةَ إلى الطاعات والموافقات . . فإنَّها — فى الحقيقة — لا خطرَ لها[2] .

« لِمَنْ شاء منكمُ أن يتقدَّم أَوْ يتأخَّرَ » عن الطاعات . . وهذا على جهة التهديد .

قوله جل ذكره : « كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهينَةٌ » .

أى : مرتهنة بما عملت ، ثم استثنى :

« إلَّا أصحابَ اليَمين » .

---

(١) من خصائص أسلوب القشيرى — كما أوضحنا ذلك فى كتابنا عنه — أنه كثيراً ما يستعين بمظاهر الطبيعة : الليل والنهار — والقمر والشمس والجبال والمطر والبحار وغير ذلك كى يوضح عن طريق ذلك دقائق العلم الصوفى .

(٢) يقصد أن نظرة الإنسان إلى عمله، وإعطاء هذا العمل قيمة .. من قبيل دعوى النفس .. المهم فى الطريق فضل الله واجتباء الله .

فقال : إنهم غير مرتهنين بأعمالهم ، ويقال : هم الذين قال الله تعالى في شأنهم : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي » ! .

وقيل : أطفال المؤمنين[1].

« في جنَّاتٍ يتساءلون * عن المجرمين * ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ ؟ * قالوا لم نَكُ من المُصَلِّينَ * ولم نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ * وكُنَّا نخوضُ مع الخائِضين * وكُنَّا نُكَذِّبُ بيومِ الدِّينِ » .

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين ، ويقولون لأهل النار إذا حَصَلَ لهم إشرافٌ عليهم : ما سلككم في سقر ؟ قالوا : ألم نَكُ من المصلين ؟ ألم نكُ نُطْعِمُ المسكين ؟ .

وهذا يدل على أنَّ الكفارَ مُخاطَبون بتفصيل الشرائع .

« وكنا نخوض مع الخائضين » : نشرع في الباطل ، ونكذِّب بيوم الدين .

« حَتَّى أتانا اليقينُ » .

وهو معاينة القيامة .

« فما تنفعُهُم شفاعةُ الشافعينَ » .

أي : لا تنالهم شفاعةُ مَنْ يشفع .

« فَمَا لهُم عَنِ التَّذْكِرةِ مُعْرِضينَ[2] »

والتذكرة : القرآن :

« كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرةٌ * فَرَّتْ من قَسْوَرة » .

---

(١) قال ابن عباس : هم الملائكة . وقال علي بن أبي طالب : هم أولاد المؤمنين لم يكتسبوا فيُرتهنوا بكسبهم . وقال الضحاك : الذين سبقت لهم من الله الحسنى . وقال مقاتل : هم الذين كانوا على يمين آدم يوم الذر . والله أعلم.

(٢) معرضين منصوب على الحال من الهاء والميم في (لهم) ، وفي اللام معنى الفعل فانتصاب الحال على معنى الفعل.

كأنهم حُمُرٌ نافرة فرّت من أسَدٍ (١)

« بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً » .

بل يريد كلٌّ منهم أن يُعْطَى كتاباً منشوراً .

« كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » .

أي : كَلَّا لا يُعْطَوْن ما يتمنّون لأنهم لا يخافون الآخرة .

« كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ » .

إِلّا أَنْ يشاء اللهُ — لا أَنْ تشاءوا

« هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ » .

أهلٌ لأَنْ يُتّقَى .

« وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » .

وأهلٌ لأَنْ يغفِرَ لمن يتّقِي — إن شاء .

---

(١) القسورة بلسان العرب : الأسد ، أو أول الليل ، أو الشديد . وبلسان الحبشة : الرماة .

سورة القيامة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة مَنْ سمعها بشاهد العِلْم استبصر ، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحيَّر .. فالعلماء فى سكون برهانه ، والعارفون فى دَهَش سلطانه .. أولئك فى نجوم علومهم ، فأحوالُهم صَحْوٌ فى صَحْو ، وهؤلاء فى شموسِ معارفهم : فأوقاتُهم محوٌ فى محو .. فشتان ما هما !!

قوله جل ذكره : « لا أُقْسِمُ بيوم القيامةِ » .

أى : أقسم بيوم القيامة

« وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفسِ اللَّوَّامةِ » .

أى : أقسم بالنفس اللَّوَّامه ، وهى النَّفْسُ التى تلوم صاحبَها ، وتعرف نقصانَ حالها .

ويقال : غداً .. كلُّ نَفْسٍ تلوم نَفْسَها : إمَّا على كُفْرِها ، وإمَّا على تقصيرها — وعلى هذا فالقَسَمُ يكون بإضمار « الرَّب » أى : أقسم بربِّ النفس اللوامة . وليس للوم النَّفْسِ فى القيامةِ خطرٌ — وإنْ حُمِلَ على الكُلِّ(1) ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلَّ النفوس غداً — ستكون على هذه الجملة . وجوابُ القسَم قولُهُ : بلى ...

قوله جل ذكره : « أَيَحسَبُ الإنسانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظامَهُ ؟ »

أيظن أنَّا لن نبعثَه بعد موته ؟

« بلى قادِرِينَ علىٰ أن نُّسَوِّيَ بنَانَهُ »

« قادرين » نصب على الحال ؛ أى بلى ، نسوى بنانه فى الوقت قادرين ، ونقدر أى نجعل

---

(1) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (الاكل) وهى خطأ قطعاً .

أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير وظلف الشاة .. فكيف لا نقدر على إعادته ؟ !

« بل يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمامَهُ » .

يُقدِّم الزّلّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب .ويقال : يعزم[1] على ألا يستكثر من معاصيه فى مستأنف[2] وقته ؛ وبهذا لا تَنْحَلُّ — فى الوقت — عقدةُ الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصحُّ توبتُه ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل ما عَمِل . فإذا كان استحلاء الزلّةِ فى قلبه ، ويفكر فى الرجوع إلى مثلها ـ فلا تصح ندامتُه .

قوله جل ذكره : « يَسألُ أيّانَ يومُ القِيامةِ ؟ »

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

«فإذا بَرِقَ البصرُ * وَخَسَفَ القمرُ *
وجُمِعَ الشَّمْسُ والقمرُ * يقولُ
الإنسانُ يومئذٍ أيْنَ المفرُّ ؟ » .

« بَرِقَ بكسر الراء معناها تحيّرَ ، « وبَرَقَ » بفتح الراء شَخَصَ (فلا يطْرِف) من البريق ، وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، لها زفير وشهيق ، فلا يَبْقى مَلَكٌ ولا رسولٌ إلاّ وهو يقول : نفسى نفسى !

« وَخَسَفَ القمر وجُمِعَ الشمس والقمر » كأنهما ثوران عقيران[3] .

ويقال : يجمع بينهما فى ألاّ نورَ لهما .

---

(١) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (يزعم) وهى خطأ قطعاً بدليل ما بعدها... من شرطها (العزم) .

(٢) أى : فى المستقبل .

(٣) قال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مقرنين كأنهما ثوران عقيران .

وفى مسند أبى داود الطيالسى عن يزيد الرقاشى عن أنس يرفعه إلى النبى (ص) قال : قال رسول الله ص « إن الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار » .

« يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » والمفرّ موضع الفرار إليه ، فيُقال لهم :

« كلاَّ لا وَزَرَ »

اليومَ ، ولا مَهْربَ من قضاء الله[1] .

« إلىٰ ربِّك يومئذٍ المُستقَرُّ » .

أى : لا مَحِيدَ عن حُكْمِه .

« يُنَبَّؤُا الإنسانُ يومئذ بما قدّمَ وأخَّرَ » .

أى : يَعْرِف ما أسلَفَه[2] من ذنوب أحصاها اللهُ — وإن كان العبدُ نسِيَها .

« بَلِ ٱلإنسانُ على نَفْسِهِ بصيرةٌ * ولوْ ألْقىٰ معاذِيرَهُ » .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمله .

ويقال : هو بصيرةٌ وحُجّةٌ على نفْسه فى إنكار البعث .

و يقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكلِّ حجةٍ فلن تُسْمع منه ولن تنفعه .

قوله جل ذكره : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَل به * إنَّ علينا جَمْعَهُ وقُرآنَه * فإذا قرأناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ » .

لا تستعجِلْ فى تَلَقُّفِ القرآنِ على جبريل ، فإنَّ علينا جَمْعَهَ فى قلبك وحِفْظَه ، وكذلك علينا تيسيرُ قراءته على لسانك، فإذا قرأناه أى : جمعناه فى قلبك وحفظك فاتبع بإقرائك جمْعَه .

« ثُمَّ إنَّ علينا بيانَهُ » .

نُبيِّنُ لك ما فيه من أحكام الحلال والحرام وغيرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعجل فى التلقفِ مخافةَ النسيان ، فنُهِيَ عن ذلك ، وضمن اللهُ له التيسير والتسهيل .

---

(١) الوزر فى اللغة ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو نحوهما : قال الشاعر :

لعمرى ما للفتى من وزر ... من الموت يدركه والكبر

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (أسفله) وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : « كلاَّ بلْ تُحِبون العاجِلةَ * وتذَرون الآخِرة » .

أى : إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة فى الدنيا ، أى : يحبون البقاء فى الدنيا .

« وتذرون الآخرة » : أى : تتركون العملَ للآخرة . ويقال : تكفرون بها .

قوله جل ذكره : « وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ * إلى ربِّها ناظرة » .

« ناضرة » : أى مشرقة حسنة ، وهى مشرقة لأنها إلى ربها « ناظرة » أى رائية لله .

والنظر المقرون بـ « إلى » مضافاً إلى الوجه[1] لا يكون إلاَّ الرؤية ، فالله تعالى يخلق الرؤية فى وجوههم فى الجنة على قَلْبِ العادة ، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى .

ويقال : العين من جملة الوجه (فاسم الوجه)[2] يتناوله .

ويقال : الوجهُ لاينظر ولكنَّ العينَ فى الوجهِ هى التى تنظر ؛ كما أنَّ النهرَ لا يجرى ولكنَّ الماء فى النهر هو الذى يجرى ، قال تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

ويقال : فى قوله : « وجوه يومئذ ناضرة » دليل على أنهم بصفة الصحو ، ولا تتداخلهم حيرة ولا دَهَش ؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء فى حال اللقاء أتمُّ من اللقاء .

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضى بقاء الرائى ، وعندهم استهلاكُ العبدِ فى وجود الحقِّ أتمُّ ؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية .

قوله جل ذكره : « وَوُجوهٌ يومئذٍ باسِرةٌ * تَظُنُّ أنْ يُفْعَلَ بها فاقِرة » .

---

(١) (مضافاً إلى) معناها (منسوباً إلى) .

(٢) ما بين القوسين وارد فى ص ولم يرد فى م وهو هام فى توضيح السياق .

« باسرة » : أى كالحةٌ عابسة . « فاقرة » أى : داهية[1] وهى بقاؤهم فى النار عَلَى التأبيد.

(تظن أن يخلق فى وجوههم النظر[2]) .

ويحتمل أن يكون معنى « تظن » : أى يخلق ظنًّا فى قلوبهم يظهر أثرُه على وجوههم .

« كلاَّ إذا بَلَغَتِ التَّراقِىَ * وقيل مَنْ راقٍ * وظنَّ أنَّه الفِراقُ * والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ * إلى ربِّكَ يومئذٍ المَساقُ » .

أى ليس الأمر على ما يظنون ؛ بل إذا بلغت نفوسُهم التراقىَ[3] ، وقيل : مَنْ راقٍ ؟ أى يقول مَنْ حولَه : هل أحدٌ يَرْقيه ؟ هل طبيبٌ يداويه ؟ هل دواء يشفيه؟[4].

ويقال : مَنْ حَوْله من الملائكة يقولون : مَن الذى يَرْقى برُوحه ؛ أملائكةُ الرحمة أو ملائكة العذاب ؟ .

« وظن أنه الفراق » : وعلم الميت أنه الموت ! .

« والتفت الساق بالساق » : ساقا الميت . فتقترنُ شدَّةُ آخرِ الدنيا بشدَّة أوَّلِ الآخرة .

« إلى ربك يومئذٍ المساق » أى الملائكةُ يسوقون روحَه إلى الله حيث يأمرهم بأن يحملوها إليه : إمّا إلى عليين — ثم لها تفاوت درجَات ، وإمّا إلى سجِّين — ولها تفاوت دَرَكات .

ويقال : الناسُ يُكَفِّنون بَدنَ الميت ويغسلونه ويُصَلُّون عليه .. والحقُّ سبحانه يُلْبِسُ روحَه ما تستحق من الحُلَلِ ، ويغسله بماء الرحمة ، و يصلى عليه وملائكتُه .

قوله جل ذكره : « فلا صَدَّقَ ولا صلَّىٰ * ولكن كذَّب وتَوَلَّى » .

---

(١) الفاقرة لها معان كثيرة منها : الداهية ، والأمر العظيم ، والشر ، والهلاك ، ودخولهم النار . وهى فى الأصل : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم .

(٢) العبارة هكذا فى م أما فى ص فهى (..... الظن) بدلا من (النظر) ، ويمكن قبول عبارة م على أساس ن (النظر) أمر عظيم - وهو أحد معانى (الفاقرة) كما قلنا .. ولكننا نرجح — والله أعلم - أن العبارة ربما كانت فى الأصل على هذا النحو : [تظن : (أى) يخلق فى وجوههم (الظن)] فحتى هذا الظن مخلوق فى وجوههم من قبل الله .. وربما يتأيد ما ذهبنا إليه بما جاء بعدها مباشرة .

(٣) جمع (ترقوة) : العظام التى تكتنف مقدم الحلق من أعلى الصدر ، وهى موضع الحشرجة .

(٤) معروف ألا رقية ولا دواء للموت . . ولكنهم يتساءلون هكذا على وجه التحير عند الإشفاء على الموت .

يعنى : الكافر ما صدّق اللهَ ولا صلّى له ، ولكن كذّب وتولّى عن الإيمان . وتدل الآيةُ على أنّ الكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع .

« ثُم ذَهَبَ إلى أهلِه يَتَمَطَّى » .

أي : يتبختر ويختال .

« أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ » .

العَرَبُ إذا دَعَتْ على أحدٍ بالمكروه قالوا : أولى لك اوهنا أتبع اللفظَ اللفظَ على سبيل المبالغة .

ويقال : معناه الويلُ لَكَ يومَ تَحيا ، والويلُ لكَ يوم تَموت ، والويلُ لكَ يومَ تُبعَث ، والويل لكَ يوم تدخل النار[1] .

« أَيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سدًى » .

مهملاً لا يُكلَّفُ !؟ . ليس كذلك .

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثم كان علقةً فخَلَقَ فسوّى ۞ فَجَعَلَ مِنهُ الزوجيْنِ الذَّكَرَ والأنثى » .

« من منى يمنى » أى تُلقى فى الرَّحم ، ثم كان علقة أى : دماً عبيطا[2] ، فسوّى أعضاءه فى بطن أمه ، ورَكّبَ أجزاءه على ما هو عليه فى الخِلقة ، وجعل منه الزوجين : إن شاء خَلَقَ الذَّكَرَ ، وإن شاء خَلَقَ الأنثى ، وإن شاء كليهما .

« أليس ذلك بقادر على أن يُحْيِيَ المَوْتى ؟ » .

أليس الذى قدر على هذا كلِّه بقادر على إحياء الموتى ؟ فهو استفهام فى معنى التقرير[3] .

---

(١) فى معنى « الويل لك » تقول الخنساء :

همت بنفسى كل الهموم فأولى لنفسى أولى لها
سأحمل نفسى على آلة فإما عليها وإما لها

ويقال : إن الرسول هدد أبا جهل بهاتين الآيتين .. حتى إذا كان يوم بدر ، ضرب الله عنقه وقتل شر قتله .

(٢) الدم العبيط : الطرى الذى لم ينضج (الوسيط) .

(٣) هكذا فى م وهى الصواب أما فى ص فهى (التقدير) بالدال وهى خطأ .

سورة الإنسان

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم».

«بسم الله» اسمٌ جبَّارٌ توحَّد فى آزالِه بوصف جبروته، وتفرَّدَ فى آبادِه بنعت ملكوته؛ فأزَلُه أبَدُه، وأبَدُه أزَلُه، وجبروتُه ملكوتُه، وملكوته جبروتُه.

أحديُّ الوصفِ، صَمَدِيُّ الذات، مُقَدَّسُ النعْتِ، واحدُ الجلالِ، فَرْدُ التعالى، دائمُ العزِّ، قديمُ البقاء.

قوله جل ذكره: «هَل أتى على الإنسانِ حِينٌ من الدَّهرِ لم يَكُن شيئاً مذكوراً».

فى التفسير: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار. قيل: كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُه بين مكة والطائف. ثم من صلصالٍ أربعين سنة، ثم من حمإٍ مسنون أربعين سنة، فتمّ خَلْقُه بعد مائة وعشرين سنة[1].

ويقال: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر...»: أى لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إلىّ.

ويقال: هل غفَلْتُ ساعةً عن حِفْظِك؟ هل ألقيتُ — لحظةً — حَبْلَكَ على غارِبك؟ هل أخليتُك — ساعةً — من رعاية جديدة وحمايةٍ مزيدة.

قوله جل ذكره: «إنَّا خَلَقْنا الإنسانَ من نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ نَّبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً».

---

(١) وزاد ابن مسعود أربعين سنة فقال: وأقام وهو من تراب أربعين سنة ثم خلقه بعد مائة وستين سنة ثم نفخ فيه الروح (حكاه الماوردى).

« من نطفة » : أى من قطرة ماء ، « أمشاج » : أخلاط من بين الرجل والمرأة .

ويقال : طوراً نطفة ، وطوراً عَلَقَة ، وطوراً عَظْماً ، وطوراً لَحْماً .

« نبتليه » : نمتحنه ونختبره . وقد مضى معناه . « فجعلناه سميعاً بصيراً » .

« إنَّا هَدَيْنَاهُ السبيلَ إمَّا شاكِراً
وإمَّا كفوراً » .

أى : عَرَّفْناه الطريقَ ؛ أى طريقَ الخيرِ والشرِّ .

وقيل : إمَّا للشقاوة ، وإمَّا للسعادة ، إمَّا شاكراً من أوليائنا ، وإما أن يكون كافراً من أعدائنا ؛ فإنْ شَكَرَ فبالتوفيق ، وإنْ كفرَ فبالخذلان .

قوله جل ذكره : « إنَّا أَعْتَدْنا لِلكافرين سَلاسِلَاْ
وأَغْلالاً وسعيراً » .

أى : هيَّأْنا لهم سلاسلَ يُسْحَبون فيها ، وأغلالاً لأعناقهم يُهانون بها ، « وسعيراً » : ناراً مستعرة .

« إنَّ الأبرارَ يشربُون من كأسٍ كان
مِزاجُها كافوراً » .

قيل : البَرُّ : الذى لا يُضْمِرُ الشَّرَّ ، ولا يؤذى الذَّرَّ .

وقيل : الأبرار : هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهم لعن المستحقرات ، وظهرت فى قلوبهم ينابيع الحكمة فاتَّقوا عن مُسَاكنةِ الدنيا .

يشربون[1] من كأسٍ رائحتها كرائحة الكافور ، أو ممزوجة بالكافور .

ويقال : اختلفت مشاربُهم فى الآخرة ؛ فكلٌّ يُسْقَى ما يليق بحاله . . . وكذلك فى الدنيا مشاربُهم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يُسقَى مَزْجًا ، ومنهم من يُسقَى صِرْفاً ، ومنهم من يسقى على

(١) يتحدث القشيرى فى هذه السورة عن الشراب على نحو تفصيل يستحق التأمل ، وينبغى أن يضاف إلى حديثه عنه فى رسالته عند بحث هذا الموضوع عند هذا الصوفى السُّنى الجليل .

النُّوَب ، ومنهم من يُسقى بالنُّجُب ومنهم من يُسْقى وحدَه ولا يُسقى مما يُسقى غيره ، ومنهم مَنْ يسقى هو والقوم شراباً واحداً .. وقالوا :

إن كنت من ندمای فبالأ كبر اسْقِنِی ولا تَسْقِنِی بالأصــغر المتثــلم

وفائدة الشرابِ — اليومَ — أن يشغلهم عن كل شيء فيريحهم عن الإحساس ، ويأخذهم عن قضايا العقل .. كذلك قضايا الشراب فى الآخرة ، فيها زوالُ الأَرَبِ ، وسقوطُ الطلبِ ، ودَوَامُ الطَّرَب ، وذَهَابُ الحَرَب ، والغفلة عن كلّ سبب .

ولقد قالوا :

عاقِرْ عقارك واصْطَبِـحْ واقدَحْ سرورَك بالقَدَحَ

واخلع عذارك فى الهوى وأَرِحْ عذولَكَ واسترحْ

وافرَحْ بوقتِك إنما عُمْرُ الفتى وقتُ الفرَح

قوله جل ذكره : « عيناً يشرب بها عبادُ اللهِ يفُجِّرونها تفجيراً » .

يُشَقِّقُونَها تشقيقاً ، ومعناه أن تلك العيون تجرى فى منازلهم وقصورهم على ما يريدون . واليومَ — لهم عيونٌ فى أسرارهم من عين المحبة ، وعين الصفاء ، وعين الوفاء ، وعين البسط ، وعين الروح .. وغير ذلك ، وغداً لهم عيون .

« يُوفون بالنَّذْرِ »

ثم ذكر أحوالهم فى الدنيا فقال : يوفون بالعهد القديم الذى بينهم وبين الله على وجهٍ مخصوص .

« ويَخافُـــونَ يوما كانَ شَرُّه
مُسْتطيراً » .

قاسياً ، منتشراً ، ممتداً .

« ويُطْعِمونَ الطعامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً
وَيتيماً وأسيراً » .

أى : على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه . ويقال : على حُبِّ الله ، ولذلك يُطْعِمون .

ويقال : على حُبِّ الإطعام .

وجاء فى التفسير : أن الأسير كان كافراً — لأنَّ المسلمَ ما كان يُستأسَرُ فى عهده — فطاف على بيت فاطمة رضى الله عنها[1] وقال : تأسرونا ولا تطعمونا[2] !

« إنَّما نُطْعِمُكُمْ لوجهِ اللهِ لا نُريدُ
مِنكُمْ جزاءً ولا شُكوراً » .

إنما نطعمكم ابتغاء مرضاةِ الله ، لا نريد من قِبلكُم جزاء ولا شكراً .

ويقال : إنهم لم يذكروا هذا بألسنتهم ، ولكن كان ذلك بضمائرهم .

« إنَّا نخافُ من رَّبِّنا يوماً عبُوساً
قَمْطَرِيراً » .

أى : يوم القيامة

« فوقَاهُم اللهُ شَرَّ ذلك اليومِ »

(١) هكذا فى م ، وفى ص (صلى الله عليها) .

(٢) قال الأسير وهو واقف بالباب : «السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ! أطعمونى فإنى أسير محمد » . فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح .. حتى لصق بطن فاطمة بظهرها وغارت عيناها من شدة الجوع » . فلما رآها النبى (ص) وعرف المجاعة فى وجهها بكى وقال : « واغوثاه يا الله ! أهل بيت محمد يموتون جوعاً» فنزلت الآية . ولكن بعض رجال الحديث يطعنون فى هذا الخبر . يقول الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : « هو حديث مزوق مزيف ؛ لأن الله تعالى يقول : يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » ، والنبى يقول : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » .

« ولقّاهُم » أى : أعطاهم « نضرةً وسرُوراً » .

« وجزاهم بِمَا صَبروا جَنَّةً وحريراً »

كافـأهُم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنَّةً وحريراً

« متـكئين فيها على الأرَائِكِ »

واحدها أريكة ، وهى السرير فى الحجال[1] .

« لا يرَوْنَ فيها شَمْساً ولا زمْهريراً »

أى : لا يَتأذّون فيها بحَرٍّ ولا برْدٍ .

« ودانيةً عليهم ظِلالُها وذُلِّلَتْ
قُطوفُها تذْليلاً » .

يتمكنون من قطافها على الوجه الذى هم فيه من غير مشقة ؛ فإن كانوا قعوداً تُدَلَّى لهم ، وإن كانوا قياماً — وهى على الأرض — ارتقت إليهم .

« ويُطافُ عليهم بآنيةٍ من فِضَّة »

الاسم فضة ، والعين لا تشبه العين[2]

« وأكوابٍ كانت قواريرَا »
قواريرَا من فضَّةٍ قدّروها تقديراً »

أى : فى صفاء القوارير وبياض الفضة .. قَدَّرَ ذلك على مقدار إرادتهم .

« ويُسْقَوْن فيها كأساً كان مِزَاجُها
زَنجبيلاً » .

المقصود منه الطِّيب ، فقد كانوا (أى العرب) يستطيبون الزنجبيل ، ويستلذون نكهته ،

---

(١) جمع حجلة وهى ستر يضرب على سرير العروس كالقبة .

(٢) من هذا يتضح أن القشيرى يرى أن الجنة وصفت بما يمكن أن يكون منتهى تصوراتهم الدنيوية لحالات النعمة .. فالألفاظ هى الألفاظ ولكن الحقائق شىء آخر .

وبه يشبِّهون الفاكهة ، ولا يريدون به ما يقرص اللسان[1] .

« عيناً فيها تُسَمَّى سلسبيلاً » .

أى : يُسْقَوْنَ من عينٍ — أثبت للسَّقيِّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم ؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحقُّ — سبحانه — بلا واسطة .

قوله جل ذكره : « ويطوفُ عَليهم وِلْدانٌ مُخَلَّدونُ إذا رأيْتَهُم حَسِبْتَهُم لُؤلُؤاً مَّنثوراً » .

أى : يخدمهم ولدان مخلدون (وصفا لا يجوز واحد منهم حدَّ الوصائف)[2] .

وجاء فى التفسير : لا يَهْرَمون ولا يموتون . وجاء مُقَرَّطون .

إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً منثوراً[3] .

وفى التفسير : مامن إنسانٍ من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام .

قوله جل ذكره : « وإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نعيماً ومُلْكا كبيراً » .

« ثَمَّ » : أى فى الجنة .

« مُلْكا كبيراً » : فى التفاسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول .

وقيل : هو قوله : « لهم ما يشاءون فيها »[4] ويقال : أى لا زوالَ له .

---

(١) من ذلك قول المسيب بن علس يصف ثغر المرأة :

وكأن طعم الزنجبيل به ... إذ ذقته وسلافة الخمر

وقال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيـ ... ـل باتا بفيها وأريا مشورا

(والأرى = هو العسل) .

(٢) هكذا فى النسختين وفيها شىء من غموض .

(٣) قيل : إنما شبههم باللؤلؤ المنثور لأنهم سراع فى الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهن لا يمتهن بالخدمة (القرطبى حـ١٩ ص ١٤٤) .

(٤) آية ٣٥ سورة ق .

« عالِيَهُمْ ثيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ
وإستبرقٌ وحُلُّوا أساوِرَ من فِضَّةٍ
وسَقَاهم ربُّهم شراباً طَهوراً » .

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار . ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى ، والاسم يوافق الاسم دون العين[1].

« شراباً طهوراً » : الشراب الطهورُ هو الطاهر فى نفسِه المُطَهِّرُ لغيره .

فالشراب يكون طهوراً فى الجنة — وإنْ لم يحصل به التطهيرُ لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير .

ولكنه — سبحانه — لمَّا ذَكَرَ الشرابَ — وهو اليومَ فى الشاهد نجَسٌ — أخبر أنَّ ذلك الشرابَ غداً طاهرٌ، ومع ذلك مُطَهِّرٌ ؛ يُطَهِّرُهم عن محبة الأغيار ، فمن يَحْتَسِ من ذلك الشرابِ شيئاً طَهَّرَه عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات .

ويقال : يُطَهِّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ ، ولا يُبْقِى لبعضهم مع بعض خصيمة (ولاعداوة)[2] ولا دَعْوَى ولا شىء .

ويقال : يُطَهِّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين .

ويقال : إن الملائكة تعرض عليهم الشرابَ فيأبون قبولَه منهم ، ويقولون :

لقد طال أَخْذُنا مِنْ هؤلاء ، فإذا هم بكاساتٍ تُلاقِى أفواهَهم بغير أكُفٍّ ؛ من غيبٍ إلى عَبْد .

ويقال : اليومَ شرابٌ وغداً شراب .. اليوم شرابُ الإيناس[3] وغداً شرابُ الكاس ، اليوم شرابٌ من اللُّطفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكفّ .

---

(١) أرأيت كيف يلح القشيرى على هذا المعنى ؟
(٢) غير موجودة فى م وموجودة فى ص .
(٣) هكذا فى ص وهى فى م (الأنفاس) ، والصواب ما أثبتنا كما يتضح فيما بعد (آنسه) .

ويقال : مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبّتِهِ آنَسَه وشَجَّعَه ؛ فلا يستوحِش فى وقته من شىء ، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَذْل . ومن مقتضى شُرْبه بكأس محبته أن يجود على كلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز ، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار .

ومن آثارِ شُرْبِهِ تذلُّلُه لكلِّ أحدٍ لأجل محبوبه ، فيكون لأصغرِ الخَدَم تُرابَ القَدَم ، لا يتحركُ فيه للتكبُّر عرقٌ .

وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضاً فى بعض الأحايين أنْ يَتِيهَ على أهل الدارين .

ومن مقتضى ذلك الشراب أيضاً أنْ يملِكَه سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار وإلقاء قناع الحياء[1] ويظهر ما هو به من المواجيد :

يخلع فيك العذارَ قومٌ فكيف مَنْ ما لَه عذارُ ؟

ومن موجبات ذلك الشراب سقوط الحشمة ، فيتكلم بمقتضى البسط ، أو بموجب لفظ الشكوى ، وبما لا يَستخرجُ منه — فى حال صَحْوِه — سفيهٌ بالمناقيش[2] . . . وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى : « ربِّ أرِنى أنظر إليك »[3]

فقالوا : سَكِرَ من سماع كلامه[4] ، فنَطَقَ بذلك لسانُه . وأمّا مَنْ يسقيهم شرابَ التوحيد فيَنْفِى عنهم شهودَ كلِّ غَيْرٍ فَيَهيمون فى أودية العِزِّ ، ويتيهون فى مفاوزِ الكبرياء ، وتتلاشى

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (الحياة) ، والملائم لخلع العذار إلقاء قناع (الحياء) . والمقصود بهما تجاوز حد الصبر على المكتوم من الحب ، ونطق العبد وهو فى غلبات الشهود بشطحات ظاهرها مستشنع وإن كان باطنها فى غاية السلامة (انظر تعريف السراج للشطح فى اللمع) .

(٢) المناقيش جمع منقاش ، ويقال فى المثل : استخرجت منه حقى بالمناقيش أى تعبت كثيراً حتى استخرجت منه حقى (الوسيط) .

(٣) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٤) الضمير فى (كلامه) يعود على الرب ؛ سبحانه حينما قال : « إنى أنا الله » ، وفى موضع آخر يصف القشيرى موسى عليه السلام بأنه كان فى حال التلوين فظهر عليه ما ظهر ، بينما المصطفى (ص) ليلة المعراج كان فى حال التمكين فما زاغ بصره وما طغى .

جلَّتهم في هواء الفردانية . . فلا عقلَ ولا تمييزَ ولا فَهْمَ ولا إدراك . . فكلُّ هذه المعاني ساقطة .

فالعبدُ يكون في ابتداء الكَشْفِ مُستوْعَباً ثم يصير مستغرَقاً ثم يصيرُ مُسْتَهْلَكا .. « وأن إلى ربك المنتهى »[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ هذا كان لَكُمْ جزاءً وكان سَعْيُكُم مَشْكوراً » .

يقال لهم : هذا جزاء لكم ، « مشكوراً » : وشُكْرُه لسعيهم تكثيرُ الثوابِ على القليل من العمل — هذا على طريقة العلماء ، وعند قومٍ شُكْرُهم جزاؤهم على شكرهم .

ويقال : شُكْرُه لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام .

قوله جل ذكره : « إنَّا نحنُ نَزَّلْنا عليكَ القرآن تنزيلاً »

في مُدَّةٍ[2] سنين .

« فاْصبِرْ لِحُكمِ ربِّك ولا تُطِعْ منهم آثماً أَوْ كفورًا » .

أي : ارْضَ بقضائه ، واستسلِمْ لِحُكْمِه .

« ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفوراً » : أي : ولا كفوراً ، وهذا أمرٌ له بإفرادِ ربِّه بطاعته .

« واذْكُرِ اسمَ ربِّكَ بُكْرَةً وأصيلًا * ومِنَ اللَّيلِ فاسجُدْ له وسَبِّحْهُ ليلاً طويلاً » .

الفَرْضُ في الأول ، ثم النَّفْل[3]

« إنَّ هؤلاء .. »

(١) آية ٤٢ سورة النجم .

(٢) هكذا في النسختين ولا نستبعد أنها في الأصل (عدة) وكلاهما صحيح في السياق .

(٣) فالصلاة جاءت في الأول (بكرة وأصيلا) صلاة الصبح ثم الظهر والعصر (ومن الليل) المغرب والعشاء ثم من بعد ذلك النفل وهو (وسبحه ليلا طويلا) : لأنه تطوع ، قيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وقيل : هو خاص بالنبي (ص) وحده .

أى كفّار قريش .

« يُحِبُّونَ العاجلةَ ويذَرُون وراءهم يوماً ثقيلاً » .

أى : لا يعملون ليوم القيامة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناهُم وشَدَدْنا أَسْرَهم وإذا شِئْنا بَدَّلنا أمثالَهم تبْدِيلاً » .

أعدمناهم ، وخلقنا غيرَهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الميثاق[1].

« إنَّ هذه تذكِرةٌ ... »

أى : القرآن تذكرة .

« فمَن شاء اتَّخذَ إلى ربِّه سبيلاً » .

بطاعته .

« وما تشاءون إلاَّ أن يَشَاء اللهُ إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً * يُدْخِلُ مَن يشاء فى رحمتِه والظالمين أَعَدَّ لهم عذاباً أليماً » .

أى : عذاباً أليما موجِعاً يخلص وَجَعُهُ إلى قلوبهم .

(١) تأخرت هذه العبارة عن موضعها ، فأرجعناها إلى مكانها .

سورة المرسلات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةُ مَنْ سمعها بسمع الوَجْدِ وَفَى له فلم ينظرْ إلى أحد ، ومَنْ سمعها بسمع العِلْمِ جادَ له فلم يبخلْ بروحه على أحد .

ومن سمعها بسمع التوحيد جَرَّدَ سِرَّه عن إيثارِ[1] ما سواه فى الدنيا والعقبى عيناً وأثراً فما كان هذا كله إلا حاصلاً به كائناً منه .

قوله جل ذكره : « والمُرْسَلاَتِ عُرْفاً » .

« المرسلات » : الملائكة ، « عرفاً » أى : أرسلوا بالمعروف من الأمر ، أو كثيرين كعُرْفِ الفَرَس .

« فَالعاصِفاتِ عصْفاً » .

الرياحُ الشديدة (العواصف تأتى بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه) .

« والنَّاشِراتِ نَشْراً » .

الأمطار (لأنها تنشر النبات . فالنشر بمعنى الإحياء) . ويقال : السُّحُبُ تنشر الغيث . ويقال : الملائكة .

« فالفارِقاتِ فَرْقاً » .

الملائكة ؛ تفرق بين الحلال والحرام .

« فالمُلقياتِ ذِكْراً * عُذْراً أو نُذْراً » .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (ثياب) وهى خطأ من الناسخ .

الملائكة : تُلقِى الوحىَ على الأنبياء عليهم السلام ؛ إعذاراً وإنذاراً . .

وجوابُ القَسَمِ :

« إنَّما تُوعَدُونَ لواقِعٌ » .

فأقسم بهذه الاشياء : إنَّ القيامة لحقٌّ .

قوله جل ذكره : « فإذا النُّجومُ طُمِسَتْ » .

إنما تكون هذه القيامة . « وطمست » : ذهب ضوؤُها .

« وإذا الجِبالُ نُسِفَتْ » .

ذَهَبَ بها كلِّها بسرعة ، حتى لا يَبْقَى لها أثَرٌ .

« وإذا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَىِّ يومٍ أُجِّلَتْ * ليومِ الفَصْلِ » .

أى : جَعَلَ لها وقتاً وأجلاً لفَصْلِ القضاء يومَ القيامة .

ويقال : أُرْسِلَتْ لأوقاتٍ معلومة .

« وما أدْراكَ ما يومُ الفَصْلِ »

على جهة التعظيمِ له .

« ويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبين » .

مضى تفسيرُ معنى الويل .

ويقال فى الإشارات : فإذا نجومُ المعارف طمست بوقوع الغيبة .

وإذا الجبالُ نُسِفت : القلوبُ الساكنة بيقين الشهود حُرِّكَتْ عقوبةً على ما هَمَّتْ بالذى لايجوز . فويلٌ يومئذٍ لأرباب الدعاوَى الباطلةِ الحاصلةِ من ذوى القلوب المُطْبقة الخالية من المعانى .

قوله جل ذكره : « ألم نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُم الآخِرين » .

الذين كذَّبوا رُسُلَهم ، وجحدوا آياتنا ؛ فمثلما أهلكنا الأولين كذلك نفعل بالمجرمين إذا فعلوا مثلَ فِعْلِهم .

« ويلٌ يومئذٍ للمكذبين » الذين لا يستوى ظاهرُهم وباطنهم فى التصديق .

وهكذا كان المتقدمون من أهل الزَّلَّة والفترة فى الطريقة ، والخيانة فى أحكام المحبة فعُذِّبوا بالحرمان فى عاجلهم ، ولم يذوقوا من المعانى شيئاً .

قوله جل ذكره : « ألم نخلقكم من ماءٍ مَّهين ؟ » .

أى : حقير . وإذ قد علمتَ ذلك فلِمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه ؟

ويقال : ذَكَّرهم أصلَ خلقتهم لئلا يُعْجَبوا بأحوالهم ؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين والمخلوقاتِ أشدُّ دعوى من بنى آدم . فمن الواجبِ أنْ يتفكَّرَ الإنسانُ فى أصلِه . . . كان نطفةً وفى انتهائه يكون جيفة ، وفى وسائط حالِه كنيفٌ فى قميص ! ! فبالحرىِّ ألاَّ يُدِلَّ ولا يفتخر :

كيف يزهو مَنْ رجيعُهُ أبدَ الدهرِ ضجيعُه

فهو منه وإليـــه وأخــوه ورضيعُهُ

وهو يدعوه إلى الحُــشِّ[1] بصغر فيطيعه ؟ ! !

ويقال : يُذَكِّرهم أصلَهم .. كيف كان كذلك .. ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة ، قال تعالى :

« وصوركم فأحسن صوركم » ، والذى يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرَقِّيَكَ من الأحوال الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة .

قوله جل ذكره : « ألم نجعلِ الأرضَ كِفَاتًا * أحياء وأمواتًا » .

« كفاتًا » أى : ذات جَمْعٍ ؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياء وأمواتا ؛ فهم يعيشون على ظهرها ، ويُودَعون بعد الموت فى بطنها ..

« وجَعلْنا فيها رواسىَ شامخاتٍ وأسقيناكُم ماءً فُراتًا » .

---

(1) الحش بفتح الحاء وضمها = الكنيف .

والمقصود : كيف تزهو أيها الإنسان ، وإن ما يقذفه جسمك من فضلات ملازم لك حياتك : ليلك ونهارك ، وأنت تطيعه صاغراً إذا أمرك ودعاك بالذهاب إلى الحش ؟

أي : جبالاً مرتفعات ، وجعلنا بها الماء سقياً لكم . يُذَكِّرُهم عظيم مِنَّتِه بذلك عليهم . والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنَّته أنَّه لم يخسف بكم الأرض — وإن عملتم ما عملتم .

« انْطلقوا إلى ما كنتم به تُكَذِّبون » .

يقال لهم : انطلقوا إلى النار التي كذَّبتم بها .

« انطلِقوا إلى ظِلٍّ ذى ثلاثِ شُعَب * لاظليلٍ ولا يُغْنى من اللَّهب » .

كذلك إذا لم يعرف العبدُ قَدْرَ افتتاحِ طريقه إلى الله بقلْبه ، وتعزُّزِه بتوكله .. فإذا رجع إلى الخَلْقِ عند استيلاء الغفلة نَزَعَ اللهُ عن قلبه الرحمةَ ، وانسدَّت عليه طُرُقُ رُشْدِه ، فيتردد من هذا إلى هذا .

ويقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذِّبون. والاستقلالُ بالله جنة للأوى ، والرجوعُ إلى الخَلْقِ قَرْعُ باب جهنم .. وفى معناه أنشدوا :

ولم أرَ قبلى مَنْ يُفارِقُ جنَّةً ويقرع بالتطفيل بابَ جهنم

ثم يقال لهم إذا أخذوا فى التنصُّل والاعتذار :

« هذا يومُ لا يَنطِقون * ولا يُؤْذَنُ لهم فيَعْتَذِرون » .

فإلى أنْ تنتهىَ مُدَّةُ العقوبة فحينئذٍ : انْ استأنَفْتَ وقتاً استؤنِفَ لك وقتٌ . فأمَّا الآن.. فصبراً حتى تنقضىَ أيامُ العقاب .

« هذا يومُ الفَصْلِ جمعنـاكم والأوَّلين » .

فعلنا بكم ما فعلنا بهم فى الدنيا من الخذلان ، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران

قوله جل ذكره : « إنَّ المتقين فى ظلالٍ وعيونٍ » .

اليومَ .. فى ظلال العناية والحماية ، وغداً ... هم فى ظلال الرحمة والـكلاءة .

اليومَ .. فى ظلال التوحيد ، وغداً .. فى ظلال حُسْن المزيد .

اليومَ .. فى ظلال المعارف ، وغداً .. فى ظلال اللطائف .

اليومَ .. فى ظلال التعريف ، وغداً .. فى ظلال التشريف .

« كلوا وأشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » .

اليومَ تشربون على ذِكْره .. وغداً تشربون على شهوده ، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء .

« إنّا كذلك نجزى المحسنين » .

والإحسانُ من العبد تَرْكُ الكلِّ لأجْله ا كذلك غداً : يجازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجْلِك .

قوله جل ذكره : « كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مُجرمون » .

هذا خطابٌ للـكفار ، وهذا تهديد ووعيد ، والويل يومئذٍ لـكم .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون » .

كانوا يُصِرُّون على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم[1].

[ذكر فى التفسير : أن المتقين دائماً فى ظلال الأشجار ، وقصور الدرِّ مع الأبرار ، وعيون جارية وأنهار . ، وألوانٍ من الفاكهة والثمار . . من كل ما يريدون من الملِك الجبّار . ويقال لهم فى الجنة : كلوا من ثمار الجنات ، واشربوا شراباً سليماً من الآفات . « بما كنتم تعملون » من الطاعات . « كذلك نجزى المحسنين » من الكرامات . قيل : كلوا واشربوا « هنيئاً » : لا تبعة عليـكم من جهة الخصومات ، ولا أذيَّة فى المأكولات والمشروبات .

وقيل : الهنيء الذى لا تَبِعَةَ فيه على صاحبه ، ولا أذِيَّةَ فيه من مكروهٍ لغيره .]

---

(١) إلى هنا انتهى تفسير السورة فى م النسخة ص . وكل ما بين القوسين الكبيرين موجود فى النسخة م . .

سُورَةُ النَّبأ (1)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله » اسمُ مَلِكٍ تجمَّلَ عِبادُه بطاعته ، وتَزَيَّنَ خَدَمُه بعبادته ، وهو سبحانه لا يتجمَّلُ بطاعة المطيعين ، ولا يتزيَّنُ بخدمة العابدين ؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم ، وزينة العارفينَ حُلَّةُ معرفتهم ، وزينة المحبِّين تاجُ ولايتهم .. وزينة المذنبين غَسْلُ وجوههم بصَوْبِ(2) عَبْرَتهم .

قوله جل ذكره : «عَمَّ يتساءلون * عن النبأِ العظيم * الذى هم فيه مُخْتَلِفون ».

مختلفون بشدة إنكارهم أمرَ البعث ، ولالتباسِ ذلك عليهم ، وكثرةِ مُساءلتهم عنه ، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى معناه .

تكرَّر من الله إنزالُ أمرِ البعث ، وكم استدلَّ عليهم فى جوازه بوجوهٍ من الأمثلة .. فهذا من ذلك ، يقول : « عمَّ يتساءلون . عن النبأ العظيم » : عن الخبر العظيم « الذى هم فيه مختلفون » قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم :

« ألَم نجعل الأرضَ مِهاداً ؟ »

ذَلَّلْناها لهم حتى سكنوها

« والجبالَ أوتاداً ؟ ».

---

(1) هذا هو اسم السورة كما جاء فى ص أما فى م فعنوانها (سورة عم يتساءلون) .

(2) هى فى م (بضرب) وهى فى ص (بصوت) وكلاهما غير مقبول فى السياق ، وقد رجحنا أن تكون فى الأصل (بصوب) على أساس أن القشيرى يستعمل الفعل (تتقطر) مع (العبرة) فى مواضع عائلة ، كما أنها أقرب فى الرسم .

أوتاداً للأرضِ حتى تَميدَ بهم .

« وخلقناكُم أزْوَاجاً »

ذَكَرًا وأنثى ، وحَسَنًا وقبيحًا . . وغير ذلك

« وجَعَلْنا نومَكم سُباتًا »

أى راحةً لكم ، لتنقَطِعوا عن حركاتِكم التى تعبتم بها فى نهاركم .

« وجَعَلْنا الليلَ لِباسًا »

تُغَطِّى ظُلْمَتُهُ كلَّ شىء فتسكنوا فيه .

« وجعلنا النهارَ معاشاً »

أى وقتَ معاشِكم .

« وبَنَيْنَا فوقَكم سَبْعًا شِداداً »

أى سبع سموات .

« وجعلنا سِراجاً وهَّاجا »

أى الشمس ، جعلناها سراجاً وقَّاداً مشتعلا .

« وأنزلنا من المعصرات ماء ثَجَّاجا »

« للمعصرات » الرياح التى تَعْصِرُ السحاب[1] .

« ماء ثجاجاً » مطراً صَبَّابا .

« لِنُخْـــرِجَ به حَبًّا ونباتًا *
وجَنَّاتٍ ألفافاً »

« حباً » كالحنطة والشعير ، « وجنات ألفافاً » بساتين يَلْتَفُّ بعضُها ببعض .

وإذا قد علمتم ذلك فهلاَّ علمتم أنِّى قادرٌ على أنْ أُعيدَ الخَلْقَ وأُقيمَ القيامة ؟

---

(١) والمعصرات أيضاً السحائب تعتصر بالمطر ، وأعصر القوم أى : أمطروا ، ومنه « وفيه يعصرون » والمعصر الجارية أول ما أدركت الحيض . فالمعصر السحابة التى حان لها أن تمطر (الصحاح) .

فبعدَ أن عدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إنعامه ، وتمكينهم من مناقضهم .. قال :

« إنَّ يومَ الفصلِ كان ميقاتاً »

مضى معناه

« يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ فتأتون
أفواجاً » .

أي في ذلك اليوم تأتون زُمراً وجماعاتٍ .

« وفتحت السماء فكانت أبواباً »

أي : تَشقّقتْ وانفطرت .

« وسُيِّرَتِ الجبالُ فكانت سَراباً »

أي كالسراب .

« إنَّ جَهَنَّمَ كانت مِرْصاداً » .

أي ممراً . ويقال : ذات ارتقابٍ لأهلها .

« للطَّاغِين مآباً »

أي مرجعاً .

« لابثين فيها أحقاباً »

أي دهوراً ، والمعنى مُؤَبَّدين

« لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شرابا
إلَّا حميًا وغسَّاقا »

مضى معناه . ثم يُعَذَّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَرَ من العذاب .

« جزاء وِفاقا »

أي : جُوزُوا على وفق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ ، وجرى به الحُكم .

« إنَّهم كانوا لا يرجُون حِساباً »

لا يؤمنون فيرجون الثواب ويخافون العقاب .

« وَكَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً »[1] .

أي : تكذيباً .

« وكُلَّ شيءٍ أحصيناه كتاباً »

أي : كتبناه كتاباً ، وعلمناه عِلْماً .

وللمسبِّحُ الزاهدُ يحصى تسبيحهَ ، والمهجورُ البائسُ يحصى أيامَ هجرانه ، والذى هو صاحب وصالٍ لا يتفرّغ من وَصْلِهِ إلى تذكُّرِ أيامه فى العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكة يُحصون زلاَّت العاصين ، ويكتبونها فى صحائفهم . والحق سبحانه يقول : « وكل شيء أحصيناه كتاباً » فكما أحصى زلاَّتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أحْصَى أيامَ هجرانِ المهجورين وأيامَ مِحَنِ المتحَنين ، وإنَّ لهم فى ذلكِ لَسَلْوةً ونَفَساً :

ثمانٍ قد مضينَ بلا تلاقٍ وما فى الصبر فَضْلٌ عن ثمانِ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ ! وأرْبَتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَصْر !

قوله جل ذكره : « فَذوقوا فَلَن نَزيدَكُم إلاَّ عذاباً »

يأيها المُنَعَّمون فى الجنة . . إفرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون . . احترقوا فى النار . . ولن نزيدكم إلا عذاباً[2]

ويأيها المطيعون . . افرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فَضْلاً على فَضْل .

يأيها المساكين . . إبكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلّا عَزْلاً على عَزْل .

قوله جل ذكره : « إنَّ للمتقين مفَازاً * حدائِقَ وأعناباً * وكواعِبَ أتراباً * وكأساً دِهَاقاً *

---

(١) فى «كذاباً» يقول الفراء: هى لغة يمانية فصيحة ؛ يقولون : كذبت به كذاباً وخرقت القميص خِرَّاقاً. فكل فعل فى وزن (فعَّل) مصدره فِعَّال مشددة فى لغتهم .

(٢) قال أبوبرزة : سألت النبى (ص) عن أشد آية فى القرآن فقال : قوله تعالى : «فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » أى : «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » و« كلما خبت زدناهم سعيراً» .

لَّا يسمعون فيها لَغْواً ولا كِذّابا *
جزاءً من ربِّك عطاءً حِساباً »

مُسَلَّمٌ للمتقين ما وعدناهم به .. فهنيئا لهم ما أعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْية والظفَرِ بالسُّؤْلِ والمُنْيَة : من حدائق وأعنابٍ ، ومن كواعبَ أترابٍ وغير ذلك .

فيأيها المُهَيَّمون المتيَّمون هنيئًا لكم ما أنتم فيه اليومَ فى سبيل مولاكم من تجرُّدٍ وفقر ، وما كلَّفكم به من توكل وصبر ، وما تجرعتم من صَدٍّ وهجر .

أحرى الملابسِ ما تَلْقَى الحبيبَ به يومَ التزاورِ[1] فى الثوب الذى خَلَعا

قوله : « لا يسمعون فيها ... » آذانُهم مصونةٌ عن سماع الأغيار ، وأبصارهم محفوظةٌ عن ملاحظة الرسوم والآثار .

قوله جل ذكره : « ربِّ السموات والأرضِ وما بينهما
الرحمنِ لا يملكون منه خطاباً »

وكيف تكون للمُكَوَّن المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُكْنَةٌ أنْ يملك منه خطاباً ؟ أو يتنفَّسَ بدونه نَفَسًا ؟ كلاَّ .. بل هو اللهُ الواحدُ الجبَّار .

قوله جل ذكره : « يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفًّا
لا يتكلَّمون إلاَّ مَنْ أذِنَ له الرحمنُ
وقال صَوَابًا »

إنما تظهر الهيبةُ على العموم لأهل الجمع فى ذلك اليوم ، وأمَّا الخواص وأصحابُ الحضور فهُم أبداً بمشهدِ العزِّ بنعت الهيبة ، لا نَفَسَ[2] لهم ولا راحة ؛ أحاط بهم سرادقُها واستولت عليهم حقائقها .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (التزاول) وهى خطأ من الناسخ ، والمقصود من النص الشعرى : أن الله يحب أن يرى على الفقراء ثياب التجرد لأنها الثياب التى خلعها عليهم بنفسه حينما آثروا حقه على حظوظهم .
(٢) هكذا فى ص وهى فى م (لانفر لهم ولا فرحة) وربما كانت (فرجة) بالجيم .

قوله جل ذكره : « ذلك اليومُ الحقُّ فمَن شاء اتَّخَذ إلى ربِّه مآبًا » .

هم يشهد الحقُّ ، والحكمُ عليهم الحقُّ ، حكم عليهم بالحق ، وهم مجذوبون بالحقِّ للحقِّ .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنذرناكُم عذابًا قريبًا » .

وهو عند أهلِ الغفلة بعيدٌ ، ولكنَّه في التحقيق قريبٌ .

« يومَ ينظُرُ المرءُ ما قدَّمَتْ يداهُ
ويقـــولُ الـكافرُ[1] : يا ليتني
كُنتُ تُرابًا » .

مضوا في ذُلِّ الاختيار والتمنِّي[2] ، وبقُوا في حسرة التمنِّي ، ولو أنهم رضوا بالتقدير لتخلَّصوا[3] عن التمنِّي .

---

(١) قيل : يراد بالكافرهنا أبي بن خلف أو عقبة بن أبي معيط . ويرى أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيري – صاحب هذا الكتاب : هو إبليس ، يقول : ياليتني خلقت كآدم من تراب ولم أقل أنا خير منه لأني من نار . (القرطبي حـ١٩ ص ١٨٩) .

(٢) وردت في النسختين (التمنّي) وهي مقبولة ، ولكننا نرجح أنها ربما كانت في الأصل (التمني) لأن الاختيار كان في الدنيا ، واختيار المرء – حسب نظرية القشيري – علة لعنائه وشقائه .. هذا فضلا عن أن إثبات (التمني) يزيد المعنى – نظراً للون الفاصلة – قوة وجمالا .

(٣) هكذا في م وهي في ص (لتحصلوا) وواضح فيها خطأ الناسخ

سُورَةُ النَّازِعَات [1]

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ لربٍّ عزيز ، سماعُه يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز ، وذِكْرُه يحتاج إلى وقتٍ عزيز ، وفهمُه يحتاج إلى قلبٍ عزيز .

وأنَّى لصاحبِ سَمْعٍ بالغيبة مُبْتَذَل ، ووقتٍ مُعَطَّلٍ فى الخسائسِ مُسْتَغْرق ، وقلبٍ فى الاشتغال بالأغيار مستعمل . . أنَّى له أنْ يَصْلُح لسماع هذا الإسم ؟! .

قوله جل ذكره : « والنَّازعاتِ غَرْقًا » .

أى الملائكة ؛ تنزِعُ أرواحَ الكفَّارِ من أبدانهم .

« غرقًا » : أى إغراقًا كالمُغرِق فى قَوْسِه [2] .

ويقال : هى النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان .

« والنَّاشِطاتِ نَشْطًا » .

هى أنفس المؤمنين تَنْشَط للخروج عند الموت .

ويقال : هى الملائكة تنشِطُ أرواحَ الكفّار ، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها .

ويقال : هى الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدٍ .

ويقال : هى الأوهاق [3] .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (سورة والنازعات) بإثبات الواو .

(٢) إغراق النازع فى القوس أن يبلغ مداها ويستوفى شدها .

(٣) هكذا فى م وهى فى (ص الارهاق) بالراء وهى خطأ فى النسخ ، والأوهاق جمع وهق بحركتين وقد يسكن : الحبل تشد به الإبل والخيل حتى تؤخذ وفى طرفه أنشوطة . وأوهق الدابة أى طرح فى عنقها الوهق ، وعن عكرمة وعطاء : الأوهاق تنشط السهام .

ويقال : هى النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى المشارق .

« والسَّابِحات سَبْحاً »

الملائكة تسبح فى نزولها .

ويقال : هى النجوم تسبح فى أفلاكها .

ويقال : هى السفن فى البحار .

ويقال : هى أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله .

« فالسَّابِقاتِ سَبْقاً » .

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة ، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحى ، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار .

ويقال : هى النجوم يسبق بعضها بعضاً فى الأفول .

« فالمُدَبِّراتِ أمْراً » .

الملائكة تنزل بالحرام والحلال .

ويقال : جبريل بالوحى ، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات ، وإسرافيل بالصُّور ، ومَلَكُ الموت بِقَبْضِ الأرواح . . عليهم السلام .

وجوابُ القَسم قوله : « إن فى ذلك لَعِبرةً لمن يخشى »[1]

قوله جل ذكره : « يومَ ترجُفُ الرَّاجِفةُ » .

تتحرك الأرض حركةً شديدة .

« تتبعُها الرَّادِفةُ » .

النفخة الأولى فى الصُّور . وقيل : الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية .

---

(١) هذه هى الآية رقم ٢٦ بالسورة وهو اختيار الترمذى أيضاً .. وهى كما ترى متأخرة جداً . ويرى بعض المفسرين أن جواب القسم مضمر لأنه لا يخفى على السامع ، ويرى آخرون - كالفراء - أنه البعث بدليل « أئذا كنا عظاما نخرة » .

ويرى القرطبى : أنه قسم جوابه : إن القيامة حق .

« قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ ».

خائفــــة .

« يقــــولون أئِنَّا لمردودون فى الحافِرةِ[1] ».

أى إلى أول أمرِ نا وحالنا ، يعنى أئِذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشى على الأرض بأقدامنا) ؟ . قالوه على جهة الاستبعاد .

« أئِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرةً » .

أى بالية .

« تلك إذاً كَرَّةٌ خاسِرةٌ » .

رَجْعَةٌ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار) .

قوله جل ذكره : « فإنَّما هى زَجْرَةٌ واحدةٌ * فإذا هم بالساهِرةِ[2] » .

جاء فى التفسير إنها أرض المحشر ، ويقال : إنها أرضٌ بيضاء لم يُعْصَ اللهُ فيها[3] .

ويقال : الساهرة نَفْخَةُ الصُّور تذهب بنومهم وتسهرهم .

قوله جل ذكره : « هـل أتاكَ حـديثُ مُوسى * إذ ناداهُ ربُّه بالوادِ المُقَـــدَّسِ طُوًى » .

أى الأرض المطهرة المباركة . « طوًى » اسم الوادى هناك .

« اذْهَبْ إلى فرعونَ إنه طَغَىٰ * فَقُلْ هل لك إلى أنْ تَزَكَّىٰ » .

---

(١) سميت الأرض الحافرة لأنها مستقر الحوافر .

(٢) سميّت الأرض بالساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره (الفراء) ، وقال أبو كبير الهذلى :

يرتدن ساهرة كأن جميمها ... وعميمها أسداف ليل مظلم

(٣) هذا رأى ابن عباس .

قلنا له : اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل له : هل يقع لك أنْ تؤمنَ وتتطهر من ذنوبك .

وفى التفسير : لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَكَ مُلْكٌ لا يزول ، وشبابك لا يهرم ، وتعيش أربعمائة سنةٍ فى السرور والنعمة .. ثم لك الجنة فى الآخرة .

« وأَهْدِيَكَ إلى ربِّك فتخشَى » .

أُقَرِّرُ لك بالآيات صِحَّةَ ما أقول ، وأعرفك صحة الدين . . فهل لك ذلك ؟ فلم يَقْبَلْ .

ويقال : أظهر له كل هذا التلطُّفَ ولكنه فى خَفِيِّ سِرِّه وواجبِ مَكْرِه به أنه صَرَفَ قلبَه عن إرادة هذه الأشياء ، وإيثار مرادِه على مراد ربِّه ، وألقى فى قلبه الامتناعَ ، وتَرْكَ قبولِ النُّصْح . . وأيُّ قلبٍ يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ ؟ وأيُّ كَبِدٍ تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر ؟

قوله جل ذكره : « فأراهُ الآيةَ الكُبرى » .

جاء فى التفسير : هى إخراجُ يده بيضاء لها شعاعٌ كشعاع الشمس . فقال فرعون : حتى أشاوِرَ هامانَ[1] ، فشاوَرَه ، فقال له هامان : أبعد ما كُنْتَ ربًّا تكون مربوبًا ؟ ! وبعد ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً ؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك ، وعَصَى ، وَجَمَعَ السَّحَرَةَ ، ونادى :

« فقال أنا ربُّكُمُ الأعلىٰ » .

ويقال : إنَّ إبليس لمَّا سَمِع هذا الخطابَ فرَّ وقال : لا أطيق هذا !

ويقال قال : أنا ادَّعَيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت . . وهذا يقول : أنا ربُّكم الأعلى .

قوله جل ذكره : « إنَّ فى ذلك لَعِبْرَةً لِمَن يخشَىٰ » .

---

(١) يقصد القشيرى من بعيد إلى شيئين : أولها أن فساد الملوك قد يكون بسبب وزرائهم وحاشيتهم .. ولعلنا نذكر ما قلناه فى المدخل عن أن أشد المحنة التى ألمت بالقشيرى كانت بسبب الكندرى وزير السلطان طغرل .

وثانيهما أن الصحبة السيئة قد تؤدى إلى هلاك الصاحب والمصحوب ، وفى هذا تحذير لأرباب الطريق (راجع باب الصحبة فى الرسالة ص ١٤٥) .

أى فى إهلاك كنا فرعون لَعِبْرَة لمن يخشى .

قوله جل ذكره : « ءأنتم أَشَدُّ خَلْقًا أمِ السماء
بناها * رَفَعَ سمْكَهَا فسوّاها *
وأَغْطَشَ ليلها وأخرجَ ضُحاها » .

« فسوّاها » جعلها مستوية . « وأغطش ليلها » أظلم ليلها . « ضحاها » ضوؤها ونهارها .
« دحاها » بَسَطها وَمدَّها .

« أخرجَ منها ماءها ومرْعاها » .

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء ، وأخرج النبات ..

« والجبالَ أرساها » .

أثبتَها أوتاداً للأرض .

« متاعًا لّكم ولأنْعَامِكم » .

أى أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع ، وكذلك لأنعامكم .

« فإذا جاءتِ الطامَّةُ الكبرى » .

الداهية العُظمى .. وهى القيامة .

« يومَ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ ماسعى » .

وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأمّا من طغى وكَفرَ وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ له المأوى والمُسْتَقَرُّ والمثوى .

« وأمَّا مَنْ خاف مقامَ ربِّهِ ونَهَى
النَّفْسَ عن الهوىٰ * فإنَّ الجنةَ
هى المأوىٰ » .

« مقام ربه » : وقوفه غداً فى محل الحساب . ويقال : إقبالُ الله عليه وأنَّه راءٍ له .. وهذا عينُ المراقبة ، والآخَر محلُّ المحاسبة .

« ونهى النفس عن الهوى » أى لم يتابع هواه .

قوله جل ذكره : « يسألونكَ عن الساعةِ أيَّانَ مُرْساها ؟ » .

أى متى تقوم ؟

« فِيمَ أنت مِن ذكراها » .

مِنْ أين لك عِلْمُها ولم نعلمك ذلك [1] .

« إلى رَبِّك مُنتَهاها » .

أى إنما يعلم ذلك ربُّكَ .

« إنما أنت مُنذِرُ مَن يخشاها » .

أى تخوِّف ، فيقبل تخويفَكَ مَنْ يخشاها ويؤمن .

« كأنهم يومَ يَرَوْنَها لم يَلْبثُوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحاها » .

كأنهم يومَ يَرَوْن القيامة لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ؛ فلشدة ما يرون تقل عندهم كثرةُ ما لبثوا تحت الأرض .

(١) روى الإمام البخارى فى نهاية حديثه عن هذه السورة قال : حدثنا أحمد بن المقدام حدثنا الفضيل بن سليمان حدثنا أبو حازم حدثنا سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله (ص) قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتى تلى الإبهام بعثت والساعة كهاتين . » (البخارى حـ٣ ص١٤٢) .

سُورَةُ عَبَسَ [1]

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . . اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده ، اسم عزيز انسدَّ على الأولين والآخرين طريقُ وُجُودِه . . وأنَّى بذلك ولا حَدَّ له ؟ مَن الذى يدركه بالزمان والزمانُ خَلْقُه ؟ ومن الذى يحسبه فى المكانِ والمكانُ فِعْلُه ؟ ومَن الذى يعرفه — إلّا وبه يعرفه ؟ ومَن الذى يَذْكُره[2] — إلا وبه يذكره ؟

قوله جل ذكره : « عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ » .

نَزَلَتْ فى ابن أمِّ مكتوم ، وكان ضريراً .. أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وكان عنده العباس ابن عبد المطلب وأمية بن خلف الجُمَحىّ[3] — يرجو الرسولُ صلى الله عليه وسلم إيمانَهما ، فَكَرِه أنْ يَقْطَعَ حديثَه معهما ، فأعرض عن ابن أمِّ مكتوم ، وعَبَسَ وَجْهُه ، فأنزل اللهُ هذه الآية .

وجاء فى التفسير : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرج على أثره ، وأَمَرَ بطلبه ، وكان بعد ذلك يَبَرُّه ويُكْرِمُه ، فاستخلفه على المدينة مرتين .

وجاء فى التفسير : أنه صلى الله عليه وسلم لم يَعْبَسْ — بعد هذا — فى وجهِ فقيرٍ قط ، ولم يُعْرِضْ عنه .

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (سورة الأعمى)

(٢) هكذا فى ص . هى فى نظرنا أصوب من (يدركه) التى فى م لأن السياق بعدها سيكون : (إلا وبه يدركه) والله سبحانه منزه عن الدرك واللحوق كما نعرف من مذهب القشيرى . - أما الذكر فهذا مقبول على حد تعبير ذى النون المصرى : (لا أعرفك إلا بك ولا أذكرك إلا بك) .

(٣) يقول ابن العربى : غير صحيح أن أمية هذا كان فى هذا المجلس ، فقد كان بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة وكان موته كافرا ، ولم يقصد المدينة ، ولا اجتمع بالنبى .

ويقال : فى الخطاب لُطفٌ . . وهو أنه لم يواجهه بل قالَه على الكناية[1] ، ثم بعده قال :

« وما يُدْرِيكَ لعلَّه يزَّكَّىٰ » .

أى يتذكر بما يتعلم منك أو .

« أوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكرىٰ » .

قوله جل ذكره : « أمَّا مَنِ استغنىٰ * فأنت له تَصَدَّىٰ * وما عليكَ ألَّا يزَّكَّىٰ » .

أمّا مَن استغنى عن نَفْسِه فإنه استغنى عن الله .

ويقال : استغنى بماله فأنت له تصدَّى ، أى تُقْبِلُ عليه بوجهك .

« وما عليك . . . » فأنت لا تُؤاخَذُ بألا يتزكّى هو فإنما عليكَ البلاغ .

« وَأمّا مَن جاءك يسعىٰ » .

لطَلَبِ العِلْم ، ويخشى الله فأنت عنه تَتَلَهَّى ، وتتشاغل . . وهذا كله مِنْ قبيلِ العتاب معه لأجْلِ الفقراء .

قوله جل ذكره : « كلّا إنَّها تَذْكِرةٌ * فَمَن شاء ذَكَرَه » .

القرآن تذكرة ؛ فَمَنْ شاء الله أن يَذْكُرَه ذَكَرَه ، ومَنْ شاء الله ألا يَذْكُرَه لم يَذْكُرْه ؛ أى بذلك جرى القضاء ، فلا يكون إلا ما شاء اللهُ .

ويقال : الكلامُ على جهة التهديد ؛ ومعناه : فَمَنْ أراد أن يذكره فليذكره ، ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره ! كقوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[2] .

وقال سبحانه : « ذَكَرَه » ولم يقل « ذَكَرَها » لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره : « فى صُحُفٍ مُكَرَّمة » .

---

(١) أى تحدث عن عبوس الوجه بضمير الغائب ، ثم جاء العتاب بضمير الخطاب .

(٢) آية ٢٩ سورة الكهف .

أى صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك ، وفى اللوح المحفوظ .

« مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ » .

مرفوعة فى القَدْر والرتبة ، مطهرة من التناقض والكذب .

« بأيدى سَفَرَة » .

أى : للملائكة الكَتَبَة .

« كِرَامٍ بَرَرَة » .

كرامٍ عند الله بَرَرَة .

قوله جل ذكره : « قُتِلَ الإنسانُ ما أكفرَه ! » .

لُعِنَ الإنسان ما أعظم كُفْره !

« مِن أىِّ شىءٍ خَلَقَهُ * من نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ » .

خَلَقَه وصَوَّره وقَدَّره أطواراً : من نطفةٍ ، ثم عَلَقَةٍ ، ثم طوراً بعد طور .

قوله جل ذكره : « ثم السبيلَ يَسَّرَهُ » .

يَسَّرَ عليه السبيلَ فى الخير والشرِّ ، وألهمه كيف التصرُّف .

ويقال : يَسَّرَ عليه الخروجَ من بطن أُمِّه يخرج أولاً رأسه منكوساً .

« ثم أماته فأَقْبَرَهُ » .

أى : جعل له قَبْراً لئلا تفترِسَه السِّباعُ والطيورُ ولئلا يفتضح .

« ثم إذا شاء أنشَرَهُ » .

بَعَثَه من قبره .

« كلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ »

أى : عصى وخالَفَ ما أُمِرَ به .

ويقال : لم يقضِ الله له ما أمره به ، ولو قضى عليه وله ما أمره به لمَا عصاه[1].

قوله جل ذكره : « فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامِه * أنَّا صَبَبْنا الماء صَبًّا * ثم شَقَقْنا الأرضَ شقًّا * فأنبَتْنَا فيها حَبًّا * وعِنَبًا وقضْبًا * وزيتونًا ونخلاً * وحَدَائِقَ غُلْبًا » .

فى الإشارة : صَبَبْنا ماء الرحمةِ على القلوب القاسية فَلاَنَتْ للتوبة ، وصببنا ماء التعريف على القلوب فنبتت فيها أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد .

« وقضْبًا » أى القَتّ[2] .

« وحدائق غُلْبًا » متكاثفةً غلاظاً .

« وفاكِهةً وأبًّا » .

الفاكهة : جميع الفواكه ، و « أبًّا » : المرعى .

« متاعاً لَكُم ولأنعامِكُم . . . » .

« فإذا جاءتِ الصاخَّة » أى : القيامة ؛ فيومئذٍ يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، ثم بيَّن ما سبب ذلك فقال :

« لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه » .

لا يفرَّغ إلى ذاك ، ولا ذاك إلى هذه . كذلك قالوا : الاستقامةُ أنْ تشهدَ الوقتَ

---

(١) أى : كلاَّ لم يقض الله لهذا الكافر ماأمره به من الإيمان ، بل أمره بمالم يقضِ له ـــ وهذا الرأى للإمام ابن فورك شيخ القشيرى .

(٢) سمى القت قضباً لأنه يقضب ، أى يقطع بعد ظهوره مرةبعد مرة (الحسن) ويرى ابن عباس أنه الرطب لأنه يقضب من النخل ، ولأنه ذكر العنب قبله .

قيامةً ، فما من وليٍّ ولا عارفٍ إلّا وهو — اليومَ — بقلبه يَفِرُّ من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .

فالعارفُ مع الخلْقِ ولكنه يُفارقهم بقلبه — قالوا :

فلقد جعلتك فى الفـــــؤادِ مُحَدِّثى
وأبَحْتُ جسمى مَنْ أراد جـــلوسى[1]

قوله جل ذكره : « وُجوهٌ يومَئذٍ مُسْفِرَةٌ * ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرةٌ » .

وسببُ استبشارهم مختلفٌ ؛ فمنهم مَن استبشاره لوصوله إلى جنَّته ، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته . . ومنهم ومنهم ، وبعضهم لأنه نظر إلى ربِّه فرآه .

« وَوُجوهٌ يومَئذٍ عليهــا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُها قَتَرةٌ * أولئك هم الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ » .

وهى غَبَرةُ الفُراق . « ترهقها قترة » . وهى ذُلُّ الحجاب .

---

(١) أحد بيتين ينسبان إلى رابعة العدوية ، والثانى :

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

(نشأة التصوف الإسلامى ص ١٩١ ط المعارف تأليف بسيونى) .

سُورَةُ التَّكْوِير

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ أثلجَتْ من قومٍ قلوبًا ، وأوهجت من آخرين قلوبًا ؛ من المطيعين أثلجَتْها ، ومن العاصين أوْهَجَتْها ، ومن المريدين أبهجتها ، ومن العارفين أزعجتها .

قوله جل ذكره . « إذا الشمسُ كُوِّرَتْ » .

ذَهَبَ ضَوْؤها .

« وإذا النُّجومُ انكَدَرَتْ » .

تناثرت وسقطت عَلَى الأرض .

قوله جل ذكره . « وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ »[1] .

أُزِيلَتْ عنها منا كِبُها .

« وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ » .

وهى النُّوق الحواملُ التى أتى حَمْلُها عَشَرَةَ أشهر . أهملت فى ذلك اليوم لشدة أهواله ، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها) .

« وإذا الوحُوشُ حُشِرَتْ » .

أُحْيِيَتْ ، وجُمِعَتْ فى القيامة لِيُقْتَصَّ لبعضها من بعض ؛ فيقتصّ للجمّاء من القَرْناء[2] — وهذا على جهة ضَرْبِ المثل ؛ إذ لا تكليف عليها .

---

(١) تأخرت هذه الآية بعد آية (العشار) فى م فوضعناها فى مكانها الصحيح .

(٢) هذا رأى ابن عباس كما رواه عنه عكرمة ، والجماء : ماليس لها قرن ، وفى أمثالهم « عند النطاح يُغْلَبُ الكبش الأجَمّ » .

ولا يبعد أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الألم — اليومَ — على العِوَضِ . . جوازاً لا وجوباً على ماقاله أهلُ البِدَعِ .

« وإذا البحارُ سُجِّرَتْ » .

أوقدت — مِنْ سَجَرْتُ التنور أَسْجُرُه سَجْراً ، أى : أَحْمَيْتُه .

« وإذا النُّفوسُ زُوِّجَتْ »[1] .

بالأزواج .

« وإذا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » .

نُشِرَتْ ، أى : بُسِطَت .

« وإذا السماءُ كُشِطَتْ » .

أى : نُزِعَتْ وطُوِيَتْ .

« وإذا الجحيمُ سُعِّرَتْ » .

أوقِدَت .

« وإذا الجنَّةُ أُزْلِفَتْ » .

أى : قُرِّبَتْ من المتقين .

قوله جل ذكره : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ »

هو جوابٌ لهذه الأشياء ، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفى قيام قيامة هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم ، وتجلِّى هذه المعانى لقلوبهم توجد هذه الأشياء .

(١) قرنت بأشكالها فى الجنة والنار ، قال تعالى : «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» . وقال صلى الله عليه وسلم : « يقرن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله » .

فمن اختلاف أحوالهم : أنَّ لشموسهم فى بعض الأحيان كسوفًا وذلك عندما يُرَدُّون[1] .
ونجومُ علومِهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريدين فى بعض الأحوال ، فعند ذلك
« علمت نفس ما أحضرت » .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بالخُنَّس * الجوارِ الكُنَّس » .

أى : أُقسِمُ ، والخُنَّس والكُنَّس هى النجوم إذا غربت[2] .

ويقال : البقر الوحشى[3] .

قوله جل ذكره : « والَّليلِ إذا عَسْعَسَ * والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ » .

عسعس : أى جاء وأقبل .	« تنفَّس » : خرج من جوف الليلِ.

أقسم بهذه الأشياء ، وجواب القسم :

« إنَّه لقولُ رسُولٍ كريمٍ » .

إن هذا القرآنَ لقولُ رسولٍ كريمٍ ، يعنى به جبريل عليه السلام .

« ذى قُوَّةٍ عند ذى العَرْشِ مَكينٍ » .

« مكين » من المكانة ، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آلِ لوطٍ وقلبَها .

« وما صاحِبُكم بمجنونٍ » .

وهذا أيضاً من جواب القَسَم .

« ولقد رآه بالأُفُقِ المبينِ »

رأى محمدٌ جبريلَ عليه السلام بالأفق المبين ليلةَ المعراج .

---

(1) وعندما يُرَدُّون» فى أحوال القبض بعد البسط والهجر بعد الوصل ، والخوف بعد الرجاء والفرق بعد الجمع .. ونحو ذلك .

(2) قيل هى الكواكب الخمسة الدرارى : زحل ، والمشترى ، وعطارد ، والمريخ ، والزُّهرة (فى رواية عن على ابن أبى طالب) .

(3) فسرت هكذا فى رواية عن عبد الله بن مسعود ، وأخرى عن ابن عباس .

ويقال: رأى ربَّه وكان صلى الله عليه وسلم بالأفق المبين.

« وما هُو على الغيبِ بِضَنين » .

بمتّهم[1]

قوله جل ذكره: « فأين تَذْهبُون ؟ » .

إلى متى تتطوحون فى أودية الظنون والحسبان ؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة ؟

وهلاَّ رجعتم إلى مولاكم فيما سَرَّكم أو أساءكم ؟

« إنْ هو إلَّا ذِكْرٌ للعالَمين * لِمَن شاء منكم أن يستقيم » .

ما هذا القرآن إلَّا ذكرى لمن شاء منكم أن يستقيم . . . وقد مضى القولُ فى الاستقامة .

« وما تشاءون إلَّا أن يشاء اللهُ ربُّ العالَمينَ » .

أنْ يشاءوا[2] .

(١) لا تكون بهذا المعنى إلا إذا قرئت (بظنين) بالظاء، وهى قراءة ابن كثير، وأبى عمرو والكسائى. والآخرين بالضاد فيكون المعنى (ببخيل) أى لا يبخل عليكم بما يعلم من أخبار السماء.

(٢) كنا ننتظر من القشيرى الذى ينادى بأن كل شىء من الله وإلى الله حتى أكساب العباد أن يفيض فى توضيح هذه الآية أكثر من ذلك؛ لأنها ناصعة صريحة فى نسبة المشيئة — كل المشيئة — لله، وأن الإنسان إذا وصف بالمشيئة فهى مرتبطة بالمشيئة الإلهية.

سُورَةُ الانفِطار

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ منيعةٌ ليس يسمو إلى فَهْمِها كلُّ خاطر ؛ فإذا كان الخاطِرُ غيرَ عاطرٍ فهو عن عِلْمِ حقيقتها مُتَقاصِر .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انفطَرَتْ »

أى : انشقت .

« وإذا الكواكِبُ انتثرتْ » .

تساقطت وتهافتت .

« وإذا البحارُ فُجِّرَتْ » .

أى : فُتِحَ بعضها على بعض .

« وإذا القُبورُ بُعْثِرَتْ »

أى : قُلِبَ ترابُها ، وبُعِثَ الموتى الذين فيها ، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى .

«عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وأَخَّرَتْ» .

جوابٌ لهذه الأمور ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء : عَلِمَتْ كلُّ نَفْس ما قدَّمت من خيرها وشَرِّها .

قوله جل ذكره : « يأيها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريم » .

أى : ما خدعك وما سوّل لك حتى عصيت[1] بمعاصيه ؟

ويقال : سأله وكأنما فى نفس السؤال لقّنه الجواب يقول : غرّنى كرمُك بى ، ولولا كرمُك لما فعلتُ ؛ لأنك رأيت فسترتَ ، وقدرتَ فأمهلتَ .

ويقال : إن المؤمنَ[2] وثق بحُسْن إفضاله فاغترّ بطولِ إمهاله فلم يرتكب الزلّة لاستحلاله ، ولكنّ طولَ حلمه عنه حمله على سوء خصاله ، وكما قلت[3] :

يقول مولاى : أمَا تستحى مما أرى من سوء أفعالك
قلت : يا مولاى رفقًا فقد جرّأنى[4] كثرةُ أفضالك

قوله جل ذكره : « الذى خلقكَ فسوّاك فعدلكَ * فى أىِّ صورةٍ مّا شاء ركّبكَ » .

أى : ركّبَ أعضاءَك على الوجوه الحِكَمِيَّة[5] فى أى صورة ماشاء ، من الحُسْنِ والقُبْح ، والطولِ والقِصر . ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصِّفة ، و « فى » بمعنى « على » ؛ فيكون معناه : على أى صفة شاء ركّبكَ ؛ من السعادة أو الشقاوة ، والإيمان أو المعصية . .

قوله جل ذكره . « كلَّا بل تُكذّبونَ بالدِّين »

أى : القيامة[6] .

« وإنّ عليكُم لحافظين * كِراماً كاتبين * يعلمُون ما تفعلونَ » .

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال . وقد خوّفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (علمت) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) يقصد القشيرى هنا (المؤمن العاصى) .. المنزلة بين المنزلتين (بين المؤمن والكافر) .

(٣) ينبغى ملاحظة ذلك إذا أردنا أن ندرس (القشيرى الشاعر) ؛ أنظر هذه الدراسة فى كتابنا عن (الإمام القشيرى) .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (أفسدنى) وكلاهما صحيح .

(٥) هكذا فى النسختين ، وقد كنا نريد أن نظن أنها ربما كانت (الحكمية) ، ولكن ارتباط السياق بالمشيئة (.. ما شاء ركّبك) جعلنا نحجم عن هذا الظن .

(٦) بدليل قوله تعالى فيها بعد (يصلونها يوم الدين) .

حشمتهم من اطِّلاع الحق ، ولو علموا ذلك حقَّ العلم لكانَ توقيهم عن المخالفات لرؤيته — سبحانه ، واستحياؤهم من اطلاعه — أتمَّ من رُؤية الملائكة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الأبرارَ لفى نَعيم * وإنَّ الفُجَّارَ لفى جَحيم » .

« الأبرار » : هم المؤمنون ؛ اليومَ فى نعمة العصمة ، وغداً هم فى الكرامة والنعمة « الفجار » : اليومَ فى جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشِّركِ الموجِب للفُرقة ، وغداً فى النارِ على وجه التخليد والتأبيد .

ويقال : « إن الأبرار لفى نعيم » . فى رَوْحِ الذِّكر ، وفى الأُنْسِ فى أوان خَلْوَتهم .

« وإن الفجار لفى جحيم » . فى ضيق قلوبهم وتَسَخُّطِهم على التقدير ، وفى ظُلُمات تدبيرهم ، وضيق اختيارهم .

« يَصْلَوْنَها يومَ الدِّين * وما هُم عنها بغائبين » .

« يصلونها » أى النار . « يوم الدين» . يوم القيامة .

« وما هم عنها » عن النار . « وما أدراك ما يومُ الدين ؟ » قالها على جهة التهويل .

« يومَ لا تَملِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله » .

الأمر لله يومئذٍ ، ولله من قبله ومن بعده ، ولكن « يومئذٍ » تنقطع الدعاوى ، إذ يتضح الأمرُ وتصير المعارفُ ضرورية .

سُورَةُ المُطَفِّفِين

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبرياؤه ، وسناؤه علاؤه ، وعلاؤه بهاؤه ، وجلالُه جمالُه ، وجماله جلالُه . الوجودُ له غيرُ مُستَفتَح ، والموجودُ منه غيرُ مُستَقبَح . المعهودُ منه لُطفُه ، المأمولُ منه لطفه . . كيفما قسَمَ للعبدِ فالعبدُ عَبْدُه ؛ إنْ أقصاه فالحُكمُ حكمه ، وإنْ أدناه فالأمر أمرُه[1] .

قوله جل ذكره : « وَيْلٌ للمطفِّفِين * الّذين إذا

اكتالوا على النـاس يستوفون *

وإذا كالُوهم أو وَزَنوهم يُخسِرون » .

« ويلٌ » : الويلُ كلمةٌ تُذْكَر عند وقوع البلاء ، فيقال : ويلٌ لك ، وويلٌ عليك !

و « المطفِّف » . الذى يُنْقِصُ الكَيْلَ والوزنَ ، وأراد بهذا الذين يعاملون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا ، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا ، ويتجلَّى ذلك فى : الوزن والكَيْلِ ، وفى إظهار العيب ، وفى القضاء والأداء والاقتضاء ؛ فَمَنْ لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه

---

(1) هذا هو نص البسملة كما جاء فى م أما فى ص فهى على النحو التالى : —

[بسم الله : اسم جليلٌ جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعاله لا بأغراض وأعلال ، وقدرته لا باجتلاب ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال . فهو الذى لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناءٌ ولا زوال] .

وهذا هو تفسير بسملة سورة الانشقاق كما جاء فى م وكما سنرى ، ومعنى هذا أن اضطراباً حدث فى الأمر . وما دمنا نعرف أن القشيرى لا يسترسل إشارته من كل بسملة بطريقة عفوية ، ولكن على أساس المغزى العام للسورة . . فقد اخترنا أن تكون بسملة « المطففين » هى هذه على أساس أن قسمة الله للعبد قسمة عادلة ليس فيها (تطفيف) ، وأن ما أوجده الله من وجود (غير مستقبح) .

فليس بمنصف . وأمَّا الصِّدِّيقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكلِّ مَنْ لهم معهم معاملة — والصدقُ عزيزٌ ، وكذلك أحوالهم فى الصُّحْبَةِ والمعاشرة . . فالذى يرى عَيْبَ الناسِ ولا يرى عيبَ نفْسِه فهو من هذه الجلة — جملة المطففين — كما قيل :

وتُبْصِرُ فى العينِ منِّى القَـــــذَى
وفى عيـــنِكَ الجِـــــذْعَ لا تُبْصِرُ

ومَن اقتضى حقَّ نفْسه — دون أن يَقْضِىَ حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه — فهو من جملة المطففين .

والفتى مَنْ يقضى حقوق الناس ولا يقتضى من أحدٍ لنفسه حقًّا .

قوله جل ذكره : « أَلَا يَظُنُّ أولئك أنَّهم مَّبعُوثونَ * ليومٍ عظيمٍ ؟ * يومَ يقومُ النـاسُ لِربِّ العالَمين » .

أى : ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحاسَبون غداً ، وأنهم مُطَالَبون بحقوق الناس ؟ .

ويقال : مَنْ لم يَذْكُرْ — فى حال معاملةِ الناسِ — معاينة القيـامة ومحاسبتها فهو فى خسرانٍ فى معاملته .

ويقال : مَنْ كان صاحبَ مراقبة لله ربِّ العالَمين استشعر الهيبةَ فى عاجلِهِ ، كما يكون حالُ الناسِ فى الحشر ؛ لأنَّ اطلاعَ الحقِّ اليومَ كاطلاعه غداً .

قوله جل ذكره . « كَلَّا إنَّ كتابَ الفُجَّارِ لفى سِجِّين * وما أدْراكَ ما سجينٌ ؟ * كتابٌ مَرْقومٌ » .

« سجين [1] » قيل : هى الأرض السابعة ، وهى الأرض السفلى ، يُوضَع كتابُ أعمالِ الكفار هنالك إذلالاً لهم وإهانة ، ثم تُحْمَلُ أرواحُهم إلى ما هنالك .

---

(١) فى رواية عن أنس أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « سجِّين أسفل الأرض السابعة » .

ويقال: « السِّجين » جُبٌّ في جهنم . وقيل: صخرةٌ في الأرض السفلى ، وفي اللغة السِّجين: فِعيلٌ من السجن .

« وما أدراك ما سجين » . استفهامٌ على جهة التهويل

« كتابٌ مرقوم » . أي مكتوب ؛ كَتَبَ اللهُ فيه ما هم عاملون ، وما هم إليه صائرون . وإنما المكتوبُ على بني آدم في الخير والشر ، والشقاوة والسعادة فهو على ما تعلّق به حكمه وإرادته ، وإنما أخبر على الوجه الذي علم أن يكون أو لا يكون ، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لا يكون . ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خَلْقِهِ إلَّا مَنْ شاء من المقربين بالقَدْرِ الذي أراده ؛ فإنه يُجْرِي عليهم في دائم أوقاتهم ما سَبَقَ لهم به التقدير .

ثم قال : « وَيْلٌ يومَئِذٍ للمُكَذِّبين * الذين يُكَذِّبون بيوم الدِّين * وما يُكَذِّبُ به إلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أثيمٍ »

ويلٌ للذين لا يُصَدِّقون بيوم الدين ، وما يُكَذِّبُ به إلا كل مُجَاوِزٍ للحَدِّ الذي وُضِعَ له؛ إذا يُتْلَى عليه القرآن كَفَرَ به .

« كَلَّا بل رَانَ عَلَى قلوبِهِم مَّا كانوا يَكْسِبون * كلَّا إنَّهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجوبُون »

أي : غَطَّى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المعاصي . . وكما أنهم — اليومَ — ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته . ودليلُ الخطاب يوجبُ أن يكون المؤمنون يَرَوْنَه غداً كما يعرفونه اليوم .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إنَّ كِتَابَ الأبرارِ لَفِي علِّيِّينَ » .

« علِّيين » أعلى الأمكنة ، تحمل إليه أرواح الأبرار تشريفاً لهم وإجلالاً .

ويقال : إنها سِدْرة المنتهى . ويقال : فوق السماء السابعة . كتابٌ مرقوم فيه أعمالهم مكتوبة يشهده المقربون [1] من الملائكة .

« إنَّ الأبرارَ لفى نعيم » .

اليومَ وغداً : اليومَ فى رَوْحِ العرفان ، وراحةِ الطاعة والإحسان ، ونعمةِ الرضا وأُنْسِ القُربة وبَسْطِ الوصلة . وغداً — فى الجنة وما وُعِدوا به من فنون الزلفة والقربة .

قوله تعالى : « على الأرائك يَنظرون » .

أثْبتَ النظرَ ولم يُبَيِّن المنظور إليه لاختلافهم فى أحوالهم ؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُوره ، ومنهم من ينظر إلى حُوره ، ومنهم ومنهم .. ومنهم الخواصُّ فهم على دوام الأوقات إلى الله — سبحانه — يَنظُرون .

قوله جل ذكره : « تَعرِفُ فى وجُوهِهِم نضْرَةَ النَّعيم » .

مَنْ نظر إليهم عَلِمَ أنَّ أثرَ نَظَرِه إلى مولاه ما يلوح على وجهه من النعيم ؛ فأحوال المحبِّ شهودٌ عليه أبداً . فإنْ كان الوقتُ وقتَ وصالٍ فاختيالُه ودلالُه ، وسرورُه وحبورُه ، ونشاطُه وانبساطُه . وإنْ كان الوقتُ وقتَ غيبةٍ وفراق فالشهودُ عليه نحولُه وذبولُه ، وحنينُه وأنينُه ، ودموعُه وهجوعُه .. وفى معناه قلت [2] .

يا مَنْ تَغَيُّرُ صورتى لَمَّا بدا — لجميع ما ظنوا بنا — تحقيقُ

---

(1) هكذا فى ص وفى م (يشهد) بدون ضمير غائب ، وحسب النسخة الأولى تكون عودة الضمير على الكتاب المرقوم ، وحسب النسخة الثانية يكون الكلام مستمراً مخصوصاً ولم يبدأ كالعادة بعلامة نشعر ببدء الآية مثل : قوله تعالى أو قوله جلّ ذكره .. أى : يشهد المقربون أن الأبرار لفى نعيم ، ويتقوّى الرأى الأول بما قاله القشيرى منذ قليل : إن الله يُطْلِع بعض المقربين على أسرار خلقه بالقدر الذى يريده سبحانه ، كذلك فإن السياق — على الفهم الثانى — يقتضى فتح همزة (إن الأبرار ...) ولكنها مكسورة مما يدل على أن الكلام مستأنف — اللهم إلا إذا كانت يشهد بمعنى يقسم — فالشهادة ترد بمعنى القَسَم — كما مرَّ من قبل .. وهمزة إن تكسر بعد القسم .

(2) نسعد كثيراً جداً بهذا الشعر الذى صاغه القشيرى ؛ فهو شاعر مُقِلٌّ ، ولكنه — كما هو واضح — رقيق دقيق .

وربما كان معنى النص الأول على هذا الترتيب : يامن تغيُّرُ صورتى — لمَّا بدا — تحقيقٌ لجميع ما ظنوا بنا ؛ أى أن ماظهر على أسرتّى من أشياء حاولت كتمانها قد حقَّق ظنونَ الواشين والعاذلين .. فلا فائدة .. فالصبُّ تفضحه عيونه ! ونحسب أنّ ما قبل النص ، وما يقصده النص الثانى يؤيدان تلوتنا على هذا النحو .

وقلت :

ولمّا أتَى الواشـــين أنّى زُرتُها جَحَدْتُ حِذاراً أنْ تَشِيعَ السرائرُ

فقالوا : نرى فى وجهك اليومَ نضرةً كَسَتْ مُحيَّاكَ[1] .. وهاذاك ظاهرُ !

وبُرْدُكَ لا ذاكَ الذى كان قبلَه به طِيبُ نَشْرٍ لم تُشِعْهُ المجامِرُ

فما كان منّى من بيانٍ أُقيمه وهيهات أن يخفى مُريبٌ مسـاترُ !

قوله جل ذكره : « يُسْقَونَ من رَحيقٍ مّختومٍ * خِتامُه مِسْكٌ وفى ذلك فليتنافَسِ المتنافِسون ».

« مختوم » أى رحيقٌ لا غِشٌ فيه .

ويقال : عتيقٌ طيِّبٌ .

ويقال : إنهم يشربون شراباً آخره مِسْكٌ .

ويقال : بل هو مختومٌ قبل حضورهم .

ويقال : « ختامه مسك » . ممنوعٌ من كلِّ أحدٍ ، مُعَـدٌّ مُدَّخَرٌ لـكلِّ أحدٍ باسمه .

« وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . وتنافُسُهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، والسباقُ إلى القُرَب ، وتعليقُ القلبِ بالله ، والانسلاخُ عن الأخلاقِ الدَّنيَّة ، وجَوَلانُ الهِمَمِ فى الملكوت[2] ، واستدامةُ المناجاة .

قوله جل ذكره: « ومِزَاجُه من تسنيمٍ * عيناً يَشْرَبُ بها المُقَرَّبون » .

« تسنيم » أى : عينٌ تسَنَّمُ عليهم من عُـلُوٍّ .

وقيل : ميزابٌ يَنْصَبُّ عليهم من فوقهم .

ويقال : سُمِّى تسنيماً ؛ لأن ماءه يجرى فى الهواء مُتَسَنِّماً فينصبُّ فى أوانى أهل الجنة ؛

---

(١) كذا بالأصل ولعلّها (بَدَتْ فى محياك) كى يستقيم الوزن .

(٢) هكذا فى ص وهى أصح مما فى م (الملكوب) فهى مشتبهة على الناسخ .

فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجًا ، ومنهم مَنْ يُسْقَى صِرْفًا .. الأولياء يُسْقَون مزجًا ، والخواصُ يُسْقَون صِرْفًا[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين أجْرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مَرُّوا بهم يتغامزون » .

كانوا يضحكون استهزاء بهم .. فاليومَ .. الذين آمنوا من الكفار يضحكون !

« فاليومَ الذين آمنوا من الكُفار يضحكون * عَلَى الأرائكِ ينظرون * هل ثُوِّبَ الكفَّارُ ما كانوا يفعلون؟»

« هل ... » استفهام يراد منه التقرير .

ويقال : إذا رأوا أهلَ النارَ فى النار يُعذَّبون لاتأخذهم بهم رأفة ، ولا تَرِقُّ لهم قلوبُهم ، بل يضحكون ويستهزئون ويُعيِّرونهم .

(١) نفهم من هذا أن الخواص أعلى درجةً من الأولياء .

سُورَةُ الانشِقَاق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »[1]

« بسم الله » : اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء أمثال ، وأفعاله لا بأغراضٍ وأعلال ، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال ، فهو الذى لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال .

قوله جل ذكره : « إذا السماء انشقت » .

« انشقت » : انصدعت .

« وأَذِنَت لربِّها وحُقَّتْ » .

أى قابلَتْ أمرَ ربِّها بالسمع والطاعة . . وحقَّ لها أن تفعل ذلك .

« وإذا الأرضُ مُدَّتْ » .

بُسِطَتْ باندكاكِ آكامها وجبالِها حتى صارت ملساء ، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلّت عنها . . وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة .

وجواب هذه الأشياء فى قوله : « فلاقيه » أى يَلْقَى الإنسانُ ما يستحقه على أعماله .[2]

قوله جل ذكره : « يأيها الإنسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فَمُلاقيه » .

---

(١) نعيد إلى الذاكرة ما قلناه من قبل من حدوث افتراق بين النسختين بين تفسير بسملتى « المطففين » و « الانشقاق » .

(٢) يرى الكسائى — ويوافقه أبو جعفر النحاس وغيره — أن جواب القسم هو : « فأما من أوتى كتابه بيمينه .... » أى : إذا انشقت السماء فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا ..

« يأيها الإنسان » : يأيها المُكلَّفُ . . إنّك ساعٍ بما لَكَ سَعْيًا ستلقى جزاءه ؛ بالخير خيراً وبالشّرِّ شرّاً .

« فأمَّا مَنْ أوتِيَ كتابَه بيمينه » .

وهو للمؤمنُ المُحْسِنُ .

« فسوف يُحَاسَبُ حساباً يسيراً » .

أى حساباً لا مَشَقَّةَ فيه . ويقال : « حساباً يسيراً » أى يُسْمِعُه كلامَه — سبحانه — بلا واسطة ، فيُخَفِّفُ سماعُ خطابِه ما فى الحساب من عناء .

ويقال : « حساباً يسيراً » : لا يُذَكِّرُه ذنوبَه . ويقال : يقول : ألم أفعل كذا ؟ وألم أفعل كذا ؟ يعدُّ عليه إحسانَه .. ولا يقول : ألم تفعل كذا ؟ لا يُذَكِّرُه عصيانَه .

« وينقلبُ إلى أهلِه مسروراً » .

أى بالنجاة والدرجات ، وما وَجَدَ من المناجاة ، وقبول الطاعات ، وغفران الزّلّات .

ويقال : بأن يُشَفِّعَه فيمن يتعلّق به قلبُه . ويقال : بألا يفضحه .

ويقال : بأن يلْقى ربَّه ويُكلِّمَه قبل أنْ يُدْخِلَه الجنة فيلْقى حَظِيَّته من الحورِ العين .

قوله جل ذكره : « وأمَّا مَنْ أوتِيَ كتابَه وراء ظَهْره » .

وهو الكافر .

« فسوف يدعو ثُبُوراً » ..

أى وَيْلاً .

« ويَصْلَى سعيراً » .

جهنم .

« إنَّه كان فى أهله مسروراً »

من البَطَرِ [1] والمدح .

« إنَّه ظَنَّ أن لَّن يحور » .

أنه لن يرجعَ إلينا ، ولن يُبْعَثَ .

قوله جل ذكره : « فلا أُقْسِمُ بالشَّفَق » .

بالحُمْرَةِ التى تعقب غروبَ الشمس .

« والليلِ وما وَسَقَ » .

وما جَمَعَ وضَمَّ .

« والقَمَرِ إذا اتَّسَقَ » .

تَمَّ واستوى واجتمع .

ويقال : الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم ، وأُذِيقوا الفراقَ فى بعض أحوالهم ، وذلك زمانُ قبضٍ بعد بَسْطٍ ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبَ جَمْعٍ [2] . « والليل وما وسق » : ليالى غيبتهم وهم بوصف الاستياقِ ؛ أو ليالى وصالهم وهم فى روح التـــلاق ، أو ليالى طَلَبِهم وهم بنعتِ القَلَقِ والاحتراقِ .

« والقمر إذا اتسق » : إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفان على القلوب فلا بَخْسَ ولا نُقْصان .

قوله جل ذكره : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عن طَبَقٍ » .

أى حالاً بعد حال . وقيل : من أطباق السماء . ويقال : شِدَّةً بعد شدَّة .

ويقال : تاراتُ الإنسانِ طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً .

ويقال : طالباً ثم واصلاً ثم مُتَّصِلاً .

ويقال : حالاً بعد حالٍ ، من الفقر والغِنَى ، والصحة والسَّقم .

ويقال : حالاً بعد حالٍ فى الآخرة .

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (النظر) والسياق يقتضى (البطر) فهو من أشد آفات الطريق خطراً — كما نعرف من مذهب القشيرى .

(٢) فى م (وأوان فراق بعد جمع) والاصطلاحان الصوفيان الملائمان هما (الفرق والجمع) .

قوله جل ذكره : « فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنون ؟ » .

أى فما لكُفَّارِ أُمَّتِكَ لا يُصَدِّقون . . وقد ظهرت البراهين ؟

« وإذا قُرِئَ عليهم القرآنُ
لا يَسْجُدون * بل الذين كفروا
يُكذِّبون * واللهُ أعلمُ بما يُوعُون » .

« يوعون » أى تنطوى عليه قلوبُهم — من أَوْعَيْتُ المتاعَ فى الظَّرْفِ أى جعلته فيه .

« فَبَشِّرْهم بعذابٍ أليم * إلّا الذين
آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم أَجْرٌ
غيرُ ممنون » .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أجرٌ غيرُ مقطوع .

سُورَةُ البُرُوج

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمُ مَنْ لا عقل يَكْتَنِهُهُ[1] ، اسمُ مَنْ لا مِثْلَ يُشْبِهُهُ ، اسمُ من لا فَهْمَ[2] يرتقى إليه بالتصوير ، اسمُ مَنْ لا علمَ ينتهى إليه بالتقدير[3] ، اسمُ مَنْ لم يَرَه بَصَرٌ إلّا واحدٌ — وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه[4] ، اسمُ مَنْ لا يَجْسُرُ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ بغير ما إذْنٍ فيه ، اسمُ مَنْ لا قُطْرَ يحويه ، ولا سِرَّ يُخفيه ، ولا أحدَ يصل إلى معرفته إلّا مَنْ يرتضيه .

قوله جل ذكره : « والسماء ذاتِ البروج » .

أراد البروج الأثنى عشر[5] .

« واليومِ الموعودِ » .

يوم القيامة .

وجوابُ القَسَمِ قوله : « إنَّ بَطْشَ ربِّك لشديد » .

قوله جل ذكره : « وشاهدٍ ومشهودٍ » .

يقال : الشاهدُ اللهُ ، والمشهودُ الخَلْقُ .

---

(١) أى يدرك كنهه .

(٢) هكذا فى النسختين ، ومع ذلك فإننا نرجح أنها ربما كانت فى الأصل (من لا وهم ...) فمن أقوال ذى النون : (كلما تصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك) الرسالة ص ٤ .

(٣) نعرف فى الاصطلاح أن (التقدير) لله و(التدبير) للإنسان ، ولكن (التقدير) مستعمل هنا خاصاً بالإنسان ؛ أى أن أحداً لا يستطيع أن (يقدر) الله حق قدره .

(٤) يشير بذلك إلى اختلاف الآراء حول رؤية النبى (ص) ربه ليلة المعراج رؤية بصرية (الرسالة ص ١٧٥) .

(٥) وهى التى تسير الشمس فى كل منها شهراً ، وهى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت .

ويقال : الشاهدُ الخَلْقُ ، والمشهودُ اللهُ ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم ، وغداً بأبصارهم .

ويقال : الشاهدُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والمشهودُ القيامة ، قال تعالى : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » [1] ، وقال في القيامة : « ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود » [2] .

وقيل : الشاهد يومُ الجمعة[3] ، والمشهود يومُ عَرَفة .

ويقال : الشاهدُ المَلَكُ الذي يكتب العمل ، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه ، وأعضاؤه تشهد عليه ؛ فهو شاهد وهو مشهود .

ويقال : الشاهدُ يومُ القيامة ، والمشهودُ الناس .

ويقال : المشهودُ هم الأمة لأنه صلّى الله عليه وسلم يشهد لهم وعليهم .

ويقال : الشاهدُ هذه الأمة ، والمشهودُ سائر الأمم .

ويقال : الشاهدُ الحجرُ الأسود لأنَّ فيه كتابَ العهد .

ويقال : الشاهدُ جميعُ الخَلْق ؛ يشهدون لله بالوحدانية ، والمشهود الله .

ويقال : الشاهدُ الله ؛ شهد لنفسه بالوحدانية ، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه .

قوله جل ذكره : « قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ * النارِ ذاتِ الوَقود » .

أي لُعِنوا . والأخدودُ : الحُفْرَةُ في الأرض إذا كانت مستطيلةً ، وقصتهم في التفسير معلومة[4] و« الوقود » الحطب .

وهم أقوامٌ كتموا إيمانَهم فلمَّا عَلِمَ مَلِكُهُم بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة ، وألقاهم فيها .

---

(١) آية ٤١ سورة النساء .

(٢) آية ١٠٣ سورة هود .

(٣) خرّج ابن ماجة وغيره رواية عن أبي الدرداء قوله : قال رسول الله (ص) : « أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » .

(٤) قيل هم من السجستان ، وقيل من نجران ، وقيل من القسطنطينية ، وقيل : هم من المجوس . وقيل من اليهود ، وقيل من النصارى .

وآخِرُ مَنْ دَخَلَها امرأةٌ كان معها رضيعٌ ، وهَمّت أن ترجع ، فقال لها الولد : قِفي واصبري .. فأنت على الحقِّ .

وألقوها فى النار ، واقتحمتها ، و بينما كان أصحابُ الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النارُ من الأخدود وأحرقتهم جميعاً ، ونجا من كان فى النار من المؤمنين وسَلِموا .

قوله جل ذكره : « وما نَقَمُوا منهم إلاَّ أن يُؤْمنوا
بالله العزيز الحميد * الذى له مُلْكُ السموات
والأرضِ والله على كلِّ شيء شهيد » .

ما غضبوا منهم إلاَّ لإيمانهم .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين فَتَنوا المؤمنين والمؤمنات
ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنَّمَ ولهم
عذاب الحريق » .

أى أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم « فلهم عذاب جهنم » : نوعٌ من العذاب ، « ولهم عذابُ الحريق » : نوع آخر[1] .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ لهم
جناتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ ذلكَ
الفوزُ الكبير » .

« ذلك الفوز الكبير » : النجاة العظيمة .

« إنَّ بَطْشَ ربِّك لشديد » .

البطشُ الأخذ بالشدة .

« إنّه هو يُبْدِئُ ويُعيد » .

يُبدئُ الخَلْق ثم يُعيدُهم بعد البعث .

---

(1) قد يكون العذاب الأول بالزمهرير فى جهنم ، والثانى بنار الحريق ؛ فكأنهم يعذبون ببردها وحرها والله أعلم .

ويقال : يبدئ بالعذاب ثم يُعيد ، وبالثواب ثم يُعيد .

ويقال : يبدئ على حُكْم العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه ، ويبدئ على الضعف ويعيدهم إلى الضعف .

ويقال : يبدئ الأحوال السَّنيّة فإذا وقعت حجبة يعيد ثانية .

ويقال : يبدئ بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه ، فإذا نَقَضَ توبتَه فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه فى أول حاله .

ويقال : يبدئ لطائفَ تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً ، فلا يزال يبدئ ويعيد إلى آخر العمر .

قوله جل ذكره : « وهو الغفور الوَدُود » .

« الغفور » كثيرُ المغفرة ، « الودود » مبالغة من الوَادِّ ، ويكون بمعنى المودود ؛ فهو يغفر لهم كثيراً لأنه يَوَدُّهم ، ويغفرُ لهم كثيراً لأنهم يودُّونه .

قوله جل ذكره : « ذو العرش المجيد »

ذو المُلْكِ الرفيع ، والمَجْد الشريف .

« فعَّالٌ لمَا يُريد » .

لأنه مالِكٌ على الإطلاق ؛ فلا حَجْرَ عليه ولا حَظْرَ .

قوله جل ذكره : « هل أتاكَ حديثُ الجُنود » .

الجموع من الكفار .

« فِرْعَونَ وَثَمُود »

وقد تقدم ذكر شأنهما .

« بل الذين كفروا فى تكذيب »

« الذين كفروا » يعنى مُشْرِكى مكة ؛ « فى تكذيب » للبعث والنشر .

« واللهُ مِن ورائهم محيط »

عالمٌ بهم .

« بل هو قرآنٌ مجيدٌ * فى لوح

محفوظ » .

« فى لوح محفوظ » مكتوبٍ فيه . وجاء فى التفسير : أنَّ اللوحَ المحفوظ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء ، دِفَّتاه من ياقوتة حمراء عَرْضُها بين السماء والأرض ، وأعلاه متعلِّقٌ بالعرش ، وأسفله فى حِجْرِ مَلَكٍ كريم .

والقرآن كما هو محفوظ فى اللوح كذلك محفوظ فى قلوب المؤمنين ، قال تعالى : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فهو فى اللوح مكتوبٌ ، وفى القلوب محفوظٌ .

سُورَةُ الطَّارق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وَفَّقه لعرفانه ، ثم زيَّنَه بإحسانه ، ثم استخلصه بامتنانه ؛ فعَصَمَه من عِصيانه ، وقام بحسن التولِّي — فى جميع أحواله — بشأنِه ، ثم قبَضَه على إيمانه ، ثم بوّأه فى جنانه ، وأكرمه برضوانه ، ثم أكمل عليه نِعْمَتَه برؤيته وعيانه .

قوله جل ذكره : « والسماء والطارق »

أقسم بالسماء ، وبالنجمِ الذى يَطْرُق ليلا .

« وما أدراك ما الطارق ؟ »

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم .

« النجمُ الثاقِب »

المضىء العالى . وقيل : الذى ترمى به الشياطين .

ويقال : هى(1) نجوم المعـــرفة التى تدل على التوحيد يستضىءُ بنورها ويهتدى بها أولو البصائر .

« إن كُلُّ نَفْسٍ لمَّا عليها حافِظ »

ما مِنْ نَفْسٍ إلا عليها حافِظٌ من الملائكة ، يحفظ عليه عملَه ورزقَه وأجلَه ، ويحمله على دوامِ التيقُّظ وجميلِ التحفُّظ .

قوله جل ذكره : « فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق * خُلِقَ

---

(1) هكذا فى م وهى فى ص (هو نجم المعرفة ... إلخ) .

من ماء دافقٍ * يخرجُ من بين الصُّلْبِ والترائب »

يخرج من صُلْبِ الأب ، وتريبةِ الأم .

وهو بذلك يحثُّه على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته — سبحانه .

« إنَّه على رَجْعِه لقادِرٌ »

إنه على بَعْثِه ، وخَلْقِه مرةً أُخرى لقادِرٌ ؛ لأنه قادر على الكمال — والقدرةُ على الشيء تقتضى القدرةَ على مِثْلِه ، والإعادة فى معنى الابتداء .

« يومَ تُبْلَى السرائرُ »

يوم تُمْتَحنُ الضمائر .

« فما لَه من قُوَّةٍ ولا ناصِرٍ »

أى ما لهذا الإنسان — يومئذٍ — من مُعينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله .

« والسماء ذاتِ الرَّجْعِ »

أى المطر .

« والأرضِ ذات الصَّدْعِ »

« الصدع » : الانشقاقُ بالنباتِ للزرع والشجر .

« إنَّه لقولٌ فَصْلٌ »

أى : إن القرآن لقولٌ جَزْمٌ .

« وما هو بالهَزْلِ »

الهزل ضد الجِدّ ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِبٍ .

قوله جل ذكره : « إنَّهم يكيدون كَيْداً »

أى يحتالون حيلةً .

« وأَ كِيدُ كَيْداً »

هم يحتالون حيلةً ، ونحن نُحْكِمُ فِعلاً ونُبْرِمُ خَلْقاً ، ونجازيهم على كيدهم ، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

« فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُم رُويداً »

أى أنظِرهم ، وأمهِلهم قليلا ، وأرْوِدْهم رويداً .

سُورةُ الأعلى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَصَدَه وَجَدَه ، ومَنْ استمعه حَمِدَه . مَنْ طَلَبَه عَرَفَه ، ومَنْ عرَفَه لاطَفَه ، فإذا وَجَدَ لُطفَه ألِفَه ، وإذا أَلِفَه أَنِفَ أنْ يخَالِفه .

قوله جل ذكره : « سَبِّح اسمَ ربِّك الأعْلَى »

أى سَبِّح ربَّك بمعرفة أسمائه ، واسبح بسِرِّك فى بحار علائه ، واستخرجْ من جواهر عُلُوِّه وسنائه ما تَرَصَّعُ به عِقْدَ مَدْحِه وثنائه .

« الذى خَلَقَ فَسَوَّىٰ »

خَلَق كلَّ ذى روحٍ فسوَّى أجزاءه ، ورَكَّبَ أعضاءه على ما خَصَّه به من النظم العجيب والتركيب البديع .

« والذى قَدَّرَ فَهَدَىٰ »

أى قدَّر ما خَلَقَه ، فجَعَلَه على مقدار ما أراده ، وهدى كلَّ حيوانٍ إلى مافيه رشده من المنافع ، فيأخذ ما يُصْلِحه ويترك ما يضره — بحُكم الإلهام .

ويقال : هَدَى قلوبَ الغافلين إلى طلب الدنيا فعمروها ، وهدى قلوبَ العابدين إلى طلب العقبى فآثروها ، وهدى قلوبَ الزاهدين إلى فناء الدنيا فرفضوها ، وهدى قلوبَ العلماء إلى النظر فى آياته والاستدلال بمصنوعاته فعرفوا تلك الآيات ولازموها .

(وهدى قلوبَ المريدين إلى عِزِّ وَصْفِه فآثروه ، واستفرغوا جُهْدَهم فطلبوه)[1] ، وهدى

---

(١) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

العارفين إلى قُدْس نعتِه فراقبوه ثم شاهدوه ، وهدى الموحِّدين إلى علاء سلطانه فى توحد كبريائه فتركوا ماسواه وهجروه ، وخرجوا عن كلِّ مألوفٍ لهم ومعهود[1] حتى قصدوه . فلمّا ارتقوا عن حدِّ البرهان ثم عن حدِّ البيان ثم عمّا كالعيان علموا أنَّه عزيزٌ ، وأنَّه وراء كلِّ فَصْلٍ ووَصْلٍ ، فرجعوا إلى موطنِ العَجْزِ فتوسَّدوه .

« والذى أَخْرَجَ المرْعَىٰ »

أى النبات .

« فجعَله غُثَاء أحْوَىٰ »

جعله هشياً كالغثاء ، وهو الذى يقذفه السيل . و « أحوى » أسود .

« سنُقْرِئُكَ فلا تَنْسىٰ » [2].

سنجمع القرآن فى قلبك — يا محمد — حِفْظاً حتى لا تنسى لأنا نحفظه عليك .

« إلاَّ ما شاء اللهُ إنَّه يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يخفَىٰ » .

مما لا يدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أداؤه .

وهو — سبحانه — يعلم السِّرَّ والعَلَن .

قوله جل ذكره : « فَذَكِّرْ إن نَفَعَت الذِّكرى »

والذِّكرى تنفع لا محالة[3]، ولكنْ لِمَنْ وَفَّقَه اللهُ للاتعاظ بها ، أمَّا مَنْ كان المعلومُ من حاله الكفرَ والإعراضَ فهو كما قيل :

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (معبود) وقد رجحنا (معهود) لتلاؤمها مع (مألوف) . ولكن إذا تذكرنا أن الصوفية يرون الانسياق وراء الهوى نوعاً من الشرك الخفى — قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » — فيمكن فى ضوء ذلك قبول (معبود) أيضاً .

(٢) يرى الجنيد أن المعنى «فلا تنسى العمل به » ، وهذا من الآراء الحسنة التى يتمشى معها رأى القشيرى فى « إلا ما شاء الله » .

(٣) وهذا تفسير (إن) فى الآية على معنى (ما) : أى فذكر ما نفعت الذكرى ، ولا يكون لها حينئذ معنى الشرط ، وتفسر على معنى (إذ) مثل : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، وعلى معنى (قد) .

وما انتفاعُ أخى الدنيـــا بِمُقْلَتِهِ   إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

« سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ »

الذى يخشى الله ويخشى عقوبته .

« ويَتَجَنَّبُهَا الأشقَى * الذى يَصْلَى النارَ الكبرى * ثم لا يموتُ فيها ولا يحيا » .

أى يتجنبُ الذِّكرَ الأشقَى الذى يَصْلَى النارَ الكبرى ، ثم لا يموت فيها موتاً يريحه ، ولا يحيا حياةً تَلَذُّ له .

قوله جل ذكره : « قد أفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ » .

مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوبِ والعيوبِ ، ومشاهدة الخَلْقِ وأدَّى الزكاة — وَجَدَ النجاة ، والظَّفَرَ بالبُغْيَة ، والفوزَ بالطَّلبة .

« وذَكَرَ اسمَ ربِّه فَصَلَّىٰ »

ذَكَرَ اسمَ ربِّهِ فى صلاته . ويقال : ذَكَرَه بالوحدانية وصَلَّى له .

« بل تُؤْثِرُون الحياةَ الدنيا »

تميلون إليها ؛ فتُقَدِّمون حظوظكم منها على حقوق الله تعالى .

[« والآخرةُ خيرٌ وأبْقَىٰ »

والآخرة للمؤمنين خيرٌ وأبقَى — من الدنيا — لطلاَّبها .] (١)

قوله جل ذكره : « إنَّ هـذا لفى الصُّحُفِ الأولىٰ * صُحُفِ إبراهيمَ وموسىٰ »

إن هذا الوعظَ لفى الصحف المتقدمة ، وكذلك فى صحف إبراهيم وموسى وغيرهما ؛ لأنَّ التوحيدَ ، والوعدَ والوعيدَ . . لا تختلف باختلاف الشرائع .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص .

سُورَةُ الغَاشِيَة

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم ».

« بسم الله »: كلمةٌ من سمعها وفي قلبه عرفانُه تلألأت أنوارُ قلبه، وتفرَّقت أنواعُ كُرَبِه، وتضاعفَتْ في جماله طوارقُ حُبِّه، وتحيَّرت في جلاله شوارقُ لُبِّه.

كلمةٌ مَنْ عرَفَها — وفي قلبه إيمانُه — أحبَّها من داخل الفؤاد، وهجَرَ — في طَلَبِها — الرُّقاد، وتَرَكَ — لأجْلِها — كلَّ همٍّ ومراد.

قوله جل ذكره: « هل أتاكَ حديثُ الغاشية ؟ ».

« الغاشية » المُجَلِّلَةَ، يريد بها القيامة تَغْشَى الخَلْقَ، تغشَى وجوهَ الكفَّار.

« وُجُوهٌ يومَئذٍ خاشعةٌ * عامِلَةٌ ناصِبَةٌ * تَصْلَى ناراً حامية ».

وجوهٌ — إذا جاءت القيامة — خاشعة أي ذليلة. عاملة ناصبة: النَّصَب التعب.

جاء في التفسير: أنهم يُجَرُّون على وجوههم.

« تصلى ناراً حامية » تلزم ناراً شديدة الحرِّ.

ويقال: « عاملة » في الدنيا بالمعاصي، « ناصبة » في الآخرة بالعذاب.

ويقال: « ناصبة » في الدنيا « عاملة » لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان[1]، وفي معناه عملُ أهل النفاق.

---

(١) روى الضحاك عن ابن عباس قوله: «هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر، مثل عبدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله — جل ثناؤه — منهم إلا ما كان خالصاً».

« تُسْقَىٰ من عينٍ آنية » .

تناهى حرُّها .

« ليس لهم طعامٌ إلّا من ضريعٍ *

لا يُسْمِنُ ولا يُغْنى من جوع » .

نَبْتٌ ينمو بالحجاز له شَوْكٌ ، وهو سمٌّ لا تأكله الدواب ، فإذا أكلوا ذلك فى النار يُغَصُّون ، فيُسْقَوْنَ الزقُّوم .

وإن اتصافَ الأبدانِ — اليومَ — بصورة الطاعات مع فَقْدِ الأرواح وجدانَ للكاشفات (وفقدِ)[1] الأسرارِ أنوارَ المشاهدات ، (وفقدِ) القلبِ الإخلاصَ والصدق فى الاعتقادات لا يجدى خيراً ، ولا ينفع شيئاً — وإنما هى كما قال : « عاملة ناصبة »

قوله جل ذكره : « وجوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ » .

أى : مُتَنَعِّمة ، ذات نعمةٍ ونضارةٍ .

« لِسَعْيِها راضيةٌ » .

حين وَجَدَتْ الثوابَ على سعيها ، والقبول لها .

« فى جنَّةٍ عاليةٍ » .

عالية فى درجتها ومنزلتها وشرفها . هم بأبدانهم فى درجاتهم ، ولكن بأرواحهم مع الله فى عزيز مناجاتهم .

« لا تسمعُ فيها لاغيةً » .

لأنهم يسمعون بالله ؛ فليس فيها كلُّ لغوٍ .

قومٌ يسمعون بالله ، وقومٌ يسمعون لله ، وقومٌ يسمعون من الله ، وفى الخبر : « كنت له سمعاً وبصراً فبى يَسْمَعُ وبى يُبْصِر »[2] .

(١) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كى يكون السياق أكثر وضوحاً

(٢) « ما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها ، وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها » أورده السراج فى لمعه ص ٨٨ . وهو حديث قدسى رواه البخارى عن أبى هريرة وأحمد عن عائشة ، والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة ، وابن السنى عن ميمون .

« فيها عينٌ جاريةٌ » .

أراد عيوناً ؛ لأن العين اسم جنس ، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة .

ويقال : تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ له — اليومَ — عيونٌ جارية بالبكاء[1] ، وغداً لهم عيونٌ ناظرةٌ بحُكم اللقاء .

« فيها سُرُرٌ مَّرفوعةٌ * وأكوابٌ مَّوضوعة * ونمارِقُ مصفوفةٌ * وزرابىُّ مبثوثةٌ » .

النمارق المصفوفة فى التفسير : الطنافس المبسوطة .

الزرابى المبثوثة فى التفسير : البُسُط المتفرقة .

وإنما خاطبهم على مقادير فُهومهم[2] .

قوله جل ذكره : « أفلا يَنظُرونَ إلى الإبلِ كيف خُلِقَتْ ؟ » .

لمَّا ذَكَرَ وصفَ تلك السُّرُرِ المرفوعة المشيَّدة قالوا : كيف يصعدها المؤمن ؟ فقال : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها تنزل ؟ فكذلك تلك السُّرُرُ تتطامن حتى يركبها الولىُّ .

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه ، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته — سبحانه .

فالقومُ كانوا أصحابَ البوادى لا يرون شيئاً إلا السماء والأرضَ والجبالَ والجمالَ . . . فأمَرَهم بالنظر فى هذه الأشياء .

---

(1) منذ عهد مبكر ظهرت طائفة البكَّائين فى صفوف الزهاد ، وإن كان بعض الصوفية لا يتحمس للبكاء إمَّا لأن الدموع علامة شكوى ، وهم لا يحبون أن يشكوا ، وإمَّا لأنها تنم عن ضعف الحال ، وهم يتمنون أن يكونوا راسخين كالجبال .

(2) يتيح هذا فكرة القشيرى الأساسية عن وصف الآخرة : الأسماء أسماء ، والأعيان بخلاف ذلك .

وفى الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه ؛ منها : مافى إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحَمْل والركوب ، ثم بنَسْلِها ، ثم بلحمها ولبنها ووَبَرِها ... ثم من سهولة تسخيرها لهم ، حتى ليستطيع الصبيُّ أنْ يأخذَ بزمامها ، فتنجرّ وراءه . والإبل تصبر على مقاساة العَطَش فى الأسفار الطويلة ، وهى تَقْوَى على أن تحملَ فوق ظهورها الكثيرَ من الحمولات .. ثم حِرَانُها إذا حقدت ، واسترواحُها إلى صوتِ مَنْ يحدوها عند الإعياء والتعب ، ثم ما يُقَلِّل المرء بما يناط بها من بِرِّها[1].

« فَذَكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عليهم بمصيطر[2] ».

لستَ عليهم بمُسَلَّطٍ ؛ فذَكِّر — يا محمد — بما أمرناك به ، فبذلك أمرناك[3] .

« إلَّا مَنْ تولَّىٰ وكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ العذابَ الأكبرَ » .

إلا مَنْ تولَّى عن الإيمان وكفر فيعذبه اللهُ بالخلودِ فى النار .

« إنَّ إلينا إيابَهم * ثم إنَّ علينا حسابَهم » .

إن إلينا رجوعَهم ، ثم مجازيهم على الخير والشرِّ .

---

(١) إشارة القشيرى الخاصة بالإبل استوفت المراد ، فمن المعلوم أن ضروب الحيوان المخلوقة لا تخرج عن أربعة : حَلُوبة ، ورَكُوبة ، وأكُوله ، وحَمُولة . وقد استطاع القشيرى أن يقنع أن الإبل جمعت كل هذه المنافع .

(٢) بمصيطر ومسيطر ، أى بالصاد والسين (الصحاح).

(٣) لم يقع القشيرى فيما وقع فيه بعض المفسرين حين قالوا : « إن فى الآية نسخاً بآيات القتال والجهاد » .. فالعذاب الأكبر فى الآخرة لا ينفى تعذيب الكفار بشتّى ألوان التعذيب فى الدنيا ، ومنها القتل والأسر .

سُورَةُ الفَجْر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله كلمةٌ ما استولت على قلبِ فقيرٍ فأقلقته ، وما تمكّنت من سِرِّ مُتيَّمٍ فَشَتَّتَتْه ، وما استولت على روحِ محبٍّ فرحته(1) . كلمةٌ قهّارة للقلوب . . ولكن لا لكلٍّ قلب ، كلمةٌ لا سبيل لها لكلِّ عقل ، كلمة تكتفى من العابدين بقراءتهم لها ، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببَذْلِ أرواحهم فيها .

قوله جل ذكره : « والفجرِ * وليالٍ عَشْرٍ » .

الفجرُ انفجارُ الصُّبح وهو اثنان : مستطيلٌ وقصير(2) ؛ ففى التفسير : إنه فَجْرُ المحرَّم لأنه ابتداء السنة كلها ، وقيل : فجر ذى الحجة .

ويقال : هو الصخور ينفجر منها الماء .

ويقال : أقسم به لأنّه وقتُ عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار .

« وليالٍ عشر » قيل : هى عَشْرُ ذى الحجة ، ويقال : عَشْرُ المحرم ؛ لأن آخرها عاشوراء . ويقال : العَشْرُ الأخيرة من رمضان .

ويقال : هى العَشْرُ التى ذكرها اللهُ فى قصة موسى عليه السلام تمّ به ميعاده بقوله : وأتممناها بعَشْر » .

---

(1) هكذا فى النسختين ، ولا نستبعد أنها فى الأصل : (فأراحته) ذلك لأن رحمة الله عامة ، للخاصة والكافة ، أما محبته — التى هى رحمة خاصة بالخواص — فهى المقصودة هنا (الرسالة ص ١٥٨) وعلمه المحبة إذا استولت على روح محب أزعجته وما (أراحته) لأنها تتطلب بذل الروح ، واسترخاص المهجة .

(2) فى النسختين (مستطول ومستطير) ولم نفهم المقصود ، فوضعنا (قصير) محل مستطير كى يكون هناك بين فجر لنهار كامل . وفجر ليوم واحد — والله سبحانه وتعالى أعلم .

ويقال : هو « فجرُ » قلوبِ العارفين إذا ارتقوا عن حدِّ العلم ، وأسفر صُبْحُ معارفِهم ، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان[1] بما تجلّى فى قلوبهم من البيان .

« والشَّفْعِ والوَتْرِ » .

جاء فى التفاسير : الشفعُ يومُ النَّحْرِ ، والوتر يوم عَرَفَةَ[2] .

ويقال : آدم كان وتراً فشُفِعَ بزوجته حواء .

وفى خبرٍ : إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبح .

ويقال : الشفع الزوج من العَدَد ، والوتر الفَرْدُ من العدد .

ويقال : الشفع تضادُّ أوصاف الخَلْق : كالعلم والجهل ، والقدرة والعجز ، والحياة والموت . والوتر انفرادُ صفاتِ اللهِ سبحانه عمَّا يضادُّها ؛ علم بلا جهلٍ ، وقدرة بلا عجزٍ ، وحياة بلا موتٍ .

ويقال : الشفعُ الإرادة والنية ، والوتر الهِمَّةُ ؛ لا تكتفى بالمخلوق ولا سبيل لها إلى الله — لتقدُّسِه عن الوَصْلِ والفَصْل . فبقيت الهِمَّةُ غريبةً .

ويقال : الشفع الزاهد والعابد ، لأن لكلٍ منهما شكلاً وقريناً ، والوترُ المريدُ فهو كما قيل :

فريدٌ من الخِلّانِ فى كل بلدةٍ
إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ

« والليلِ إذا يَسْرِ » .

« يسرى » يمضى .

قوله جل ذكره : « هل فى ذلك قَسَمٌ لذى حِجْرٍ ؟ » .

« حِجْرٍ » : لُبّ . وجوابُ القَسَمِ : « إن ربَّك لبالمرصاد » .

(١) أى عن النطاق العقل .. والعقل — فى نظر الصوفية — مصاب بآفات التجويز والتحير والارتباط بالمحسات .

(٢) يوم عرفة وتر ، لأنه تاسع الأيام العشرة ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . . وقد روى حديث بهذا المعنى عن جابر بن عبد الله .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ❁
إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ... » .

ذكر قصص هؤلاء المتقدمين . . إلى قوله : « فَصَبَّ عليهم رَبُّكَ سَوْطَ عذاب » أي : شدة العذاب .

« إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرصَادِ » .

لا يفوته شيء .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ
فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ❁
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ
فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » .

« فيقول ربى أكرمنى » : أى : شَكَرَه .

« فَقَدَرَ عليه رزقه » . أى : ضيّق ، « فيقول ربى أهانى » . أى : أذلّنى . كلا . . ليس الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخذلانِ للعصيان [1] .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ »

أى : أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة ؛ فلا تُكرِمون اليتيمَ .

« وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ❁
وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا » .

لَمًّا . أى شديداً .

« وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا »

جَمًّا أى كثيراً .

---

(١) كما نعرف من مذهب القشيرى ، أقصى درجات الغضب : الخذلان للعصيان وأقصى درجات الرضا : التوفيق للطاعة .. وكلاهما من الله .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرضُ دَكًّا دَكًّا » .

أي : قامت القيامة .

« وجاء ربُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » .

« وجاء ربُّك » أي الملائكة بأمره[1] .

ويقال : يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

« وجِيءَ يومئذٍ بجهنَّمَ يومئذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ وأنَّى له الذِّكرىٰ ؟ ! »

يقال : تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام[2]

وفى ذلك اليوم يتذكر الإنسانُ .. ولا يَنفَعه التذكُّر ، ولا يُقْبَلُ منه العُذْرُ .

« يقولُ يا ليتنى قَدَّمْتُ لحياتى »

أي : أَطَعْتُ ربِّى ونظرت لنفسى .

« فيومَئذٍ لَّا يُعَذِّبُ عذابَه أَحَدٌ »

أي : لا يعذِّب فى الدنيا أحدٌ مثلما يعذِّبه الله فى ذلك اليوم .. إذا قرئت الذال بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح[3] « لا يُعذَّب » فالمعنى : لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا الكافر[4] .

قوله جل ذكره : « يـٰأيتها النَّفْسُ المطمئنة » .

---

(١) أي : جاءهم ربُّك . أي : ظهرت آياته ، وأزيل الشك ، وصارت المعارف ضرورية ، وظهرت القدرة الإلهية . والمقصود نفى التحول من مكان إلى مكان عن الله ، فقد جلَّت الصمدية عن الارتباط بالتحول المرتبط بالتقيد الزمانى والمكانى .

(٢) «... كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير ، حتى تنصب عن يسار العرش » (ابن مسعود) — وفى صحيح مسلم حديث يرويه ابن مسعود بهذا المعنى .

(٣) بالفتح قراءة الكسائى « لايعذَّب » « ولا يوثَق » .

(٤) قيل : هو إبليس لأنه أشد المخلوقات عذاباً ، وقيل وهو أمية بن خلف لتماديه فى كفره وعناده .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس .

ويقال : المطمئنةُ بالمعرفة : ويقال : المطمئنة بذكر الله .

ويقال : بالبشارة بالجنة . ويقال : النفس المطمئنة : الروح الساكنة[1]

« ارْجِعِى إلى ربِّكِ راضيةً مَّرْضية »

راضيةً[2] عن الله ، مَرْضيةً من قِبَلِ الله .

« فادخُلِى فى عبادى * وادْخُلِى جَنَّتِى » .

أى : فى عبادى الصالحين .

---

(١) تأخرت هذه العبارة الأخيرة إلى نهاية السورة فى النسختين فنقلناها إلى موضعها .

(٢) وردت (من) ولكننا وجدنا أن المعنى حينئذ لن يتغير فيما بين اسم الفاعل واسم المفعول ، فوضعنا (عن) بدلا من (من) مسترشدين بقوله تعالى : «رضى الله عنهم ورضوا عنه» . وإن كنا لا نستبعد أن (من) تؤدى معنى صوفياً : هو أنه حتى رضاهم عن الله (من) الله ؛ فليس للعبد حول ولا طول حتى يرضى أو يسخط .. إلا إذا كان ثمة فضل إلهى (من) الله .

سورة البلد

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم »[1]

« بسم الله » كلمةٌ تُخبِر عن جلالٍ أزلىّ ، وجمالٍ سرمدىّ ، جلالٍ ليس له زوال ، وجمالٍ ليس له انتقال ، جلالٍ لا بأغيارٍ[2] وأمثال ، جمالٍ لا بصورةٍ ومثال ، وجلالٍ هو استحقاقُه لجبروته وجمالٍ هو استيجابُه لملكوته ، جلالٍ مَنْ كاشَفَه به فأوصافُه فناءٌ فى فناء ، وجمالٍ مَنْ لاطَفَه به فأحوالُه بقاءٌ فى بقاء .

قوله جل ذكره : « لا أُقْسِمُ بهذا البَلَدِ » .

أى : أُقْسِم بهذا البلد ، وهو مكة .

« وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد » .

وإنما أُحِلَّتْ له ساعةً واحدةً [3].

« ووالدٍ وما وَلَد » .

كلُّ والدٍ و كلُّ مولود . وقيل : آدم وأولاده

وجواب القسم : « لقد خلقنا الإنسانَ فى كبد » .

ويقال : أُقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به .. وبَلَدُ الحبيبِ حبيبٌ .

« لقد خلقنا الإنسانَ فى كَبَدٍ »

---

(١) مرة أخرى حدث اضطراب .. فتفسير البسملة هنا كما جاء فى م موضوع فى ص فى أول السورة القادمة : سورة الشمس .. والعكس فى م .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (باعتبار) والصحيح ما أثبتنا .

(٣) عن ابن عباس قال : « أُحِلَّت له ساعةٌ من نهار ثم أطبقت وحرِّمت إلى القيامة وذلك يوم فتح مكة . رُثبت أن النبى (ص) قال : « إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرامٌ إلى أن تقوم الساعة ، فلم تحل لأحدٍ قبلى ، ولاتحل لأحدٍ بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار » .

أي : في مشقة ؛ فهو يقاسي شدائدَ الدنيا والآخرة .

ويقال : خَلَقَه في بطن أمه (منتصباً رأسُه) فإذا أَذِنَ الله أن يخرج من بطن أمِّه تنكّس رأسُه عند خروجه ، ثم في القِماط وشدِّ الرِّباط . . . ثم إلى الصِّراط هو في الهِياط والمِياط[1] .

قوله جل ذكره : « أيَحْسَبُ أن لَّن يَقْدِرَ عليْه أحدٌ »

أي : لقوّته وشجاعته عند نَفْسِه يقول :

« يقول أهْلَكْتُ مالاً لُبَدًا » .

« لبداً » كثيراً ، في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم .[2]

« أيَحْسَبُ أن لَّم يرَهُ أحدٌ » .

أليس يعلم أنَّ اللهَ يراه ، وأنه مُطَّلِعٌ عليه ؟

قوله جل ذكره : « ألَمْ نَجْعَل لَّهُ عينين * ولساناً وشفتين ؟ »

أي : ألم نخلقه سميعاً بصيراً متكلِّماً .

« وهديناهُ النَّجْدَيْنِ » .

ألهمناه طريق الخيرِ والشرِّ .

« فلاَ اقْتحَمَ العقبةَ * وما أدْراكَ
ما العقبةُ ؟ * فكُّ رقبةٍ * أو إطعامٌ
في يومٍ ذي مسغبةٍ * يتيما ذا مَقْرَبةٍ *
أوْ مسكيناً ذا متربةٍ » .

أي : فهلَّا اقتحم العقبة . « وما أدراك ما العقبة ؟ استفهام على التفخيم لشأنها .

ويقال : هي عَقَبَةٌ بين الجنة والنار يجاوزها مَنْ فَعَلَ ما قاله : وهو فكُّ رقبة : أي : إعتاقُ مملوك ، والفكُّ الإزالة . وأطعم في يومٍ ذي مجاعةٍ وقحطٍ وشدَّةٍ يتيماً ذا قرابة ، أو « مسكيناً ذا متربة » : لا شيء له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع .

---

(١) يقال : هم في هياط ومياط أي في شر وجلَبة ، وقيل : في دنو وتباعد (الوسيط) .

(٢) يقال : نزلت في رجل من بني جُمَح كان يقال له : أبو الأشدين ، وكان من أشد أعداء النبي (ص) . (قاله الكلبي) .

قوله جل ذكره : «ثم كان منَ الذين آمنوا وتواصَوْا بالصبرِ وتواصَوْا بالمرْحَمة » .

أى : من الذين يرحم بعضهُم بعضاً .

« أولئك أصحابُ الميْمَنة »

أى : أصحاب اليُمْنِ والبركة .

« والذين كفروا بآياتِنا هم أصحابُ المشْأمة * عليهم نارٌ مُؤْصَدة » .

هم المشائيمُ على أنفسهم ، عليهم نارٌ مُطْبِقَة ؛ يعنى أبواب النيران (عليهم مغلقة) .

والعقبة التى يجب على الإنسان اقتحامها : نَفْسُه وهواه ، وما لم يَجُزْ تلك العقبة لا يفلح و « فك رقبة » هو إعتاقُ نَفْسِه من رِقِّ الأغراض والأشخاص .

ويكون فك الرقبة بأن يهدى مَنْ يفكُّه — من رق هواه ونفسهْ — إلى سلامته من شُحِّ نفسه ، ويرجعه إليه ، ويخرجه من ذُلِّه .

ويكون فكُّ الرقبة بالتَّحرُّزِ من التدبير ، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة الرضاء .

ويقال : يطعم من كان فى متربة ويكون هو فى مسغبة .

« ثم كان من الذين آمنوا ... » أى تكون خاتمته على ذلك[1] .

---

(1) أى يبقى على ذلك حتى الوفاة .

سُورَةُ الشَّمْس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » إخبارٌ عن وجودِ الحقِّ بنعتِ القِدَم . « الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن بقائه بوصف العَلاء والكَرَم .

كاشَفَ الأرواحَ بقوله : « بسم الله » فهيَّمها ، وكاشَفَ النفوسَ بقوله : « الرحمن الرحيم » فتيَّمها ؛ فالأرواحُ دَهْشَى فى كَشْفِ جلاله ، والنفوسُ عَطْشَى إلى لُطْفِ جماله [1].

قوله جل ذكره : « والشَّمسِ وضُحاها » .

ضُحَا الشمسِ صَدْرُ وقت طلوعها .

« والقمرِ إذا تَلاها » .

أى : تَبِعَها ؛ وذلك فى النصف الأول من الشهر .

« والنَّهارِ إذا جلَّاها » .

إذا جلَّى الشمسَ وكَشَفَها .

« والليلِ إذا يَغْشَاها » .

أى : يَغْشَى الشمسَ (فيذهب بضوئها) .

« والسماءِ وما بناها » .

أى وبنائها . ويقال : ومَنْ بناها [2]

---

(١) نذكر بما قلناه آنفا عن تعاكس وضع تفسيرى البسملة فيا بين «البلد» و «الشمس» فى النسختين م ، وص .

(٢) هذا القول الأخير اختاره الطبرى ، وقاله الحسن ومجاهد . وأهل الحجاز يقولون : سبحان (ما) سبحت له . أى سبحان من سبحت له .

« والأرضِ وما طحاها » .

أى : وطَحْوها . ويقال : ومَنْ طحاها (أى بسطها أو قسمها أو خلقها) .

« ونَفْسٍ وما سوّاها » .

ومن سوّى أجزاءها وأعضاءها .

« فألهمها فُجورَها وتقواها » .

أى : بأن خَذَلَهَا ووَفَّقَهَا .

ويقال : فجورها : حركتها فى طلب الرزق ، وتقواها : سكونها بِحُكْمِ القدير . وقيل : طريق الخير والشر .

قوله جل ذكره : « قد أفْلَحَ مَن زَكَّاها » .

هذا جواب القَسَم . أى : « لقد أفلح من زكّاها » .

ويقال : مَنْ زكّاه اللهُ عزّ وجلّ .

« وقد خَابَ من دَسَّاها » .

أى : دسَّاها الله . وقيل : دسَّها[1] فى جملة الصالحين وليس منهم .

وقيل : خاب مَنْ دسّ نَفْسَه بمعصية الله . وقيل دسَّاها : جعلها خسيسةً حقيرةً . وأصل الكلمة دسسها[2]

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثمودُ بطغْوَاها » .

« بطغواها » : لطغيانها ، وقيل : إن صالحاً قد مات ، فَكَفَرَ قومُه ، فأحياه اللهُ ، فدعاهم إلى الايمان ، فكذَّبوه ، وسألوه علامةً وهى الناقة ، فأتاهم صالح بما سألوا .

« إذ انبَعَثَ أشقاها » .

---

(١) أى دسها صاحبها .

(٢) من التدسيس ، وهو إخفاء الشىء فى الشىء ، فأبدلت سينه ياءً كما يقال : تَقَضّيْتُ أظفارى والأصل تقصصت ، ومثله قولهم فى تقضّض : تقضَّى .

« أشقاها » عاقرُها .

« فقال لهم رســـولُ اللهِ ناقةَ اللهِ وسُقْياها » .

أي : احذروا ناقةَ اللهِ ، واحذروا سقياها : أي : لا تتعرَّضوا لها .

« فكذَّبوه فعقَروها . . » .

أي كذَّبوا صالحًا ، فعقروا الناقةَ .

« . . . فدَمْدَمَ عليهم ربُّهم بذَنبِهم فسوَّاها » .

أي : أهلكهم بجُرمِهم ، « فسوَّاها » : أي أطبق عليهم العذاب[1] .

ويقال : سوَّى بينهم ربُّهم في العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة .

قوله جل ذكره : « ولا يخافُ عُقباها » .

أي : أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة .

ويقال : قد أفلح[2] مَنْ دَاوَمَ على العبادة ، وخابَ مَنْ قصَّرَ فيها .

وفائدة السورة : أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَه عن الذنوبِ والعيوبِ ، ثم عن الأطماع في الأعواض والأغراض ، ثم أبْعَدَ نَفْسَه عن الاعتراض على الأقسام ، وعن ارتكاب الحرام . وقد خابَ من خانَ نَفْسَه ، وأهملها عن المراعاة ، ودَسَّها بالمخالفات ؛ فلم يرضَ بعَدَمِ المعاني حتى ضمَّ إلى فَقْرِها منها الدعاوى المظلمة ... فغرقت في بحرِ الشقاء سفينتُه .

---

(١) بأن سوى عليهم الأرض .

(٢) هكذا في ص وهي في م (أصلح) وقد رجَّحنا ما أثبتنا ، فهكذا الآية ، ثم ما تلا هذه العبارة .

سورة الليل

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمةٌ تُخْبِرُ عن إلهيةِ الله؛ وهى استحقاقُه لنعوتِ المجد والتوحُّد، وصفاتِ العزِّ والتفرُّد؛ فمَنْ تجرَّدَ فى طَلَبِه عن الكسلِ، ولم يستوطنْ مركبَ العجزِ والفشلِ، ووَضَعَ النظر موضعَه وَصَلَ بدليل العقل إلى عرفانه، ومَنْ بَذَلَ روحَه ونفْسَه ووَدَّعَ فى الطلبِ راحتَه وأُنْسَه، ولم يُعَرِّجْ فى أوطان الوقفة ظفر بحكم الوصل إلى شهود سلطانه، والناسُ فيه بين مُوَفَّقٍ ومخذول، أو مؤيَّدٍ ومردود.

قوله جل ذكره: « والليلِ إذا يَغْشَىٰ ».

يغشى الأفقَ، وما بين السماء والأرض فيستره بظُلْمته.

والليلِ لأصحاب التحيُّر يستغرق جميعَ أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشد.

« والنهارِ إذا تجلَّىٰ »

أنارَ وظَهرَ، ووَضح وأسفر.

ونهارُ أهلِ العرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم، حتى لا يَخْفَى عليهم شىء، فسكنوا بطلوعِ الشمس[1] عن تكلُّفِ إيقاد السراجِ[2]

« ومَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثىٰ ».

أى: « من » خَلَقَ الذكر والأنثى؛ وهو الله سبحانه:

« إنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّىٰ ».

هذا جوابُ القَسَم، والمعنى: إنَّ عملكم لمختلف؛ فمنكم: مَنْ سَعْيُهُ فى طلب دنياه، ومنكم مَنْ سعيُه فى شهواتِ نَفْسِه واتباع هواه، ومنكم مَنْ فى طَلَبِ جاهِهِ ومُناه، وآخر فى طلب عقباه،

(١) يقصد شمس التوحيد.

(٢) إذا طلعت شمس التوحيد لم تُغْنِ محاولات العقل، لأن نورها يطغى على كل الأنوار.

وآخر فى تصحيح تقواه ، وآخر فى تصفية ذكراه ، وآخر فى القيام بحُسْنِ رضاه ، وآخر فى طلب مولاه .

ومنكم : من يجمع بين سعى النَّفْس بالطاعة ، وسَعْى القلب بالإخلاص ، وسعى البَدَن بالقُرَب ، وسعى اللسان بذكر الله ، والقول الحَسَنِ للناس ، ودعاء الخَلْقِ إلى الله والنصيحة لهم .

ومنهم مَنْ سعيُهُ فى هلاكِ نَفْسِهِ وما فيه هلاكُ دنياه .. ومنهم .. ومنهم .

قوله جل ذِكْرُه : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ »

« فأمَّا من أعطى » من مالِه ، « واتقى » مخافةَ ربِّه ...

ويقال : « أعطى » الإنصافَ من نَفْسِه ، « واتقى » طَلَبَ الإنصافِ لنفسه[1] ..

ويقال : « اتقى » مساخِطَ الله . « وصدّق بالحسنى » : بالجنة ، أو بالكَرَّةِ الآخرة ، وبالمغفرةِ لأهل الكبائر ، وبالشفاعة من جهة الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، وبالخَلَفِ[2] من قِبَلِ اللهِ ... فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ : أى نُسَهِّلُ عليه الطاعاتِ ، ونُكَرِّهُ إليه المخالفاتِ ، ونُشَهِّى إليه القُرَبَ ، ونُحَبِّبُ إليه الإعلانَ ، ونُزَيِّنُ فى قلبه الإحسان .

ويقال : الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته .

« وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ » .

أما من مَنَعَ الواجبَ ، واستغنى فى اعتقاده ، وكَذَّبَ بالحسنى : أى بما ذكرنا ، فسنيسره للعسرى ؛ فيقع فى المعصية ولم يُدَبِّرْها ، ونوقف[3] له أسبابَ المخالفة .

ويقال « أعطى » أعْرَضَ عن الدارين ، « واتَّقى » أن يجعل لهما فى نفسه مقداراً .[4]

---

(١) من الفتوة أن تتحلّى بالإنصاف وأن تتخلّى من الانتصاف .. هكذا قال الشيوخ .

(٢) (الخَلَف) بالمعنى العام : إن الله يرث الأرض ومن عليها ، وبالمعنى الصوفى : فالذين يدعهم - فى حال الفناء والمحق - فهو عنهم خَلَف (انظر بسملة الأحقاف من هذا المجلد) .

(٣) هكذا فى ص وهى فى م (ونوفّق) وهى مقبولة أيضاً (فالتوفيق) للعسرى هو التيسير لها كما فى الآية .. بل لعلها أقرب إلى السياق مما فى ص .

(٤) حتى يبتعد عن الأعواض والأغراض ، ويتّق قلبه لله وحده .

قوله جل ذكره : « وما يُغْنِي عنه مالُه إذا تَرَدَّىٰ »

يعنى : إذا مات .. فما الذى يغنى عنه ماله بعد موته ؟

قوله جل ذكره : « إن علينا لَلْهُدَىٰ »

لأوليائنا ، الذين أرشدناهم . ويقال : « إن علينا للهدى » بنصيب الدلائل .

« وإنَّ لنا للآخِرَةَ والأُولىٰ »

مُلْكاً ، نعطيه من نشاء .

« فأنذَرْتُكم ناراً تَلَظَّىٰ »

أى : تتلظَّى .

« لا يَصْلاها إلاَّ الأشْقَى »

أى : لا يُعَذَّبُ بها إلّا الأشقى ، وهو :

« الذى كَذَّبَ وتولىٰ »

يعنى : كَفَرَ .

« وسَيُجَنَّبُها الأتقى * الذى يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّىٰ »

يعْطى الزكاةَ المفروضة .

ويقال يتَطَهَّر من الذنوب .

ونزلت الآية فى (أبى بكرٍ)[1] رضى الله عنه . والآية عامة .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود فى م ، ويوجد فقط « رضى الله عنه » وفى م : يوجد فقط (والآية عامة) فأكملنا السياق .

ويروى : أن النبى (ص) مر ببلال وهو يعذب فى الله ويقول :

أحد أحد ، فلما نقل ذلك إلى أبى بكر ، عرف أبو بكر ما يريده النبى ، فذهب إلى أمية بن خلف ، واشترى بلالا وأعتقه ، فلما قال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده ، نزل قوله تعالى : «وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى» .

« وما لأحَدٍ عنده مِن نعمةٍ تُجْزَىٰ »

حتى تكون هذه مكافأةً له . ولا يفعل هذا ليَتَّخِذَ عند أحدٍ يَداً ، ولا يطلب منه مكافأة :

« إلاَّ ابتغاء وَجْهِ ربِّه الأعلىٰ »

أى : ليتقرَّبَ بها إلى الله .

« ولسوف يَرْضَىٰ »

يَرْضَى اللهُ عنه ، ويرضى هو بما يعطيه .

سُورَةُ الضُّحَى

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ لا يُشْبِهُهُ كُفُوٌ[1] فى ذاتِه وصفاتِه ، ولا يَستفزُّه[2] لَهْوٌ فى إثباتِ مصنوعاته ، ولا يعتريه سَهْوٌ فى عِلْمِه وحكمتِه ، ولا يعترضه لَغْوٌ فى قوله وكلمتِه .

فهو حكيمٌ لا يلهو ، وعليمٌ لا يسهو ، وحليمٌ يُثْبِتُ ويمحو ؛ فالصدق قَوْلُه ، والحقُّ حُكْمُه ، والخَلْقُ خَلْقُه والمُلْكُ مُلْكُه .

قوله جل ذكره : « والضُّحَى * والليلِ إذا سَجَا »

« والضحى » : ساعةٌ من النهار . أو النهارُ كلُّه يُسَمَّى ضُحَى . ويقال : أقسم بصلاة الضُّحى .

ويقال : الضحى الساعةُ التى كَلَّم فيها موسى عليه السلام .

« والليلِ إذا سجا » أى : ليلة المعراج ، و « سجا » : أى سَكَنَ ، ويقال : هو عامٌّ فى جِنْسِ الليلِ .

ويقال : « الضحى » وقت الشهود . « والليل إذا سجا » الذى قال : إنه لَيُغَانُ على قلبى[3] . . . »

---

(1) أصلها « كفؤ » أى مماثل ، أو قوى قادر على تصريف العمل .

ويقرأ بضم الفاء وسكونها ، لأن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم فإنه يجوز فى عينه الضم والإسكان إلا قوله تعالى « وجعلوا له من عباده جزءاً » (آية ١٥ سورة الزخرف) .

(2) استفزه الشىء = استخفه ، واستفزه فلان = أثاره وأزعجه .

(3) عن أغر مزينة قال : قال رسول الله (ص) : إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى . وفى رواية لمسلم : « توبوا إلى ربكم ، فوالله إنى لأتوب إلى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة » .

ويقال : « والليل إذا سجا » حين ينزل اللهُ فيه إلى السماء الدنيا — على التأويل الذى يصحُّ فى وصفه[1] .

« ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَىٰ »

ما قَطَعَ عنك الوحىَ وما أبغضك[2] .

وكان ذلك حين تأخَّرَ جبريلُ — عليه السلام — عنه أياماً[3] ، فقال أهل مكة : إن محمداً قد قلاه ربُّه . ثم أنزل اللهُ هذه السورة .

وقيل : احتبس عنه جبريل أربعين يوماً ، وقيل : اثنى عشر يوماً ، وقيل : خمسة وعشرين يوماً .

ويقال : سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذى القرنين وأصحاب الكهف ، فوَعَدَ الجوابَ ولم يقل : إن شاء الله[4] .

« وللآخرةُ خيرٌ لَكَ من الأولىٰ »

أى : ما يعطيك فى الآخرة خيرٌ لَكَ مما يعطيك فى الدنيا .

ويقال : ما أعطاك من الشفاعة والحوض ، وما يُلْبِسُك من لباس التوحيدِ — غداً — خيرٌ مما أعطاكَ اليومَ .

« ولسوفَ يُعْطِيكَ ربُّكَ فَتَرْضَىٰ »

قيل : أفترضى بالعطاء عن المُعْطِى ؟ قال : لا .

قوله جل ذكره : « ألم يجدك يتيماً فآوىٰ ؟ »

---

(١) تقدَّم التعليق على هذا الخبر فى هامش سبق .

(٢) هكذا فى ص وهى فى م (يغضبك) .

(٣) فى البخارى عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله (ص) فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة (هى العوراء بنت حرب أخت أبى سفيان ، وهى حمالة الحطب ، زوج أبى لهب) فقالت : يا محمد ، إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ، فأنزل الله عز وجل « والضحى » .

(٤) يقال : إن جرواً دخل تحت السرير فى حجرته ومات ، فلما تغيب الوحى سأل خادمه خولة : يا خولة ما حدث فى بيتى ؟ ما لجبريل لا يأتينى ؟ فلما قامت إلى البيت فكنسته وأخبرته بما وجدت .. فلما عاده الوحى سأله عن سر تأخره فقال جبريل : أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ؟

قيل : إلى عمه أبى طالب .

ويقال : بل آواه إلى كنف ظله ، وربّاه بلطف رعايته .

ويقال : فآواكَ إلى بساطِ القربة بحيث انفردْتَ بمقامك ، فلم يُشاركْك فيه أحدٌ

« ووَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ »

أى : ضللتَ فى شِعابِ مكة ، فهَدَى إليكَ عَمّكَ أبا طالبٍ فى حال صباكَ .

ويقال : « ضالًا » فينا متحيِّراً .. فهديناك بنا إلينا .

ويقال : « ضالًا » عن تفصيل الشرائع ؛ فهديناك إليهابأن عرّفناك تفصيلَها .

ويقال : فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك .

وقيل : « ضالًا » للاستنشاء[1] فهداك لذلك .

ويقال « ضالاً » فى محبتنا ، فهديناك بنور القربة إلينا .

ويقال : « ضالاً » عن محبتى لكَ فعرّفتك أنّى أحبُّك .

ويقال : جاهلًا بمحلِّ شرفِكَ ، فعرّفْتُك قَدْرَكَ .

ويقال : مستتراً فى أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك[2]

« ووجدك عائِلاً فأَغْنَىٰ »

فى التفسير : فأغناكَ بمال خديجة .

ويقال : أغناكَ عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفَقْد[3]

ويقال : أغناكَ بالنبوّة والكتاب . ويقال : أغناك بالله .

---

(١) الكلمة غير واضحة الرسم فى النسختين ، وقد رجحنا هذه الكلمة لأنها أقرب إلى ما فى م ، ولأن من القصص السابقة ما يشير إلى أنه لم يقدم المشيئة فعوتب فى ذلك « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله »

(٢) ربما تتفق هذه الإشارة مع ما جرت عليه العرب فى وصف الشجرة المنفردة فى الفلاة لا شجر معها بأنها ضالة يهتدى بها إلى الطريق لأنها علامة مميزة ، فهى معروفة لذاتها ، ولأنها علامة على الطريق هادية إليه .

(٣) هكذا فى م ، وهى فى ص (بالعقل) ، ولكننا نرجح ما جاء فى م ، ولا نستبعد أنها فى الأصل (الفقر) .. فالرضا فى حال الفقر أو (الفقد) أتم فى النعمة من الرضا فى حال الغنى .. وهل أعظم من الغنى بالله ؟ !

ويقال : أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداء ؛ بلا سؤالٍ منك .

قوله جل ذكره : « فأمَّا اليتيمَ فلا تقهر »

فلا تُخِفْه ، وارفقْ به ، وقَرِّبْه

« وأمَّا السَّائلَ فلا تَنْهَرْ »

أى : إمّا أنْ تُعْطِيَه . . أو تَرُدَّه برِفْقٍ ، أو وعدٍ .

ويقال : السائلُ عنّا ، والسائلُ المتحيِّرُ فينا — لا تنهرهم ، فإنّا نهديهم ، ونكشف مواضع سؤالهم عليهم . . فلا طِفْهم أنت فى القول .

« وأمَّا بنعمةِ ربِّك فَحَدِّث »

فاشكُرْ ، وصَرِّحْ بإحسانه إليك ، وإنعامه عليك .

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَحْ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ عَزَّ مَن التجأ إليه ، وجَلَّ مَنْ توكَّلَ عليه ، وفاز في الدنيا والعُقْبَى مَنْ تَوَسَّلَ به إليه ؛ فَمَنْ تقرَّبَ منه قرَّبَه ومَنْ شكا إليه حَقَّقَ له مَطْلَبَه ، ومَنْ رَفَعَ قصَّته إليه قَضَى مأربَه .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَشْرَحْ لكَ صَدْرَكَ ؟ »

أَلَمْ نُوَسِّعْ قَلْبَكَ للإسلام ؟ أَلم نُلَيِّنه للإيمان ؟

ويقال : ألم نوسع صدرك بنور الرسالة ؟ ألم نوسِّع صدرك لقَبُولِ ما نوردُ عليك .

« ووَضَعْنَا عنكَ وِزْرَكَ * الذى أَنقَضَ ظَهرَكَ »

أى : إثمكَ قبل النبوّة .

ويقال : عصمناكَ عن ارتكابِ الوِزْرِ ؛ فَوَضْعُه عنه بأنَّه لم يستوجبْه قطّ .

ويقال : خفضنا عنك أعباء النبوّة وجعلناكَ محمولاً لا متحمِّلاً(١) .

ويقال : قويناك على التحمُّل من الخَلْق ، وقوَّيناكَ لمشاهــــدتنا ، وحفظنا عليك ما استحفظت (٢) ، وحرسناكَ عن ملاحظة الخَلْقِ فيما شرّفناكَ به .

---

(١) وهذه أقصى درجات الحب ، وقد مر بنا كيف قارن القشيرى بين مواقف موسى ، ومواقف المصطفى صلوات الله عليهما ، وكيف أوضح لنا أن موسى كان متحملا بينما كان نبيا محمولا .

(٢) إشارة إلى القرآن ، الذى حفظ من التغيير والتحريف .. إلى الأبد .

« الذى أنقض ظهرك » : أى : أثقله ، ولولا حَمْلُنا عنك لَكَبِيرَ .

« ورَفَعْنا لكَ ذِكْرَكَ »

بِذِكْرِنا ؛ فكما لا تَصِحُّ كلمةُ الشهادة إلا بى ، فإنها لا تَصِحُّ إلا بك .[1]

ويقال : رفعنا لك ذِكرك بقول الناس : محمد رسول الله !

ويقال : أثبتنا لك شرف الرسالة .

« فإنَّ مع العُسْر يُسْراً * إنَّ مع العُسْر يُسْراً »

وفى الخبر : « لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن »[2] ومعناه : أن العسر بالألف واللام فى الموضعين للعهد — فهو واحد ، واليُسْر مُنكَّرٌ فى الموضعين فهما شيئان . والعُسْر الواحد : ما كان فى الدنيا ، واليُسْران : أحدهما فى الدنيا من الخصب ، وزوال البلاء ، والثانى فى الآخرة من الجزاء ؛ وإذاً فعُسْرُ جميع المؤمنين واحد — وهو ما نابهم من شدائد الدنيا ، ويُسْرُهم اثنان : اليومَ بالكَشْفِ والصَّرْفِ[3] ، وغداً بالجزاء .

قوله جل ذكره : « فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ »

فإذا فَرَغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانْصَبْ فى الدعاء .

ويقال : فإذا فرغت من العبادة فانصب فى الشفاعة .

ويقال : فإذا فرغت من عبادة نَفْسِك فانْصَبْ بقلبك .

« وإلى ربِّك فارغَب »

فى جميع الأحوال .

ويقال : فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب فى الشفاعة .

---

(١) فلا تصح الشهادة شرعاً إلا إذا قلنا : .... وأن محمداً رسول الله .

(٢) البخارى ص ١٤٥ ح ٣ .

(٣) (الكشف) هنا ليس كما قد نفهم من قبيل المصطلح الصوفى ، بل هو كشف الغمة وصرف المحنة ، فهى لفظة عامة فى هذا السياق .

سُــورَةُ التِّـين

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

اسم « الله » يدلُّ على جلالِ مَنْ لم يَزَلْ ، ويُخْبِرُ عن جمالِ مَنْ لم يزَلْ ، ينبه على إقبالِ مَنْ لم يَزَلْ ، يشير إلى إفضال من لم يَزَلْ ؛ فالعارف شهد[1] جلالَه فطَاش ، والصفىُّ شهد جمالَه فعاش ، والولىُّ شهد إقباله فارتاش ، والمريدُ يشهد إفضالَه فلا يطلب مع كفايته المعاش .

قوله جل ذكره : « والتينِ والزيتُونِ »

أقسم بالتين لما به من عظيمِ المِنَّةِ على الخَلْقِ حيث لم يجعل فيه النَّوى ، وخَلَّصَه من شائب التنغيص ، وجعله على مقدار اللُّقْمة لتـكمل به اللذَّة . وجعل فى « الزيتون » من المنافع مثل الاستصباح والتأدُّم والاصطباغ به .

« وطُورِ سِينِينَ »

الجبل الذى كَلَّمَ الله موسى عليه . ولموضعِ قَدَمِ الأحبابِ حُرْمةٌ .

« وهذا البَلَدِ الأمينِ »

يعنى : مكة ، ولهذا البلد شرف كبير ، فهى بلدُ الحبيب ، وفيها البيت ؛ ولبيتِ الحبيبِ وبَلَدِ الحبيبِ قَدْرٌ ومنزلة.[2]

---

(١) من هنا يبدأ فى النسخة بياض فى النسخة ص يتلوه . سقوط حتى بداية سورة العاديات . ولهذا تعتمد فيما بين الموضعين على النسخة م وحدها .

(٢) ما ذهب المفسرون فى تفسير : التين والزيتون وطور سنين ، والبلد الأمين قول بعضهم : إن التين إشارة إلى جبل دمشق وهو مأوى عيسى عليه السلام ، وبالزيتون جبل بيت المقدس فهو مقام الأنبياء جميعهم ، وطور سينين إشارة إلى موسى كليم الله ، والبلد الأمين إشارة إلى أن مكة بها بيت إبراهيم وبها دار محمد صلى الله عليه وسلم .. فكأن مطالع السورة تشير إلى النبوات البارزة .

قوله جل ذكره : « لقد خَلَقْنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم » .

في اعتدال قامتِهِ ، وحُسْنِ تركيب أعضائه . وهذا يدل على أنَّ الحقَّ — سبحانه — ليس له صورة ولا هيئة ؛ لأنَّ كلَّ صفةٍ اشترك فيها الخَلْقُ والحقُّ فالمبالغةُ للحقِّ . . كالعلم ، فالأعلمُ اللهُ ، والقدرة : فالأقدرُ اللهُ فلو اشترك الخَلْقُ والخالقُ في التركيب والصورة لكانَ الأحسن في الصورة اللهُ ... فلمَّا قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » عُلِمَ أنَّ الحقَّ — سبحانه — مُنَزَّهٌ عن التقويم وعن الصورة .[1]

قوله جل ذكره : « ثم رَدَدْناهُ أسفلَ سافلينَ »

أي : إلى أرذل العمر وهو حال الخَرَفِ[2] والهَرَم .

ويقال : « أسفل سافلين » : إلى النار والهاوية في أقبح صورة ؛ فيكون أوَّلُ الآيةِ عامًّا وآخرها خاصًّا بالكفَّار .. كما أنَّ التأويلَ الأولَ — الذي هو حال الهَرَم — خاصٌّ في البعض؛ إذ ليس كلُّ الناسِ يبلغون حالَ الهَرَم .

« إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ

فلهم أجْرٌ غيرُ ممنون »

أي : غير منقوص .

ويقال : « ثم رددناه أسفل سافلين » أي : إلى حال الشقاوة والكفر إلَّا المؤمنين .

قوله جل ذكره : « فما يُكَذِّبُكَ بَعدُ بالدِّينِ »

أيها الإنسانُ . . مع كل هذا البرهانِ والبيان ؟

« أليسَ اللهُ بأحْكَمِ الحاكمين » ؟

---

(١) في هذا ردٌّ جميل مقنع على المشبهة ، وعلى كل ذي تصور وهمي للألوهية .

(٢) الخرف = فساد العقل بسبب كبر السِّن .

سُورَةُ العَلَق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ سماعُها يوجِبُ أحدَ أمرين : « إمَّا صَحْواً وإمَّا مَحْواً » ؛ صحواً لِمَنْ سمعها بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه ، أو محواً لمن سمعها بشاهد المعرفة لأنه يتحيَّر فى جلال سلطانه .

قوله جل ذكره : « اقْرَأْ باسم ربِّكَ الذى خَلَقَ »

هذه السورة من أوَّلِ ما نَزَلَ على المصطفى صلَّى الله عليه وسلم لما تعرَّض له جبريل فى الهواء ، ونَزَلَ عليه فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . فالناسُ كلُّهم مريدون — وهو صلى الله عليه وسلم كان مُرَادًا . فاستقبل الأمر بقوله : « ما أنا بقارئ » ، فقال له : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، فقال له : اقرأ كما أقول لك ؛ اقرأ باسم ربك الذى خلق . أى خلقهم على ما هم به .

« خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ »

العَلَق جمع عَلَقَة ؛ كشجرٍ وشجرة .. (والعَلَقةُ الدمُ الجامد فاذا جرى فهو المسفوح) .

« اقْرَأْ وربُّكَ الأكرمُ »

« الأكرم » : أى الكريم .

ويقال : الأكرم من كلِّ كريم .

« الذى عَلَّمَ بالقَلَمِ * عَلَّمَ الانسانَ ما لم يعلَم »

عَلَّمهم ما لم يعلموا : الضرورىَّ ، والكسبىَّ .

« كلاَّ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَىٰ * أن رآه استغنىٰ »[1]

أى : يتجاوز جَدَّه إذا رأى فى نفسه أنه استغنى ؛ لأنه يَعْمَى عن مواضع افتقاره .

ولم يقل : إن استغنى بل قال : « أن رآه استغنى » فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه ، وكان مشاهداً لمحلِّ افتقاره — لم يكن طاغياً[2] .

قوله جل ذكره : « إنَّ إلى ربِّك الرُّجْعَىٰ » .

أى : الرجوع يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « أرأيتَ الذى يَنْهَىٰ * عبداً إذا صلىٰ »

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له ؟ ففى الآية هذا الإضمار .

« أرأيْتَ إن كان على الهُدَىٰ * أو أمر بالتقْوىٰ »

لكان خيراً له ؟

« أرأيتَ إنْ كذَّب وتولَّى »

كذَّب بالدِّين ، وتولَّى عن الهداية .

قوله جل ذكره : « ألم يعلم بأنَّ اللهَ يرىٰ » ؟

أى : ما الذى يستحقهُ مَنْ هذه صفته ؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة ـ ومَنْ لم يبلُغْ حالَ المراقبة لم يَرْتَقِ منه إلى حال المشاهدة .

قوله جل ذكره : « كلاَّ لئن لَّمْ يَنتهِ لَنَسْفَعاً بالناصية * ناصيةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَة »

(١) قيل نزلت فى أبى جهل حين نهى النبى «ص» عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيه أن يصلى فى المسجد ويقرأ باسم الرب .. والذين يرون ذلك يرون أن السورة ليست من أوائل ما نزل من القرآن . أو يجوزون أن تكون أوائل السورة كذلك وأن بقيتها فى شأن أبى جهل — أى متأخرة .

روى البخارى عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبى ذلك فقال : لو فعل لأخذته الملائكة . (البخارى حـ ٣ ص ١٤٦) .

(٢) من أشد آفات الطريق خطراً ملاحظة النفس ، وناهيك بدعاواها .

لَنَأْخُذَنَّ بناصيته (وهى شَعْرُ مُقَدَّم الرأس) أَخْذَ إذلالٍ . ومعناه لنُسَوِّدَنَّ وَجْهَه .

وقوله : « ناصية كاذبة خاطئة » بدلٌ من قوله : « لنسفعاً بالناصية »[1]

« فَلْيَدْعُ نادِيهُ * سَنَدْعُ الزبانية »

فليدعُ أهلَ ناديَه وأهل مجلسه ، وسندعو الزبانيةَ ونأمرهم بإهلاكه .

قوله جل ذكره : « كلاَّ لا تُطِعْهُ واسجُد واقترب »

أى : اقتربْ من شهود الربوبية بقلبك ، وقِفْ على بِساط العبودية بنَفْسك .

ويقال : فاسجُدْ بنفسِك ، واقتربْ بسِرِّك[2] .

---

(۱) نسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية يقصد بها صاحب الناصية كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، أى هو صائم فى نهاره وقائم فى ليله .

(۲) السجود عبادة الظواهر ، ولهذا ربطها القشيرى بالنفس ، فكل ما يتصل بالظاهر يرتبط — عنده — بالنفس ، وأمّا الاقتراب فهو عبادة الباطن المرتبطة بالسرّ .

سورة القدر

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ تُحْضِرُ قلوبَ العلماء لتأمُّل الشواهد ، وتُسْكِرُ قلوبَ العارفين إذا وردوا المشاهد . . فهؤلاء أحضرهم فبَصَّرَهم ، وعلى استدلالهم نصرهم .

وهؤلاء بشرابِ محابِّه أسكَرَهم ، وفى شهودِ جلالِه حَيَّرَهم .

قوله جل ذكره : « إنَّا أنزلناهُ فى ليلةِ القَدْرِ » .

فى ليلةٍ قَدَّرَ فيها الرحمةَ لأوليائه ، فى ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدْرَ نفوسِهم ، ويشهد فيها العارفون قَدْرَ معبودهم . . وشتان بين وجودِ قَدْرٍ * وشهودِ قَدْرٍ ! فلهؤلاء وجودُ قَدْرٍ ولكن قدر أنفسهم ، ولهؤلاء شهود قدرٍ ولكن قدر معبودهم

« وما أدْراكَ ما ليلةُ القدْرِ » ؟

استفهامٌ على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة .

« ليلةُ القدْرِ خيرٌ مِّن ألفِ شهرٍ » .

أى : هى خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر . هى ليلةٌ قصيرةٌ على الأحباب لأنهم فيها فى مسامرةٍ وخطاب . . كما قيل :

يا ليلة من ليالى الدهرِ قابلت فيها بَدْرَها بِبَدْرِ
ولم تكن عن شَفَقٍ وفَجْرٍ حتى تولّت وهى بِكْرُ الدهرِ

قوله جل ذكره : « تَنزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها
بإذن رَبِّهم من كلِّ أمْرٍ * سلامٌ
هى حتَّى مطلع الفجر » .

« الروح فيها » : قيل جبريل . وقيل : مَلَكٌ عظيم

« بإذن ربهم » : أى بأمر ربهم .

« من كل أمر سلام » : أى مع كل مأمورٍ منهم سلامى عَلَى أوليائى[1] .

« هى حتى مطلع الفجر » : أى هى باقية إلى أن يطلع الفجر .

(١) قد يتأيد رأى القشيرى فى اختيار هذا النسق الذى يتم به الكلام بما يرويه أنس — قال : قال رسول الله (ص) : إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل فى كبكبة (جماعة) من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى .

سُورَةُ لَمْ يَكُن

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ تَنَصَّل إليه المذنبون فَغَفَرَ لهم وجَبرَهم[1] ؛ وتوسّلَ إليه المطيعون فوَصَلَهم ونَصَرَهم .

تَعَرَّفَ إليه العالِمون فبَصَّرهم ، وتَقَرَّب منه العارفون فقَرَّبهم ... لكنه — سبحانه — في جلاله حَيَّرَهم[2] .

قوله جل ذكره : « لم يكُنِ الذين كَفَرُوا من أهل الكتاب والمشْرِكينَ مُنفكِّينَ حتى تأتيهمُ البَيِّنَةُ » .

« منفكين » : مُنْتَهين عن كفرهم حتى تأتيهم البيِّنة : وهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لم يزالوا مجتمعين عَلَى تصديقه ؛ لِمَا وَجَدوه فى كُتُبِهم إلى أنْ بَعَثَه الله تعالى . فلمّا بعثَه حسدوه وكفروا .

« رسولٌ من الله يتلوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ » .

---

(١) فى النسخة م توجد بعد هذا الموضع العبارة التالية «وتوكّل إليه الموفون فجبرهم» . ونستبعد وجودها فى الأصل ؛ لأن ترتيب العارفين لا يأتى بين المذنبين والمطيعين ، وإنما يأتى بعد « العالمين » ، كما هو ثابت فى النسخة على هذا النحو الذى أثبتناه هنا . كما أنّ « جبرَهم » فعل يتصل بالزلاّت والذنوب ... فيبدو أن العبارة متصلة بالمذنبين ، ويتأيد ما اخترناه بالسياق الذى نألفه فى أسلوب البسملة عند الشيخ ، فضلا عن خدمته للموسيقى والمعنى .. وهما العنصران الأساسيان فى نسج البسملة عنده .

(٢) التحيُّر فى الجلال صفة مدح ، ولذا يقول يحيى بن معاذ : يا دليل المتحيرين زدنى تحيراً .. لأنه غرق فى بحر الوجود عند الشهود .

أى حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُباً مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار .

« فيها كتب قيمة » [1] : مستوية ليس فيها اعوجاج .

قوله جل ذكره : « وَمَا تَفَرَّقَ الذين أوتوا الكتابَ
إلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءتهم البيِّنَةُ » .

يعنى : القرآن .

قوله جل ذكره : « وما أُمِروا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلصينَ
له الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقيموا الصلاةَ ويُؤْتُوا
الزكاةَ وذلك دِينُ القيِّمة » .

« مخلصين له الدين » أى موحِّدين لا يُشرِكون بالله شيئاً ؛ فالإخلاصُ ألَّا يكونَ شىءٌ من حركاتك وسكناتك إلَّا لله .

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العملِ من الخَلَلِ .

« حنفاء » : مائلين إلى الحقِّ ، عادلين عن الباطل [2] .

« ويقيموا الصلاة . . وذلك دِيْنُ القيِّمة » : أى دينُ الملَّةِ القيمة ، والأمة القيِّمة ، والشريعة القيِّمة .

قوله جل ذكره : « إنَّ الذين كفروا من أهل الكتابِ
والمشركينَ فى نارِ جهنَّمَ خالدين فيها
أولئك هم شَرُّ البَرِيَّةِ » .

« خالدين فيها » : مقيمين . « البريَّة » : الخليقة .

« إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ
أولئك هم خَيْرُ البريَّة » .

---

(١) يرى القرطبى : أن « كتبا » هنا بمعنى الإحكام ؛ لأن كَتَبَ بمعنى حكَمَ ، قال تعالى : « كَتَبَ اللهُ لأغلبنَّ » سورة المجادلة .

(٢) كلمة « حنيف » من الأضداد ، فهى تحمل معنى (الميل) عن الباطل و (الاستقامة) فى طريق الحق .

أي : خير الخلق ، وهذا يدل عَلَى أنهم أفضلُ من الملائكة .

قوله جل ذكره : « جزاؤهم عند ربِّهم جنّاتُ عَدْنٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً » .

« جزاؤهم » : أي ثوابهم فى الآخرة عَلَى طاعاتهم .

« تجرى من تحتها الأنهار » أى : من تحت أشجارها الأنهار .

« رَضِىَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه » .

فلم تَبْقَ لهم مطالبةٌ إلَّا حقَّقها لهم .

« ذلك لِمَنْ خَشِىَ ربَّهُ » .

أى : خافَهُ فى الدنيا .

والرضا سرورُ القلب بمرِّ القضا .

ويقال : هو سكونُ القلب تحت جَرَيان الحُكْم .

سُورَةُ الزَّلزلة

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ تأمَّلها بمعانيها وَوقفَ عَلَى ما أُودِعَ فيها رَتَعَتْ أسرارُه في رياضٍ من الأُنْس مونقة، وأينعت أفكارُه بلوائح من اليقين مُشْرِقة ، فهى عَلَى جَلال الحقِّ شاهدة ، وهى على مايحيط به الذِّكْرُ ويأتى عليه الحَصْرُ زائدة .

قوله جل ذكره: « إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرضُ زِلْزَالَهَا * وأَخْرَجَتِ الأرضُ أثقالَهَا » .

أى: أمواتَها ، وما فيها من الكنوز والدفائن .

« وقَالَ الإنسانُ مالَهَا » ؟

يعنى الكافرُ الذى لا يُؤْمِنُ بها أى بالبعث[1] .

« يومئذٍ تُحَدِّثُ أخبارَها » .

يومئذٍ تُخَبِّر الأرضُ :

« بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لها » .

أى : إنما تفعل ذلك بأمر الله .

---

(١) روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : هو الأسود بن عبد الأسد ، ويرى بعض المفسرين: أن الإنسان هنا هو كل إنسان من مؤمن وكافر لأن الجميع لا يعلمون أشراط الساعة فى ابتداء أمرها إلى أن يتحققوا عمومها ، ولذا يسأل بعضهم بعضاً .

أمَّا القشيرى فقد نظر إليها من ناحية الاعتراف وجعل من يسأل عنها كافراً بها جاحداً لها . أمَّا المؤمن فلا حاجة له فى السؤال .

«يومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتاتاً لِيُرَوْا[1] أعمالَهمْ» .

«أشتاتاً» : متفرّقين . «ليُرَوا أعمالَهم» ليُحاسَبوا .

قوله جل ذكره : «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ * ومَن يَعْمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ شراً يَرَهُ» .

فَيُقَاسِى عناءه .

(١) هذه قراءة العامة . وقرأ الحسن والزهرى وقتادة والأعرج وابن عاصم وطلحة بفتحها : «ليَرَوْا» .

سورة العاديات

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم».

«بسم الله» كلمةٌ غيورٌ لا يَصْلُح لذكرها إلَّا لسانٌ مصونٌ[1]، عن اللَّغْوِ والغيبة، ولا يصلح لمعرفتها إلَّا قلبٌ محروسٌ عن الغفلة والغيبة[2]، ولا يصلح لمحبتها إلَّا رُوحٌ محفوظةٌ عن العلاقة والحجبة.

قوله جل ذكره: «والعاديات ضَبْحًا».

«العاديات»: الخيلُ التي تعدو[3].

«ضبحاً» أي إذا ضَبحن ضبحاً، والضبحُ: هو صوتُ أجوافها إذا عَدَوْنَ. ويقال: ضبحُها هو شِدةُ نَفَسِها عند العَدْوِ.

وقيل: «العاديات»: الإبل[4].

وقيل: أقسم الله بأفراسِ الغزاة[5].

«فالمُورِيات قَدْحًا».

تورى بحوافرها النار إذا عَدَتْ وأصابَتْ سنابِكُها الحجارة بالليل.

---

(١) من هذا الموضع تبدأ النسخة ص بعد البياض والسقوط اللذين أشرنا إليهما من قبل.

(٢) الغيبة المتصلة باللسان هي الكلام في حق الغائب، والغيبة المتصلة بالقلب هي ورود وارد من أي نوع يُعَطِّل الاتجاه الكامل نحو المحبوب، كالتفكير في الثواب أو الخوف من العقاب، أو الطمع في الأعواض، أو استعجال شيء.. ونحو ذلك مما يشوب كأس المحبة من غيرية..

(٣) العَدْوُ: هو تباعد الأرجل في سرعة المشي.

(٤) هكذا في ص وهي في م (الليل) وهي خطأ في النسخ والفعل المستعمل مع الإبل هو (ضبع) فتكون (ضبحا) هنا بحاء مبدلة عن عين (القرطبي حـ ٢٠ ص ١٥٦)

(٥) في الخبر: «من لم يعرف حرمة فرس الغازي ففيه شعبةٌ من النفاق».

ويقال : الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب .

ويقال : هى الأسِنَّة .

« فالمُغيراتِ صُبْحاً » .

تُغِير على العدوِّ صباحاً .

« فأَثَرْنَ به نَقْعاً » .

أى : هَيَّجْنَ به غباراً .

« فوَسَطْنَ به جَمْعاً » .

أى : تَوَسَّطْنَ المكان ، أى : تتوسط الخيل بفوارسها جَمْعَ العَدُوِّ .

« إنَّ الإنسانَ لربِّه لَكَنُودٌ » .

هذا هو جوابُ القَسَمِ .

« لكنود » : أى لكَفُور بالنعمة[1] .

« وإنه عَلَى ذلك لَشَهيدٌ » .

أى : وإنه على كنوده لشهيد

« وإنَّه لِحُبِّ الخَيْرِ لشديدٌ » .

أى : وإنه لبخيلٌ لأجل حُبِّ المال[2] .

قوله جل ذكره : « أفلا يَعْلَمُ إذا بُعْثِرَ ما فى القبُور » .

أى : بُعِثَ الموتى .

« وحُصِّلَ ما فى الصُّدور » .

بُيِّنَ ما فى القلوب من الخير والشرِّ .

« إنَّ ربَّهم بهم يومَئِذٍ لخَبير » .

---

(١) روى عن ابن عباس : أن الكنود بلسان كندة وحضرموت : العاصى ، وبلسان ربيعة ومضر : الكفور ، بلسان كنانة : البخيل السيءُ المَلَكَة .

(٢) قال تعالى : « إنْ ترك خيراً » آية ١٨٠ سورة البقرة .

أفلا يعلم أن اللهَ يُجازيهم — ذلك اليومَ — على ما أسلفوا، ثم قال عَلَى الاستئناف: « إنّ ربهم بهم يومئــذٍ لخبير ».

ويقال في معنى الـكَنُود(١) : هو الذى يَرَى ما إليه مِنْ البَلْوَى، ولا يرى ما هو به مِنْ النُّعمَى.

ويقال: هو الذى رأسُه على وسادة النعمة، وقَلْبُه فى ميدان الغفلة.

ويقال: الـكَنُود: الذى ينسى النِّعَم ويَعُدُّ المصائب.

وقوله: « وإنّه على ذلك لشهيد »، يحتمل: وإنَّ اللهَ على حاله لشهيد.

---

(١) لعل القشيرى هنا مستفيد من قول ذى النون المصرى: الكنودُ: هو الذى إذا مسّه الشر جزوع، وإذا مَسَّه الخيرُ منوع، يجزع من البلوى، ويمنع الشكر على النعمى.

سُورَةُ القَارِعَة

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ إذا سمعها العاصون نَسُوا زَلَّتهم فى جنب رحمته ، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتهم فى جنب إلٰهيته .

كلمةٌ مَنْ سمعها ما غادرَتْ له شُغْلاً إلاَّ كفَتْه ، ولا أمراً إلّا أصلحَتْه ، ولا ذنباً إلّا غفَرَتْه ، ولا أرَباً إلّا قضَتْه .

قوله جل ذكره : « القارِعةُ * ما القارِعةُ » .

القارعةُ : اسمٌ من أسماء القيامة ، وهى صيغة « فاعلة » من القَرْع ، وهو الضربُ بشدَّة . سُمِّيت قارعة لأنها تقرعهم .

« وما أدْراكَ ما القارِعةُ » ؟ .

تهويلاً لها .

« يومَ يكونُ الناسُ كالفَرَاشِ المبثوثِ » .

أى : للتفرّق . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضا .

« وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفوشِ » .

أى : كالصوف المصبوغ .

والمعنى فيه : أن أصحابَ الدعاوى[1] وأرباب القوة فى الدنيا يكونون — فى القيامة إذا

(١) هكذا فى ص وهى فى م (الدواعى) وهى خطأ من الناسخ ، وقد وردت صحيحة فيما بعد ؛ فالمقصود دعوى النفس .

بُعِثُوا — أضعفَ من كلِّ ضعيف ؛ لأن القُوى هنالك تسقط ، والدعاوى تَبْطُل .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه * فهُوَ فى عِيشَةٍ رَّاضية » .

مَنْ ثقلت موازينُه بالخيرات فهو فى عيشة راضية ؛ أى مَرْضية .

ووزنُ الأعمالِ يومئذٍ يكون بوزن الصحف . ويقال : يخلق بَدَلَ كلِّ جزء من أعماله جوهراً ، وتُوزَنُ الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال .

« وأمَّا مَنْ خَفَّتْ موازِينُهُ * فأُمُّه هاوِيةٌ » .

مَنْ خَفَّتْ موازينه من الطاعات — وهم الكفارُ — فأواه هاوية .

« وما أدْراكَ مَاهِيَهْ ؟ * نارٌ حامية » .

سؤالٌ على جهة التهويل[1] . ولم يَرِدْ الخبرُ بأن الأحوال توزَن ، ولكن يُجازَى كلٌّ بحالةٍ مما هو كَسْبٌ له ، أو وَصَلَ إلى أسبابها بكَسْبٍ منه .[2]

---

(١) هكذا فى م وهى فى ص (التحويل) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) بعد أن تحدث عن ميزان الأعمال تحدث عن ميزان الأحوال .. ومن المعلوم أن الأعمال جهود كسبية ، والأحوال مواهبُ فيضية .. ولكن قد يكون فيها شىء من الكسب فمثلا : إذا رضى العبد بالقبض أنعم الحقُّ عليه بالبسط ، وإذا راعى حدود الوقت ظفر بمقتضيات الوقت وإلا ... كان الوقت عليه مقتاً والإنسان لا يحاسب إلا على ما كسب .

سُورَةُ التَّكَاثُر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ تقدَّسَ فى آزالِه عن كل مكان ، ولم يَحْتَجْ فى آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان ؛ لا يقطعه حدٌّ فأنَّى يجوز فى وَصْفِه المكان ؟ ولا يقطعه عَدٌّ فأنَّى تجوز فى وَصْفِه الزيادةُ والنقصان ؟[1]

قوله جل ذكره : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ المقابرَ » .

أى : شَغَلَكم تَفَاخُرُكم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أنْ مِتُّم .

ويقال : كانوا يفتخرون بآبائهم وأسلافهم ؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء ، وبمن مضى من أسلافهم .

فقال لهم : شَغَلَكم تفاخركم فيما بينكم حتى عَدَدْتم أمواتكم مع أحيائكم. وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةَ الله.

« كلَّا سوفَ تعلمون * ثم كلَّا سوفَ تعلمُون » .

على جهة التهويل .

« كلَّا لو تعلمون عِلْمَ اليقينِ » .

أى : لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عمَّا أنتم فيه من التكذيب .

---

(١) واضح مدى ارتباط اتجاه القشيرى فى إشارة البسملة بالجوِّ العام للسورة التى ينعى على اتخاذ الزيادة والنقصان مقياساً للتفاخر والادعاء .

« لَتَرَوُنَّ الجحيمَ * ثم لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليقين * ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عنِ النعيمِ ».

أراد جميعَ ما أعطاهم اللهُ من النعمة ، وطالَبهم بالشكر عليها .

ومن النعيم الذى يُسأَلُ عنه العبد تخفيفُ الشرائع ؛ والرُّخَصُ فى العبادات .

ويقال : الماء الحار فى الشتاء ، والماء البارد فى الصيف .

ويقال : منه الصحّةُ فى الجسد ، والفراغ .[1]

ويقال : الرضاء بالقضاء . ويقال : القناعة فى المعيشة .

ويقال : هو المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(١) فى البخارى وفى سنن ابن ماجه : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» .
ومعنى الغبن : أنهما نعمتان ولكن غالب الناس يصرفهما فى غير محالهما .

سُورَةُ الْعَصْر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

كلمةٌ مَنْ سَمِعَها لم يَدَّخِرْ عنها[1] مَالَه ؛ لأنَّه عَلِمَ أنه — سبحانه — يُحْسِنُ مآلَه ، ومَنْ عَرَفَها لم يُؤْثِرْ عليها نَفْسَه ؛ لأنَّه لم يجد بدونها أُنْسَه .

كلمةٌ مَنْ صَحِبَها لم يمنعْ عنها روحَه ؛ إذ وَجَدَ الحياةَ الأبدية له ممنوحة .[2]

قوله جل ذكره : « والعَصْرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ »

« العصر » : الدهر — أقسم بهْ

ويقال : أراد به صلاةَ العصر . ويقال : هو العَشِيّ .

« الإنسان » : أراد به جِنْسَ الإنسان . « والخُسْر » : الخسران .

والمعنى : إن الإنسان لفي عقوبةٍ من ذنوبه . ثم استثنى المؤمنين فقال :

« إلَّا الذين آمنوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ
وتَوَاصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ » .

الذين أخلصوا فى العبادة وتواصوا بما هو حقٌّ ، وتواصوا بما هو حَسَنٌ وجميلٌ ، وتواصوا بالصبر .

وفى بعض التفاسير : قوله : « الذين آمنوا » يعنى أبا بكر ، «وعملوا الصالحات» : يعنى عمر

---

(١) هكذا فى ص وهى فى م (عنه) .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص (مفتوحة) وإن كانت هناك زيادة كالميم تعلو الميم الأولى .

و « وتواصوا بالحقِّ » يعنى عثمان ، و « وتواصوا بالصبر » يعنى عليًّا — رضى الله عنهم أجمعين .[1]

والخسرانُ الذى يلحق الإنسان على قسمين : فى الأعمال ويتبيّن ذلك فى المآل ، وفى الأحوال ويتبيّن ذلك فى الوقت والحال ؛ وهو القبضُ بعد البسط ، والحجبةُ بعد القربة ، والرجوعُ إلى الرُّخَصِ بعد إيثار الأشَقِّ والأَوْلَى .

« وتواصوا بالحقِّ » : وهو الإيثارُ مع الخَلْق ، والصدقُ مع الحقِّ .

« وتواصوا بالصبر » : على العافية . . . فلا صبرَ أتمُّ منه .

ويقال : بالصبر مع الله . . وهو أشدُّ أقسام الصبر[2]

---

(١) تنسب هذه الرواية إلى أُبَىّ بن كعب الذى قال : قرأت على رسول الله (ص) « والعصر » ثم قلت : ما تفسيرها يا نبىّ الله ؟ فقال : « والعصر » قَسَمٌ من الله ، أقسم ربكم بآخر النهار « إن الإنسان لفى خسر » : أبو جهل .. إلى آخر الرواية كما نقلها القشيرى .

(٢) انظر «الرسالة» باب الصبر ص ٩٢ .

سُورَةُ الهُمَزَة

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمٰن الرحيم »

« بسم الله » : اسمُ مَنْ لا غَرَضَ له فى أفعاله ، اسمُ من لا عِوَضَ عنه فى جلالِه وجمالِه . اسمُ مَنْ لا يصيرُ العبدُ عنه مختاراً ، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ الفقيرُ[1] من دونه قَراراً ، اسمُ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكْمِه فِراراً .

قوله جل ذكره : « ويلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » .

يقال : رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَة : أى كثيرُ الهَمْزِ واللَّمْزِ للناس وهو العيب والغيبة .

ويقال : الهُمَزَة الذى يقول فى الوجه ، واللُّمزة الذى يقول مِنْ خَلْفِه .

ويقال : الهَمْزُ الإشارةُ بالرأس والجَفْنِ وغيره ، واللَّمْزُ باللسان .

ويقال : الهُمَزَة الذى يقول ما فى الإنسان ، واللُّمَزَة الذى يقول ما ليس فيه .

قوله جل ذكره : « الذى جَمَعَ مالاً وعَدَّدَهُ » .

« جمَّع » بالتشديد[2] على التكثير ، وبالتخفيف .

« يَحْسَبُ أَنَّ مالَه أَخْلَدَهُ » .

أى : يُبْقِيه فى الدنيا . . كلّا ليس كذلك :

---

(١) الفقير هنا المقصود به الصوفىُّ المفتقر إلى الله ، انظر آخر السورة .

(٢) هكذا فى م وهى فى ص غير موجودة ، مما قد يشعر باحتمال انصراف الكلام إلى «عدَّده» فهى أيضاً تقرأ على التشديد والتخفيف .

« كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » .

ليُطْرَحَنَّ فى جهنمَ . « وما أدراك ما الحطمة » ؟ على جهة التهويل لها .

فهم فى نار الله الموقدة التى يبلغ أَلمُها الفؤاد .

« إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ » .

مُطبَقة .

« فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ » :

« عَمَد » : جمع عماد . وقيل : إنها عُمُدٌ من نارٍ تُمدَّدُ وتُضْرَبُ عليهم ؛ كقوله : «أحاط بهم سرادقها »[1]

ويقال : الغنى بغيرِ اللهِ فقرٌ ، والأُنْسُ بغيره وَحْشَة ، والعزُّ بغيره ذُلٌّ .

ويقال : الفقيرُ مَنْ استغنى بماله ، والحقيرُ : مَنْ استغنى بجاهه ، والمُفْلِسُ : مَن استغنى بطاعته ، والذليلُ : من استغنى بغير الله ، والجليلُ : من استغنى بالله .

ويقال : بَيَّنَ أن المعرفة إذا اتقَّدتْ فى قلب المؤمن أحرقت كلَّ سُؤْلٍ وأَرَبٍ فيه ، ولذلك تقول جهنَّمُ — غداً — للمؤمن : « جُزْ ، يا مؤمن . . فإنَّ نورَكَ قد أطْفَأَ لهبى » !

---

(١) آية ٢٩ سورة الكهف .

سُورَةُ الفِيل

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمٰن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمُ غنِيٌّ مَنْ أطاعَهُ أغناه ، ومَنْ خالَفَهُ أضَلَّه وأعماه .

اسمُ عزيز مَنْ وافقه رَقَّاه إلى الرتبة العليا ، ومَنْ خالَفَهُ ألقاه في المحنة الكبرى .

قوله جل ذكره : « ألم تَرَ كيف فَعَلَ رَبُّكَ بأصحابِ الفيــــلِ » ؟ .

ألمْ يَنْتَهِ إليكَ فيما أنزل عليك عِلْمُ ما فَعَلَ ربُّكَ بأصحاب الفيل ؟ .

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيصِ اللهِ البيتَ العتيقَ بالحِفْظِ والكلاءة .
وذلك : أنّ أبرهة — مَلِكَ اليمن — كان نصرانياً ، وبنى بيعةً لهم بصنعاء ، وأراد هَدْمَ الكعبة ليصرفَ الحجَّ إلى بيعتهم .

وقيل : نزل جماعةٌ من العرب ببلاد النجاشي ، وأوقدوا ناراً لحاجةٍ لهم ، ثم تغافلوا عنها ولم يُطفِئوها ، فهبَّت الريحُ وحَمَلَتْ النارَ إلى الكنيسة وأحرقتها ، فقَصَد أبرهةُ الكعبةَ لِيَهْدِمها بجيشه .

فلمّا قَرُبَ من مكة أصاب مائتي جَمَلٍ لعبد المطلب ، فلمّا أُخْبِرَ بذلك ركب إليهم ، فعَرَفَهُ رجلان ، فقالا له :

ارجع . . فإن المَلِكَ غضبان .

فقال : واللاتِ والعُزَّى لا أرجِعُ إلّا بإبلي .

فقيل لأبرهة : هذا سَيِّدُ قريشٍ ببابِك ؛ فأذِنَ له ، وسأله عن حاجته ؛

فأجاب أبرهة : إنها لك غداً ، إذا تقدَّمْتُ إلى البيت[1] .

فعاد عبد المطلب إلى قريش ، وأخبرهم بما حدث ، ثم قام وأخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول :

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يمـــنعُ رَحْلَه فامنعْ حِلَالَكْ

لا يَغْلِـبَنَّ صليبُهمْ ومِحَالُهم عَدْواً مِحالَكْ

إنْ يدخلوا البـــلدَ الحرا مَ فأمرٌ ما بدالَكْ[2]

فأرسل اللهُ عليهم طيراً أخضرَ[3] من جهة البحر طِوالَ الأعناق ، فى منقار كل طائرٍ حَجَرٌ وفى مخلبه حجران .

قيل : الحجَرةُ منها فوق العدس دون الحمص .

وقيل : فوق الحمص دون الفستق ، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها .

وقيل : مُخَطَّطَةٌ بالسَّواد . فأمْطِرَتْ عليهم ، وماتوا كُلُّهم .

وقيل : كان الفيلُ ثمـــانيةً ؛ وقيل : كان فيلاً واحداً .

وفى رواية : إنه كان قبل مولده صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَـــلم بأربعين سنة .

وقيل : بثلاثة وعشرين سنة . وفى رواية « وُلِدْتُ عامَ الفيل[4] » .

قوله جل ذكره : « ألم يَجْعَلْ كَيْدَهم فى تضليل » ؟

أى : مَكْرَهمْ فى إبطال .

---

(١) قيل : إن النجاشى قال له : لقد أعجبتنى حين رأيتك ، ولكنى زهدت فيك حين كلمتنى .. أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتُها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ؟ فقال له عبد المطلب : أنا رب الإبل.. أما البيت فله رب سيمنعه ! .

(٢) الحِلال جمع حِل . والمِحال : القوة . والعَدْو بالعين المهمله : الاعتداء .

(٣) قال سعيد بن جبير : هى طيرٌ خُضْرٌ لها مناقير صُفْر .

(٤) و فى رواية : « ولدت يوم الفيل» . وقال قيس بن مخرمة : «ولدت أنا ورسول الله (ص) عام الفيل » .

« وأرْسَلَ عليهم طيراً أبابيلَ » .

« أبابيل » : مجتمعةً ومتفرِّقةً .

« ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيلٍ » .

قيل بالفارسية : سنگك أو گل — أى طينٌ طُبِخَ بالنار كالآجُر[1] .

« فَجَعَلهم كَعَصْفٍ مأكول » .

« كعصفٍ » : كأطرافِ الزرع قبل أن يدرك . « مأكول » أى ثمرَهُ مأكول .

ويقال : إذا كان عبد المطلب — وهو كافرٌ — أخلص فى التجائه إلى الله فى استدفاع البلاء عن البيت — فالله لم يُخَيِّبْ رجاءَهُ . . ، وسَمِعَ دُعاءَهُ . . . فالمؤمِنُ المخلِصُ إذا دعا ربَّهُ لا يردُّهُ خائباً .

ويقال : إنما أُجيب لأنَّه لم يسأل اللهَ لِنَفْسِه ، وإنما لأجْلِ البيتِ . . وما كان لله لا يضيع .

(١) أخرج الفريابى عن مجاهد قال : سجيل بالفارسية أولها حجارة وآخرها طين . (نقله السيوطى فى إتقانه حـ١ ص ١٣٨ فى باب ماوقع فى القرآن بغير لغة العرب .

سُورَةُ قُرَيْش

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم » : الباء فى « بسم » تشير إلى براءة سِرِّ الموحِّدين عن حسبان الحِدثان ، وعن كلِّ شىء ممَّا لم يكن فكان ، وتشير إلى الإنقطاع إلى الله فى السَّرَّاء والضرَّاء ، والشِّدَّةِ والرخاء .

والسين تشير إلى سكونهم فى جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب .

والميم تشير إلى مِنَّةِ اللهِ عليهم بالتوفيق[1] لِمَا تحقَّقُوا به من معرفته ، وتخلَّقوا به مِنْ طاعته[2] .

قوله جل ذكرُه : « لإيلافِ قُرَيشٍ * إيلافِهِم رحلةَ الشتاء والصيف » .

« الإيلاف » : مصدر آلَفَ ، إذا جَعَلْتَهُ يَأْلَف . . وهو ألِفَ إلْفاً[3] .

والمعنى : جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريشٍ ، أى ليَأْلَفوا رحلتهم فى الشتاء والصيف .

وكانت لهم رحلتان للامتيار[4] : رحلةٌ إلى الشام فى القيظ ، ورحلة إلى اليمن فى الشتاء .

---

(1) هكذا فى ص وهى فى م (بالتحقيق) .

(2) يستطيع القارئُ أن يربط بين فحوىّ البسملة كما يتذوقها القشيرى هنا وبين الجو العام للسورة .

(3) عند هذه النقطة تنتهى النسخة (ص) ونعتمد فيما بقى من الكتاب على النسخة م .

(4) الامتيار طلب المِيرة وجمعُها .

والمعنى : أنعم اللهُ عليهم بإهلاكِ عدوِّهم ليؤلِّفَهم رحلتيهم .

وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ لإيلافِ قريشٍ ، كأنه أعْظَمَ المِنَّةَ عليهم . وأمرَهم بالعبـادة :

« فلْيَعبدوا ربَّ هذا البيتِ * الذى أطْعَمَهُم من جوعٍ » .

فليعبدوه لِمَا أنعم به عليهم .

وقيل : فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوعٍ بعد ما أصابهم من القحط حينما دعا عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم[1] .

« وآمَنَهُم من خوف » .

حين جعَلَ الحرَمَ آمِناً ، وأجارَهم من عدوِّهم .

ويقال : أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلْبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .

ووَجهُ المِنَّةِ فى الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله ؛ فإنَّ مَنْ لم يكن مكْفِيَّ الأمور لا يتفرَّغُ إلى الطاعة ، ولا تساعده القوة ولا القلبُ — إلَّا عند السلامة بكلِّ وجهٍ وقد قال تعالى

« ولنبلونكم بشىء من الخوفِ والجوعِ[2] » قدَّم الخوف على جميع أنواع البلاء .

(١) دعا عليهم الرسول (ص) لمَّا كذَّبوه وقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسِني يوسف » فاشتد القحط ، فقالوا : يا محمد ادعُ الله لنا فإنَّا مؤمنون ؛ فدعا فأخصبت الأرض ، وحملوا الطعام إلى سائر البلدان .

(٢) آية ١٥٥ سورة البقرة .

سُــورَةُ الدِّيـن (١)

قوله جل ذكره: « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمـــــةٌ سماعُها غِذاء أرواح المحبِّين ، ضياء أسرار الواجدين ، شفاءُ قلوبِ المُتَيَّمين ، بلاءُ مُهج المساكين ، دواء كلِّ فقيرٍ مسكين(٢) .

قوله جل ذكره : « أرأيتَ الذى يُكذِّبُ بالدِّين » .

نزلت الآية على جهة التوبيخ ، والتعجُّبِ من شأن تظلُّم اليتيمِ من الكفار .

قال : أرأيتَ الذى يكذِّب بالدين ، وبالحساب والجزاء ؟

« فذلكَ الذى يَدُعُّ اليتيمَ » .

يدفعه بجفوة ، ويقال : يدفعه عن حقِّه(٣) .

« ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكين » .

أى : لا يَحُثُّ على إطعام المسكين ، وإنما يدعُّ اليتيم ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد نزع الرحمةَ من قلبه ، ولا تنزع الرحمة إلَّا من قلبٍ شقيٍّ .

وهو لا يحث على طعام المسكين ، لأنه فى شُحِّ نَفْسِه وأَمْرِ بُخْلِه .

قوله جل ذكره : « فَوَيْلٌ للمُصَلِّينَ * الذين هُم عن صَلاتِهِم ساهون * الذين هم يرَاءونَ »

---

(١) يقول السيوطى فى إتقانه : تسمى سورة أرأيت ، وسورة الدين ، وسورة الماعون (الإتقان حـ ١ ص ٥٥)

(٢) مرة أخرى نلفت النظر إلى ما بين إشارات البسملة والجو العام للسورة .

(٣) قال ابن جريج : نزلت فى أبى سفيان ، وكان ينحر فى كل أسبوع جَزُوراً فطلب منه يتيم شيئاً ، فقرعه بعصاه .

السّاهى عن الصدر: الذى لا يُصَلِّى . ولم يقل : الذين هم فى صلاتهم ساهون . . ولو قال ذلك لـكان الأمرُ عظيماً .

« الذين هم يُراءون » : أى يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس — لا إخلاصَ لهم « ويمنَعونَ الماعُون » .

الماعون . مثل الماء ، والنار ، والـكلأ ، والفأس ، والقِدْر وغير ذلك من آلةِ البيت ، ويدخل فى هذا : البُخْلُ ، والشُّحُّ بما ينفع الخَلْقَ مما هو مُمْـكِنٌ ومُستَطاع .

سُورَةُ الكَوْثَر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجل هو إلا باستحقاقِ عُلُوِّه فى آزالِهِ .

اسمٌ عزيزٌ أعَزَّ مَنْ شاء بأفضالِهِ وإقبالِهِ؛ وأذَلَّ أعداءه بسلاسله وأغلالِهِ ، والتخليدِ فى جحيمِهِ وأنكالِهِ .

قوله جل ذكره : « إنَّا أعطيناكَ الكوثَرَ » .

« الكوثر » : أى الخير الكثير . ويقال : هو نَهَرٌ فى الجنة .

ويقال : النبوَّةُ والكتابُ . وقيل : تخفيف الشريعة .

ويقال : كثرةُ أُمَّتِه .

ويقال : الأصحابُ والأشياع . ويقال : نورٌ فى قلبه .

ويقال : معرفته بربوبيته .

« فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ » .

أى صَلِّ صلاةَ العيد « وانحر » النُّسُكَ[1]

ويقال : جمع له فى الأمر بين : العبادة البدنية ، والمالية .

ويقال « وانحر » أى استقبِلِ القِبْلَةَ بنحرك . أو ارفع يديك فى صلاتك إلى نحرك[2]

---

(١) فى البخارى وغيره : قال رسول الله (ص) وأول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلّىَ ، ثم نرجع فننحر ، مَنْ فعَلَ فقد أصاب نُسُكَنَا ، ومَنْ ذبَحَ قبل فإنما هو لحمٌ تقدَّمه لأهله ، ليس من النُّسُكِ فى شىء لأن ترتيب الآية : صلاة ثم نحر . وقال أنس : كان النبى (ص) ينحر ثم يصلى حتى نزلت .

(٢) عن على رضى الله عنه : لمَّا نزلت الآية سأل النبىُّ جبريل : ما هذه النحيرة التى أمرنى الله بها ؟ قال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرَّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبَّرْت .. فزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة .

ويقال : ضَعْ يمينك على يسارك فى الصلاة واجعلها تحت نَحْرِك .

« إنَّ شَانِئَكَ هو الأَبْتَر » .

أى : لا يُذْكَرُ بخيرٍ ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير .(١)

(١) قيل : هو العاص ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : هو عقبة بن أبى مُعيط . والأبتر من الرجال : من لا وَلَدَ له ، أو مات أبناؤه وبقيت بناته .

سُورَةُ الْكَافِرُونَ [1]

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ آمَنَ بها أَمِنَ مِنْ زوال النُّعمى ، وحَظِيَ بنعيم الدنيا والعُقبى ، وسَعِدَ سعادةً لا يَشْقى ، ووَجَدَ مُلكاً لا يَفْنى ، وبَقِيَ فى العزِّ والعُلَى .

قوله جل ذكره : « قُلْ يأَيُّها الكافرونَ * لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُون » .

من أصنامكم .

« ولا أنتم عَابدونَ ما أعْبُدُ » .

« ما » أعبد أى « من » أعبد .

« ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتُم » .

فى زمانكم .

« ولا أنتم عابِدونَ ما أعْبُدُ » .

كَرَّرَ اللفظ على جهة التأكيد .

« لكم دينُكُم ولِيَ دين » .

أى : لكم جزاؤكم على دينكم ، ولى الجزاءُ على دينى .

---

(١) من أسمائها : سورة العبادة ، والمقشقشة .

والعبودية[1] القيام بأمره على الوجه الذى به أَمَرَ ، وبالقَدْر الذى به أَمَرَ ، وفى الوقت الذى فيه أمَرَ .

ويقال : صِدْقُ العبودية فى تَرْكِ الاختيار ، ويظهر ذلك فى السكون تحت تصاريف الأقدار من غير انكسار .

ويقال : العبودية انتفاء الكراهية بكلِّ وجهٍ من القلب كيفما صَرَّفك مولاك

(١) واضح أن إشارة القشيرى تستند إلى «العبودية» بينما الآيات تتحدث عن «العبادة» ولكن الصلة وثيقة بين كليهما وبين «العبودة» : ارجع فى ذلك إلى رسالة القشيرى ص ٩٩ .

سورة النصر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمُ كريمٌ يُبْصِرُ ويَسْتُرُ ، ويَعْلمُ ويَحْلُم (1) ، ويمدح ولا يَفْضَح ، ويعفو عن جميع ما يجترم العبدُ ويصفح ؛ يَمْضِى العبدُ على التوالى ، ويَغْفِرُ الحقُّ ولا يُبالى .

قوله جل ذكره : « إذا جاء نَصْرُ اللهِ والفتحُ » .

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ ، و « الفتح » فتح مكة .

« ورأيتَ الناسَ يَدْخُلونَ فى دينِ اللهِ أفواجًا » .

يُسْلِمون جماعاتٍ جماعاتٍ .

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ واستغفِرْهُ » .

أكْثِرْ حَمْدَ ربِّكَ ، وصلِّ له ، وقَدِّسْه .

ويقال : صَلِّ شكراً لهذه النعمة .

« واستغفِرْه » وسَلْ مغفرته .

« إنَّه كان توَّابا » .

لِمَنْ تاب ؛ فإنه يقبل توبته .

ويقال : نصرة الله — سبحانه — له بأنْ أفناه عن نَفْسِه ، وأبعد عنه أحكامَ البشرية ، وصفَّاه من الكدورات النفسانية . وأمَّا « الفتح » : فهو أنْ رَقَّاه إلى محلِّ الدنوِّ ، واستخلصه بخصائص الزلفة ، وألبسه لِباسَ الجمع ، واصطلمه عنه ، وكان له عنه ، ولنَفْسِه — سبحانه — منه ، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلُ من أسرارِ الحقِّ ، وعَرَّفَه — من كال معرفته به — ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشا إليه(2) .

(1) فى ص (يحكم) ولكننا آثرنا أن تكون (يَحْلُمُ) مرجحين أن ذلك أقرب إلى الأصل ؛ لأن الحِلْمَ هنا أقرب إلى السياق .

(2) تعبر هذه الفقرة تعبيراً صادقاً عن مدى نظرة الصوفية إلى المصطفى على أنه «الصوفىُّ الأول» .

سُورَةُ أبي لَهَب

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة جبَّارة للمذنبين ، تجبر أعمالَهم ، وتحقِّق آمالَهم ، وهي للعارفين تُصَغِّر في أعينهم أحوالَهم ، وتُسكِّن — عن شواهدِهم — امتحاءهم[1] واستئصالَهم ، وتحقِّق لهم — بعد فنائهم عنهم — وصالَهم .

قوله جل ذكره : « تَبَّتْ يدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ » .

أي : خَسِرَت يداه .

« ما أغنَىٰ عنهُ مالُهُ وما كَسَبَ » .

ما أغنى عنه مالُه ولا كَسْبُه الخبيثُ — شيئاً .

وقيل : « ما كسب » : وَلَدُه[2] .

قوله جل ذكره : « سَيَصْلَىٰ ناراً ذاتَ لَهَبٍ * وامرأتُهُ حَمَّالَةَ[3] الحطبِ » .

يلزمها إذا دَخَلَها ؛ فلا براحَ له منها . وامرأتُه أيضاً ستَصْلَىَ النارَ معه .

« في جيدِها حَبْلٌ مِن مَسَدٍ » .

---

(١) في ص (امتحانهم) والصواب أن تكون (امتحاءهم) أي حصول المحو لهم .

(٢) حين قال أبولهب : «إن كان ما يقوله ابن أخي حقاً فإني أفدي نفسي بما لي وولدي» فنزل : « ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

(٣) وعلى الرفع قراءة نافع . وقرأ عاصم بالنصب على الذمّ كأنها اشتهرت بذلك — كقوله تعالى : «ملعونين أينما ثُقِفوا » آية ٦١ سورة الأحزاب .

« مَسَدٌ » شيء مفتول، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه فى طريقِ رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويقال : سُحقاً لِمَنْ لا يعرف قَدْرَكَ ـ يامحمد . وبُعْداً لِمَنْ لم يشهد ما خصصناكَ به مِن رَفْعِ محلِّك، وإكبارِ شأنِك ... ومَنْ ناصبَكَ كيف ينفعه مالُهُ ؟ والذى أقتيناه لأجلِكَ وقد (أساء)[1] أعمالَه .. فإنَّ إلى الهوانِ والخِزْىِ مآلَه ، وإنَّ على أقبحِ حالٍ حالَ امرأتِه وحالَه .

(١) ما بين القوسين من عندنا فهى فى النسخة م مشتبهة .

سُورَةُ الإخلاص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة عزيزة عزّ لسانٌ ذَكَرَها ، وأعزُّ منه قلبٌ عرَفَها ، وأعزُّ من هذا رُوحٌ أحبَّها ، وأعزُّ من هذا سِرٌّ شهدها .

ليس كلُّ مَنْ قصدها وَجَدَها ، ولا كلُّ مَنْ وَجدَها بَقِيَ معها .

قوله جل ذكره : « قُلْ هو اللهُ أحَدٌ » .

لمَّا قال المشركون : أنسُبْ لنا ربَّكَ . أنزل اللهُ تعالى : « قل هو الله أحد »[1] فمعنى « هو » أى : الذى سألتُم عنه « هو » الله . ومعنى « أحد » أى : هو أحدٌ .

ويقال : « هو » مبتدأ ، « والله » خبره و« أحد » خبرٌ ثانٍ كقولهم : هذا حلوٌ حامض .

« اللهُ الصَّمَدُ » .

« الصمد » : السيِّدُ الذى يُصْمَدُ إليه فى الحوائج ، ويُقْصَدُ إليه فى المطالب . ويقال : الكاملُ فى استحقاق صفات المدح .

ويرجِّح تحقيقُ قولِ مَنْ قال : إنه الذى لا جوفَ له إلى أنه واحدٌ لا (. . .)[2] فى ذاته .

---

(١) روى الترمذى ذلك عن أبى العالية . وقيل : الآية جوابٌ لسؤال المشركين : صِفْ لنا ربَّك .. أمِنْ ذهب هو أم من نحاس أم من صُفْر ؟

(٢) مشتبهة .

« لم يَلِدْ ولم يُولَدْ » .

ليس بوالدٍ ولا مولود .

« ولم يكن لَهُ كُفواً أحد » .

تقديره . لم يكن أحدٌ كفواً له .

و« أحد » أصله وَحْد ، ووحَدٌ ، وواحد بمعنًى ، وكونه واحداً : أنه لا قسيمَ له ولا شبيهَ له ولا شريكَ له .

ويقال : السورة بعضها تفسيرٌ لبعض ؛ مَن هو الله ؟ هو الله . مَن الله ؟ الأحد ، مَن الأحد ؟ الصمد ، مَنْ الصمد ؟ الذى لم يلد ولم يولَد ، مَنُ الذى لم يلد ولم يولَد ؟ الذى لم يكن له كفواً أحد .

و يقال : كاشَفَ الأسرارَ بقوله : « هو » . وكاشَفَ الأرواحَ بقوله : « الله » وكاشَفَ القلوبَ بقوله : « أحد » . وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقى السورة .

ويقال : كاشَفَ الوالهين بقوله : « هو » ، والموحِّدين بقوله : « الله » والعارفين بقوله : « أحد » والعلماء بقوله : « الصمد » ، والعقلاء بقوله : « لم يلد ولم يولد » ... إلى آخره .

و يقال : لمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ فى الله أمَرَ نبيَّنا بأنْ يَرُدَّ عليهم فقال : « قل هوالله أحد » : أى ذُبَّ عنى ما قالوا ، فأنت أوْلى بذلك . وحينما بسطوا لسان الذمِّ فى النبيِّ صلى الله عليه وسلم تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم ، فقال : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربِّكَ بمجنون» وقال : « والنجم إذا هوى . ما ضلَّ صاحبكم وما غوى » أى أنا أذبُّ عنك ؛ فأنا أوْلى بذلك منك .

ويقال : خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله : « هو » فاستقلوا ، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال : « الله » ، ثم زاد فى البيان لمنْ نزل عنهم .

فقال : « أحدٌ » ثم لمن نزل عنهم فقال : « الصــــــمد » .

ويقال : الصَّمَدُ الذى ليس عند الخَلْقِ منه إلا الاسم والصفة

ويقال : الصمدُ الذى تقدّس عن إحاطةِ علمِ المخلوقِ به وعن إدراك بَصَرِهم له، وعن إشرافِ معارفهم عليه .

ويقال : تقدَّسَ بصمديته عن وقوف المعارف عليه .

ويقال : تَنَزَّه عن وقوف العقول عليه .

سورة الفلق

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمٌ عزيزٌ إذا تجلَّى لقلبٍ فإنْ لاطفَهُ بجماله أحياه ، وإنْ كاشفَه بجلا[له] أبادَه وأفناه ؛ فالعبدُ فى حالتى : بقاء وفناء ، ومحوٍ وإثباتٍ ، ووَجْدٍ وفَقْدٍ .

قوله جل ذكره : « قل أعوذُ بربِّ الفَلَقِ » .

أى أمتنع وأعتصم بربِّ الفَلَق . والفلقُ الصُّبحُ .

ويقال : هو الخَلْقُ كلُّهم[1] . وقيل الفَلَقُ وادٍ فى جهنم[2] .

« مِن شرِّ ما خَلَقَ » .

أى من الشرور كلِّها .

« ومِن شرِّ غاسِقٍ إذا وقَبَ » .

قيل : الليلُ إذا دَخَلَ . وفى خبرٍ . أنه صلَّى الله عليه وسلم أخذ بيد عائشة ونظَرَ إلى القمر فقال : « يا عائشة ، تعوَّذِى بالله من شرِّ هذا فإنه الغاسقُ إذا وقب[3] » .

« ومن شرِّ النَّفَّاثاتِ فى العُقَدِ » .

وهن الســـــواحر اللواتى ينفخن فى عُقَد الخَيط (عند الرُّقية) ويوهمنَ إدخا[ل] الضررِ بذلك .

---

(١) أى هو كل ما انفلق من حيوان وصبح ونوىً وحَبّ ونبات وغيره ..
(٢) تأخر وضع هذه العبارة قليلا فأثبتناه فى موضعه .
(٣) رواه الترمذى . وقال أبو عيسى : هو حديث صحيح .

« ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد » .

والحَسَدُ شرُّ الأخلاق .

وفى السورة تعليمُ استدفاع الشرور من الله . ومَنْ صَحَّ توكُّلُه على الله فهو الذى صحَّ تحقُّقُه بالله ، فإذا توكَّلَ لم يُوَفِّقْه اللهُ للتوكُّلِ إلّا والمعلومُ من حاله أنه يكفيه ما توكَّلَ به عليه ؛ وإنَّ العبدَ به حاجةٌ إلى دَفْعِ البلاء عنه — فإنْ أَخَذَ فى التحرُّز من[1] تدبيره ، حَوْله وقوَّته ، (فَهْمِه وبصيرته فى كلِّ وقت استراح من تعب تردُّدِ القلبِ فى التدبير ، وعن قريبٍ يُرَقَّى إلى حالة الرضا . . كُفِيَ مُرَادَه أم لا . وعند ذلك الملكُ الأعظم ، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستعاذة ، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا .[2]

---

(1) بعد (من) كلمة مبهمة فى الرسم أقرب ما تكون إلى (حيلته) .

(2) معنى هذا أن تمامَ التوكّل على الله أعظمُ مانع للعبد من أن يُلِمَّ به مكروه نتيجة سحرٍ أو حسَدٍ ونحوها ، فلن يصيب العبدَ إلا ما كتبه الله له .

سُورَةُ النَّاس

قوله جل ذكره : « بسم اللهِ الرحمن الرحيم »

بسم الله الذى قصرت عنه العقولُ فوقفت ، وعَجَزَت العلومُ فتحيرّت ، وتقاصَرَت للعلوفُ فخَجِلَت ، وانقطعت الفُهُومُ فدهشت .. وهو بنعت علائِه ووصفِ سنائه وبهائه وعِزِّ كبريائه يُعْلَمُ ولكنّ الإحاطةَ فى العلمِ به مُحالٌ ، ويُرى ولكنّ الإدراكَ فى وصفه مستحيلٌ ويُعْرَف ولكنّ الإشرافَ فى نعته غير صحيح .[1]

قوله جل ذكره : « قُل أعُوذُ بِربِّ النَّاسِ » .

أعتصِم بربِّ الناسِ خالقِهِم وسيِّدِهم .

« مَلِكِ النَّاسِ » .

أى مالِكِهم جميعهم .

« إلٰهِ النَّاسِ » .

القادرِ على إيجادِهم .

« مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ » .

من حديثِ النَّفْسِ بما هو كالصوتِ الخفىِّ .

ويقال : مِنْ شرِّ ذى الوسواس .

ويقال : من شرِّ الوسوسة التى تكون بين الجِنَّةِ والناس .

(١) فقد جلّت الصمدية أن يستشرف منها عالِمٌ بعلمه أو واهم بوهمه ، أو عارف بمعرفته .. وكلُّ ماهنالك هو شهود (الفعل) الإلهى لا (الذات) الإلهية .

« والخنَّاس » الذى يغيب ويخنس عن ذِكْرِ الله . وهو من أوصاف الشيطان .

« الذى يُوَسْوِسُ فى صُدورِ النَّاسِ *

مِنَ الجِنَّةِ والناس » .

قيل : « الناس » يقع لفظها على الجنِّ والإِنْسِ جميعاً — كما قال تعالى :

« وإذ صَرَفْنا إليك نفراً من الجنِّ »[1] فسمَّاهم نفراً ، وكما قال :

« يعوذُون برجالٍ من الجنِّ »[2] فسمَّاهم رجالاً . فعلى هذا استعاذ من الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس ، والشيطانُ الذى له تسلُّطٌ على الناسِ كالوسواس ؛ فللنَّفْس من قِبَلِ العبد هواجسُ ، وهواجِسُ النَّفْسِ ووساوسُ الشيطانِ يتقاربان ؛ إذ أن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة فى الدين أو إلى ارتكاب المعصية ، أو إلى الخصال الذميمة — فهو نتيجة الوساوس والهواجس .

وبالعلم يُمَيَّزُ[3] بين الإلهام وبين الخواطرِ الصحيحة وبين الوساوس[4] .

(ومما تجب معرفته)[5] أن الشيطان إذا دعا إلى محظورٍ فإنْ خالَفْتَه يَدَعْ ذلك (ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى ؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . . .[6]) غير مختلفة .

---

(1) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

(2) آية ٦ سورة الجن .

(3) فى النص كلمة مبهمة اخترنا (يميز) طبقاً لرأى القشيرى كما سيتضح من الهامش التالى .

(4) « الخاطر خطاب يَرِدُ على الضمائر ؛ وقد يكون بإلقاء الشيطان وقد يكون من أحاديث النفس أو من قِبَلِ الحق ؛ فإذا كان من المَلَكِ فهو الإلهام ، وإذا كان من قِبَلِ النفس قيل له : الهواجس ، وإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس ، وإذا كان من قِبَلِ الله — سبحانه — وإلقائه فى القلب فهو خاطرُ حقٍّ .. وإذا كان من قبل الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم .... » رسالة القشيرى ص ٤٦ و ٤٧ .

(5) هذه إضافة من جانبنا ليتماسك السياق ويتضح .

(6) مشتبهة .

خاتمة الكتاب

بعونه تعالى انتهى تحقيق كتاب « لطائف الإشارات » للإمام القشيرى فى غُرَّة رجب من عام ١٣٩٠ هـ وقد استغرق هذا العمل نحو خمس سنوات كوامل ، قطعنا فيها رحلةً أضنت الجسمَ والبصر والفكر ، ولكنها أمتعت القلبَ ، وأيقظت الروح ، وأنعشت السِّرَّ .

ولست أحبُّ — متأثرًا الصوفية — أن أحدِّث القارئَ عن مقدار ما لقيت من متاعب .. فهذا ضربٌ من دعوى النفس .. وإنما أترك ذلك للقارئ . وقبل كل شيء أضرع إلى الله — وحده — أن يحتسب هذا العمل لى ذخراً عنده ، وأن يمحوَ — إن شاء — من ديوانى بعض خطاياى .

كما أدعو الله أن ينفع به كافة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بمقدار ما له من قيمة علمية نادرة ، وبمقدار ما لصاحبه — رضى الله عنه — من قَدْرٍ جليلٍ فى تراثنا العظيم .

والواقع .. أنَّ أعظمَ ما يفعمنى بالسعادة من دواعٍ هو هذا الاستقبالُ الذى حظى به الكتاب ، فقد وصلتنى رسائل عديدة من أقطارٍ شتَّى ، ومن علماء أجلاء من نواحٍ نائية كلها تحثُّ على المسير ، وتغذِّى العزم ، وتلهم الصبرَ على إتمام هذا العمل الشاق .

ولا أحب أن أختم كلمتى قبل أن أعتذر للقارئ عما قد يكون فى الكتاب من قصور أو تقصير ، ترجع أسباب بعضه لى ، وتقع تبعته علىَّ ، ويعود بعضه إلى المطبعة — فنحن شريكان فيه كما يرجع الكثير منها إلى النُّسَّاخ ..

ولا عجب فى ذلك فالرحلة طويلة ، ودروبها متشعبة . ولكننا نعد — إذا شاء اللهُ وظهرت للكتاب طبعات أخرى — أن نتحاشى قَدْرَ الوسع كل هذه الوجوه . وأكون

سعيداً لو أشرك القرّاء أنفسهم معى فى ذلك ؛ فبعثوا إلىّ بملاحظهم ، فلم يعد الكتابُ منذ الآن قاصراً علىّ وحدى .

كما أعد — إن شاء الله — بتدارك ما جاء فى الكتاب من عيوب الشعر التى حالت الظروف القاهرة دون تداركها .

لقد كان رائدنا فى هذه المرحلة من التحقيق أن يصل للنص الموثّق للناس ، ولكننا فى المراحل التالية سننهض — بحول الله وقوته — بكثير من الأعمال التى تتصل بالشروح ، وبالمصطلحات ، وبالقضايا الأساسية التى نهض بها الكتاب . . فليس « لطائف الإشارات » بأقلّ من « الرسالة » التى حظيت باهتمام الأجيال المتعاقبة .

وأخيراً ، فإنى أتمنى أن أكون بإخراج هذا الكتاب قد وفيت بعض الدَّين الذى فى عنقى للإمام الجليل عبد الكريم القشيرى — رضى الله عنه وأرضاه .

وفقنا الله جميعاً إلى الخير .

دكتور إبراهيم بسيونى

أستاذ بكلية الألسن — الزيتون — القاهرة

الفهـرس

اسم السورة	الصفحة

اسم السورة	الصفحة

انتهى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٧٣٦ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6623 - 5

يقول الإمام القشيرى رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى: «ملك يوم الدين»: مَلَكَ قلوب العابدين إحسانه فطمعوا فى عطائه، ومَلَكَ قلوب الموحدين سلطانه فقنعوا ببقائه. عرّف أرباب التوحيد أنه مالكهم فسقط عنهم اختيارهم، علموا أن العبد لا ملك له، ومن لا ملك له لا حكم له، ومن لا حكم له لا اختيار له، فلا لهم عن طاعته إعراض، ولا على حُكْمه اعتراض، ولا في اختياره معارضة، ولا لمخالفته تعرضّ.

و «يوم الدين» يوم الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر - الحق سبحانه وتعالى يجزى كلاً بما يريد، فمن بين مقبولٍ يوم الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم، ومن بين مردود بحكمه سبحانه وتعالى لا بجرمهم.

واعلم عزيزى القارئ أن الإمام القشيرى في تفسيره للبسملة يلجأ إلى تفسير كل بسملة تتكرر على نحو مُلْفِت للنظر، إذْ هى تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه، ويزداد إعجابنا بالقشيرى كلما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلها. فالله، والرحمن ، والرحيم لها دلالات خاصة فى سورة القارعة مثلا، ولها دلالات فى سورة النساء، ولها دلالات خاصة فى سورة الأنفال...، وهكذا.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٦٠٠ قرشا